

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق



هيئة الإشراف

د. شاكر الفحام — المدير المسؤول

د. محمد خير فارس

د. نبيه عاقل

د. عبد الكريم رافق

د. أحمد بدر

محمد محفل

نـاظم كلاس — رئيس التحرير

السنة السابعة ، العددان ٢١ و ٢٢ ، اذار ـ حزيران ١٩٨٦

دراسات تاريخية

السنة السابعة

العددان ٢١ و ٢٢ ، آذار – حزيران ١٩٨٦

تنويــــه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجة نظر كاتبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيـــة

بدل الاشتراك السنوي : (لعام ١٩٨٦ ، ومجموعات السنوات ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥) .

للافــــراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية أو مايعادلها .

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او ما يعادلها
(يضـاف لبدل الاشتراك اجـور البريد الجوي أو العادي حسب رغبـة المشترك) .

البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد الجوي) .

- **يتم تسديد بدل الاشتراك بشيك مصرفي لامر : جامعة دمشق ـ لجنة كتابـة تاريخ العرب .**

- **أو لتحويل القيمة الى حساب جـامعة دمشـق المفتوح في مصرف سوريـة المركزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .**

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

دراسات تاريخية
١٩٨٦/ ١ ـ ٢
٢١ ـ ٢٢

الندوة الثانية

حول مشروع كتابة تاريخ العرب

١٢ ــ ١٤ تشرين الاول ١٩٨٥

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد قطعت شوطا اساسيا في انجاز الخطوط الرئيسية لهذا المشروع على صعيد الاعداد الفكري الاولي ، رأت انه من النافع عقد ندوة في رحاب جامعة دمشق من اجل عرض ما تم انجازه حتى الان ، ولتدارس تفصيلات الخطوات التنفيذية الضرورية كي ينتقل مشروع كتابة تاريخ العرب الى حيز التحقيق .

عقدت الندوة في مكتبة الاسد تحت رعاية السيد الدكتور كمال شرف وزير التعليم العالي ، وافتتحها السيد الدكتور محمد حرب فرزات بكلمة رحب فيها بالحضور ، وذكر بأن انعقاد الندوة الثانية هذه بعد مرور سنوات على انعقاد الندوة الاولى تأكيد على استمرار المسيرة نحو الهدف المنشود ، وهو كتابة تاريخ العرب برؤية عربية واقلام عربية ليخرج الى النور موسوعة عربية كاملة تتيح للاجيال الناشئة وعي تاريخ امتهم على حقيقته وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها الذي تصبو اليه ، تكون اسهاما متواضعا في التهيئة للوحدة العربية التي عمل من اجلها المناضلون وضحى الشهداء .

والقى السيد الدكتور عادل العوا عضو لجنة كتابة تاريخ العرب كلمة اللجنة ، فاشار الى الاطار العلمي الذي يطرح فيه مشروع كتابة تاريخ العرب والمراحل التي اجتازها منذ ان كان فكرة . وبعد ان تحدث عن التاريخ عامة وأهميته وتنوع وجهات النظر في فهمه وتقويمه ، تطرق الى الغرض من كتابة تاريخ العرب وبين انها تأتي تلبية لحاجة عصرية ملحفة تستهدف المعرفة للمعرفة من جهة ، ومن جهة اخرى وفي الوقت ذاته العمل بوعي واختيار ومسؤولية ، وهو هدف يشترك فيه ابناء الامة جميعا ويستجيب لتحديات ذاتية تتطلع الى تحرير الارادة القومية المبدعة ، ودعوة انسانية للاسهام في صنع تاريخ البشر القريب ، وربما البعيد ايضا . واشار الدكتور العوا في ختام كلمته الى النقاط الرئيسية في جدول اعمال الندوة ، وهي لا تخرج عن مسعى كتابة تاريخ عربي يتسم بانه قومي وحضاري وانساني.

ثم القى السيد الدكتـور محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشـق رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب ممثل راعي الندوة كلمة ذكر فيها بما اجتمعت عليه الآراءحول ما كتب في التاريخ العربي ، وانه لايمكن ان يعد تاريخا متكاملا لامة تشغل رقعة مـن الارض تمتد من المحيط الى الخليج ، اسهمت في اثراء الحضارة الانسانية بعطاء غير محدود ، وكانت في جميع مراحل تاريخها منفتحة على كل ما هو خير . وقال الدكتور الشويكي ان عودتنا الى تاريخنا القومي يجب ان تكون عودة صادقة اصيلة ، تسـير بهدي العقل وتعتمد على فهم وادراك صادقين لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنـا ، ليكون الوعي التاريخي مصدر قوة وعامل نماء وتقدم وخلق وابداع..

ووجه الخطباء التحية والاجلال للقائـد المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية، راعي العلم والثقافة باني نهضة سورية المعاصرة ، التي تنعقد هذه الندوة في معلم بارز من معالمها في عهده ، مكتبة الاسد ، الصرح الثقافي الضخم الذي طال انتظارها لـه ، كغيره من الانجازات التي تمت في هذا العهد الميمون .

وبعد استراحة قصيرة انعقدت الجلسة العامة الاولى بحضور خمسة واربعين باحثا من القطر العربي السوري واقطار عربية ، وممثلي بعض مراكز البحث التاريخي، وطرحت فيها بعض قضايا تتناول صلب المشروع ، منها انه مشروع قومي يتوجـه للافادة من امكانات المؤرخين والباحثين العرب في كل مكان ، ومـدى توافـر الكفاءات اللازمة له ، وتهيئـة الاسباب الكفيلة بمشاركة الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والعلماء والباحثين العرب مشاركة فعالة في تنفيذه.. ومنها وجود اكثر من جهة طرحت وتطرح الفكرة كل من زاويتها الخاصة ودونما اية محاولة للتعاون والتنسيق فيمـا بينها ، مع عدم وجود مدرسة تاريخية عربية واحـدة او وحدة في التوجه ، ومنهـا ضرورة اللقاءات والاتصالات المباشرة بين المؤسسات العلمية والاكاديميةالعربية والعلماء والمؤرخين العرب ،واهمية التواصل الدائم المستمر واثره في توحيد الرؤية وتعبئـة الطاقات ، والنشاط الاعلامي واهميته بالنسبة لمثل هذه المشروعات الكبيرة . . وقد اتفقت الاراء على ان العمل في هذا المشروع المهم عمل دائم وليس آنياً ، وهـو بالتالي عمل مؤسسة دائمة ذات امكانات علمية وادارية ومادية كبيرة .

واستؤنفت الجلسة العامة في الساعة السادسة مساء ، وتركز النقاش فيها حول وضع تصور لخطة العمل ، مع النظر بعين الاعتبار الى القضايا التي طرحت فيالجلسة الصباحية وتقدير اهميتها وابعادها .

دار النقاش حول احداث « هيئة عربية » تتولى الاشراف على سـير العمـل ومتابعته وتحديد صلاحياتها ووسائلها ، وحول المسؤولية العلميه وتوحيدها في جهة واحدة او تعددها بتعدد فترات التاريخ العربي، والمسؤولية الادارية ومركزيتها وتوفير مستلزماتها البشرية والمادية ، وحول حصر الكفاءات العلمية العربية وكيفية تامـين

التواصل معها ، وعقد الندوات العلمية والتنظيمية وتحديد موضوعات عملها ، والامور المالية ... وتناولت المناقشات كيفية تنظيمعمليات التاليف والمراجعة والتقويم والتحرير والتنسيق ... وتحديد مسؤولياتها ، والافادة من النشاط الاكاديمي في الجامعاتالتي تتبنى الفكرة ، كما تناولت الدور الذي يمكن ان تقوم به مجلة « دراسات تاريخية » في هذه المرحلة .

وقد بينت المناقشات ان الاتفاق قائم على اهداف المشروع ومنطلقاته ومبادىء العمل فيه ، وان تعددت الاراء في اسلوب العمل وتفصيلاته ، والظـروف والامكانات التي يجب ان تهيأ له . و كان التوجه العام يميل الى الجمع بين أمرين : وضع خطـة العمل وتكوين الاطر اللازمة للمباشرة بالتنفيذ ، والعمل في الوقت نفسه على تهيئـة الظروف والمستلزمات الضرورية ، وسد الثغرات التي ابرزتها المناقشات .

وفي اليوم الثاني اجتمعت اللجان المتخصصة (لجنة التاريخ القديم ، لجنةالتاريخ الاسلامي والوسيط ، لجنة التاريخ الحديث والمعاصر) كل على حدة لدراسة مايخص كلا منها من المشروع ووضع توصياتها بشأنه .

توصيـات النـــدوة

وفي الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين في ١٤/١٠/١٩٨٥ ، عقدت الجلســة العامة الختامية وانتهت الى اقرار التوصيات التالية :

أولا : في تشكيل الاطر العلمية والادارية .

١ ــ تشكيل لجنة اشراف متخصصة لكل فترة من فترات التاريخ العربي . يكون أحد اعضائها مسؤولا عن متابعة سير العمل .

٢ ــ تشكيل هيئة اشراف عربية عدد اعضائها من ستة الى ثمانية ، مهمتها الاشراف على سير العمل ومتابعته حتى يخرج الى حيز الوجود .

٣ ــ تتألف هيئة الاشراف من اعضاء لجان الاشراف المتخصصة ، بالاضافـة الى عضوين أو اكثر من ذوي المكانة العلمية ، ويراعى في اختيار اعضائها التمثيـل الجغرافي .

٤ ــ يكون لكل لجنة اشراف متخصصة مقرر يشارك في اعمال هيئة الاشراف .

٥ ــ تتألف من مقرري هيئة الاشراف واللجان المتخصصة لجنة ادارية مسؤولة .

٦ ــ يراعي في اختيار المقررين ان يكونوا من المقيمين في دمشق ، مقر المشروع .

٧ ـ احداث امانة دائمة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق تتولى الاجراءات الادارية والتنفيذية ، وتوفير الامكانات اللازمة لها .

٨ ـ توصي الندوة بالعمل على احداث هيئة علمية ذات استقلال اداري ومالي ،تتولى مسؤولية المشروع كاملة .

ثانيا : في اسلوب العمل .

١ ـ توثيق الصلات مع اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي والتعاون معها ، والتواصل الدائم مع المؤرخين والباحثين العرب . ويتم ذلك بتحرك مدروس وبوساطة شخصيات علمية معروفة ، وعن طريق الندوات الدورية ، وتسمية ممثلي ارتباط في الجامعات والمؤسسات العلمية .

٢ ـ اعطاء قدر أكبر من الاهتمام للنشاط الاعلامي .

٣ ـ السعي للتنسيق مع مؤسسات اخرى ، في الاردن والكويت والمغرب العربي .. وغيرها ، والافادة من تجاربها في هذا المضمار .

٤ ـ العمل على اعداد ببلوغرافيا تاريخية عربية .

٥ ـ اجراء حصر كامل للباحثين العرب وتخصصاتهم الدقيقة ، تمهيدا للاتصال بمن تراه اللجان المختصة منهم .

٦ ـ العمل على الافادة من النشاط الاكاديمي في الجامعات التي تتبنى الفكرة ،كتوجيه مهمات البحث العلمي لتتسق مع مشروع كتابة تاريخ العرب، واختيار موضوعات الرسائل التي تعد لنيل الشهادات بشكل يساعد على ملء الفجوات في ميدان التاريخ العربي .

٧ ـ اعداد ملفات تدور حول محاور معينة، تنشر في مجلة « دراسات تاريخية » وتطرح المناقشة والتقويم .

٨ ـ تكليف باحثين بكتابة موضوعات محددة خلال فترة معينة، وعقد ندوات متخصصة لدراسة البحوث المكتوبة وتقويمها ، والاحتفاظ بالجيد منها ليكون رصيدا للمشروع ، ونشر بعضها في مجلة « دراسات تاريخية » .

٩ ـ حصر مسؤولية التنسيق باللجنة الادارية .

١٠ـ تتولى عملية التحرير النهائي هيئة محررين من ذوي الخبرة (من ثلاثة محررين او أكثر)

١١ـ يراعي في تقدير المكافآت المالية للمؤلفين والمراجعين والمحررين .. الخ ، مادرجت عليه المؤسسات والمنظمات المشابهة بالنسبة لامثالهم .

١٢ـ صرف نصف المكافآت المقررة عند التكليف ، والنصف الاخر عند انجاز العمل.

١٣ـ رفع التوصيات الى الجهات المسؤولة .

بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب

اصدر اتحاد المؤرخين العرب بيانا يفضح اساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الامة العربية ، ويدعو المؤرخين والمثقفين العرب بعامة ، في الوطن العربي وخارجه، للوقوف في وجه الهجمة الوحشية الصهيونية الحاقدة على الامة العربية وتاريخها وتراثها ، والتي تخطط باستمرار لهدم الوجود العربي والذات العربية وتجعل من الانسان العربي متشككا في امجاد امته وحضارتها الانسانية التليدة .

جاء في البيان :

لم تعد مواجهة الكيان الصهيوني للامة العربية مقتصرة على التحدي العسكري وحده ، وانما اتجه هذا العدو الى استغلال الفكر العربي ، والنيل منه ، ومحاولة تسخير مايصدر في هذا الكيان من مؤلفات باللغة العربية ، وخاصة الموضوعات التاريخية لخدمة اهدافه ، هذه الاهداف التي تصب في مجرى معروف هو الحقد على العرب وعلى تاريخهم وقيمهم من أجل طمس ما قدمته الحضارة العربية لحركة الانسان على الارض من معطيات في الماضي وتعطيل كل دور حضاري يمكن أن يقوم به العرب في الوقت الحاضر .

ومن هنا تقع على عاتق المؤرخين العرب مسؤولية الانتباه لما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموما، والتاريخ خصوصا ، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة ، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة وافكار مريضة تبثها دور النشر الصهيونية لضرب الفكر العربي في الصميم .

ان الكيان الصهيوني يعني عناية كبيرة بالدراسات المتعلقة بالوطن العربي والعالم الاسلامي ، وقد اخذت الجامعات الصهيونية على عاتقها توجيه البحوث والدراسات نحو قضايا تباشر التاريخ العربي والاسلامي في كثير من ابوابه ومنافذه ، وهي في سبيل تحقيق هذه الغاية راحت تتابع بشكل دقيق كل ما يصدر عن الوطن العربي من مؤلفات وبحوث ودراسات وتجميعها وتحليلها ، لتعطيل كل ما فيها من معطيات تخدم الحقيقة التي يعززها التاريخ وتسندها الحقائق ، وذلك بطرح اراء ودعاوى باطلة من لدن الكتاب والباحثين اليهود ، تفسد الاوجه المشرقة في التفكير العربي قديما وحديثا .

ان الاعمال اليهودية التي تنشر في الوطن الفلسطيني المحتل تحتاج من المؤرخين العرب وقفة جدية لتجميعها ودراستها وتحليلها خدمة لمرحلة الحسم القادمة مثلما يفعل الكيان الصهيوني نفسه .

ومن اجل ذلك ترى الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ان الضرورة الواقعية والحضارية للامة العربية تقتضي ضرورة العناية القصوى من لدن اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب ، بالنتاج الفكري وخاصة التاريخي اليهودي المنشور في الارض المحتلة ، او عن مؤرخين يهود مكتسبين جنسيتها، وينشرون اعمالهم في دول غربية ، فتسعى بكل حرص الى الوصول الى كل ما يصدر منه ، ومن ثم احالته الى اتحاد المؤرخين لدراسته من قبل متخصصين الدراسات الاسرائيلية للوقوف على ما فيه من افكار تزيف الحقائق وتشوه الوقائع . وما هذا العمل الا تأكيد الاهتمام بالقضية المصيرية للامة العربية التي نرى ان من مصلحتها فهم العقلية الصهيونية وسبلها في معالجة القضايا والاحداث التي مرت وتمر بها المنطقة العربية اليوم .

ويختتم البيان :

واننا اذ نوجه الدعوة للمؤرخين العرب كافة فانما ندعوهم الى ان يكونوا يدا واحدة من اجل الوقوف امام الزحف الاستعماري الثقافي الخطير .

وما النصر الا من عند الله **((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون))**.

صدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في غرة جمادى الاخر من عام ١٤٠٦هـ ، الموافق اليوم الرابع عشر شهر شباط ١٩٨٦.

د. مصطفى عبدالقادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

النِّظَامُ المَالي
فِي عَهدِ الخلفاءِ الرّاشِدين

د. محمّد ضيف الله بطاينة
جامعة اليرموك

انطلقت حركة الفتوح في خلافة ابي بكر نحو العراق والشام ، وحقق المسلمون في هذا الوجه نجاحا أوليا اسفر عن عقد معاهدات صلح مع بعض المدن والقرى في هذه البلاد ، فصالحت الحيرة عام ١٢ هـ على سبعين الف درهم ، وقيل مائة الف درهم(١)، وقيل الف درهم ورحل(٢) ، وحمل الخمس من ذلك الى المدينة فكان أول مال يحمل الى المدينة من العراق(٣) . وصالحت من العام نفسه الّيس على الف دينار(٤) ، وبانقيا على الف درهم وطيلسان(٥) ، واهل نهر المرأة في الابلة على اثني عشر الف درهم(٦) ، واهل الانبار وعين التمر على شيء عليهم(٧) ، وصالحت بصرى الشام ، وبعث خالد بالاخماس الى ابي بكر ، وكانت أول مدينة فتحت بالشام(٨) .

ثم جاءت الفتوح العظيمة بعد وفاة ابي بكر في خلافة عمر بن الخطاب ، ففتحت بلاد الشام والعراق ، وجاوزتها الى البلاد الواقعة الى شرق العراق وشماله وجنوبه، وفتحت مصر ، وبلغت في خلافة عثمان بلاد سجستان وخراسان من الشرق ، وارمينية واذربيجان من الشمال ، وبلاد افريقية من الغرب .

والذي نلاحظه بخصوص البلاد المفتوحة ، ان المصادر التاريخية والفقهية تصنفها عند الحديث عنها ، الى بلاد فتحت عنوة ، وبلاد فتحت صلحا ، والتمييز الذي يتضمنه هذا التصنيف ، ان البلاد التي فتحت عنوة ، وضعت عليها ضريبة مالية على

الرؤوس (جزية) ، وضريبة مالية على الارض (خراج)(٩) ، ويكون بمقدور ولاة امر المسلمين أن يعدّلوا ، بلا حرج ، وضع هذه الضرائب المالية وفق المعطيات المتجددة . اما البلاد التي فتحت صلحا فان العلاقة المالية بينها وبين المسلمين محـــدودة بالعهود والعقود ، وثابتة في الغالب ، وتتمثل عادة بضريبة مالية اجمالية واحدة .

ومعرفة البلاد التي فتحت عنوة ، والبـلاد التي فتحت صلحا أمـــر غير متيسر تماما(١٠) ، فالاختلاف بين الروايات حول ما فتح عنوة ، وما فتح صلحا قائم ، فالبلد الفلاني في رواية فتح صلحا ، وفي رواية ثانيـــة فتح عنـــوة ، واحيانا فتح عنـــوة أو صلحا(١١) . ولعل فتح البلد غير مرة ، والاختلاف في مقدار الضرائبه وانواعها في البلاد المفتوحة من العوامل المسؤولة عن ذلك . قيل فتحت بلاد الشام عنوة دون مدنها التي فتحت صلحـــا(١٢) ، وفتح الســـواد في العراق عنـــوة(١٣) ، باستثناء قريات فتحت صلحا(١٤) ، وحدّ السواد في العراق طولا من تخوم الموصل مادا مع الماء الى ساحـــل البحر ببلاد عبادان من شرق دجلة ، وحده عرضا من منقطع الجبل من ارض حلـــوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب(١٥) .

وفتحت الاهواز وفارس واصبهان وافريقية عنوة(١٦)، وصالحت الريّ ،وكرمان، وسجستان ، وخراسان ، وانطابلس وطرابلس وهما من بلاد ليبيا اليوم(١٧) . وقيـــل فتحت مصر صلحا ، وقيل فتحت عنوة ، وقيل فتحت صلحا عـــدا الاسكندرية(١٨) ، وفتحت الجزيرة صلحا وقيل فتحت عنوة(١٩) .

وبعد ان اطمأن المسلمون في الشـــام والعراق وبخاصة بعد معركة اليرمـــوك التي جرت على أرض الشام عام ١٥ هـ ، ومعركة القادسية التي تلتها مباشـــرة على أرض العراق ، أثيرت قضية الارض في هذه البلاد المفتوحة ، ويبدو من المناقشات التي دارت بين الصحابة بشأن هذه القضيـــة ، ان قســـمة الارضين بين الجند الغانمين نحو ما كان يصنع من قبل بغنائم الحروب السابقـــة ، كان مما يظنه عامـــة المسلمين(٢٠)، ولكن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة(٢١) لم يروا هذا الراي ، وابقوا الارض بيـــد من كان يعملها على خراج يؤدونه عنها .

أثار موقف عمر بن الخطاب من الارض المغنومة ، وعـــدم توزيعها بين الغانمين اهتمام الباحثين من مؤرخين وفقهاء ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من رأى استئنانا بفعل عمر بن الخطاب ، أن لولي الامر الخيرة في ذلك ، ان شاء قسم الارض، وان شاء حبسها على المسلمين عامة ولم يقسمها(٢٢) ، ومنهم من رأىان عمر بن الخطاب عندما وقف الارض المغنومة ولم يقسمها بين الغانمين انما استطاب نفوسهم على نحـــو

ما استطاب الرسول (ص) نفوس من صار في ايديهم سبي هوازن بحنين ، وعلى نحو ما استطاب عمر بن الخطاب نفس جرير بن عبد الله البجلي واعطاه ثمانين دينارا عوضا عن حقه في ارض السواد (٢٣) .

وقد يكون للاوضاع العامة في هذه المرحلة المبكرة من الفتوح اثر في اتخاذ هذا القرار لتأليف أهل البلاد المفتوحة ، وقطع مظاهرتهم للاعداء من الفرس والبيزنطيين ، واعمار الارض(٢٤) ، هذا الى ما كان من الحرص على ضرورة بقاء المسلمين امة مجاهدة ، وخوف الفتنة بينهم لو قسمت الارض (٢٥)، ولما هم عليه من ضعف الخبرة بامور الزراعة وقلة العدد بالنسبة لاهل البلاد المفتوحة(٢٦) ، واحتج عمر بن الخطاب لموقفه بقوله تعالى : « وما افاء الله على رسوله منهم ... الى قوله تعالى ... والذين جاءوا من بعدهم »(٢٧) ، وهداه فهمه لهذه الايات الى ان جعل للمسلمين وحتى يوم القيامة حقا في هذه الارض(٢٨) .

ومهما تنوعت الاقوال والآراء بشأن موقف عمر بن الخطاب ، فان القرار وفّق الى ايجاد مورد مالي ثابت يصرف منه على الجند ، ويدفع منه العطاء والارزاق، وينفق منه على ادارة مصالح الدولة ، ويعطى منه المحتاجون على الدوام(٢٩) . وصار هذا الحل منهجا عاما اتبعه ولاة الامر في معاملة الارضين التي فتحت عنوة من بعد .

وضع الضرائب وتقديرها في البلاد المفتوحة :

يلاحظ المتتبع لحركة الفتوحات في هذه البلاد ان المسلمين كانوا في المرحلة المبكرة من الفتح يأخذون من اهل البلاد مؤونة عينا رزقا لهم ، ومقدارا من المال نقدا. والروايات في موضوع الاموال النقد التي كان يأخذها المسلمون على جانب من المبالغة كبير ، واضرب على ذلك مثالين اولهما : لما جاء رسول عتبة بن غزوان من منطقة البصرة الى عمر بن الخطاب في المدينة ، اكبّ الناس عليه يسألونه عن المسلمين هناك فقال :ان المسلمين يهيلون بها الذهب والفضة هيلا(٣٠) ، وكان مقدار ما اصابه المسلمون في الابلة التي قيل ان المسلمين اصابوا فيها الذهب والفضة ، ستمائة درهم ، فأخذ كل رجل درهمين(٣١) . وثانيهما : نذكر مدينة حمص مثالا من بين مدن الشام ، قيل انها صالحت على مائة الف وسبعين الف دينار (٣٢) ، ولكن لما قدم عمر بن الخطاب الجابية دفع امراء الاجناد اليه ما اجتمع عندهم من الاموال ، فقسم عمر بين الغانمين حظهم منها ، فنال الرجل منهم نصف دينار ان كان اعزبا ، وان كانت معه امرأته ناله دينار(٣٣) ، هذا ولا يتجاوز عدد المسلمين في جبهة الشام آنذاك الثلاثين الفا اعتمادا

على الروايات التي تذكر عدد المسلمين الذين وجهوا في الجيوش والامدادات الى بلاد الشـام .

ولما استقر المسلمون في هذه البلاد ، صار تنظيم الحقوق والواجبات الماليـة المترتبة على هذه البلاد حاجة لازمة وضرورة قائمة . وبخصوص الواجبات الماليـة التي وضعت على البلاد المفتوحة ، يذكر يوليوس فلهوزن ان المسلمين وضعوا اتـاوة واحـدة اجمالية لا اكثر في البلاد التي فتحت عنوة والبلاد التي فتحت صلحا ، ولـم يكن يهمهم سوى حمل هذه الاتاوة الى بيت المال(٣٤) ، غير ان الاتـاوة في البـلاد التي فتحت صلحا ، قدرت بحسب الشروط التي نص عليهافي كتاب الصلح ولا يجوزتغييرها على الهوى(٣٥) ، ويرفض فلهوزن وجود ضريبتين منفصلتين في هذه البلاد اسمهمـا « جزية وخراج »(٣٦) طيلة القرن الهجري الاول ، ويرى ان لفظي « جزية وخـراج » ظلا مترادفين لاكثر من قرن ، ويطلقان بنفس المعنى على الاتاوة التي فرضها العرب على البلاد المفتوحة ، ولم يكن لهما مدلول ضرائب حقيقية حتى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري عندما اتخذ كل من لفظي خراج وجزية لاول مـرة معنى محـددا من معاني الضرائب الحقيقية : جزية بمعنى ضريبة الرأس وخراج بمعنى ضريبة الارض ، وكان ذلك في عام ١٢١هـ ، عندما اصدر نصر بن سيار والي خراسان قرارا يقضي بان يؤدي الناس جميعا ضريبة الارض (الخراج) ويؤدي غير المسلمين ضريبة الرأس (الجزية) . واتهم فلهوزن لذلك الفقهاء والمؤرخين المسلمين الذين لم تطاوع اقوالهم ما ذهب اليه، اتهمهم بنسبة نظم عصرهم الى ايام الرسول (ص) والخلفاء الراشـدين حتى يحيطوها بجو من التبجيل والاحترام(٣٧) ، وأيده في ذلك بكر وكايتاني . ويقول كايتاني بخصوص ذلك : انه نظام (نظام الاسلام ونظام الاقتصاد منــه) مثالي ، ولد ونشأ في معظمه خارج الحياة الواقعية ، وكان خلقا صنعته الدراسة والمدارس الفقهية ، ولا يتفـق الا قليلا مع النظم التي كان الناس يسيرون عليها بالفعل في الحياة اليوميــة للجماعـة الاسلامية، ويتهم الفقهاء بأنهم زيفوا ما جاء عن اصول النظـم الاولى ، وحاولـوا ان يثبتوا ان الدولة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الأول كانت الامور تجري فيها دائما بالشكل الذي تصوروه وارادوه(٣٨) .

ولكن دينيل دينيت أنكر عليهم ذلك ، وقال لدينا نصوص قاطعة صريحة شديدة الوضوح ، تقول ان المسلمين قرروا شيئا بعينه في مصر ، وشيئا آخر في سوريـة ، وشيئا ثالثا في العراق ، وشيئا يختلف عن هذا كله في خراسان(٣٩) . وان لفظي «جزية وخراج » ليسا مترادفين على الاطلاق ، وان لكل من اللفظين معنى عاما ومعنى خاصا ، اما المعني العام فلا يعدو ما تفيده كلمة ضريبة بشكل عام دون تحديد او تخصيص ، فاذا استعمل اللفظ بهذا المعنى العام وقصد به ضريبة بعينها ، فان مايليه من عبارة

هو الذي يحدد أي ضريبة قصدها صاحب النص الذي بين ايدينا ، وبذلك فان جزية على الرأس تعني ضريبة على الراس ، وان جزية على الارض تعني ضريبة الارض . وقل الشيء نفسه مع كلمة « خـراج » ، فالى جانب المعنى العـام ، كان لكل مـن الجزية والخراج معنى خاص ، فالجزية كانت تعني ضريبة الرأس ، والخراج كان يعني ضريبة الارض(٤٠) . وتمكن دينيـل دينيت بهذا الفهم للفظي « جزيـة وخراج » من تذليل الصعوبات التي تعترض القارىء لدى مطالعته للروايات التاريخية التي تدور حـول موضوع الجزية والخراج ، وتقديم صورة متماسكة لاتبعد أقـوال الفقهاء فيها عـن واقع الحياة العملية للمجتمع الاسلامي .

وسنتناول موضوع تنظيم الضرائب في كل بلد على انفراد :

في العــراق :

احتاج المسلمون بعد فتح العراق الى تنظيم امور المال فيه ، وجباية الامـوال الموظفة عليه بطريقة ميسورة ، ذكر ابو هلال العسكري رواية عن المدائني ، وعن غيره برواية جمعية قال : لما ظهر المسلمون على السواد وفارس لم يعلمـوا كيف يصنعون بالخراج وجباية أهل الذمة ، وكان سعد يستعمل العامل على طسوج (الناحيـة) ، فيأتيه بما يجد ولا يدري كيف يعمل(٤١) ، فلما زال الخطر الفارسي وبخاصة بعـد معركة نهاوند التي جرت عام ٢١ هـ ، وتوطدت اركان الحكم الاسلامي في العراق ، تيسر لعمر بن الخطاب ان يقوم بتنظيم امور السواد(٤٢) ، فكتب الى عثمان بن حنيف، وحذيفة بن اليمان اللذان كان جعلهما على سواد العراق ، ان يبعثـا اليه بنفر مـن الدهاقين ، فلما حضروا ، سألهـم عمر عما كانت ملوك الفرسـ تستعمله في جبايـة الخراج(٤٣) .

وكان ملوك فارس قبل انو شروان يقاسمون الناس على ثمارهم وغلاتهـم على النصف والثلث والربع والخمس الى العشر على قدر قرب الضياع من المـدن ، فأعاد قباذ بن فيروز النظر في ذلك ، وأمر بمساحة الارض وعدد النخل والشجر واحصـاء الجماجم لوضع تقدير للضرائب جديد ، ومات قبل ان يتم العمل، فاستتمه انوشروان، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والارز على كل نوع من هذه الانواع شيئا معلوما ، ووضع الجزية على الناس ضمن اربع فئات هي: ١٢ درهما ، ٨ دراهم ، ٦ دراهم ، ٤ دراهم ، واسقطها عن أهل البيوتات ، والمرازبة، والاساورة ، والكتّاب ، ومن كان في خدمة الملك ، ومن لم يأت له عشرون سنة ، او جاوز الخمسين سنة ، ومن كان فقيرا او زمنا ، وامر ان يجبى ذلك في ثلاثة انجم من

السنة(٤٤) . فانتفع عمر من هذا الذي كان فعلــه الا كاســرة(٤٥) ، ومسـح الســواد واستثنى من المساحة كل تل وأجمة ، ومستنقع ماء ، وما لايبلغه الماء(٤٦) ، فبلغت المساحة ستة وثلاثين الف الف جريب (الجريب يعادل ٢٤٠٠ م٢) ، فوضع على كل جريب عامر او غامر يناله الماء ويطاق زرعه درهما وقفيــزا من حنطــة او قفيزا من شعير(٤٧) ، واعفيت المساكن والدور من الخراج ولم يجعل عليها شيئا(٤٨) .

ويبدو أن تعديلا طرأ على التقدير الاول للخراج بعد عام ٢٢هـ(٤٩) ، اتخذ نــوع المحصول اساسافي التقدير مراعاة للاختلاف بين الغلات والتفاضل بينهافي القيمة(٥٠)، فوضع على جريب الكرم عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب البر اربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر درهما ، هذا الى غلات أخرى ، واختلافات في المقادير التي فرضت خراجا على هذه الغلات(٥١) ، اختلافات ترجع في الغالب الى التباين في الخصوبة بين المناطق المختلفة من أرض السواد ، والتمايز بين ثمار وغلات النوع الواحد من المحصول ، وقرب الارضين والضياع من الاســواق وبعدها (٥٢) . وظــل اتخــاذ الغلات اساسا لتقدير الخراج على الارض الى زمان علي بن ابي طالب ، اذ امر عامله على بعض الرساتيق والقرى التي يسقيها الفرات ، ان يضع على كل جريب زرع قمحا زراعة كثيفة درهما ونصفا وصاعا من طعام ، وعلى كل جريب وسط درهما ، وعــلى كل جريب رقيق الزرع ثلثي درهم ، وعلى الشعير نصف ذلك ، وعلى الجريب مــن بساتين النخل والشجر عشرة دراهم ، وعلى جريب الكرم اذا اتت عليه ثــلاث سنين ودخل في الرابعة واطعم عشرة دراهم ، واعفى كل نخل شاذ عن القرى يأكله من مر به، واعفى الخضروات مثل المقاثي(٥٣) .

واستثني من السواد ولم يعامل معاملة الخراج ، كل ارض كانت للاسرة الحاكمة (كسرى وآل بيته) ، وارض من قتل في الحرب او هرب ، وارض المعابد ، وكل مغيض ماء (المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء) ، فصيرت صوافي(٥٤) تعود ملكيتها للدولة، وترك أمر استغلالها الى نظر الخليفة يديرها بما هو انفع للمسلمين وبيت مالهم .وكان من يستغلها يؤدي ضريبة عنها خراجا ان كان ذمة ، او عشرا ان كان مسلما(٥٥) ، وقيل بلغت غلتها في خلافة عمر بن الخطاب سبعة الاف الف درهم(٥٦) .

كما استثني من معاملة السواد اراضي البلاد التي صالحت ، كالحيرة وبعض قرى الفرات ، وهي قليلة نسبيا ، وتركت يملكها اصحابهــا ، ويؤدون ما صولحــوا عليــه (٥٧) .

اما بالنسبة للناس في السواد ، فقد تجاذبتهم في البقاء فيه ، او الجلاء عنه ، احوال الحرب بين المسلمين والفرس من المد والجزر والامان على النفوس وغيرها ، ويذكر أن المسلمين دعوا من جلا من أهل السواد الى الاسلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة ، فتراجعوا على الجزاء والمنعة ، ولم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا أمن واغتبط بملك الاسلام ، وصار لهم عهد(٥٨) ، واحصوا وختموا في رقابهم ، وهو عمل يشبه اصدار الوثائق الشخصية(٥٩) (الهويات وجوازات السفر وامثالها اليوم) وبلغ من ختم عثمان بن حنيف خمسة مائة الف وخمسين الفا(٦٠) ، واخذوا بالجزية ، واسقطت عن النساء والصبيان(٦١) .

وبخصوص الجزية ، قيل ان عمر بن الخطاب أخذ أهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصة والاموال(٦٢) ، ففرض على كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما(٦٣) ، وقيل أخذ من كل رجل منهم اربعة دراهم في الشهر أي ما يساوي ثمانية واربعين درهما في السنة(٦٤) . والاختلاف في هذه الروايات وامثالها قد يكون اشارة الى احوال التنظيم الذي خضع له تقدير الجزية ، ويبدو أن سلم تقدير الجزية انتهى الى اتخاذ درجات ثلاث هي :

أهل اليسار ، ويدفع كل رجل منهم ثمانية واربعين درهما ، ومتوسطو الحال، ويدفع كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما ، ويدفع كل رجل كان من دون هذين الصنفين اثني عشر درهما(٦٥) . وروي عن علي بن ابي طالب انه أمر في خلافته ان يؤخذ من أهل الذمة من كل رجل من الدهاقين الذين يركبون البراذين ، ويتختمون بالذهب ثمانية واربعين درهما ، ومن اوسطهم من التجار من كل رجل أربعة وعشرين درهما في السنة ، ومن الاكرة (الفلاحين) وسائر من بقي منهم من كل رجل اثني عشر درهما(٦٦) ، مما يشير الى سريان مفعول هذا التصنيف زمان الخلافة الراشدة .

واشتملت العهود التي اعطيت لهم ، اضافة الى الجزية ، على تقديم بعض الخدمات كاصلاح الطرق ، والجسور ، والقناطر ، وارشاد الضال من المسلمين المسافرين ، والضيافة لابن السبيل منهم يوما وليلة ، لا يتعدى ما عندهم من طعام أو علف ، واذا حبسه مطر او مرض انفق من ماله(٦٧) .

وأوكلت مهام جباية الاموال في السواد الى موظفين ، كان الخليفة يعينهم في كل من الكوفة والبصرة ، اطلق عليهم عمال الخراج(٦٨) . وكان هؤلاء الموظفون ، وهم مسلمون ، يستعينون في اداء وظيفتهم بـ « الدهاقين » الذين كانوا يقومون بوظيفة الجباية زمان الاكاسرة . وكان عمال الخراج يتركون ما على أهل القرية من الاموال للدهقان ليقوم الدهقان بجبايتها وتسليمها لهم(٦٩) .

بلغت الجباية السنوية للسواد في خلافة عمر بن الخطاب ثمانين مليون درهم ، ثم ارتفعت الى مائة مليون درهم(٧٠) ، وقيل اكثر ، وبلغت في خلافة عثمان بن عفان مثل ذلك(٧١) . والاختلافات في مقادير الجباية ، يشير الىاحوال تنظيم الجبايةوالزيادة في الزراعة(٧٢) . ومما يجدر ذكره ان هذه الارقام المذكورة كانت تمثل مجموع الاموال النقد وقيمة الاموال العينية ، فقد مر سابقا ان الضرائب المفروضة على الارضين كانت نقدا وعينا ، وروي عن عمر بن الخطاب ، انه كان ياخذ في الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة مايجبعليهم ، وكذلك كان علي بن ابي طالب يفعل ، فكان يأخـذ الجزية من اصحاب الابر الابر ، ومن اصحاب المسال المسال ، ومن اصحاب الحبال الحبال(٧٣) .

الشـام :

يلاحظ ان المسلمين كانوا يأخذون في المرحلة الاولى من فتح الشام اموالا نقـدا وعينا رزقا لهم . ويظهر هذا في صلح بصرى الشام التي صالح اهلها خالـد بن الوليد على ان يؤدوا عن كل حالمدينـارا وجريب حنطة . وعلى مثـل صلحهم صالح اهـل مآب من أرض البلقاء ، واهل اذرعات من أرض البثنية(٧٤) ، كماصالح أهل دمشق على ان يؤدي كل رجلمنهم دينارا وجريب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين(٧٥) .

ويبدو لما استقر فتح الشام ، بدأ المسلمون تنظيم العلاقة المالية مع اهل البلاد، ففرض عمر بن الخطاب الجزية على الرجال والخراج على الارض ، وذكر البلاذريان صاحب بصرى الشام جاء عمر بن الخطاب في اثناء زيارة الاخير للشام ، فذكر له انـه كان صالح المسلمين على طعام وزيت وخل ، فسأل عمر ان يكتب له ، فكذّب ابو عبيدة صاحب بصرى وقال : انما صالحناه على شيء ينتفع به المسلمون لمشتاهـم ، ففرض عليهم الجزية على الطبقات والخراج على الارض ، وجعلت الجزيـة في رقـاب اهل الذمة ، والخراج على الارض ، في فلسطين والاردن وباقي بلاد الشام(٧٦) .

وبخصوص الجزية على رؤوس اهل الذمة ، جعل عمر على اهل الورق منهم على كل رجل اربعين درهما ، وعلى اهل الذهب اربعـة دنانير ، وصيرهم طبقـات لغنى الغني ،واقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، اي اربعين وعشرين وعشرة من الدراهم ، واربعة واثنين وواحدا من الدنانير . ويروى عن الاوزاعي بهذا الخصوص ان الجزيـة بالشام ، كانت في بادىء الامر جريبا ودينارا على كل جمجمة ، ثم وضعها عمر علىاهل الذهب اربعة دنانير ، وعلى اهل الورق اربعين درهما ، وجعلهم طبقات لغنى الغني ، واقلال المقل وتوسط المتوسط(٧٧) .

واذا قدرنا سعر الصرف للدينار الواحد باثني عشر درهما ، تكون طبقات الجزية في بلاد الشام ثمانية واربعين ، واربعة وعشرين ، واثني عشر من الدراهم ، واربعة ، واثنين ، وواحدا من الدنانير ، وهو ما يشبه حال الجزية على اهل الذمة في العراق .

وقد تكون الارزاق التي قدرها عمر بن الخطاب للمسلمين في بلاد الشام على اهل الذمة من أهل الرساتيق والريف ، تمثل الخراج الذي وضع على الارضين ، حيث ذكرت الروايات ان المسلمين وضعوا الجزية على اهل الذمة في الشام ، وجعلوا على اهل الرساتيق والريف ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت : مديان من الحنطة وثلاثة اقساط زيتا في كل شهر لكل انسان ، وشيئا من الودك (الدهن) والعسل ، وضيافة من نزل بهم ثلاثا ، يأكل الضيف مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا ذبح دجاجة ، وان عليهم ارشاد الضال ، وان يبنوا القناطر من اموالهم(٧٨) .

الا ان بعض المناطق في الشام كان لها اوضاع مختلفة ، فروي ان اهل اللاذقية صالحوا على خراج يؤدونه ان قلوا او كثروا(٧٩) ، وصولح اهل السامرة وهم يهود ، على جزية رؤوسهم ، واعفوا من خراج الارض ، لانهم كانوا عيونا وادلاء للمسلمين على البيزنطيين(٨٠) .

وبخصوص الارزاق للمسلمين ، جاء تقديرها على اساس ما يكفي الواحد من المؤونة في الشهر . ويذكر ابن عساكر بخصوص ذلك ، ان عمر بن الخطاب ، في اثناء زيارته للشام ، دعا (ابن قاطورا) صاحب الارض ، فدبر معه مقدار مايكفي الرجل الواحد في الشهر ، فوجد انه يكفيه مديان من قمح ، وقسط زيت ، وقسط خل ، فأمر عمر بذلك (٨١) .

وورود اسم (ابن قاطورا) صاحب الارض في خبر ابن عساكر ، اشارة الى استعانة المسلمين بغيرهم في امور الخراج في الشام ، على نحو ما استعانوا بالدهاقين في سواد العراق .

اما الاراضي التي كانت زمن البيزنطيين من الضياع الامبراطورية ، والملكيات الصغيرة ، والضياع الخاصة وامثالها(٨٢) من تلك التي هرب قوامها والمشرفون عليها وملاكوها ولحقوا بالبيزنطيين ، او قتلوا في المعارك ، فانها صيرت من « الصوافي » ، وجعلت الى نظر الخليفة مثل صوافي السواد في العراق ، وكان من صوافي الشام ، اندركيسان بدمشق ، وقبيس بالبلقاء ، وجيعانا على باب حمص(٨٣) .

وبخصوص جباية الشام فالمقدار غير متيسرة معرفته زمن الخلفاء الراشدين ، الا ان نعتد بما ذكره اليعقوبي عن جباية الشام في خلافة معاوية بن ابي سفيان التي بلغت قرابة مليون ونصف دينار (٨٤) ، وبلغت في خلافة هارون الرشـيد مثـل ذلك ، أي مليون ونصف دينار ، اضافة الى ثلاثمائة الف رطل من الزبيب(٨٥) ، في حين انخفضت في خلافة المأمون الى سبعمائة وخمسـة وسبعين الف دينـار(٨٦) .. ويبـدو ان ذلك الانخفاض يعود في بعض اسبابه الى الحرب الاهلية التي وقعت بين الامين والمأمون .

الجزيرة :

كانت الجزيرة تخضع في بعضها الذي يقع شمال العراق لسلطان الساسانيين ، وتخضع في بعضها الاخر الذي يقع شمال الشـام لسلطان البيزنطيين . فلما فتحت الشام ، توجه عياض بن غنم الى فتحها ، فحاصر مدينـة الرقة حتـى طلب بطريقها الامان منه ، فاجابه عياض الى ذلك ، واقر الارض في ايديهم على الخـراج ، ووضـع الجزية على رقابهم ، دينارا في كل سنة على كل رجل منهم ، وجعل عليهم مع الدينار اقفزة من قمح ، وشيئا من زيت وخل وعسل(٨٧) .

ويبدو انه على مثل هذا الصلح ، اضافة الى ارشاد الضال واصـلاح الجسور والطرق ، عوملت مدن الجزيرة : الرها ، وحران ونصيبين ، وميافارقين، وقرقيسيا، وآمد ، وحصن ماردين ، ودارا ، وغيرها من مدن الجزيرة(٨٨) ..

ولما فتحت عانات وسائر حصون الفرات ، اراد عمير بن سعد الانصاري من كان هناك من بني تغلب على الاسلام فأبوه ، وهموا باللحاق بارض الـروم ، فصالحهم المسلمون على ان اضعفوا عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل زرع وماشية ومـال(٨٩) .

استمر اخذ المال النقد والمواد الغذائية من اهل الجزيرة فترة ، ثم خفف عمربن الخطاب عنهم ، وقومها جميعا مالا نقدا وجعلها على الطبقـات : ٤٨ ، ٢٤ ، ١٢ مـن الدراهم ، أو ٤،٢،١ من الدنانير(٩٠) . وتداول الدراهم والدنانير في الجزيرة يعود الى خضوع بعض الجزيرة لحكم الساسانيين وعملتهم الدراهم ، وخضوع بعضها الآخـر لحكم البيزنطيين وعملتهم الدنانير(٩١) .

ومبلغ جباية الجزيرة في السنة زمن الخلفاء الراشدين غير مذكور ، ولكن اليعقوبي يذكره في خلافة معاوية بين ابي سفيان بخمسة وخمسين مليـون درهـم(٩٢) ، وهي اشارة تدل على خصوبة المنطقة وثرواتها الوفيرة .

مصر :

فرض عمرو بن العاص في اثناء دخوله مصر عام ١٩ هـ الجزية على أهل (ام دنين) دينارا لكل رجل من اصحابه ،وجعل مع الدينار جبة وبرنسا وعمامة وخفين لكل واحد منهم(٩٣) .

وبعد أن تم فتح حصن أليونة (الفسطاط) ، أقر عمرو اهلـه على انهم ذمة ، ووضع الجزية في رقابهم والخراج في ارضهم(٩٤) .

ويبدو ان البلاد من حول اليونة، دخلت فيما دخلت فيه اليونة، فقيل أن صاحب اليونة ، لما فرغ من امر الاتفاق عن مدينته مع عمرو ، صالح عن جميع اهل مصر على مثل صلح مدينته(٩٥) . الا ان حسم الموقف في مصر جاء من الاسكندرية معقل البيزنطيين الاخير في مصر ، ومركز تجمعهم بعد فتح اليونة ، فلما هزم البيزنطيون في المرة الاولى عام ٢١ هـ ، والثانية عام ٢٣ هـ وعجزوا عن الاحتفاظ بالاسكندرية فضلا عن استعادة مصر ، صارت مصر كلها في سلطان المسلمين .

وبالرغم مما جاء عن الاسكندرية وبعض قرى مصر مثل : سلطيس ، ومصيل ، وبلهيب ، التي عاندت المسلمين وساندت البيزنطيين ، وقيل فتحت عنوة ، وان لاعهد ولا عقد لها ، فان الروايات تكاد تكون متشابهة في ذكر الفرائض المالية التي وضعت على مصر .

ففي رواية ، قيل ، كان صلح اهل مصر دينارين على كل انسان جزية وارزاق المسلمين(٩٦) .

وفي رواية ثانية، قيل، كانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين، على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع(٩٧) . والاشارة الاخيرة في هذه الرواية تقوم مقام الارزاق للمسلمين التي ذكرت في الرواية الاولى .

وفي رواية اخرى ، قيل أقر عمرو بن العاص اهل مصر على انهم ذمة ، ووضع الجزية في رقابهم ، والخراج في ارضهم(٩٨) .

وتكاد الروايات تتفق على ان جزية الراس كانت دينارين على كل حالم ليس فيهم امراة ولا صبي ولا شيخ ، وتتفق كذلك في وضع ضريبة الخراج ، الا انها تختلف بعض

الشيء في مقدارها ، فقيل ألزم كل ذي أرض مع جزية راسه ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطي زيت ، وقسطي عسل ، وقسطي خل ، رزقا للمسلمين(٩٩) ، وقيل جعل على كل جريب من الارض دينار ، وثلاثة ارادب طعاما(١٠٠) .

ومما يشير الى اخذ جميع مصر بنفس المعاملة من وضع الجزية والخراج ، ان ابن شهاب الزهري يذكر ان فتح مصر كان بعضها بعهد وذمة ، وبعضها عنوة ، فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك(١٠١) .

والى جانب ما ذكرنا من الفرائض المالية ، قيل ان المسلمين احصوا في مصر ، والزم أهل مصر بتقديم كسوة كاملة من اللابس لكل واحد من المسلمين في كل عام، وكانت كسوة الشخص الواحد تتألف من جبة صوف ، وبرنس ، وعمامة ، وسراويل، وخفين ، هذا الى جانب اقامة الانزال ، والضيافة للمسلمين ثلاثة ايام(١٠٢) .

ويبدو ان الفرائض العينية ، على نحو ما يذكر الليث بن سعد ، قومت في فترة تالية من خلافة عمر بن الخطاب نقدا ، وصار كل حالم من اهل الذمة بمصر يدفع اربعة دنانير ، دينارين جزية راسه ، ودينارين عوضا عن الفرائض العينية(١٠٣) .

ولكن الروايات التي تذكر ما كانت تقدمه ولاية مصر من الغلال الىاهل الحجاز في خلافة عمر بن الخطاب ومن جاء بعده(١٠٤) ، والكتاب الذي اورده دينيل دينيت في مؤلفه موجها من قرة بن شريك الى أهل باكونيس من كورة افروديتي وفيه :انه اصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين ، اربعمائة دينار وثمانية وتسعون ، ومن ضريبةالطعام ، مائة وثمانية وعشرون اردب قمح ونصف اردب ، ونصف ويبة(١٠٥) ، لتدل على ان الالتزام بهذه القاعدة ، والغاء الفرائض العينية التي كانت تؤخذ الى جانب الفرائض النقدية ، لم يكن عاما ودائما .

انتفع المسلمون في ادارة الامور الماليةفي مصر بالخبرات الادارية المحلية، واستعانوا بالجهاز الاداري السابق في امور الخراجعلى نحو ماجرى في العراق والشام، ويبدو هذا واضحا فيالرواية التي يذكرها المقريزي(١٠٦) عن زيد بن اسلم قال ، لما استبطأ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج ، كتب اليه ان يبعث رجلا من القبط من أهل مصر ، فلما حضر القبطي ، استخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام ، وعن وجوه عمارتها ، كما يبدو ذلك واضحا في طريقة جباية الخراج .

وبخصوص طريقة جباية الخراج ، روى ابن عبد الحكم (١٠٧) قال ، لمااستوسق

الامر لعمرو بن العاص أقر قبط مصر على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوا ، فكان يجتمع عرفاء كل قرية (ورويت عرافسوا ، وعرافسى ، وعسرافسوا) وماروتها ، ورؤساء اهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بتلك القسمةالى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم ، وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم ، وحماماتهم ، ومعدياتهم من جملة الارض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ، ونزول السلطان ، فاذا فرغوا ، نظروا الى ما في كل قرية من الصناع والاجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها ، ثم ينظرون مابقي من الخراج ، فيقسمونه بينهم على عدد الارض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد وشكا ضعفا عن رزع ارضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة اعطي ما عجز عنه اهل الضعف ، فان اختلفوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار اربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك .

بلغت جباية مصر السنوية مليونين من الدنانير في ولاية عمرو بن العاص ، ثم ارتفعت في ولاية عبد الله بن سعد زمان عثمان بن عفان الى اربعة ملايين(١٠٨) ، فقال عثمان لعمرو : يا عمرو ، هل تعلم ان تلك اللقاح درت بعدك !، فقال عمرو ،ان فصالها هلكت(١٠٩) . وقد لاتكون الزيادة راجعة الى التشديد والزيادة في الجباية فحسب،بل قد تعود ايضا الى تقويم الضرائب العينية وأخذها نقدا .

وقيل بلغت جباية مصر زمن عمر بن الخطاب اثني عشر مليون دينار(١١٠) ، وقيل اربعة عشر مليون دينار(١١١)، وقيل جناها عمرو بن العاص عشرة ملايين(١١٢)، وجباها في العام المقبل اثني عشر مليونا(١١٣) ، وجباها عبد الله بن سعد اربعة عشر مليونا(١١٤) ولكن المرحوم الريس ، يستبعد اكثر هذه التقديرات ، ويرى ضمن الادلة التي يحتج بها ، ان جباية مصر في عهد الامويين والعباسيين كانت اربعة ملايين ، ولم يحدث مابين خلافة عثمان بن عفان وخلافة معاوية من فساد او خراب في الارض نحو ما يذكر المقريزي(١١٥) ، حتى تهبط جباية مصر من اربعة عشر مليون دينار كانت تؤديها في عهد الراشدين ، الى أربعة ملايين في عهد الامويين والعباسيين . لذلك فانه يرجح ان جباية مصر كانت زمن الراشدين اربعة ملايين دينار(١١٦) .

هذا الى ما كان من فتح برقة زمن عمر بن الخطاب ، حيث صالح عمرو بن

العاص اهلها على جزية قدرها ثلاثة عشر الف دينار سنويا ، كانوا يدفعونها الى والي مصر مـن غـير ان يأتيهـم حـاث او مسـتحث(١١٧) . وفتحت أطرابلس عـام ٢٢هـ (١١٨) ، وفتحت افريقية عام ٢٧ هـ في خلافة عثمان ، وصالحأهلها على مليونين ونصف من الدنانير ، ولكن المسلمين لم يدخلوها ثانيـة الا في خلافة معاويـة بن ابي سفيان(١١٩) ، وغزا المسلمون جزيرة قبرص عام ٢٨ هـ ، وقيل عام ٢٩ هـ في خلافـة عثمان ، وصالح اهلها على جزية سنوية مقـدارها سبعة الاف دينـار(١٢٠) . وغـزا المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب النوبة وصالحوهـم على الهدنة واقامـة علاقات تجارية بين الجانبين(١٢١) .

شرق العراق وخراسان :

لما جاء عمر بن الخطاب خبر فتح نهاوند عام ٢١هـ ، اذن للمسلمين بالانسـياح في البلاد الشرقية(١٢٢) . وقد حقق المسلمون في هذا الوجه نصرا كبيرا ، وبدأت حواضر هذه البلاد تجيب المسلمين الى الجزاء والمنعة ، فعقد المسلمون لهم الذمـة وكتبـوا العهود والمواثيق .

قيل صالح أهل مدينة نهاوند عام ٢١هـ على الخراج والجزية(١٢٣) ، وصالح على مثل صلحهم ، اهل الدينور ، وما سبذان ، ومهرجا نقذق ، وقزوين ، وزنجان ، وهمذان . ونكثت همذان ، ففتحت ثانية في خلافة عثمان ، ودفعت للمسلمين مائـة الف درهم(١٢٤) . ولا تذكر الروايات بصدد الفريضة المالية على هذه المدن ، شيئا عن مقاديرهـا .

وقيل صالحت بعض المدن الاخرى على الجزية في كل سنة على قدر طاقـة كل حالم فيها ، وعلى ان ينصحوا للمسلمين ، ويدلوهم على الطريق ، ويقروا ضيفهم يوما وليلة(١٢٥) ، وعلى مثل هذا ، صالحت ماه بهراذان ، وماه دينار عام ٢١هـ ، وصالحت الري وقومس عام ٢٢هـ ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، واعطوا خمس مائـة الف درهم ، وان يكونوا اسوة أهل نهاوند في خراجهـم(١٢٦) . وصالحت اذربيجـان عام ٢٢هـ وقيل صالحت على ثمان مائة الف درهم ، وقيل صالحت على مائـة الف درهم(١٢٧) . وصالحت الباب وتوّج ، واصطخر ، وقم ، وقاشان ، واصبهان ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، وان اشرافها ، أي اشراف اصبهان ، انفوا من الجزية فاسلموا ، وادوا الخراج(١٢٨) .

وصالحت الاهواز عام ١٦ هـ على مليونين وثمان مائة وتسعين الف درهم ، ثـم

نقضت ، ففتحت ثانية عام ١٧ هـ ، ووظف عمر بن الخطاب عليها عشرة ملايين واربـع مائة الف درهم ، ثم ردها الى الجزية(١٢٩) . وصالح اهل سابور عام ٢٦هـ على ثلاثة ملايين وثلاث مائة الف درهم(١٣٠) ، وصالح اهل ارجان واهل دارابجرد عام ٢٧ هـعلى مليونين ومائتي الف درهم لكل منهما (١٣١) .

وقيل فتحت خراسان خلا مرو عام ٢٢ هـ وصالحت على مليونين ومائتي الف او قية(١٣٢) ، ثم نقضت زمان عثمان بن عفان فسار اليها عبد الله بن عامر عام ٣١هـ وفتحها .وصالحت مرو على مليونين ومائتي الف درهم(١٣٣) ، وصالحت ابرشهر على مليون درهم وطعام ، وصالحت بلخ على اربع مائة الف درهم ، وصالحت سرخس على مائة وخمسين الف درهم(١٣٤) ، وصالحت نيسابور على مليون ، ويقـال سبع مائـة الف درهم ، وصالحت نسا على ثلاث مائة الف درهم ، وصالحت ابيورد على اربـع مائة الف درهم ، وصالحت طوس على ست مائـة الف ، وصالحت هـراة وبوشنج وباذغيس على الجزية ، وقيل على مليون درهم تقسم على الارض عدلا بينهم(١٣٥) ، ثم انتقضت خراسان في خلافة علي بن ابي طالب ، فلم تزل منتقضة حتى قتل(١٣٦) .

وصالحت زرنج من سجستان عام ٣٠ هـ على الف وصيف ، مـع كل وصيف جام من ذهب(١٣٧) . وصالح دهقان زالق من سجستان المسـلمين ، وان يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد فارس وكرمان(١٣٨) . وغزا الحارث بن مرة العبدي في خلافـة علي بن ابي طالب السند فظفر واصاب مغنما وسبيا(١٣٩) .

اما بخصوص طريقة الجباية ، فنلاحظ ان الذين تولوا مصالحة المسلمين ، كانوا اولي الامر في الحكومة المحلية في المدينة ، او امير المدينة الحاكم ، او صاحب الاقليم ، فيروى ان (الفرخان) صالح المسلمين عن الري وقومس ، وصالح مرزبان اذربيجان على جميع اهل اذربيجان ، وكان اليه جباية خراجها ، وصالح دهقان الاهواز المسلمين على مال ، وصالح الهربذ على دارابجرد ، وصالح عظيم فسا على مثل صلح دارابجرد ، وصالح دهقان زالق ، ودهقان زرنج من سجستان ، وصالح مرزبان نيسابـور على جميع نيسابور بوظيفة يؤديها للمسلمين قيل كانت مليون درهـم ، وصالـح مرزبان الطالقان والفارياب ، وصالح صاحب نسا ، وصاحب سرخس . وفي خلافة علي بن ابي طالب ، قدم مرزبان مرو الى علي بن ابي طالب في الكوفة ، فكتب له علي الى الدهاقين والاساورة والدهشلارية ، ان يؤدوا اليه الجزية ، وكانت مرو صالحت المسلمين على مليونين ومائتي الف درهم ، وان عليهم قسمة المال ، وليس على المسلمين الا قبضها(١٤٠) ، وهذه اشارات تدل على ان المسلمين جعلوا جمع الفرائض المالية الى الرؤساء المحليين ، والعظماء ، والامراء ، فكان اذا جمع هؤلاء المال ، دفعوا للمسلمين ما صالحوا عليه ،

وهذا خلاف ما كان عليه الحال في سواد العـراق ، حيث كان عمـال الخراج مـن المسلمين يمسكون بزمام الامور الماليـة في سواد العراق ، ويستعينون على جمعهـا بالدهاقين ، اما في هذه البلاد ، فكان الرؤساء المحليون هم الذين يمسكون بزمام الامور المالية ، ويدفعون من المال للمسلمين ما صالحوهم عليه .

اما مقدار الجباية السنوية فغير معلوم ، ولا يمكن اجراء حساب عام لها ، لعدم توافر المعلومات عن مقدار الجزية في كل بلد ، وما ذكره الجهشياري عن جباية هـذه البلاد زمن الخليفة الرشيد ، ومقداره يزيد على مائة وخمسين مليون درهم فضلا عـن الاشياء العينية(١٤١) ، لا يفيد شيئا في اعطاء فكرة عن جباية هذه البلاد زمن الراشدين، لاسباب يعود بعضها الى اختلاف رقعة البلاد بين العهدين .



والى جانب الفرائض الماليـة التي كانت تجبى من النـاس والارض في البـلاد المفتوحة ، تناولت التنظيمات زمن الراشدين فرائض المال على التجارة .

عرف المال الذي كان يؤخذ من اهل التجـارات في فترة ما قبـل الاسلام باسم العشور او المكوس ، وكانت العرب تتعامل به في اسواقها التي كانت تعقدها للتجارة. ويروى من هذا القبيل ان أكيدر السكوني ، وقنافة الكلبي كان من ولي منهما سـوق دومة الجندل يأخذ العشور من التجار الذين كانوا يحضرون السوق ويبيعون بضاعتهم فيها ، وكان بنو تميم يعشرون التجار في سوق المشقر ، وكان الجلنـدي بن المستكبر يعشر التجار في سوق دبا وفي سوق صحار بعمان ، وكانت الابناء تعشر التجار فيسوق عدن وسوق صنعاء(١٤٢) ، فلما جاء الاسلام الغيت المكوس ، ولم يجز الرسول (ص) لمسلم ان يأخذ مكساً من تجار المسلمين ، ومما رويعنه (ص) لا يدخل الجنة صاحب مكس » (١٤٣) ، وكتب لمن اسلم من اهل الامصار مثل ثقيف واهـل البحرين ودومـة الجندل وغيرهم ، انهم لا يحشرون ولا يعشرون(١٤٤) ، فلما كان زمن عمر بـن الخطاب وفتحت البلاد ، كتب زياد بن حدير اليه في تجار الحرب الذين يأتون ديـار الاسلام ، فكتب اليه عمر ، ان يأخذ منهم مثلما يأخذون من تجار السلمين(١٤٥) ، وقيل أخذ من تجارات أهل الحرب العشر على حسب ما كانوا يفعلون بمن يدخـل اليهم من تجـار المسلمين ، فانهم كانوا يأخذون من اموال المسلـمين وامتعتهم اذا ادخلوهـا بلدهم العشر(١٤٦) . وروي عن عمر انه كتب ايضا بخصوص تجار الحرب ، قال : « من اقام

منهم ستة اشهر فخذمنه العشر ، ومن اقام سنة فخذ منه نصف العشر»(١٤٧) . ولعل عمر بن الخطاب فعل ذلك بقصد الدعاية للاسلام او تقوية الحركة التجارية(١٤٨) ، ومن هذا القبيل ، كان الخليفة عمر يأخذ من تجـار النبط الذين كانوا يأتون سوق المدينة بالزيت والحنطة من الشام نصف العشر لكي يكثر الحمل الى المدينة(١٤٩) .

ولم يقتصر اخذ العشور على تجار اهل الحرب ، وانما شمل تجار اهـل الذمة وتجار المسلمين . روى ابو عبيد أن انس بن سيرين كتب لانس بن مالك سنة عمـر فجاء فيها : يؤخذ من المسلمين من كل اربعين درهما ، درهم ، ومن أهل الذمة من كل عشرين درهما ، درهم ، ومن لاذمة له (تجار الحرب كانوا يفدون الى دار الاسلام) من كل عشرة دراهم ، درهم . وذكر زياد بن حدير قال ، استعملني عمر على العشر فأمرني أن آخذ من تجار المسلمين ربع العشر ، ومن تجار اهل الذمـة مثلي ما آخـذ من تجار المسلمين ومن نصارى بني تغلب العشر(١٥٠) .

غير ان العشور على تجار الذمة ، وتجار المسلمين ، لم توضع على جهـة مكوس الجاهلية وعشورها ، وانما وضعت على جهة اخرى . فبالنسبة لاهـل الذمـة قيل صالحوا على ذلك صلحا ، واقروا على ان يدفعوا من اموالهم التي يختلفون بها للتجارة من كل عشرين درهما ، درهما ، فكان يؤخذ منهم نصف العشر .

واما بالنسبة لتجار المسلمين ، فالفريضة التي كانت تؤخذ من تجارتهم ، كانت تؤخذ منهم على جهة الزكاة المفروضة في اموالهم كل سنة ومقدارها ربع العشر ، واموالهم التي يؤخذ منها ربع العشر ، هي الاموال التي يطلق عليها « الصامتة »، أو « الاموال الباطنة » من الذهب والفضة وعروض التجارة ، وسميت بذلك لامكان اخفائها ، وهي غير الاموال الظاهرة من الماشية والحرث والنخل (١٥١) .

كان الخليفة ابو بكر ، اذا اراد ان يعطي المرء نصيبه من المال سأله ان كان عنده مال قد حلت فيه الزكاة، فان اخبره ان عنده مالا قد حلت فيه الزكاة ، قاصه مما يريد ان يعطيه . وكذلك كان عثمان بن عفان يفعل في خلافته ، فكان اذا خرج عطاء احدهم ، سأله ان كان عنده مال وجبت فيه الزكاة ، فان كان عنده مال وجبت فيـه الزكاة ، حاسبه به من عطائه(١٥٢) ، وقيل ترك عثمان أمر زكاة الاموال الظاهرة الـى اصحابها يخرجونها بأنفسهم(١٥٣) .

فلما كثرت الفتوح ، وتصرفت التجار في البلدان ، جعل الخليفة عمر بن الخطاب العشارين ليأخذوا زكاة ما يمر بهم من اموال التجار ، ويعتبروا النصاب والحول(١٥٤).

قال انس بن مالك ، بعثني عمر بن الخطاب على جباية العراق وقال : اذا بلغ مال المسلم مائتي درهم فخذ منها خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين ، ففي كل اربعين درهما ، درهم(١٥٥) . وذكر الشيباني ان عمر بن الخطاب بعث زياد بن جرير (وقيل بن حدير) مصدقا الى عين النمر ، وأمره بان ياخذ من كل من يمر عليه بماله من المسلمين ولم يؤد ذكاته ، ان يأخذ من اموالهم ربع العشر ، ومن اهل الذمة اذا اختلفوا بها للتجارة نصف العشر ، ومن اموال اهل الحرب العشر ، وجعل عمر بن الخطاب نفقة العاشر ، أي المصدّق ، من المال الذي يأخذه منهم(١٥٦) .

اما بخصوص زكاة الاموال الظاهرة ، فان ابا بكر حارب القبائل التي منعتها ورفضت تأديتها الى عمال الصدقات الذين كان بعثهم اليهم ليأخذوها ، فلما اعيدوا الى الطاعة صار عمال الصدقات يخرجون اليهم يأخذونها منهم في مياههم وبأفنيتهم، ولا يكلفونهم الانتقال بمواشيهم من مواضعهم اليهم يبتغون التيسير عليهم ، وقد ارشد الرسول عليه السلام الى ذلك من قبل قال : « . . . ولا تؤخذ صدقات المسلمين الا على مياههم وبأفنيتهم »(١٥٧) . وكان الخلفاء ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ، يوصون عمال الصدقات الا يأخذوا حرزات المسلمين ، اي خيار اموالهم ، فلا يأخذوا الربي ، وهي الشاة التي يتبعها ولدها ، ولا الماخض ، اي الحامل ، ولا ذات الدر ، ولا الشاة السمينة التي اعدها اهلها للذبح ، لما يحدث ذلك من الضرر لاصحاب المال ، والضفينة عندهم ، وان لا يأخذوا الهرمة وذات العوار وامثالهما ، لما في ذلك من الحاق الاذى بالمصلحة العامة ، وكان عمال الصدقات يفرقون المال ثلاث فرق ، ثم يختار صاحب المال ثلثا ، ويأخذ المصدق الزكاة من الثلث الثاني . وكان بمقدور رب الماشية ان يبادل بما عنده الى صنف اخر ، كأن يبادل معزى ببقر ، او ابلا ببقر ، أو ان يدفع مالا نقدا ، دون ان يجبر احد على ذلك ، وانما كان يقبل ذلك تيسيرا على الذين يؤخذ منهم ، ووفاء للذين تؤخذ لهم(١٥٨) .

روي عن ابي بكر قال ، اذا تباينت أسنان الابل في فرائض الصدقات ، فمن بلغت عنده صدقة الجذعة ، وليست عنده جذعة ، وعنده حقة ، فانها تقبل منه ، ويجعل معها شاتين ، ان استيسرتا له ، او عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة ، وليست عنده الا جذعة ، فانها تقبل منه ، ويعطيه المصدق عشرين درهما ، أو شاتين. وجاء عن معاذ بن جبل وعلي بن ابي طالب مثل ذلك(١٥٩) .

كانت جباية الصدقات تتم بعد ان يكون اصحاب الماشية قد تجمعوا على مياههم وبأفنيتهم ، ورجعوا بمواشيهم من المواضع التي كانوا يرتادونها في فصل الربيع للكلأ والمرعى ، وكان ذلك يحدث عادة في فصل الصيف . وروي عن عمر بن الخطاب انه

كان يبعث عمال الصدقات في قبل الصيف ، وروي عن مالك بن انس قال ، سنة السعاة (عمال الصدقات) أن يبعثوا قبل الصيف ، وحين تطلع الثريا ويسير الناس بمواشيهم الى مياههم ، لان ذلك رفق بالناس باجتماعهم على الماء، وعلى عمال الصدقات لاجتماع الناس بالناس . وأحب الشافعي ان يكون اخذها في شهر المحرم ، كان المحرم في الصيف او في الشتاء(١٦٠) .

وكانت الصدقة بعد ان تجمع ، تقسم في فقراء القوم الذين من ارباب الاموال فيهم اخذت الزكاة ، فان فضل شيء ، ففي فقراء القوم الذين يلونهم وهكذا(١٦١) . فاذا توفر شيء من أموال الزكاة بعد ان يكون قد فرغ من سد حاجة اصناف مستحقيها ، حمل الى المدينة . ومما روي في هذا السبيل ان معاذ بن جبل كان يصدق الناس في اليمن زمن النبي (ص) وابي بكر ، ثم زمن عمر ، فبعث الى عمر بثلث صدقة الناس ، فانكر ذلك عمر وقال ، لم ابعثك جابيا ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من اغنياء الناس فتردها على فقرائهم ، فقال معاذ ، مابعثت اليك بشيء وانا أجد احدا يأخذه مني ، فلماكان العام الثاني بعث اليه شطر الصدقة ، فتراجعا بمثل ذلك ، فلما كان العالم الثالث بعث اليه بها كلها، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال معاذ: ما وجدت احدا يأخذ مني شيئا(١٦٢) .

ودفع من كان مسلما من اهل البلاد المفتوحة ما عليه من زكاة في مواشيه وزروعه. ذكر البلاذري ان الاعشار في بلد ، وديار ربيعة ، هي اعشار ما اسلمت عليه العرب او عمرته من الموات(١٦٣) . وبامتداد الاسلام الى خارج شبه الجزيرة ، صادف المسلمون في البلاد المفتوحة من الزروع ما اختلف في الوفرة والنوع عما كان مألوفا في شبه الجزيرة، وهو أمر سيؤدي الى اختلاف الآراء حول ما يجب فيه الزكاة من الزروع وما لا يجب فيه ، للتنوع من جهة ، والوفرة التي جعلتها في عداد الثروة الاقتصادية في هذه البلاد من جهة اخرى ، ونذكر من هذه الزروع ، القطاني بانواعها ، والزيتون ، والسلت والذرة(١٦٤) .

أما بخصوص مقادير أموال الزكاة التي كانت تجبى كل عام فأمر غير معروف ، والاشارات التي تذكر بعض الارقام اشارات جزئية وغير دقيقة ، ولا تنفع في اعطاء تقدير كلي ، قيل ان عمر بن الخطاب حمى ارض الربذة لنعم الصدقة ، وكان يحمل عليها في سبيل الله ، وكان مقدار ما يحمل عليه كل عام في سبيل الله اربعين الفا من الظهر(١٦٥) ، وولى عثمان بن عفان الحكم بن ابي العاص صدقات قضاعة ، فبلغت ثلاث مائة الف درهم(١٦٦) .



وبعد هذا ، ننتقل الى الحديث عن الاثار الاقتصادية التي ترتبـت على فتـح البلاد المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، وما اتخذ فيها من التنظيمات ، ودور ذلك في حياة الدولة والناس .

اما بالنسبة للدولة ، فقد أدت الفتوحات على التدريج الى كثرة الامـوال التي صارت تؤول الى نظرها ، مما جعل دورها يكبر في حياة الناس اكثر فاكثر ، وكان في خلافة ابي بكر ، اذا جاءه المال قسمه بين الناس على السوية ، فقيـل جاءه مال مـن البحرين ، فأعطى كل انسان كان رسول الله (ص) وعده شيئا ، وكان جابر بن عبد الله قال لابي بكر ، قال لي رسول الله (ص) ، لو جاء مال البحرين اعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه ، فقال له ابو بكر خذ ، فأخذ بكفيه ، ثم عده فوجده خمسمائة ، ثم قال له ، خذ اليها الفا وبقيت بقية من المال قسمها بين الناس بالسويـة ، على الصغيـر ، والكبير ، والحر ، والمملوك ، والذكر ، والانثى ، فأصاب كل انسان سبعة دراهم وثلث الدرهم ، فلما كان العام المقبل ، جاءه مال كثير هو اكثر من ذلك فقسمه بين الناس ، فاصاب كل انسان عشرين درهما ، ومرة اخرى جاءه مال فقسمه بين الناس ، فأصاب كل انسان نصف دينار ، وطالبه بعض الناس بتفضيل اهل السوابق والقدم والفضل في القسم فقال ، فما اعرفني ذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالاسوة فيه خير من الاثرة(١٦٧) .

ومنذ خلافة عمر بن الخطاب ، كثرت الاموال لاتساع الفتوح وامتدادها ، وضمن قرار وقف الارض المفتوحة ، وعدم قسمتها بين الغانمين ، موردا ماليا ثابتا للدولة . واذا جمعنا ما كان يؤخـذ من الاموال من ارض العنوة ، وارض الصلح ، ومن أهـل الذمة جزية وضريبـة على التجارة ، ومن اهـل الحرب اذا دخلـوا بلاد الاســلام للتجارة ، (١٦٨) صار ما مقداره سنويا ، عدا الاموال العينيـة ، عشرين مليـون دينار تقريبا ، (١٦٩) زد عليه او انقص منه قليلا ، الامر الذي شجع عمر بن الخطاب عام ٢٠هـ على سن الرواتب السنوية للمسلمين .

لم يتبع عمر التسوية في العطاء ، وانما آثر التفضيل ، وجعل السبق الى الاسلام والقرابة من الرسول (ص) اساسا في تقدير الرواتب ، واتخذ المشاهـد المشهورة في تاريخ الدعوة الاسلامية معالم في ترتيب الناس على طريق السبق وتقديـر الرواتب ، فجعل بدرا ، والحديبية ، وفتح مكة ، وحرب الردة ، والحروب الاولية التي عرفت بـ « الايام » في العراق والشام ، والقادسية واليرموك ، وما بعدها ، علامات في تدريج الرواتب والتفاضل بينها ، فأعطى على سبيل المثال ، من كان اسلم قبل بدر اكثر ممن

كان اسلم بعد بدر ، واعطى من كان اسلامه قبل فتح مكة اكثر ممن كان اسلامه بعـد فتح مكة وهكذا . وكانت الرواتب ، اذا استثنينا بعض الحالات(١٧٠) ، تتراوح بـين خمسة الاف درهم ، وثلاثمائة درهم وقيل مائتي درهم في السنة .

ففي المدينة ، اعطي اهل بدر من المهاجرين والانصار خمسة الاف خمسة الاف في كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، والحق بهم الحسن والحسين لقرابتهما برسول الله (ص) ، وفرض لمن كان له اسلام كاسلام اهل بدر ، ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد احدا اربعة الاف اربعة الاف ، وفرض لابناء البدريين الفين الفين ، وفرض لاسامة بن زيد بن حارثة اربعة الاف لمحبة رسول الله (ص) ابيه زيد بن حارثة ، وفرض لعمر بن ابي سلمة اربعة الاف لان امه ام سلمة زوج الرسول (ص) ، وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ثم جعل من بقي من الناس بابا واحدا ، والحق من جاء من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين دينارا(١٧١) .

وفي العراق ، فرض لاهل الايام ثلاثة الاف ثلاثة الاف ، وفرض لاهل القادسية الفين الفين ، وفرض لاهل البلاء البارع منهم في الفين وخمسمائة بزيادة خمسمائة لكل واحد ، ثم فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة ، ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين ، وفرض لمن بعدهم على مائتين(١٧٢) ..

وفي الشام ، فرض لاهل اليرموك الفين الفين ، وفرض لمن جاء من بعد ذلك الفا الفا ، وفرض لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجـل ما بين الفـين ، الى الف وتسعمائة الى خمسمائة ، الى ثلاثمائة(١٧٣) .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص في مصر ، انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة (اي كان من اهل الحديبية) فأتم له العطاء مائتين ، اي مائتي دينـار وهـو ما يعادل الفين وخمسمائة درهم تقريبا ، واتمها لنفسك لامرتك ، واتمها لخارجة بن حذافـة لشجاعته واتمها لعثمان بن ابي العاص لضيافته(١٧٤) .

وفرض لامراء الجيوش ما بين تسعة الاف وثمانية الاف ، وسبعة الاف ، على قدر ما يصلحهم من الطعام ، وما يقومون به من الامور .

وشمل العطاء الموالي ، ففرض لاربعة الاف جندي انضموا الى المسلمين في معركة القادسية الفا الفا ، وانضم للمسلمين عدد من الاساورة بقيادة (سياه) احد قـادة

يزدجرد ، فكتب عمر الى ابي موسى الاشعري فيهم ، ان الحقهم على قدر البـلاء في افضل العطاء ،واكثر شيء اخذه احد من العرب ، ففرض لمائة منهم الفـين الفين ، ولستة منهم في الفين وخمسمائة (١٧٥) .

كما شمل العطاء النساء ،. ففرض لنساء مهاجرات ، منهن صفيـة بنت عبد المطلب ، ستة الاف درهم ، واسماء بنت عميس الف درهم ، وام كلثوم بنت عقبـة الف درهم ، وام عبد الله بن مسعود الف درهم ، وفرض لنساء المهاجرين والانصـار ستمائة ستمائة ، واربعمائة اربعمائة ، وثلاثمائة ثلاثمائة ، ومائتين مائتين(١٧٦)، وفرض لنساء أهل الايام في العراق ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض لنساء أهل القادسية في العراق، ونساء اهل اليرموك في الشام مائتين مائتين(١٧٧) .

وفرض العطاء للذرية . وكان عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم ، فترك ذلك ، وأمر مناديا ينادي ، لا تعجلوا اولادكـم عن الفطـام ، فانا نفرض لكل مولـود في الاسلام(١٧٨) . ففرض للطفل اذا ولدته امه مائة درهم ، فاذا ترعرع فرض له مائتين، فاذا بلغ زاده(١٧٩) . وفرض للاطفال اللقطاء مائة مائة ، وكان يوصي بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال(١٨٠) .

والى جانب الرواتب ، فرضت الارزاق للمراة والرجل والمملوك بمقدار جريبين من الطعام كل شهر(١٨١) ، واعطيت اموال اضافية على شكل معونة وسميت «المعاون» ، وقد امر عمر بن الخطاب بصرفها في فصل الربيع معونة للجند الذين كانوا يخرجون حينذاك الى البادية ليربعوا خيولهم ودوابهم(١٨٢) ، كما جعل لكل نفس منفوسـة في رمضان درهما في كل يوم ، وفرض لازواج الرسـول (ص) درهمين درهمـين ، فأقر عثمان بن عفان الذي كان صنع عمر في رمضان ، وزاد فوضع طعام رمضان للمتعبد الذي يتخلف في المسجد ، وابن السبيل ، والفقراء من الناس(١٨٣) .

كانت الاموال من الرواتب ، والارزاق ، والمعاون ، تصرف لاصحابها من واردات البلد الذي ينزلون فيه حسب سجلات أعدت لذلك(١٨٤) ، وكان توزيعها يتم وفـق طريقة منظمة ، فكانت الرواتب في البصرة على سبيل المثال ، تدفـع الى الامراء (كان الناس في البصرة زمن الراشدين موزعين الى اسباع ، وعلى كل سبع أمير) والامـراء يدفعونها الى العرفاء والنقباء والامناء ، ويدفعها هؤلاء الى اصحابها في دورهم(١٨٥) . وكان ذلك يتم عادة في شهر المحرم من كل سنة(١٨٦) . الا ان دفعه في وقته المحدد لـم يكن أمرا ميسورا دائما ، فكان العطاء يتأخر ، وكان يدفع احيانـا اقساطا . وامـا الارزاق فكانت تجمع في دار تدعى «دار الرزق»(١٨٧) ، ويأخذ الناس ارزاقهم منها .

وكان عمر بن الخطاب يوزع العطاء في المدينة ، ويحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا ، فيأتيه الناس ، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في ايديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك(١٨٨) .

وبخصوص عطاء أهل المدينة وازرزاقهم ، فبعد أن تم اتخاذ الديوان وجعلت واردات كل بلد موقوفة على منفعة اهله من رواتب وغيرها ، عد أهل المدينة شركاء الفاتحين في البلاد المفتوحة ، وعلى سبيل المثال ، كتب عمر بن الخطاب الى عثمان بن حنيف في العراق ، أن احمل الى اهل المدينة اعطياتهم ، فانهم شركاؤهم ، فكان يحمل ما بين العشرين الف الف الى الثلاثين الف الف(١٨٩) ، ولابد انه كان يحمل الى المدينة من بلاد الشام ومصر ، وان كنا لانعلم مقدار ذلك ، سيما وقد شارك اهل المدينة في فتوح الشام ومصر . وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية(١٩٠) .

وقيل لما كثر المال قال عمر ، لئن عشت الى هذه الليلة من قابل ، لالحقن آخر الناس باولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء ، فتوفي قبل ذلك (١٩١) .

وعلى اية حال ، فان الوقت كان كفيلا بتقليل الفوارق بين الناس في الرواتب ، وكان الموت من أهم العوامل التي كانت تعمل على ازالة الفئات التي فضلت في العطاء ، نظرا الى ان السبق الى الاسلام وهو علة الاثرة في العطاء والتفضيل لا يورث . وفي خلافة عثمان كثر الخراج ،واتاه المال من كل وجه ، وادر الارزاق ، وكان لما استخلف زاد الناس مائة درهم في العطاء(١٩٢) ، غير ان توسعه في بذل الاقطاعات من ارض الصوافي (١٩٣) ، وهيمنة بني امية على زمام الامور ، ادى الى انتقاد سياسة الدولة ومنها سياسة الاقتصاد في زمنه والثورة عليه ، فلما استخلف علي بن ابي طالب ،اعطى الناس بالسوية ، ولم يفضل احدا على احد ، واعطى الموالي كما اعطى الصليبة ، وكان كلما جاءه مال وزعه في الناس ، فاعطى في سنة واحدة اربع مرات وقال ، اني لست لكم بخازن (١٩٤) .

ومما يجدر ذكره ، ان العطاء والارزاق كانت تفرض لاهل الحاضرة من المسلمين دون غيرهم من الذين كانوا لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم ، وهي اشارة الى ان الجهاد والدفع عن البلاد والعباد كان المبرر لبذل العطاء . وخطب عمر ابن الخطاب الناس بالجابية فقال « .. فمن اسرع الى الهجرة ، اسرع به العطاء ،ومن ابطأ عن الهجرة ، ابطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل الا مناخ راحلته»(١٩٥) . وقيل ان رجلا من اهل البادية سأل ابا عبيدة ان يرزقهم فقال ، لا والله ، لا ارزقكم حتى ارزق

أهل الحاضرة ، فمن اراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة(١٩٦) ، ومما قاله ابو عبيـد بهذا الخصوص : « فاما درور الاعطية على المقاتلة واجراء الارزاق على الذرية فلم يبلغنا عن رسول الله (ص) ولا عن احد من الائمة بعده انه فعل ذلك الا بأهل الحاضرة الذين هم اهل الغناء عن الاسلام »(١٩٧) . وكان عمر لا يعطي اهل مكة عطاء ، ولا يضرب عليهـم بعثا . وكان اهل البادية الذين كانوا لايشتركون في الجهاد ، لاعطاء من بيت المال لهم ولا ارزاق ، وانما كانت تؤخذ الصدقات من اغنيائهم وترد في فقرائهم ، واذا اصابتهم الجوائح اغيثوا حتى يرفع ما بهم عنهم(١٩٨) ، على نحو ما جرى في عام الرمادة .

وانشئت المدن والمساجد في البلاد المفتوحة ، البصرة والكوفـة في العـراق ، والفسطاط في مصر ، ووسع عثمان بن عفان عام ٢٦ هـ المسجد الحرام ، وابتاع مـن اجل ذلك من قوم منازلهم . ووسع عام ٢٩ هـ مسجد الرسول (ص) في المدينة ، وحملت له الحجارة من بطن نخل ، وجعل في عمده الرصاص وجعل طوله مائة وستين ذراعا ، وعرضه مائة وخمسين ذراعا (١٩٩) .

ودفعت الدولة اضافة لما سبق ذكره من العطاء والارزاق ، الرواتب للموظفين ، فكان زياد بن ابيه على سبيل المثال ، يتقاضى كل يوم درهمين اجرا على قسمة الغنائم ، وبلغ راتب عامل كل كورة من كور الموصل مائتي درهم(٢٠٠) ، هذا اضافة الى رواتب الخلفاء والولاة والقضاة وباقي موظفي الجهاز الاداري . كما ساهمت الدولة في الانفاق على الحملات العسكرية ، والمنشآت العامة ، ومشاريع الري وامثال ذلك من المصالح العامـة(٢٠١) .

والشواهد السابقة تدل على مدى الدور الذي صارت تلعبه الدولة في حيـاة الناس ، ولكنها لم تتخذ هذا الدور في هذه الفترة للهيمنة عليهم ، والغلبـة والقهر لهم ، فقد أبى عمر بن الخطاب ان يوسع على نفسه في معيشته التي فارقه الرسول (ص) وأبو بكر عليها(٢٠٢) . وكان اذا استعمل عاملا . كتب له عهدا ، واشهد عليه رهطا من المهاجرين والانصار ، واشترط عليه ان لايركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا(٢٠٣) ، ويقول لهم اني انزلت نفسي واياكم من هذا المال بمنزلة والي اليتيم ، قال تعالى: «ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف »(٢٠٤) . وكان اذا وفدوا عليه انتبه الى لباسهم واكلهم عنده . قيل ان عمرو بن العاص قدم عليه مرة ، فقدم لـه ثريدا ، وادخل عمر يده في الثريد فملأها ، وناولها عمروا ، فجعلها عمرو في يده اليسرى ويأكل باليمنى ، ووفد مصر ينظرون ، فلما خرجوا قال عمرو ، والله لقد علم اني بما قدمت به من مصر لغني عن الثريد الذي ناولني ، ولكنه اراد ان يختبرني ، فلو لـم

اقبلها للقيت منه شرا(٢٠٥) . وكان اذا بلغه عنهم كثرة في المال قاسمهم ، وقاسم عمرو بن العاص ، وسعد بن ابي وقاص ، وابا هريرة وغيرهم(٢٠٦) .

كان عثمان بن عفان يعيش من ماله ، وكان علي بن ابي طالب متقشفا . ويصف ابن الطقطقي دولة الراشدين بانها لم تكن من طرز دول الدنيا ، وكان هديها هدي الاولياء ، وهي بالنبوات ، والرتب الدينية ، والامور الاخروية اشبه من الرتب الدنيوية في جميع الاشياء(٢٠٧) .

اما بالنسبة للناس ، فقد وجد المسلمون منهم في البلاد المفتوحة سعة من بعد ضيق ، فانشأوا المدن ، واختطوا المنازل فيها ، وسكنوا ماجلا عنه اهله من الدور والمنازل في الاسكندرية ، ومدن بلاد الشام وغيرها . وكانوا اذا حل الربيع خرجوا بدوابهم يتربعون ، فكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان في العراق ، ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطيب ارضهم من كل سنة ، وامر لهم في وجههم هذا بمعونة من المال(٢٠٨) . وخطب عمرو بن العاص الناس في مصر فقال : يا معشر الناس ، انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، واقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ،وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ، ولبنه ، وخرافه ، وصيده ، واربعوا خيولكم ، واسمنوها ، وصونوها والزموها ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا . وكانوا يقيمون في وجههم هذا حتى يحمض اللبن ويشتد العود ، ويكثر الذباب ، وهي اشارة الى انقضاء الربيع ودخول الصيف ، فعند ذلك يعودون الى الفسطاط ، وكانت قبائل العرب في مصر تنزل المواضع المختلفة ، فكان آل عمرو بن العاص ، وآل عبد الله بن سعد ينزلون في منف ووسيم ، وكانت هذيل تنزل في بنا وبوصير ، وعدوان في بوصير ، وعك في بوصير ومنوف واتريب ، وهذيل في منف وطرابيه ، الصدف ولخم في الفيوم وغيرها(٢٠٩) .

وكثرت الاموال في ايدي المسلمين ، وبلغت ثروات بعضهم مقادير كبيرة تدعو الى الشك والارتياب ، فقيل كانت ثروة عثمان بن عمان يوم قتل خمسون ومائة الف دينار ، والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وغيرها مائة الف دينار ، وخلف خيلا كثيرا وابلا(٢١٠) ، واشترى علي بن ابي طالب ارضا بينبع بثلاثين الف درهم وكانت له مزارع في ارض ينبع والمدينة ، وحرة الرجلاء ، وفدك ، ووادي القرى(٢١١) . وبلغ مال الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس ، والف عبد وامة ، وكان قد ابتنى دارا بالبصرة ، وابتنى دورا في الفسطاط والاسكندرية والكوفة(٢١٢) . وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق الف دينار كل يوم ، وغلته

بناحية السراة اكثر من ذلك ،وبنى دارا بالكوفة ، وشيد دارا بالمدينة ، وبناها بالاجر والجص والساج . وبلغ ربع ثمن مال عبد الرحمن بن عوف اربعة وثمانين الفا ، وكان على مربطة مائة فرس ، وله الف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبنى دارا بالمدينة ووسعها . وكان لسعد بن ابي وقاص دار بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الاموال والضياع التي بلغت قيمتها مائة الف دينار .. وبلغت تركة يعلى بن منيــة ثلاثمائــة الف دينار(٢١٣) .

ويقول ابن خلدون بصدد هذه الثروات ، وهم ، أي الصحابة ، مع ذلــك على خشونة في عيشهم ، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد ، وكان علي يقول ، ياصفراء ويابيضاء غري غيري ، وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج ، وعلى الجملة كانت اموالاحلالا، وكان حالهم فيها على القصد والاعتدال، ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه ،واكتســاب الدار الاخرة(٢١٤) ، فحبس عمر بن الخطاب بعض ماله في وجوه الخير وتوفي مدينا ، وحبس علي بن ابي طالب مزارعه صدقات بين بنيه وأهله واقاربه وفي سبيل الله(٢١٥)، وكذلك فعل الزبير بن العوام(٢١٦) .

ولكن وفرة المال ادت عند البعض الى ظهور البذخ والترف ، مما اغضب الاتجاه الذي كان ينادي بالتزام التقشف ابدا، كما ادت الى ارتفاع اسعار بعض السلع ، ففي عهد الرسول (ص) كانت الدية مائة من الابل ، وقيل كانت قيمة البعير اذ ذاك اربعين درهما، فكانت الدية اربعة الاف درهم ، ثم غلت الابل في خلافة ابي بكر ، فكانت قيمة البعير ثمانين درهما ، ثم غلت في خلافة عمر ، فكانت قيمة البعير عشرين ومائة درهم ، فكانت الدية على عهد عمر بن الخطاب اثني عشر الف درهم(٢١٧) .

أما المواد الغذائية ، وبخاصة ما كان يوزع منها مجانا ، كالقمح ، ارزاقا للمقاتلة وذرياتهم ، فيبدو انها شهدت في هذه الفترة ثباتا في الاسعار بعض الشيء ، فمن جهة، كانت الدولة تقبل الفرائض المالية العينية على الارض من المزارعين ، فكانوا لايضطرون الى بيع منتوجاتهم باسعار رخيصة ، ومن جهة اخرى ، كان المقاتلة وعيالاتهم نتيجة اخذ ارزاقهم عينا ، لا يحتاجون الى شراء هذه المواد الغذائية ..اما السلع الاخرى ، وبخاصة الكمالية منها ، فلابد انها شهدت تغيرا في اسعارها (٢١٨) .

أما بخصوص أهل الذمة من الناس ، فقد حببت الدولة اليهم البقاء ، وعــدم الجلاء عن البلاد المفتوحة ، وعقدت لهم الذمة والعهد، وتركت الارض بايديهم يزرعونها ، ويؤدون عنها الفريضة المالية المقررة ، وقد فرضت الدولة عند تقريــر الضرائب ، ان

لا يظلم احد ، وان لا يكلف احد فوق ما يطيـق(٢١٩) ، وجعلت ادارة هـذه المصلحة مركزية ، والاشراف عليها مباشرا ، وألغت الامتيازات القديمة ، وتحـرر الفلاح من سيطرة الدهاقين وامثالهم . وتحول هؤلاء ، أي الدهاقين ، الى جباة ، وصار الفلاح مسؤولا عن خراج ارضه وجزية رأسه(٢٢٠) . قيل لعامر الشعبي ، أحد فقهاء العراق واعلامه العلماء ، ان اناسا يزعمون ان اهل السواد عبيد ، فقال الشعبي ، فعلام تؤخذ الجزية من العبيد(٢٢١) ، وهي اشارة الى أنهم احرار .

وكان اذا حضر مال الجباية عمر بن الخطاب ، خرج مع المال جماعة من المصر اليه، يشهدون اربع شهادات بالله انه من طيب ، مافيه ظلم مسلم ولا معاهد(٢٢٢) .

وروي عن علي بن ابي طالب ، انه استعمل رجلا على عكبرى (على بعـد عشرة فراسخ من بغداد) فقال له على رؤوس الناس ، لا تدعن لهم درهما من الخراج ، ثم قال له القني عند انتصاف النهار ، فلما حضر قال له ، لاتبيعن لهم في خراج حمارا ، ولا بقرة ، ولاكسوة شتاء ولا صيف ، وارفق بهم ، فان عصيتني نزعتك ، وكان مـن الرفق بهم في هذا الوجه ، ان يؤخذ منهم مما يسهل الاداء فيه عليهم(٢٢٣) .

واضافة الى فتح باب الزراعة امام اهل الذمة ، فتحت ابواب الصناعة والتجارة وغيرها من المجالات الاقتصادية ، ووفـرت لهم الدولة بجيشها الامن على الامـوال والنفوس، واتاحت لهم المناخ المناسب للكسب والانتاج . وكانت المعاملات الاقتصادية من البيوع والشركة وغيرها تجري بحق المسلمين واهل الذمة على السواء . واحيطت حالات التحول الى الاسلام بالرضا والسرور ، ورفعت الجزية عن راس كل مـن كان يسلم منهم(٢٢٤) . وكانت وصية الخلفاء بهم : اوصي الخليفة من بعدي ، بأهل الذمة خيرا ، ان يوفى لهم بعهدهم، وان يقاتل من ورائهم ، وان لا يكلفوا فوق طاقتهم(٢٢٥) .

ولما كانت الدولة لا تصرف الرواتب الا للمقاتلة ، ولا تجعل الاستحقاقات للجند الا بعلة الجهاد والدفع عن البلاد . ولم تقسم الارض بين الجند الفاتحين وجعلتها وقفا على المصلحة العامة للمسلمين ، وكان باستطاعة اهل الذمة ان يتحولوا الى الاسلام ، وينضموا للجيش ، وكان الجميع ، بفضل الجيش ومرابطته ، يتفيؤون ظلال الامـن والطمأنينة ، ويباشرون ما احبوا من المهن والصنائع ، صار القول بان العلاقة بـين الدولة واهل الذمة كانت اقرب الى علاقة بين راع ورعيته منها الى شعب يعيش علـى حساب شعب ، وشعب يحصد ما يزرع غيره(٢٢٦) . هذا علاوة على ان اي بلد لابد له من جيش يحميه ويذودعنه ، فضلا عن ان يكون حامل فكر للناس . وضمان العيش للقومة بهذه الاهداف ، اي الجيش ، لا يجيز ان نصف الجيش بهذا السبب انه شعب يحصد ما يزرع غيره ،وهذا اذا سلمنا ان الناس يؤثرون الجندية على غيرها، وانهامجال لا يوازيه في المنفعة والمكاسب المادية مجالات العمل الاخرى .

الحواشي :

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٣١ ، ابو عبيد بن سلام الاموال ص ٣٩، ١١٧ . البلاذري، فتوح البلدان جـ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٥٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٤-٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٤٦ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٢٩٩.ابو هلال العسكري ، الاوائل ص ٢١٨ .

(٦-٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص١١٧ - ١١٩ . البلاذري، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٠٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ١٣٤ ، ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ٢ ص ٢٨١ .

(٩) اورد البلاذري بخصوص ذلك قول ابي حنيفة قال : ايما ارض اخذت عنوة مثل السواد والشام ولم تقسم ففي رقاب اهلها الجزية وعلى الارض الخراج .
انظر : البلاذري ، فتوح جـ ٣ ص ٥٤٦ .

(١٠) روى خليفة بن خياط قال : جهد زياد في سلطانه ان يخلص الصلح من العنوة فما قدر .
انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .

(١١) ذكر خليفة بن خياط بخصوص فتح الري : فافتتحت الري عام ٢٤ هـ صلحا او عنوة .
انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥٧ .

(١٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٤٦-١٤٧ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ص١٣٨-١٣٩.

(١٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٧٥، ٥٨٧ ، جـ ٤ ص ٣١ . البلاذري ، فتوحالبلدان جـ ٢ص٣٠٠ .

(١٤) من هذه القريات : اليس ، الحيرة ، بانقيا ، انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ص ٥٨٤ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٥٢،٤١-٥٣ .

(١٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣ ، ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . ابو جعفر الطبري، تاريخ الطبري جـ ٣ص ٥٨٧ .

(١٦) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .

(١٧) ابن قتيبة / المعارف ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٩ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٦ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٦.

(١٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٢-٩٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفـــة ص ١٤٣-١٤٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٢ .

(١٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٩ . ابو عبيد بن سلام، الاموال ص ١٤٦ - ١٤٧ . ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٠٥.

(٢٠) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٢٣-٢٨ ، ٣٥ .

(٢١) كان ممن يرى رأي عمر من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة بن عبيدالله ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وكان ممن يخالف رأي عمر عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن رباح.

انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٥ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٨ .

(٢٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٢-٧٩ . البغدادي ، تاريخ بغداد جـ ١ ص ٩. الماوردي، الاحكام السلطانية ص ١٣٧ ، ١٤٧ .

(٢٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٣١-٣٢ . الشافعي ، الام جـ٢ ص ٨١، ١٠٢ . ابو عبيد بن سلام، الاموال ص ٨٦-٨٧ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ص ٣٢٨ .

(٢٤) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٨٣ ،
وانظر : محمد بطاينة ، فتح فلسطين - بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، المجلد الثالث ص ٤٩ .

(٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٥٨٦ - ٥٨٧ . ابو عبيد بلام ، الاموال ص ٨١-٨٤. البلاذري ، فتوح البلدان جـ ص ١٧٩ ، جـ ٢ ص ٣٢٧ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ٢ ص٣٦٤.

(٢٦) كتب سعد بن ابي وقاص من العراق الى عمر بن الخطاب قال : « .. وعددنا قليل ، وقد كثر اهل صلحنا ،وان اعمر لنا واوهن لعدونا تالفهم » . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٨٥.

(٢٧) سورة الحشر الآيات ٦-١٠ .

(٢٨) ابو يوسف ،الخراج ص ٢٦-٢٧ .

(٢٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٤-٢٦ . الازدي ، فتوح الشام مخطوط ص ٤٧. ابو عبيد بن سلام، الاموال ص ٨٠-٨٧ . يحيى بن ادم، الخراج ص ٢٧ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ١ ص ١٨٣ .

(٣٠) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١١٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ص ٥٩٤.

(٣١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٠٥ . ابو جعفر الطبري، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٩٤ .

(٣٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٠ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٥٥.

(٣٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٥٧ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ١ ص ١٧٦ .

(٣٤) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٧ .

(٣٥) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٨-٢٩ .

(٣٦) بشأن مدلول لفظي « الجزية والخراج » انظر : محمد الريس ، الخراج والنظم المالية ص ١١٦ - ١٢٧ .

(٣٧) دينيل دينيت ، الجزية ولاسلام ص ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ . يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٩ .

(٣٨) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٣٣،٤٠،٦٣٦ .

(٣٩) المصــدر نفسه ص ٤٠ .

(٤٠) من الشواهد التي تدل على وجود ضريبتين : ضريبة الراس (الجزية) وضريبة الارض (الخراج): ما ذكره ابو يوسف عن محمد بن اسحاك عن الزهري قال : فترك (عمر) الارض واهلها ،وضرب عليهم الجزية ،واخذ الخراج من الارض . ابو يوسف ، الخراج ص٢٨ ، ص ٣٥ . وما ذكرهابو عبيد قال : وفرق عمر بين خراج الراس وخراج الارض . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٢١١ .
وقال حسن بن صالح : واما سوادنا هذا ، فانا سمعنا انه كان في ايدي النبط ، فظهر عليهم اهل فارس ، فكانوا يؤدون اليهم الخراج ، فلما ظهر المسلمون على أهل الجزية ، تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والدهاقين على حالهم ، ووضعوا الجزية على رؤوس الرجال ، وقسموا عليهم ما كان في ايديهم من الارض ، ووضعوا عليها الخراج .

انظر : يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .

(٤١) ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

(٤٢) روى ابو جعفر الطبري عن ابن اسحاق قال : وافتتحت نهاوند ، فلم يكن للاعاجمبعد ذلكجماعة.
انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١١٦.
وانظر : د. صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ١٣٣ .

(٤٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٧ــ٢٨ .

(٤٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص٥ .ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص٧١ .المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٨٩ . ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٢٦٨.

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٤٦) اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٤٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٨. البلاذري ، فتــوح البلدان جـ ٢ ص٣٣٠ــ ٣٣١ .

(٤٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣،١٢١ .

(٤٩) يذكر اليعقوبي جبايتين للسواد في خلافة عمر بن الخطاب بلغت الاولى ثمانين الف الف درهــم وبلغت الثانية عشرين ومائة الف الف درهم ، فاذا كان التنظيم المالي في العراق بدا عام ٢١ هـ، وحصلت الجباية الاولى عام ٢٢ هـ ، فتكون الجباية الثانية اخذت عام ٢٣ هـ على اساسالتعديل الذي يمكن ان يكون تم عام٢٢ هـ ، وقتل عمر بن الخطاب عام٢٤ هـ. تاريخ اليعقوبي جـ ٢ص١٥٢.

(٥٠) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣١.

(٥١) من اجل هذه الاختلافات ، انظر :

ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٦ــ٩٨ . اليعقوبي ، تاريـــخ اليعقوبي جـ ٢ص١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٢٩ ــ ٣٣٢ . ابو هلال العسكري، الاوائل جـ ١ ص ٢٤٤.

(٥٢) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ص ٣٣٢ــ٣٣٣.

(٥٣) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٥٤) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٨٦-٥٨٧.

(٥٥) يقول يحيى بن ادم بخصوص الصوافي : فذلك للمسلمين ، وهو الى الامام ، ان شاء اقام فيهـا من يعمرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئا ، ويكون الفضلة له ، وان شاء انفق عليهـا من بيت مال المسلمين ، واستأجر من يقوم فيها ، ويكون فضلها للمسلمين ، وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .

(٥٦) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٥٧) ابويوسف ، الخراج ص ٢٨ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٧٥ ، ٥٨٤، ٥٨٧، جـ ٤ ص ٣٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١١٦ ــ ١١٧ . البلاذري، فتوح البلدان جـ٢ص٣٠٠. دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٤ .

(٥٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٥ ، ٢١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص٣٢٧.

(٥٩) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٥ . وكان عثمان بن حنيف بعد ان فرغ من عرضهم واحصائهم اعلم الدهاقين بعددهم وكسر الخواتيم . ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨ .

(٦٠) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٧، ١٢٨ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٦١) كتب عمر بن الخطاب الى امراء الاجناد ان يضربوا الجزية ، ولا يضربوها على النساء والصبيان، ولا يضربوها الا على من جرت عليه الموسى . ابو يوسف ، الخراج ص١٢٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١، ٥٥-٥٦ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨ ، ١٨٠ . يحيى بن ادم القرشي الخراج ص ٧٣.

(٦٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٥٨٣.

(٦٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥.

(٦٤) المصدر نفسه ص ٧٤.

(٦٥) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ ــ ١٢٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦. البـلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٣٠. ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٤٥ .

(٦٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٦٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٣٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢١٣ ــ ٢١٤.

(٦٨) كان من عمال الخراج على السواد في خلافة عمر بن الخطاب : عثمان بن حنيف على ماسقى الفرات، وحذيفة بن اليمان على ماسقى دجلة . انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦-٤٨.

(٦٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٤ .

(٧٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٧١) ابو هلال العسكري ، الاوائـل جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٧٢) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٧.

(٧٣) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٥٠-٥١ .

(٧٤) الازدي ، فتوح الشام ص ٨٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٨٨ . البلاذري، فتوح البلدان جـ ١ص١٣٤ .

(٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨.

(٧٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٢٩٠ ، ٣٠٠ . البلاذري ، فتوح البلـدان جـ١ ص: ١٣٧ ، ١٣٩، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٤ ، ١٧٩ .

(٧٧) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨ .

(٧٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٣٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥ ، ٦٩٥ . يحيـــى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٧٣ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ١٤٨ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ص١٥١ .

(٧٩) البلاذري ، فتوح البلدانجـ١ ص ١٥٧ .

(٨٠) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٧ .

(٨١) لان عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٧٦ .

(٨٢) دينيل دينيت ،الجزية والاسلا مص٩٦ ــ ٩٧ .

(٨٣) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٨٣ ــ ١٨٤ .

(٨٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤.

(٨٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

(٨٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ١٧٥ــ١٧٦.

(٨٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٤١. البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ٢٠٥ .

(٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ص ٢٠٦ ــ ٢٠٨ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابـــة ص ٣١٣ .

(٨٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٠ أــ ١٢١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢١٦.

(٩٠) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣١٤ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص٢١١.

(٩١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٠ . الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٨ .

(٩٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ص ٢٣٣ــ٢٣٤ .

(٩٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٦٠ .

(٩٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابةص ٣٣٧.

(٩٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٢.

(٩٦) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ص ٨٥ .

(٩٧) المصدر نفسه ص ٨٢ ــ ٨٤ .

(٩٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٣٧.

(٩٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٠ ، ٧٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٢ . قدامةبن جعفر ،الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٧ .

(١٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ٢٥٢ .

(١٠١) ابن عبد الحكم ، فتـوح مصر ص ٩٠ .

(١٠٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٠،٧٢ .

(١٠٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٤ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٣٨.

(١٠٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٣ .

(١٠٥) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٥٠ - ١٥١ .

(١٠٦) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(١٠٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٥٢-١٥٣ . المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٤١.

(١٠٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعـة الكتابة ص ٣٤٠ .

(١٠٩) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٥٧ .

(١١٠) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٨٢ .

(١١١) اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٥٤ ١.

(١١٢-١١٣-١١٤) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٤٤-١٤٥ .

(١١٥) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ ص ١٨٢ .

(١١٦) محمد الريس ، الخراج والنظم المالية ص ٤٩ ١- ١٥٥ .

(١١٧) البلاذري ، فتو حالبلدان جـ ١ ص ٢٦٤ .

(١١٨) المصـدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٦ .

(١١٩) ابو جعفر الطبري ، تاريـخ الطبري جـ ٤ ص ٢٥٦ .

(١٢٠) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(١٢١) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٨١ .

(١٢٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٣٨.

(١٢٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٧٥ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٧١.

(١٢٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٩٥ . قدامـة بن جعفر ، الخـراج وصناعة الكتابة ص ٣٧٢، ٣٧٣ .

(١٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥١، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٤، ١٧٥ .

(١٢٦) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٩٠ .

(١٢٧) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٠١.

(١٢٨) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

(١٢٩) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٤ ، ١٣٦ .
وانظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٧٨ – ٧٩ .

(١٣٠) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥١ ، ١٥٨ .

(١٣١) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

(١٣٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٦٧.

(١٣٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(١٣٤) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .

(١٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٣ ص ٤٩٩ – ٥٠١ .

(١٣٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٤٠٤ .

(١٣٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .

(١٣٨) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٩٢ .

(١٣٩) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٣ ص ٥٢١ .

(١٤٠) انظر : قدامة بن جعفر ،الخراج وصناعة الكتابة الصفحات : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠١ ، ٤٠٢، ٤٠٤ . وانظر : دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٨٥ . الدوري، النظم الاسلامية ص ١٠٥ –١٥١.

(١٤١) انظر : الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨١ – ٢٨٦ .

(١٤٢) ابن حبيب ، المحبرص ٢٦٤–٢٦٦ .

(١٤٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٣ .

(١٤٤) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤١ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٧ .

(١٤٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٦،٧٠٩ .

(١٤٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤٢ .

(١٤٧) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٥.

(١٤٨) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٣٦.

(١٤٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧١٢ .

(١٥٠) المصدر السابق نفسه ص ١٧١ ، يحيى بن ادم القرشي ، الخراجص١٧٩ .

(١٥١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١١٣ .

(١٥٢) الشافعي ، الام جـ ٢ ص ١٤ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦٣.

(١٥٣) ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٦٥ .

(١٥٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٥ .

(١٥٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٧٧.

(١٥٦) الشيباني ، شرح السير الكبير جـ ٥ ص ٢١٣٣-٢١٣٤ .

(١٥٧) الشافعي ، الام جـ٢ ص ١٧ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٥ .

(١٥٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٢-٥٥٦.

(١٥٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١٤-٥١٥.

(١٦٠) الشافعي ، الام جـ ٢ ص ١٤ باب الزكاة .

وانظر : صالح العلي ، تنظيم جباية الصدقات في القرن الاول الهجري ، مجلة العرب الجزء العاشر السنة الثالثة تموز ١٩٦٩ ص ٨٧٠ - ٨٧٣ .

(١٦١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

(١٦٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١٦٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢١٤ .

(١٦٤) انظر : الشافعي ، الام جـ٢ ص ٢٩-٣٠ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٦٣٧-٦٣٩ ، ٦٦٧، ٦٧١ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ١١٣ ، ١٥٠ .

(١٦٥) الشيباني ، شرح السير الكبير جـ ٤ ص ٢٠٨٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٤١٩ .

(١٦٦) البلاذري ، انساب الاشراف جـ ٥ ص ٢٨.

(١٦٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٤ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٧٣-٣٧٤.

(١٦٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٥.

(١٦٩) جاء التقدير اعتمادا على ان خراج مصر كان اربعة ملايين دينار ، وخراج الشام مليون ونصف دينار ، وخراج الجزيرة خمس وخمسون مليون درهم أي ما يعادل اربعة ملايين ونصف المليون من الدنانير ، وخراج العراق مائة مليون درهم أي ما يعادل ثمانية ملايين دينار .

(١٧٠) نذكر من الحالات الاستثنائية ، ان عمر بن الخطاب فرض لكل واحدة من أزواج الرسول (ص)عشرة الاف درهم ، الا عائشة ، فانه فرض لها اثني عشر الف درهم ، والحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي،وقيل بل فرض لكل واحدة منهن ستة الاف درهم .
والحق باهل بدر العباس بن عبد المطلب والحسن والحسين لمكانتهم من رسول الله (ص)وقيل الحق بهما أبا ذر وسلمان الفارسي ، وقيل فرض للعباس اثني عشر الفا ، وقيل فرض له سبعة الاف درهم .

انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص٦١٤-٦١٥ . ابو يوسف ، الخراج ص٤٢-٤٤. الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٤ ص ٥٤٨ .

(١٧١) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص٤٤ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٣ ص ٥٥٠-٥٥١ .

(١٧٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٥ .

(١٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٥٥٣ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص١٠٢.

(١٧٤) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ص ١٤٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٣.

(١٧٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج٤ ص ٩٠-٩١. وانظر : يحيى بن ادمالقرشي ،الخراجص٦٠.

(١٧٦) البلاذري ، فتوح البلدان ج٣ ص ٥٥٢.

(١٧٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج٣ص٦١٤-٦١٥ .

(١٧٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٣٨.

(١٧٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .

(١٨٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ص١٥٠ . البلاذري، فتوح البلدان ج ٣ص٥٥٢.

(١٨١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٧.

ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٢٥١-٢٥٢.

(١٨٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ص٤٣.

(١٨٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٦ .

(١٨٤) انظر : المصدر نفسه ج٣ ص ٥٩٧ ، ج٤ ص ٢٩٤ . البلاذي ، فتوح البلدان ج٦ص ١٥ .

(١٨٥) ابوجعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج٤ ص٤٨.

(١٨٦) المصدر نفسه ج٤ ص ٤٣.

(١٨٧) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٦٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ج١ ص ٢٥٢، ٢٥٣.
ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ،ج٢ ص ٤٦٦،٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤.

(١٨٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢١٠-٢١١ .

(١٨٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ .

(١٩٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٩٢.

(١٩١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .

(١٩٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص١٩٤،٢٤٥.

(١٩٣) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٥ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشقج١ ص١٨٤.
يحيى بنادمالقرشي ، الخراج ص ٧٩ .

وقيـل ان سعيد بن العاص الاموي قال وهـو وال لعثمان بن عفـان على الكوفة ، انمـا هـذا السواد بستان لقريش ، فقال الاشتر النخعي ، اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنـا بستان لك ولقومك .

تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢٣.

(١٩٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٣ .

(١٩٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣١٩ .
(١٩٦) المصدر نفسه ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(١٩٧) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٠.
ويورد ابن عساكر حديث بريدة لاسامة قال له ، شهدت رسول‌الله (ص)يوصي اياك ان يدعوهم الى الاسلام ، فان اطاعوه خيرهم ، فان احبوا ان يقيموا في ديارهم ويكونوا كاعوان للمسلمين فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة ، الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، وان تحولوا الى دار الاسلام كان لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ماعلى المهاجرين .
ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص١٢٤ .

(١٩٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٦ .

(١٩٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٦٤،١٦٦ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص١٥٩،١٦٣.

(٢٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٤٤٠،٤٤١ .

(٢٠١) انظر : صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص١٦٥ـ١٧٠.

(٢٠٢) الازدي ، فتوح الشام ص٢٥٣ـ٢٥٤ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ ص ٦١٧.المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٥ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ٢ ص ٣٥٢.
(٢٠٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٠٨ .

(٢٠٤) سورة النساء اية٦ .

(٢٠٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٩.

(٢٠٦) انظر : اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٧ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٣٨١ـ٣٨٢. ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

ومما يروي ان خالد بن‌الصعق وقيل عمرو بن الصعق شكى الى عمر بن الخطاب ما عليه الولاة من جمع المال وكتب ذلك شعرا قال :

ابلغ امير المؤمنين رسالة فانت ولي الله في المال والامر
فارسل الى النعمان فاعلم حسابه وارسل الى جزء وارسل الى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما وصهر بني غزوان عندك ذا وفر
اذا التاجر الهندي جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري
نبيع اذا باعوا ونغزوا اذا غزوا فاني لهم مال ولسنا بذي وفر
فقاسمهم نفسي فداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر

وفي ظني ان الاسماء الواردة في هذا الشعر هي لعمال في خلافة معاوية وليس في خلافة عمر ، ولكن مقاسمة عمر للعمال جرت.

انظر من اجل الشعر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٦ ـ ١٤٩.

(٢٠٧) ابن الطقطقي ، الفخري ص ٧٢،٧٣ .

(٢٠٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ص٤٣.

(٢٠٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤١ـ١٤٢.

(٢١٠) المسعودي ، مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤١–٣٤٢ .

(٢١١) عمر بن شبه ، تاريخ المدينة المنورة جـ ١ ص ٢١٩–٢٢٥ .

(٢١٢) المسعودي ، مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٢.

(٢١٣) المصدر نفسه جـ ٢ص٣٤٢ .

(٢١٤) ابن خلدون ، المقدمة ص١٥٣–١٥٤.

(٢١٥) من اجل كتاب صدقة علي بن ابي طالب ، انظر : زيد بن شبه ، تاريخ المدينة المنـــورة جـ١ ص٢٢٦ – ٢٢٨ .

(٢١٦) زيد بن شبه ، تاريخ المدينة المنورة جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢١٧) المصدر نفسهجـ ٢ ص ٧٥٦ – ٧٥٧ .

(٢١٨) صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ .

(٢١٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٧ ، ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٥٦–٥٧ .

(٢٢٠) انظر : الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ص ٥٩. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٢٩. جمال جودة ،العرب والارض فيصدر الاسلام ص ١١٠–١١١ .

(٢٢١) ابو جعفر الطبري ،تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٥٨٧.

(٢٢٢) ابو يوسف، الخراج ص ١١٤.

(٢٢٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٦٢–٦٣.

(٢٢٤) انظر : يحيى بن ادم القرشي، الخراج ص٢٢.

(٢٢٥) ابو يوســف ، الخراج ص١٢٥ .

(٢٢٦) انظر : فون كريمر ، تاريخ الحضارة في الشرق جـ ١ ص ١٧١.



البَلْقَـــاء

من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

« دراسة سياسية ادارية »

د. محمد عبد القادر خريسات
الجامعة الاردنية

الاسم والمدلول

ورد اسم البلقاء في المعاجم العربية والمصادر الجغرافية والتاريخية الاسلامية غير أن هذه المصادر لم تتفق على معنى الاسم ومدلوله .

ففي المعاجم العربية جاءت كلمة « البلقاء » بمعان مختلفة ، ومشتقة من الالفاظ التالية :

البلق : بمعنى السواد والبياض المختلطين ولذلك قيل أبلق وبلقاء لمن كانت فيه هاتان الصفتان . ووردت كذلك بمعنى الفتح ،أي انبلق الباب بمعنى انفتح . والبلقاء تانيث لكلمة أبلق ، والبلوقة الارض القفر التي لا ينبت فيها الشجر . أما كلمة البلقاء نفسها فقد جاءت بمعنى الفسطاط والارض المستوية(١) .

هذا من الناحية اللغوية ، أما من الناحية الاصطلاحية فالبلقاء شأنها شأن المسميات الاخرى في بلاد الشام التي نسبت الى أقوام او اشخاص سكنوا هذه المنطقة ، فكان ان نسبها بعض الجغرافيين والتاريخيين الى بالق بن مآب أو الى بالق ابن سويرية من بني عمان ،أو بلقاء بن صفر(٢). وبالق هذا هو ملك المؤابين الذي استعان

بالعراف بلعام Balaam ليصب لعنته على اليهود (٣) . ومن خلال ما تقدم فان تسمية البلقاء قد جاءت إما من الاشتقاق اللغوي ، واما بنسبتها الى شخص ما . وهنا لابد من مناقشة الأمرين علنا نتوصل الى عامل مرجح لهذه التسمية .

ان نسبة الاسم الى الاشتقاق اللغوي المأخوذ من البلوقة ، أي الارض القفر التي لا تنبت الشجر ، لا ينطبق وواقع البلقاء التي اشتهرت بخصوبة تربتها وبحسن انتاجها لحبوب خاصة القمح الذي ضرب به المثل(٤) ، ولا لكثرة غاباتها التي كانت منتشرة في الزرقاء الى الشرق من عمان حتى أطلق عليها اسـم « المسبعة » (٥) لكثرة سباع غاباتها ، ولا لغابات السلط الكثيفة الواقعة الى الغرب من عمان حيث جاءت تسمية المدينة من الكلمة اللاتينية Saltus (٦) أي الغابات الكثيفـة . هذا بالاضافـة الى الاشجار المثمرة التي كانت منتشرة في معظم أنحاء البلقاء كما سنرى. لكل ذلك يستبعد أن تكون البلقاء قد أخذت اسمها من الاشتقاق اللغوي لكلمة البلوقة التي جاءت بمعنى الارض القفر .

ومن ناحية نسبتها الى شخص معين « كبالق » فان هذهالتسمية بعيدة الاحتمال لكون كثير من الجغرافيين كانوا يلجأون الى مثل هذه التسميات قياسا على مناطـق نسبت فعلا الى أشخاص معينين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ان التوراة لـم تورد هذه التسمة ، كما أنها لم تشر الى أن بالق بن صفور(٧) ملك المؤابيين هذا قـد أطلق اسمه على بعض المناطق التي كانت تحت سيطرتـه ، بالاضافـة الى أن حدود المؤابيين لم تتجاوز وادي الموجب في حين كانت سهول ميدبا (مادبا اليوم) وحشبون (حسبان اليوم) من أملاك الاموريين(٨) وربة عمون من أملاك العمونيين(٩) . وهـذه المناطق هي من أرض البلقاء فلا يعقل ان يطلق الاموريون والعمونيون على مناطقهـم اسم ملك بلد مجاور . وهذا يرجح ان التسمية قد أطلقت في وقت متأخر عن بالـق بن صفور ، لكن الجغرافيـين نسبوها الى بالق ملك المؤابين حتى يضفوا على هـذه التسمية شيئا من الاهمية .

ومما يدعم احتمال بعد هذه التسمية ان المصادر التي ذكرت نسـب بالق هذا قد جاءت مختلفة ولم تتفق على نسق واحد في تسلسل هذا النسب(١٠) .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن هناك مناطق أخرى قد سميت « بالبلقاء » دون أن تنسب الى أسماء أشخاص كما نسبت البلقاء موضوع الدراسة(١١) .

ومما تقدم فان احد الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء بمعنى البلق أي السـواد

والبياض المختلطين، وبمعنى الارض المستوية، هماأقرب الاحتمالات لمصدر هذه التسمية للأمور التالية :

١ ــ ان منطقة البلقاء كانت مطروقة لعرب الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الميلاد ، بل أن بعض الدول اليمنية قد أقامت لها مستوطنات على الطريق التجاري كمعان التي كانت مستعمرة هامة للمعينيين(١٢) وقد حملت هذه المستعمرة اسمهم فسميت بيت بعل معون(١٣) .

٢ ــ ان هجرة القبائل العربية الى أطراف الشام قد بدأت مع مطلع الالف الاول قبل الميلاد ، ثم ظهرت بصورة متزايدة في القرن الثالث الميلادي ، ومن هذه القبائل قضاعة التي غلبت على معظم مناطق البلقاء(١٤) واتخذت لها راية سمتها « البلق »(١٥) والبلق كما رأينا من الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء ، ولعل في هذه التسمية ارتباط بين الراية ومناطق قضاعة في هذه المنطقة .

٣ ــ ضمت البلقاء مناطق جبلية بيضاء أشار اليها المقدسي في أواخر القرن الرابع بقوله (١٦) :

« ان بعمان جبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح .. » .

والى جانب القمم البيضاء وجدت الغابات في جبال وسهول البلقاء ، بالاضافة الى ان المنطقة المتاخمة لها من الجهة الشمالية والشمالية الغربية قد أطلق عليها اسم السواد ، فذكر ياقوت(١٧) بأن السواد موضعان : أحدهما قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها .. والاخر بالعراق سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والاشجار .

٤ ــ الى جانب مناطق السواد والبياض في البلقاء ضمت هذه المنطقة اراضي مستوية واسعة في سهول حسبان او مناطق الازرق او مناطق معان .

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بان كلمة البلقاء كلمة عربية جاءت من الاشتقاق اللغوي للبلق وهو بمعنى السواد والبياض والارض المستوية وليس من نسبتها الى شخص معين كما نقلت لنا بعض المصادر .

حدود البلقاء :

ان اختلاف التقسيمات الادارية عبر العصور الاسلامية ادى الى عدم اتفاق

المصادر على تعيين حدود البلقاء ، ورغم هذه الاختلاف فانه يمكن رسم الصورة التالية لحدود البلقاء خلال فترة هذه الدراسة .

ان حد البلقاء من الجنوب هو الحد الفاصل بين بلاد الشام والجزيرة العربية ، وفي هذا الحد تقع بادية الشام وبادية الجزيرة ، فتيماء وبرية خساف الى قرب وادي القرى والحجر من بادية الجزيرة ، واما حد بادية الشام فأوله أيلة وديارطيء وبذلك تصبح أيلة أول حد البلقاء من الجنوب . وهذا يخالف ما ذكره ياقوت من أن وادي القرى هو الحد الفاصل بين الجزيرة العربية وبلاد الشام(١٨) . وعلى هذا الاساس تقريبا جرى رسم الحدود بين الاردن والسعودية في الوقت الحاضر . ومن الغرب فقد سارت حدود البلقاء الى الغرب من الطريق التجاري القديم المار من بصرى والمتجه جنوبا الى نهر الزرقاء ، ومن جنوب نهر الزرقاء كان نهر الاردن وامتداده « وادي عربة » الى أيلة (العقبة) هو الحد الفاصل عن جند فلسطين الذي امتد عرضه من يافا الى اريحا(١٩) . ومن الشمال وصلت حدود البلقاء الى أذرعات والبثنية فما كان من جنوبها فهو من البلقاء (٢٠) .

ومن الشرق امتدت البلقاء الى ما بعد منطقة الازرق حيث بادية الشام(٢١). وهكذا نجد أن البلقاء قد اطلقت على جميع المنطقة التي سميت فيما بعد بشرق الاردن باستثناء المنطقة الواقعة الى الغرب من الخط التجاري القديم الممتد من بصرى الى الجنوب والمحصورة بين نهري اليرموك شمالا والزرقاء جنوبا ، اذ كانت هذه المنطقة من جند الاردن(٢٢) . وقد قدرت المسافة بين القدس والبلقاء بمرحلتين ومن مشارف حوران الى البلقاء بثلاث مراحل(٢٣) .

وفي العصور الحديثة استقرت حدود البلقاء بالمنطقة المحصورة بين نهر الزرقاء شمالا ونهر الموجب جنوبا الى نهر الاردن غربا والازرق والبادية شرقا(٢٤) .

البلقاء عند الفتح الاسلامي :

كشفت الحفريات الاثرية في بعض مناطق البلقاء ان هذه المنطقة كانت مأهولة منذ العصور الحجرية القديمة(٢٥) ، ومع بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد نشأ في هذه المنطقة ممالك صغيرة كان من أهمها الادوميون والمؤابيون في جنوب البلقاء والاموريون والعمونيون في شمالها . وفي مطلع القرن الاول قبل الميلاد نشأت في جنوب البلقاء دولة عربية هي دولة الانباط التي بلغت أوج مجدها زمن الملك الحارث الرابع (٩ق٠م – ٤٠ م) وامتد نفوذها على شرق الاردن اليوم جميعها وجنوب فلسطين وحتى حدود دمشق وشمال الجزيرة العربية(٢٦) .

وفي هذه الفترة ، أي القرن الاول قبل الميلاد ، بدأت هجرة القبائل العربية الى أطراف الشام . ثم تتابعت في القرن الثالث الميلادي فكانت قضاعة من أوائل القبائل المهاجرة واستقرت في البلقاء(٢٧) . وفي أواخر القرن الثالث الميلادي هاجرت قبيلة غسان برئاسة عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء واستوطنت أول أمرها البلقاء(٢٨) ثم استولت بعد ذلك على مناطق سليح في حوران واقامت في الشام مملكة الغساسنة التي امتد نفوذها زمن الملك جبلة الاول (ت ٤٩٧ م) الى فلسطين(٢٩) .

ومع مطلع القرن السادس الميلادي دب الضعف في مملكة الغساسنة الذين انقسموا الى خمس عشرة فرقة على كل منها رئيس او شيخ ، كان أبرزها آل جفنة. ويذكر ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٩ م) ان الروم قد اخذت دمشق من آل جفنة بعد ان ضعفت مملكتهم وأخرجتهم الى عمان مدينة البلقاء ، وجعلت دمشق متنزها لملوكهم(٣٠) .

وقبيل الفتح الاسلامي سكنت قبيلة غسان البلقاء في مناطق أذرح ومعان والقسطل وعمان بالاضافة الى حوض اليرموك والجولان وصيدا وجبلة(٣١) . هذا وقد ترك الغساسنة آثاراً متعددة في البلقاء منها صرح الغدير ، وهو عبارة عن حمام شيده عمرو بن جفنة في المنطقة المحاذية لحوران في السهل الواقع الى الشرق من قصر الحلابات(٣٢) ، وقصر أبير (باير) ، وقصر معان وشيدهما الحارث بن جبلة(٣٣) ، وقصر القسطل الواقع على بعد ٨ كم الى الغرب من المشتى ، ويعتقد بان جبلة بن الحارث قد أمر ببنائه بالاضافة الى القناطر وأذرح(٣٤) .

وشارك الغساسنة في البلقاء قبائل منها جذام التي امتدت مناطقها من وادي القرى وبادية الشام الى حسمى وأذرح وجبال الشراة ومعان وأيلة الى حدود فلسطين(٣٥) ، وقد جعل هذا الأتساع منها قبيلة قوية تقف على قدم المساواة مع مملكتي كندة والغساسنة(٣٦) . ومنها عذرة ما بين وادي القرى والبلقاء(٣٧) ، ولخم في جنوب البلقاء بالاضافة الى مناطقها في الجولان وحوران والبثنية ونوى(٣٨)، وقضاعة في أيلة وجبال مؤاب وبادية الشام مما دعا الروم الى استعمالهم على هذه البادية(٣٩)، ومنها سليح ما بين غزة وجبال الشراة والموقر وخارج البلقاء في السلمية وحوران(٤٠)، وبلي خاصة بني أراشة جنوب البلقاء قرب مؤتة(٤١) ، كما استقرت بعض فروعها في غرندل بالاضافة الى منطقة الحيانيات في كورة جرش والجولان ونوى والبثنية(٤٢) .

مما تقدم نرى ان البلقاء كان يقطنها عند الفتح الاسلامي قبائل غسان وجذام وعذرة ولخم وقضاعة وسليح وبلي ، وقبائل أقل شأنا مثل بهراء وبلقين في غرندل(٤٣) .

وكان للبلقاء قبل الفتح الاسلامي اهمية تجارية كبرى نظرا لموقعها على الطريق التجاري الواصل من قلب الجزيرة العربية الى مصر مرورا بالبلقـــاء وفلسطين ، كما أصبحت هذه المنطقة أيضا ملتقى للطريق العرضاني الواصل بين العراق والبحر المتوسط من جهة والطريق الطولاني (طريق ماريس Via Maris) الذي يبدأ من دمشـــق الى حوران ثم جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق القوافل التجاريـــة . ونظرا لاهمية هذا الطريق التجاري والعسكري فقد تم رصفه في أواخر القرن الاول الميلادي على يد القائد الروماني تراجان (٩٨ – ١١٧م) . وقد اصبح هذا الطريـــق فيما بعد طريقا للقوافل التجارية وقوافل الحجاج الى مكة(٤٣) .

وقد أكسب هذا الموقع البلقاء اهمية خاصة في علاقاتها مع الحجاز ، سواء في ميادين التجارة أم العبادة . ويستدل على العلاقة التجارية أن أبا سفيان قد امتلك ضيعة في البلقاء تدعي بقيش(٤٤) . وفي ميادين العبادة حمل عمرو بن لحي صنم هبل من البلقاء وتوجه به الى مكة عندما رأى أهل البلقاءيعبدونها ويستمطرونها ويستنصروا بها على عدوهم ، فنصبه في الكعبة وطلب من الناس عبادته وتعظيمه(٤٥) .

وزيد بن عمرو بن نفيل الذي خرج يلتمس دين ابراهيم عليه السلام فلما توسط أرض جذام قتل بأرض ميفعة(٤٦) .

ولم تقتصر أهمية البلقاء على الموقع التجاري فحسب بل جاءت ايضا من الاهمية الزراعية والصناعية ، فمن الناحية الزراعيـــة تميزت أرض البلقاء بخصوبة التربـــة ووفرة المياه مما ساعد على تنوع المحاصيل الزراعية فيه . ويأتي على رأس المحاصيـــل الزراعية التي اشتهرت بها المنطقة الحبوب وخاصة القمح حتى سميت البلقاء بمعدن الحبوب(٤٧) نظرا لكثرة انتاجها منه وجودته .

ونظرا لحاجة أهل الحجاز الى هذا المحصول نشطت العلاقات التجارية، فالحجاز يأخذ القمح ،والبلقاء يحصل على التمر . وقد ذكر ابن حجر العسقلاني(٤٨) اسم احد تجار القمح الى الحجاز وهو سيماه البلقاوي ، وقد كان هذا بالاضافة الى مهنتـــه التجارية شماسا في البلقاء ، وقد التقى بالنبي (ص) اثناء بعض رحلاته فأسلم على يديه.

واشتهرت البلقاء كذلك بأشجار الزيتون في أذرح ووادي موسى ، واللوز والتين والرمان والكروم في أذرح ومآب والسلط(٤٩) ، والنخيل في زغر حتى ان ثمرها سمي « بالانقلاء » ووصف بأنه من أجود أنواع التمور عذوبة وأحسنها منظرا(٥٠) ، وكذلك في أيلة(٥١) . وشجرة النيل في زغر والغور التي كانت تستخدم في الصباغة(٥٢) ،وقصب

السكر في الغور(٥٣) والزعفران في جادية(٥٤) ، والروائد الشامي في عمان(٥٥) بالاضافة الى أنواع اخرى من الفاكهة والخضار . وفي مجال الصناعات تميزت جنوب البلقاء بصناعة السيوف لتوفر مادة الحديد ، وقد وجدت هذه الصناعة في مشارف ، واليها نسبت السيوف المشرفية(٥٦) ، ومؤتة التي ذكرها الشاعر كثير عزة بقوله(٥٧) :

اذا الناس ساموكم من الامر خطة   لها خمطة فيها السمام المثمل
أبى الله للشم الانوف كلها   صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

والشراة التي ينسب اليها السيوف الشروية(٥٨) . واشتهرت زغر بصناعةالكنائن الحمر (٥٩) .

واشتهرت جنوب البلقاء كذلك بصناعة الخمور خاصة في زغر ومآب حيث كانت تكثر شجرة الكرمة ، وكان أهل البلقاء يلقحونها بالحمر الذي كان يستخرج من البحر الميت(٦٠) . وقد وصف خمر زغر ومآب الشاعر حاتم الطائي بقوله(٦١) :

سقى الله رب الناس سحا وديمة   جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لا يعرف الذم بيته   له المشرب الصافي وليس له الكدر

ومن الصناعات التي اشتهرت بها البلقاء الطواحين التي ساعدت وفرة المياه على وجودها(٦٢) .

وفي عهد الرسول « ص » لم تقتصر العلاقات على النواحي التجارية بل امتدت كذلك الى الناحية السياسية عندما بعث عليه الصلاة والسلام رسلا الى ملكي البلقاء من الغساسنة الحارث بن ابي شمر الغساني وابن عمه جبلة بن الأيهم(٦٣) ، والى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان(٦٤) ، ويحنة بن رؤبة صاحب أيلة(٦٥) .

وقد ادى مقتل الحارث بن عمير رسول رسول الله «ص» من قبل صاحب بصرى الى بدء المواجهة الحربية بين المسلمين والقبائل العربية المتنصرة في الشام تدعمهم بيزنطة ، فكانت غزوة مؤتة . ولئن مني المسلمون بهزيمة من الناحية التعبوية فان هذه الغزوة مكنت الرسول « ص » فيما بعد من اقامة علاقات ودية مع كبرى قبائل المنطقة وهي « جذام »(٦٦) ، كما عقد صلحا مع أيلة واذرح والجرباء(٦٧) . وبالاضافة الى نشر الاسلام فقد كان هم الرسول « ص » الوصول الى صناعة السيوف التي كانت منتشرة في جنوب البلقاء كما ذكرنا

وقد ساعدت هذه الاتصالات على تكوين منطقة نفوذ للمسلمين امتدت من المدينة الى جبال الشراة في البلقاء . وربما كان هذا النفوذ مشجعا للرسول «ص» في تجهيز حملة أسامة بن زيد للاغارة على البلقاء والداروم من فلسطين(٦٨) ، الا أن هذه الغزوة لم تنفذ في حياته ونفذت في عهد خلفه ابي بكر الصديق .

وأمام سرايا الرسول « ص» الى المناطق الجنوبية من البلقاء وسرية اسامةبنزيد فيما بعد ادرك البيزنطيون اهمية البلقاء ودورها العسكري في مواجهة المسلمين والدفاع عن دولتهم فاتخذوا رابطة (حامية) لهم في عمان قدر عددها بخمسة الاف رجل(٦٩).

فتح البلقاء :

أصبحت البلقاء منطقة مواجهة فعلية بين المسلمين والبيزنطيين ، ونظرا لموقعها العسكري الهام فلابد وأن تكون أول المناطق التي ستجهز لها الجيوش . والواقع ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه ادرك أهمية هذه المنطقة رغم انشغاله بحروب الـردة فعقد لخالد بن سعيد بن العاص وطلب منه ان ينزل تيماء على حدود البلقاء ولايبرحها والا يقاتل الا من قاتله حتى تأتيه أوامر الخليفة .

وأمام ارسال خالد بن سعيد الى تيماء قام الروم باستعدادات عسكرية فطلبوا من عرب الضاحية (القاطنون خارج المدن) لينفروا اليهـــم ، فنفرت بهـراء وكلب وسليـح وتنـوخ ولخم وجـذام وغسان ونزلوا بالقرب من زيزاء ليكونـوا خطـا دفاعيا للرابطة (الحامية) التي كانت في عمان . والظاهر ان خالد بن سعيد بعـد ان تجمعت لديه القبائل التي كانت على حدود ومشارف البلقاء تشجع للتقدم فأرسل الى الخليفة يستأذنه بذلك فوافق الخليفة ، وبدأ خالد بالتقدم فانضم اليه عامة من تجمع له من عرب الضاحية والتقى بالرابطة البيزنطية قرب زيزاء فاوقع بـه الروم هزيمـة منكرة ، فاستبدل ابو بكر جميع جيش خالد فسمي الجيش جيش البدال(٧١) .

وبعد أن فرغ أبو بكر من قتال المرتدين اهتم بالاتجاه نحو الشام ،فجهز جيوشه وأمرها ان تسلك طريق القوافل التجارية (طريق البلقاء) ، فسار ابو عبيدة من وادي القرى الى الحجر وذات المنار الى مآب فصالحت أبا عبيدة فكانت أول مناطق البلقاء صلحا وهي يومذاك فسطاطا ولم تكن بمدينة(٧٢) . ومن مآب توجه أبو عبيدة الىعمان فخرجت اليه حاميتها فهزمهم المسلمون فتحصن الروم بداخل المدينة وشددالمسلمون عليهم الحصار(٧٣) .

والظاهر أن المسلمين قد فكوا الحصار عن المدينة ثم عادوا بعد ذلك اليها ، فيذكر الواقدي(٧٤) أن جيوش الفتح قد توزعت على مناطق الشام : فكان يزيد بن ابي سفيان في البلقاء ، وشرحبيل بن حسنة في بصرى ، ومعاذ بن جبل في حوران وعمرو بن العاص في فلسطين .

وقد تمكن يزيد بن ابي سفيان من فتح عمان صلحا وفق الشروط التي فتحت بها بصرى على ان يمنح أهلها الامان على دمائهم واموالهم مقابل دفع الجزية للمسلمين(٧٥) . ويذكر الواقدي(٧٦) ان جنان وهي حصن منيع بالقرب من عمان قد صالح أهلها على عشرة آلاف دينار ، كما يذكر المقدسي(٧٧) ان صلح البلقاء كان على الف الف درهم وطيلسان وهذا يدل على أهمية المنطقة وغناها .

وبعد الفتح استقرت قبائل جديدة في البلقاء خاصة في القطائع التي كانت تحت يد أنباط القرى والتي لحقت بالروم بعد الفتح الاسلامي ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة عليهم(٧٨) . وقد سكنت هذه المناطق بالاضافة الى القبائل التي كانت قبل الفتح الاسلامي بعض بطون قريش في الشراة(٧٩) ومعان(٨٠)، وبعض بطون قيس ، كبني مرة وفزارة(٨١) وثقيف(٨٢) في البلقاء وحوران ، بالاضافة الى قبيلة طي التي كانت متنقلة في البلقاء(٨٣) .

ومن الناحية الادارية كانت البلقاء من ضمن جند دمشق ، وضمها الى هذا الجند نابع من أهميتها التجارية ووقوعها على طريق الحج ، ولا تذكر المصادر أول من تسلم البلقاء لكن من المرجح ان فاتحها يزيد بن ابي سفيان كان أول من تسلم هذه المنطقة . وبعد وفاته أشارت المصادر الى أن معاوية بن ابي سفيان قد عين على البلقاء بالاضافة الى الاردن وفلسطين والسواحل وانطاكية ، ثم جمعت له الشام كلها فيما بعد(٨٤) . هذا ولا تشير المصادر من كان على البلقاء قبل تسلم معاوية الخلافة في حين أنها أشارت الى تعيين علقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص على حوران من قبل عمر ابن الخطاب ، وحوران كانت من جند دمشق(٨٥) .

البلقاء في العهد الاموي :

نالت البلقاء عناية خاصة من الامويين نظرا لوقوعها على الطريق التجاري وطريق الحج من جهة ، ولكونها اصبحت المتنفس لخلفاء وأمراء بني امية من جهة ثانية . ويدل على هذا الاهتمام تلك القصور التي شيدها الامويون في هذه البلاد والتي لا تزال آثارها ماثلة للعيان في جميع انحاء البلقاء ، في أيلة (العقبة) ومعان وأذرح والجرباء والحميمة وغور الاردن والبادية وعمان(٨٦) .

ومن قصور الامويين في البلقاء قصير عمره ، وقصر الحرانة (الخرانة) في شمال شرق عمان ، وقد بني في عهد الوليد بن عبد الملـك ، وقصر العويند جنـوب شرقي قصير عمرة ، وقصر المشتى جنوب غربي الموقر وتم بناؤه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقصر الموقر في عهد يزيد بن عبد الملك ،وقصر أبير (باير) وهو قصر غساني أعيد ترميمة من قبل الامويين ، وقصر معان الذي شيد على تلة مرتفعة ليزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد ، وقصر عمان الذي كشفت عنه الحفريات مؤخرا وقامت دائرة الآثار بترميمه(٨٧) .

ومن الطبيعي أن يشيد الامويون الى جانب القصور المساجد ، فكان أن أقامـوا مسجدا في عمان وصفه المقدسي(٨٨) بأنه كان مزينا بالفسيفســـاء حتى صار يضاهي مسجد مكة ، ويقوم مكانه اليوم المسجد الحسيني في وسط عمان . ومسـجد خان الزبيب على بعد ٨ كم الى الغرب من القطرانة ، ومسجد أم الوليد على بعد ٩ر٥ كم الى الغرب من زيزا ومسجد أهل الكهف في الرقيم ومسجد قصر الحلابات(٨٩).

واهتم الامويون كذلك بالمشروعات المائية سواء كانت للشرب أم لري المحاصيل الزراعية ، فعلى سبيل المثال أقاموا بركة ماء في زيزاء لتسقي قوافل الحجاج ، وبركة ثانية في الموقر وثالثة في الضليل ، كما عثر في هذه المنطقة على آبار تعود الى الفتـرة الامويـة(٩٠) .

أما من الناحية الادارية فقد كانت البلقاء من الوحدات المتميزة في بلاد الشام، وتظهر هذه الميزة أن الحصين بن نمير السكوني اشترط على مروان بـن الحكم عندما بايعه بالخلافة بان يجعل له ولقومه كورة البلقاء ، ووافق مروان على هذا الشرط الا أنه لم يف به بعد أن استقرت له الامور(٩١) . هذا مع العلم بأن أهل البلقاء قد وقفـوا الى جانب مروان بن الحكم وكانوا من الداعين له بالخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد وقيام مروان بن الحكم بالمطالبة بالخلافة(٩٢) .

ونظرا لاهمية البلقاء كان واليها يعين في حالات كثيرة من قبل الخليفة ، ففي عهد عبد الملك ورد اسم والي البلقاء مع أجناد الشام الاخرى على النحو التالي(٩٣) : فلسطين وعليها سليمان بن عبد الملك ، وحمص وعليها عبد الله بن عبد الملك ، والاردن وعليها أبو عثمان بن مروان بن الحكم والبلقاء وعليها محمد بن عمر الثقفي . ووليها في عهده أيضا أبان بن مروان بن الحكم ، وعلى شرطتها الحجاج بن يوسف الثقفي(٩٤) .

هذا وقد أصهر عبد الملك بن مروان الى البلقاء عندما تزوج الشقراء بنت شبيب

بن عوانة الطائية على مهر مائة من الابل وعشرة الاف درهم وما يتبع من الطيب والخدم والاثاث . ونالت الشقراء عنده حظوة مما دفع عاتكة بنت يزيد بن معاوية ان ترجو روح بن زنباع الجذامي ان يفسد من شأنها عند عبد الملك(٩٥) .

وفي عهد عبد الملك بن مروان كانت « عمان » مركز البلقاء ومركزا لضرب بعض العملات الأموية خاصة بعد ان قام عبد الملك بتعريب النقود .. وقد كشفت التنقيبات الاثرية التي تمت في ساحة السوق الرومانية وسط عمان ما بين عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ عن مجموعة من الفلوس النحاسية الاموية ضربت في عمان(٩٦) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك لا تشير المصادر الى ولاة البلقاء بالرغم من انها كانت متنزها للوليد ، ويدل على ذلك القصور التي شيدها في البلقاء كما ذكرت سابقا .

وفي عهد سليمان بن عبد الملك تبدو البلقاء كمركز من مراكز القيسية خاصة لآل أبي عقيل من ثقيف ، فنقم عليهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب ليخرج أموالهم ويعذبهم، وقد حاول يزيد بن عبد الملك التوسط لدى ابن المهلب لاطلاق سراحهم ، الا أنه لم يقبل شفاعته فقال له يزيد : « أما والله لئن وليت من الامر شيئا لأقطعن منك عضوا. فرد عليه ابن المهلب :وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة الف سيف »(٩٧) .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز حافظت البلقاء على أهميتها، حيث ورد في التقسيمات الادارية أسم واليها مع اجناد الشام الاخرى، اذ جاءت التقسيمات على النحو التالي(٩٨): دمشق وعليها عبد الله بن الحساس العذري وفلسطين وعليها النصر بن بريم بن أبراهيم ابن الصباح والاردن عبادة بن سبي الكلبي وحمص وعليها يزيد بن حصن السكوني، وقنسرين وعليها الوليد بن هشام بن الوليد بن عتبة ، والبلقاء وعليها الحارث بن عمرو الطائي .

ويجيء تعيين وال على البلقاء من طي ليضع عمر بن عبد العزيز حدا لسيطرة القيسية على البلقاء ، وخاصة آل عقيل ، ويستدل على ذلك من الرسالة التي بعث بها الى واليه الحارث الطائي يقول له : أما بعد فاني بعثت اليك بآل عقيل ، وبئس والله أهل البيت في دين الله تعالى وهلاك المسلمين ، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله تعالى وعلى أمير المؤمنين(٩٩) .

ولما تسلم يزيد بن عبد الملك الخلافة اتخذ من الموقر في البلقاء مقرا له فوفد اليه الشعراء ، ككثير عزة ،(١٠٠) والفرزدق(١٠١) وجرير(١٠٢) وغيرهم . وقد بقي في البلقاء حتى وفاته سنة ١٠٥ ، فذكرت بعض المصادر انها كانت بعمان(١٠٣) والبعض الآخر انها كانت باربد من الاردن(١٠٤) .

وفي عهد هشام بن عبد الملك عين على البلقاءصفوان بن سلمة الأراشي وهو سليل النواح بن سلمة بن كهلة الأراشي أدرك الرسول « ص » وجده كهلة الذي مطله أبوجبل حقهفلجأ الى قريش فلم يجبهم ابو جهل ، فقصد الرسول « ص » وذهب معه الـى أبي جهل فأعطاه حقه فلامت قريش أبا جهل على قبوله شفاعة محمد « ص » ورفض شفاعتهم فقال أبو جهل : رأيت معه بعيرا فاغرا فاه والله لو امتنعت لأكلني(١٠٥) .

وفي عهد هشام صارت البلقاء مركزا لولي عهده الوليد بن يزيد خاصة بعد ان ساءتعلاقاته مع عمهومعه خاصته ومواليه فنزل على ماء يقال لهالاغدف بالازرقبعد ان خلف كاتبه عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان بالرصافة كي يطلعه على أحوال الدولـة(١٠٦) . ولكون البلقاء كانت مركزا اقامة والده من قبل ومركز اخواله مـن ثقيف(١٠٧) فقد استمر بها بعد بيعته بالخلافة ، وشيد بها القصور كما ذكرت . وفي موسم الحج كان يتخذ من محطة زيزاء مركز إقامة له ليشرف على قوافل الحجاج ، وذكر الطبري(١٠٨) انه كان يطعم الحجاج ثلاثة أيام ويعلف دوابهم ويجيب دعوة مـن يسأله . ونظرا لقرب عمان من الأزرق ، وحتى يبقى خصومه تحت انظاره ، اتخـذ منها سجنا للخارجين عليه من بني أمية ، فعندما اشتد الخلاف بينه وبـين ابنـاء هشام بن عبد الملك ضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق لحيته وغربه الى عمان فلم يزل محبوسا بها حتى قامت الثورة على الوليد بن يزيد(١٠٩) . واستمر الوليد في البلقاء ، حتى بعد ان وصلته اخبار الثورة عليه الى أن قتل على ارضها ، ولم يسمع لنصائح أعوانه بالخروج منها الى مناطـق اخرى بالشـام(١١٠) . وبعد مقتلـه خرج سليمان بن هشام من سجنه في عمان واخذ ما كان من الاموال واتجه الى دمشق يلعن الوليد ويعيبه بالكفر(١١١) .

ولما تسلم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الخلافة نقـم على آل ابي عقيـل نظرا لارتباطهم بالوليد بن يزيد ، فتتبع يوسف بن عمر الثقفي الذي خرج هاربا من العراق الى موطنه في البلقاء ، فالقى عليه مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطرف الكلبي القبض ومعهما خمسون رجلا منجندالبلقاء فأودع السجن الى ان مات مقتولا فيـه سنة ١٢٦ هـ (١١٢) .

ولما أخذت الدعوة العباسية تشتد في الحميمة وعلم بها مروان بن محمـد كتب الى والي دمشق الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يأخذ ابراهيم بن محمد الامـام من الحميمة ، فكتب الوليد بن معاوية الى عامل البلقاء سفيان بن يزيد بن محمد بن عطيـة السعدي ليأخذ ابراهيم بن محمد الامام فسار اليه والي البلقاء وارسله الى دمشـق ، ثم أرسل بعد ذلك الى مروان بالجزيرة حيث لقي حتفه هناك(١١٣) .

ولما قامت الثورة على الامويين ، واشتركت بها معظم الاحزاب والقبائل ، بقي أهل البلقاء على ولائهم للامويين بالرغم مما لحق ببعض أهله من قتل وتعذيب على أيدي بعض الخلفاء الامويين ، ولم يكتفوا بذلك بل توجه جند من البلقاء الى دمشق العاصمة لمحاولة لنجدة الامويين فيها ، الا أن جيوش العباسية كانت أقوى من جند دمشق والبلقاء فحاصرتهم في دمشق الى أن اقتحم العباسيون المدينة في العاشر من رمضان سنة ١٣٢ بقيادة عبد الله بن علي(١١٤) .

ولم يقف أهل البلقاء عند هذا الحد بل قاموا بمحاولة الثورة على العباسية تحت زعامة الحبيب بن مرة الثقفي وبايعته قيس وغيرها في مناطق البلقاء والبثنية وحوران، وزاد من خطورة الموقف على العباسيين عندما بيّض في نفس الفترة أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر الكلابي بقنسرين مما دفع عبد الله بن علي لمصالحة حبيب بن مرة وخرج متوجها الى قنسرين(١١٥) .

البلقاء في العهد العباسي

بدأ وجود بني العباس في البلقاء عندما اقطع عبد الملك بن مروان الحميمةفي جنوب البلقاء الى علي بن عبد الله بن العباس الذي قدم الى الشام بعد ان استقر الامر فيها لعبد الملك ، فأحسن عبد الملك وفادته ليقوى بمكانته على ابن الزبير .

ويذكر مؤلف أخبار الدولة العباسية(١١٦) أن عليا نفسه قد سأل عبد الملك ان يقطعه الحميمة بناء على وصية من والده عبد الله بن العباس . ولكن من خلال الحوار الذي جرى بين عبد الملك وعلي يستدل على أن عليا كان يرغب في الاقامة في منطقة بعيدة عن العاصمة دمشق حتى لايعرض نفسه للتهمة فقد قال لعبد الملك : « أحب المنازل الي أخلاها وأبعدها عن العوام ، فاني متى أقمت معك بدمشق لم آمن من أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول : قال علي ، ولقي علي ، وعرضني لتهمتك » . وقد رحب عبد الملك بهذا الطلب وقال له: وصلتك رحم ، ما أنت بمتهم ، والبلقاء منزل صدق تضم فيه أهلك وحشمك ، وتقيم عندي ما أحببت ، وتأتيني اذا شئت ولست تبعد عني ، ولا ينساك ذكر ولا يبعد عنك خبر من بالحجاز من أهل بيتك . فنزل بالشراة من البلقاء ونزل من الشراةالى الحميمة(١١٧) .

ومما تقدم نرى ان العرض قد جاء من عبد الملك نفسه وليس بطلب من علي بن عبد الله ، كما أن الحميمة لم تكن منطقة خالية وبعيدة عن الناس لانها كانت تقع على طريق الحج والطريق التجاري ، وهذا ما يجعله يستطلع أخبار أهل الحجاز والشام معا .

وفي الحميمة ولـد من العباسيين محمد بن سليمان بـن علي ، وابـو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي (١١٨)، وسكنها منهم رائطة بنت عبيـد الله وكانت تحت عبد الملك بن مروان ثم تزوجها علي فانجبت له أبا العباس السفاح(١١٩)، وابراهيم بن محمد الامام وزوجته زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله ، واليهـا ينسب الزينبيون من ولد العباس ، وكانت من أولات الفضل والعلم ، حدثت عن أبيها سليمان وروى عنها عاصم بن علي الواسطي وجعفر بن عبد الواحد ابن اخيها ، وعبـد الصمـد بن موسى بن محمد بن ابراهيم ، وابو العباس أحمد بن الخليـل بن مالك ابن ميمون ، ومحمد بن صالح القرشي ، كما حكى عنها المأمون.. وقد عمرت طويلاً، وهي التي دخلت على مروان بن محمد عند هلاك ابراهيم بن محمد الامام تستأذنـه في دفنه فأذن لها(١٢٠) .

ومن منطقة الحميمة في البلقاء انطلقت الدعوة العباسية ، وسهل من انتشـار دعوتهم وقوع هذه المنطقة على طريق الحجاج والطريق التجاري ، فكانت والحالة هذه ملتقى للشيعة بني العباس ،(١٢١) وأخذ الدعاة يترددون عليها لنقل أخبار الدعوة بـين مناطقها في خراسان والكوفة والحميمة(١٢٢) .

ولما تسلم العباسيون الخلافة تعرضت بعض مناطق البلقاء للتدمير والتخريـب شأنها شان بلاد الشـام التي قاومت العباسيين ، ويستدل على ذلك من الشعر الذي أنشده أبو نخلة عندما دخل علي ابي العباس السفاح بعد مقتـل مروان بن محمد وقال(١٢٣) :

وامسـت الانبـار دارا تعمـر	وخربـت مـن الشـام ادور
حمص وبـاب التبن والموقـر	ودمـرت بعـد امتنـاع تدمـر
وواسط لم يبـق الا القراقـر	منهـا ولا الديربـان الاخضر

وان تعرضت بعض مناطق البلقاء لمثل هذا التدمير كالموقر فانه ناتج عن شـدة المقاومة التي أبدتها القبائل القيسية تجاه الدعوة العباسية في البلقاء .

وبعد أن وطد العباسيون الامر في بلاد الشام قسـمت الشامات الى ولايتـين كبيرتين(١٢٤) .

الاولى : وضمت أجنـاد قنسرين ودمشـق والاردن وحمص وعليها عبد الله ابن علي .

الثانية : وضمت فلسطين والبلقاء وعين عليها صالح بن علي . وقد عين صالح ابن علي على البلقاء علي بن صفوان بن سلمة الاراشي سيد قضاعة الشام كلها(١٢٥) ، وربما كان هذا الاجراء من العباسيين كرد مناهض للقبائل القيسية التي ناهضت العباسيين ، واستمر علي بن صفوان في ولايته للبلقاء حتى وفاة السفاح سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤ م .

وفي عهد المنصور ، وعندما قام عبد الله بن علي سنة ٧٥٥/١٣٧ بثورته عليه ، ادرك المنصور خطورة جمع مناطق كبيرة لوال واحد ؛ فعادت الشامات الى أجنادها السابقة ، وعادت البلقاء الى جند دمشق ، فعين عليها عبيد الله (عبد الله) بن سليمان ابن محمد بن عبد المطلب واستمر فيها حتى نقل منها الى اليمن سنة ١٥٨ هـ(١٢٦) حيث خلفه ابنه محمد ، الا ان ولايته لم تطل ، بسبب غضب المنصور عليه ، فحمل مع البريد ومعه المال الذي وجد عنده(١٢٧) .

وفي زمن هارون الرشيد هاجت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية في البلقاء سنة ١٧١ هـ . مما أدى الى عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي لعجزه عن القضاء على هذه الفتنة وعين بدلا منه ابراهيم بن صالح بن علي.

وسبب هذه الفتنة ان رجلا من القين خرج الى البلقاء ليطحن قمحا له ، فاعتدى على حائط رجل من جذام ولخم فيه بطيخ وقثاء ، فانتهى الشجار بينهما الى قتل يماني ، فلما خاف الناس أن يتفاقم الامر خرج رجال من قريش وقيس وقضاعة الى القين ، فأوكلت القين الامر الى هؤلاء الرجال لحل النزاع مع اليمانية . ثم توجهوا بعد ذلك الى اليمانية فكلموهم فقالوا لهم : انصرفوا عنا حتى ننظر فيما جئتم له . فانصرفوا الى رحالهم ، فلم تشعر الا بالخيل تدوسهم فقتل من القين ما بين ٣٠٠٠ — ٦٠٠٠ رجل، واصيب معهم رجل من قيس ، فاستنجدت القين بقضاعة وسليح فلم ينجدوهم ، فتوجهوا الى قيس فأنجدتهم وانضم معهم خمسون رجلا من بني عامر بن عوف فخرجوا الى العواليك(١٢٨) من أرض البلقاء فقتلوا ستمائة من اليمانية ثم توجهوا الى الربة (قرب الكرك اليوم) فقتلوا ثمانماية ، ثم انصرفوا وكثر القتال بينهم ، واستمر النزاع أكثر من سنتين ، وقد لعب ابو الهيذام عامر بن عمارة بن خريم المري دورا بارزا في هذه الفتنة (١٢٩).

ويذكر الطبري(١٣٠) أن الفضل في اخماد هذه الفتنة يعود الى موسى بن يحيى ابن خالد البرمكي الذي استطاع القبض على رؤوس الفتنة وأرسالهم الى بغداد فمدحه أحد الشعراء بقوله :

قـد هاجـت الشــام هيجـا   يشـيـب رأســ وليـــده
فصـب موســى عليهــا   بخيلــــه وجنـــوده
فدانـت الشـــام لمـــا   اتـــى نســـيج وحيـــده

وفي سنة ١٨٠ عادت الفتنة الى الظهور مرة أخرى ، فاغتم الرشيد من ذلك حتى أنه فكر في الخروج الى الشام بنفسه وقال لجعفر بن يحيى البرمكي : اما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ،.فقال له جعفر : بل اقيك نفسي ، فخرج ومعه على شرطته العباس ابن محمد بن المسيب بن زهير وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة فتمكن من قتل مدبري الفتنة بعد ان جمع الاسلحة من أهل البلقاء حتى أنه لم يدع رمحا ولا فرسا فعاد الامن والطمأنينة الى البلقاء(١٣١) .

وبعد أن خمدت نار العصبية في البلقاء عين الرشيد على دمشق عيسى بن العكي وعلى البلقاء صالح بن سليمان . ويستدل على شدة استفحال هده الفتنة تلك الخطبة التي خطبها جعفر بن يحيى بين يدي الرشيد بعد عودته الى بغداد(١٣٢) .

وفي عهد المأمون (١٩٨–٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣) قامت في البلقاء حركة مناوئة للعباسيين و بدأت من قرية الفدين(١٣٣) تحت زعامة سعيد بن خالد بن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان الفديني مدعيا الخلافة ، فخرج من الفدين وأغار على ضياع السعديين في البلقاء وأخذ يغير على القيسية ويفتك بهم ويتعصب لاهل اليمن ، فوجه اليه والي دمشق محمد بن صالح بن بيهس جيشا تحت قيادة محمد بن يحيى بن صالح ، فهرب الفديني الى زيزاء ، فهدم يحي زيزاء وخربها فغادرها الفديني الى الماسوح (قرية قريبة من عمان) . واتخذ يحيى من عمان مقرا له ، وفي الماسوح انضم الى الفديني زيوندية الغور وأراشة وعيارة من بني امية ومن جلا منهم من دمشق وقوم من غطفان فصار في زهاء عشرين الفا ، فلم يزل يحيى يحاربه حتى أجلاه عن الماسوح ، فتوجه منها الى حسبان فحاصره فيها مدة طويلة فتفرق عنه اصحابه وتركوه مهملا وحيدا ، ولم يعرف مصيره(١٣٤) .

وبقيت البلقاء تحت السيطرة الفعلية للعباسيين الى أن تمكن احمد بن طولون سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ من اقامة الدولة الطولونية فأصبحت البلقاء من أملاك الطولونيين ، وتمكن العباسيون من استردادها من الطولونيين زمن الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م(١٣٥) ، الا ان السيطرة الفعلية للعباسيين لم تدم طويلا حيث تمكن محمد بن طغج الاخشيدي والي البلقاء من قبل أبي منصور تكين الجرزي والي الشام سنة ٣٠٦ من

الانفصال عن والي دمشق وتكوين الدولة الاخشيدية في مصر التي دامت من ٣٢٣ـ ٣٧٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٨(١٢٦) . وفي هذه الفترة قسمت البلقاء الى كور هي :

١ ـ كورة الجبال ومركزها غرندل(١٢٧) ، وذكرت بعض المصادر أنها رواث(١٢٨) ومن أبرز مناطقها فيما بعد الطفيلة ، وربما كانت أيلة تابعة لهذه الكورة ، وكان معظم أهل هذه الكورة من قريش وغسان وبلقين(١٢٩) .

٢ ـ كورة الشراة(١٤٠) ومركزها اذرح ، وكانت اذرح معسكرا رومانيا قبل الفتح الاسلامي(١٤١) ، وفيها كان أمر التحكيم بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان(١٤٢) . وضمت هذه الكورة الحميمة ومعان وقد كانت حصن الشراة(١٤٣) وأبنى(١٤٤)والجرباء(١٤٥) وميفعة(١٤٦) ووادي موسى(١٤٧) ، وجبال الشوبك(١٤٨) فيما بعد . وعامة اهل هذه الكورة من العرب خاصة من قبيلة قيس(١٤٩) .. واشتهرت هذه الكورة بكونها مركزا لصناعة السيوف ، كما نسب اليها عدد من العلماء والفقهاء منهم علي بن مسلم بن الهيثم الشروي وأحمد بن محمود بن نافع ابو العباس الشروي(١٥٠) .

وتذكر المصادر الجغرافية ان هاتين الكورتين كانتا مضمومتين الى جند فلسطين(١٥١) ، وهذا الضم لا يعني أنها كانت من جند فلسطين بل أن هذا الاجراء الاداري قد حدث زمن الطولونيين والاخشيديين لتأمين حركة الاتصال بين مصر وفلسطين وبلاد الشام، ولابقائها تحت اشرافهم المباشر .

٣ ـ كورة مآب(١٥٢) ومركزها مآب وقد أقيم على انقاضها فيما بعد الربة(١٥٣)، وضمت مناطق زغر(١٥٤) وشيحان(١٥٥) وصرفة(١٥٦) ومشارف(١٥٧) ، وفيما بعد الكرك(١٥٨) والقطرانة(١٥٩) ..وأهل هذه الكورة أخلاط من الناس(١٦٠) .

٤ ـ كورة الظاهر (ظاهرة البلقاء) ومركزها عمان(١٦١) ، وقد اطلق عليها في بعض الاحيان كورة عمان(١٦٢) ، وضمت هذه الكورة المناطق التالية : الازرق(١٦٣) ، بقيس(١٦٤) ، جادية(١٦٥) ، جنان قرب عمان(١٦٦) ، الرقيم(١٦٧) ، الزرقاء(١٦٨) ، زيزاء(١٦٩) ، الصمان(١٧٠) ، العلفدان قرب زيزاء(١٧١) ، القسطل(١٧٢) ، الماسوح قرب عمان(١٧٣) ، الموقر(١٧٤) ، حسبان(١٧٥) ، الفدين(١٧٦) .

٥ ـ كورة جبال الغور ومركزها أريحا(١٧٦) . والظاهر أن هذه الكورة كانت تضم مرتفعات السلط المطلة على الغور بالاضافة الى المنطقة الممتدة من جنوب عمتا (دير علا) آخر عمل جند الاردن الى البحر الميت ، وربما كان هذا هو السبب الذي

دعا اليعقوبي(١٧٧) الى اعتبار أريحا من ضمن البلقاء مع العلم أنها من جند فلسطين . ويقـع ضمن هذه الكورة بالاضافـة الى اريحـا ، الصلت (السلط)(١٧٨) وكفـر يهوذا(١٧٩) وبيت رامة(١٨٠) .

وهذه التقسيمات الادارية مشابهة الى حد التقسيمات الادارية في الوقت الحاضر حيث تضم كورة الشراة اليوم محافظة معان وكورة الجبال محافظة الطفيلة وكورة مآب محافظة الكرك وكورة ظاهر البلقاء محافظة العاصمة ، وكورة جبال الفـور محافظـة البلقاء وتمتد حدودها الى نهر الاردن أما أريحا فقد كانت تابعة لمحافظة القدس قبل الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ .

وخلال هذه الفترة التاريخية والفترات التي تلتها نسب الى البلقاء عـدد مـن الفقهاء والمحدثين منهم :

- حفص بن عمـر بن حفص بن صالـح بن عطاء بن السـائب بن أبي السائب المخزومي القرشي العماني البلقاوي اصله من المدينة تولى قضـاء عمان حـدث عـن الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابيه ، كما حدث عن الاوزاعي عن عبده بن أبي لبابة، سمع عامر بن يحيي والهيثم بن خارجه (١٨١) .

- ابو طاهر محمد بن عطاء بن ايوب البلقاوي سافر مصر وحدث عن مالك الا انه كان متروك الحديث(١٨٢) .

- أبو طاهر موسى بن محمد الدمياطي البلقاوي روى عن الموقري ، وروى عنه أهل الشام والعراقيون(١٨٣) .

- يحيى بن عبد الله بن أسامة القرشي ، سمع من حفص بن عمر كما روى عنه زيد بن أسلم(١٨٤) .

- أبو بكر بشر بن الوليد بن محمد الموقري (ت ٢٨٢ هـ) وكان مولى ليزيد بن عبد الملك روى عن الزهري وعطاء الخراساني ، كما روى عنه علي بن حجر والوليـد ابن مسلم وغيرهم ، واتهم الموقري بالكذب(١٨٥) .

- أحمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب المخزومي البلقاوي(١٨٦).

- أحمد بن الحكم أبو حزية ويقال له أبو حرب البلقاوي من أهل البلقاء عمل دمشق حدث عن عبد الله بن ادريس(١٨٧) .

- محمد بن كامل العماني البلقاوي (ت ٢٧١ هـ) . حدث عن أبان بن يزيد العطار، وروى عنه محمد بن زكرياء الاضاخي(١٨٨) .

- نصر بن مسرور بن محمد ابو الفتح الزهري العماني البلقاي ، حدث عن أبي الفتح محمد بن ابراهيم الطرسوسي(١٨٩) ..

- ابو الندى حسان بن تميم بن نصر بن عبد الواحد الانصاري العماني المعروف بالزيات حدث بدمشق عن الفتح نصر بن ابراهيم بن نصر بن داود القدسي الزاهد، كما سمع منه ابو الخطاب العلمي وكان شيخا مكرما(١٩٠) .

- ابو محمد الحسن بن ابراهيم بن عثمان العماني قدم دمشق وسمع بها ، وحدث عن محمد بن عبد الله الربعي ، تسلم قضاء عمان كان حيا سنة ٣٨٦ هـ(١٩١) .

- السائب بن احمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن ابي السائب ابو عطاء القرشي المخزومي العماني من أهل البلقاء ، كان من رواة الحديث وحدث عن أبيه عن سحيم مولى بني زهرة(١٩٢) .

- السائب بن عمر بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن ابي السائب المخزومي العماني ، حدث عن جده حفص بن عمر عن يحيى بن عروة عن ابيه عروة بن الزبير(١٩٣) ..

- أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابو دفانة الكناني العماني قدم الشام وحدث بها عن عطاء السائب بن أحمد بن حفص العماني المخزومي ومحمد بن هارون بن بكار وعبد الله بن محمد بن جعفر القزويني القاضي ، وروى عنه ابو الحسين الرازي وأبو بكر أحمد بن صافي التنسي (ت ما بين ٣٢٤-٣٢٥ هـ)(١٩٤) .

- عطاء بن السائب بن أحمد بن حفص العماني . وقد حدث عنه أسلم بن محمد ابن سلامة(١٩٥) .

- الحسين بن علي بن عيسى ، ابو عبيد المعنى الازدي المعاني من اهل البلقاء ، روى عن عبد الرزاق بن همام وروى عنه محمد وعامر ابنا خريم وعمرو بن سعيد ابن سنان المنبجي وغيرهم وكان ضعيف الحديث(١٩٦) ..

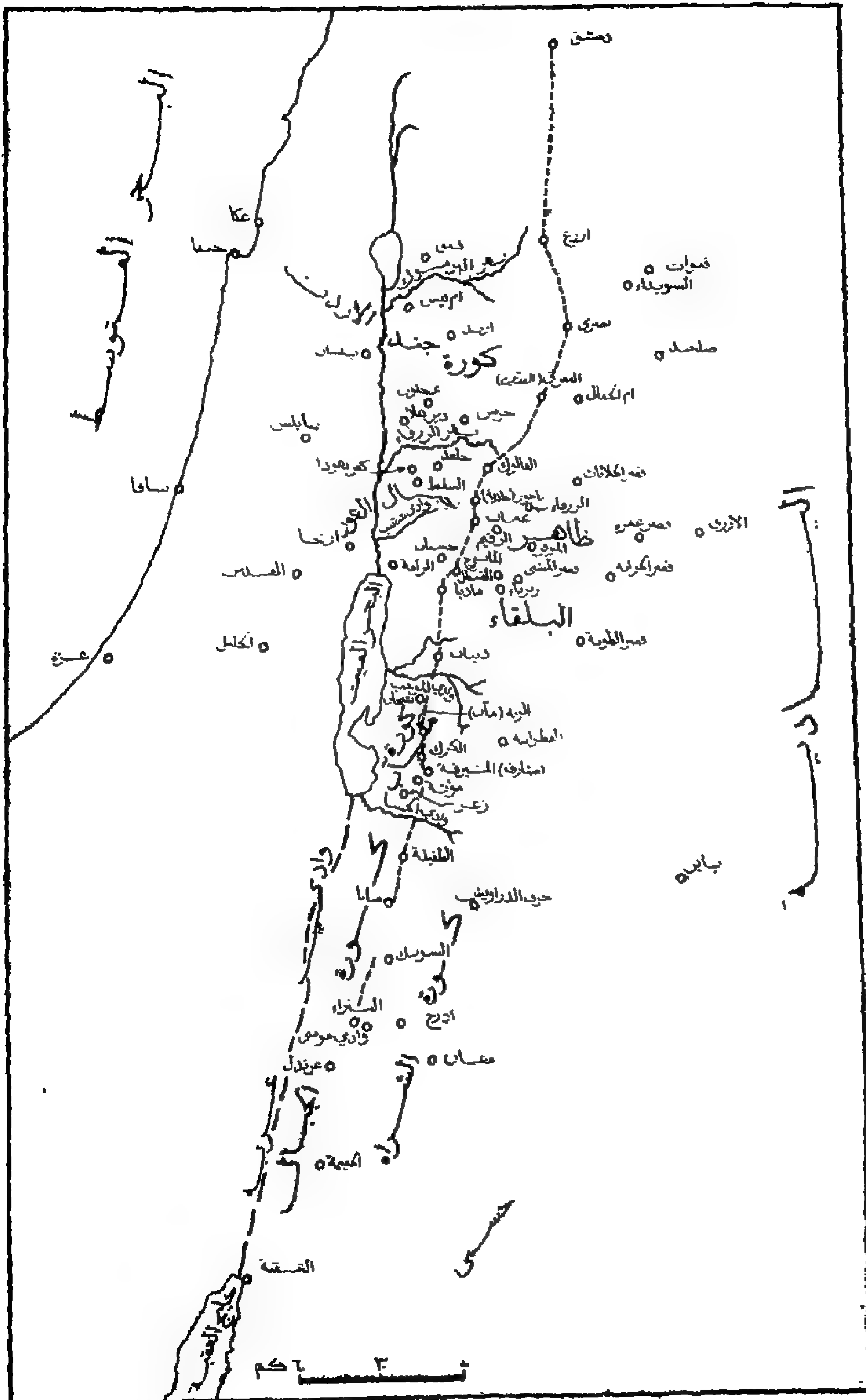
- علي بن مسلم بن الهيثم الشروي ، روى عن اسماعيل بن مهران وروى عنه الحسن ابن عليل العنزي(١٩٧) ..

ــ احمد بن محمود بن نافع أبو العباس الشروي اشتهر بالرمي سمع عن ابي الوليد الطيالسي وعبد الله بن أبي بكر العتكي وعمران بن ميسرة ، وروى عنه ابو الحسين ابن المنادي (ت ٢٧٤ هـ) (٩١٨).

هذا بالاضافة الى فقهاء وعلماء ايلة ومنهم في هذه الفترة يونس بن يزيـد الايلي (توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢ هـ) واسحق بن اسماعيل بن عبد الاعلى بن عبد الحميد ابن يعقوب الايلي (مات بأيلة سنة ٢٥٨) وحسان بن ابان بن عثمان ابو علي الايلي ولي قضاء دمياط وتوفي بها سنة ٣٣٢ هـ .



البلقـــاء


دمشق
عكا
كورة
البلقاء
ظاهر
الكرك
مؤتة
الطفيلة
معان
القدس
الخليل
غزة
نابلس
يافا
عمان
مادبا
ديبان
زغر
العقبة
الحميمة
بصرى
اربد
جرش
حسبان
ايلة
ام قيس
نهر اليرموك
نهر الزرقاء
السلط
صلخد
الأزرق
ام الجمال
بيسان
حلحول
الشراة
وادي موسى
عرندل
أذرح
تبوك
حرة الدراويش
باير
القسطل
٦٠ كم

الحواشي :

(١) انظر معنى البلقاء وبلق في : الفراهيدي ، العين ٥/١٧٢ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «بلق». الفيروز آبادى ، القاموس المحيط مادة بلق . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . البكري ، معجم ما استعجم١/٢٧٥ .

(٢) انظر نسبة البلقاء في : البغدادي ، المنمق ١٧٧ . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١/١٩ . ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١/١٤٢ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (دمشق) ١٨–١٩ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . الحميري ، الروض المعطار ٩٦ .

(٣) The Encyclopedia of Islam. Vol I,p. 1001.
Dictionary of The Bible, Vol I.p. 234.
Madebille, Salt, p. 3.

(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ١٨٠ . ياقوت ، معجم البلدان . مادة « بلقاء » .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة الزرقاء .

(٦) Medebille, Salt, pp. 6-7.

(٧) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢٢ آيـة ٥

(٨) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢١ آيـة ٢٤ . التثنية ، الاصحاح ١ آية ٤.

(٩) التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٢ آية ١ .

(١٠) انظر حاشية رقم (٢) .

(١١) انظر الازدي ، تاريخ الموصل ١٩ . البكري ، معجم ما استعجم ١/٢٧٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا ١٤٧ . الاصفهاني ، بلاد العرب ١٢٧ – ١٢٨ . البغدادي مراصد الاطلاع ١/٢١٩ .

(١٢) حتي ، تاريخ العرب ٨٨ ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ١/٧٦ .

(١٣) انظر التوراة سفر يشوع ، الاصحاح ١٣ آية ٢٢ .

(١٤) الدوري ، العرب والارض في بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام ٢٥ .

(١٥) المروزي ، كتاب الفتن ، مخطوطة ، ورقة ٦٩ ب .

(١٦) احسن التقاسيم ١٨٠ . وهذه المادة متوفرة ايضا بالسلط الى الغرب من عمان وكانت تستعمل في تبيض البيوت ويطلقون عليها اسم « الحور » وهي محرفة من الحوارة .

(١٧) معجم البلدان ، مادة « السواد » .

(١٨) انظر عن هذا الحد : ابن حوقل ، صورة الارض ٢٧–٣٠ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٢١–٢٨ الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٢/٤ . وقارن ، ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء . البغدادي ، مراصد الاطلاع ١/٢١٩ . القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ١٥٦ .

(١٩) انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، ١٧٠ . هذا وقد اعتبر اليعقوبي بان اريحا من البلقاء (البلدان مع الاعلاق النفسية) ١١٣ كما ذكر المبرد بان بها ديرا كان يسمى « دير البلقاء » ثـم

اطلق عليه في عهد سليمان بن عبد الملك دير الخصيان ، انظر الكامل في اللغة ٦٣٥/٢ ، الهفوات النادرة ٤٠–٤٢ .

(٢٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة « اذرعات والصمان » . البغدادي مراصد الاطلاع١٦٧/٢ .

(٢١) الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٧٩/٤–٣٨٠ .

(٢٢) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة جرش . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين)٩٨.

(٢٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٨ . القلقشندي ، قلائد الجمان ١٨ .

(٢٤) Encyclopedia of Islam, Vol. I, p. 1001 .

وانظر : غوانمة ، شرق الاردن (القسم السياسي) ٤٨ نقلا عن العمري ، مسالك الابصار ق٣ لوحة ٤٤١ . والبلقاء اليوم احدى محافظات الاردن ومركزها السلط .

(٢٥) ابو طالب ، آثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ٢٥ وما بعدها .

(٢٦) حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ – ١١٦ .

(٢٧) انظر : اليعقوبي ، تاريخ١٧٨/١ . ابن قتيبة ، المعارف ٦٤٠ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٨–٩٩ .حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ – ١١٦ . عبد الرؤوف ، الحواضر الاسلامية٨.

(٢٨) اليعقوبي ، تاريخ ١٧٨/١ .

(٢٩) نولدكة ، أمراء غسان ١٦ . حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ – ١١٦ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ٥٧/١ .

(٣٠) نشوة الطرب ٢٠٨/١ وانظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ٤٣٨/٣ .

(٣١) عن أماكن غسان انظر : الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩–١٠٠ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٣١ . البغدادي ، المحبر ٢٦٣ . اليعقوبي تاريخ ١٠٨/١ ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٦ . المسعودي ،مروج الذهب ١٠٩/٢ . ابن سعيد نشوة الطرب ١٩٩/١ .

(٣٢) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب٤٠٢/٣ .

(٣٣) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩ . الالوسي ، بلوغ الارب ٢١٠/١ – ٢١٢ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب٤٠٣/٣–٤٠٤ . بهنسي ، الشام لمحات اثارية ١٤٢ وما بعدها ، طوقان، الحائر ٦٠ .

(٣٤) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ١٠٠ . طوقان ، الحائر ٧٥ .

(٣٥) عن اماكن جذام انظر : ابن اعثم ، الفتوح ٢٩٩/١ . اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٩ .الهمداني، صفة جزيرة العرب ٢٧١–٢٧٤ .

Donner, The Early Islamic, p. 101.

(٣٦) Trimingham, Christianity, p. 122.

وانظر : الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٣/٤ – ٣٥٤ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «جذام ».

(٣٧) من اماكن عذرة انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٢٢ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٨٨ . ابن عساكر ، تراجم النساء ٢٥١ .

(٣٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٢ – ٢٧٣ .
وانظر : Donner, The Early Islamic, p. 103.

(٣٩) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٦٩ . ابن خلدون ، تاريخ ٢٤٩/٢ .

(٤٠) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣١٩ ، ٣٣٤ .

(٤١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ . ابن خلدون ، تاريخ ٢٤٧/٢ . وانظر:
Donner, The Early Islamic, p. 166,

(٤٢) اليعقوبي ، البلدان ٨٢ – ٨٣ وانظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٤ ، ٣٣٢ . وانظر :
Donner, The Early Islamic, p. 166,

(٤٣) حتي ، تاريخ سورية ٣١٩/١ .

(٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقنس ، نقنس.

(٤٥) ابن هشام السيرة النبوية ٢٢١/١ . قارن ابن الكلبي ، الاصنام ٢٨ .

(٤٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ٢٢١/١ – ٣٢ ٢، البغدادي ، المحبر ١٧٢ المسعودي ، مروج الذهب ٧٠/١ . البكري . معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢ . الذهبي ، سيرة اعلام النبلاء ٩٠/١ ، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٣٨/٢ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ١٥٠ – ١٥١ ، البغدادي ، مراصد الاطلاع ١٨٥/٣ . الالوسي ، بلوغ الارب ٢٤٧/٢–٢٥١ .

(٤٧) المقدسي ، احسن التقاسيم ١٧٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء .

(٤٨) الاصابة ١٠٤/٢ .

(٤٩) عن هذه المنتوجات انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤. ياقوت ، معجم البلدان مادة « اذرح » ، مآب ، وادي موسى . ابو الفداء ، تقويم البلدان٢٤٥ وما بعدها .

(٥٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ وحرفت كلمة التمر الى يسر. ياقوت ، معجم البلدان مادة زغر .

(٥١) ياقوت ، معجم البلدان مادة ايلة .

(٥٢) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ وعن نخيل الغور انظر ١٦٠ .

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الاردن ، اريحا ، الغور ، وانظر المقدسي – احسن التقاسيم ١٦١ حمارنة ، زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين. حولية دائرة الآثار العامة عدد٢٢ ص١٢.

(٥٤) ياقوت معجم البلدان مادة جادية وانظر مراصد الاطلاع ٣٣٣/١ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٥٥ .

(٥٥) ابن الاخوة القرشي ، معالم القربة ١١٨ والروائد عبارة عن عروق خشبية طوال مستديرة في غلظ الاصابع يسمى روائد الدواب يستعمله البياطرة لاسقا ء الدواب عندما تحتر اكبادها وهو مضر بالناس .

والمزيد من التفاصيل حول المحاصيل الزراعية انظر حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام ص ١٠٦ ـ ١١٦ .

(٥٦) ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف . قارن ابن رشيق ، العمدة ٢٣٢/٢ .

(٥٧) ياقوت ، معجم البلدان مادة مؤتة . كثير عزة ، الديوان : ٣٤٠.

(٥٨) بهنسي ، صناعة السيوف الدمشقية ، الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ٤٩٥/١ وما بعدها . وانظر ياقوت معجم البلدان مادة الشراة . ابن خلكان وفيات الاعيان ٢٧٨/٣ .

(٥٩) ياقوت ، معجم البلدان مادة ثفر ، ابن رشيق ، العمدة ٢٣١/٢ .

(٦٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧.

(٦١) ياقوت معجم البلدان مادة مآب . الطائي ، ديوان حاتم وشعره ١٩٠ .

(٦٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . ابن عساكر (عاصم ـ عايذ) ٣٩٥ ، لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥.

(٦٣) ابن حزم ، جوامع السيرة ٣٠ .

(٦٤) العيني ، السيف المهند ٢٢١ وانظر البلاذري ، انساب الاشراف ٥١١/١ ، النويري ، نهاية الارب ٨/١٨ ٢.

(٦٥) ابن حجر العسقلاني الاصابة (نقلا عن الواقدي) ٣٣٢/١ .

(٦٦) انظر البلاذري ، انساب الاشراف ٥١١/١ . النويري ، نهاية الارب ٢٨/١٨ .

(٦٧) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ١٧١ .

(٦٨) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٦٠٦/٢ وما بعدها . الطبري ، تاريخ ١٨٤/٣ . ابن عبد البر ، الاستيعاب (بهامش الاصابة) . ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٦٣/١ .
وانظر : Hitti, History of The Arab, p. 147.

(٦٩) الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(٧٠) الطبري ، تاريخ ٣٨٩/٣ ابن عساكر (التهذيب) ١٣٢/١ .

(٧١) الطبري ، تاريخ ٣٨٩/٣ . ابن عساكر (التهذيب) ١٣٢/١ . ابن خلدون ، تاريخ ٨٣/٢.

(٧٢) الطبري ، تاريخ ٤٠٦/٣ .

(٧٣) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ وانظر: ابن خياط ، تاريخ ٨٦/١ .

(٧٤) فتوح الشام (منسوب اليه) ٤٩/١ ، ١٨٢ ـ ١٨٤ ، ٢٢٨ .

(٧٥) الطبري ،تاريخ ٤٠٦/٣ . قدامة ، الخراج ٢٨٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٧٦) فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(٧٧) البدء والتاريخ ١٦٦/٥ .

(٧٨) ابن عساكر (التهذيب) ١٨٣/١ ـ ١٨٤ .

(٧٩) انظر : اليعقوبي ، البلدان ٨٢–٨٣ . ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨. الطبري ، تاريخ ١١١/٧. المسعودي ، مروج الذهب ٣٤٢/٢ .ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ . ياقوت ، معجم البلدان مادة حميمة ، الشراة . ابن خلكان : وفيات الاعيان ١٩٥/٣ ، ٢٧٨ ، ٣١٥/٦ .

(٨٠) ياقوت ، معجم البلدان « مادة معان » ..

(٨١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ .

(٨٢) ابن خياط : تاريخ ٣٠١/١ .

(٨٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٧ . البيهقي ، المحاسن والمساوىء ٣٨٩–٣٩٠ .

(٨٤) ابن خياط ، تاريخ ١٢٩/١ . الطبري ، تاريخ ١٤٤/٤ – ١٤٥ .

(٨٥) ابن قتيبة ، المعارف ٣٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ٣٨٩/١ .

(٨٦) انظر : هاردنج ، آثار الاردن ١٥٣ . بهنسي ، الشام لمحات آثارية وفنية ١٤٢ . طوقان ، الحائر ٦٠ ،حوليةدائرة الاثار الاردنيـة عدد ٢٥ ص ٦ .

(٨٧) عن هذه القصور انظر الكتب التالية على سبيل المثال : هاردنج ، اثار الاردن . بيشة القصور الاموية في الاردن .بهنسي ، الشام لمحات اثارية وفنية . طوقان ، الحائر . حولية دائرة الاثار الاردنية عدد ٢٥ .

(٨٨) احسن التقاسيم ١٧٥ .

(٨٩) عن هذه المساجد انظر : طوقان ، الحائر ٧٦–٧٩ ، ٤٢٣ .

(٩٠) عن هذه البرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زيزاء . طوقان الحائر ٧٤،٤٣٨ .

(٩١) الطبري ، تاريخ ٥٢٤/٥ .

(٩٢) البلاذري ، انساب الاشراف ١٤٩/٥ .

(٩٣) ابن خياط ، تاريخ ٣٠١/١ .

(٩٤) ابن عساكر : التهذيب ١٠٣/٣ .

(٩٥) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٧ .البيهقي ، المحاسن والمساوىء ٣٨٩–٣٩٠ .

(٩٦) الحديدي ، فلوس نحاسية اموية من عمان ، حولية دائرة الاثار عدد ٢٠ ص ٩ سنة ١٩٧٥ .

(٩٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٧/٥.

(٩٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٣٠/١ .

(١٠٠) الديوان ٣٤٤ ، ٣٤٩ .

(١٠١) الديوان ٣٤٦/١ .

(١٠٢) الديوان ١٦٥ – ١٦٦ ، ١٨٥ .

(١٠٣) الكتبي ، الوافي بالوفيات ٣٢٢/٤ .

(١٠٤) ابن خياط ، تاريخ ٢٤٠/١ . الطبري ، تاريخ ٢٢/٥ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٧٧ . البغدادي ، المحبر ٢٩. الازدي ، تاريخ الموصل ١٨ .

(١٠٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .

(١٠٦) الطبري تاريخ ٢١١/٧ .

(١٠٧) ن.م ٢٢٦/٧ .

(١٠٨) تاريخ ٢١٧/٧ — ٢١٨ .

(١٠٩) الطبري ، تاريخ ٢٣١/٧ — ٢٣٢ . مجهول ،العيون والحدائق ١٣١/٣ .

(١١٠) انظر ، ابن خياط ، تاريخ ٣٨١/١ . مجهول ، العيون والحدائق ١٣٦/٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٩٢/٥ .

(١١١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٧ .

(١١٢) الطبري ، تاريخ ٢٧٣/٧—٢٧٤ .

(١١٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ . الازدي ، تاريخ الموصل ١٠٧ .

(١١٤) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ .

(١١٥) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ — ٤٤٤ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٤٣٢/٦—٤٣٣.

(١١٦) مجهول ، ١٥٤ .

(١١٧) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٤ .

(١١٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ .

(١١٩) ابن عساكر ،تراجم النساء ١٠٥ .

(١٢٠) ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ .

(١٢١) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٨٣ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٩٢ .

(١٢٢) ابن عساكر ، (التذيب) ١٠٣/٣ .

(١٢٣) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة) ١٤/٢٠—٤١٥ .

(١٢٤) الطبري تاريخ ٤٦٧/٧ .

(١٢٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .

(١٢٦) الزبيري ، نسب قريش ٨٧ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ٧١ .

(١٢٧) الزبيري ، نسب قريش ٨٧.الطبري ، تاريخ ٨١/٨ .

(١٢٨) تقع الى الشمال من عمان على بعد ١٢ كم من طريق عمان جرش وتسمى العالوك .

(١٢٩) انظر عن هذه الفتنة اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ١٢٨/٦ وما بعدها . ابن عساكر (عاصم — عايذ) ٣٩٥ وما بعدها .

(١٣٠) تاريخ ٢٥٢/٨ .

(١٣١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٨ وانظر اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ .

(١٣٢) انظر نص هذه الخطبة في الطبري ، تاريخ ٢٦٣/٨ ــ ٢٦٤ .

(١٣٣) يذكر ياقوت بان الفدين من أرض حوران ، ومن المرجح بانها مدينة المفرق اليوم الواقعة على بعد ٤٩ كم الى الشمال من عمان .

(١٣٤) عن هذه الفتنة انظر : ابن عساكر (التهذيب) ١٢٥/٦ ــ ١٢٦ . ياقوت معجم البلـــدان مادة الفدين .

(١٣٥) الطبري ، تاريخ ١١٥/١٠ ــ ١٢٠ .ابن الاثير الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٣٥/٧ .

(١٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٥٦/٥ ــ ٥٧ .

(١٣٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ .

(١٣٨) انظر ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ وضبطها المحققــون دراب .

(١٣٩) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .

(١٤٠) انظر اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ، ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ ، الاصطخري، المسالك والممالك ٤٤ .

(١٤١) لمزيد من التفاصيل عن أذرح انظر : الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ٥٧/٥ . المقدسي ، أحســـن التقاسيم ١٧٨ ياقوت ، معجم البلدان مادة اذرح . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٢.الحميري الروض المعطار ٦ ٩.

(١٤٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٨ . ولمزيد من التفاصيل عن معان انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة معان . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٦٧ . البخيت ، معانوجوارها استعراض تاريخي . مجلة دراسات تاريخية . جامعة دمشق ايار ١٩٨٣ .

(١٤٤) عن ابنى انظر : ياقوت معجم البلدان مادة ابنى . البغدادي ، مراصد الاطلاع ١٧/١.

(١٤٥) عن الجرباء : انظر البلاذري ، فتوح البلدان ١ ٧. الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ياقوت ، معجم البلدان مادة جرباء.

(١٤٦) انظر : التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٣ آية ١٧ . البكري ، معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢،ابن حزم جمهرة انسابالعرب ١٥٠ ــ ١٥١ ، مراصد الاطلاع ١٨٥/٣ .

(١٤٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة وادي موسى .

(١٤٨) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة الشوبك . وقارن مادة شابك ايضا في المعجم المذكور . ابـن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٠ .

(١٤٩) الادريسي ، نزهـة المشتاق ٣٥٧/٤ .

(١٥٠) انظر : ياقوت ،معجم البلدان مادة « الشراة » .ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٢٧٨/٣ .

(١٥١) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤.

(١٥٢) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ ولم يهتد المحققون الى ضبطها وجاءت كفر مآب .

(١٥٣) أبو الفداء ، تقديم البلدان ٢٤٨ .هذا ولم يهتد ياقوت الى تعيين موقعها فذكر بانها قرية بين طرف الغور بين ارض الاردن والبلقاء . انظر ياقوت معجم البلدان مادة ربة .

(١٥٤) عن زغر انظر : اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ .الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٣/٤ . الهمداني ،صفة جزيرة العرب ٢٧٣ . ياقوت . معجم البلدان مادة زغر . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٩/١ . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (دمشق) ١٨ . ابن رشيق ، العمدة ٢٣١/٢ .

(١٥٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادتي شيحان وسيحان . ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٨ .

(١٥٦) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة صرفة .

(١٥٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف .

(١٥٨) عن الكرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة الكرك . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ٦٩.

(١٥٩) انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ١٥٧/٣ . كبريت رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢.

(١٦٠) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .

(١٦١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ ، معجم البلدان مادة « بلقاء » .

(١٦٢) الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .

(١٦٣) عن الازرق انظر : الطبري ، تاريخ ٢١١/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « أزرق » . هاردنج، اثار الاردن١٥٥ .

(١٦٤) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقيس ونقنس .

(١٦٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة جادية . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٢٣٣/١ . لسترانج، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٥٥ .

(١٦٦) انظر الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(١٦٧) انظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ . ابن رستة ، الاعلاق النفسية ٢٧٥ . ياقوت ،معجم البلدان مادة الرقيم .

(١٦٨) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زرقاء . الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ١٨٨/١ . كبريت ، رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢ .

(١٦٩) انظر : ياقوت معجم البلدان مادة زيزاء . ابن بطوطة ، الرحلة ٧٧. البغدادي، مراصد الاطلاع ٥٢١/١ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٩٥ .

(١٧٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة العمان .

(١٧١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٥/٥ .

(١٧٢) البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ . ياقوت ، معجم البلدان مادة القسطل .

(١٧٣) ابن عساكر ، (التهذيب) ١٢٥/٦ ـ ١٢٦ .

(١٧٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر . وانظر الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة) ٤١٤/٢٠-٤١٥.

(١٧٥) انظر : ابن عساكر (التهذيب) ٦/١٢٥–١٢٦ . ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . لسترانــج، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥ .

(١٧٦) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ . الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ . ولم يهتـد المحققون الى ضبطها فوردت كورة جبرين الغور .

(١٧٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .

(١٧٨) عن الصلت (السلط) انظر : ابن سعيد المغربي ، الجغرافيا ١٥٢ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣ . أبو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٥ . القلقشندي، صبح الاعشـى ١٠٦/١ .

(١٧٩) انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣–٨٤ . احسان عباس ،الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين . المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ٣٥٢/٢ .

(١٨٠) ياقوت ، المشترك ١٩٧ .

(١٨١) عن حفص انظر : البخاري ، تاريخ ج١ ق٢ ترجمة رقم ٢٧٨٤ ص ٣٦٦–٣٦٧ . ابن منظور ،مختصر تاريخ دمشق ٢٠٥/٧ . السمعاني ، الانساب ٢٩٢/٢–٢٩٤ . ياقوت ، معجم البلدان مادة «بلقاء» .

(١٨٢) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ . ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٤٢/١ .

(١٨٣) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ .

(١٨٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . غوانمة ، عمان ١٨٣ .

(١٨٥) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٩٠/٣ . السمعاني ، الانساب ٥٤٥/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر .الذهبي ، العبر ٢٨٣/١ .

(١٨٦) ابن منظور مختصر تاريـخ دمشـق ٥٦/٣ .

(١٨٧) ن.م ٥٧/٣ .

(١٨٨) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانسان ١٥٦/٢ ، الذهبي ، المشتبه في الرجال ٤٧٠/٢ السمعاني، الانساب ٥٢/٩–٥٣ . ابن ماكولا ، الاكمال ٣٦١/٦ – ٣٦٢ . ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان .

(١٨٩) انظر ن.م. (١٩٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/٦ .

(١٩١) ن.م ٣١٨/٦ .

(١٩٢) ن.م ١٩٨/٩ .

(١٩٣) ن.م ١٩٩/٩ .

(١٩٤) بدران ، تهذيب ابن عساكر ٩/٣ .ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان، غوانمة عمان ١٨٢ .

(١٩٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة «عمان » . غوانمة عما ١٨٢ .

(١٩٦) ابن منظور ، تهذيب ابن عساكر ٥٠/٧ وورد في كنيته ابو عبد الغني . ياقوت ،معجم البلدان مادة « معـــان » .

(١٩٧) ن.م مادة « الشراة » .

(١٩٨) ن.م مادة « الشراة » .

(١٩٩) عن علماء ايلة انظر : غوانمة ، أيلة (العقبة والبحر الاحمر ١١١–١٢٢) .درادكة ، لمحات مـن تاريخ ايلة (العقبة) مجلة دراسات تاريخية العددان ١٥–١٦ سنة ٩٨٤ ص ٨٥–٨٩ .

المصادر والمراجع :

الكتاب المقدسي ، العهد القديم .

ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد من عبد الكريم الشيباني (ت٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ . دار صادر بيروت ١٣٨٥/١٩٦٥ .
اللباب في تهذيب الانساب ، مكتبة المثنى بغداد (لا.ت) .

الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، نابولي روما ١٩٧٦ .

الازدري ، محمد بن عبد الله ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٠.

الازدي ، ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ١٩٦٧ .

الاصطخري ، ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال (سلسلة تراثنا) القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١ .

ابن اعثم ، ابو محمد احمد الكوفي ، الفتوح ، دائرة المعارف ، حيدر اباد الدكن ـ الهند ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ .

الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٩/٩٧٦) ، الاغاني (دار الهيئة المصرية).

الاصفهاني ، حمزة بن الحسن ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، مكتبة الحياة بيروت(لا.ت) .

الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ،منشورات المجمع العلمي العراقي ، اليمامة ـ الرياض ١٣٨٨/١٩٦٦ .

الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، مؤسسة مصر للطباعة والنشر ، ط٣/١٣٤٢ هـ .

البخاري ، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ، التاريخ الكبير ، دائرة المعارف العثمانية ،حيدر اباد الدكن ـ الهند١٣٦١هـ / ١٩٤٢ .

البخيت ، محمد عدنان ، معان وجوارها (استعراض تاريخي) مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ايـــار ١٩٨٣ .

البطاينة ، محمد ضيف الله ، بحوث في التاريخ الاسلامي ، دار مجدولاي للنشر ، عمان ١٩٨٣ .

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) دار الكتاب اللبناني ، بيروت (لا.ت).

البغدادي ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥/٨٥٩) ، المحبر ، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر ، المكتبة التجارية بيروت (لا.ت) . المنمق في اخبار قريش ، صححه وعلق عليه خورشيد احمد فاروق ،دار المعارف العثمانية ،حيدر اباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ .

البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ،تحقيق علي محمد البجاوي ،داراحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤.

البكري ، ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم ،تحقيق مصطفى السقا ،لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

البلاذري ، ابو الحسن احمد بن يحيى ، انساب الاشراف ج١ ، تحقيق محمد حميـــد الله ، دار المعارف مصر ١٩٥٩ . انساب الاشراف ج٥ القدس ١٩٣٦ . فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ،بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

بهنسي ، عفيف ، صناعة السيوف الدمشقية ، ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عنـد العرب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ١٩٧٧ . الشام ، لمحات اثارية وفنية ، دار الرشيـــد للنشر ، بغداد ١٩٨٠

البيهقي ، الشيخ ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ) ، المحاسن والمساوىء ، بيروت ١٣٨٠/١٩٦٠.

بيشه ، غازي ، القصور الاموية في الاردن ، دائرة الاثار العامة ، عمان ١٩٧٤ .

التوحيدي،ابو حيان ، البصائر والدخائر ، تحقيق ابراهيم الكيلاني ، مكتبة اطلس، دمشق ،(لا.ت).

جرير بن عطية ، « ديوان جرير » ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي ، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١ .

جلابرت ، لويس ، السكة الرومانية من مادبا الى عقبة ، مجلة الشرق العربي ، مجلد ٨ عـــدد ١٠/١٩٠٥ .

حتي ، فيليب ادوارد جرجي ، جبرائيل جبور ، تاريخ العرب المطول ، دار الكشـــاف العربي ، بيروت ١٩٥٠ .

حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ترجمة جورج حداد ، دار الثقافة بيروت١٩٥٨

حمارنة ، صالح،زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين ، حولية دائرة الاثار العامـة ، عمان ، عدد ٢٢ : ١٩٧٧-١٩٧٨ .

حديدي ، عدنان ، فلوس نحاسية أموية في عمان ، حولية دائرة الاثار العامة ، عمـان ، عدد ٢٠ سنة ١٩٧٥ .

ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ،

-جوامع السيرة النبوية ، راجعه وعلق عليه الشيخ نايف العباسي ، مؤسسة علوم القران ، دمشق -بيروت ط١ ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ .

- جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط٣ ، دار المعارف ، مصر١٣٩١/١٩٧١.

حسين ، فالح ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي ، مطابع دار الشـــعب ، عمـان ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ .

الحلي ،ابو البقاء هبةالله ، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات ، مكتبة الرسالة ، عمان ١٩٨٤ .

ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات دار الحياة بيروت (لا.ت) .

الحميري ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان ،بيروت ١٩٧٥.

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (تاريخ ابن خلدون) (لامطبعة) ١٣٩١هـ/١٩٧١ .

ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس،دار صادر بيروت (لا.ت) والطبعة المصرية تحيق محمد محي الدين عبد الحميد ، النهضة المصرية ١٣٦٧هـ/١٩٤٨ .

الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن ، تحفة الادباء وسلوك الغرباء ، تحقيق رجائي السامرائي،دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠.

ابن خياط ، خليفة ، تاريخ ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧.

الدوري ، عبد العزيز ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، مؤتمر بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى السابع عشر ، عمان ١٩٧٤ .

درادكة صالح ، لمحات من تاريخ ايله (العقبة) في العصر الاسلامي ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان ١٥-١٦/ ١٩٨٤ .

ديسو ، رينيه ، العرب في سورية قبل الاسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، لجنة التاليف والنشر ،القاهرة ١٩٥٩ .

الذهبي ، ابوعبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، المشتبه في الرجال اسمائهم وانسابهم ، تحقيق علي محمد البجاوي،الباب الحلبي ، القاهرة ط١/١٩٦٢ .

- العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .

- سير اعلام النبلاء ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .

- سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ابن رشيق القيرواني، ابو علي الحسن (ت ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ط٤/١٩٧٢ .

الزبيري ، أبو عبدالله المصعب بن عبد الله المصعب (ت ٢٣٦هـ) ، نسب قريش ،تحقيق ليفي بروفنسال ،ط٢ دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .

ابو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ،تاريخ ، دراسة وتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني،مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٠ .

الزمخشري ، محمود بن عمر ، الامكنة والمياه والجبال ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مطبعة السعدون بغداد (لا.ت) .

سبط ابن الجوي ، شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، مراة الزمان في تاريخ الاعيان ، عني بنشرة علي سويلم، الجمعية التاريخية التركية انقرة ١٩٦٨ .

ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧/١٣٧٦.

ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ١٩٨٢.

ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي بن موسى (ت ما بين ٦٨٣ ـ ٦٨٥ هـ) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ١٩٧٦ .

السمعاني ، ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، الانساب ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن يحيى المعلمي اليماني ، بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠ .

ابن شداد ، عزالدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (دمشق) ،(لبنان والاردن وفلسطين) ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٥/١٣٧٥ .

شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري (ت ٧٢٧ هـ) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ، بغداد ، نسخة مصورة عن ليبزغ ١٩٢٣ .

الصابيء ، غرس النعمة ، ابي الحسن محمد بن هلال (ت٤٨٠ هـ) ، الهفوات النادرة تحقيق صالح الاشتر ،منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ .

الطائي ، يحيى بن مدرك ، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي واخباره ، رواية هشام بن محمد الكلبي ،دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (لا.ت) .

ابو طالب محمود ، اثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ، وزارة الثقافة والشباب عمان ١٩٧٨ .

الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،ط٢، دار المعارف ،مصر ١٣٨٧هـ/١٩٦٧ م .

طوقان، فواز احمد،الحائر ، بحث في القصور الاموية في البادية ، وزارة الثقافة والشباب ،عمان١٩٧٩.

العابدي ، محمود ، عمان في ماضيها وحاضرها ، امانة العاصمة، عمان ١٩٧١ .

عاقل ، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥ .
المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام فلسطين ، عمان ١٩٨٣ .

عباس ، احسان ، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجري، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ـ فلسطين ، عمان ١٩٨٣.

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، الاستيعاب في معرفة الصحاب ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مكتبة النهضة المصرية (لا.ت) . وبهامش الاصابة في تمييز الصحابـــة ، مكتبة المثنـى بغداد ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨هـ .

ابن عبد ربه ، احمد بن محمد، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجاريـــة الكبرى (لا.ت) .

عبد الرؤوف ، عصام الدين ، الحواضر الاسلامية الكبرى ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن عساكر ،ابوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق ج١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ .تاريخ دمشق(تراجم النساء) تحقيق سكينة الشهابي ، دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ . تاريخ دمشق

(عاصم ـ عايد)تحقيقشكري فيصل ، دمشق ١٩٦٧/١٣٩٧ . تاريخ دمشق ، تهذيب الشيخ عبد القادر بدران ، دار المسيرةبيروت ١٩٧٧/١٣٩٩ .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي ، الاصابة في تمييز الصحابة ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨ هـ . مكتبة المثنى بغداد .

علي ،جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨.

العلي ، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج١ ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٠ .

العيني ، بدر الدين ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتـسوت ، دار الكاتب العربي ، القاهرة١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ .

الغزي ، الشيخ نجم الدين ، الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت (لا.ت) .

غوانمة ، يوسف درويش ، عمان حضارتها وتاريخها ، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان ١٣٩٩/ ١٩٧٩ . ايلة (العقبة)والبحر الاحمر ، دار هشام للنشر والتوزيع ، اربد ١٩٨٤ . التاريخ السياسي لشرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، ، ط٢ دار الفكر ، عمان ١٩٨٢ .

ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ، تقويم البلدان، طبعةباريس ١٨٤٠م.

الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد (ت ١٨٥ هـ) ، كتاب العين ، تحقيق مهـدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢ .

الفرزدق ، همام بن غالب ، « ديوان الفرزدق » دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

الفيروز ابادي ، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، دار العلم للجميع ،بيروت (لا . ت)..

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط٢ ، دار المعارف، مصر (لا . ت) ..

القرشي ، ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن احمد ، معالم القربة في احكام اهل الحسبة ، عنـي بنقله وتصحيحه روبين لبوي ، دار الفنون ، كمبردج ١٩٣٧.

القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عـن الطبعة الاميريـة . قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابياري ، دارالكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦٣ .

كبريت ، محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، رحلة الشتاء والصيف ، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥ هـ .

الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ،بيروت ١٩٧٤ .

ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية دار الفكر العربي القاهرة ١٩٣٥ .

كثير عزة ، كثير بن عبد الرحمن ، « ديوان كثير عزة » تحقيق احسان عباس ، دار الثقافـــة ، بيروت ١٩٧١.

ابن الكلبي ،ابو المنذر هشام بن محمد ، الاصنام ، تحقيق احمد زكي ، الدار القوميـة للطباعـــة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥ .

لسترانج ، جي ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمايرة ، منشورات دائرة الثقافـــة والفنون ، عمان ١٩٧١ .

ابن ماكولا ، الامير الحافظ ، الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب صححه الشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني ، دار المعارف العثمانية حيدر اباد ـ الدكـــن ـ الهنـــد ١٩٦٦ .

المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥١ .

مجهول ، .. اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

مجهول ، .. العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ مكتبة المثنى (لا.ت).

المروزي ، ابوعبدالله نعيم بن حماد ، كتاب الفتن ، مخطوط مصور ، مركز الوثائق ـ الجامعـــة الاردنية ، شريط رقم ٣٠١ .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبةالتجارية الكبرى ، ط٢ ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ .

التنبيه والاشراف ، دار التراث ، بيروت ١٣٨٨/١٩٦٨.

المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ، مكتبة خياط ، بيروت (لا.ت) .

المقدسي ، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر . احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، بريل ١٩٠٦ .

ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت (لا.ت) .

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر :

ج٣ تحقيق رياض عبد الحميد مراد مراجعه روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤.

ج٦ تحقيق محمد مطيع الحافظ ونـزار اباظة ، مراجعة روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشـــق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ .

ج٧ تحقيق احمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر ، مراجعة رياض عبد الحميد مراد ، دار الفكر، دمشق ١٤٠٥/١٩٨٥.

ج٩ تحقيق نسيب نشاوي ، دار الفكر دمشق ١٤٠٥/١٩٨٥ .

نولدكة ، تيودور ، امراء غسان ، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣ .

النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الارب في فنون العرب ج١٨ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،الهيئةالمصريةللكتاب ، القاهرة ١٣٩٥/٩٧٥ ١ .

هاردنج ، لانكستر ، اثار الاردن ، تعريب سليمان موسى منشورات وزارة السياحة والاثار ، المطبعة الوطنية عمان ١٩٧١ .

ابن هشام ، ابو محمد بن عبد الملك (ت٢١٣) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، الباب الحلبي ، ط٢ ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

الهمداني ، الحسين بن احمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق علي الاكوع دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٤/٩٧٤ ١ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق حسنين محمد ربيع راجعه وقدم له سعيد عاشور ، دار الكتب القاهرة ١٩٧٧ .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله ، معجم البدان ، دار صادر بيروت (لا.ت) . معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية الباب الحلبي ، القاهرة (لا.ت) . المشترك وصفا والمفترق صقعا ، غوتنجن ١٨٤٦ م .

اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن واضح ، تاريخ، قدم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٣٨٤/١٩٦٤ .

ــ البلدان (مطبوع مع الاعلاق النفسية) ليدن ١٨٩١ ، وطبعة النجف .

المراجـع بالاجنبية

1 — **Encylopaedia of Islam .**

2 — **Dictionary of the Bible.**

3 — Hitti. Philip.k., **History or the Arabs,** London 1947.

4 — Jones, A.H.M.,**The Cities of the Eastern Roman Provinces,**oxford 1971

5 — Le Strang , **Palestine under the Moslems,** London 1890.

6 — Pierre Médebille, **Salt, History d'une Mission,** Jerusalem.

7 — Smith, George Adam ,**The Historical Geography of the Holyland** Fontana Library London 1960.

— Donner, Fred MC Grau, **The Early Islamic** Conquests, Princeton University Press, Princeton - New Jersey.

9 — Trimingham, J. Spener. **Christianity among the Arabs in Pre -Islamic time,** Longman , London and New york 1979 .

النّظامُ الماليّ عندالحفصيين *

د. صالح فياض أبو دياك
جامعة اليرموك

يعد ديوان الخراج من اهم دواوين الدولة ، واعتبره ابن خلدون الركن الثالث من اركان الملك . ولهذا اهتم به خلفاء الدولةالاسلامية عبر الفترات التاريخية للحكم الاسلامي (١) .

وأول من قام بتأسيس هذا الديوان من الخلفاء ، هو الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، فقد أبقى سجلات دواوينه باللغات التي كانت عليها ، وهي اللغة الفارسية في العراق ، واللغة الرومية في بلاد الشام ، واللغتان القبطية واليونانية في مصر(٢) .

وقد ظلت سجلات الدواوين على ما كانت عليه قبل الفتح دون تغيير أو تبديل الى عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، حيث استقرت في عهده دعائم الدولة العربية ، ورسخت قواعدها ، وانتقل العرب الى انماط حياتية جديدة ، ومهروا في القراءة والكتابة بعد جهلهم بهما ، وظهر من بينهم ومن مواليهم كتاب واهل حساب ، فأمر الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان في سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م ، سليمان بن سعد والي

* يعود اصل بني حفص الى قبيلة هنتاتة التي هي فرع من المصامدة ، وكان ابو حفص عمر بن يحيى مؤسس دولتهم ، استقل بنو حفص بافريقية ــ تونس ــ بعد استيلاء المرينيين على مراكش ودام حكمهم ثلاثة قرون ، وامتد نفوذهم حتى وصل برقة . راجع ، ابن خلدون تاريخ الدول بالمغرب الجزائر ١٨٥١ جـ ١ ، ص ٣٧٤ .

الاردن في عهده ، بتعريب ديوان المال في بلاد الشام ، وقد تم تعريبه في خلال سنة واحدة واصبح يتولاه من يتقن اللغة العربية بعد أن كان لا يتولاه الا من يتقن اللغة الرومية ، وكان ممن تولاه قبل التعريب سرجون بن منصور الرومي النصراني(٣) .

اما ديوان العراق ، فقد أمر الخليفة عبد الملك واليه الحجاج بتعريبه ، وقام الحجاج بدوره بتكليف كاتبه صالح بن عبد الرحمن مولى ابن عبيد من بني مرة بتعريب الدواوين .

وكان صالح يتقن اللغة الفارسية التي تعلمها من زادان بن فرّخ(٤) الذي قتل في حرب ابن الاشعث ، وتمكن صالح من تعريبه في مدة وجيزة . اما ديوان مصر ، فقد أمر عبد الله بن عبد الملك بن مروان والي مصر من قبل ابيه بنقله الى اللغة العربية ، وعين له بعد تعريبه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص بدلا من عبد الله بن اثيناس .

وفي خراسان ، قام اسحاق بن طليق كاتب بني نهشل بنقله من اللغة الفارسية الى اللغة العربية زمن الخليفة هشام(٥) بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ/٧٤١م . ونتج عن حركة التعريب في الدواوين انتشار اللغة العربية ، واصبحت اللغة السائدة في جميع اجهزة الدولة ، في مختلف الاقطار الاسلامية(٦) .

اما عن تقسيم الخراج ، فقد عزم الخليفة عمر على ان يضع خراجا على ارض السواد والاهواز وما افتتح من المدن في بلاد العراق وفارس ، فأشار عليه المسلمون بتقسيمها دون فرض الخراج عليها ومن هؤلاء بلال الحبشي ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولكن عمر رفض رأيهما وأيده في رفضه من الصحابة عثمان وطلحة . واستقر الرأي على فرض الخراج ، فبعث الخليفة عمر حذيفة بن اليمان ، وعثمان بن حنيف الى ارض السواد في الاراضي المفتوحة وارض الجزيرة الفراتية فوضعا على هذه الاراضي خراجا يتفق والشريعة الاسلامية(٧) . وقد اتبع نظام عمر في الخراج في الاراضي المفتوحة من جاء بعده من الخلفاء مع الاخذ بعين الاعتبار نوعية التربة ، وانواع المحاصيل والاشجار المثمرة ، والاحوال الطبيعية للبلاد ، وعادات اهلها في الزراعة وجني المحصول ، وكيفية سقي الاراضي بماء المطر او بالري . وكانت البلاد المغربية من البلاد الوافرة بالمياه(٨) ، الخصبة بالانتاج ، علاوة على اهتمام العرب المسلمين بالتعمير واصلاح الاراضي . من هنا يقال انهم اهتموا ببناء المسجد وزراعة الحقل .

ففي عهد الاغالبة ، على سبيل المثال ، شهدت افريقية زيادة في مساحة الارض المزروعة ، بفضل العناية بطرق الري والاكثار منها ، كما شهدت زراعة محاصيل جديدة

قدم بها الفاتحون من بلاد الشام والعراق ، وتقدمت الصناعة والتجارة في هذه البلاد وغيرها من البلدان المغربية .

واصبحت القيروان حاضرة البلاد الافريقية من المراكز التجارية المهمة على البحر المتوسط ، الى جانب بلدان اخرى ، مثل بيجاية ، وسوسة ، ورقادة ، والعباسية وغيرها من المدن الافريقية(٩) .. وحذت هذه المدن حذو المدن المشرقية ، فعرفت نظام الاسواق المتخصصة(١٠) مثل اسواق المدن بالمشرق ، كما تأثرت النظم المالية فيها بنظيراتها في الامصار الاسلامية وخاصة المشرقية منها .

فالدارس للعملة المغربية بافريقية الاغلبية يعرف مدى تأثرها بالعملة العباسية ببغداد كما نلاحظ ان وظيفة متولي الضرائب التي وجدت بافريقية الاغلبية هي تقليد لما عرفته العراق ، ومجاورة افريقية للمشرق وموقعها بين القارات الثلاث ـ أوروبا وآسيا وافريقيا ـ سهلت سبل الاتصال البري والبحري بينها وبين المشرق من جهة وبينها وبين القارات الثلاث من جهة اخرى .

وارتبطت افريقية بمصر بطريقين كبيرين احدهما بمحاذاة الساحل والاخر اتجه الى الجنوب حيث توغل في الداخل .. اما الطريق الاول ، فيمر بالفسطاط ويتجه غربا دون أن يمر بالاسكندرية ، ويلتقي عند برقة بالطريق الآتي من الاسكندرية ، ثم يتحد الطريقان في طريق واحد معبد الى المدن الافريقية مارا بذات الحمام والطاحونة . اما الطريق البحري فقد ربط المدن الواقعة على البحر المتوسط ابتداء من الاسكندرية مرورا بالموانيء الافريقية مثل تونس ، وسوسه ، وبيجاية وغيرها ، ولكن افريقية الاغلبية كانت تعتمد على الطرق البرية اكثر من الطرق البحرية لان البيزنطيين كانت لهم قوة بحرية يعتد بها في البحر المتوسط(١١) . الا أن هذه القوة انهارت ، ونشطت بعد انهيارها الطرق البحرية بين الساحل التونسي والمدن الساحلية المغربية الاخرى ، مثل نول ، ولمطة ، واصبحت هذه الطرق تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الاسكندرية على البحر المتوسط شرقا ، ونشطت طريق الصحراء بعد اكتشاف الذهب في المناطق الافريقية المحاذية لمدينة سجلماسةالواقعة الى الجنوب من مراكش ، فكانت القوافل التجارية تاتي من سجلماسة عبر وجدة ، ومنها الى تلمسان ومنها الى بلاد الزاب وقسطيلة محملة بالتبر مما ادى الى الرواج التجاري في الاسواق المغربية بعامة ومن ضمنها الاسواق بافريقية(١٢) .

ونشطت دار السكة في مدينة العباسية الواقعة الى الجنوب من القيروان بسك العملة الذهبية فيها والتي على وجهي قطعها النقدية اسماء خلفاء بني العباس (١٣) .

وحرص الاغالبة كما حرص من سبقهم ومن عاصرهم ومن اتى بعدهم من حكام المغرب على تأمين الطرق التجارية قصد المحافظة على اقتصاد البلاد وازدياد الرخاء فيها(١٤).

ولما جاء الفاطميون للمغرب واستولوا على افريقية التي كانت من ضمن الاقطار المغربية التي استولوا عليها ، لجأوا الى عدد من الاساليب التي لم يعهدها المغاربة من قبل ، اذ أمروا بأخذ الخمس من الغنائم عملا بقول جعفر بن محمد : « الخمس لنا اهل البيت ليس للناس معنا فيه شيء»(١٥) ، وهو ما يخالف آراء الفقهاء من أهل السنة الذين يرون بان سهم الرسول انتهى بموته، وانه يصرف في المصالح العامة . واستحدث الفاطميون دواوين جديدة لجبي الاموال مثل ديوان الكشف وديوان الضياع ، وقاموا بمصادرة أموال التجار خاصة الاندلسيين ، وكان من ابرزهم جعفر بن خيرون المعافري لانه لم يكن على وفاق معهم ، واطلقوا العنان لقادة الجيش في جباية الاموال سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١م من هؤلاء التجار . ومن ابرز هؤلاء القادة مصالة بن حبوس ، ويبدو انه اشتط في جمع الاموال ومصادرتها خاصة من التجار(١٦) .

وشجع الفاطميون جباتهم على الاكثار من المال الذي عد وسيلة لترقية الموظف وتعيينه في المناصب العليا أمثال محمد بن عمران النفطي قاضي طرابلس الذي نال منزلة عند عبيد الله بسبب جمعه المال الكثير وتقديمه لخزينة الدولة(١٧) .

وابتكر الفاطميون وظائف للجباية جديدة ، مثل وظيفة التقسيط الذي ابتدعها القاضي ابو عمران بن احمد بن عبد الله بن أبي محرز عندما ولاه عبيد الله المهدي على خراج افريقية سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، فنظر في اكثر كمية من مال العشور واقلها واخذ متوسطها وفرضه على كل ضيعة من ضياعها (١٨) .

وعرف هذا النوع من الجباية عندهم بالتقسيط ، وبعد سنتين من ابتكار هذه الوظيفة قاموا باصلاح في الجباية سموه « التضييع » وعدوه اصلاح الاصلاح وكان ذلك سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م . وفيه يقول ابن عذارى : — « وفيها (سنة ٣٥٠ هـ) اخذ اهل الضياع باعمال افريقية بمغرم سمي التضييع ، وزعموا انه من بقايا التقسيط » . والى جانب ذلك ، انشأوا دارا سموها (بدار المحاسبة) كاجراء احتياطي لعدم اختلاس الاموال من قبل الجباة(١٩) .

بالاضافة الى هذا التنظيم الدقيق في الجباية، اهتم الفاطميون بالتجارة، فعمدوا الى تنظيم الاسواق وانشاء غيرها ، فقد انشأوا حي القاسمية التجاري في مدينة القيروان ونقلوا اليه التجار ، وبعد الانتهاء من مدينة المهدية التي بنيت في عهد عبيد

الله الفاطمي ، انشأوا فيها الاسواق التجارية ونقلوا اليها التجار من مختلف الامصار واجروا نظاما دقيقا عليهم في استخلاص المكوس منهم(٢٠) ، وبسطوا سيطرتهم على الطرق البحرية التي درت عليهم اموالا كثيرة وحاولوا الوصول الى مسالك تجارة الذهب ببلاد السودان(٢١) ، ولكنهم وقعوا في صراع حاد مع الامويين بالاندلس وانتقل هذا الصراع بدوره الى القبائل المغربية المناصرة لهم والمعادية . فقبائل زناته كانت معادية لهم مناصرة للامويين ، اما صنهاجة فكانت معادية للامويين مناصرة للفاطميين مما ادى الى اشتعال الحروب فيما بينهم . ولكن هذا الصراع لم يضعف خزينة الدولة فكان لها من افريقية والمغرب عامة ما يزود خزينتها بالمال الكثير من العملة الذهبية(٢٢) ، حيث تصف بعض المصادر رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر وحمله سبائك الذهب على شكل طواحين ، ولعل هذه الثروة الذهبية هي التي اعتمد عليها المعز لدين الله الفاطمي في اسقاط العملة العباسية بمصر اذ نقص دينار الخليفة الراضي بمقدار الربع واصبح يصرف الدينار المعزي بمقدار خمسة عشر درهما ونصف(٢٣) . اما المرابطون ، فقد اقتصر خراج افريقية في عهدهم على زكاة الفطر والاعشار ، والجزية المفروضة على الذميين ، والخمس من غنائم الجهاد ، وأما ما عدا ذلك من الضرائب الاخرى التي تخالف الشرع فقد الغيت جميعها . .

ويشيد السيلاوي بحسن عملهم في جباية الاموال بقوله : « ولم ير في بلد من بلاده « يوسف بن تاشفين » ولا عمل من أعماله ، على طول ايامه ومن أتى بعده ، رسم مكس ولا خراج في حاضرة ولا بادية ، الا ما أمر الله به ، واوجبه حكم الكتاب والسنة » (٢٤) وتضمنت وصية الخليفة العباسي القائم بامر الله التي تحمل صك البيعة للامير يوسف بن تاشفين سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م والتي كتبها ابو سعيد العلاء بن وهب بن موصلايا ما يأمره فيها بأخذ الزكاة حسب الاصول الشرعية ، واختيار عمال الخراج والضياع والاعشار ورجال المحاسبة ممن اتصفوا بالصدق والعفة والنزاهة واوصاه بمحاسبة النظار على ما يأخذون من الاموال العينية من الضياع والتزام سعاة الصدقة بأخذ المقرر لهم من المواشي على السائمة منها دون العاملة حسب السنة النبوية .

وركز في وصيته على دار السكة واوصاه بان يكون النقد المسكوك حسب المثقال الشرعي خاليا من الغش والتدليس .

وطلب منه بأن لايرهق اهل الذمة بالجزية ، وان تؤخذ منهم على قدر استطاعتهم حسب ما هو مألوف ، وان لا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ ، ومن تبتل من الرهبان ، وان يرسل الى الخليفة العباسي ما اوجبه الشرع من الفيء والغنائم(٢٥) .

وعلى هذا النهج سار الامير يوسف بن تاشفين ومن تبعه من أحفاده بأخذ الضرائب الى حد مـا .

واما الدولة الموحدية ، فقد حرصت في بادىء امرها على الاقتداء بالدولة المرابطية التي قامت على انقاضها فالتزمت احكام الشرع في جباية الضرائب ، ويظهر هذا واضحا في الرسالة التي انفذها الخليفة الموحدي عبـد المؤمن بن علي الى الطلبـة والمشايـخ والاعيان والناس بالاندلس كافة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، والمسماة في التاريخ بالرسالة الجامعة (٢٦) ، يخبرهم فيها باسقاط المغارم والمكوس والقبـالات وتحجـير المراسي وغيرها من وظائف الجباية المخالفة للشريعة الاسلامية(٢٧) وارسل رسالة اخرى بنفس المضمون الى أهل قسنطينة عند الاستيلاء على مدينة بيجاية من ايدي المرابطين سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، تحدث فيها عن اهل « الاختلاق والبدع » وما فرضوه من قبالات ومكوس وأعشار ، مطالبا اياهم باجراء الشريعة عند سن قوانين الجباية .. واراحـة الناس من وظائف الجباية المخالفة لها ، على ان هذه الاجراءات لم تكن الا مجرد شعارات قصد منها ترسيخ دعائم الدولة لان الاموال المجبية لم تكن كافية لسد حاجاتها خاصة وان الجيش الموحدي ازداد عدده واتسعت رقعة نفوذه في المغرب والاندلس ، ممـا اضطر الدولة الى البحث عن موارد جديدة لتغطية النفقات المتزايدة (٢٨) .

مع هذا ، قام الخليفة عبد المؤمن بمسح اراضي الدولة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ، ورسم خريطة لذلك اسقط منها ثلثي اراضي الخراج ، وفرض على الباقي من الاراضي خراجا يدفع نقدا او عينا (٢٩) ، وسمي عمله (بالتكسير)(٣٠) ، وساعده عدد من خبراء الخراج والفقهاء مراعين في فرضـه حالة السكان ونوع التربة والانتاج لافريقية وبقيـة البلاد المغربية في عهدهم . وضمت خطة الاشغال في الدولة الموحدية مناصب عـدة ، منها مناصب **متولي أشغال البرين ــ المغرب والاندلس ــ** الذي كان يسمى في الايـام الاولى للدولة الموحدية بالاعمال العلية والاشغال السلطانية والذي أسند الى زيـد ابن يوجان(٣١) أيام الخليفة المنصور الموحدي ، لكنه سرعان ما تغير مـن حيث التسميـة والمهام واستعيض عنه بمنصب **(اشراف البرين وضم الاعمال وتفقد الاشغال)** .واصبح موكلا لغير واحد يقوم بمهامه ويسمى بصاحب الاشغال ، وياتي بعده في الترتيـب الوظيفي ، صاحب **الاعمال المخزنية ، ويليه متولي المجابي ثم متولي اموال النفقـات والمحاسبة ، ومتولي اعمال المستخلص**(٣٢).

وكان لمتولي الاعمال المخزنية سلطات واسعة تختلف عن غيره مـن متولي وظائف الجباية في الدولة ،فله الحق في الاشراف على جمع الاموال وانفاقهـا ، وفي مراقبـة العمال المشرفين ومحاسبتهم والقبض على الجناة منهم(٣٣) . وكان له وكلاء في سائـر

المدن الكبرى يسمون بالمشرفين ، وله من ينوب عنه في اشبيلية بالاندلس يسمى **(بصاحب المخزن)** . ولكل مشرف من هؤلاء المشرفين عدة موظفين يختلفون عن بعضهم باختلاف اشرافهم يسمى كل واحد منهم بالخازن ، فهناك خازن على المال ، وخازن على الطعام وجميع هؤلاء المشرفين مسؤولون أمام صاحب الاعمال المخزنية عن الصادر والوارد للمخازن العامة التابعة للدولة ، بالاضافة الى رقابة سجلات الجباة الذي يجبون الضرائب من مختلف المناطق(٢٤) .

ونظرا لكثرة أعمالهم وتعدد مسؤولياتهم ، فقد عين لهم وكلاء يقومون بالاشراف على الجباة المنتشرين في مختلف المناطق ، وهم الصلة ما بين المشرفين والجباة ، ولذا كانت تصادر أموالهم وتزهق ارواحهم بسبب ما يتهمون به من الاختلاس(٢٥) .

اما متولي المجابي ، فتقتصر مهمته على تحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف اصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته .

واما متولي المستخلص ، فتنحصر مهمته في الاشراف على أموال السلطان والمحافظة عليها ، فيقوم بتحصيل ما يتعلق بها من الاموال من مختلف ابواب الدخل .

وقد تسند هذه الوظيفة الى صاحب الاعمال المخزنية ، فيباشر الاشراف على السهام السلطانية ، وياخذ ما للسلطان من حصص وحقوق شرعية من الغنائم والفيء ، التي تذهب الى خزينة الدولة ، وما يضاف لها من الاموال المصادرة التي تؤخذ من خصوم الدولة ، ومن يلحق بهم من عمال الجبايات المتهمين بالاختلاس(٢٦) .

ولم تقتصر المصادرة على هؤلاء ، بل تعدتهم الى رجال الذمة من اليهود والنصارى من رعايا الدولة ، خاصة أيام الاضطهاد والمطاردات التي كانت تحدث لهم بين الحين والآخر ، بالاضافة الى فرض ضرائب جديدة ومكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وبالجملة كانت الضرائب تفرض على ابناء الامة كلما احتاجت الدولة اليها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الدول المعاصرة لها .

وكانت العملة الموحدية مكونة من الدينار الذهبي والدرهم الفضي ، وربما استعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار ، واستعملت الاوقية التي لها نفس وزن الدرهم .

وقام الخليفة المنصور الموحدي باحداث تغييرات على نظام العملة ، مثل مضاعفة وزن الدينار بقصد تسهيل المعاملات بين الناس(٢٧) .

واهتمت الدولة الموحدية في بداية عهدها بالزراعة ، وشهدت البلاد رخاء كبيرا، لكنه ما لبث أن انتكس بسبب المحن الطبيعية والفتن الداخلية(٣٨) . فقد قام عرب افريقية بمؤازرة الثائر ابن غانية ، وعاثوا في الارض الافريقية فسادا ، فقطعوا السبل ونهبوا المتاجر وخربوا البسائط مما أنعكس على اقتصاد افريقية خاصة والمغرب عامة، وما كادت الدولة تنتهي من هذه الفتنة حتى منيت بكارثة عسكرية كبيرة ، تمثلت في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م زمن الخليفة محمد الناصر الموحدي فكان لهـا آثار سلبية كبيرة على الناحية العسكرية والاقتصادية حيث تفشى الغلاء ونهبت المتاجر واضطربت الاحوال ، ونشبت حروب أهلية بسبب الصراع على كرسي الخلافة ، واشترك في هذا الصراع بعض القبائل العربية والبربرية ، مثل هسكورة وعرب الخلط ، كل هذا عجل بنهايتها والقضاء عليها على ايدي المرينيين الذين استولوا على الحاضرة مراكش وانتهى الحكم الموحدي في المغرب بقتل آخر خليفة موحدي المعروف باسحاق سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م .



أما الحفصيون ، فكانت خزينتهم تتكون من الزكاة والخراج التي سلكوا في اخذها مسلك الدولة الموحدية، فكان يشرف على ديوان الجباية **صاحب الاشغال**(٤٠) الذي كان يقوم بمراقبة الصادر والوارد الى الخزينة ، وجباية الاموال في اوقاتها والتأكد من صحة كشوفها ومحاسبة من تهاون من الجباة في عمله . وبالجملة يقوم بمراقبة من هو دونه من اصحاب وظائف الجباية ، ولاهميته كان يشترط فيه ان يكون من عصبة الموحدين(٤١) ، فان تعذر وجوده لعدم خبرته في الحسابات عين غيره ممن اتصف بالاخلاص والاتقان وحسن التصرف ، وهو الذي اشار اليه ابن خلدون في مقدمته ، بقوله: « وكان صاحبها يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها . وكان يسمى بصاحب الاشغال ، وفي بعض الجهات قد يليها غير الموحدين ممن يحسنها »(٤٢) .

ولجأت الدولة الحفصية فيما بعد الى الاستعانة ببعض خبراء هذه المهنة من الاندلسيين لممارستهم اياها في بلادهم ، ويبدو ان مثل هذه الوظائف وغيرها من وظائف الدولة اخذت ــ احيانا ــ طابعا اسريا يورثها الاب لابنه ، فأسرة بني سعيد القادمين من قلعة يحصب الواقعة بالقرب من غرناطة والمعروفين ببني ابي الحسن ، استخدمهم الامراء الحفصيون في هذه الخطة ، وارتضوا بهم دون سواهم ، واصبحت متداولة

بينهم وبين الموحدين ، ولكن الحفصيين طوروا اسلوب الاختيار في التعيين فلم يقصروها عليهم ، بل أفسحوا المجال لغيرهم من عمال الجباية من اتصفوا بالكفاية وابدوا من حسن الاعمال ما يسترعي النظر . من هؤلاء ، ابن محمد الجوهري الذي شد نظر السلطان ابي زكريا في ضبطة جباية (مال العمود)(٤٣) ، وهي الجباية المفروضة على البدو بافريقية من العرب والبربر ومن ساكنهم ، وقام بتسجيلها في الديوان(٤٤) باسم ضريبة العمود بعد أن فصلها عن غيرها من خطط الجباية . واستطاع بحسن تصرفه ان يدخل للخزينة منها اموالا كثيرة كانت تذهب الى جيوب العمال والولاة، فكانت سببا في ترقيته وتعيينه في جباية الاشغال بمدينة تونس(٤٥) .

لكن الجوهري هذا ، عادى ابناء مهنته واصحاب الشأن في الدولة أمثال أبي علي بن النعمان(٤٦) وابي عبد الله بن الحسين (٤٧) ، فوشيا به ، واثبت سلوكه صدق قولهما فيه ، بالاضافة الى اكتنازه الاموال ، وتقريبه الرجال واغتراره بنفسه، فكان غروره سببا في قتله .

ومن الذين عينوا من أهل البلاد، زمن السلطان المستنصر، أحمد اللياني(٤٨)الذي كان واليا على الخطط المخزنية ومن ضمنها خطط البحر(٤٩) . ولم يقتصر الامر على الموحدين وسكان البلاد الاصليين بل تعداهم الى الموالي ، أمثال المملوك مدافع الذي عين على خطة الجباية زمن السلطان أبي اسحاق بن الواثق . ومن الاندلسيين ، محمد ابن يعقوب ، وابو القاسم بن الطاهر وغيرهم ممن شغلوا هذا المنصب في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن الهجري(٥٠) ، وبالجملة فان وظائف الجباية في الدولة كانت توزع على من يتقنها وان استأثر الاندلسيون بها اكثر من سواهم بسبب معرفتهم اسرارها .

والملاحظ ان صاحب الاشغال كان عرضة للاتهامات وغالبا ما يكون مصيره القتل، فاللياني قتل على عهد السلطان المستنصر بالله(٥١) سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، وسعيد ابن أبي الحسين قتل على عهد الواثق بالله وصودرت املاكه وذلك سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨م ، وابو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبي عمارة(٥٢) ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م .

وبصرف النظر عن التهم الموجهة اليهم من اختلاس الاموال ، الا ان سعي الوشاة وكيد الحاسدين والصراع على الوظيفة كان سببا جوهريا في حدوث هذه النكبات . ولكن الامر لم يقتصر على الفقهاء او الكتاب بل تعداه الى رجال الجيش ، فقد وكل السلطان المتوكل على الله ابو فارس بن ابي العباس احمد مملوكه وقائد جيشه نبيلا

ابا قطاية خراج قسنطينة وما حولها ابتداء من بيجابة وانتهاء بعنابة لمدةخمس سنين وذلك سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م ، فانفرد بها واصبحت له سطوة وحرمة عند الرعية فكانت ترهب جانبه وتخشى بطشه وتتقي غضبه ، وركبه الغرور مثلما ركب غيره ، وكان اذا انفرد ذو الحاجة به وجده موافقا لغرضه محققا لطلبه ، لكنه كان يأخذ بالظن ويبني عليه احكامه(٥٢) . وظن انه أنفرد بالسلطة ، لكنه سرعان ما لقي مصيره مثل سابقيه ، فقد أمر السلطان ابو عبد الله محمد المنتصر بتعذيبه حتى زهقت روحه، وصودرت امواله التي قدرت بمبالغ طائلة ، وضعت في خزينة الدولة(٥٤) ..

ويبدو ان بيت المال كان محط اعين الطامعين والمتكالبين عليه فقد مر بظروف حرجة فكان صاحبه يؤخذ بالظنة ، زيادة على سوء تصرف البعض من موظفيه ممن ركبهم الغرور وتصرفوا بالامور حسب أهوائهم .

وقد اسند بيت المال في بعض الفترات الى جباة من النصارى شانهم في ذلك شان جيرانهم من الدول الاسلامية كبني مرين بالمغرب ، والمماليك(٥٥) بمصر ولعل هذا يرجع الى دراية النصارى بهذه المهنة واتقانهم لها ، بيد أن منهم من ركبه ما ركب غيره من جباة المسلمين . فقد حدث أن توسل رجل من المسلمين لاحد الجباة من النصارى في امر من امور المال ، فاستشاط الجابي(٥٦) غضبا وقال له : « والله لو جاء معك نبيك ما نفعك ذلك » وعندما علم السلطان استشاط غضبا وعد هذا التصرف استهتارا بالدين ، فأمر باحراقه ، واحتج أهل ملته على هذا الحكم، وعرضوا على السلطان افتداءه بالمال ولكن السلطان رفض قائلا : « والله لو بذلوا لي فيه ملء الدنيا ذهبا ما بعت بذلك عرض النبي صلى الله عليه وسلم » ، وأمر باحراقه(٥٧).
ويبدو أن هذه الوظيفة قد زاولتها كثير من الايدي مما أدى الى الفوضى والاضطراب فيها الامر الذي كان يدفع السلطان الى وضع حد للعابثين والمنتحلين لها ، ومن التقاليد المتبعة لدى الامراء أن يقوم الامير الجديد في بداية ولايته بالغاء الاموال المتبقية على العمال وهو ما كان يسمى عندهم « بأزمة الخطايا »(٥٨) ، ولكن سوء تصرف بعض الجباة ممن أولاهم السلطان ثقته كان يثنيه عن اسقاطها مثلما فعل الفقيه يحيى بن عبد الملك الغافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخبير الذي منع السلطان الواثق من اصلاح حال الرعية باسقاط عدد من الضرائب عند التولية(٥٩) مع ان هذا الالغاء لا يدوم طويلا فما أسرع ما يلغي السلطان ما أعلنه ويعيد الضرائب الى ما كانت عليه وربما الى أسوأ ، فيمتنع ابناء الامة عن تاديتها ، أما لفداحتها واما لعجزهم عن ادائها فيقوم السلطان بتجريد الحملات العسكرية للولايات المتمردة .

ومن هؤلاء السلاطين ، أبو عمرو عثمان الذي امر بتجهيز حملة عسكرية سنة

٨٩٦هـ/١٤٩١م لغزو تلمسان وتأديب الاعراب الضاربين حولها لامتناعهم عن دفع الضرائب، وقبل ان يصل الى تلمسان علم الاعراب بقدومه ، فأوفدوا اليه وفداً مكونا من عرب السويد وبني يعقوب والذواودة من بني عبد الوادي وبني عامر معلنين له الطاعة ومعهم الجبايات المفروضة عليهم .

ويبدو أن هذا الامر لم يكن عند بني حفص فحسب ، بل كان عند جميع الدول المجاورة لهم ، وهذا ناتج عن منح السلطان الاقطاعات الكبيرة الى شيوخ القبائل ثم مصادرتها فيما بعد ، وفرض ضرائب على ما تبقى منها مما يدفع الشيوخ الى اعلان التمرد ، فتضطر الدولة الى تجريد الحملات العسكرية لاخمادها .

ويبدو انه تم حدوث اتفاق غير مدون ما بين الدولة من جهة ومشايخ القبائل من جهة اخرى ، فالسلطان ابو عمرو عثمان ، انتقض عليه اعراب افريقية من أولاد مسكين واولاد يعقوب والشنانفة بعد رجوعه الى تلمسان بسبب عدم انصافهم في العطاء الذي كان يقدمه لهم كل عام ، فقد حدث في هذا العام ان أعطاهم الامير نقدا جديدا بدل القديم، ولانه كان أقل وزنا من القديم فقد عدوه ناقصا وطالبوا بالنقد القديم بدلا منه(٦١) ».



وبعد الاشارة الى سلوكيات اصحاب الجباية ، لابد لنا من الاشارة الى وظائف الجباية في الدولة وأهمها : الاشراف على جباية تونس وبيجاية التي تعد من وظائف الجباية العليا ، وقد يقتصر اشراف صاحبها على جباية الحضرة (تونس) دون غيرها من المدن ، ويسمى صاحبها بصاحب(٦٢) الاشغال ، وقد يوكل اليه الاشراف على اموال السلطان الموسومة بعلامة مميزة تميزها عن غيرها من الجبايات ليسهل معرفتها وعدم اختلاطها بأموال الدولة(٦٣) وتسمى (بالسهام السلطانية) يقوم بجمعها من مختلف ابواب الدخل ، ويضعها في خرائط خاصة بها .

وفي هذا الصدد يشير المراكشي الى السهام السلطانية للسلطان ابي محمد عبد الواحد بن الشيخ ابي حفص المتوفى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١ م بقوله : « .. ولم يصد يوجد بتركته الا خرائط (٦٤) مكتوب على كل واحدة قبرة »(٦٥) . وهذا اشارة الى المال الذي خلفه السلطان من سهامه السلطانية بقرية قبرة الواقعة بنواحي الحاضرة قرطبة بالاندلس .

والملاحظ ان صاحب هذه الوظيفة يتمتع بمكانة خاصة عند السلطان ، فقديتولى اخذ البيعة له من العامة والخاصة . ومن الجباة الذين تولوا هذه الخطة زمن السلطان المستنصر ، ابو عثمان سعيد(٦٦) بن ابي يوسف ، الذي أخذ له البيعة من الخاصة والعامة سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م ، وتولاها من بعده كل من كاتب السلطان الفقيه يحيى ابن عبد الملك الغافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخبير(٦٧) ، وابن تافراجين الذي كان يجري العوائد السلطانية في الدولة(٦٨) .

وارتبط بصاحب هذه الوظيفة المسمى بافريقية (بصاحب الاشغال) وبالاندلس والمغرب ب (مختص الحضرة) متولي المجابي المختص بتحصيل الضرائب على مختلف اصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته . من متولي هذه الخطة ايام السلطان عمرو عثمان ، ابراهيم بن عصفور ..

وممن ارتبط بصاحب الاشغال ايضا ، كاتب قلم الجباية والتنفيذ ، وناظر بيت الحساب المسمى الان بدار المحاسبة . وكان ممن تولى هذه الخطة ، ابو عبد الله محمد المسلاتي(٦٩) سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٤ م .. ولكنه لم يمض عام على تعيينه حتى عزل عنها في اواخر شهر رمضان من نفس السنة ، وعين بدلا منه الفقيه محمد بن الكماد(٧٠) ..



أما الضرائب ، فمنها ضريبة التضييف(٧١) التي ابتدعها ابن نخيل كاتب الدولة(٧٢) الرسمي حينذاك والتي كانت تفرض على القرى والبوادي ، وبقيت قائمة الى ان قام السلطان ابو العباس احمد بن عبد الله محمد بالغائها من قرى قرطاجنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ، وعدوا هذا التصرف من محاسن افعاله .. ومن الضرائب ، ضرائب ديوان البحر(٧٣) الذي كان مميزا عن غيره من الضرائب ، فكانت جميع الموانىء التجارية مفتوحة مع أوروبا ، وكان لهذه الموانىء مكاتب خاصة بها تتبع ديوان الاشغال وتقوم بقبض الاتاوات المعبر عنها بالخمس والتي تقدر نسبتها بين ٢٠ــ ٣٦٪ ، بالاضافة الى المستوردين الاوربيين .. ويطلق على مثل هذه المكاتب ، أحيانا ، اسم الديوان . وهذه المكاتب شبيهة بمكاتب القبض الجمركي(٧٤) ، والمراقب المحلي لها يسمى المشرف . ولتسهيل العمليات الجمركية وضمان أمن التجار المسيحيين والمحافظة على بضائعهم ، نجد قرب هذا الديوان مخازن لكل فئة من فئات الامم المتاجرة(٧٥) .

ومن ضرائب الجباية الهامة لخزينة الدولة ، جباية ولاية قسنطينة التي تولاها

محمد بن الدباغ ايام السلطان عمر بن ابي زكريا ، فقام باختلاسها ، والتجأ الى زاوية الزبيديين(٧٦) فارا من وجه العدالة ، فاحتال عليه السلطان حتى اخرجه منها فسجنه بعد ان كبله بالحديد وفرض عليه خمسين الف دينار ذهبا ، فدفعها واطلق سراحه .

وقام بعض السلاطين بتخصيص ضرائب للاعمال الخيرية ، من هؤلاء ، السلطان ابو فارس عبد العزيز الملقب بعزوز الذي تولى الامارة بعد أبيه السلطان ابي العباس وذلك سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣ م ، وهذه الضرائب هي :

- مجبى سوق الدهادنة(٧٧) ، وكان قدره عشرة الاف دينار ذهبا .
- مجبى سوق العطارين ، وقدره مائتان وخمسون دينارا ذهبا .
- مجبى فندق الملح ، وقدره الف وخمسمائة دينار ذهبا .
- مجبى فندق البياض ، وقدره الف دينار ذهبا .
- مجبى قائد الاشغال ، وقدره ثلاثة الاف دينار ذهبا .
- مجبى سوق القشاشين(٧٨) ، وقدره مائة دينار ذهبا .
- مجبى سوق الصفارين(٧٩) ، وقدره خمسون الف دينار ذهبا .
- مجبى سوق العزافين ، وقدره خمسون دينار ذهبا .
- مجبى سوق الصابون ، وقدره ستة الاف دينار ذهبا . وقد ابيح عمله بعد ان كان ممنوعا ، وكان يغرم صانعه بالعقوبة المالية والبدنية معا . والغى السلطان ما كان من منكر الخراج ، كخراج الشرطة ، الذي كان يلزم غير واحد من الفقراء والمساكين بدفع ثلاثة دنانير ونصف الدينار ذهبا ، يدفعونه لحاكم المدينة ، وقد غير السلطان ابو فارس عبد العزيز الاسلوب المتبع في اخذها ، خاصة وان الجباة القائمين عليها كانت تنقصهم التقوى ومخافة الله ، فاشتطوا في جمعها وارهاق الناس بها بقصد ملء جيوبهم من أموالها ، فعين السلطان موظفين بمنزلة أعوان للحاكم اتصفوا بالتقوى وسداد الرأي ، وأجرى لهم رواتب معينة من اجل الحد من الطمع فيها . والغى ما كان على الفخارين(٨٠) من وظائف جبائية ، وأسقط ما كان على الزفانين(٨١) والفانيات(٨٢) والمخنثين من مغارم واجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر(*) .

(*) انظر لوحة عن النظام المالي عند الحفصيين في نهاية البحث .

أما النقود ، فكانت معاملة الدولة الحفصيةمن الدراهم على نوعين، احدهما يسمى القديم ، والاخر الجديد ووزنهما واحد ، ولكن النقد الجديد خالص ، ونقد القديم مغشوش بالنحاس تسهيلا للمعاملة في البيع(٨٣) والشراء . وأي درهم يقبل دون ان يميز، فهو درهم عتيق ، وهناك تفاوت بينه وبين الدرهم الجديد . اذ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي ثمانية دراهم جدد ، وفي مصطلح الاهالي ان كل عشرة دراهم عتق تساوي دينارا .

والى جانب الدينار استحدث الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م ، سكة من النحاس على قيمة الدرهم من الفضة حاكي بها الفلوس بالمشرق تسهيلا للناس في معاملتهم وتيسيرا لقضاء حاجاتهم ، وسميت بالحندوس يعني السوداء تمييزا لها عن غيرها من القطع النقدية(٨٤) ، لكنها هي الاخرى لم تسلم من الغش والتدليس والنقص في الوزن ، مما ادى الى افسادها وعدم الثقة بها، الامر الذي دعا السلطان الى عقاب من قام بغشها ، وعمل على افسادها ، واصبح وجودها مشكلة ونتج عنه اضطراب في البيع والشراء ، فانتهى بها الامر الى الغائها . وقد اقتدى سلاطين بني حفص في سك القطع النقدية من حيث الشكل والكتابة بدولة الام « الدولة الموحدية » (٨٥) . ولم يشذ السلاطين من بعد السلطان ابي زكريا يحيى بن ابي محمد عبد الواحد ، المؤسس الاول لهذه الدولة ، عن هذا الاقتداء الا في أواخر القرن العاشر الهجري ، اذ قلدوا نقود الاتراك في سكهم .

وقد اصدر السلطان ابو زكريا ديناره المكتوب عليه في الدائرة من الوجه الاول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد ، والهكم اله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفي وسط المربع منه « الامير الاجل ابو زكريا ، يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص »وفي وسط المربع منه « ابو محمد عبد المؤمن بن علي ــ امير المؤمنين ــ الحمد الله رب العالمين » . ونقش في وسط ديناره المربع أحيانا والمستطيل احيانا اخرى قبل بيعته بالخلافة(٨٦) من قبل شريف مكة العبارة التالية : الشكر لله ، والمنة لله ، والحول والقوة بالله » ، ولما جاءته البيعة رسم على ديناره « المستنصربالله، المؤيد بنصر الله ــ أمير المؤمنين »وفي وسط المربع : « ابو عبد الله محمد ــ بن الامراء الراشدين »(٨٧) .

وعندما دخلت الدولة تحت الحماية الاسبانية ساءت نقودها ، واصبحت على جانب كبير من الرداءة من حيث السبك والكتابة مما دل على دنو أجلها ، لان الكتابة والسبك الجيد دليل على رقيها .

وأما رطل الدولة فمقداره ست عشرة اوقية ، ووزن الاوقية واحد وعشرون درهما من دراهم الدولة(٨٨) .

أما الكيل فهو على نوعين ، قفيز وصحفة ، فأما القفيز ، فهو ست عشرة ويبه ، وكل ويبه تساوي اثني عشر مدا قرويا(٨٩) ، اي ما يقارب المد النبوي، وتساوي ثمانية بالكيل الحفصي(٩٠) .

واما الصحفة ، فتساوي اثنى عشر مدا بالكيل الحفصي ، اي ما يساوي مدا ونصف بالكيل القروي .

وأما الاسعار : فغالبا ما يكون ثمن كل قفيز من القمح خمسين درهما من الدراهم القديمة والشعير دون ذلك .

وأما الحسبة ، فكان لكل محتسب زمام باسماء المكاييل ، فمن عثر على كيل غير مضروب او غير مطبوع ، او مطبوع في غير وقته عوقب صاحبه .

وكان لكل نوع من المواد الغذائيةمكيال يناسبه ، فالزيت له مكيال من الفخار لانه يفسد في المواد المعدنية ، وترسم في المكيال علامة ظاهرة ينتهي اليها حد الكيل ليبصرها البائع والمشتري(٩١) .

وفي نطاق الاحباس عند الحفصيين ، بنى السلطان ابو عمرو عثمان الميضات(٩٢) الضخمة الموجودة بدرب ابن عبد السلام داخل جامع الزيتونة ، وأمر باجراء الماء الساخن لها في الشتاء .

وبنى السبالة الواقعة شرقي صومعة جامع القصبة بالحضرة ليشرب منها المارة، وبنى سبالة أخرى وضع عليها جعابا من النحاس ليشرب العطشى من الناس . وقام بحفر بئر بالقرب من مارستان الحضرة ، لقلة الماء في المارستان وبذلك انتفع به المرضى ومن يسكنون بجوار المستشفى .

ودفعه اهتمامه بالمرافق العامة الى بناء زاوية تسمى بزاوية الفندق وزودها بجميع ما تحتاجه من فرش وكساء ومواد غذائية لينزل بها الغرباء القادمين من ضواحي مدينتي القيروان وتونس ، وبنى على منوالها الكثير من الزوايا في اماكن مختلفة من القطر التونسي للغرض نفسه . وأمر ببناء باب الجبيلة الواقع ما بين بابي برج الاونقي بتونس ، وجلب له الماء من خارج الحضرة(٩٣) .

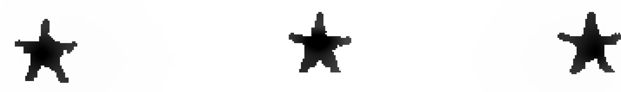
وقام السلطان ابو يحيى ابو بكر بحبس ربع املاكه على الجامعين الاعظمين بقسنطينة(٩٤) . اما نظارة الاحباس في مدينة تونس فكان لها ارتباط بجباتها فقد يعين صاحب الاحباس بالحاضرة على الجباية فيها مثلما حصل مع ابي عبد الله محمد ابن عصفور الذي نقل من نظارة الاحباس الى الجباية بتونس زمن السلطان ابي عمرو عثمان سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م لما عرف عنه من ضبط الاعمال وحسن الاشراف ، فقام بواجبه خير قيام في ادارة الاحباس ، ومنع من تسول له نفسه الاستيلاء عليهما او تعطيل مهامها او تغيير مكانها (٩٥) .

كما اشرف على المرافق العامة من طرقات وقنوات وبساتين اوقفت ليتامى البلد ومساكينها ، فيقوم بالمحافظة عليها وعلى ثمارها لينتفع من ثمارها ذوو الحاجة من الفقراء . وكان عمله في المحافظة على المعالم المحبسة منطلقا من الاية الكريمة :

« فمن بدله(٩٦) بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم »(٩٧) .

والواقع ان الاحباس ادت ادوارا متعددة فالى جانب ما تقوم به من اعالة المساكين كانت تقوم بمهام ثقافية وعلمية ، فقد عهد السلطان ابو عمرو عثمان الى الشيخ الفقيه محمد الزنديوي بالاشراف على المدرسة التي بناها بمدينة تونس سنة ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م ، وعهد اليه في الوقت نفسه بالاشراف على الزاوية المعروفة بدار صولة في نفس المدينة وحبس عليها ما يقوم بنفقاتها ، وقام باصلاح المدرسة الموجودة بسوق الفلقة (٩٨) احدى اسواق المدينة بتونس بعد ان كانت مهملة وعين مشرفا عليها الفقيه ابا عبد الله محمد عقاب ، وحبس عليها من العقارات والاراضي ما يقوم بسد نفقاتها(٩٩) .

ودفعه اهتمامه بالمراكز العلمية الى تجديد بناء مقصورة الشيخ محمد بن خلف الواقعة شرقي جامع الزيتونة ، وزود خزائنها بما تحتاج اليه من الكتب العلمية .



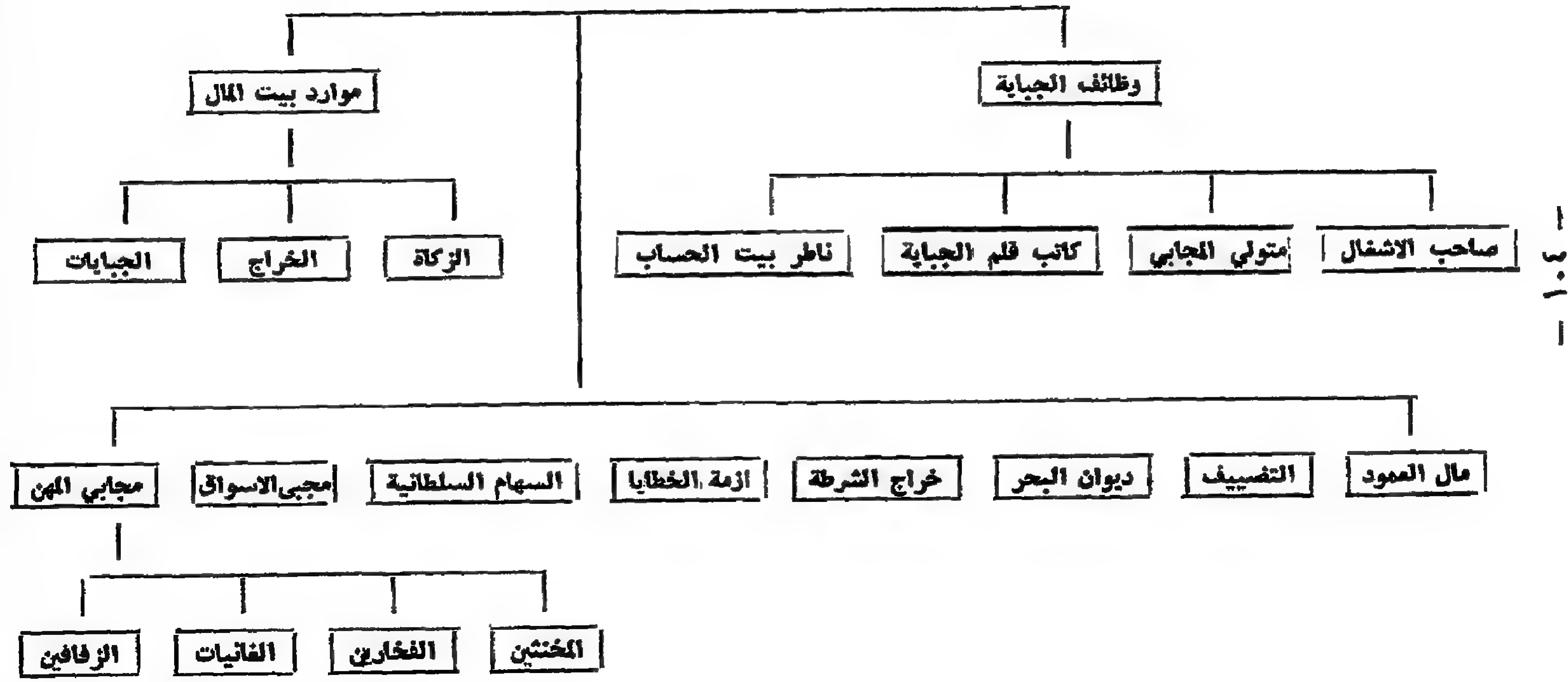
وبعد ، فقد انطبق على النظام الجبائي الحفصي من كثرة الضرائب والاستغلال مثلما انطبق على غيره من نظم الجباية للدول المعاصرة له او التي سبقته ، فنرى ان الدولة في بداية امرها حرصت على ان يكون نظام جبايتها يتفق والشريعة الاسلامية قصد

دعم اركانها ولكنها مالبثت ان آكثرت من الالقاب الكوسية ووظائف الجباية في فروع بيت المال قصد تغطية النفقات وكثرة العطاء من حكامها الى اهل عصبتهم وصنائعهم ، مما احوجها الى المال فلجأت الى فرض الضرائب علىمختلف المبيعات، وازدادت نسبة الضرائب ازديادا طرديا مع حاجتها الى المال، خاصة عندما بدا يدب فيها الهرم ، مما ادى الى حدوث اختلال في الاقتصاد واضطراب في الاحوال المعيشية للسكان(١٠٠) .

ودفعتها الحاجة الى المال الى مقاسمة بعض العمال والجباة اموالهم بتهمة الاختلاس وربما اختلس بعضهم بدافع الاغراء ، ولشعوره بعدم البقاء في وظيفته لكثرة المتنافسين عليها فتقوم الدولة في « امتكاك عظامه(١٠١) » حسب قول ابن خلدون(١٠٢).

وقد يشعر امير من الامراء لسبب من الاسباب بعدمالطمانينة على عرشه فيسلب اموال الخزينة وما تقع عليه يده من متاع مثلما حصل مع السلطان ابي يحيى زكريا اللحياني الذي نهب اموال الخزينة السلطانية وهرب بما اخذه من مال الى الاسكندرية وبقي يعيش في كنف السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى أن مات سنة(١٠٣) ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م ولكن على الرغم من هذا وذاك ، فقد اتسم النظام الجبائي عندهم بطابع خاص ، ميزه عن غيره من الانظمة الجبائية للدول المعاصرة ، ويرجع ذلك الى ما اتسمت به التجارة من ازدهار في ظل الامن والاستقرار اللذين تمتعت بهما البلاد، نظرا لعدم قيامها بحروب خارجية مثلما كان الحال في الدولة المرينية التي بذلت جهودا مشكورة في انقاذ الاندلس على منوال ما فعلته الدولة الموحدية من قبلها لتحقيقنفس الغرض .

كل هذا شد نظر الاندلسيين ، فرحلوا باعداد كبيرة اليها واستوطنوها ، فنشطت التجارة والزراعة بفضلهم ونعمت البلاد ــ الى حد ما ــ بنوع من الاستقرار الاقتصادي باستثناء الفترة المتاخرة من حكم الحفصيين وعلاقاتهم مع الاسبان ضد الاتراك وما نجم عنه من كره الشعب لهم خاصة الامير الحسن الحفصي وابنه محمد وذلك في الفترة الواقعة ما بين ٩٣٦-٩٨١ هـ / ١٥٢٩ ــ ١٥٧٤ م (١٠٤) .


لوحة عن النظام المالي عند الحفصيين
أنواع الجبايات
وظائف الجباية
موارد بيت المال
صاحب الاشغال
متولي المجابي
كاتب قلم الجباية
ناظر بيت الحساب
الزكاة
الخراج
الجبايات
مال العمود
التضييف
ديوان البحر
خراج الشرطة
ازمة الخطايا
السهام السلطانية
مجبى الاسواق
مجابي المهن
المختنين
الفخارين
الفانيات
الزفافين

الهوامش

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي ، المقدمة جـ ٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي ط(٣) دار النهضة ، الفجالة مصر (د.ت) ص ٦٧٨ .

(٢) نفس المصدر – ص ٦٧٦ .

(٣) نفس المصدر – والصفحة .

(٤) نفس المصدر – والصفحة .

(٥) تولى الخلافة بعد الخليفة يزيد بن عبد الملك من سنة ١٠٥ – ١٢٥ هـ / ٧٢٤ – ٧٤٣م، قام باصلاحات عدة الى جانب تعريب الديوان منها ، تعمير الاراضي ، وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة . راجع ، المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ص١٨٤ ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة جـ ٢ ، تحقيق – علي عبد الواحد وافي ص ٦٧٧.

(٧) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم ، الخراج ، القاهرة ط٣ سنة ١٣٨٢ هـ ص ٢٨–٤١.

(٨) الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد ، صفة بلاد المغرب وارض السودان ومصر والاندلس – ليدن سنة ١٨٦٤ م ص ١١٥ وما بعدها .

(٩) ابن عذارى ، ابو عبد الله محمد : البيان المغرب في اخبار المغرب جـ١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ص٢٧.

(١٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢ جـ ٣ ص ٣٢٠ .

(١١) لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب عيسى القاهرة – د – ت ص ١٧٤.

(١٢) ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م مج ٢ ص ١٢–١٣ .

(١٣) ابن الاثير – محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ جـ ٥ ص ٢٦ .

(١٤) الادريسي ، صفة المغرب ص ١١٦ – ١١٧ .

(١٥) القاضي النعمان ، الهمة في اداب اتباع الائمة ، القاهرة – د–ت–ص ٦٦ .

(١٦) اليماني – محمد بن محمد ، سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب – الجامعة المصرية، مج ٤ جـ ٢ سنة١٩٣٦ م ص ١٠٨ ، القرطبي – عريب بن سعيد ، صلة التاريخ الطبري ، ليدن سنة ١٨٩٧ ، ص ٥١ وما بعدها .

(١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ١ ص ١٨٨ .

(١٨) نفس المصدر ص ١٧٣ .

(١٩) نفسه ص ١٣٩ : يبدو من بعض النصوص ان جباية التقسيط والتضييع كانت مرهقة للفلاحين ، وأدت الى فقر الكثير منهم ، يخبرنا الخشني عند الحديث عن ابي جعفر أحمد بن احمد بن زياد

المتوفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠م ، انه كان من الموسرين لكن مغارم التضييع افقرته . راجع ،الخشني: محمد بن الحارث بن اسد ، طبقات علماء افريقية ، الجزائر ١٩١٤ ص ١٦٨ .

(٢٠) المريزي ، تقي الدين احمد ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م ،جـ ١ ص ٩٢.

(٢١) Robert, Dets, J.De Vise, Tegdaoust, I, Paris 1970.

ويبدو ان الفاطميين تعاونوا مع قبائل البجة المنتشرين في صحراء النوبة في وضع أيديهم على ذهب السودان ، وقد ازدهرت تجارة الذهب في المناطق الممتدة ما بين اسوان بمصر حتى وادي العلاقي الذي يعتبر من أهم مناجم الذهب في العصر الوسيط ، راجع ابراهيم – حركات ، دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية السنة ٣ عدد يناير ١٩٨١ ((مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ص ٣١)).

(٢٢) القريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٤ .

(٢٣) المقريزي ، شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ١٩٦٧ م ص ٢٦ وما بعدها .

(٢٤) السلاوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب – الدار البيضاء – المغرب ١٩٥٤ جـ ٢ ص ٦٠ .

(٢٥) القلقشندي ، ابو العباس احمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشا – القاهرة – دت جـ ١٠ ص ٣٥–٤٥ .

(٢٦) مما جاء فيها : ((.. ولقد ذكر لنا في امر المغارم المكوس والقبالات ، وتحجير المراسي وغيرها ما راينا انه اعظم الكبائر جرما وافكا ، وادناها الى من تولاها دمارا وهلاكا ..)) راجع ، ابن عذارى، البيان المغرب ، القسم الاول ص ٢١ ، ((رسائل موحدية – الرسالة السابقة)) .

(٢٧) نفسه ص ٤٠٠ .

(٢٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الاول ، تحقيق –جـ كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة – بيروت ١٩٦٧ م ٣٣٧ .

(٢٩) نفسه ، ص ٣١٥–٣١٦ ، المراكشي – عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١ م ص ١٨٣ .

(٣٠) تسمى عملية المسح بمصر المملوكية بـ ((الروك)) راجع ، حسن – علي ابراهيم ، دراسات في تاريخ المماليك في عصر الناصر محمد ط٣ مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٤٨ م ص ٣٢٦ ، ابن صاحب الصلاة – عبد الملك ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق – عبد الهادي التازى ، دار الاندلس – بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ ص٣٢١ .

(٣١) البيان المغرب – القسم الثالث ، تحقيق ، جـس كولان ، ليفي بروفنسال دار الثقافة – بيروت ١٩٨٠ م ص ٢٠١ – ٢٣٦.

(٣٢) نفسه ص ٢٢٧ – ٢٨٣ .

(٣٣) نفسه ص ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ .

(٣٤) نفســـه ص ١٣١ ، ١٧٢ .

(٣٥) نفسه ص ٣١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ٢٣٧ .

(٣٦) البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٣ .

(٣٧) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، السفر الثاني ، ص ٦١ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ .المنوني ـ محمد ،العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين تطوان ١٩٥٠ ص ٢٥٧ .

(٣٨) عنان ـ عبد الله ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، جزءان ، لجنة التاليف والنشر القاهرة ط ١ ، ١٩٦٤ م ص ٢٦ ٦ـ ٦٢٧ .

(٣٩) ابن خلدون ـ عبد الرحمن محمد ، تاريخ ابن خلدون مج ٧ دار العلم بيروت دـت ص ١٨٢ .

(٤٠) حدث تغيير في تسميته زمن السلطان ابي فارس عبد العزيز او عزوز سنة ٧٩٦ ـ ٨٣٧ هـ/ ١٣٩٤ـ ١٤٣٢م ، وصار يسمى بالمنفذ اي صاحب الجباية والتنفيذ في الدولة راجع :

Brunschrig, Robert, **La Berberie orientale sous les Hafsides** , 2 tomes, Paris 1940 - 1947 , P. 58.

(٤١) عين بعض السلاطين اولادهم على خطط الجباية في الدولة . راجع : الباجي ابو عبد الله محمد المسعودي ، الخلاصة النقية في امراء افريقية ص ٧٠ .

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيرت ـدـت ص ٢٥٤ .

(٤٣) سميت بمال العمود لانها تعني الخيمة ، فكانت تؤخذ من اصحاب الخيام من هذه الضريبة.راجع، ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، دار الطباعة السلطانية ، الجزائـر ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م ج ١ ص ٣٩٥ ، الزركشي ، (ابو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ ص ٢٩.

(٤٤) مكان تسجيل المكوس والاعشار واداتها ، ثم خصصت كلمة « الديوانة » للمراكز المقامة على الحدود بين قطر واخر لمراقبة السلع المجلوبة والمسوقة ـ المستوردة والمصدرة ـ واستخلاص الضرائب المفروضة عليها فهي تعادل كلمة جمرك . والملاحظ ان هذه التسمية مازالت متداولة على الســـن العامة في الجزائر فيسمون دائرة الجمارك بالديوانة (مشاهدات الباحث) .

(٤٥) كانت هذه الخطة نقطة انطلاق لتوليها لرئاسة الخراج .

(٤٦) كان من شيوخ البساط عند الموحدين ، ومن كبار مشاريخ السلطان المستنصر بالله . راجع ،ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسطنطيني ، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلـــــي النيفر وعبد المجيـــد تركي ، الدار التونسية للنشــــر ١٩٦٨ ، ص ١١٥ ، ١١٨ .

(٤٧) هو ابو عبد الله محمد بن الحسين ابن ابي الحسين العنسي ، من بني سعيد اهل القلعة بجوار غرناطة ، كان قهرمان ـ مسؤولا عن اهل بيت ـ السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عبد الواحد ومن اهل خاصته ، راجع ابن قنفــــذ ص ١٦٦ .

(٤٨) اللياني نسبة الى قرية اللياتة الواقعة على الساحل من اعمال المهدية ، اهتم بقراءة الادب والفقه حتى برع فيهما ، وضع تقييدا على المدونة لابن سحنون ، تولى بعض الخطط السلطانية وخاصة ديوان البحر . راجع ، الزركشي . تاريخ الدولتين ص١٨ .

(٤٩) المقصود بها الثغور البحرية حيث تقام عليها مكاتب المكوس ـ الجمارك .

(٥٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ص ٢٤٥ .

(٥١) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٣٧ ، ابن قنفذ ص ٢٤٧ .

(٥٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٥ ، الزركشي ص ٤٧.

(٥٣) ابن قنفـذ ، الفارسيةص ١٩٤ .

(٥٤) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١٤٧ .

(٥٥) علي ـ ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ط ٣ القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ٣٤٣ .

(٥٦) ما زالت هذه الكلمة مستعملة بين العامة من الجزائريين ، يطلقونها على من يقوم بقطع التذاكر لركاب الحافلة ويسمى بالجابي (مشاهدات الباحث) .

(٥٧) ابن قنفذ ، الفارسية ص ١١٥ .

(٥٨) الزركشي ص ٤٢ ، واللاحظ ان كلمة الخطية وجمعها خطايا ما زالت مستخدمة في المغرب العربي وتعني المخالفة عندنا (مشاهدات الباحث) .

(٥٩) الزركشي ص ٤٢ ، ابن قنفذ ، الفارسية ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٦٠) من الملاحظ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي دينارا ، راجع ، العمري ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب ، ص ٣-٢٤ ، تحقيق عبد الوهاب حسن حسني .

(٦١) الزركشي ، ص ١٥٢ .

(٦٢) الزركشـي ، ص ٣٧ .

(٦٣) الزركشـــ ي، ص ١٩ .

(٦٤) ربما المقصود بها الحافظـة .

(٦٥) الزركشـــي ، ص ١٩ .

(٦٦) نال ابو عثمان مكانة مرموقة في الدولة الحفصية ، وكان مغرورا بنفسه ، وكانت نهايته على يد صنيعة ابي عثمان ، ابو زيد عبد الرحمن بن ابي الاعلام ، ومات تحت ضرب السياط سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م ، راجع ، ابن قنفذ الفارسية ص٣٥ .

(٦٧) ابن قنفـذ الفارسية ص ١٣٤ .

(٦٨) الزركشي ، ١٠٦ .

(٦٩) الزركشـي ص ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥٤ .

(٧٠) نفســـه ص ١٥٤.

(٧١) روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صالح اهل الذمة على ضيافة المسلمين مدة ثلاثة أيام لا يزيدون عليها ، كما صالحعمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيـام يطعمونهم مما ياكلون ، وضريبة التضييف وجدت في دول الاسلام على غير أهل الذمة ، ففي ايام المماليك البحرية زمن الامير الناصر محمد بن قلاوون الملوكي سميت بـ (حق الضيافة) حيـث

يؤخذ من كل فلاح حصة من المنتوجات الفلاحية وتقدم الى كل امير مملوكي ، راجع ، ابن الفراء، ابو يعلي محمد بن الحسين الحنبلي ، الاحكام السلطانية دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م ص ١٥٦ ، علي ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ص ٣٦ .

(٧٢) راجع، الزركشي ، ص ١٨ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ، ص١٠٥ ، ٩٢ .

(٧٣) الزركشي ، ص ٣٦ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ص ١٧٤ ، ٩٢ .

(٧٤) لم تستعمل كلمة جمرك في تونس او المغرب الا في عهد الحماية الاجنبية . راجع ابن شنهو ـ عبد الحميد ، النظام لادري بالمغرب ص ٤٣ .

(٧٥) راجع ، دائرة المعارف باللغة الفرنسية ، مادة Divan

(٧٦) كان لهذه الزاوية مكانة في نفوس الحكام والخاصة والعامة من الناس بحيث لا يجرؤ احدا على اقتحامها لاخراج الملتجأ منها .

(٧٧) الاصل (الدهانة) وهو تحريف ، صوابه ما اثبتناه هنا بالمتن نقلا عن المؤنس والدهادنة هم باعة الامتعة والملابس المتجولون ويفسره ما بعده ، وهو اصطلاح قديم مسمى به في اكثر المدن التي بها الاسواق . راجع ، الزركشي ص ١١٦ .

(٧٨) هم باعة لاشياء القديمة او ما يعبر عنه بالخردة .

(٧٩) هو سوق النحاس .

(٨٠) نحن امام امرين ، اما أن اسقاط الضرائب عن الفخارين كان بدافع تشجيع صناعة الفخار ولاسيما ان هذه المادة استخدمت في حفظ العقاقير الطبية وقد بينت الحفريات الاثرية الايطالية التي كشفت عن آوان فخارية من صنع عربي بصقلية قد استخدمت لهذا الغرض ، واما كما نرجح ـ حدوث تصحيف في اللفظ لعل المقصود به الخمارين ، لانه داخل في نطاق المنكر وقطع دابره بسبب ما أدى من انتشار الفساد والفتن الناتج عن تجمعات الخمارين في اماكن معينة ، مما دفع السلطان ابا فارس الى الغائه . راجع ، الزركشي ص ١١٧ .

(٨١) في الاصل الزفافين كما اثبتناه في المتن واصله الزفن وهو الرقص وفي حديث لعب الاحباش في العيد ـ عند صحيح مسلم : انهم كانوا يزفنون أي يرقصون وينقرون ـ وبقيت هذه العادة مستعملة الى عهد قريب ولا سيما بالساحل ، فيسمون فرقة الغناء فيها من اصحاب الطبل والمزمار ومن معها من الراقصات وخاصة الزنوج انذاك فرقة « زفانة » . ووردت كلمة (الزفن) في كتاب مجمع بحار الانوار ، كانت تزفن للحسن أي ترقصه واصله اللعب والدفع ومنه جاء حبش (يزفنون) بفتح ياء وسكون زاي وكسر فاء أي يرقصون بلعب السلاح . والملاحظ ان هذه الكلمة (الزفن) ما زالت مستعملة في بعض النواحي بتونس والجزائر ، ويقولون لمن اراد لهو الحياة يقولون بما معناه (صاحب زفانة ولهو) مشاهدات الباحث . راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١١٧، الكجراتي ـ محمد الطاهر الصديقي الهندي الفتني ، مجمع بحار الانوار وغرائب التنزيل ولطائف الاخبار جـ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ بحيدر اباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٩٠هـ/ ١٩٨٠ م ص ٤٢٨ .

(٨٢) لعل المقصود بهن المغنيات ، وهذه الظاهرة كانت ناتجة عن رحيل الاندلسيين باعداد ملحوظة الى تونس اكثر من غيرها من الاقطار المغربية ، وقد استنكر بعض العلماء هذه الظاهرة امثال الفقيه عبد

الله الحيدري المعروف بابن الحاج المتوفي سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م صاحب كتاب المدخل . راجع، رضا كحالة جـ ١١ ص ٢٨٤ ، غراب ـ سعد ، الفتاوى وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ـ كلية الاداب والعلوم الانسانية عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ ص ٩٥.

(٨٣) كانت معرفة النقد الصحيح الوزن من الناقص تتم بواسطة الصنوج المصنوعة من الزجاج مكتوب على احد وجهيها كتابة بارزة تدل على ان مثقالها هو وزن الدرهم او الدينار الرسمي الشرعي ،وتطبع بدار السكة وتوزع على الصيارفة حتى يختبروا الدراهم او الدنانير المراد صرفها وهناك صنوج اعدت للمجوهرات ، وأخرى للعطور وغيرها من المواد الاخرى . راجع الزركشي ،تاريخ الدولتين، ص ١١٦ ـ ١١٧ ، المسالك ـ وصف افريقية والمغرب ، تحقيق عبد الوهاب ـ حسن حسني ،ص ٣ ـ ٤ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٨٤) هذا ما نبه اليه ابن عبدون بقوله : « يجب ان ينهى الصيرفيون عن الربى وان لا يجري في البلد الا سكة دون غيرها ، لان اختلاف السكك مدعاة لفساد النقد » ،راجع ، ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ص ٢٤٩ .

(٨٥) راجع ، عبد الوهاب ـ حسن حسني ، ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية ،القسم الاول ص ٤٥٥ ـ ٤٦٦ .

(٨٦) سمي السلطان المستنصر بالله ، بالخليفة بعد وصول البيعة اليه من شريف مكة ابن نمي بتأثير من ابن سبعين الصوفي المرسي عند سقوط بغداد في ايدي التتار . ومما جاء هذه البيعة «..وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمته : .. اذ خرجت نار الحجاز بقتل خليفة بغداد ، ويستقيم ملك المغرب ، وتبسط كلمته في الاقطار ، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس .. الى ان يقول: .. بعد بعض البعض سنته محمدية ، وسيرته بكرية ، وسريرته علوية ،وسلالته عمرية .. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف » ، راجع ، ابن خلدون ، كتاب تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، جـ ١ ص ٤١٧ـ٤٢٨ .

(٨٧) راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٣ ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب والاندلس اواسط القرن الثامن للهجرة ، ص ٣ .

(٨٨) الزركشي ، ص ٣٨ ، المسالك ص ٤٥٥ ـ ٤٦٦ .

(٨٩) لقد عمل سلاطين بني حفص وسلاطين بني مرين على تعديل الصيعان المغربية حسب المد القروي بفاس الذي عدل مد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام السلطان ابو الحسن المريني بتعديل مدين مصنوعين من النحاس الاصفر على مد الامير يوسف بن يعقوب الذي اعتمد بدوره على المد القروي وذلك سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م ، والمدان كانا موجودان بالمكتبة الكتانية بفاس ثم نقلا الى المتحف .

(٩٠) هو كيل قرره سلاطين بني حفص، فسمي باسمهم .

(٩١) ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبد الله ، رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣م . الفصل الثاني ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ،الجرسيفي ، عمر بن عثمان بن العباس ، رسالة الجرسيفي في الحسبة ص١٢٧.

(٩٢) الميضات ، اسم مكان الوضوء ، وهو في عرف اهل المغرب باسم جامع لمكان التغوط ، ويسمى ايضا مطهرة أي مكان للطهارة ، واذا كان خاصا بالتغوط سمي (بيت الماء) راجع ، السبتي،

محمد بن القاسم الانصاري ، اختصار الاخبار عما كان بسبته من سنى الاثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ـ الرباط ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ص ٤٤ .

(٩٣) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن قنفذ ، الفارسية ص ١١٢ ، العمري ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب ص ٢٤ .

(٩٤) ابن قنفـذ ، الفارسيـة ص ١٦٣ .

(٩٥) الزركشـي ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٩٦) تنطبق هذه الاية الكريمة على كل حكم كان معمولا به ثم عمد الى تغييره .

(٩٧) ايـة ١٨١ من سـورة البقرة .

(٩٨) اصبحت هذه المدرسة دارا للسكنى وقد درست معالمها مثلما درس معالم غيرها من الاثار الاسلامية الهامة . اما سوق الفلقة فقد ورد ذكره في وثيقة تجارية ذات صيغة اجتماعية تحمل رقم ١١٢ تتضمن اشهاد محمد بن عبد النبي الغدامسي من جماعة سوق الفلقة بتونس بقبض مائة ريال مـن محمد بن محمد بن حمود ليشتري بها صوفا من بلدة سوف بالجزائر بقصد التجارة بينهما . والوثيقة مؤرخة في اواسط ١٣ شوال سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م . راجع عن المدرسة . المراكشي ، تاريخ الدولتين ص ١٣٦ ، وعن سوق الفلقة ، يوشع ـ بشير قاسم ، غدامس وثائق تجارية ـ تاريخية اجتماعية ، منشورات مركـز دراسـة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنة ١٩٨٢م ليبيا ، ص ٢٣١ .

(٩٩) الزركشي ، تاريخ الدولتين ١٣٦.

(١٠٠) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي د.ت ، ص ٢٨٢ .

(١٠١) امتك الفصيل ضرع امه اذا مصه مصا شديدا . راجع ، ياقوت الحموي ـ شهاب الديـن ابو عبد الله ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ مج ٥ مادة مكة ص ١٨١ .

(١٠٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي ص ٢٨٣ .

(١٠٣) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ،دار الجيل ، بيروت د.ت. جـ ٢ ص ١١٤.

(١٠٤) ابن أبي ضياف ـ احمد ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ط ٢ ، الـدار التونسية للنشر د.ت جـ٢ ص ١٢ ، ١٦ وما بعدها .

ثبت باسماء المصادر والمراجع

الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد .

* صفة بلاد المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ١٨٦٤ .

ابن الاثير ، محمد بن محمدبن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني .

* الكامل في التاريخ ــ القاهرة سنة ١٣٥٧هـ ج ٥ .

الجرسيفي ، عمر بن عثمان بن العباس .

* رسالة الجرسيفي في الحسبة .

حسن ، علي ابراهيم .

* دراسات في تاريخ المماليك في عصر الناصر محمد ط (٣) مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨م .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي .

* الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت د.ت ، ج٢ .

حسن ــ ابراهيم حسن .

* تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢م .

حركات ابراهيم .

* الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية السنة ٣ عدد ١ يناير ١٩٨١ م ــ مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ــ ليبيا .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي .

* المقدمة ، ج ٢ ــ تحقيق ــ علي عبد الواحد وافي ط (٣) دار النهضة ــ الفجالة مصر د.ت .
* المقدمة ، مؤسسةالاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، د.ت. ط ــ بولاق ــ القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .
* تاريخ ابن خلدون مجلد ٧ دار العلم ــ بيروت د.ت .

الخشني ، محمد بن الحارث بن اسد .

* طبقات علماء افريقية الجزائر ١٩١٤ م
* دائرة المعارف باللغة الفرنسية مادة (Divan) .

الزركشي ، ابو عبداللهمحمد بنابراهيم.

* تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق ــ محمد ــ ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦م .

السلاوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري.

* الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب ــ الدار البيضاء ــ المغرب سنة ١٩٥٤م.

السبتي ، محمد بن القاسم الانصاري .

* اختصار الاخبار عما كان بسبته من سني الاثار ، تحقيق ــ عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٩هـ/١٨٦٩ م .

ابن شنهو ـ عبد الحميد
* النظام الاداري بالمغرب ط٣ ـ الرباط ١٩٦٣ م .

ابن صاحب الصلاة .
* تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق ـ عبد الهادي التازي ، دار الاندلس ـ بيروت ط (١) سنة ١٩٦٤ م .

ابن ابي ضياف ـ أحمد
* اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ط (٢) الدار التونسية للنشر د-ت ج٢.

ابن عذاري ، ابو عبد الله محمد .
* البيان المغرب في اخبار المغرب ج١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ م ، والقسم الاول ، تحقيق ـ ج- كولان، ليفي بروفنسال ، دارالثقافة ـ بيروت سنة ١٩٦٧ م ، والقسم الثالث سنة ١٩٨٠ م.

العمري ، شهاب الدين بن فضل الله .
* المسالك ، وصف افريقية والمغرب ، تحقيق ـ حسن حسني عبد الوهاب تونس د-ت.

ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبدالله .
* رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣م .

عبد الوهاب ـ حسن حسني .
* ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الاول ـ تونس ١٩٦٨م

ابن عبدون
* رسالة في القضاء والحسبة المجلة الاسيوية حزيران ١٩٣٤م .

عنان ـ عبد الله .
* عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس جزءان ، لجنة التاليف والنشر ، القاهرة ط(١) سنة ١٩٦٤ م.

علي ـ ابراهيم حسن .
* دراسات في تاريخ المماليك ط ـ ٢ القاهرة ١٩٤٨ م .

غراب ـ سعيد
* الفتاوي وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ـ كلية الاداب والعلوم الانسانية عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ م .

ابن الفراء . ابو يعلي محمد بن الحسين الحنبلي .
* الاحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني.
* الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق ـ محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد تركي ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ م .

القلقشندي ، ابو العباس احمد .

* صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ـ د ـ ت ، جـ ١٠ .

القاضي النعمان

* الهمة في اداب اتباع الائمة ، القاهرة ، د.ت .

القرطبي ـ عريب بن سعيد .

* صلة التاريخ الطبري ، ليدن سنة ١٨٩٧ م .

الكجراتي ـ محمد الطاهر صديقي الهندي الفتني .

* مجمع بحار الانوار وغرائب التنزيل ولطائف الاخبار ، جـ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعـارف العثمانية ـ بحيدر ابار ـ الدكن ـ الهنـدسنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

لويس (ارشيبالد) .

* القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب ـ عيسى ، القاهرة د ـ ت .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن .

* مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

المقريزي ـ تقي الدين احمد

* اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م

* شذور العقود في ذكر النقود ، النجف سنة ١٩٦٧ م.

المراكشي ـ عبد الواحد

* المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١م .

المنوني ـ محمد

* العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان (١٩٥٠م) .

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم .

* الخراج ، القاهرة ط (٣) سنة ١٣٨٢ هـ .

اليماني ـ محمد بن محمد

* سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب ـ الجامعة المصرية ، مجلد ٤ جـ٢ سنة ١٩٣٦م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) .

* معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م مجلد ٢ ، مجلد (٥) مادة مكة ص١٨١، بيروت ١٩٥٥ م .

يوشع ـ بشير قاسم .

* غدامس وثائق تاريخية اجتماعية ، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنـة ١٩٨٢ م ليبيـا .

استعمالُ العربيّةِ في الدّواوينِ الماليّة
قبلَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ وبعدَهُ

د. فالح حسين

الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة لتوضيح فكرة أن استعمال العربية في الدواوين المالية أمر يختلف عن تعريب هذه الدواوين ، لذا لن يكون الحديث عن الدواوين بقـدر ما يكون من استعمال اللغة العربية فيها ، اذ ان أستعمال العربية شيء وتعريب الدواوين شيء اخر . فالامر الثاني يفترض انه الوقت الذي اصبحت فيه اللغة العربية هي الوحيـدة في الديوان ولا لغة سواها . هذا التعريب الذي تتحدث عنه المصادر انه حدث في وقت محدد في كل من الشام والعراق ومصر وخراسان ، يختلف عن استخدام العربية كلغة ادارة في الدولة ضمن لغات اخرى ، لم يكن بمقدور الادارة العربية الاسلامية الاستغناء عنها في بادىء الامر .

ففي حين تذكر المصادر الاولية التي تطرقت لهذا الموضوع(١) أن التعريب بـدا في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥) في الشام والعراق واستمر في عهد ابنه الوليد (شوال ٨٦ ـ جمادى الاخرة ٩٦/ايلول ٧٠٥ـ شباط ٧١٥) في مصر ، الى ان امتد في أواخر الدولة الاموية في سنة ١٢٤/٤١ ٧ـ ٧٤٢ الى خراسان أيام ولاية نصر بن سيار في خلافة هشام بن عبد الملك (أواخر شعبان ١٠٥ ـ أوائل ربيع الاخرة ١٢٥/ أواخر كانون ثاني ٧٢٤ ـ اوائل شباط ٧٤٣) . ومـع اخذ ذلك كله بعين الاعتبار ، فان استعمال العربية كان قبل ذلك بوقت طويـل ، ولكنهـا استعملت الى جانب لغات اخـرى ، كما استمر استعمال العربية الى جانب هـذه اللغات بعـد الفترة التي حددت لتعريب الدواوين ، ونرى ذلك واضحا بدرجات متفاوتة .

وما هو واضح ان العربية ازداد استعمالها طرديا مع الزمن بينما كان استعمال اللغات الاخرى عكسيا مع تقدم الزمن . وبالامكان القول ان الربع الاخير من القرن الاول الهجري هو البداية الحقيقية لتراجع اللغات الاجنبية في الدواوين المالية أمام العربية، والعكس صحيح بالنسبة لها . فأول وثيقة عثر عليها حتى الان مدونة باللغة العربيـة وحدها تعود الى ما قبل التاريخ الذي يذكر انه زمن التعريب ، فهي تعود الى سـنة ٦٥ هـ ، وتتحدث عن اجراء تحقيق في قضية احد أطرافها امرأة . وما وصلنا من هذه الوثيقة يمثل الجزء الاخير منها والذي يحمل لحسن الحظ تاريخ كتابتها ، وقد اكلت الارضة بعض كلماتها نثبت فيما يلي بعض الاسطر المتبقية منها نظرا لاهميتها هنا :

[فاذا جا]ك كتبي هذا فان [اقامت]
[البينة و]استخراج لها ح[قها ولا]
في حقها او ا[كتب]
[الى به] والسلام [على من اتبع]
[الهدى و] كتب ابان بن [في]
[سـ]نة خمس [و] ستين (٢).

وتتزايد الوثائق المكتوبة باللغة العربية في مصر بالذات ابتداء من سنة ٩٠هـ اثناء ولاية قرة بن شريك في خلافة الوليد ، هذا في حين ان استعمال العربية في مصر كلغـة وثائق مالية رسمية الى جانب اليونانية ــ لغة الادارة قبل الفتح ــ يعود الى فتـرة بعيد الفتح مباشرة . واول الوثائق العربية التي عثر عليها حتى الان تعود الى جمادي الاولى ٢٢ هـ / نيسان ٦٤٣ ، وهي ثنائية اللغة كتبت بالعربية واليونانيــة ، اذ كتب النص نفسه بالعربية اولا ثم باليونانية بعد الاسطر العربية مباشرة ، وتمثـل ايصال قبض مواد عينية من بعض المدن المصرية، نرى ان اثباتها هنا ذو اهمية خاصة باعتبارها اول الوثائق العربية التي عثر عليها في مصر ، او هي اول وثيقة عربية اسلامية معروفة لدينا حتى الان ، وتحمل تاريخ تدوينها بوضوح والنص كمايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اخذ عبد ال[ا]ه

ابن جبر واصحبه من أهنس اخذنا
من خليفة تذرق ابن ابو قير الاصغر ومن خليفة اصطفن ابن ابو قير الاكبر
خمسين شاة من الجزر وخمس عشرة شاة اخرى اجزرها اصحب سفنه وكتئبه
وثقلاه في شهر جمادي الاولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن حديد و (٣) .

وعن استعمال العربية في دواوين الشام المالية لدينا دليل وثائقي على استعمالها منذ عهد معاوية حسب ما اوضحته برديات Nessan التي عثر عليها في جنوب فلسطين ، وهي وثائق بردية ضرائبية كتبت باللغتين العربية واليونانية أيضا ، ونثبت النص العربي لاحداها كدليل مادي لبرهنة ما ذهبنا اليه من استعمال العربية قبل قرار تعريب الدواوين الرسمي:

[بسـ]ـم الله الرحمن الرحيم
[من] الحرث بن عبد الله الى اهل نصتان
[من كـ]ـورة غزة من اقليم الخلوص
] فاعطـ[ـوا عسر عدى بن خالد من بني
[سعد بن مـ]ـلك رزق ذ[ي] العقد[ه] و
[المحرم وصفر] و [شهـ]ـري ربيع
[سبعين مـ]ـدى [قـ]ـمح ومثله زيتا و
[كتب] ابو سعيد في ذي العقدة
من سنة أربع وخمسين (٤).

وهذه الوثيقة ليست الفريدة من نوعها كحال سابقتها من مصر بل هناك وثائق تعود لسنة ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠هـ ، وكلها كتبت بالعربية واليونانية حول الموضوع نفسه ، مما يجعلنا نؤكد باطمئنان استعمال العربية في الشام كما هو الحال في مصر قبل فترة التعريب التي نسبت لعبد الملك(٥) .

بمثل هذا الوضوح لا نستطيع اثبات استعمال العربية في العراق لا فتقارنا الى الوثائق الرسمية ، الا أن البلاذري يقول في معرض حديثه عن صالح بن عبد الرحمن في رواية عن المدائني ما نصه « فلما ولي الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن بيري وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم يخط بين يديه بالعربية والفارسية»(٦) . فاللغتان استعملتا جنبا الى جنب كحال العربية واليونانية في الشام ومصر .

وقبل الاستطراد في الحديث عن استعمال العربية او سواها من اللغات الاجنبية في الدواوين المالية لابد من القاء نظرة على الاوضاع التي سادت البلاد المفتوحة لحظة الفتح ، فيما يتعلق بادارتها واللغات المستعملة فيها ، وظروف الفتح ، وكيف تعامل العرب المسلمون مع الاوضاع الجديدة بعد الفتح.

من المعروف ان الجيش العربي الاسلامي عند خروجه من الجزيرة العربية دخل

بلادا غير متساوية في بعدها عن العرب جغرافيا او ثقافيا ، فاطراف الشام والعراق المحاذية للجزيرة هي بلاد عربية السكان ، وبالتالي فان اللغة العربيــة هي اللغة التــي يتعامل بها القوم علىالمستوىالشعبي على الاقل ، فالعربية اذن ليست غريبةعنالمنطقة وأهلها ، في حين ان النظم التي سبقت العرب المسلمين في كل من الشام والعراق ومصر هي نظم غريبة عن السكان العرب المقيمين بدرجات متفاوتة من الكثافة السكانية فيها. فالنظام الفارسي السائد في العراق على علاقة متوترة مع قبائل العرب في الحيرة ومـا حولها بعد القضاء على حكم المناذرة ، والنظام البيزنطي هو السائد في الشام ومصـر وبعض الجزيرة ، وعلاقته مع السكان ليست ودية على كل حال . وعليه فان ثقافـة النظامين، التي اصطبغت بالصبغة الفارسيةوالبيزنطية ، كانت غريبة عن الاهالي .

ولما جاء العرب يحملون عقيدتهم لشعوب هذه المناطـق وجدوا امامهـم اصول النظامين السابقين تسير امور البلاد على ضوئها ، ولم يكن باستطاعة العرب ان يغيروا الاوضاع القائمة بين ليلة وضحاها(٧) . ومع شعورنا بضرورة الاشارة الى اننا لا نتفق مع من يصفون العرب في هذه الاونة بانهم مجموعات بدوية بعيدة عن الحضارة وليس لها من التراث ما يؤهلها أصلا لحكم الدول المنظمة ، كما كان الحال بالنسبة للـروم والفرس (*) ، ولكن الظروف الجديدة فرضتعلى العرب الاستعانة بماوجدوهأمامهم خاصة فيما يتعلق بالادارة والتنظيم ، فكان لابــد من استخدام اللغــات التي كانت مستعملة وهي الفارسية واليونانية ، وكذلك استخدام الموظفين المؤهلين من أهالـي البلاد المفتوحة لادارة دفة الامصار ، والادارة المالية بالتحديد . لان خلق جهاز اداري جديد يحتاج الى وقت طويل ، اذ ان الحصول على الكادر المؤهل ليس بهذه البساطة تماما ، كالاستغناء عن المؤهلين الذين لم يكن باستطاعة الدولة العربية الجديدة أنتقوم به فور نجاح الفتح . ولم تكن قلة خبرة العرب هي الاساس في الموضوع ، اذ احتاج العربأناسا قادرينعلى مخاطبةالاهالي بلغتهم فكان لابد من استخدام من يحسنذلك، لافتقارهم لمن كان باستطاعتهم التعامل مع الاهالي باللغة التي يعرفونها . ومن هنا بدا استعمال العربية الى جانب اللغات الاخرى منطقيا ، اذ لابد للدولة أيضا من معرفـة ما يجري . لذلك كله نرى استخدام اللغتين جنبا الى جنب ، العربية مع اللغة الاجنبية المستعملة في المصر ، فكانت الاستعانة بموظفي الادارة القديمة الذين استمر الاعتماد عليهم وعلى خبرتهم فيادارة شؤون الدواوين المالية على وجه الخصوص ،وهذا ماتقره المصادر العربية في الشام والعراق(٨) . وينقل ترتون عن مؤلف سرياني مجهول قوله انه حتى اواخر القرن الاول الهجري « كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية

(*) انظر الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤ ص ٢٤ وما بعدها .

وحكم الاقاليم نيابة عن العرب »(٩) . بالاضافة الى المصادر المسيحية القبطية والسريانية واوراق البردي التي تعد اكبر شاهد على مدى استعانة العرب بأهل الذمة في ادارة الدواوين المالية سواء بمصر أو في الشام والعراق وغيرها من الامصار . ومن هنا فان دعوى عدم استعانة العرب بغير المسلمين منذ عهد الفتوحات تبقى غير معبرة عن الواقع ولا سبيل للاخذ بها(١٠) .

وربما كانت هذه الدعوى فيما بعد وفي حالات خاصة لظروف شاذة واستثنائية، وقد تعبر عن مدى معارضة المسلمين لكثرة تولي اهل الذمة الوظائف ، فنبدأ بسماع اجراءات خاصة ضد اهل الذمة(١١) ، حتى ان عمر بن عبد العزيز الذي ينسب اليه عدم الاستعانة بأهل الذمة نجده يبرر الاستعانة بهم ابتداء بقوله لعماله : « أن المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم بذلك مدة فقد قضاها الله بأمير المؤمنين فلا أرى كاتبا ولا عاملا في شيء من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستبدلت مكانه رجلا مسلما »(١٢) . واستعانة العرب بأهل الذمة والافادة من خبرتهم بالاضافة الى تركهم يديرون شؤونهم الخاصة وفق شرائعهم مرده الثقة بالنفس وروح التسامح التي تحلى بها العرب(١٣) . ويبدو ان الظروف التي دعت الى فرض اجراءات معينة على أهل الذمة ، كمسألة اللباس مثلا ، كانت وقتية واستثنائية دائما، فما ينسب لعمر بن عبد العزيز(١٤) دائما يعني انهم كانوا يشغلون الوظائف لذا حصل التذمر . ونسبت بعض الاجراءات لعمر بن الخطاب من قبله(١٥) . لكن هل توقف استخدامهم بعدذلك؟ الجواب قطعا بالنفي، فلو كان ذلك صحيحا لما سمعنا باجراءات المتوكل ، في القرن الثالث سنة ٢٣٥ هـ ، التي اصدرها لوضع القيود على أهل الذمة ، كما نسب اليه منعهم من الوظائف(١٦) .

لكن النص الذي اورده الطبري يقول « ونهى ان يستعان بهم في الدواوين واعمال السلطان التي يجري احكامهم فيها على المسلمين »(١٧) . والملفت للنظر ان الممعن في الكتاب الذي بعثه المتوكل لعماله في شوال سنة ٢٣٥ هـ لا يتضمن مثل هذا النهي بل العكس ، ويفهم منه ان كتاب أهل الذمة شملوا بتدابير اللباس مع سواهم «مَن لبسها من تجارهم وكتابهم »(١٨) ، فذكر الكتاب من أهل الذمة ضمن من عليهم تنفيذ أمر اللباس . اضافة الى ان كتب التاريخ والوثائق مليئة بما يدل على استمرار استخدامهم في شتى فترات التاريخ الاسلامي .

وعلى هذا الاساس نقول بان العرب ابقوا الموظفين الكبار ، زيادة على الموظفين المنفذين في الاقاليم ، في مناصبهم . لكنهم ومن البداية ابقوا إمرتهم تحت سلطة رئيس

عربي اعلى هو الوالي او صاحب الخراج ، الذي كان في بداية الامر عربيا دائما ، فبقيت جيوش الكتاب والموظفين في شتى مجالات الادارة المالية لكنهم خضعوا لادارة الوالي المباشرة(١٩) . الا ان هذا لا يعني ان ادارة البلاد اقتصرت على موظفين من القبط او اليونانيين أو الفرس ، ففي أواخر القرن الاول كان المسؤولون الرئيسيون في ادارة مصر عربا وليس قبطا أو يونانيين(٢٠) . ومع أن الملاحظات السابقة تتحدث عن مصر لان وضعها أصدق ما يمثل الواقع نظرا لتوافر الوثائق الرسمية التي تجعل التقرير امرا مؤكدا وافتقار بقية أنحاء الدولة الاسلامية لها ، الا ان الامر نفسه يصدق على بقية المناطق .

ومع ان الادارة العربية في البلاد المفتوحة استلزمت الاستعانة بالموظفين القدامى ونتج عنها بقاء اللغات التي تعامل بها هؤلاء الموظفون في ظل الدولة الاسلامية بادىء ذي بدء ، لكن هذا لا يعني ان الدولة الفتية اديرت من قبل أجانب وبلغة او لغات أجنبية ، اذ وجدت دواوين عربية صرفة ، عربية برجالها ولغتها من الوهلة الاولى نظرا لطبيعة هذه الدواوين كديوان الجند (العطاء) الذي كان ديوانها عربيا خالصا منذ انشائه أيام عمر بن الخطاب ، وكذلك ديوان الخاتم والرسائل والبريد وما اليها ، ولم يعهد عنها انها عرفت لغة لادارتها غير العربية أو رؤساء غير عرب مسلمين او مسلمين من المستعربة(٢١) . هذه الدواوين لاتعنينا في هذه الدراسة اذ انها ليست مشكلة أصلا فيما يتعلق باستعمال العربية في ادارتها ، وانما يعنينا النوع الاخر من الدواوين وهي الدواوين المالية التي تعني بالخراج والضرائب ، او كما يسميها الجهشياري (وجوه الاموال) ونثبت النص هنا لانه يوضح ما ذهبنا اليه بجلاء: « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والاخر لوجوه الاموال بالفارسية ، وكان بالشام مثل ذلك ، احدهما بالرومية والاخر بالعربية ، فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان »(٢٢) . وهذا ما يوضح ذكر اسماء الكتاب العرب على الدواوين في الكوفة ، اذ كانت مهمتهم الاشراف على الديوان الاول(٢٣) . اما الديوان الثاني فهو الذي اضطرت الادارة العربية الاسلامية أن تستخدم لادارته موظفين من غير العرب وغير المسلمين من اهل البلاد لالمامهم بأصول اللغة المحلية والعمل الاداري، خاصة دواوين الضرائب (الخراج) .

ففي الشام استعمل سرجون بن منصور الرومي الذي « كان روميا نصرانيا كاتب لمعاوية ولمن بعده الى عبد الملك بن مروان »(٢٤) . وكتب لمعاوية على ديوان حمص ابن اثال النصراني(٢٥) ، وكتب لزياد بن ابيه على الخراج زادان فروخ الذي بقي كما يبدو حتى ايام الحجاج(٢٦) ، بينما بقي دهاقين العراق وخراسان يتولون ادارة شؤون جباية

الضرائب(٢٧) ، وكانوا يقومون بهذه المهمة في العصر الساساني فاستمروا على ذلك بعد الفتح العربي(٢٨) . وعن استمرار وجود الموظفين الماليين من القبط في مصر لدينا الكثير من الوثائق التي توضح ذلك ، كالرسائل المرسلة من الوالي قره بن شريك (٩٠ـ٩٦هـ) الى باسيل صاحب كورة أشقوه ، والتي تعود لسنتي ٩٠ـ٩١هـ(٢٩) . ولم يكن باسيل هو الوحيد بل ان موظف الضرائب في مدينة اهناس سنة ٩١ هـ مثلا كان بطرس بن جرجة(٣٠) .

الا ان هذا الوضع لم يستمر طويلا فأوضاع الدولة العربية الاسلامية تجري عليها سنة التطور ايضا ، هذا التطور الذي كان لابد ان يأخذ مجراه ليتوقف استخدام اللغات الاجنبية وممثلي الثقافة الاجنبية ايضا . لذا كان أيضا تعريب النقد في الوقت الذي بدأت فيه الدولة اصلاحها الاداري . ويبدو ان محاولة لتعريب النقد قد جرت في وقت مبكر لكنها كانت سابقة لاوانها فلم تنجح ، وذلك عندما حاول الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان تعريب النقد ، هذه المحاولة التي عرفناها عن طريق احد المؤلفين السريان ، فقد نشر نولدكه نصا سريانا مجهول المؤلف وقام بترجمته الى الالمانية جاء فيه أن « معاوية ضرب النقود الذهبية والفضية الا انها لم تقبل لانها لم تحمل علامة الصليب »(٣١) .

وفي مجال الحديث عن تعريب النقد اود ان اوضح نقطة هامة ، فقد ورد سبب تعريب النقد في رواية لدى البلاذري ملخصها ان امبراطور الروم اعترض على وضع علامات اسلامية في القراطيس (اي الورق المصنوع من البردي) الذي كان يصنع في مصر ، وهدد الخليفة عبد الملك بالكف عن فعل ذلك « فان تركتموه والا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه »(٣٢) . فثقل ذلك على الخليفة وقرر ضرب الدنانير ، وكأن الدولة العربية الاسلامية كانت تستورد النقد المضروب لدى البيزنطيين ، الامر الذي ينقضه ما لدينا من معلومات في مصادرنا الاولية كالبلاذري نفسه ، الذي يبين ان العرب ضربوا النقود على الهيئة الساسانية والبيزنطية القديمة . ولكن الضرب كان على ايديهم منذ عهد عمر بن الخطاب مرورا بالخلفاء والولاة في الشام والعراق والمشرق حتى عهد عبد الملك(٣٣) نفسه ، واكد ذلك ما عثر عليه من القطع النقدية العديدة .

ثم هل يمكن ان تعتمد دولة عظمى كالدولة الاسلامية في ذلك الوقت على استيراد عملة اجنبية تصدرها لها دولة معادية ..؟. ولنقل الدولة المعادية الاساسية ..؟. ولكن الدولة في دمشق كانت مضطرة لضرب النقد على الهيئة المعتادة طوال هذه الفترة لاسباب اقتصادية لا نريد الخوض فيها في هذه الدراسة .

هذه الاوضاع التي اضطرت العرب للابقاء على عناصر الادارة المالية ولغاتها لابد وان تتغير ، ومن المنتظر ان يزداد استخدام الموظفين العرب او المستعربين الذين دخلوا الاسلام في الدواوين ، فزيادة استعمال العربية يتبعه بالضرورة زيادة الاستغناء عن العناصر الاجنبية ولغاتها ، تلك الخطوة بالذات تمثل الفترة التي سميت بفترة تعريب الدواوين ، فهي البداية المنظمة او النقطة الحاسمة في الولايات الاسلامية التي بدا فيها الاستغناء عن الموظفين الاجانب ولغاتهم يتبع خطة مرسومة نفذت بالتدريج ، اذ لم يكن بالامكان اصدار القرار وتنفيذه فورا ، ففهم الموضوع على هذا المنوال يعتبر تبسيطا للامور وبعيدا عن تتبع التطور الطبيعي للاشياء الذي تحتاجه مثل هذه العملية ، لانها عملية مرتبطة بالتغلغل الثقافي العربي الاسلامي في البلاد المفتوحة دون شك(٣٥) .

وكذلك الامر بالنسبة لما اصطلح عليه بتعريب الدواوين الذي ينسب الى خليفة او وال بعينه اقر ذلك ونفذه في سنة محددة ، وكأن المسألة مجرد اصدار قرار ، فقضية التعريب من العمليات التي كان التدرج أهم ميزاتها . واول علامات التدرج ما نجده في قرارات التعريب في الامصار الرئيسية وباوقات متتابعة ، اذ بدأ في العراق ثم الشام ثم مصر الى ان وصل اخيرا الى خراسان.

ففي العراق بدأت العملية بمبادرة من الحجاج وبالصدفة(*) ، فقد كان على ديوان الفارسية زادان فروخ فخلفه مرة صالح عبد الرحمن فاعجب به الحجاج فأخبر صالح زادان بذلك وتوقع ان يسند اليه هذا الديوان فاستبعد زادان الفكرة على اعتبار ان الحجاج لا يمكنه الاستغناء عنه لانه « لايجد من يكفيه الحساب » فبرهن صالح له على مقدرته بالحساب ، وحصل ماتوقعه صالح فكان ان « أمر الحجاج صالحا بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين »(٣٦) . وكان فضل صالح بعد ذلك عظيما لان « كتاب العراق كلهم غلمانه وتلاميذه »(٣٧) . ونقل البلاذري عن عبد الحميد الكاتب شهادته بدور صالح « لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب »(٣٨) . ورواية البلاذري اكثر دقة في توضيح مسالة التعريب في العراق ، فقد روى عن المدائني عن اشياخه « قالوا : لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية فلما ولي الحجاج استكتب زادان فروخ بن بيري وكان معه صالح .. يخط بين يديه بالفارسية والعربية .. فوصل زادان فروخ صالحا بالحجاج وخف على قلبه »(٣٩) ، فصارح صالح رئيسه بالامر ولمح اليه استلطاف الحجاج له وانه قد يقدمه عليه فلم يعبأ بقوله لان الحجاج لن يستطيع الاستغناء عنه لحاجته اليه فهو بحاجة زادان اكثر من حاجته

(*) هكذا تصور الروايات الوضع وكأنه صدفة لكننا لا نتفق معها اذ ان التعريب لابد وانه جرى بناء على خطة من الدولة .

صالحا لعلمه بالحساب الذي لا يتقنه سواه ، عندها أجابه صالح : « والله لو شئت ان احول الحساب الى العربية لحولته قال فحول منه شطرا حتى أرى ففعل فقال له : تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج طبيبه فلم ير به علة وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره ان يظهر . ثم ان زادان فروخ قتل ايام عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي وهو خارج من منزل كان فيه الى منزله او منزل غيره ، فاستكتب الحجاج صالحا فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان فعزم الحجاج على ان يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحا ، فقال مردا نشاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه قال : اكتب عشر ونصف عشر . قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : اكتبه ايضا . والويد : النيف والزيادة ، فقال : قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية »(٤٠) . فعرض عليه رشوه لاظهار العجز « فأبى ونقله » . يتبين من الرواية ان مشكلة الديوان ربما تمثلت في المصطلحات الحسابية التي اتقنها صالح مع اتقانه العربية فسهل عليه نقل هذه المصطلحات للعربية ، كما نفهم منها ان تكليف صالح كان بسبب وفاة زادان فروخ أيام فتنة ابن الاشعث ، وهذه اشارة جد هامة فهي تجعل التعريب بعد التاريخ الذي ذكره الجهشياري اي سنة ٧٨(٤١) . فحوادث فتنة ابن الاشعث وقعت في عام ٨٢(٤٢) ، كما يجعله المقريزي بعد سنة ثمانين(٤٣) . وهذا هو التاريخ الاكثر ملاءمة اذ ينتظر ان يبدأ التعريب في العاصمة لدى الخليفة وليس في الولايات ، وقد اعطي صالح مهلة لنقل الديوان ، اي لوضع سجلات الحسابات المالية بالعربية(٤٤) .

أما تعريب ديوان الشام فيعيده البلاذري الى سبب تأديبي نتج عن ردة فعل الخليفة على ما نسب الى أحد الكتاب الروم واعتبر غير لائق وذلك عندما « احتاج ان يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وامر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله ان يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عنده كئيبا فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم »(٤٥) .

ولم يكن السبب المذكور السبب الوحيد الذي ذكرته المصادر ، فيذكر الجهشياري سببا أخر وان لم يكن قاطعا ولكنه اقرب الى الحدوث ، وهو أن عبد الملك امر سرجون ابن منصور الرومي « يوما بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثه فيه فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لابي ثابت سليمان بن سعد الخشني — وكان يتقلد له بديوان الرسائل — اما ترى ادلال سرجون علينا ؟ واحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت

الحساب الى العربية ، قال : فافعل ، فحوله فرد اليه عبـد الملك جميـع دواوين الشام »(٤٦) . ويؤكد الصولي قضية تواني سرجون في عمله وانها السبب في اتخـاذ القرار « ثم راى منه توانيا فطلب من سليمان بن سعد تحويل دواوين الشام »(٤٧) . وبقي سليمان على راس عمله حتى ايام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، كمـا كان كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهشام وكتاب يزيد بن الوليد كلهم عربا(٤٨) .

فقد استتبع امر التعريب في الحالتين السابقتين تغيير الكتاب مع الامر بنقـل الدواوين الى العربية ، اذ استبدل بهم عرب او مستعربون . وكانت ردة فعل ممثلي اللغات الاجنبية تقريبا واحدة اذ اعتبروا النقل هو بداية تغيير يستهدف الاستغنـاء عنهم وعن لغاتهم . لكن سبب النقل التافه لايمكن ان يمثل نقطة الحسم بالعملية ، وكأن التعريب نتج لمجرد رغبة الخليفة بتاديب كاتب . واستغرقت عملية نقل الديوان في حالتي الشام والعراق عاما واحدا . واخيرا تؤكد رواية البـلاذري ان تعريب الشام حصل سنة ٨١ هـ وبذلك تكون بداية التعريب قد انطلقت من الشام وليس من العراق ، اذا ما اخذنا بالرواية التي تجعل تكليف صالح بن عبد الرحمن ايام فتنة ابن الاشعث التي حصلت سنة ٨٢ هـ . وهذا هو الامر الطبيعي ، ان يبدأ التعريب من دمشـق وليس من الكوفة .

هذا في حين ان الحديث عن تعريب الدواوين في مصر لا نلمس فيه مثل الاسباب السالفة الذكر ، بل ان القرار جاء كأمر رسمي فحسب « وامر عبد الله بن عبد الملك بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية »(٤٩) . أما رواية ابن عبد الحكم فهي ان عبد الله هو « أول من نقل الدواوين الى العربية »(٥٠) ، بينما لا يتحدث البلاذري والجهشياري عن التعريب في مصر مع انهما تحدثا عن تعريب الدواوين الاخرى كما راينا . وعن أسامة بن زيد يتحـدث البطريرك القبطي سفيروس « فلما وصـل الفسطاط التمس علوم جميع الكور وكتبها بالعربي (كذا) وكان كثير الفهم »(٥١) .

لكن الى أي مدى تطابق هذه الروايات واقع الحال ...؟ لاول وهلة يفهـم منها أن العربية لم تكن معروفة في الدواوين حتى ذلك الوقت ثم غدت هي اللغة الوحيدة . كما نرى أن الكندي وقع في مغالطة تاريخية ذلك ان اليونانية هي لغة الدواوين الرسمية وليست القبطية التي لم تكن لغة الدولة قبل الفتح ، ومن هنا لم تتخذ كلغة ادارة من قبل العرب . والمعطيات التاريخية المعتمدة على وثائق البردي العربية تبين ان اللغـة العربية استعملت رسميا في مصر في فترة مبكرة جدا بعد الفتح ، وكذلك الحال كان بالشام كما ذكرنا في أول هذا الحديث ، لكنها لم تستعمل وحدها بل الى جانـب الرومية (اللغة اليونانية) لغة ادارة البلاد الاصلية ، ولكن فيما اذا أصبحت العربية

لغة الدواوين الوحيدة بعد قرار عبد الله بن عبد الملك فان ذلك لا يمكن تقريره لانه ينقض وثائقيا اذ كتبت الوثائق الصادرة عن الديوان بالعربية وبالعربية واليونانية وباليونانية فقط ، وكذلك فان عمل اسامة بن زيد يدل على ان مسألة التعريب لم تكن قدا كتملت بعد . اذا ينتظر أن يكون تعريب الدواوين اجراء تدريجي الى ان اكتمل فاستغني عن غير العربية نهائيا ، وذلك بعد فترة من ادخال مبدأ التعريب كاجراء رسمي وضمن سياسة عامة سارت عليها الدولة الاموية ابتداء من أوائل الربع الاخير من القرن الاول الهجري . والرواية التي تجعل نقل الدواين الى العربية سنة ٨٦ ــ ٨٧ هـ يفهم منها انها غدت الوحيدة الرسمية في الديوان ، ولكن الوثائق التي كتبت بعد ذلك كانت ثنائية اللغة(٥٢) . والاعداد الكبيرة من الرسائل الرسمية الصادرة عن مكتب الوالي نراها مكتوبة باليونانية فقط(٥٣) ونشر بعضها مترجمة الى الانكليزية في مجلة الاسلام(٥٤) ، تجعلنا نؤكد على مبدأ التدرج في الاستغناء عن اللغات الاجنبية واحلال العربية محلها . وأول الوثائق العربية التي وصلتنا في حالة جيدة جدا بعيد أصدار قرار التعريب من قبل عبد الله بن عبد الملك تعود الى سنة ٩٠ هـ (٥٥) .

وتتوالى بعد ذلك الوثائق العربية بدرجة ملحوظة(٥٦) . اما اخر البرديات ثنائية اللغة فتعود الى سنة ١٠١/٧١٩ .بينما تعود اخر وثيقة يونانية الى سنة ١٦٤هـ ، الا أنها لا تعتبر مقياسا لبقاء اليونانية في الاستعمال ، بل هي مسألة استثنائية(٥٧) ، اذ كانت غلبة العربية قد حسمت فعليا منذ اوائل القرن الثاني الهجري(٥٨) . واخر الوثائق التي عثر عليها واستعملت فيها اللغات الثلاث جنبا الى جنب ، العربية واليونانية والقبطية ، تعود الى الفترة بين ١٣٧ ــ ١٤٠ هـ/ ٧٥٤ــ٧٥٧م (٥٩) .

وتبع تعريب الديوان في مصر تعريب مصر كلها ، وذلك عندما غلبت الثقافة العربية على البلاد حتى بين اولئك الذين احتفظوا بعقيدتهم المسيحية ، فما ان جاءت أواخر القرن الثالث الهجري حتى وجدوا أنفسهم لا يفهمون سوى العربية ، فاضطر لذلك البطريرك القبطي في هذا الوقت ان يكتب لرعاياه تاريخ كنيستهم بالعربية ، لانها الوحيدة المفهومة في مصر . فهو يقول في معرض الحديث عن مادة كتابه انه مضطر لـ « نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو الان معروف عند أهل الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من اكثرهم ليكتفي بذلك عند وقوفه عليه » (٦٠) اذن وجدت الكنيسة نفسها لا مفر لها من مخاطبة ابنائها باللغة التي يفهمونها وهي العربية (٦١) .

أما اخر مراحل التعريب الرسمي للدواوين فنجدها في خراسان ، الولاية

البعيدة عن المركز ، وذلك ايام خلافة هشام بن عبد الملك وفي ولاية نصر بن سيار سنة ١٢٤/٧٤١-٧٤٢ . اذ يذكر الجهشياري أن الحسبانات بقيت في خراسان بالفارسية وأكثر الكتاب كانوا من المجوس ؛ الى ان كتب والي العراق يوسف بن عمر سنة ١٢٤ الى نصر بن سيار عامل خراسان بأمره اليه ان ينقل الدواوين الى العربية . وكان الناقل رجل من بني نهشل وهو اسحق بن طليق الذي كان من جماعة نصر « فخص به »(٦٢) . فاجراء التعريب تبعه استبدال عرب او مستعربين بالكتاب السابقين، كما حصل في مصر والشام والعراق من قبل(٦٣) .

واخيرا فان قضية التعريب ايام عبد الملك وابنائه لايمكن نسبتها الى اسباب بسيطة ، لانها حركة كبرى شملت الدواوين والنقد ، فكانت مرحلة حاسمة في التطور الاداري والثقافي والاستقرار السياسي والاقتصادي . وربما كانت هذه الحركة أهم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن ، جرى وفق خطة شاملة ، مع ان الروايات تظهرها وكأنها مرتجلة كغضب الخليفة من تلكؤ كاتب ، أو ردة فعل من الخليفة على تهديد بيزنطة بالتعريض برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بتعريب النقد، وكأنهم كانوا يسكون النقد للدولة الاموية(٦٤) .

ويمكن حصر ما توصلت اليه هذه الدراسة في النقاط التالية :

- ان استعمال العربية في الدواوين المالية كان قبل حركة التعريب المنظمة .
- ان العربية استعملت الى جانب اللغات الاخرى في الامصار الاسلامية .
- ان بعض الدواوين لم تستعمل اصلا الا اللغة العربية في ادارتها .
- وضع التعريب حدا لاستعمال غير العربية عندما اكتمل في أوائل القرن الثاني الهجري .
- كما وضع حدا لاستعمال غير العرب ، واكد على استخدام ممثلي الثقافة العربية الاسلامية من عرب او مستعربين .

الحواشي :

(١) البلاذري ، احمد جابر بن يحيى (ت حوالي ٢٧٩ هـ ، فتوح البلدان ، تحقيق م.ج دي‌غويه ، بريل-ليدن ١٨٩٥، ص ١٩٢-٢٠٠ ، ٣٠١ . وسيشار لهذا المصدر عنه وروده فيما بعد هكذا : البلاذري ، فتوح .

- ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ) ، فتوح مصر واخبارها ، تحقيق شارلس تورى ،نيوهافن ١٩٢٢ ، ص ١٢٢ .و سيشار لهذا المصدر عندو روده فيما بعد : ابن عبد الحكم ، فتوح .

- الجهشياري ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ . وسيشار لهذا المصدر عندوروده‌فيمابعد هكذا : الجهشياري ، الوزراء .

- الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ادب الكاتب ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، المطبعة السلفية(نشر المكتبة العربية) ، القاهرة ١٣٤١ هـ ص ٩٢ ١- ١٩٣ ، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الصولي ، ادب الكاتب .

- الماوردي ، علي بن محمد حبيب (ت ٤٥٠ هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (اوفست) طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الماوردي ، احكام .

(٢) Diem, Werner, « Der Gouverneur an den Pagarchen. Ein verkannter Papyrus vom Jahre 65 der Higra », **Der Islam,** Bd . 60 . Helft I, (1983) P. 105.

(٣) Grohmann, Adolf, **From the world of Arabic Papyri** (FWA), Cairo, 1952, P. 113-114, Hussein, Faleh, Das Steuersystem in Aegypten.., Frankfurt/ M - Bern, 1982, P. 53.

وبشان النص اليوناني انظر دينيت ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٦ .

(٤) Kraemer, Casper J., **Excavations at Nessana, Vol. 3, Non - Literary Papyri,** Princeton, 1958, No. P. 180.

ومؤرخة ذو القعدة سنة ٥٤هـ / تشرين اول - ثاني سنة ٦٧٤م .
وسنشير الى هذا المرجع فيمابعد Nessana

(٥) Kraemer, **Nessana,** Vol. 3

No. 61, P. 182	(رجب ٥٥/اب ٦٧٥) .
No. 62, P. 184	(شوال ٥٥/تشرين اول ٦٧٥).
No. 63, P. 186	(نفس التاريخ)
No. 64, P. 189	(ربيع اول ٥٦/ شباط ٦٧٦)

(٥٦هـ/٦٧٥ - ٦٧٦م) No. 65, P. 192

(ربيع اول ٥٧/ شباط ٦٧٧) No. 66, P. 194

. (٦٨٩/٧٠) No. 67, P. 196

(٦) البلاذري ، فتوح ص ٣٠٠ .

(٧) انظر فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة ابو ريدة ص ٢٧ ، ٣١ .

(٨) انظر : الجهشياري ، ص ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٨، ٤٠ .

(٩) ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧ .

(١٠) انظر ابن قيم الجوزية ، احكام ص ٢١٠ - ٢١٢ ، وانظر الخزاعي ، تخريج الــدلالات السمعية ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

(١١) انظر ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن عبد الحكم ، سيرة ص - ١٦٧ ، الكندي ، كتاب الولاة والقضاة ، ص-٦٠ ، وانظر الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ص ٨٦-٨٧، ترتون ص ١٢٨ .

(١٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٥ .

(١٣) الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامي ص ٨٥-٨٦.

(١٤) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ١٦٥-١٦٦ .

(١٥) ابو يوسف ، الخراج . ص ١٢٧-١٢٨ .

(١٦) الطبري ، تاريخ . ص ١٧١-١٧٥ .

(١٧) الطبري ، تاريخ ج ٩ ص ١٧٢ ، المقريزي خطط ج ٢ ص ٤٩٤ .

(١٨) الطبري ، تاريخ ج ٩ص ١٧٤ . وعندما يتحدث اليعقوبي فن موضوع اللباس فانه لا يتحدث عــن منعهم من الوظائف تاريخ ج ٢ ص ٤٨٧ .

(١٩) Becker, C. H. « Neue arabische Papyri des Aphroditofundes », **Der Lslam,** Bd. 2, P. 361

Bell, H. I. « Translations of the Greek Aphrodito Paprri in the British museum », **Der Islam, Bd . 2, P.** 270.

John Bishop of Nikiu, **The Chronicle of John Bishop of Nikiu,** Translated from Zotenbergs Ethiopic Text by R.H. Charles, Oxford 1916, P. 200-201 .

سفيروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ، تحقيق سيبولد ، لبسالا ١٩٠٤، ص١٣٤.
حتى ان عبد العزيز استقدم معه كاتبا له من أهل الذمــة هو يناس بن خمايا من أهل الرهــا
انظر الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣٤ .

(٢٠) Bell, « Tow official letters of the Arab period », **Journal of Egyptian Archaeology (JEA),** Vol. XII, P. 278; Bell, « The administration of Egypt under Umayyad Khalifs », **Byzantinische Zeitschrift (Byz. Z).** Vol. 28, P. 27,

Becker, « Arabische Papyri des Aphroditofundes » , **Zeitschrift fur Assyriologie und verwandte Gebiete (ZA)**. Vol. XX, P.97.

(٢١) نقل حميد الله في الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة نصا عن البلاذري ، انساب الاشراف قسم ٢/٥٨٥ من مخطوط اسطنبول رواية غريبة في بابها ، وهي ان عمر بن الخطاب ارسل لواليه في الشام ان « ابعث الينا برومي يقيم حساب فرائضنا » ص ٥٢٠ رقم ٣٦٨/بت . ومن غير الممكن ان يكون عمر قد طلب منه ذميا لحساب الفرائض ، فهي شرعية محضة ولابد لحاسبها ان يكون مسلما عالما بها .

(٢٢) الجهشياري ، ص ٣٨ . ورواية الصولي لها نفس الدلالة فقد روى عن القحذمي « كان بالبصرة والكوفة ديوانان لاعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب بالعربية ، وديوان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية » ادب الكاتب ، ص ١٩٢ .

(٢٣) الجهشياري ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٦ ص ١٨٠-١٨١.

(٢٤) الصولي ، ادب الكاتب ص ١٩٢ ، الجهشياري ص ٢٤،٣١،٣٢،٤٠ .

(٢٥) الجهشياري ص ٢٧ ، ابن اوثال . انظر الطبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٢٦) الجهشياري ، ص - ٢٦.

(٢٧) انظر الطبري ، تاريخ جـ٦ ص ١٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، جـ ٧ ص ، ٩٦،٩٧ ، ٤٠،٦١٤،٦٢٠.

(٢٨) الدوري ، النظم ص ١١٢ .

(٢٩) انظر :

Becker, **Papyri schott - Reinhardt I**, **Veroeffentlichung aus der Heidelberger papyrussammlung III**. Heidelberg 1906, Nr. 1,2,3,4,12.

وعددا كبيرا من الوثائق التي نشرها Bell في كتابه.

Greek Papyri in the British museum , Vol. 4, London

ونشر بعضها مترجما الى الانكليزية في مجلة **Der Islam** تحت عنوان :

Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum. Vol. 2,3,4,17.

(٣٠) انظر :

Grohmann, FWA, P. 130 ff.

Diem, « Philologisches Zu den arabischen Aphroditopapyri », **Der Islam**, Bd. 61, P. 261-262.

(٣١) Nöldeke, Th. « Zur Geschichte der Araber in I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quelen » , **Zeitschrift der Deutschen morgenländischen Gesellschaft (ZDMG)** , Bd. 29 (1879), P. 69.

ونثبت هنا النص بالالمانية لاهميته :

« Er Prägte auch Gold-und Silbergeld, aber das nahm man nichtan, Weil Kein Kreuz darauf War».

(٣٢) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٠ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ، ٤٦٦ ــ ٤٧٠ .وانظر النقشبندي ، الدرهم الاسلامي المضروب على الطـراز الساساني ، ص ٢٦،٩٢ــ١٠٠ .
حلاق ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ص ٢٢ــ٢٥ ، ٣٢ــ٣٥

(٣٤) النقشبندي ، الدرهم الاسلامي ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٣٥) يمكن فهم التطور التدريجي في مسالة التعريب بناء على ما نلاحظه هذه الايام من سير عملية التعريب في الجزائر ، انها تسير منذ حوالي ربع قرن سيرا حثيثا ولم تكتمل بعد .

(٣٦) الجهشياري ، ص ٣٨ ، الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الماوردي ، ص ٢٠٢ــ٢٠٣ .

(٣٧) الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الجهشياري ص ٣٩

(٣٨) البلاذري ، فتوح ص ٣٠١ .

(٣٩) البلاذري ، فتوح ص٣٠٠ .

(٤٠) البلاذري ، فتوح ٣٠٠ــ٣٠١ ، الماوردي ، ص ٢٠٢ــ٢٠٣ .

(٤١) الجهشياري ، ص ٣٩.

(٤٢) انظر الطبري ، تاريخ جـ ٦ ص ٣٤٢ ــ ٣٥٠ .

(٤٣) المقريزي ، خطط ، جـ١ ، ص ٩٨.

(٤٤) البلاذري ، فتوح ٣٠١ .

(٤٥) البلاذري ، فتوح ص ١٩٣ ، الماوردي ص ٢٠٢ .

(٤٦) الجهشياري ، ص ٤٠ .

(٤٧) الصولي ١٩٢ــ١٩٣ .

(٤٨) الجهشياري ، ص ٤٧، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٠.

(٤٩) الكندي، ص ٥٨ ــ ٥٩ ، وانظر المقريزي ، خطط ، جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٥٠) ابن عبدالحكم، فتوح ص ١٢٢.

(٥١) سفيروس ، طبعة سيبولد ص ١٥٠ .

(٥٢) انظر على سبيل المثال :
Becker, **Papyri Schott-Reinhardlt,** ..., P. 108-113, Nr. a-L, P. 82-90, Nr. 5-9.

(٥٣) فقد اصدر Bell كتابا كاملا بالوثائق اليونانية هو :
Greek Papyri in the British museum, Vol . 4.

(٥٤) Bell, « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum », **Der Islam** , Bd . 1,2,3,4,17.

(٥٥) Becker, **Papyri Schott - Reinhardt I,** ... Nr. 4,P. 78-79 .

(٥٦) Becker, **Papyri schott-Reinhardt I** ... Nr. 1,2,3, P. 58-77.

Diem, « Vier Dienstschreiben an 'Ammār, Ein Beitrag zur arabischen Papyrologie » (ZDMG) Bd . 133 (1984), P. 240, 242, 247-248 .
Diem, « Philologisches zu den arabischen Aphroditopapyri » . **Der Islam,** Bd. 61, P. 260-261 .

جروهمان ، اوراق البردي العربية ،
جـ٣ ، ص ٣ـ٥ ، ٨ـ٩ ، ١٢ـ١٣ ، ١٥ـ١٧ ، ١٩ـ٢٠ ، ٢٢ـ٢٤ ، ٢٧ـ٢٨ ، ١٣٥وغيرها كثير.

(٥٧) Becker,**Beitäge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam,** Heft, I, Strassburg , 1903, P. 131,
Hussein, **Das Steuersystem in Aegypten**..., P. 114.

(٥٩) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، جـ ٣ ص ٧٢ـ٧٩ رقم ١٦٧.

(٦٠) سفيروس ، طبعة سيبولد ص ٦ .

(٦١) Becker,**Beiträge zur Geschichte Aegyptens** ..., Heft. I, P. 131.

(٦٣) الجهشياري ، ص ٦٧.

(٦٢) المريزي ، خطط جـ١ ص ٩٨ .

(٦٤) انظر الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ١٤ .

المصادر والمراجـع

المصادر البرديـة :

Becker, C.H.

— **Papyri Schott-Reinhardt I, Veroffentlichung aus der Heidelberger Papyrussammlung III,** Heidelberg 1906.
— Arabische Papyri des Aphroditofundes, **Zeitschrift fur Assyriologie U. Verw , Gebiete, Bd** . 20, 1907 (ZA) .
— Neue arabische Papyri des Aphroditofundes , **Der Islam, Bd. 2, 1911.**

Bell, H.I.

— « Two Official letters of the Arab period » **Journal of Egyptian Archaeology,** Vol. 12, 1926 (JEA).
— « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum», **Der Islam,** Bd. 2,3,4,17 (1911, 1912. 1923, 1929) .
— **Greek Papyri in the British museum,**Catalogue with texts,Vol. 4, London 1899 - 1900 .

Diem, Werner

— « Der Gouverneur an den Pagarchen, Ein Verkannter Papyrus Vom Jahre 65 der Higra», **Der Islam** , Bd. 60, 1983.

— « Vier Dienstschreiben am 'Ammar, Ein Beitrag zurarabischen Papyrologie, » **Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft,** Bd. 133, 1984 (ZDMG) .

— Philololgisches Zuden arabischen Aphroditopapyri, **der Islam,** Bb. 61, 1984 .

Grohmann, Adolf

— **From the world of Arabic Papyri,** Al-Maaref Press, Cairo 1952,

جروهمان ، ادولف

أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية جـ٣ ترجمة حسن ابراهيم حسن مراجعة عبد الحميد حسن . دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٢ .

kraemer, Casper J.

Excavations at Nessana Voc. 3 Non - Literary Papyri. Princeton University Press 1958 .

المصادر التاريخية :

البلاذري ، احمد بن جابر بن يحيى ، فتوح البلدان (انظر ص١)

الجهشياري ، محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب (انظر ص ١) .

الحيدر ابادي ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة دار النفائس . الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٨٣ .

الخزاعي ،ابو الحسن علي بن محمد الخزاعي التلمساني (ت ٧٨٩)،تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية تحقيق احمد محمد ابو سلامة القاهرة ،١٩٨٠ .

سفيروس بن المقفع اسقف الاشمونين ، تاريخ بطاركة الاسكندرية تحقيق ف.سيبولد نشر أوتو هاراسوفتس ١٩٠٤ .

الصولي، ابو بكر محمد بن يحيى ، ادب الكاتب (انظر ص١) .

الطبري ،محمدبنجرير،٣١٠هـ ،تاريخ الرسول والملوك .١٠ اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٠ .

ابن عبد الحكم ــ عبد الرحمن ، فتوح مصر واخبارها (انظر ص١).

ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز تحقيق احمد عبيد الطبعة الثالثة . المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٦٤ .

ابن قيم الجوزية ــ ابو عبد الله محمد بن ابي بكر ت٧٥١ هـ ، احكام اهل الذمة ، جزءان تحقيق صبحي الصالح دمشق ١٩٦٣.

الكندي ، محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة بمصر تحقيق رفن جيست، ليدن ــ لندن ١٩١٢.

المقريزي ، تقي الدين ابو العباس احمد بن علي ، الخطط المقريزية . جزءان . بولاق ــ القاهرة ١٢٧٠ / ١٨٥٣ .

الماوردي ، علي بن محمد حبيب ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية (انظر ص ١) .

اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح ت٢٧٨ هـ ، تاريخ اليعقوبي جزءان دار صادر ــ دار بيروت . بيروت ١٩٦٠ .

ابو يوسف ــ يعقوب بن ابراهيم ١٨٢ هـ ، الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ اوفست عن طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ .

John, Bishop of Nikiu

The Chronilcle of John Bishop of Nikiu. Transɡated from Zotenbergs Ethiopic Text by R.H. Charles , Oxford 1916.

Nöldeke, Th

Zur Geschichte der Araber im I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quellen, (ZDMG) Bd. 26, Leipzig, 1879 .

المراجع :

Becker, C.H.

Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam, Heft. I, Strassburg, 1903.

BELL, H. I.,

« The administration of Egypt under Umayyad *Khalifs,* »**Byzantinische Zeitschrift,** Bd. 28, 1928, (Byz.Z) .

ترتون ، آ.س ، أهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي، الطبعة الثانية . دار المعارف القاهرة ١٩٦٧ .

حلاق ، حسان علي ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ، نشر دار الكتاب اللبناني ــ بيروت دار الكتاب المصري ــ القاهرة ١٩٧٨.

Hussein, Faleh

Das Steuersystem in Ägypten Von der arabischen Eroberung bis Zur Machtergreifung der Tuluniden 19 -254/636 - 868 mitbesonderer Berücksichtigung der Papyrusurkungen, Hos -3- hersg -Anton Schall, Verlag Peter Lang, Frankfurt/M- Bern 1982.

الدوري ، عبد العزيز ، النظم الاسلامية بغداد ١٩٥٠ . مقدمة في تاريخ صدر الاسلام . الطبعة الثالثة : دار المشرق بيروت١٩٨٤ .

اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ، ضمن سلسلة مقالات في كتاب القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني والصادر عن اتحاد الجامعات العربية نشر جامعة الموصل ١٩٨٣ .

دينيت ، دانيال ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ،مؤسسةفرانكلين ـ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠.

فلهاوزن ، يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ،ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة . سلسلة الالف كتاب (١٣٦) نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٨ .

النقشبندي ، ناصر ، الدرهم الاسلامي ج١ الدرهم الاسلامي المضروب على الطراز الساساني. مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٦٩ .

الأدب في التاريخ الآرامي القديم

د. محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

مقدمة :

اولا : إنه من الطبيعي الا يفهم من الادب في زمن الادب الارامي القديم ما يفهم منه في عصرنا ، فلا ينبغي لنا ان نبحث هنا عن الكاتب الملتزم بالعمل الادبي من أجل تحقيق انجاز فني رفيع ، لان مفهوم الادب في ذلك العصر كان يعني الثقافة العامة والتعليم ، فكلمة «إدُب» الاكدية ـ التي ربما جاءت منها كلمة ادب العربية ـ كانت تعني المكتبة والمدرسة « بيت الالواح » ، وما كان يسعى اليه الكاتب شپرا = Sapra هو أن يقدم بشكل جميل وجذاب العناصر الثقافية اللازمة التي تساعد على تكوين الكتاب الموظفين .

ولكن هذا لا يعني بالضرورة استبعاد الجمالية في الادب ، لكنه يبقى ادبا عمليا ، من أجناسه كتابة الحوليات التاريخية(١) وأجناس اخرى كالرسائل والشعر والنثر والقصة والامثال وغير ذلك .. ولا بد انه كان للكتاب الاراميين العاملين في دواوين القصور وفي خدمة المعابد فرص الاطلاع على الآداب المعاصرة والموروثة من الاكدية ومن المصرية والفينيقية ، وهذا ما يفسر لنا التشابه الكبير بين موضوعات الادب الارامي وموضوعات الآداب القديمة الشرقية الاخرى .

ثانيا : نعني بالادب الارامي القديم ما كتب بالارامية القديمة ، اي حتى ظهور المسيحية ونشوء الادب السرياني . ولا نعني بالادب الارامي كما يحب أن يرى بعض

الكتاب آداب آرام ، لانه وجدت في بلاد ارام (سورية القديمة) اداب أخرى غير ارامية كتبت بالاكدية المسمارية ، وبالاوجاريتية والكنعانية .

فهذا اذن بحث في ادب قديم ، بل انه بحث في تاريخ هذا الادب الارامي القديم . نحاول فيه تقصي جذور الحياة الادبية في مرحلة قديمة من تاريخ سورية سبقت انتصار اللغة العربية وادابها وثقافتها ، ونسعى الى التوصل الى شواهد من ادب قوم من الاقوام العربية القديمة ، ومن الاعمال الادبية لاجيال عاشت على هذه الارض العربية وانشأت ثقافتها عليها وجعلت لغتها اهم لغة في تاريخ البلاد حتى اواسط القرن السابع للميلاد . واذا لم يمتد التاريخ الارامي السياسي أكثر من قرون معدودة وبخاصة مابين القرنين العاشر والثامن ق.م ، فان الثقافة والاداب التي احتوتها اللغة الارامية بلهجتها وعصورها المختلفة استمرت قرونا عديدة وامتد عمرها اكثر من الفـ وخمسمائة العام . ولئن تراجعت هذه اللغة منذ قـرون عن دورهـا الاول في المنطقـة امـام تقـدم اللغة العربيـة ، لغة الحضارة العربيـة التي استوعبت واحتـوت ، عـن طريـق النقـل والترجمة والتعريـب والتفاعل الحضـاري ، الثقافـات المحليـة السابقة للاسلام : الهلينية المتأخرة (البيزنطية) ، والفارسية والسريانية (في سورية وارض الرافدين) والقبطية (في مصر) والعبرية ايضا ، وغرفـت من كل الثقافات القديمة ، فان هذه الثقافات بلغاتها الخاصة ، ومنها السريانية ، بقيت اداة من أدوات المعارف والاداب الى جانب العربية ايضا حتى تقلص دورها بالتدريج واقتصر اخيرا على التعليم الديني لمئات الالاف من الناس ، في سورية والرافدين والجزيرة وايران .

هذا من حيث موقع الادب الارامي على مدرج الزمن . لكن هناك ، في تصوري ، مسائل اخرى قد تطرحها ترسبات الارامية بكونها لغة وثقافة ، بمعناها الواسع ، في بحر الثقافة العربية الشاملة . وهذه المسائل قد يمكن تناولها من زاويـة النظر اللغوية لمعرفة ما في العربية من الارامية(٢) . وهذا مما يدخل في ايامنا هذه في علوم اللسان . وقد يمكن تناولها من زاوية النظر في الاتصال الحضاري الثقافي في الوطن العربي ، وهذا مما يدخل في ميدان تاريخ الادب والاداب المقارنة . وعلى سبيل المثال ربما يجوز الزعم باننا قد يمكن لنا ان نفهم المعري اكثر لو اننـا تعرفنا على تراث لوقيانوس السميساطي صاحب « حوار الموتى » وربما يمكن للمؤرخ ان يتنبه الى امور فاته الانتباه اليها لو انه رجع الى ميخائيل السوري وابن العبري السرياني الى جانب رجوعه الى ابن الاثير وابن العديم وابن القلانسي عند البحث في احداث بعض الفترات الحرجـة من التاريخ العربي .

بهذا الاعتبار يكون للبحث في الادب الارامي القديم بعض الجدوى والمـؤدى ، في

الوقت الذي نرى فيه الى محاولات مغتصبي الارض العربية في فلسطين وهم يعملون على سلب التراث الشعبي والفني ويتطاولون ايضا على التراث الحضاري للمنطقة لينسبوه الى انفسهم ، وليدّعوه لتاريخ خاص بهم طالما ان هذا التراث مهمل من اصحابه متروك ومستنكر من اهله وأربابه .

لكن البحث في الادب الارامي القديم له صعوباته التي لابد للباحث من الاعتراف بها قبل التصدي لمواجهتها والعمل على محاولة تذليلها .. فخلافا لما هو معروف عن اللغات المصرية والسومرية والاكدية والاوجاريتية والحثية ، فان اللغة الارامية القديمة لم تترك لنا اثارا او نصوصا يمكن وصفها مباشرة بأنها نصوص ادبية ، باستثناء نص واحد هو نص احي يقر (احيقار) ، الا انها كانت لغة الحياة اليومية العامة للمشرق القديم من الفرات الى النيل منذ الالف الاول ق.م.، واضحت لغة الادارة والتجارة في كل انحاء المملكة الكلدانية ، وفي الامبراطورية الفارسية لمدة قرنين ما بين القرنين السادس والرابع ق.م . قبل ان يقتحم الغرب الكلاسيكي ابواب وعواصم حضارات النيل والعاصي والاردن والفرات . هكذا اضحت لغة المغلوبين لغة الغالب . أما اهم النصوص الارامية التي تعود الى ما يدعى بارامية الامبراطورية ، فقد وجدت في مصر التي يمكن مناخها من حفظ الوثائق المنقوشة على النحاس او المكتوبة على لفائف البردي او على كسرات الفخار ..

إننا من خلال هذه المصادر الباقية سنحاول القاء الضوء على بعض ملامح الادب الارامي القديم . ولكننا سنتحدث بايجاز عن الاراميين قبل ان نتحدث عن ادابهم ..

١ ـ من هم الاراميون ؟

الآراميون هم من الاقوام العربية القديمة ، يرجعون بأصولهم الى قبائل بدوية عاشت وتنقلت في البادية العربية الشامية ، وبخاصة ما بين سلسلة الجبال التدمرية وجبل بشري ، قبل ان تستقر على أرض الرافدين وبلاد الشام في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م..

على ان اهم ما كان يوحد هذه الاقوام ويربط فيما بينها على تعددها وتفرقها هو اللغة الآرامية بلهجاتها المختلفة التي تحتل في تاريخ اللغات العربية القديمة محلا وسيطا بين اللغة الاكادية ، أقدم لغة عربية مكتوبة ، وبين اللغة العربية . فهي لم تكن لغة لاجيال من الناس ولدول قامت ودالت على ارض الشام والرافدين وحسب ، بل كانت لغة حضارة وثقافة ، حتى تغلبت على العبرية وحلت محلها فاستخدمت لكتابة سفرين

اثنين من اسفار التوراة (دانيال وعزرا) ثم شروح التوراة والتلمود (الجمارا) ، واضحت لغة رسمية في دولة كبرى . وعندما ظهر السيد المسيح كانت الارامية لغـة الناس في فلسطين وسائر سورية فخاطبهم بها وحدثهم ووعظهم وعلمهم .

اما المصادر التي مكنت من اعادة تكوين التاريخ الارامي فهي متنوعة يمكن حصرها في ثلاث مجموعات :

أولا ــ اشارات الى الاراميين في أسفار العهد القديم التي بقيت الى جانب الاخبار المتواترة والمرويات في تقاليد المنطقة المصدر الاساس للتاريخ الارامي حتى ظهور نتائج التنقيبات الاثرية منذ اواخر القرن الماضي .

ثانيا ــ إشارات الى الاراميين في المصادر الاشورية والبابليـة ، يمكن الرجوع اليها في الحوليات ومجاميع الوثائق والنصوص المسمارية .

ثالثا ــ النقوش الارامية التي تعود الى مطلع الالف الاول ق.م ، والوثائـق الارامية التي تعود الى النصف الثاني من الالف الاول .

وقد فتحت هذه المجموعة الاخيرة من المصادر ، وهي المصادر الارامية الاصيلة ، ابوابا جديدة لاعادة النظر في كل ما يخص التاريخ الارامي وتطور تاريخ المنطقة كله .

ويقر كاتب سفر التكوين بقدم الاراميين وسبقهم العبريين في الاستقرار والحضارة في مناطق الجزيرة (حرّان) ويشـير الى تحركات قبائلهم وعلاقاتهـم الاجتماعية ومصاهراتهم . واذا ما كانت الشكوك مطروحة حول اصول العبريين ومنشأهم قبل الخروج وبعده ، فان التوراة نفسها في سفر الخروج تعترف بمنشأ الاراميين العربـي من البادية العربية الشامية ، التي تحركوا منها فيما بعد نحو بلاد الشام(٢) كلها .

ويرد ذكر قبائل الاخلامو الارامية على الفرات لاول مرة في وثيقة بالاكدية مـن رسائل تل العمارنة في صعيد مصر تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ولكن بعد حوالي نصف قرن اخر نجد اثار هذه القبائل على ضفاف نهر دجلة .

اما **المصادر الاشورية** فتلاحق الاراميين بعد ذلك وتتحدث عن طردهم وتعقبهم الى منطقة الخابور وحوض الفرات الاوسط(٤) . وقد ورد ذكر الاراميين لاول مرة بعد ذلك في وثائق بالمسمارية الاشورية تعود الى حكم تكلاث بلاصر الاول ملك اشور (١١١٦ــ ١٠٣٦) الذي يتباهى بتوجيه ثمانية وعشرين حملة ضد الاخلامو والاراميين على طول جبهة امتدت من الفرات الاوسط الى تدمر(٥) .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الاشورية العنيفة للانتشار الارامي فقد نجحت القبائل الارامية منذ القرن الثاني عشر ق.م في تأسيس امارات وممالك ودول حول مراكز مهمة عديدة في سورية وبلاد الرافدين ، قامت بعدئذ بدور مهم جـداً سياسيا وعسـكريا واقتصاديا خلال النصف الاول للالف الاول ق.م ، فقد سيطر الاراميون على معظم البلاد السورية من الجزيرة الى العقبة ، واقاموا مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل احمر) على ضفتي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . أما في وادي الخابـور فقد انشأوا عدداً من الامارات أهمها بيت بخياني التي حلت محل غوازنا الحثيـة حول تل حلف قرب رأس العين ، بينما سيطرت قبيلة التيمانيين ، التي ربما يعود أصلها الى تيماء في شمالي نجد ، على مناطق نصيبين وماردين وانتشرت حتى وصلت شمالا الى هضاب طور عابدين ، ثم توغلت قبائل ارامية اخرى غربا حتى وصلت الى سفوح جبال حمانو (امانوس) وسهول كيلكية واستقرت في شمأل (زنجرلي).

وقامت أهم مراكز الاستيطان الارامي في مناطق حلب حيث قامت اثنتان مـن اهم الممالك الارامية : بيت اجوشي في حوض نهر قويق ومقرها في أرفاد ، ومملكة حماة على العاصي . ولكن أهم نجاح للاراميين كان في استقرارهم في سورية الوسطى حول وادي البقاع وعلى سفوح جبال لبنان الشرقيـة .. حيث تأسس عـدد من الممالـك والامارات الصغيرة في صوبة (عنجر) في البقاع الادنى وفي بيت رحـوب وبيت معكة وجشور بين حوض الليطاني وينابيع الاردن عند بانياس وتل القاضي ، كما بـرزت مملكة دمشق عند واحة دمشق التي تمتاز بموقعها الفذ على حافة البادية العربية . وقد استطاع تحالف هذه الممالك الارامية الجنوبية بزعامة صوبة (عنجر) في الربـع الاخير من القرن الحادي عشر أن ينشىء اتحاداً سياسياً عسكريا انضم اليه بعدئـذ العمونيون وآراميو الفرات للوقوف بوجه توسع تحرك قبائل اخرى بقيادة الملك داود. ولكن المصادر التوراتية هي الوحيدة التي تحدثنا عن هذا الصراع ، ولما يعثر بعد على أيـة وثائق ارامية حول هذا الموضوع . ثم انتقلت زعامة العالم الارامي الى دمشـق التي استطاعت بزعامة القائد رصين أن تقود كفاحامريرا وطويلا لتوحيد البلاد سياسيا واقتصاديا حتى حققت اكبر قدر من النجاح بقيادة الملك حزائيل الذي امتد نفـوذه الفعلي من الفرات شمالا الى العقبة وغزة جنوبا ، فاتحا طرق القوافل التجارية نحـو مصر والحجاز .

وأمام هذا التقدم الآرامي في الجنوب كان التراجع في الشمال بعد انتصـارات الاراميين المؤقتة ، حتى بدت آشور كأنها محاصرة من كل جانب ولم يعد لها منفذ على البحر بعد تحكم الآراميين بطرق المواصلات بين الفرات والبحر المتوسط .. لقد دخلت آشور نتيجة لهذه التطورات في مرحلة من التقهقر والضعف بعد الازدهار والقوة اللتين

شهدتهما في النصف الاول من الالف الثاني ق.م : عندما كانت طرق التجارة في المشرق العربي مفتوحة امام القوافل الآشورية نحو الاناضول او نحو وادي العاصي الاسفل. وفي خضم الصراع ، برز الجيش الاشوري كالعمود الفقري الـذي نهض به جسـم المجتمع الآشوري امام التهديد الآرامي ، وظل هذا الجيش ذراع الثأر لاستعادة حدود البلاد وللتخلص من الفقر والبؤس عندما توقفت التحركات والهجرت وتعزز المجتمع الاشوري بالحكومة المركزية القوية ، في حين أخفق الآراميون في إنشاء مملكة مركزية، وان نجحوا احيانا ، حسب الظروف ، في اقامة اتحادات موقتة او أحلاف فيما بينهم للتصدي للحملات الاشورية المتكررة .

وعندما استفاقت آشور من غفوتها ونهضت مـن كبوتها نشـب ذلك الصراع الرهيب الدامي الطويل بين آشور وآرام ، وانتصرت آشور واحتوت بجناحيها العالم الآرامي بعد صراع استمر اربعة قرون(٦) . فقد تساقطت الممالك الآرامية الواحدة بعد الاخرى أمام ضربات الجيش الاشوري المتلاحقة : سقطت أرفاد في ٧٤٠ ق.م ثم سقطت دمشق ، الحصن الاخير للعالم الارامي وآخر الدول الارامية المستقلة في ٧٣٢ . وقـد تابع الزعماء الاراميون في بابل مقاومتهم لآشور ونجحوا في انشاء امـارات وممالك صغيرة ، كانت فعالة أحيانا لكي تحمل بعض عواهلها الى عرش بابل مثل مردوخ أپال إدّينا . واخذ العالم الارامي يندمج في العالم الآشوري ليغدو هذا الاندماج في الدولة القائمة أقوى وأشد وضوحا في الدولة الكلدانية . لقد استمرت المجتمعات الاراميـة محتفظة بكياناتها وبهويتها الثقافية المتمثلة في لغتها في ظل الممالك الكبرى والـدول الفاتحة ، من الفرس الى الاسكندر والمملكة السلوقية حتى الرومان والبيزنطيين ، الى ان جاء العرب الفاتحون المحررون في القرن السابع الميلادي .

٢ ـ الادب الآرامي حتى القرن الخامس ق.م .

عندما ظهر هؤلاء الآراميون على مسرح الاحداث في المشرق القديم لم تكن لهـم لغة مكتوبة او أدب . كانوا في غالبيتهم قبائل بدوية، ومن المرجح أن الامراء الذين استقروا في مراكز الحكم الجديدة تبنوا اللغات السائدة في المناطق التي استقروا فيها ، فبقيت الاكدية الاشورية في بعض المناطق الشمالية واستخدمت الآرامية الى جانبها ، كمـا نلاحظ ذلك في نص تل فخيرية (القرن التاسع) المنقوش بالاشورية والاراميـة(٧) ، بينما استخدمت الارامية الى جانب الكنعانية / الفينيقية في يعوديا / شمأل . لكـن ما عتـت لغة الفاتحين المنتصرين حتى تطورت بسرعة واضحت لغـة للكتابة والادب والنقوش التذكارية .

كانت الآرامية هي اللغة التي حملها الفاتحون من موطنهم الاصلي ، من منازل قبائلهم في البادية العربية التي عاشوا فيها قرونا طويلة قبل استقرارهم .. وتنتمي هذه اللغة الى أسرة اللغات العربية القديمة السامية وهي لغات شعوب واقوام الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وهي بالاساس الاكدية والكنعانية والارامية واخيرا العربية ، أقوى هذه اللغات واغناها ، والتي استوعبتها أخيرا واحتوتها . كان لهذه اللغة الارامية بفروعها المختلفة مقوماتها الاساسية في بيئتها الاصلية عندما كانت لغة اقوام بدوية ، لكنها تلقت مفردات لغات الحضارات المجاورة لها والمتعاملة معها كالاكدية والكنعانية والمصرية(٨) .

إن قدرة اللغة الارامية على الاستيعاب والنمو والتلقي جعلها لغة حية تطورت من لغة مجمع بدوي الى لغة مجتمعات مستقرة عاشت وتطورت وبقيت لغة الثقافة والتجارة والادارة والفكر والادب عهودا طويلة تقرب من الفي عام ، الى أن اخذت تتراجع امام اللغة العربية الـي حملت لواء الحضارة العربية المتجددةفي القرن السابع.

لقد عاشت الارامية طويلا خلال العصور القديمة لانها كانت قادرة على التلاؤم مع مقتضيات التطور الحضاري . ولقد برهنت هذه اللغة على قدرتها وعلىتوفر عناصر القوة فيها في انتصارها على لغات كانت حية قبلها كالاكدية والحثية ، ولقد اضحت الارامية لغة شعوب كثيرة غير آرامية بالاصل ؛ اضحت لسان الاشوريين والبابليين (الكلدانيين) والعبريين . كما استخدمتها شعوب فارسية قديمة وكتبت بها كتبها الدينية ..

ولا بد أن الآرامية كانت لغة مزدهرة في بلاط الملوك الذين رعوا الحياة الفكرية في قصورهم وعواصمهم ، كدمشق وارفاد وحماة وشمال . ولابد انهم فعلوا كما فعل الآشوريون من معاصريهم فأمروا الكتاب بكتابة الحوليات الملكية والقصص والملاحم والاناشيد والحكم والامثال .

لقد بقيت **دمشق** مركز الثقل في العالم الارامي مدة تزيد على قرنين ، من القرن العاشر الى القرن الثامن قبل الميلاد ، أخضعت دولا كثيرة من كيليكية الى البادية ومن الفرات الى البحر المتوسط ومدت نفوذها الى غزة ، بوابة التجارة مع مصر ، والى العقبة ـ أيلة ، المحطة الهامة على طريق التجارة الى الحجاز واليمن ، وافتتحت اسواقا في مدن فلسطين الكبرى على الرغم من الكيانات الدينية المحلية لاسرائيل ويهوذا خلال القرن الثامن . فاذا كان حال آرام على هذه الدرجة من القوة السياسية والاقتصادية ولهم مثل هذه اللغة القوية الحية ، اليس يفترض ان يكون لهم في لغتهم ما يوازي في

الادب العبري المعاصر آداب الرواة اليهويين والايلوهيميين الموروثة عــن آداب مصر وكنعان .. وهل يعقل ان يظهر في العبرية ، وهي بصورة ما لهجة محلية كنعانيـة ، حكماء وشعراء مثل عاموس واشعيا وغيرهما ، ولا يكون للآرامية شعراؤها وحكماؤها، وهي اللغة التي ورثت في موقعها الحثية والكنعانية والاكدية العمورية ، واضحت لغة مجتمعات ودول اكبر وأعظم وأقوام اكثر عددا واطول يدا وباعا ؟.

ويجيب الاستاذ اندره دوبون ــ سومر على مثل هذه التساؤلات بقوله : « اننا نعتقد ان اللغة الارامية عاشت عشرها الذهبي في القرون التي امتدت من القرن العاشر الى الثامن ق.م ، أي في العصر الذي بلغت فيه الدول الارامية اقصى قوتها(٩) » .

ولكن نصوص الادب الارامي القديم من تلك المرحلة المبكرة تلفت كلها وباللاسف، لان تلك النصوص كانت تكتب على أوراق البردي الذي لا يقدر على مقاومة عوامل الجو الرطب في سورية بينما بقي الكثير من البرديات في مصر لامكان الاحتفاظ بها طويلا في جو جاف كجو صعيد مصر .. ولقد لحق الادب الكنعاني الفينيقي ما أصاب الادب الارامي القديم ، ما عدا الادب الاوجاريتي الذي بقي منه ما نقش على الواح من الطين . وربمـا كان من الممكن ان يكون مصير الادب العبري كذلك بعد قضاء الاشوريـين على مملكـة اسرائيل وقضاء الكلدانيين على مملكة يهوذا ، لولا حفظ هذا الادب في كتاب .. ذلك ان المجتمع اليهودي الذي عاد بعد السبي من بابل بمساعدة ملوك الفرس ، عمل بجهود حكمائه وكتابه على جمع نصوص التراث العبري التاريخي والديني والادبي في كتاب على يد النبي عزرا ، ثم قام الكتاب والخطاطون بنسخ النصوص المحفوظة جيلا بعـد جيل ، ثم قاموا بشرحها ونسخها وحفظها بعيدا عن الاخطار كما في مكتبـة طائفـة الايسينيين الذين حفظوا مكتبتهم ، عند الخطر ، في مغاور وكهوف قمران على مقربـة من البحر الميت بعد تصنيفها في ملفات ضمن جرار من الفخار(١٠) .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث في العالم الارامي . فالدول الارامية سقطت امـام التوسع الاشوري الواحدة بعد الاخرى ، وتقوضت اركانها بسقوط مملكة ارام دمشق عام ٧٣٢ ق.م .. ولم تقم للدول الارامية قائمة بعد ذلك . ولذا لم يشهد الادب الارامي القديم أي انبعاث واندمجت الحياة الثقافية للمجتمعات الارامية في حياة شـــعوب المنطقة ودولها في ظل اشور وبابل وامبراطورية فارس ، الى ان حدث التغير الثقافي الكبير باقتحام الحضارة اليونانية قلاع المشرق العربي مع الاسكندر . وبعـد سقوط مراكز الثقافات القديمة نصبت على بوابات المشرق منارات للفكر اليوناني : انطاكيـة واللاذقية وافاميا في سورية والاسكندرية وبيرنيقه في مصر ، واعقب ذلـك الاجتياح الروماني الذي ضم العالم العربي القديم بقوة النار والقانون الروماني (قرطاجة وتدمر)

الى المحيط الثقافي الهليني ـ الروماني لامد طويل أستمر حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع .

لقد غرق التراث الارامي القديم وضاع في غياهب الزمن وان بقيت منه صور ونتف حملتها اداب العصور التي تلت في اداب الفرس واليونان .. ثم ترددت في الاداب السريانية . وهي اداب المجتمعات الارامية المسيحية في سورية والمشرق العربي القديم ، أصداء الماضي وأخباره وقصصه وأمثاله واسماء اعلامه . ويعود الفضل الى علم الاثار في الكشف عن بعض اثار هذا الماضي ، وفي العثور على بعض النقوش ، وهي نصوص محفورة على الحجارة والانصاب التذكارية، في انحاء مختلفة من سورية: كيليكية وحلب والخابور وحماة ودمشق وغيرها .. مما يسمح للباحثين المختصين بتكوين فكرة واضحة عن اقدم عصور الادب الارامي ولغته وخطوطه .

لنقدم الان بعض الامثلة :

في اواخر القر التاسع اوائل القرن الثامن ق.م تمكن (زكر)(١١) ملك حماةولعش (وهي منطقة في محافظتي أدلب وحلب الان) من صد تحالف قاده ضده ملك دمشق برهدد ، فأقام لتخليد ذكرى هذا الانتصار نصبا تذكاريا نقش عليه واحد من اقدم النصوص الارامية المعروفة . يرفع الملك يديه الى السماء مسبحا رب السموات (بعل شميين) شاكرا نعماءه على مساعدته في تخليص مقره في حزرك (ربما كانت اريحا) من حصار مميت ضربه حوله المهاجمون المتحالفون :

لنقرأ النص اولا بالارامية بعد ان نقلناه من مصادره الى الحرف العربي(١٢) .

٢ ـ أنه زكر ملك حمت ولعش . إش عني انه [حصل

٣ ـ [ن] ي بعل شمين وقم عمي وهملكني بعل شم[ين ب]

٤ ـ [حـ] زرك وهو حد علي بر هدد بر حزئل ملك أرمـ

٥ ـ شة] عسر ملكين بحزرك ..

٦ ـ ـوشمو كل ملكيا إل مصر على حزر [ك]

٧ ـ وهرمو سر من سر حزرك وهعمقو حرص من حر[صه]

٨ ـ وإشي يدي إل بعل شمين ويعينني بعل شمين [ويومر].

٩ ـ [لي] بعل شمين إل تزحل كي انه هم[كتك] وانه ا

١٠ ـ قم عمك وانه أحصلك من كل ملكيا ..

إن مقارنة بسيطة بين مفردات هذا النص وبين العربية توضح لنا بجـلاء مـدى التشابه في اللفظ والصرف مما يدعو الى استنتاج النتيجة المنطقية وهي اننا أمام لغـة من اللغات العربية القديمة .

هملكني : املكني ، هي صيغة افعل جعلني ملكا .

هوحد : وحد .

عهمقو : حفروا بعمق عمقوا ،

يعينني : يُعينني

إل تزحل : لا تزعل ، وزعل بالعربية الفصحى ، تألم وغضب .

أنه احصلك : انا احصلك ، الحق بك لاخلصك

أما اذا نقلنا النص الى العربية ، عربيتنا ، فيكون كما يلي:

أنا (زكر) ملك حماه ولعش إني انسان منعتى ،

خلصني رب السموات (بعل شمیین) وقام معي ،

وجعلني بعل شمیین ملكا على (حزرك).

حينما وحد برهدد برحزئل ملك ارام ضدي ستة عشر ملكا ،

جاؤوا جميعا وضربوا الحصار حول حزرك ،

رفعوا سورا أعلى من سور حزرك ،

حفروا خندقا أعلى من خندقها ،

عندئذ رفعت يدي داعيا بل شمیین ،

فأعانني بعل شمیین ،

وكلمني بعل شمیین بلسان العرافين والمنجمين ،

قال لي :

لا تزعل لانني انا الذي جعلك ملكا ،

وأنا اقوم معك .

أنا الذي يخلصك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا الحصار على مدينتك .

نستطيع القول ان هذا النص لا يخلو بما فيه من تكرار وايقـاع وعمـق المشاعر

الدينية والعاطفية العميقة من نبرة شعرية تذكر برثاء المدن والبكاء على اطلالها في الادب العبري التوراتي فيما بعد .

لنعرض الان مثالا آخر :

انه نص مختلف تماما ، منقوش على الحجر ومعروف انه نصب من انصاب سفيرة(١٣) الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلب ، وهو مقطع من نص عهد عقد بين ملك أرفاد متع ال بن عتر سماك وبرجايه ملك كتك . وقد جعلت الارباب شهودا لتوثيق العهد وصبت اللعنات على من يجترىء على نقضه او على الحنث باليمين .

« واذا ما نقض متع ال بن عتر سماك ملك أرفاد العهد لبرجايه ملك كتك :

واذا مانقض أحد من عقب متع إل العهد لاحد من عقب برجايه ملك كتك ..

لتلقح سبعة كباش نعجة فلا تحمل .

ولتمسح سبع مرضعات حلمات اثدائهن وليرضعن رضيعا فلا يشبعنه .

ولترضع سبع أفراس مهرا فلا تشبعنه .

ولترضع سبع بقرات عجلا فلا تشبعنه ..

ولترضع سبع نعاج حملا فلا تشبعنه .

ولئن خان متع إل برجايه وابنه وعقبه فلتكن مملكته مملكة قائمة على الرمال ومملكة كأطفاث احلام تنطفيء كما تخمد جذوة النار .

ولينشر الرب هدد فوق أرفاد كل ما على الارض وما في السماء من شر ولينشر فوقها كل ما عنده من آلام .

وليرمها بما عنده من برد كالحجارة .

وليلتهم الجراد زرعها سبع سنين ،

وليأكل الدود ثمرها سبع سنين ..

وليعم القحط فيها فلا نبت عليها عشب .

ولا ظهرت على وجه ارضها خضرة .

وليصمت في ارفاد صوت القيثارة .

وليسمع في أهلها صراخ المرضى وأنينهم ،

وعويل الفوثى ومراثي الموتى وشكاوى المعوزين ،

ولتستحل ارض أرفاد الى صحراء وبنيانها الى كوم من الانقاض ».

الا تتضح من هذا النص روح العصر المتسم بالتشاؤم والذعر والخـوف مـن المستقبل ؟ الا يذكرنا بمواعظ النبي اشعيـا التي كتبت بعده وبخاصة ما يـرد في الاصحاحين الخامس والثاني والثلاثين ، عن تنبؤاته بمصير مدن فلسطين ».

وفي نص آخر من أواسط القرن الثامن يتحدث الملك برركـوب(١٤) عـن ذكرى أبيه بانامو ومآثره في مملكته الواقعة على سفوح جبال الامانوس وكانـت تمتـد على أراضي كيليكية والاسكندرونة :

« القمح والشعير والنعاج والابقار كلها كانت وفيرة في أيامه ،

عندما أكل أهل يأدي (شمأل) وشربوا . . كان ابي ملكا قديرا بين الملوك ، كانت له أراض شاسعة وعربات حربية ،

كان مالكا للفضة والذهب ».»

ثم يتحدث برركوب عن علاقة شمأل بمملكة اشور وولائه لها . ويبدو هذا النص وكأنه صفحة من صفحات الحوليات التاريخية الرسمية ويرتفع الاسلوب الادبي بـه احيانا بما فيه من مبالغة وتصوير واقعي للبطولة والانتصار الى مستوى الملحمة .

ويبرز هذا الانطباع بدرجة اشد عندما يتحدث برركوب عن نفسه وعن منجزاته في نص آخر(١٥) لايخلو من بلاغة ومسحة ادبية ».

وفيما يلي مقتطفات من هذا النص :

« أنا برركوب بن پانامو ملك شمأل ».

بصدق ابي وبصدقي اجلسني الربم ركب ال بتاييد سيدي تكلاث بلاصر علـى كرسي ابي ».

وعمل بيت أبي اكثر مما عمل أي بيت آخر .

وقبضت على زمام الامر في بيت ابي وجعلته مزدهرا اكثر من أي بيت من بيوت الملوك الاقوياء .

وغبطني اقراني من الملوك على ما احرزه بيتي من الازدهار ،

واخواني من ملوك سمأل لم يكن لهم قصر جميل كقصري ».

كان لهم قصر كيلامو . .
كان لهم قصر الشتاء وكان لهم قصر الصيف .
لكنني انابنيت هذا القصر » .

بعد عرض هذه النماذج من الكتابات الارامية من بعض ما تبقى من اثار قديمة ، يمكن لنا ان نتتبع تطور اللغة الارامية فنلاحظ ما احرزته هذه اللغة من درجة عالية من النضج بكونها لغة للكتابة وللادب حتى استطاعت ان تعيش وان تستمر على البقاء بعد سقوط الدول الارامية في اواخر القرن الثامن حتى انها فرضت نفسها على فاتحيها المتعاقبين .. .

فبعد ان كانت الدول الارامية تستخدم الاكدية الاشورية الى جانب الارامية في القرن التاسع ، كما يبرهن على ذلك نص ادد يسعي(١٦) ملك جوزانا المكتشف في تل حلف على الخابور .. ، نجد اتجاها لاستخدام الادارة الاشورية نفسها للارامية الى جانب اللغة الاشورية .. وهذا ما يؤكد ان الدولة الاشوريةفي عهد الامبراطورية الحديثة لم تعد منذ اواسط القرن الثامن دولة احادية الهوية ، بل اضحت دولة ثنائية الهوية، اشورية ـ ارامية(١٧) . ..الى ان غدت الارامية وحدها لغة المجتمع الاشوري في القرون اللاحقة .

فالاراميون على الرغم من هزيمتهم العسكرية ، ومن سقوطهم سياسيا وتقوض اركان دولهم المستقلة ، لم يختفوا عن مسرح التاريخ في المشرق القديم ، لان السياسة التي اتبعها ملوك اشور في نقل السكان من اجل اخماد المقاومة والقضاء على الثورات الناشبة ضدهم كانت سياسة ذات حدين ، لانها ادت الى نقل افواج عديدة منالاراميين الى قلب نينوى وآشور ، حيث عاش الآراميون مع الاشوريين جنبا الى جنب وقامت بين الطرفين أوثق الصلات وامتن العلاقات وبخاصة في ميدان التجارة . واذا ما كان الامر كذلك فهل يستغرب العثور على اعداد وفيرة من الوثائق الاقتصادية ممهورة بالآرامية الى جانب الاشورية المسمارية في القرن السابع(١٨) . .

اننا لنرى ان لهذه الظاهرة دلالتها التي نحاول ان نتتبعها فيما يلي :

لقد تلاقى على ارض سورية نظامان للكتابة : نظام الكتابة المسمارية، ونظام الكتابة الابجدية . وفي حين تقدمت المسمارية الى سورية في الالفين الثالث والثاني ق.م(ماري وابلا والالاخ . .) حتى تطورت المقطعية الىالمسماريةالابجديةفي اوجاريت حيثتوقفت بنهاية المدينة ، تقدمت الابجدية الجبيلية واضحت نظام الكتابة للكنعانية الفينيقية ثم

الآرامية . لقد اخذت الارامية تزاحم الاكدية البابلية الآشورية حتى احتلت محلهـا لانها كانت لغة عملية وكتابتها بسيطة . وكان الانتقال من استخدام الكتابة المسمارية ، بعلاماتها التي تعد بالمئات ، الى الابجدية المؤلفة من بضعة وعشرين حرفا ، من أعظم المراحل الفاصلة في تاريخ الفكر والحضارة . لهذا اضحت الكتابة الارامية هي المفضلة عند رجال الاعمال والتجار والموظفين وغيرهم ، الذين وجـدوا فيها الاداة المثاليـة للتسجيل والتوثيق ، فتقدمت الى موقعها الجديد لتقف جنبا الى جنب مع الاكديـة والمسمارية لا لكتابة النصوص الاقتصادية وحسب بل لكتابة نصوص تاريخية ونذرية.

من النصوص الارامية التي تقدم لنا صورة عن لغة ذلك العصر (الكلداني) هذا النص من نقش جنزي عثر عليه في نيرب(١٩) عند مدخل من مداخل حلب ، من القرن السادس ق.م . يقول :

« سين أجبر ، (سين يحمي) كاهن شهر (القمر) في نيرب ، هاهي صورتي ،

لصدقي قبله أسماني اسما طيبا وأطال ايام حياتي .

يوم موتي لم يحرم فمي من الكلام ،

وبعيني كنت ارى بجلاء ،

وبكاني أولاد من الجيل الرابع من أحفادي ، ونحبوا بدمع سخين ،

لكنهم لم يدفنوا معي أشياء من الفضة او من النحاس ،

بملابسي وحدها أرقدوني ، حتى لا ينبش احد فيما بعد قبري ..

ولتكن من تكون ، ان أسأت الي او تسببت في ما يؤذيني ..

فليمتك شهر ونكال ونسكو اشنع ميتة .

ولتهلك ذريتك » .

كان أكبر تغيير في العصر الكلداني تقدم اللغة الارامية لا في بابل وحدها بل في كل انحاء المملكة البابلية الحديثة الكلدانية التي غلب فيها الاراميون ودخلت ارض الرافدين والشام قبائل عربية كثيرة باعداد كثيفة .

ولقد عثر بين انقاض بابل على حجارة تاسيسية من زمن نبوخذ نصر الملك الفاتح البابلي والمصلح ، تحمل كتابة مزدوجة بخط مسماري وبخط ارامي . ففي ذلك العصر اضحت الارامية لغة الدبلوماسية في كل الشرق العربي بعد الاكدية ــ البابلية ، واخذت

تتطور لتصبح لغة دولية بل لغة عامة للمشرق العربي القديم كله وهو دور لم تصل اليه لا اللغة المصرية ولا الفينيقية . . فقد وجدت وثيقة هامة هي رسالة دبلوماسية ارسلها احد ملوك الفينيقيين الى فرعون مصر ، ومعنى هذا ان كتابا يتقنون الارامية كانوا يعملون في البلاط الفينيقي كما كان يوجد في البلاط المصري الفرعوني كتاب اراميون .. وهكذا ورثت الارامية دور الاكدية لتكون لغة التفاهم والخطاب العامة ولتحتل المركز الاول بين لغات المنطقة ، ولتحتفظ بهذا الدور قرونا الى ان حلت العربية في هذا الدور .

وعندما استولى قوروش ملك فارس على بابل واسقط الامبراطورية البابلية .. بقيت اللغة الارامية المظهر الباقي من التراث الحضاري السابق ، وفرضت لغة بابل وحلب ودمشق نفسها لغة للامبراطورية(٢٠) الشاملة الفارسية الاخيمنية ، لغة لمملكة عظمى امتدت من برقة ووادي النيل والمتوسط الى السند والهند وشملت شعوبا واقواما مختلفة الالسنة متعددة اللغات ، كانت الدولة بحاجة الى لغة تسهل التعامل فيما بينها وبين هذه الشعوب ، والاتصال بين الولايات في التجارة والادارة . هكذا كانت الارامية وهي الاكثر انتشارا بين كل لغات الامبراطورية هي المؤهلة للقيام بهذا الدور . ولم يكن بوسع لغة اخرى منافستها . وقد لخص الاستاذ اندره كاكو في محاضرته الافتتاحية في الكوليج دوفرانس(٢١) الوضع اللغوي والثقافي في المشرق العربي خلال تلك المرحلة من الالف الاول ق.م موجزا بمقولة خطيرة مفادها انه « بينما حمل الكنعانيون الفينيقيون لغتهم وحضارتهم الى المغرب واسبانيا وجعل الاراميون من لغتهم امبراطورية ظلت العبرية لغة كانتون محدود » ..

ان هذه الآرامية التي انتشرت منذ القرن الخامس ق.م ، **آرامية الامبراطورية**، تركت وثائق متنوعة عثر عليها في بابل وآسية الصغرى وشمال جزيرة العرب وفي فلسطين ومصر .. واهم هذه الوثائق وأوفرها عددا هي التي عثر عليها في مصر ومنها مجموعة من الرسائل الادارية التي وجهها الحاكم الفارسي (ارسام) من سوزا وبابل الى كبار الموظفين في مصر باللغة الآرامية(٢٢) .

أما ينبغي قوله بالحاح فهو أن لغة هذه الوثائق في كل هذه المناطق ومن اي بلد اتت **تمثل وحدة لغوية واضحة ، وحدة لم تعرفها المنطقة من قبل بهذه الدرجة من الاتساع والشمول** .. ذلك أن وجود حكومة مركزية ساعد على تأييد استخدام لغة واحدة . كانت الدولة تعد الكتاب (الكاتب = سفرا بالآرامية) الذين يتخرجون في مدارس لها نظام واحد ومنهج تعليمي موحد ، وتفرض في كل ولايات الدولة اسلوبا في الانشاء والتعبير يستند الى قواعد نحوية واملائية موحدة .

حتى ان جاليات يهودية وجدت في تلك الفترة في مصر استخدمت الآراميــة في مكاتباتها ومراسلاتها . ويؤكد الاستاذ أندره دوبون ـ سومر ان لغة الوثائق التي عثر عليها في ملفات البردي واللخاف في فيلة عند اسوان والتي تعود الى القرنين السادس والخامس ق.م ، انما هي الآرامية ، ولا يوجد أي أثـر للعبرية(٢٢) في لغة هـذه النصوص .

ومن هذه النصوص ، الرسالة التي وجهها احبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلســطين(٢٣)م وجواب الادارة عليهــا بشأن ما اصــاب المعبـد اليهودي في فيلة الواقعة في صعيد مصر . وجاء في الشكوى ان المصريين اغتنموا فرصة غياب الحاكم الفارسي أرسام ، فاستمالوا الى جانب الموظفين الفرس وهاجموا اليهود وقبلوا المعبد اليهودي في فيله راسا على عقب . ويطالب مقدمو العريضة بالتعويض . ويعتبر الباحثون هذه الرسالة نموذجا ممتازا للنثر الارامي في العصر الفارسي.، ولكنها من وجهة نظر المؤرخ تعتبر وثيقة هامة تعكس موقف المجتمع المصري من اليهودية وهو موقف لا يتفق ابدا مع موقف هذا المجتمع من عقائــد المجتمع الارامي المقيم في اسوان وهرموبوليس ومنفيس .

وفيما يلي الترجمة العربية للرسالة التي وجهها بالارامية احبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين .

« الى مولانا باجوهي حاكم اليهودية من عبيدك يدونيا (عطا الله) ورفاقه احبار كنيس فيلة .

عليك سلام ربنا ، وليحطك اله السماء بمزيد من عنايته الكريمة ابدا . وليرفع قدرك عند الملك . أطال الاله حياتك ! ولتشملك السعادة والمسرة دائما ! وبعد ، يعرض يدونيا ورفاقه ما يلي :

في شهر تموز من العام ١٤ للملك داريوس ، عندما غادر الحاكم أرســام ليحظى بمقابلة الملك تآمر كهنة الرب خنوب (خنوم) في حصن فيله مع فيدرانج الـذي كان حاكما هنا ، وقالوا « يجب ان يزال من هنا معبد الاله يهو في حصن فيلة » .، عندئذ فيدرانج المجرم ارسل رسالةالى ابنه نفايان الذي كان قائد حامية في حصن اســوان تتضمن مايلي : « ليهدم المعبد في حصن فيلة ! » عندئذ قام نفايان بقيادة جماعة مـن المصريين مع الجنود والمساعدين . وصلوا الى حصن فيلة بأسلحتهم . وهدموا المعبـد وســووه بالارض وحطمــوا اعمدتــه الحجرية ، وخمس بوابــات حجريــة مـن

الحجر المقطوع وبواباتها الخشبية الشعرية المتينة المصفحة بالصفر (البرونز) والسقف المبني بخشب الارز . كل هذا مع اشياء اخرى مما كان في المكان جعل طعما للنيران. اما الاواني الذهبية والفضية والاشياء الاخرى التي كانت في المعبد فقد أخذوها واستملكوها ..

انه منذ أيام ملوك مصر بنى أجدادنا هذا المعبد في حصن فيلة . وعندما دخل قمبيز الى مصر وجد هذا المعبد عامراً . وقد دمرت كل معابد الهة مصر . ولكن احدا لم يجرؤ على تسبيب ادنى اذى لهذا المعبد .

وعندما حدث ما حدث ، فاننا مع نسائنا واطفالنا لبسنا اثوابنا الخشنة ووضع كل منا نفسه في كيسه ، وصحنا وتوجهنا بالدعاء الى يهو رب السماء .

والان ، خدامك يدونياه ورفاقه وكل يهود فيلة يقولون مايلي : اذا اراد سيدنا فليفكر بهذا المعبد ليعاد بناؤه ، لانهم لا يدعوننا نعيد بناءه . انظر الى اصدقائك والى محظييك الموجودين هنا في مصر ! لترسل اليهم رسالة بشأن معبد يهو هذا تامرهم فيها باعادة بنائه كما كان من قبل ! وعندئذ ستقدم الاضاحي والنجور والمحارق على مذبح الاله يهو باسمك ! ونصلي لاجلك الى الابد نحن ونساؤنا واطفالنا هنا ..

في ٢٠ من شهر مرحسوان من العام ١٧ للملك داريوس ...» .

٣ ـ قصة احيقار وحكمته ، موضوع القصة وأصولها الاولى :

اما اهم عمل أدبي حقيقي معروف حتى الان بالارامية القديمة ، اي قبل المسيحية، فهو قصة أحي يقر (أحيقار)(٢٤) ، الشخصية الارامية البارزة في الدولة الاشورية . فما هو موضوع هذه القصة وما هو أصلها ؟ موضوع القصة قديم ومتكرر في آداب الشرق الادنى القديم ، يدور حول تكريم بطل القصة المخلص للملك والدولة ومكافاته على قيامه باعمال باهرة .. وهو يذكرنا بقصة سنو حي في مصر (٢٥) التي تعود الى الالف الثاني ق.م .. اما القصة الاشورية الارامية فتعود الى القرن السابع . ويعتبر النص الارامي الذي عثر عليه في جزيرة فيلة ، هو الاقدم لكنه غير تام وتنقصه أجزاء كثيرة ، وهو يعكس الاصل المسماري ـ الاشوري كما يؤكد غرولو(٢٦) . ويستند ليو اوبنهايم الى دراسة نشرها فان دايك لرقيم مسماري لتأييد الحقيقة التاريخية لشخصية احيقار(٢٧) وان نسجت حولها خيوط صورة اسطورية، وهو أمر مألوف في الادب الرافدي كما في ملحمة جلجاميش وقصة أدابا(٢٨) . ملحمة

جلجامش معروفة ، اما اداپا فهو بطل قصة رافدية باسمه خلاصتها انه رجل هو من الراحلين الفانين مثل جلجامش ، لكنه من اصل الهي كأبطال الاساطير الاغريقية .،وكما اضحى جلجامش رمزا خالدا بين الفانين ، أضحى اداپا احكم الحكماء بين الناس .

عثر على قصة اداپا في لوح مسماري كان يستخدم لتعليم الاكدية المسمارية للكتاب في مصر في عصر العمارنة (من أواسط الالف الثاني ق.م) وقد عثر على نتف منها في ألواح مكسورة من مكتبة أشور بانيبال (من أواخر القرن السابع ق.م) .،

تقول القصة ، قصة اداپا التي يحتمل ان تكون اساس قصة أحي يقر ، انه عندما كسر اداپا حارس مدينة اريدو المتمتع بحماية إيا ، الرياح القادمة من الجنوب التي حولت اتجاه مركب الصيد الذي كان يقوده ، دعي للمثول أمام الرب آنو رب السماء للدفاع عن نفسه لاقترافه جريمته .،

نصح إيا اداپا بان لا يتناول طعاما او شرابا يقدم اليه في السماء لان إيا يعرف ان لدى الآلهة طعاما يؤدي الى الموت والفناء . لانعرف نهاية قصة اداپا لكن يعرف من تقاليد العقائد السومرية ان الاله آنو (رب السماء) أكرمه وتلاميذه السحرة في اريدو نأعطوا قوة خارقة لمقاومة المرض والاشباح فاضحى اداپا الساحر الاكبر (اشيبو) بين السحرة الكبار (أبكالو) .اما الصيغ السحرية المنسوبة الى ممثلي هذه القوى الالهية فقد صارت تكتب بعدئذ على شكل تمائم تعلق في البيوت لحمايتها من الارواح الشريرة .

فمن العودة الى هذه الاصول تتبين لنا مع اريكا رينر E. Reiner الجذور العميقة لقصة احيقار الحكيم وتتضح صورة الوزير الارامي ومغزى تجربته . ومن هـذه النصوص المسمارية يفهم انه في زمن الملك اسرحدون ملك أشور وجدت في البلاط شخصية باسم ابا-انليل-داري ، والاحلامو الآراميون يسمونه أخوأقر . فالاصل الارامي لاخي يقر واضح ومؤكد لكنه اضطر الى اتخاذ اسم أشوري لتسهيل دخوله في البلاط الاشوري. اما اصل موضوع القصة فهو سومري أكدي .. ثم اضحت شخصية الرجل محورا لقصة واحداث وحكم زيدت اليه والحقت به عبر العصور حتى وصلت اصداء شهرته الى الغرب عن طريق العالم الهليني باسم ايسوب ، وهو مؤلف خرافات باللغة اليونانية من اصل فريجي من آسية الصغرى عاش في القرن السادس ق.م . ويرجع الدارسون قصته وحكمته الى أصول مشرقية تتصل بقصة أخي يقر (احيقار) وحكمته .، وما من شك في ان خرافات ايسوب المقتبسة عن أخي يقر هي مما أوحى بخرافات لافونتين المعروفة في الادب الفرنسي .،

لنسمع هذه الحكاية من أحيقر : يصادف فهد عنزة وهي ترتجف من البرد فيقول لها : تعالي اغطيك بجلدي . تجيب العنزة : لماذا انا يا سيدي ! لا تأخذ مني جلدي لانه ليس من المألوف ان تحيي الفهود الظباء الا لكي تلعق دمها !.

أليس في مثل هذه الحكاية القصيرة وامثالها بذور كليلة ودمنة .. وخرافات لافونتين ؟.

وكان مؤلف الخرافات الاغريقي **بابريوس** Babrius قد نظم كثيرا من خرافات ايسوب في القرن الثاني الميلادي، وكتب وهو يتذكر اصولهاالقديمةقائلا : ان الخرافة هي من عمل السوريين الذين كانوا يعيشون تحت حكم نينوس (اي نينوى) وبعل (المعبود آنذاك) لكن أول من رواها للهلينيين هو إيسوب الحكيم .

ففي هذه الاشارة ما يدل على الاصول الاكدية الاشورية لقصة احيقر التي نقلت الى اللغة الارامية ، وهي اللغة التي اضحت من اللغات العالمية عندما انتشرت منذ العصر الفارسي من الهند الى المتوسط .

ثم في تاريخ الادب الكلاسيكي يذكر أن الكاتب اللاتيني فيدر Phédre (القرن الاول م) هو الذي أدخل خرافات ايسوبيوس الى الادب اللاتيني الروماني بعد ادخال كثير من التعديل عليها وتحميلها معان وتعاليم تربوية أخلاقية ..

ويشير الاستاذ دوبون ـ سومر(٢٩) أخيرا الى انه في قصة أحيقر كما سردها ماكسيم بلانود في العصور الوسطى يضحي نادين في القصة انو والملك سنحريب ليكروس . ولكن على الرغم من التغيير الطفيف فان العودة الى اصول القصة تبرز الاساس الاكدي الارامي لعمل الكاتب الاغريقي إيسوب .

إننا نستطيع ان نأخذ فكرة عن هذا الاثر الادبي الآرامي ولكن من المستحيل حتى الان اعادة تكوين الاثر كما كان في روعته الاولى لما لحقه من تحريف وتغيير وتعديل بانتقاله الى لغات اخرى سوى اليونانية واللاتينية ، اذ نجد صدى القصة في سفر طوبيا ثم بطبيعة الحال في السريانية وريثة الارامية القديمة .

٤ ـ خلاصة قصة احيقار(٣٠) :

كان احيقار رجلا حكيما وفاضلا من حكماء الاراميين .. لم يكن له ولد، وكان نادين ابن اخته فحدث نفسه قائلا : « سأتخذ ولدا » . كان الحكيم مستشار ملك اشور سن اخي ايبا = سنحريب ثم أشور اخي إدّينا = اسرحدون .

يتحدث أحيقار عن نادين مرددا ما في نفسه : « ها انني رجل شيخ ، فمن سيكون لي ولدا ليكون من بعدي كاتبا وحاملا لاختام الملك أسرحدون ملك أشور كما كنت انا للملك سنحريب أبيه ملك اشور ؟» .

يجيب بنفسه قائلا :

« بعدئذ ، انا احيقار اتخذت نادين ابن اختي ولدا .. ربيته وعلمتــه واغــدقت الاحسان عليه ، رافقته الى باب القصر واوصلته الى الملك ليمثل امامه وهو بين افراد حاشيته .. قدمته لاسر حدون ملك اشور . اختبره الملك باسئلة عن الحكمة فأجاب عن كل ما سئل عنه . أحبه اسرحدون ملك اشور ورضي عنه وقال : « لتعمر حياة الكاتب الحكيم مستشـار اشور كلها الذي أوصل ابنه ، بل ليس ابنه هو ، ابن اخته . .» . يضيع حديث احيقار المباشر بعد ذلك لكن قصة أحيقار رممت من مصادر سريانيـة لتواترها فيها كما يلي :

لقد استطاع الوزير الشيخ اقناع الملك بخلافة ابنه المتنبى نادين له في مهامـــه متعهدا بتعليمه حكمته وتجربته وخبرته .. وهنا تاتي الحكم والاقوال التي فاه بها أحي‌يقر ، وسنعرض أمثلة منها فيما بعد ، اما تتمة القصة فهي كما يلي :

« ما ان استقر نادين الشاب في منصبه حتى خان أباه الطيب ، فوشـى بـــه عند الملك بتهم مختلفة اغضبت الملك الذي أمر بقتله .. لكن الضابط الجلاد نابوسوم‍ـ يسكن ، الذي كان احي‌يقر ولي نعمته ، وفر حياة الحكيم البريء واعدم بدلا عنه مجرما كان يحتفظ به في السجن . ندم الملك بعد ذلك على تسرعه ، وكان بحاجة الى عقـل أحي‌يقر وحكمته لايجاد مخرج من موقف حرج وضعه فيه فرعـون مصر . اعترف الجلاد عندئذ بخدعته فأحضر أحي‌يقر للمثول امـام الملك ، وبفضله اسـتطاع الملك الاشوري أن يرد على تحدي الملك المصري بمسائل سأله عنها وان ينتصر . اما ناديـن الناكر للجميل فقد ألقي في غياهب السجن وبقي فيه الى ان مات ».

موضوع القصة هو كما نرى العقاب العادل للجاحد الناكر للجميل ، والخاتمة الطيبة والاكرام والاجلال للعالم المخلص الحكيم .

وقد ألحقت بالحكاية مجموعة من الحكم وجهها احي يقر الى نادين ليعلمه قبل ان يخلفه ، ثم ليؤنبه بعد انكشاف أمره وسقوطه .

٥ ـ حكمة احيقار(٢١)

هذه بعض حكم وأقوال أحي‌يقر المأثورة ، ومنها ماترك ولا شك اثره في آداب الامم ،

وبخاصة في الادب التوراتي ، وفي الحكايات والخرافات الى ان نقلت الى آداب شعوب البحر المتوسط ، ونستطيع ان نسمع ترداد اصدائها في أدبنا العربي وفي تراثه الغزير من الامثال والحكم والاقوال المأثورة .

في **التربية** يقول :

« لا توفر على ابنك ضرب العصا ، فانك لن تستطيع بدونها ان تقيه من الشر» .

« إن ضربتك يا بني فلن تموت ، ولكنني ان تركتك على هواك فلن تعيش » .

اليس هذا ما نجده في سفر الامثال (٢٣ : ١٢–١٤) : « وجه قلبك الى الادب واذنيك الى كلمات المعرفة . لا تمنع التأديب عن الولد . لانك ان ضربته بعصا لايموت. تضربه انت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية » .

وفي **آداب الكلام** يوصي بحسن الاستماع وبالحذر وكتم السر والكلام في أوانه. يقول احيقار :

« لاتخمد جذوة كلام الملك، سيكون كلامه شفاء لعظامك» . ونجد في سفر الامثال (١٦ : ٢٤) « الكلام الحسن شهد عسل حلو للنفس وشفاء للعظام» ويقول: « يا بني! لاتكن ثرثارا فتبوح بكل ما يرد على خاطرك لان العيون والاذان في كل مكان متجهة الى الافواه ، وكن حذرا فان صنت لسانك سلمت » .

وفي امثالنا : « لسانك حصانك ان صنته صانك وان خنته خانك » .

ويقول أيضا : .

« راقب فمك وصن ما سمعت في قلب اصم لان الكلام كالعصفور ان انطلق من بين يديك لن تسترده ابدا » .

« لا تكشف سرك حتى للصديق لكي لا يكون اسمك سخرية » .

« الاناء الطيب يحفظ الكلمة الطيبة ، لكن الاناء المكسور يسرب ما فيه » .

الا نجد المعنى واللفظ في القول العربي المأثور : « الاناء ينضح بما فيه » .

وينهى احيقار عن مصاحبة الاشرار محذرا من خبايا السرائر : « لايعرف احد مافي قلب صاحبه ، فان ما رأى امرؤ امرأ اخر تافها فليحذره . ليبتعد عن طريقه ولايتعامل معه . هذا ما يفعله الانسان الطيب مع الخبيث » .

وفي **السياسة والدبلوماسية والسلام والحرب** يوصي قائلا :

« انسج الاعيب فمك ثم اعرض مقاصدك في الوقت المناسب لان حيلة الفم اقوى من حيلة الحرب » .

الا انه ينهي عن الافتراء والاثم : « يابني تحقق باذنيك كل ما تسمع لان نجـاة الانسان في اخلاصه وصدقه اما مايقبحه فهو الافتراء على شفتيه» .

ويضيف الحكيم : « السيف يعكر صفو المياه الهادئة بين الجيران » .

لكنه يوصي بالاعتدال : « لا تكن شديد الحلاوة فتؤكل ، ولا تكن شديد المرارة فتقذف » (لا تكن صلبا فتكسر ولا لينا فتعصر) .

ويستنكر العدوان والاعتداء قائلا :

« لا تشد قوسك ولا تصوب سهمك الى الانسان الصالح مخافة ان يؤيده الاله فيرتد السهم عليك » .

ويضيف بحكمة فيها خلاصة فلسفة **الجبر والاختيار** قائلا :

« لئن شددت القوس ووجهت السهم الى انسان صالح فالسهم منك لكن حركته من الالهة » .

وبشهامة يتباهى حكيم ارام بنجدة المستجير قائلا :

« رفعت القش وحملت النخالة لكنني لم اجد اخف حملا من المستجير الدخيل» .

ويتحدث عن **الفقر والغنى والعمل** فيقول :

« رفعت الرمل وحملت الملح لكنني لم اجد اثقل من الدَّين »».

ويؤكد فكرته بقوله :

« يا بني أن كان الدين باهظا والدائن خسيسا فلا تعاقد عليه ! ولكن ان عاقدت على دين فلا ترتح لك نفس حتى تفي بكل ما عليك ! الدين مريح ان كان قصير الاجل، لكن الوفاء به يعادل محتوى البيت !»

ويعبر عن استنكاره للفقر :

« ذقت المر حتى العلقم لكن لم اجد اشد مرارة من الفقر » .

لكنه يحث علي العمل ناصحا بالسعي في سبيل العيش : « احسير انت يابني!

إذن احصد أي حصاد ! واصنع أي صنيع استطعت ، عندئذ ستأكل وستشبع وتعطي لاطفالك ! » .

وهو يوصي بعمل كل انسان ما هو مؤهل له :

« لا توجه العربي (البدوي) الى البحر ولا الصيدوني الى الصحراء لان لكل شانه »

وبهذا المعنى يقول عاموس :

هل تركض الخيل على الصخر او يحرث عليه بالبقر (٦: ١٢) .

وينهي الغني عن الاغترار بثروته :

« لا تغتر بثروتك ولا تمل مع هوى قلبك » .

« ولا يقل الغني ابدا انني مشهور لاني ثري » ..

ويحدث نفسه مناجيا شاكيا ما حل به من بلاء :

« إن كان شقائي مني انا نفسي فممن ابتغي انصافي » . ثم يعترف رغم علمه وحكمته بجهله عندما يتحدث عن الانسان : « عديدة هي نجوم السماء التي لا تعرف اسماؤها ! كذلك هو الانسان لا يعرفه أحد ! » .

أليست هي عين الحكمة على معبد دلفي : « أعرف نفسك !» أليس هذا ما قاله سوفوكليس أيضا :

« ما أكثر عجائب هذا العالم وما اكثر غرائبه ، لكن ليس اعجب ولا اغرب من الانسان ! » .

ولعل حكيم المعرة قد تجاوز حكيم آرام محلقا في البيت الرائع : اتحسب انك جرم صغير وفيك استوى العالم الاكبر ؟..

خاتمة :

عند قدوم الهلينيين الى الشرق مع جيوش الاسكندر المقدوني انتهى دور الارامية الرسمي بحلول اليونانية محلها لغة للثقافة والادارة . وبفقدان الارامية للعامل الاساسي في وحدتها مع انهيار الادارة الفارسية المركزية، اخذت تنتصر العوامل المحلية والاقليمية فانقسمت الارامية وتفرعت الى لهجات بالكلام واساليب الكتابة والخط .لكن ميدان

انتشارها بقي واسعا جدا بعد ان اضحت لغة اليهودية الى جانب العبرية واكتسبت مكانة مقدسة بعد ان اضحت الارامية السريانية لغة المسيح وحوارييه وتلاميذه . وقد وقع الفتح العربي في وقت كان فيه الادب السرياني في أقصى درجات تطوره ، واستمر ازدهاره في الحضارة العربية حتى القرن العاشر .. ونستطيع ان نقول ان حركة انسانية Humanisme عربية سبقت انسانية الغرب بقرون قامت في دمشق وبغداد ومـدن المشرق العربي حلب والرقة وحران وطرابلس وانطاكية على اساس الاتصال بالعلوم والمعارف التي قدمتها الحضارات القديمة ، وكانت السريانية التي احتفظت بـدور مواز للعربية في الاوساط العليا الفكرية أداة الاتصال الى ان أخذت العربية تنتصر بالتدريج لتصبح لغة المحادثة والحياة العامة قبل ان تصبح لغة التعليم والكتابـة والتأليـف للسريان وغيرهم(٣٢) . واستمر هذا التراجع متباطئا حتى القرن الرابع عشر ، لكنه تسارع حتى القرن السابع عشر ، فانحصرت السريانية في بعض المناطق مثل معلولا وجبعدين وبخعة وبعض مناطق الجزيرة العليا وطور عابدين ، وتوقف الانتاج الادبي الارامي تقريبا لتبقى بقايا الارامية لغة طقسية تردد أصداء ثقافة عريقة وحضـارة قديمة .

هكذا كان دور اللغة الارامية ودور ادبها التاريخي جسرا عريضا مديدا اتصـل بالعربية وثقافتها الحية المتجددة القائمة منذ قرون.

الحواشي :

(١) ومنها نماذج فارسية مترجمة الى الارامية عثر عليها بين ملفات فيلة في مصر .
انظر :
A. Cowley (ed.) , **Aramaic Papyri of the fifth century B.C.** (Oxford, 1923) , 204 - 248 .

(٢) مار افناطيوس افرام برصوم ، الالفاظ السريانية في المعاجم العربية (دمشق ١٩٤٨–١٩٥١) .

(٣) سفر التكوين ، ١١ : ٢٨–٣٢ ، ٣١ : ١٧–٣٠ ، ٢٩ : ١ .

(٤) حول تفرع الاراميين من الاخلامو :
J. A. Brinkman, **A Political History of Post - Kassite Babilonia 1158-722** (Rom 1968).

(٥) تتبع طريق حملات تكلات بلاصر الاول ، راجـع :
J. Starcky, **Palmyre, l'Orient ancien illustré** , (Paris 1952), 28.

(٦) انظر مراحل الصراع في:
P. Garelli, V.Nikoprowetzky, **Le Proche - Orient Asiatique II,** (Paris P.U.F. 1974), P. 110.

(٧) A. Abou Assaf, P.Bordreuil, A.R. Millard, **La statue de Tell Fekheryé et son inscription bilingue assiro - araméenne** (Editions Recherches sur les civilisations, (Paris 1928) , cahier No 7.

(٨) انظر مثلا :
H.Farzat, « Encore sur sur le mot TQm » **Semitica,** (Paris 1968).

(٩) A. Dupont-Sommer, « Littérature araméenne » **Histoire des Littératures I,** (Piéade, Paris 1955) ,P. 633

(١٠) انظر : محمود العابدي ، مخطوطات البحر الميت (عمان ١٩٦٧).

(١١) انظر النصبالارامية في :
John C.L. Gibson, **Textbook of Syrian Semitic Inscription.** vol. II, (Oxford 1975) p. 8.

(١٢) الترجمة الى العربية من عمل مؤلف البحث .

(١٣) انظر النص بالارامية في نقش سفيرة الاول (السطور ١٤–٣٠) ، راجع الطبعة الاساس :
A. Dupont - Sommer , et J. Starcky, **Les inscriptions araméennes de Sefire,** (Paris 1958) pp. 4-5.

ايضـا :

H. Donner-W. Rölliig, **Kanaanaïsche u. Aramaïsche Inschriften** (Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1973), p. 238, No 222-224.

(١٤) H Donner-W. Rollig, **KAI,** II. No 215,9-15;

(١٥) **idem,** No 216.

(١٦) Abou Assaf et Bordreuil et Millard, **Op. Cit.**

(١٧) انظر :

A. Lemaire et J.M.Durand , **Les inscriptions** Araméennes de Sefiré et **l'Assyrie de Shamshi Ilu,** (Paris 1984).

(١٨) L. Delaporte, **La Mesopotamie, l'Evolution de l'Humanité,** (Paris 1923); **Epigraphes Araméennes** (Paris 1912), p. 23.

(١٩) KAI, 226; J.Gibson, Op. eit., No 19,p.79.

(٢٠) F. Altheim, R.Stiehl, **Die Araber in der Alten Welt,** ler Band, (Berlin 1964), « Aramaisch als Weltsprache » , PP. 181 - 236.

(٢١) A. Caquot, "**Leçon Inaugural,** (Collège de Farnce 1972) .

(٢٢) انظر هذه الرسائل في :

G. R. Driver, **Aramic Documents of the fifth century B.C.** (Oxford 1954), 1957.

وانظر دراسات بورتن وغرولو (بالانكليزية والفرنسية) :

B.Porten , **Archives from Elephantine** (Berkeley 1968) ; P. Grelot , **Documents Araméennes d'Egypte,** (Paris 1972).

(٢٣) A. Dupont-Sommer, La Littérature araméenne, Op. Cit.

(٢٣م) **idem.**

(٢٤) جورج حداد « حكمة الوزير احيقار واثرها فيالادب العالمي » مجلة الحوليات الاثرية السورية ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٠ — ٢٨ . كان الدكتور حداد من اوائل من نبه في اللغة العربية الى أهميـة احيقار في الادبالارامي والاداب العالمية .

(٢٦) G. Lefébvre, **Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaõnique,** (Paris 1949);

وبالعربية انظر ايضا : جون ولسون (ترجمة احمد فخري) ، الحضارة المصرية ،القاهرة.١٩٦٠.
J. A. Wilson, dans **ANET, pp;** 412-424.
P. Grelot, **Documents Araméennes d'Egypte,** pp. 427 - 429.

(٢٧) راجع حول الاصل المسماري لقصة احيقار :

J. Van Dijke, **Afo** (Archiv för Orientforschung) 1939, pp. 215-218;

J. C. Greenfield, JAOS (Journ. of the Am.Or. Society),1962, P.293ss.
L. Oppenheim, **La Mésopotamie** (Paris 1970) = Ancient Mésopotamia (1964) P. 380.

(٢٨) R.Labat **Les Religions du Proche-Orient,** (Paris 1970) .

وحول القصة انظر :

L. Oppenheim, **La Mésopotamie** p. 274 et n.46 p.380.

(٢٩) A.D.S., « Litterature araméenne » Histoire des Litteratures, p.642.

(٣٠) انظر النص في الانكليزية وفي الفرنسية في :

Cowly, **Op. Cit.,** pp.204 ff.; P. Grelot, D.A.E. **Op. Cit.** ; A.Dupont - Sommer, **Op. Cit.**

(٣١) انظر المراجع السابقة نفسها . تعريب حكم احيقار هنا هي من عمل المؤلف .

(٣٢) انظر الدرسة للباحث محمد عبد الحميد حمد ، « مار ديونيسيوس التلمحري » من وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة واثارها ، ١٩٨١ ، منشورات المديرية العامة للاثار والمتاحف .

الإبلائية

لغة مدونة في وثائق ملكية

د. يسرى الكجك

خلفت لنا الحضارة الإبلائية ، التي عاشت في سورية في الالف الثالث قبل الميلاد، سجلات يزيد عددها على ستة عشر الف رقيم، مكتوبة بكتابة مسمارية مقطعية ،تحكي قصة هذه المملكة واحداث عصرها . فأين وجدت هذه المخلفات ..؟ وعم تتحدث ..؟ وباي فترة كتبت ..؟ وما هي اللغة التي دونت بها ..؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه في مقالنا هذا .

لسنوات قليلة خلت ، كان علماء الآثار والحضارات الشرقية ، متفقين على ان سورية ، خلال العصر البرونزي القديم ، كانت بلادا واقعة تحت السيطرة الرافدية، وتحوي العديد من المدن والواحات التجارية ، التي كانت بمثابة صلة الوصل ما بين بلاد الرافدين ومصر ، او شواطىء المتوسط . وظل هذا الراي سائدا على الرغم من العثور على عدة كتابات يرد فيها اسماء مراكز حضارية الى غربي الفرات . ولم تاخذ هذه الوثائق أهميتها الحضارية الا فيما بعد .

كان مجد الحضارة السورية عند علماء الاشوريات ، يبدأ من ماري في عصر زيميرليم (الفترة البابلية القديمة) ، حيث جلت المكتشفات الاثرية السجلات الملكية لماري ، والقصر الملكي العائد للالف الثاني قبل الميلاد(١) . وحتى هذا الكشف اعتبر بشكل أو باخر رافديا ، لان ماري كانت تخضع أحيانا للسيطرة الرافدية ، لاهميتها كموقع متقدم على الحدود الرافدية . وتلا هذا مجد اوغاريت وابجديتها العالمية ، ونادرا ما تذكر كتب الشرق القديم ، حتى الحديث منها ، وخاصة المؤلفة باللغة

العربية ، الحضارة السورية الراقية التي عاشت قبل ذلك، وتركز الاهتمام على حضارة بلاد الرافدين فقط ، خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد .

ان التنقيبات الاثرية المثمرة عن الحضارة السورية في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ، لا يزيد عمرها على العشرين عاما . وقد بدأت بالكشف عن معابد قديمة على ضفة الفرات اليمنى ، اثناء عمليات انقاذ آثار الفرات عند بناء السد ، على يد بعثة بلجيكية (٢) وقد اعتبرت آنذاك اثارا سومرية ، واصبح جليا ان هذا غير اكيد بعد الحفريات الابلائية التي اجرتها في تل مرديخ البعثة الاثرية لجامعة روما .

وفي الحقيقة لعب الحظ والمصادفة دورا كبيرا في الكشف عن الحضارة الابلائية، وحتى البعثة المنقبة لم تكن تتوقع انها بصدد العثور على حضارة مهمة ، بل مملكة ضخمة . حتى ان اسم إبلا الذي ظهر على اكثر من قطعة اثرية في الموقع ، لم يكن يعني الشيء الكثير ، وان كان هذا الاسم قد ورد اكثر من مرة في وثائق رافدية ، منهما هذان النصان لوثيقتين تعودان الى العصر البرونزي القديم (الالف الثالث قبل الميلاد)، لاهم ملوك اكاد ، صارغون ونارام-سن ، يرد فيها ذكر مدن اجتاحاتها خلال حروبهما، وحددا مواقعها بانها في الشمال باتجاه البحر .

يقول صارغون(٣) : « صارغون الملك ، سيسجد في صلاة في تيتول امام دجن . دجن قد اعطاه البلاد العليا : ماري ، يرماني ، إبلا ، حتى غابة الصنوبر وجبال الفضة » . ويقول نارام-سن(٤): « ابدا منذ بدء الخليفة ، لم يستطع اي ملك من الملوك تدمير ارمانوم وابلا ، في . . . ، نرجال قد فتح طريق نارام-سن القوي ، واعطاه ارمانوم وابلا وقدم له كذلك الامانوس ، جبل الارز والبحر العلوي وبفضل جنود دجن ، واشعاع مجده،نارام - سن القوي ، هزم ارمانوم وابلا،ابتداءمن شاطيءالفرات حتى إلسوم ، لقد تحدى الاشخاص الذين وهبهم دجن له ، والذين سيحملون السلال لابا إلهه ، لقد سيطر على الامانوس وعلى غابة الارز » .

يبدو واضحا ، ان صارغون ، في وثيقته ، مسرور بانتصاره على ابلا وماري ويرماتي ، هذا النصر الذي اوصله الى غابة الارز وجبال الفضة . ولكن نصه قصير ، ممايدل على ان النصر كان مهما وليس حاسما ،اي ان إبلا ربما هزمت ولكنها لم تدمر، كما ورد في نص حفيده نارام-سن الذي تبدو سعادته اكبر بنصره ، فهو قد دمر مدنا لم يستطع تدميرها اي ملك منذبدء الخليقة ، وقد كرر فخره اكثر من مرة بهذا النصر ، وبدا وثيقته بزهو عظيم . واما نتيجة انتصاره فهي كما ذكر جده ، كانت الوصول الى غابات الارز وجبال الفضة ، او بمعنى اخر الوصول الى منابع المواد الاولية .

وهنا يحضرنا السؤال التالي : هل كانت إبلا على درجة مــن القــوة العسكرية والسياسية بحيث لم يستطع أي ملك من قبل تدميرها والانتصار عليها ..؟ اذا صح ذلك فهو يقلل من قيمة نصر جده ، وهل كانت من القوة الاقتصادية بحيث سيطرت على منابع الثروة ، اذ على الارجح قصد كلا الملكين بغابة الارز جبل لبنان ،وبجبل الفضة بلاد الاناضول . هذه الاسئلة جعلت مؤرخي هذه الفترة يستبعدون ان تكون إبلا في سورية ، فالطبيعة الجغرافية لا تعطي هذه المؤهلات لمنطقة في سورية . دعــم هــذا الراي وثيقة اخرى وجدت في الالاخ ، فاختلفت اراء الباحثين ، حول موقع إبــلا ، وبقي لغزها ، والمدن الاخرى التي وردت في النص باستثناء ماري ، قائما ، كالكثير من الغاز الحضارات القديمة ، وغاب عن الاذهان ربط النصين السابقين مع اقــدم خريطة في العالم ، عثر عليها في جسور (في العراق) تعود لفترة الامبراطورية الاكادية (نحو ٢٣٦٠ ــ ٢١٨٠ ق.م) ، ذكرت فيها إبلا تحت اســم (مشــكن ــ دور إبلا) أو (مشكن ــ باد ــ ابلا) ، الاسم الذي ربما كان الاسم السومري للمدينة(٥) .

استمر عمل بعثة تل مرديخ (إبلا) منذ عام ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٣ دون الوصول لنتائج مشجعة . فقد تم الكشف خلال هذه المدة عن آثار مدينة تعــود الى العصــر العموري في المنطقة ليس في مخلفاتها ما هو فريد من نوعه ، ومع ذلك اســتمر عمــل البعثة في التنقيب في الاعوام اللاحقة . وفي عام ١٩٧٤ تم العثور على اولى مخلفــات الحضارة الابلائية وهي عبارة عن ٤٢ سجلا وثائقيا ملكيا ، أثار العثور عليها ضجــة عالمية كبيرة على الصعيدين العلمي والصحفي ، وتعددت حولها الاراء . وهكذا غدا من المؤكد بالدليل ان ابلا المفقودة هي في سورية ، على بعد خمسة وخمســـين كيلومترا جنوبي حلب ، وسبعة كيلو مترات جنوب شرقي سراقب ، في موقع تل مرديخ الاثري(٦) . وبتتالي سنوات التنقيب ، اخــذت الحضارة الابلائية ، عمارة وآثــارا ، طريقها الى النور من جديد . كان هذا الكشف جميلا وجذابا للمهتمين والفضوليين ، المغرض منهم والمخلص ، ومع هذا لم تكن إبلا قد قدمت اجمل ما فيها ، حتى عام ١٩٧٦ ، حيث تم العثور اثناء التنقيب ، وبطريق الصدفة ايضا ، على الكنز الذي لم يكن من ذهب او فضة ، بل أكبر قيمة واكثر فائدة ، انه سجلاتها الملكية المكتوبة بكتابة مسمارية مقطعية ، وهكذا توصلنا الى رسول صادق أمين ، يحدثنا عما كان يجري منذ خمسة الاف سنة على ارض الشرق القديم ، وسيطول حديثنا عنه ســنوات . فأين وجــدت هــذه السجلات ..؟ وما فحواها ..؟

وجدت هذه السجلات بكاملها في رحــاب القصر الملكي المسمى (ج) ، الــذي يعود الى سلالة إكريش ــ خلم التي حكمت ما بــين (٢٤٠٠ ــ ٢٢٥٠ ق.م) . بنــي هــذا القصر في قمة تل مرديخ ، مطلا على المدينة في هندسة فنية رائعة ووفق خريطة اعدت

سابقا ، مما هو جديد كل الجدةفي عصره . وهذا موضوع لا مجال للحديث عنه الان . تم العثور على السجلات ، بشكل اساسي في صالتين ، اولاهما كانت مخصصة لديوان السجل وهي الصالة (ل ٢٧٦٩) ، وضمت اكبر عدد منها ، حيث قارب عدد ما جمع حوالي (١٤) ألف رقيم ، حفظت على رفوف خشبية متتالية من اسفل الى اعلى تبعا لثقلها وحجمها ، ورتبت تبعا لموضوعاتها ، والثانيــة هي (ل ٢٧١٢) حيث عثر على (١٠٠٠) لوح ذات ملامح زراعية ، وهذه الصالة كانت عبارة عن مخزن وتقـع خارج القسم الاداري للقصر ، (٤٠٠) لوح تقريبا ذات ملامح اقتصادية وتاريخية ، وادارية وجدت في بهو القصر في الصالة (ل ٢٨٧٥) ، (٥٠٠) لوح وجدت في القسم الشرقي من الجناح الاداري للقصر ، ذات ملامح اقتصادية (ل ٢٧٦٤) ، كما وجدت حوالي (٢٠) لوحة في ساحة القصر ، كانت حتما قيد الكتابة عندما هدم(٧) ، اذ يبدو واضحا جـدا ان القصر قد احرق على حين غرة ، فحتما لم يكن ملك إبـلا يتوقع الهزيمـة امـام مهاجميه ، وخراب مدينته واحراق قصره ، هذا ما كان له نتيجتان : احداهما سلبية، فقد فقدنا اجمل تحف وآثار القصر الفنية ، التي سرقت قبل احراقه ، وما ترك من اثاث جميل كان خشبيا فاحترق . والثانية ايجابية تتمثـل في كون نصـوص الرقم الطينية ، قد حفظها الحرق من البلى فشويت ، مما شوه منظرها ولكنه حافظ على نصها وتماسكها .

وهكذا نلاحظ ان ما خلفته لنا الحضـارة الابلائية مـن نصوص ، تناولت كل مجريات الحياة اليومية في القصر الملكي ، الذي تعاقب على حكمه ستة ملوك من سلالة واحدة، هي سلالة اكريش ــ خلم ، الذي لا نعرف تماما (حاليا على الاقل) كيفيـة وصوله السلطة ، ودام حكم هذهالسلالة زهاء ثلاثة قرون اعتلى عرش ابلا فيها على التوالي بعد مؤسسـها اكريش ــ خلم ابنه اركاب ــ دامو ، فابنــه ايرانيوم ، وتـلاه ابيريوم الذي سجل عهده الكثير من الانتصارات والامجـاد ، تـلاه أبي ــسيبش ، فدبوخـاـدا، الذي يرجح كونه صغير السن عندما تولى العرش، وفي عهده دمر القصر.

تميز ملوك هذه السلالة بانهم كانوا من كبار الموظفين قبل توليهم العرش، وبمعنى اخر كان كل واحد منهم وزيرا لوالده عندماكان ولي عهده ، وهنا لابد لنا من الاشارة الى عدم صحة النظرية القائلة باغتصاب ايبريوم للعرش بعد ايرانيوم ، اذ ليســفي السجلات ما يشير لذلك .

تنقسم السجلات الابلائية كما راينا الى عدة أنواع حسب موضوعاتها ، اولاهـا تاريخية سياسية ، كالنص (TM 75.G.2231)(٨) الذي هـو عبارة عن نص مدرسـي يحوي (٢٨٩) اسما جغرافيا ، يعتبر نسخة عن نص سومري وجد في ابو الصلابيخ في

العراق ، قام بترجمته البرفسور بيغز Biggs (٩) يتميز النص الابلائـي بكمالـه وكونه اطلسا ممتازا لمنطقة الشرق القديم في عصره ، وبكونه مدونا بكتابة مسماريـة مقطعية سهلة القراءة اذا ما قورنت مع السومرية التصويرية ، مما يجعل قراءة الاسماء أصح وأسلم ، كذلك يفتح هذا النص مجـالا مناسبا للدراسة اللغويـة المقارنة بـين السومرية والابلائية ، وسنتطرق الى ذلك فيما بعد . في نصوص اخرى نجد العلاقات السياسية الابلائية ، التي كانتذات انماط متعددة ، منها علاقات مع مـدن وممالك خاضعة للسيطرة الابلائية المباشرة جاوز عددها السـبع عشـرة (١٠) ، واخرى مـع ممالك خاضعة للسيطرة الابلائية غير المباشرة ، تقدم الجزية السنوية ويكون جيشها على استعداد دائم لخدمة التاج الابلائي ، كمملكة ماري التي ما ان حاولت التمرد على هذا النوع من الاستعمار ، في عهد ملكها ايبلول ، حتى ارسل ايرانيوم ملك ابلا جيشا جررا ، بقيادة انا ـ داكان ، اخضعها من جديد وقتل ملكها ، وعاقب شعبها بان ولـى القائد الابلائي نفسه عرشها(١١) ، وثالثها ممالك صديقـة تربطهـا مع ابلا معاهدات دفاع مشترك ، كآشور .

النوع الثاني من السجلات اقتصـادي ، كالنص (TM 75.6.1591) (١٢) الـذي يتحدث عن مبادلات إبلا التجارية الواسعة ، ذكرت فيه اسماء(٧٨) مدينة كانت إبـلا قد صدرت لها واستوردت منها، اكثرها غير معروف لنا حاليا ، والنادر الذي عرف منها يدل على السعة الكبيرة جدا للعلاقات التجارية الابلائية في عالم الشرق القديم .

ان هذا النوع من التنظيم الاداري لم يسبق له مثيل في بلاد الرافدين ، فاسماء المدن التي ذكرتها السجلات الابلائية ، والتي كانت مجهولة تماما بالنسبة لنـا ، تعـد بالمئات . ومن المدونات المهمة التي حوتها السجلات ، المدونات المدرسية ، التي كانت بمثابة وثائق لطلاب سيغدون موظفين في الدولة ، لذا حرصت الدولة على ثقافتهم ، ونوعية معلوماتهم ، والاحتفاظ بمدوناتهم ممهورة باسمائهم واسماء معلميهم ، وحتى مدارسهم ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الوثائق مهمة جدا لمعرفة المعلومات التي كانت تقدم للطالب الابلائي ، والتي هي بالتالي خلاصة علوم عصره وحضارته .

بالاضافة الى الانواع التي ذكرناها سابقا ، ضمت السجلات الملكيـة مدونات كثيرة ، منها ما يختص بعقود الملكية الزراعية ، والسقاية المائية، والصناعات، ونصوصا دينية واسطورية (١٣) ، بالاضافة الى المدونات الادارية اليومية (١٤) .

كل ما ذكرناه عن السجلات الملكية الابلائية ، هو حقيقي وسهل المعرفة سواء من حيث عددها ، أم من حيث مضمونها العام . ولكن تأريخ فتـرة تدوين هذه السجلات

ليست بالسهولة نفسها . وللوصول الى هذا الهدف هناك وسيلتان : اولاهما المخلفات الاثرية . وثانيتهما ، المخلفات الكتابية . بالنسبة للنهج الاول ، هناك الخزف الابلائي لمرديخ٢،٢ب١ IIB1 ، واختامه الاسطوانية ومخلفاته الفنية ، وكلها تمثـــل الذوق الشرقي في الفترة الاكادية ، مع احتفاظها بكثير من الميزات الخاصة (١٥) . بالنسبة الى السبيل الثاني ، وهو النصوص ، فلدينا في السجلات الابلائية دليل واحد اكيد حاليا، وهو معاصرة ملك ماري ايبلول لملك ابلا ايرانيوم(١٦) . اما الدليل الثاني لتأريخ هــذه النصوص ، فهو بقايا هديتين فرعونيتين كانتا قد ارسلتا للبلاط الابلائي ، اولاهما : قطعتان من بقايا كاس من الديوريت، تحمل كل منهما سطرا من الكتابة الهيروغليفية، حيث كتب اسمان من اعظم اسماء الفرعون الرابع من السلالة الرابعة ، منف،والثانية غطاء وعاءمرمري يحمل اللقب الاول للفرعون الثالثمن السلالةالسادسة بيبيالاول(١٧). ولما كنا نعرف بالتحديد زمن حكم هذين الفرعونين يمكننا بالتالي تحديد فترة وصول هذه الهدايا للقصر الابلائي .ولكننا هنا نقف امام مشكلة تاريخية مهمة ، وهي معرفة طبيعة العلاقات الابلائية المصرية ، حيث ان النصوص المصرية لم تذكر ابلا الا كمدينة عبرها الفرعون تحوتمس الثالث ، في طريقه نحو الفرات (القرن الخامس عشر قبـــل الميلاد) . اما نصوص ابلا فلم يعثر فيها حتى الان علىمايشير الى طبيعة علاقاتها مـــع مصر ، مع اننا امام دليل مادي على هذه العلاقة .

من المرجح ان يكون كأس الديوريت ، قد قدم هدية للبلاط الابلائي قبل وصول سلالة اكريش ــ خلم الى الحكم بعشرات السنين ، وحفظ في القصر كهدية ثمينة .اما الغطاء المرمري الذي يحمل اسم بيبي الاول ، فيرجح انه نقـــل الى ابـــلا عن طريـــق وسيط ، وليس بشكل مباشر ، وما يدعونا لهذا الافتراض ، هو ما ذكر في السجلات الملكية الابلائية ، عن تصدير كميات هائلة من البضائع لجبيل(١٨) ، لا يعقل ان تكـــون لاستهلاكها المحلي ، بل لتنقلها بدورها الى مصر ، وجبيل خبرت التعامل مع البـــلاط الفرعوني ، وكانت دوما صلة الوصل مابين مصر وسورية .

امام هذه المخلفات الفرعونية ، نقر بحقيقة مهمة ، وهي ان مملكة ابلا (سويـــة مرديخ٢ب١) ، لم تهدم قبل حكم بيبي الاول، انما اثناء او بعد حكمه . وباجراء مقارنة زمنية بين حكم هذا الفرعون وملوك اكاد ، نستطيع القول ، بان نهاية القصر الملكي ج ، كانت على يد نارام ــ سن الاكادي ، داعمين قولنا هذا بالنصين اللذين ذكرناهما فيبداية مقالنا هذا ، واللذين من خلالهما ومن خلال العديد من المعطيات التاريخية واللغويـــة الابلائية التي سنتطرق لها فيما بعد ، نستطيع تماما تصور نهاية ابلا بقصرها وسلالتها الحاكمة على يد نارام ــ سن نحو ٢٢٥٠ ق.م .

قبل دخولنا في مجال دراسة اللغة الابلائية ، نود الاشارة الى الخطوط العريضة للمناقشات التي تعرضت لها نصوصها ، ففي الواقع عندما اكتشفت السجلات الابلائية كان ذلك حدثا مذهلا ، اولا لوفرتها بشكل لم يكن يتصوره أي باحث في هذا المجال ، وثانيا لكونها مكتوبة بكتابة مسمارية ، لم يجد علماء اللغات السامية ، بشكل عـام ، صعوبة في قراءتها . وهنا اختلفت الاراء ، فمنهم من اعتبرها لهجـة من اللهجـات الاكادية ، كما كانت تعتبر لغة ماري سابقا ، واخرون أصروا على ابتعادها عن الاكادية، وتقاربها مع السامية الغربية ، أي الفنيقية والعبرية القديمة ، وآخرون ذهبوا لابعـد من ذلك ، فجعلوها اصل العربية وقاربوها عن لغة عرب الجنوب ، حتى من الاثيوبية ، هذا الى جانب آراء اخرى اصرت على اعتبارها لغة سامية مستقلة تقترب من الاكادية والعمورية . وبين هؤلاء كان المنطقي والخيالي . واستخدم الصهاينة هـذا الكشف استخداما رخيصا وصل بهم الى حد الادعاء بان ابراهيم عند عبوره (حسـب قصـة التوراة) من الرافدين لارض الميعاد ، مر بابلا واستقر بها لفترة ، وجعلوا من الابلائية عبرية قديمة ، ومن الملك ايبر يوم ابراهيم ، وما الى ذلك من ادعاءات بعيدة عن العلـم والحقيقة ، واخذت الصحافة العالمية الصهيونية تروج لهذا النبأ ، لدرجة انها اتهمت سورية باخفاء النصوص وانكار الحقيقة .

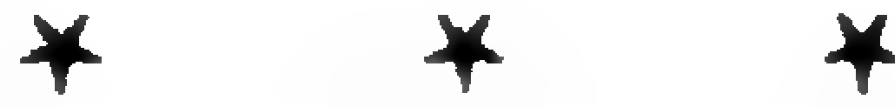
كل هذا اثير عند بداية الكشف الابلائي ، ولكن حاليا ، وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على هذا الاكتشـاف ، اخذت اراء عديدة تقر بالحقيقة وتتراجع عن اخطائهـا السابقة ، وكتب حول هذا الموضوع عديد من الخبراء ، وغدت الابلائية تدرس من قبل اهل الاختصاص بطرق علمية بحتة .

في الحقيقة ، اننا منذ بداية مقالنا هذا سمينا لغة إبلا الابلائية ، لانها لغة مستقلة وليست لهجة اكادية ، او لهجة لغة اخرى ، وهذا ماسنحاول التعرف عليه في السطور اللاحقـة .

ذكرنا سابقا ان السجلات الملكية الابلائية مكتوبة بالمسمارية المقطعية ، وهـي في مظهرها العام تشبه السومرية اكثرمن الاكادية ، اذ انها مكتوبة باعمدة ضيقة جدا ، وزوايا الرمز المسماري حادة وطويلة وغير مملوءة القمة ، وهي طريقة اتبعت في نصوص فارة وابو الصلابيخ السومرية ، هذا وان استعمالها للرموز السومرية يدل على انهـا لغة ذات مؤشرات صوتية اكثرها من سواها(١٩) . أماترتيب الرموز فيها فيتبع العناصر اللغوية(٢٠) ، وهذا ما اتبع في النصوص الاكادية القديمـة (ما قبل الفرعونيـــة) ، ونصوص فارة وابو الصلابيخ ، وكذلك نصوص لاغاش في عهد اياناتوم ، وفي اوما في عهد لوكال زاكيزي . ولعله من المفيد ان نذكر هنا انه غدا من المرجـح ان النصوص

المدرسية التي اكتشفت في ابو الصلابيخ وفارة ممهورة بالعديد من الاسماء السامية، ترد حاليا الى طلبة ابلائين ارسلوا ببعثات دراسية الى هاتين المدينتين ليعودوا أساتذة في بلادهم(٢١) ، فالعلاقات الثقافية في ذلك العهد البعيد كانت متطورة . اكثر من حدود تصورنـا .

عندما درس البرفسور بيغز هذه الاسماء ، واكد انها سامية وليس سومرية ، اعتبرت لغزا محيرا ، اذ انها كتبت في فترة لم تكن فيها اكاد قد نشأت بعد ، وهنا تجدر الاشارة لملاحظة هامة ،وهي انه غدا واضحا عن طريقة الكتابة الابلائية وعلاقاتها الطيبة مع السومريين ، ان إبلا اقدم نشأة وبناء من أكاد ، وهكذا كانت تستقي من معين سومر العريق والمتطور ، مع المحافظة على منابعها الخاصة ، مما جعل الحضارة الابلائية ، على كافة الاصعدة ، تسبق عصرها في كثير من الاحيان .



وماذا عن خصائص اللغة الابلائية ..(. بدىء بدراسة اللغة الابلائية منذ العثور عليها ، وأول من فعل ذلك هو البرفسور بيتناتو، الذي كان لغوي البعثة الايطالية(٢٢)، ثم درسها البرفسور الاميركي جلب(٢٣) ، وتلا ذلك تشكيل لجنة دولية مؤلفة من عشرة اعضاء . وسنحاول هنا التعرف على خصائص هذه اللغة .

الفعل : الافعال متوافرة بكثرة في اللغة الابلائية ، واليكم بعضا منها ، كما اوردها بيتناتو في ترجماته : جنفار دامو Jinḫar-Damu= داموا مصاب ، جيبخور ملك Jipḫur-malik= ملك قد حصد ،جيشمع ال Jisma-il= هو يسمع ، جيدين كاميش Jiddiň-Kamiš= كميش قد اعطى ، جيبسورني Jipṭurni= هو قد حررني أو حررنا .. الخ.

من الملاحظ ان الافعال السابقة ، قد بدات بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر الغائب ، وكانت جي Ji ، وانها جميعا على وزن جيكتل Jiqtul فهل هذا الوزن يدل على زمن الفعل ، او مظهر من مظاهره، اذا كانت الحالة الاولى فالفعل في الماضي ، فكيف يقاس المضارع او المستقبل منه واذا كان مظهرا من مظاهره فاين الفعل التام والفعل الناقص ..

يجمع بيتناتو وجلب على اعتبار جيكتل Jiqtul كزمن الفعل الماضي ، كما هو

الحال في كتب Ktub= كتب ، وعليه يجب ان يكون المضارع والمستقبل على زمن جيكتيـول Jiqqat/i/ul أي باضافة ياء المضارعة ، كما هو الحال في الاكادية، وعليـه وزن بيتناتـو الفعـل الماضـي على كتـل qatal وعـلى وزنهـا qatab = كتب ، وهذا ما يجعلها تتوافق مع اللغات السامية الغربية ، هذه النقطة لم تؤكد بعـد ومازالت قيد المناقشة .

مصدران فقط عرفا حتى الان في الابلائيـة هما اخـذوم âhazum = خطف او حجز(٢٤) ، ومخزيدا mahazida ضرب (٢٥) .

الاسم : في دراسة الاسماء يفضل دوما اللجوء الى الاسماء الشخصيـة ، حيث ان الدراسة اللغوية من خلال الاسماء ، تختلف عن تلك التي تتم من خلال النصوص ، وتعطي دوما نتائج اسلم .

لقد عرف الابلائيون نوعي الاسم : المذكـر والمؤنث ، واضافـوا للاسم المذكر لاحقة اوم (um) وللاسم المؤنث لاحقة توم (tum) ، كما في ملكوم malikum = ملك ، وملكتوم malikatum= ملكة ، وكما في تيهاماتوم Tihamatum = المحيط المنخفض (مذكر) وفي مبشتوم mupštum= حياة (مؤنث) .

الفاعل : للفاعل اضيف لاحقة يو (u) ، كما ورد في اسماء احد عشر تلميذا في اللوائح المدرسية(٢٦) . وأما اسماء الملوك فقد اضيف لها في اخرها أ (a) او ك (Q) كما هو الحال في الاكادية القديمة ، وكتبت اسماء الالهة على الشكل التالـي : داكان كنانيم Dagan Kama naim دجن الكنعاني ، وهنا كنانيم هـو اسم أرض كنعان ، تقاربها في العربية كنانة .

الضمائر الشخصية المنفصلة : انا (ana) وهـو ضمـير المتكلم المفرد ، كما في المثـال A'na malik= انا ملك ، يظهر هذا الضمير في اللغة العمورية بينما يندر استعماله في الاكادية ، وانا واني تستعمل كضمير متكلم في العديد من اللغـات السامية الشمالية كذلك(٢٧) .

أنت anta= انت : ضمير المخاطب المذكر المفرد ، تاتي بهذا الشكل في حالـة الفاعل ، وكواتي Kuwati في حالة المفعول به ، اما في حالة الجمع فهـي امانـو amanu= أنتم ، وفي الاكادية استعملت كذلك كواتي كمفعول به وشواتي ايضا Šuwati واستعملت شوا Šuwa= هو وشواتي ، كضمير المفرد الغائب، وللفاعل تستعمل شوا Su-wa وللمفعول به شواتي .

الضمائر الشخصية المتصلة : وهي على نوعين ، نوع يستعمل مع الاسماء ، واخر مع الافعال .مع الاسماء : هي النون والياء ، فالياء استعملت لاحقة الشخص المتكلم ، كما فيتوبي ديلو Tūbī-Dilu= ديلوهي إلهتي ، ومن الجدير بالذكر ان هذه اللاحقة مشتركة في جميع اللغات السامية . نا أو ني ، هي لاحقة الجمع المتكلم كما في المثال ريما حادا Rima-Hadda= حادا كاهننا ، عبدني E' bduni = عبدنا(٢٨) .

شو Šu : لاحقة المذكر المفرد الغائب ، وتكتب سود او شو SuD او Šu هذه اللاحقة لوحظت ايضا في نصوص ماري ماقبل الصرغونية ، والاكادية وليسفي العمورية والاوغاريتية والعبرية(٢٩) .

مع الافعال : الضمير المتصل بالافعال هو ني (ni) سواء في حالة المفرد امالجمع، مثال جبيني ليم Jibbi'ni - lim= ليم دعاني او دعانا ، جيبسورني Jipṭurni= هو اعتقني او اعتقنا ، هذا الاستخدام وارد كذلك في العربية والعبرية ني – نا .

اداة الاشارة : في الابلائية اميجيوم ammijum (٣٠) = هذا وهذه ،هذه الاداة تاخر ظهورها في اللغات السامية الاخرى ، حتى الالف الثاني قبل الميلاد ، فهي في الاشورية مثلا انجيوم annijum ومعناها هذه .

اداة النسبة : هي شي ši (٣١) ، يماثلها شا – شو – شي ša - šu - ši في الاكادية القديمة والعمورية ، أما في لغة ماري في عهد سلالة اور الثالثة ، فهي سا – سي – شو sa - si - šu (٣٢) ، وفي استعمالاتها لا يوجد فرق واضح معالجنس او العدد .

اداة الاستفهام : هي مي (mi) = من او ما ،كما في المثال مي – كا – ال mn-ga-'il= من يحب إل ، ان ما الاستفهامية في الابلائية ، تماثل ما الاوغاريتية والعبرية القديمة والمارية (ما قبل الصرغونية) ، ولكنها تختلف عنها في الاكادية والعمورية فتكون من man = من العربية .

اداة التذكير : هي مينانا ما mi nana ma= اي شيء ، وهي ترد هكذا في النصوص الابلائية (٣٣)

اداة العطف : استعمل في الابلائية حرف الواو (W) للعطف ، وقد يستخدم بمعنى لام العطف ، كما في المثال وياتا W/yta= ليعطي ، وتستخدم بنفس المعنى وا (wa) .

اداة التشبيه : هي كا (Ka) ، ولها نفس الاستعمال في العربية مثال : ميكائيل Mika-'il من مثله .

ادوات الجر : إن (In) = في وداخـل ، وهي مستعملة كذلـك في الاكاديـة الكلاسيكية والبابلية ، ونصوص ماري (ما قبل الصرغونية) وكذلك في نصوص ماري التي تعود لفترة اور الثالثة ، اما في الاشورية القديمة فقد استعملت قبل الاسم الذي يبدأ بحرف ساكن ، واستعملت انا i-na قبل الاسم الذي يبدأ بحرف صوتي .

انـا i-na من أو الى ، كما في المثال انا بلي سـو i-na-be-li-su= الى سيده ، وانا نستطيع قراءتها كذلك في التعويذات التي وجدت في ماري ، والعائدة للفتـرة ما قبـل الصرغونية(٣٤) ، وكذلك عرفـت في نصوص فارة . ومن الجديـر بالذكر ان أنـا i-na هي ليست انا a-na= أنَ المعروفة في اللغات السامية الاخرى.

اش iš= الى ـ لأن ، هي معروفة في اللغة الاكادية ، ولكنها كانت تستعمل في نهاية الكلمة ، وقد استعملت في الفترة الصرغونية مع الاشياء الصغيرة مثال كاتيشـ qâtiš= الى اليد ، او مع الحال ، كما في أرخيش arḫiš= سريـع ، امـا استعمالها كأداة جر قبل الكلمة ، فهذا ما تفردت بـه اللغة الابلائيـة عن أية لغـة سامية(٣٥) .

اش ـ دا āš-da= مع او مـن حيث ، وعرفت هـذه الاداة في الاكاديـة الصرغونية ، وكذلك اشتـو ištu مع ، واشتوم ištum= بعد ، اما كما وردت في الابلائية ، فلم تعرف الا في ندرة من النصوص الادبية البابلية واللغـات الساميـة الاخرى، دقيقة من جهة ، وغير دقيقة من جهة اخرى ، فما ذكرناه من المقارنات بـين الابلائية والسومرية والاكادية ، ولغة ماري ما قبل الصرغونية دقيق ومنطقي ، وذلك لتعايش هذه اللغات وتعاصرها ، ولاحقا سنجري مقارنة اوسع مابين لغتي ابلا وماري، وأما المقارنة ما بين الابلائية والاوغاريتية والعمورية والعبرية ، وهي لغات بعيدة عنها في الزمن ، فهو أبعد عن الدقة .

فماذا عن اللغة الابلائية ولغة ماري القديمة (ما قبل الصرغونية) ؟ كنا قد ذكرنا سابقا ، بان ماري قد خضعت للحكم الابلائي في فترة من فترات تاريخهـا القديـم ، وخضعت من جهة اخرى مرارا للسيطرة الرافدية ، واعتبرت لغتها ، حتى الكشوف الابلائية ،لهجة اكادية لها العديد من الميزات ، اذ كانت ابلا في ذلك الوقـت مجهولـة تماما ، ولكن في نصوص ماري التي درست نلاحظ قسمين : أحدهما الحديث ، اي

الذي دونت به السجلات الملكية (٣٦) ، والذي يعود للفترة العمورية وعهد سلالة ليم ، وهم القسم الذي اعتبر لهجة اكادية ـ بابلية .اما القسم الثاني ، فهـو النصـوص القديمة التي تعود للفترة الاكادية والسومرية والتي كانت عبارة عن بعض النصـوص الاقتصادية(٣٧) ، والتعويذات ، وبعض نصوص هبات مقدمة لمعبد الالهـة عشتار .

هذه النصوص ليست بلهجة اكادية او بابلية ، وانما نصوص تمت للابلائية بصلات هامة كما سنلاحظ بعد مقارنتهما ، فقد استعملت اداة الجراش îs من او الى، التي تفردت بها الابلائية كما لاحظنا ، كما استعمل ضمير المفرد المذكر الغائب سـود او شـو SUD-ns ، في النصوص المارية العائدة لعهد الملك ايبلول (٣٨) ، كما تعرف في الابلائية والاكادية القديمة ، وفي لغة ماري القديمة . استخدمت بعض المقاطـع كافعال ، كما في المقطع سك ريك Sag-Rig7 هو اعطى تعويذة ، وفي إي ـجوب i-Gub= هو ينهض(٣٩) ، وهذا ماعرف في التقاليد الكيشيةفيالكتابة،وفي ابلا كذلك. ميزة اخرى مشتركة بين ابلا وماري ، استعمال بعض المقاطع السومريـة النـادرة الاستعمال مثال دول تمثال ، واب+اش AB+AS شاهد ..الخ.

اذا أردنا اعتبار لغة ماري القديمة اكادية ، فلماذا كتب اسم ابن الملك ايبلـول ممخارسو ومعناها (من الذي يناوؤه) على الشكل التالي Mim-mā-ḫir-sū ولم يكتب كمـا كان يجب ان يكون بالاكاديـة : مينما خرسـو Min-ma-ḫirsū لقد استعملت الميم محل النون (٤٠) .

وانها لكثيرة ملامح التشابه بين لغتي ماري (ما قبل الصرغونيـة) والابلائيـة، فلدينا مثلا نظام السنين السبعي أو الثماني ، وكذلك تسميات الالهة ، وتسميات شهور السنة وترتيبها ، وكلها تشابهت في البلدين وتشابهت مـع التسميات السومريـة في نصوص أبو الصلابيخ ، وعليه فمن المفيد هنا الاشارة الى ان الفكرة القائلة بان نصوص ماري (ما قبل الصرغونية) سومرية ، تبددت الان ، فعديدة هي نقاط التباعد وان كان لابد للحضارات أن يكتسب بعضها من بعض .

ونلخص ما سبق فنشير الى عدة نقاط مهمة ، اولا : لا يمكن اعتبار الابلائية لهجة اكادية ، وذلك لان هذه الاعداد الضخمة من النصوص كتبت في وقـت لم تكن فيـه الاكادية لغة الشرق القديم ، كا تميزت الابلائية عن الاكادية بكثير من نواحيها في كثير من النواحي.

ثانيا : لا يمكن اعتبار الابلائية عمورية ، حيث تنفصل بنفسها ، مثالا على ذلـك

عبارة (من يشبهه) في الابلائية هي مي كا ال Mika -'il ، وفي العموريــــة هي مينوكي ال Mannu-Ki-'il

ثالثا : الابلائية لا يمكن اعتبارها كنعانية ، خلافا لما حاول بيتناتو ادعاءه ، ونحـن لن نوغل في هذه الادعاءات ، التي غدت في عداد المرفوضات ، ورد عليها فكرة فكـرة اللغوي الايطالي أركي(٤١) ، والكثير من علماء الاشوريات . فاللغة الابلائية تتباين تماما في نظام حروفها الصوتية عن الكنعانية ، فكلمة عبد في الابلائية والاكادية تأخذ حرفين (الالف والعين) أي تكتب ابدو àbdu وعبـــدو ébdu ، بينمــا تحافـظ عـلى لفظة واحدة في الكنعانية فهي عبد ebed فالحرفان أـ ع يتميزان تماما في الكنعانية

كالعبرية مثلا ، اما في الاكادية والابلائية فلا يتمايزان ، وبهذا لا يكن مطلقـــا اعتبار الابلائية هي الكنعانية القديمة(٤٢) .

اخيرا نقول ، ان دراسة لغة قديمة كالابلائية ووضع قواعد ثابتة محددة لها لم يزل بعيد المنال ، ويحتاج من علماء الساميات لكثير من الجهد ، وخاصة في عمليـة تحديد قواعدها وتفريقها عن الاكادية ، واما ايجاد مكان ترتيبها بين اللغات السامية الشرقية ، فهو امر ما زال موضع نقاش ، وباختصار ، نستطيع القول بان الابلائيـة يجب أن تضاف لعائلة اللغاء السامية كواحدة منها ، قريبة من الاكادية والعمورية ، تفرعت عنها لغة ماري في احد الايام ، وككل معطيات الحضارة الابلائية هذا الموضوع لايزال بحاجة للكثير من الوقت .

الحواشـي :

(1) Parrot, A., **Mari Capitale Fabuleuse, 1974.**

(2) Finet,A., « Les Temples Sumériens du Tell Kannâs, » **Syria,** L II, 1975, pp. 157 - 174 .

(3) Kupper, JP . et Sollberger, E., **Inscriptions Royales Sumériennes** et **Akkadiennes,** 1971, pp. 79 - 114.

في هذا المؤلف راجع النص : IV 17.35.

(4) المرجع نفسه ، النص : I1 - II , 28 .

(5) Freedman, DN., « The Nuzi Ebla »,BIbR. XL/1, 1977, pp.32-33.

(6) Mattiae, P., « Ebla à l'Epoque d'Akkad, » **CRAIB,** 1976, pp. 190-215.

(7) Mattiae, P., «Tell Mardikh, The Archives and Palace,» **J.Archaeology,** XXX/4, 1977, pp. 244-253.

(8) Pettinato, G ., « L' Atlante Géografica del Vicine Oriente antica attestato ad Ebla e ad Abu Salabikh , » **Orientalia,** 47 / 1, 1978, pp. 50 - 73 .

(9) Biggs, RD ., « The Abû Sâlâbakh tablets - Apreliminary survey », **Cuneiform studies,** XX/2,1966, pp. 73-88.

(10) انظر المرجع رقم ٨

(11) Pettinato, G., « Relations entre les Royaumes d'Ebla et de Mari au troisième millénaire d'aprée les archives royales de Tell - Mardikh - Ebla ,» **Akkadica** II, 1977, pp. 20-29.

(12) انظر المرجع رقم ٨

(13) Archi, A., « Diffusione del culto DI' NI - DA-KUL, » **SEB** I/7-8, 1979, pp. 105 - 113 .

(14) Archi, A., « An administrative practice and the Sabbatical year at Ebla », **SEB** 1/5-6, 1979 pp. 91-95,

(15) Mattiae, P., « Preliminary remarks on the royal palace of Ebla », **Syro - mesopotamian Studies,** 1978/II.

(16) انظر : المرجع ١١ ، الوثيقة رقم (TM 75. G. 2367)

(17) Mattiae, P. , « Tell Mardikh : Ancient Ebla, » **AJA** , 1982 / 2 , pp. 540 - 543 .

(18) Archi, A. , « Notes on eblaite geography , » **SEB,** 1980/ I, pp. 1-10.

(19) Fronzaroli, P., « Problemi di fonetica eblaïta , I » **SEB** I/5-6, 1979, pp. 65 - 89 .

(20) Pettinato, G.,« Testi Cuneiformi del 3e millenario in paleocananeo rinvenuti nella campagna 1974, Tell Mardihk - Ebla , » **Orientalia,** XLIV, 1975, pp. 361 - 374.

في هذا المقال راجع صفحة ٣٣٦

(21) Biggs, R.D., « Semitic Names in the Fara period » **Orientalia,** 36, 1967, pp. 55-56 .

(22) Op. Cit., 20 .

(23) Geld , i.J., « Thought about Ebla , » **Syro - Mesopotamian studies ,** 1978 / I .

(24) انظر : المرجع ١٩ ، ص ٣٧٢

(25) Pettinato, G., « The Royal archives of the Tell Mardikh - Ebla, » **Bar,** 39/2, 1976 , pp. 44-53 . راجع في هذا المقال ص ٥٠

(26) الامثلة التي نوردها مستمدة من ترجمات بتيناتو في المرجعين ١٩و٢٥

(27) راجع المقال في المرجع ٢٣

(28) Archi, A., « Ancora su Ebla e la Biblia » , **SEB** II/2-3, 1980 , pp.17-39.

(29) المرجع ٢٣ ، ص ١٩-٢٠

(30) المرجع ٢٠ ، ص ٢٧٠

(31) المرجع ٢٠ ، ص ٢٧٢

(32) Linet, A., « Observations aur la grammaire des anciennes tablettes de Mari , » **Syria, L II,** 1975, pp. 37-52 .

(33) انظر : المرجع ٢٥ ص ٥٠

(34) Dossin, G., « Les Inscriptions des temples de Ninni - Zaza et de (G) Istarat, » **MAM** / III, 1967 pp. 307 - 331.

(35) انظر المرجع ٢٣ ص ٢٣

(36) وثائق ماري الملكية منشورة في عدة مجلدات ، نشرتها البعثة الاثرية الفرنسية التي عملت بموقع ماري برئاسة البرفيسور اندرية بارو (A.Parrot) تحت اسم (Archives Royales de Mari)

كما درست هذه الوثائق ايضا في جولية (Syria) الفرنسية .

(37) Jestin, R., « Textes économiques de Mari, (IIIe dynestie d'Ur) »,**R.A.,** XL VI, 1952, pp. 185 - 202.

(38) Sollberger, E., « Lost inscriptions from Mari » XVe, **RAI,** 1967 , pp. 103 - 107.

(39) انظر : المرجع ٤ ٣

(40) انظر : المرجع ٢٣ ص ١١

(41) انظر : المرجع ٢٨

(42 انظر : المرجع ٢٣ ص ٢٦

مـاردو (الأموريون) في نصوص إيبلا

بقلم الفونسو اركي
استاذ المسماريات في جامعة رومـا وعضو
الهيئـة الدولية لدراسـة نصوص ايبـلا
عربها من الانكليزية
قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف

ان اقدم دليل وثائقي على كلمة مارتو (أي امورو) موجود في رقيم مسماري ظهر في موقع فارة بالعراق ، حيث يرتبط مع شخص سومري اسمه (اه ـ سو ـ (بو) أج) يقبض راتبا من مزارع اسمه (إنجار) . ويرد ذكر الاسم مارتو اسما لشعب في وثائق السلالة الاكادية ، ويرقى تاريخ بعض تلك الوثائق الى عهد الملـك الاكادي شار ـ كالي ـ شارى ، ويرقى تاريخ البعض الاخر ـ على ما نظن ـ الى عهد سلفه الملك نارام ـ سن . وها هو ارشيف ايبلا يزودنا بحوالي ثلاثين شاهدا على هذا الاسم، وجميعها ترقى الى عهد اقدم بقليل من عهد السلالة الاكادية .

اسفر الجدل العلمي عن تحديد (الجبال التي انهزم فيها الاموريون ـ ما رتو ـ أم ـ على يد الملك شار ـ كالي ـ شاري) في جبـل البشري الذي يمتد بـين تدمر والشمال الشرقي من نهر الفرات . ولقد اتاح هذا التحديد التعرف على مناطق ، أو على الاقل على منطقة من مناطق استقرار الاموريين في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميـلاد .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة اوينتاليا الصادرة عن المعهد البابوي للدراسات الشرقية في روما(العدد ٥٤ لعام ١٩٨٥) .

نستبين من ثنايا نصوص ايبلا ان الاموريين عاشوا في تلك المنطقة منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، فالرقيم المسماري /ت.م /٧٥/ج/١٣١٧/ ، الحقل التاسع السطر الثالث يمكن ترجمته كالتالي : « اقمشة من اجل فلان في ايمار (مسكنة على الفرات) نذرا منه بعدما هلك الاموريون (او لان الاموريين قد هلكوا) ، وخروفا من ماشية فلان نفسه ضحية منه للنصر الذي تحقق . اقمشة من أجل فلان في ايمار عندما هلك الاموريون .

وفي جميع الاحوال يبدو واضحا ان كلمة نصر (بالسومرية : جين ــ شه)تتعلق بالانتصار على الاموريين (مارتو ــ تيل) . لذلك فانه اذا لم يكن اهالي ايمار (مسكنة/ بالس على الفرات) مسؤولين عن هزيمة الاموريين فلابد انهم كانوا مشاركين في تلك الحادثة ، لاسيما وانه قد تبين ان إيمار موجودة في موقع مسكنة / بالس على الفرات، وبالتحديد الى الشمال الشرقي من جبل البشري . يضاف الى ذلك ان الرقيم /ت.م /٧٦/ج/٥٣٣/ يصف احد سكان مدينة توتول (لعله تل البيعة المجاور لمدينة الرقة الحالية) ، بانه من مواطني « مارتو » . يرد لفظ هذا المكان في نصوص ايبلا في صور مختلفة ، فهو تارة « مارتو » وتارة اخرى « ماردو » ، وبما ان ايبلا استخدمت الاسم الدارج في بلاد مابين النهرين فانه من المؤكد ان الاسم ذو اصل سومري ويعني بالدرجة الاولى « جهة الغرب » وبالدرجة الثانية « الناس القاطنين في الشمال الغربي » . وبناء على ذلك فان الاسم يطلق على منطقة وليس على مدينة ، أي ان هناك منطقة مارتو وليس هناك مدينة باسم مارتو . يضاف الى ذلك انه من النادر ان يرد ذكر اسم مدينة بهذه التسمية على طول الفرات أو الخابور ، وهذا يعني ان مارتو كانت على حدود الطرق التجارية التي سلكها الرسل القادمون من ايبلا . وعلى هذا فانه يأكد لنابطريقة غير مباشرة صحة المأثورات السومرية التي وصفت الاموري بانه « انسان ثقيل الظل يعيش في الجبال » أو « انسان لايعرف حياة المدن » او « الانسان الذي يأكل اللحم نيئا » .

غير ان هذه الصفات تتعارض مع حقيقة ان نصوص ايبلا، خلافا لنصوص السلالة الثالثة في اور بجنوبي الرافدين ، اضافت صفة « الملك » الى الاموريين ، وذلك بكلتي الصيغتين ، أي لفظة « إن » السومرية التي استخدمها ملوك ايبلا لانفسهم ولنعت حكام المدن السورية ، ولفظه « لوجال » التي استخدمها الديوان الايبلائي في نعت حكام بلاد ما بين النهرين بوجه عام .

ويبدو ان اهالي ايبلا استخدموا الكلمة التي درجوا على نعت ملوك الامم الاخرى بها ، على الرغم من احتمال علمهم بالكلمة التي كانت على علاقة مع ايبلا فان للاموريين مجلس لكبار السن (اب × اش) الى جانب الملك .

تذكر النصوص ارسال ثلاثة انواع من الاقمشة الى ملك الاموريين (ماردو) وهي : عباءة (اذا ـ أوم ـ توج) وجلباب (أكتوم ـ توج) ، وحزام (اب + I/III دار ـتوج) .

وكانت ايبلا ترسل الانواع الثلاثة الى كبار السن في بلاد الاموريين ايضا ، وذلك بمعدل ١٢ قطعة من كل نوع كما يرد في النص الاول المنشور في المجلد الاول من ارشيف ايبلا ، و ١١ قطعة من كل نوع كما يرد في النص / ت‌م/٧٥/ ج / ٢٢٧٩ ، و ١١ قطعة عن كل نوع كما يرد في النص /ت.م/٧٦/ج/٥٣١/ ؛ و٩ قطع من كل نوع كما يرد في النص /ت.م /٧٥/ ج ١٢٥٢ / .

بيد اننا لا نستطيع ان نستخلص من ذلك عدد كبار السن في مجلس الملك الاموري، لكننا نعرف ان عدد الالبسة المرسلة الى كبار السن في مدن مثل ايمار (مسكنة على الفرات) وحران وكاكميوم تتراوح بين ثلاث وخمس قطع من كل نوع من الانـــواع المذكورة اعلاه (انظر المجلد الاول من الارشيف الملكي في ايبلا ، تحت اسم : اب×اش).

واخيرا هناك مرتبة ثالثة في هرم البناء الاجتماعي الاموري بعد الملك ومجلـــس كبار السن وهي رتبة « اوغولا » اي الناظر ، وقد بلغ عددهم لدى الاموريين ستة ، وذلك كما وردت في النص ت.م /١٧٥/ ج / ١٨٩٥.

سبق ان نوهنا بالهزيمة التي الحقتها ايبلا بالاموريين . لكن ايبلا عقدت معاهدة مع الاموريين أيضا ، ويتبدى ذلك في النص/ت.م/٧٥/ج/١٧٥٥/ ، حيث يجلب ستة من الناظرين الاموريين تقدمة من الزيت وفاء للقسم الذي أدوه ، والنص المذكور هو: « اقمشة من اجل فلان وذلك من الناظرين في مارتو الذين ذهبوا لتقديم الزيت وتأدية اليمين في معبد كورا » . وتجدر الاشارة الى ان العلاقات السلمية بين ايبــلا وماري (تل الحريري على الفرات) قد توثقت بحفل ديني مماثل . فالربة كورا كانت ربــة القسم في ايبلا وربما في جميع المدن السورية الاخرى ...

يضاف الى ذلك كله ان بلاد مارتو (الاموريين) كانت من بين البلدان التي تشترك في عبادة الاله نيكادول الذي كان من الارباب الرئيسيين في ايبلا ، وذلك بناء على الرقيم المسماري /ت.م/٧٥/ج/٢٣٧٧/ .

ان معظم النصوص المتعلقة بتوريد الاقمشة في الارشيف الملكي في ايبلا لاتذكر اسم الجهة المرسل اليها ، لكن الرقيم المســـــماري /ت.م/٧٥/ج/٢٢٣٩/ ، والرقيـــم

/ت.م/ ٧٥/ج/١/٢٤٠١/ ، والرقيم المنشور تحت رقم /١٥/في المجلد الاول من الارشيف الملكي في ايبلا يمكن ترجمة محتوياتها كالتالي : اقمشة من اجل فلان (او عدة اشخاص) من بلاد الاموريين (مارتو) .

فيما يتعلق بانواع البضائع الاخرى فانه ليس من المؤكد اذا كانت كمية الفضة البالغة ٣٨٠ر٢ كغ والمسجلة في الرقيم المسماري/ت.م/٧٥/١٢٣٨/ مرسلة من الاموريين الى ايبلا ، او ان ايبلا ارسلتها الى الاموريين .غير ان الرقيم المسماري/ت.م/٧٥/ج/ ٢٤٩٠٠/ يذكر توريد بعض الاقمشة الى المدعو يسمع ـ دامو (يسمع تموز؟)، الذي ارسل بعض النبيذ الى ملك ايبلا ابي ـ زكير وتم استلامها في بلاد الاموريين (مارتو). ونستفيد من محتويات الرقيم / ت.م /٧٥/ ج / ١٠٠٧٩ / والرقيم / ت.م /٧٥/ ج /١٠٢٥١/ والرقيم / ت.م /٧٥/ج/١٦٣٨٠/ ، ان الاموريين كانوا يرسلون الغنم الى ايبلا ، اما الرقيم المنشور تحت رقم /١٥/ في المجلد الرابع من الارشيف الملكي في ايبلا فانه يتحدث عن وصول كمية معينة من الصوف من بلاد الاموريين.

يتالف الرقيم المسماري /ت.م/٧٥/ج/٣٠٩/ من قائمة باسماء مستخدمين منهم ٢٠٠ فردا من بلاد الاموريين و ١٠ من حران و ٨٦ من مدينة عيبال ، لكن لاتوجد اشارة الى نوع العمل المطلوب منهم انجازه . اما الرقيم المسماري /ت.م /٧٥/ج/٥٤٠٠/ فانه يسجل اسمين اخرين من بلاد الاموريين على اساس انهما كانا لاجئين او هاربين (زاغ).

ثمة خمسة عشرة اسما امموريا ومن بينهم شخص يدعى (اموتي) ومشفوع بلقب ملك (لوغال) . وهذا الاسم لا يظهر مرة واحدة في وثائق ايبلا فهو يرد اسما لمستخدم لدى احد موظفي بلاط ايبلا ، واسما لاحد ملوك مدينة ارادو.. كما في الرقيم المسماري /ت.م/٧٥/ج/١٣٧٣/ ، ويرد في صيغة التصغير اسما لعدد من مدينة ابسو قرب قادش ومدينة جرمو ، واسما لاحد الموظفين (لوكار) في ماري.

ثمة شخصان اموريان في النصوص المسمارية العائدة لسلالة اور الثالثة ببلاد ما بين النهرين يحملان اسم « ياموتوم » و « ابي ـ اموتوم » ، وثمة اتفاق على ان هذا الاسم مشتق من فعل «مات»، وقد راج هذا الاسم بين الاموريين خلال العهد البابلي القديم مثل يموت ليم ، ويموت ـ بعل .

بناء على ذلك فان الاسم الايبلائي «اموتي» يمكن ترجمته «يموتو» لان الالف في لغة ايبلا يمكن قراءته (يـا) ايضا (انظر بحث الاستاذ بيليو فرانزارولي بعنوان مواد من اجل معجم ايبلائي ـ قيد الطبع).

وثيقة مقدسية تاريخية جديدة

د. كامل جميل العسلي
الجامعة الاردنية

كتاب الوقف الذي انشاه الملك الظاهر بيبرس بن عبد الله البندراقي الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ على مقام النبي موسى عليه السلام

تقديم :

للملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦) سلطان مصر المملوكي الكبير ، فضلا عن بطولاته الحربية الباهرة ، أعمال عمرانية جليلة وحسنات عميمة في طول البلاد الشامية وعرضها . وهو قد أحب بيت المقدس وزارها ثلاث مرات سنة ٦٦١ هـ و سنة ٦٦٤هـ وسنة ٦٦٨هـ ، وجدد بناء ما كان تهدم من قبة الصخرة ، وجدد قبة السلسلة وزخرفها ، ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم ، وأنشأ بجوار القدس خانا كبيرا للمسافرين . وكان من مآثره أيضا أنه بني قبة ومسجدا على قبر النبي موسى عليه السلام قبلي اريحا ووقف عليه وقفا سنة ٦٦٨. وقد صار مقام النبيموسى من بعد مقصدا لالاف الزوار الذين كانو يؤمونه في « موسم النبي موسى » الشهير في فصل الربيع من كل عام (آذار أو نيسان) . وقد كنت ابحث عن وقفية الظاهر بيبرسعلى مقام النبي موسى منذ بعض الوقت الى ان وجدتها في صدفة من محاسن الصدف في الكتاب المخطوط ، الذي لم يتم على ما يبدو ، « اعلام الاسلام في مواطن الانبياءفلسطين » للعلامة المرحوم عبد الله مخلص (ص ١٣١ ومابعدها) وهأنذا أبادر الى نشر هذه الوثيقة المقدسية الجديدة التي تتحدث عن مأثرة من مآثر السلطان العظيم ، وصفحة من صفحات المجد الغابر . وهذا هو نص الوقفية (التي ذيلناها بحواش وتعليقات) :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس لك من دنياك الا ما أكلت فافنيت او لبست فأبليت أو تصدقت فابقيت »(١) . وقال صلى الله عليه وسلم « أذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم ينتفع به وولد صالح يدعو له وصدقة جارية على يديه »(٢) . ولما كان أحسن الصدقات وأبر المبرات ما لا ينقطع أمده ولا ينتهي مدده ، وهي الصدقة الجارية الباقية بقاء هذه الدار الفانية لا تكون مشروطة بالحياة ولا مقطوعة بالممات وذلك الوقت الذي تدوم فوايده وتبقى عوايده فيحيى ذكر واقفه عند صرف ريعه الى مصارفه ويكون له عمراً ثانيا . ولقد شرف الله سبحانه وتعالى ، تواتر على البرايا بره وتوالى ، بشرف سلوك هذه الطريقة صاحب هذه المجلة الشرعية والوثيقة المرعية المرضية اليقينية مولانا السلطان الملك الظاهر العادل المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين منقذ الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين فاتح الامصار مبيد الافرنج والتتار مقتلع القلاع من أيدي الكفار وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ملك الزمان صاحب القرآن مسترد ضوال(٣) الاسلام من أيدي الطغيان ملك البحرين مالك القبلتين خادم الحرمين الشريفين الآمر ببيعة الخليفة(١٣) قسيم امير المؤمنين خلد الله سلطانه وذلك بعد عودة ركابه العزيز من الحج المبرور وتوجهه لزيارة القدس الشريف تقبل الله عنه في منابه(٤) فأنشأ أنواعا من بقاع الخيرات السنية وابنية الحسنات البنية فمن جملة ذلك المقام الكريم الذي انشاه على ضريح موسى الكليم على نبينا وعليه افضل الصلاة والتسليم . ووقف حضرة الواقف العالي الشان السامي المكان أفاض الله تعالي عليه في جميع الازمان سجال البر والاحسان لمصالح هذا المقام الكريم المبارك عدة من اصناف الاوقاف بنية وافية وعزم كاف فمنها الاراضي والاملاك الجارية في ملكه وتحت تصرفه والتي ابتاعها من ماله الخاص ، وهي جميع القرية المسماة بترمسعيا(٥) وجميع القرية المسماة بالمزرعة(٦). وجميع القرية المسماة بخربة ابي فلاح(٧) وجميع ارض قرية سور باهر(٨) وكلها من اعمال القدس الشريف ومنها جميع الطاحونة الواقعة على المياه المعروفة بواد القلط(٩) وجميع مياه وأراضي هذا الوادي وجميع مياه واراضي الفوار(١٠) وقرية اريحا بكاملها ، ومنها جميع أراضي الغور الواقعة بين دير السيق(١١) غربا الى زعترة (١٢) والبحيرة المنتنة(١٢) شرقا من أعمال القدس الشريف ايضا ارضها وترابها وحجرها وماءها وشجرها بجملة مالها من الحدود والمرافق والتوابع واللواحق والطرق والمسالك وساير ما لا بد منه لذلك ذكر او لم يذكر سطر أم لم يسطر وقفا صحيحا شرعيا حبسا صريحا مرعيا وسبيلا محكما مبرما مرضيا . ولقد تحقق ذلك وصح وتبين شانه واتضح حيث أقر واعترف مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بانه وقف وسبل كافة ماذكر مجمعا او مفصلا

مما اعد للاستغلال من القرى والموقوفات بجميع حقوقها ومراسمها وحدودها ممايدخل الوقف بمقتضى الشرع المطهر .. أما البقاع المباركة المرقومة فقد وقفها وعينها ليتصرف عليها(١٣) في اطعام الطعام لزوار مقام النبي موسى الكليم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والتسليم ابان موسم الزيارة من كل عام وفي الانفاق على التربدارية(١٤) الموجودين في مقام هذا النبي الكريم . ولا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف . وقد نصب متوليا لاقامة مصالح كافة الموقوفات ورعاية مهمات هذه المسبلات من البناء والتعمير والاستغلال والقبض والبسط والحفظ والضبط وأمور التسجيل عين العلماء والمدرسين الكرام بدر سما المعالي الفخام صدر اساطين الموالي العظام قدوة الصلحا الشيخ الشريف عبد الله بن يونس(١٥) وقد رام مولانا الملك الظاهر بيبرس سيد ملوك الأرض على الاجماع المخصوص بملك اشرف البقاع ان يرجع عن وقفه هذا(١٦) ويرد الموقوفات الى ملكه القديم فعارضه المتولي المرقوم وتحاكما الى المولى الفاضل فخر الاسلام وشمس الائمة مظهر كلمة الله العليا الحاكم الموقع على الكتاب بتوقيعه الشريف المستطاب لازال عقد المسائل محلولة باسنان اقلامه فنظر في محل النزاع وشاهد في جانب المتولي رجحانا قويا وعاين في يده برهانا جليا وحكم بصحة هذه الاوقاف ولزومها على الشرايط المسطورة على رأي من يراه من الايمة رضوان الله عليهم حكما صحيحا شرعيا ووقفا صريحا مرعيا فصار وقفا لازما مسجلا لا يجوز بعد ذلك تغييره وتبديله « فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم »(١٧) واجر الواقف على الله جرى ذلك وحرر في اواسط رجب سنة ثمان وستين وستاية .

شهود الحال

جمال الدين بن آقوش النجمي(١٨) — محمد بن عبد الله

عبد مولانا الملك وولي السلطان — ولي مولانا السلطان

(وقد كتب باعلا كتاب الوقف هذا وعلى الجانب اليسار منه : صدر من العبد الفقير اليه سبحانه وتعالى الخوجه جمال الدين بن ربيع(١٩) المولى خلافة بمدينة القدس عفي عنه) .

حواش وتعليقات :

(١) صحيح مسلم ، زهد ٢ .
النسائي ، وصايا ١ .

(٢) مسلم ، وصية ١٤ .
ابو داود ، وصايا ١٤.
الترمذي ، احكام ٢٦ .

(٣) ضوال ، جمع ضالة (مؤنث ضال) ، وهي الشيء المفقود الذي تسعى وراءه .

(٣) بيبرس هو الذي اقر خلفاء بني العباس بمصر ، بعد انقراض دولتهم ببغداد .

(٤) مناب : اناب الى الله : رجع اليه واقبل وتاب ، والمناب هنا : الرجوع الى الله والاقبال عليه.

(٥) ترمسعيا : قرية شمال شرق رام الله على بعد ٢٣ كم منها وتقع قرب قرية سنجل . يذكر اهلهـــا انهم حجازيون من بني مرة . تملك ترمسعيا ١٧٦١١ دونما ، والمشهور ان اراضي القرية موقوفـة على مقام النبي موسى . وهذا ما تؤكده الوقفية . (الدباغ : بلادنا فلسطين ج٨ ، ق٢ ، ص ٢٨٣ /٢٨٤) .

(٦) المزرعة : المقصود ما يعرف اليوم بالمزرعة الشرقية شمال شرق رام الله ايضا على بعد ٣ كم مـن طريق القدس نابلس عندالكيلو٣٣ . اقرب قرية لها سلواد ، من قرى بني مرة ايضا (الدباغ ، المصدر السابق ، ص٢٩٦) .

(٧) خربة ابي فلاح : شمال شرق رام الله . كفر مالك اقرب قرية لها ، صغيرة ، مساحتهاالان ١٩ دونما وتملك ٨١٨٦ دونما ،تحيط باراضيهااراضي ترمسعيا والمزرعة الشرقية ، والقرى الثـلاث متجاورة . (الدباغ ، المصدر السابق ص ٢٩٩) .

(٨) سور باهر : (صور باهر اليوم) : قرية تقع جنوب القدس قرب قرية بيت صفافا، يحيطباراضيها اراضي عرب السواحرة وعرب العبيدية وسلوان وبيت لحم وبيت صفافا والقدس . كان عددسكانها ١٩٦١ ، ٢٣٣٥ نسمة .

(الدباغ ، المصدر السابق ص ١٦٩/١٧٠) .

(٩) وادي القلط : وادي يقع قرب اريحا تنتهي اليه المياه من تلال البيرة وعناتا والرام . وتتجمع فيـه ثم تستمر في سيرها نحو الشرق الى ان تنتهي بوادي الاردن . كان اهل القدس يؤمونه للنزهة . ويحتوي وادي القلط على اثار وبه مغارة فيها كتابات يونانية . (وطاحونة القلط) بها قناة ،ونفق منقور في الصخر وبقايا جسر .

(الدباغ ، المصدر السابق ص ٥٣٢) .

(١٠) الفوار : عين الفوار تقع الى الشمال الشرقي من قرية عناتا التي تقع خلف جبل الزيتون الـى الشمال الشرقي من القدس . وتقع قرب عين القلط ، بين هذه الاخيرة وعين فارة .

(١١) دير السيق : كان هذا الدير يقع على نشز عال قبلي القدس ، مشرف على الغور ، وعلى قبـة

موسى التي بناهاالظاهر بيبرس .
(بلدانية فلسطين العربية للاب مرمرجي الدومنيكي ص ٨٣ ، نقلا عن العمري) . ويقول مجيرالدين الحنبلي ان الظاهر بيبرس مر بالدير الذي يبعد عن القدس نحو نصف بريد ، عام ٦٦٨ هـ .. وكان فيه نحو ٣٠٠ راهبفأمر بهدم صوامعهم خوفا على القدس من العدو المخذول .
(الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٨٧) .

ويعرف موقع الدير اليوم باسم « دير السوق » أو « خربة السوق » وهو موقع اثري . ويطلق على الموقع ايضا « دير الزق » و « خربة مشمش » .

(١٢) زعترة : يقول الدباغ (ج ٨ ، ق٢ ، ص ٤٩٨) : ان زعترة قرية قريبة من بيت لحمومنقريةتقوع، ولا ادري ان كانت هي المقصودة ، ولا ارجح ذلك ، ولعل المقصود قرية اخرى كانت الى الشرق من مقام النبي موسى وقرب البحر الميت .

(١٣) البحيرة المنتنة ، هي البحر الميت ، ومن اسمائها ايضا : بحيرة زغر ، وبحيرة لوط .

(١١٣) كذا فيالاصل ، ولعل وجه الصواب ان يقال : « ليصرف ريعها » .

(١٤) التربدارية : القيمون على التربة او المقام .

(١٥) هو جد آل يونس (الحسيني اليوم) بالقدس ، فيما نعتقد .

(١٦) لما كان الامام ابو حنيفة ، دون تلامذته وباقي الائمة ، يبيح للواقف نسخ الوقف والرجوع عنه فان الواقف كان يقيم دعوى شكلية على الناظر او متولي تسجيل الوقف لاستعادة العقار الى ملكيتهعلى اساس ان الوقف الذي اعلنه غير لازم ويمكن الرجوع عنه . ولدى نظر الدعوى كان القاضي يثبت الوقف استنادا الى آراء الامام ابي يوسف وغيره من الائمة الذين كانوا يرون عدم جواز رجوع الواقف عن وقفه . وبذلك كان يتأكد لزوم الوقف وتثبت الوقفية .

(١٧) « فمن بدله .. سميع عليم » الاية ١٨١ من سورة البقرة .

(١٨) هو جمال الدين اقوش النجمي : كان مملوكا للملك الصالح نجم الدين ايوب ، ثم اصبح استادارا له (اي مديرا لشؤون قصره) ، وانتقل الى خدمة الظاهر بيبرس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٥٨ (٢٦ اكتوبر١٢٦٠) واصبح استادارا له ايضا . وفي سنة ٦٦٠ اصبح كافلا للممالك الشامية، اي نائبا للملك في الشام ، ثم عزل في ربيع الاول سنة ٦٧٠ . وتوفي في ٥ ربيع الاول سنة ٦٧٧،وقد اناف علىالسبعين .

(انظر الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢ ، طبعة حيدر اباد ، ص ١٣٣) . وتاريخ ابي الفدا ،تحقيق رايسكه ج٥ ، ص ٣٠ . وابن تغري بردي « المنهل الصافي » ، مخطوط باريس Ar 2069 ورقة 5R,V وليوماير « مجلة دائرة الاثار الفلسطينية QDAP المجلد الثاني ، رقم١ (سنة ١٩٣٢) ص ٢٧ » .

(١٩) يقول الانس الجليل ج٢ ، ص ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ : ان جمال الدين بن ربيع كان امين الحكم في القدس (أي متولي شؤون الايتام في محكمة القدس) وهي وظيفة تولاها سنة ٨٨١ . وقد توفي في ١٣ جمادى الاولى سنة ٨٩٢ .

وتظهر الوقفية ان ابن ربيع تولى قضاء القدس ايضا .اما لقب الخوجة (الخواجة) الـذي يسبق اسمه فكان يطلق على المعلم او التاجر . والذي يظهر لنا ان ملاحظة عبد الله مخلص حـول صدور كتاب الوقف عن جمال الدين بن ربيع لا تعني كتاب الوقف الاصلي لبيبرس وانما كتـاب وقف يثبت كتاب الوقف الاصلي صدر في اواخر القرن التاسع الهجري (أي بعد كتاب الوقف الاصلي باكثر من مائتي سنة).

وكانت العادة ان القضاة كانوا يثبتون كتب الوقف الاصلية ، ويشهدون بصحتها ، عندما ترفع لهم قضايا تتعلق بالوقف ، قبل اصدار حكم في القضية .

ومن المؤسف ان عبد الله مخلص لا يشير الىالمصدر الذي نقل عنه كتاب الوقف .. (وهـو سجل من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على الارجح) ، ولا يذكر رقم السجل ولاتاريخه .

الأرشيف الوطني الهندي في نيودلهي
وموجوداته من وثائق العراق والخليج العربي

د. مصطفى عبد القادر النجار
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

يعد الارشيف الوطني الهندي اكبر مستودع للوثائق في قارة آسيا على الاطلاق، حيث انه يضم عددا ضخما من وثائق شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية ويرجع تاريخ تلك الوثائق الى عام ١٧٤٨ .

والارشيف الوطني الهنـدي لا يمكن ان يستغنى عنه طـلاب البحث في مختلف حقول المعرفة .وموجوداته لا تقتصر على الوثائـق الهندية المحليـة ، وانما تتعداها لتشمل وثائق معظم الدول الاسيويـة التي تعاملت معها بريطانيا بشـكل او باخر ، بما فيها وثائق العراق وبقية اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية التي هي موضع اهتمامنا في هذا البحث .

والسجلات تلك تمثل خزينا غير محدود لملايين الوثائق التي تغطي استراتيجية المنطقة بجوانبها المختلفة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعيـة ، وحتى النفسية منها ، وذلك للفترة الحديثة .

تأسست دائرة الارشيف الوطني الهندي عـام ١٩٨١ . وكانت تعرف باسـم (دائرة السجلات الامبراطورية The Imperial Record Department) بعد ان برزت الحاجة الملحة لها ، وذلك بعد ان تكدسـت الوثائـق والسجلات في الدوائر المختلفة واصبح أمر اتلافها شائعا(١) .

وعليه فقد شكلت في كلكتا لجنة خاصة للاشراف على فرز الوثائق والسجلات للعمل على حفظ ما هو مفيد منها، وعين (المستر فورست Mr. Forrest) أول مسؤول للدائرة المذكورة حيث بدأ عملية تصنيفها وجمعها في مكتبة مركزية موحدة وذلك وفقا للاسس التالية :

١ ـ سجلات الشؤون الداخلية من عام ١٧٥٢ الى عام ١٨٧٩
٢ ـ سجلات اللجان الصحية من عام ١٨٤٥ الى عام ١٨٥٩
٣ ـ سجلات اللجان العسكرية من عام ١٧٧٧ الى عام ١٨٥٨
٤ ـ سجلات الاشغال العامة من عام ١٨٥٠ الى عام ١٨٧١
٥ ـ سجلات الشؤون الخارجية من عام ١٧٦٤ الى عام ١٨٢٩
٦ ـ سجلات الشؤون العسكرية من عام ١٧٨٦ الى عام ١٨٩٣

وقامت دائرة الارشيف بعد ذلك باصدار سلسلة من المنشورات المطبوعة للوثائق المتوفرة فيه غطت الفترات التاريخية المختلفة ، وضع بعضها باللغة الانكليزية وبعضها الاخر باللغة الفارسية .

والذي يهمنا من وثائق هذا الارشيف بشكل اساسي هو ذلك الجزء الخاص بدائرة الشؤون السياسية والخارجية (Foreign and political Department) التي كانت مسؤولة بشكل خاص عن ادارة الشؤون الخارجية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية . لذا فأن الوثائق الخاصة بالعراق والخليج العربي والجزيرة العربية نجدها في هذا القسم(٢) .

ان وثائق قسم الشؤون السياسية والخارجية كانت قليلة في بداية الامر ثم اخذت في الازدياد والتضخم تبعا لازدياد العلاقات الخارجية للسلطات البريطانية في الهند .

ونجد فهارس لوثائق القسم السياسي والخارجي تكاد تغطي جميع الفترات التاريخية منذ بداية تاسيس القسم وحتى بداية القرن العشرين(٣) . والفهارس هذه نجدها قليلة بالنسبة للسنوات الاولى من تاسيس هذا القسم ثم اخذت بالازدياد في السنوات التالية ، فمثلا لانجد للفترة من ١٧٥٦ ـ ١٨٧٣ الا مجلدين من الفهارس(٤)، ثم اصبح هناك فهرس واحد لكل بضع سنوات ، ثم صارت فهرسا واحدا لكل سنة، وفي المراحل الاخيرة اصبح هناك عدة فهارس للسنة الواحدة .

والفهارس هذه تربو على المائة فهرس جميعها غير منشور عدا فهرس واحد . اما الفهارس التي تلي هذين الجزأين المطبوعين فنجدها بوضعها القديم بخط اليد ، وقراءتها متعبة للغاية . وهي مفهرسة بحسب الحروف الابجدية(٥) .

وفهارس الفترات التالية للقرن التاسع عشر افضل للقارىء ، فهي مطبوعة ، والاسماء فيها واضحة للغاية ، وهناك يجد الباحث اسماء كالبحرين والبصرة وبغداد وغيرها . وقد ثبت رقم المجلد الذي وردت فيه هذه المعلومات والمناسبة التي ذكر فيها امام كل اسم من هذه الاسماء (٦) .

وبالنسبة للعراق والخليج العربي والجزيرة العربية موضع اهتمامنا الخاص ، نلاحظ ان السجلات الاولى لقسم العلاقات الخارجية لم تول تلك المناطق اهتماما كبيرا ، وذلك ان حكومة بومباي كانت تمارس سلطة كاملة في ادارة الشؤون الخارجية، وكان ارتباطها مباشرة بلندن دون ان تكون لها صلة بالمديريتين الاخريين (كلكتا ومدارس) . وحتى بعد تشريع البرلمان البريطاني عام ١٧٧٣ قانون التنظيم الذي خول كلكتا وحاكمها حق الاشراف على كل من بومباي ومدراس ، فان بومباي استمرت في ممارسة الانفراد بمعالجة الشؤون الخارجية للبلدان الواقعة الى غرب شبه القارة الهندية ، وبضمنها العراق والخليج وشبه الجزيرة العربية(٧) .

ولهذا السبب يجد الباحث ان المادة المتوافرة في ارشيف كلكتا والموجودة في الارشيف الوطني الهندي عن العراق والخليج العربي والجزيرة العربية قليلة جدا .

وحدث شيء مهم غير هذه الصورة في القرن التاسع عشر ، وهو ان حكومة الهند في كلكتا بدأت تمارس سلطة اكبر ونفوذا اوسع على الشؤون الخارجية الهندية ، واخذت تنتزع شيئا فشيئا الصلاحيات التي كانت تتمتع بها حكومة بومباي(٨) .

ولم تعد لحكومة بومباي أهمية تذكر في ادارة الشؤون الخارجية في أواخر القرن التاسع عشر وانحصرت ادارة تلك الشؤون بحكومة الهند في كلكتا . ومن ثم في دلهي بعد انتقال العاصمة الهندية اليهام عام ١٩١١(٩) . كما ان دائرة السجل الكبرى اصبحت تابعة لوزارة التربية الهندية بعد ان ظلت تابعة لوزارة الداخلية منذ تاسيسها حتى ذلك التاريخ.

وبعد انتقال العاصمة صار من الضروري أن تنقل السجلات الرسمية والوثائق الى المقر الجديد . وقد تم فعلا تخصيص مبنى مستقلا لها شيد عام ١٩٢٦ ، واكتمل

نقل المحفوظات له نهائيا عام ١٩٣٧ . وصار الارشيف الوطني الهندي بعد هذا التاريخ مستعدا لقبول خدمات الباحثين على الوجه الاكمل .

قررت الحكومة الهندية في كانون الاول عام ١٩٣٩ ان تفتح الباب ، بحدود معينة، لطلاب البحث والدارسين للافادة من المعلومات والاقتباس من الوثائق . وفي عام ١٩٤٣ فهرست موجودات الارشيف من الوثائق والسجلات في(١٠) ٣٩ مجلدا . وقد خففت بعض القيود على الباحثين بعد عام ١٩٤٦ ، وفسح المجال لهم للاطلاع على كافة السجلات لغاية عام ١٩٠١ .

وظل الارشيف الوطني الهندي يطالب الوزارات المختلفة بضرورة توسيع خدماته وان يكشف المزيد من الوثائق للباحثين لتشمل سنوات ما بعد عام ١٩٠١ .

وقد حدث تطور ملحوظ على الارشيف في اب ١٩٤٧ جعلت موجوداته تتضاعف بشكل غير محدود ، نتيجة لهجرة مختلف الوكالات السياسية والتجارية مقار أعمالها مخلفة وراءها سجلاتها ووثائقها كافة للارشيف الوطني . وهي بلا شك ثروة علميـة غنية لا تقدر بثمن لطـلاب البحث العلمي يمكن اخضاعهـا للدراسـة والاستنتـاج والتحليل وكشف الحقائق والتوصل الى نتائج في غايـة الاهمية وفي مختلف حقـول المعرفـة .

وقد واجه الارشيف الوطني صعوبة كبيرة في استيعاب هذا القدر الضخم مـن السجلات والوثائق ، حيث انها كانت من الكثرة بحيث تجعـل الارشيف عاجـزا عن استيعابها دفعة واحدة لاسيما وان معظم تلك السجلات والوثائق لم تكن منظمة وفق ترتيب موحـد .

وبينما كان الارشيف الوطني الهندي مشغولا بمواجهة ذلك السيل العـارم من المحفوظات واذا بوزارة الخارجية الهندية تفاجئه بقرار عام ١٩٤٩ بنقل حوالي مليون محفظة من محافظها ، والتي كانت من قبل محفوظة في سملا ، اليه (١١) .

وهكذا حصلت زيادة مفاجئة في حجم السجلات والوثائق في الارشيف وصـار مجموع ما يحتوي عليه قرابة ٥١١٣٫٠٠٠ محفظـة و ١٠٣٫٠٠٠ مجلد ، وهـو في نمـو مستمر .

ومما يجدر ذكره ان الحديث عن الارشيف سـيبقى ناقصا غـير متكامـل دون الاشارة الى المكتب الاقليمي (Regional Office) الذي شكل في بهوبال (Bhopal)

عام ١٩٥٤ . وكان هذا المكتب قد اسسته الحكومة المحلية في بداية الامر ثم تقدمت بـه تلك الحكومة الى الحكومة الهندية التي اوفدت بعثة خاصة لاستلام موجوداته وتنظيمها(١٢) .

وقد صار الارشيف الوطني الهندي محط انظار جميع دارسي شؤون اسيا ، وبضمنها العراق واقطار الخليج العربي والجزيرة العربية .

ويضم الارشيف الان تراثا اسيويا اكثر منه تراثا هنديا ، وهو في كل هذا يتميز عن دور السجلات البريطانية بقدر ضخم من المراسلات المحلية والوثائق الاصلية التي لا يمكن العثور عليها في مكان اخر .

وثمة ملاحظة اخيرة لابد من ذكرها عند المقارنةبين الارشيف الهنديوالبريطاني(١٣) والتي تهم كل باحث ينوي الرجوع اليهما ، وهي ان مستوى الخدمات يختلف في الهند عما هي عليه في بريطانيا من حيث التسهيلات وتهيئة مستلزمات البحث ، هذا اضافة الى ان طريقة الحفظ وفهرسة الوثائق والسجلات ليست بالمستوى المطلوب في الارشيف الهندي على العكس من الارشيف البريطاني حيث يعد ارشيفا متطورا على مستوى عالمي ، ويكفي ان نذكر ان عملية الاستعارة في الارشيف الهندي تتطلب انتظارا يتراوح بين ثلاث او اربع ساعات ، وللباحث الحق في استعارة عشرة مجلدات فقط في اليوم الواحد ، على حين انه لاتوجد مثل تلك الصعوبات في الارشيف البريطاني . والامل معقود على مثقفي الهند ، لان يولوا هذا التراث العالمي العظيم اهمية خاصة . وان يتوجهوا لادخال احدث الطرق والوسائل لحفظ هذا الخزين العلمي الضخم من اجل النهوض بالارشيف الهندي الى مصاف دور الوثائق والسجلات المتقدمة في العالم .

ونتوجه بالدعوة الى حكومات اقطار الخليج العربي لان تسرع في تصوير الوثائق الخاصة باقطارها قبل ان تنالها عاديات الزمن .

الحواشي :

راجع عن تفاصيل ذلك:
Handbook to Recorde of the Government of India in the Imperial Record Department .

(٢) كانت الوثائق تحفظ في دائرة موحدة يطلق عليها اسم (Public Dept.,) لغاية عام ١٧٥٦ حيث اسست دائرة العلاقات الخارجية (Foreign Department) ومنذ ذلك التاريخ صارت تحفظ الوثائق الخارجية بشكل منفصل .

(٣) K. D.Bhargava : **Cuide to the Recorde in the National Archives of India,** part I (**Introduectory**) New Delhi, 1959, pp. 1 —3 .

(٤) هما بعنوان : Index to Land Revenue Records .

(٥) معظم الورق الذي كتبت عليه تلكا لفهارس ممزق ومتآكل الجوانب . وقد قام الارشيف بلصق تلك الاوراق بالشمع الشفاف وتم حفظها بطريقة جيدة .

(٦) وثائق العراق والخليج العربي والجزيرة العربية ليست مصنفة تصنيفا منفردا متميزا وانما يمكن للباحث ان يعثر عليها تحت اسم المدن والموانيء التي تخص تلك المناطق . فهو يرجع في الفهرس الى حرف (B) ليعثر على مادته تحت اسماء : بصرة ـ بغداد ـ بوشهر ـ بندر عباس ـ بحرين، وهكذا.

(٧) K. D. Bhargava, **op. cit.**

(٨) **Ibid.**

(٩) نقلت حكومة الهند البريطانية العاصمة الى دلهي حيث اصبحت مقرا لنائب الملك ودوائره الاساسية.

(١٠) K. D. Bhargava, **op. cit.** p.8.

(١١) وذلك بعد ان حصلت الهند على استقلالها فقد ارتأت وزارة الخارجية الهندية الغاء محفوظاتها الوثائقية من سملا وتحويلها للارشيف الهندي في دلهي .

(١٢) K. D. Bhargava, op . cit. p.8.

(١٣) لاخذ فكرة عامة عن وثائق الارشيف الهندي في دلهي ومقارنتها بوثائق وزارة الهند في لندن يمكن الرجوع الى المادة الوثائقية التي اعدها (Jean C. Lencaster) المنشورة في مجلتي :
1 — The British Association. Vol. IX, No. 43. April 1970, pp. 130-141.
2 — British Society for Middle Easterm Studies Bulletin, Vol . 3, No. 1, 1976 , pp. 29 - 35.

حيث يعطي تفاصيل تلك الوثائق واصنافها ومجلداتها وفتراتها التاريخية والصور المتوفرة في لندن من الارشيف الهندي .

الدراســات العليــا

بحوث طلاب الدراسات العليا المرشحين لاحدى شهادتي الماجستير أو الدكتوراه

علاقة كندة بدولة الفرس وعمالهم ملوك الحيرة

محمود يونس

جامعة دمشق

لم يكن لكندة مبدأ سياسي محدد عبر تاريخها التي عاشته وصنعته ، سواء في حضرموت ، ام في نجد ، قبل رحيلها او بعده .. فقد تعددت ولاءاتها السياسية في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها حسب الظروف التي عاشتها . من هنا نجدها تارة مملكة عربية مستقلة لا تربطها اية احلاف او وصايات مع اية قوة اخرى ، وتارة على خصام كبير ومتأزم مع مملكة الحيرة وبلاد الفرس وتارة اخرى على صداقة وود مع الفرس وعمالهم العرب ، ونزاع مستعر من الروم وعمالهم ، او في حالة وئام وصداقة مع الفساسنة والبيزنطيين ضد الفرس، ونجدها حينا اخر تنهج نهجا استقلاليا خاصا بها تقف من خلاله موقفا معاديا لجميع القوى المجاورة لها .

لم نجد في المصادر العربية وغيرها اشارة تدل بشكل مباشر او غير مباشر على اتصال قبيلة كندة بدولة الفرس او عمالهم العرب اللخميين في الحيرة قبل هجرتها الى غمر ذى كندة ، حيث يبدو انه لم يكن للكنديين ذاك البعد السياسي والقوة التي تؤهلهم الى الاتصال بالدول العظمى كدولة الفرس او الروم ، زد على ذلك انه لم تكن هناك من مصلحة مشتركة تلح على وجود مثل هذا الاتصال انذاك ، ولربما لم يكن ذلك بفعل السياسة الفارسية فاطماع الفرس في شبه الجزيرة العربية لها قدمها التاريخي منذ قرون قديمة قبل الميلاد(١) . ولعل السبب الذي ادى الى ذلك هو عدم بلوغ هذه القبيلة العربية حدا من القوة له التأثير في السياسة العربية الجنوبية ، الامر الذي لايغري قوة عظمى كدولة الفرس الى تكوين نوع من التحالف او الصداقة مع كندة دون تحقيق مكاسب من خلال ذلك . ويبدو ان انهماك كندة

في الصراعات الداخلية والحروب مع حضرموت(٢) هو الذي جعلها تظهر بهذا المظهر من الضعف فابعد عنها دولة الفرس العظمى المجاورة التي كانت بامس الحاجة الى وجود حلفاء عرب اقوياء لها في شبه الجزيرة ، لما لهذه المنطقة من اهمية استراتيجية باللغة ليس بالنسبة لبلاد الفرس فقط بل للعالم القديم ايضا .

وبمجرد مغادرة كندة حضرموت الى نجد(٣) ، وبعد انتهاء فترة تأسيسها وارساء حجر الزاوية المتين في صرح مملكتها الذي تم في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي على يد ملكها او (سيدها)حجر الملقب بـ (آكل المرار) ، نجد نجم كندة يسطع كقوة بارزة في تاريخ شبه الجزيرة العربية بشكل يبشر بامكان الاعتماد عليهافي فرض سياسات معينة على القبائل العربية المتنوعة في ديارها المختلفة ، كقبائل ربيعة ونزار ومعد ، التي شغلت رقعة واسعة في بلاد العرب القديمة (٤) .

وبعد ان وصلت كندة الى اوج سلطانها ومنعتها في ظل ملكها الحارث بن عمرو صاحب الشأن الرفيع في بناء تاريخ ومجد هذه المملكة ، بقوته وشجاعته وتوسعاته وكان قد ورث عرش كندة عن ابيه عمرو المقصور ، بدات هنا ، في هذه المرحلة التاريخية من تاريخ هذه المملكة العربية ، الدول الكبرى المجاورة لها والممالك العربية الاخرى بالتقرب منها وخطب ودها املة بقيام نوع من التحالف معها ، ذلك ان تلك الدول وجدت في هذه المملكة الفتية ما يحقق اهدافها في فرض سياسات ترغب في احلالها في شبه الجزيرة العربية .

لقد عاصر الحارث بن عمرو الكندي اعظم شخصيات الاكاسرة والقياصرة والملوك مثل الملك الفارسي قباذ وكسرى انو شروان ، والمنذر بن ماء السماء في امارة اللخمين في الحيرة ، والحارث بن جبلة الغساني في دولة الغساسنة ، والامبراطور الروماني جستنيان ، وذلك بالاضافة الى معايشته للنزاعات الشديدة والحرب بين فارس وبيزنطة . فقد تقدمت سياسية بيزنطة بنتيجة تلك الصراعات على السياسة الفارسية في بلاد العرب القديمة ، ويعزو الباحثون والمؤرخون هذا التقدم الى النجاح العسكري الذي حققته دولة الحبشة ــ حليفة بيزنطة وشريكتها في الدين والمصالح الاقتصادية ــ باحتلال القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (٥) . نتيجة لهذه الانتصارات البيزنطية ــ الحبشية ، كان لزاما على الامبراطورية الفارسية ، والحال هذه ، ان تجد لنفسها مخرجا تواجه فيه هذا التوسع وتوقفه عند حد معين الى ان تتمكن من دحره نهائيا اذا ما قيض لها ذلك ، وهذا امل حلمت الامبراطورية الفارسية في تحقيقه طيلة فترة الصراع البيزنطي الفارسي على شبه الجزيرة العربية .

في هذه الاثناء قام الملك الكندي الحارث بن عمرو بتجهيز حملة عسكرية كبيرة على راسها ولديه (حجر) و (جبلة) ، وذلك سنة ٤٩٧م حسب رواية ثيوفانيس(٦)،

وامرهما بمهاجمة حدود الامبراطورية البيزنطية في الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام ، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد اربع سنوات قادها ابنه (معد يكرب) وذلك حسب ثيوفانيس أيضا(٧) . ونجحت الحملة وتمكن الامير الكندي من تخريب مناطق كبيرة من بلاد الشام. وقادت هذه الغارات جميعها الى عقد صلح بين الحارث بن عمرو الكندي والامبراطور البيزنطي انستاسيوس . وكان الطرف المفاوض من قبل بيزنطة هو جد الامبراطور الروماني دون ان يذكر المؤرخان (ننوز) و (ثيوفانيس)(٨) اللذان اوردا خبر هذا الصلح شروطا او بنودا له ، وربما تضمن توقف الحارث الكندي وابنائه عن غزو المقاطعة الرومانية ومن ثم اصبحت (فلسطين وشبه جزيرة العرب وفينيقيا) تنعم بالسلام والهدوء(٩) كما روى ثيوفانيس ، بالاضافة الى توجيه الحلف ضد فارس وعمالها في الحيرة .

ونجد في تاريخ (يوشع) العمودي(١٠) ما يؤيد مثل هذا ، اذ ذكر ان عرب الرومان الذين يدعون بني ثعلبة قد زحفوا في عام ٥٠٣م على حيرة النعمان واستولوا على قافلة كانت متجهة اليها ، وعرفت الحيرة في السريانية باسم (حيرتا النعمان) . وبنو ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل ينتسب اليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة امه .. وكانت قبائل بكر وتغلب في تلك الايام تشكل عماد قوة مملكة كندة في غاراتها على اللخميين .

وفي هذه المرحلة نجد النزاع بين الحارث الكندي والمنذر بن ماء السماء يصل الى درجة حاسمة، فقد ذكر الكاتبان جون مالالاس (John Malalas) (١١) وثيوفانيس(١٢) ان ديوميدس (Diomedes) القائد الرومائي في فلسطين تحارب لسبب ما مع رئيس كندة الحارث بن عمرو الكندي ، وان ذلك الرئيس تراجع امام ديوميدس ، خوفا من بطشه الى داخل البلاد نحو الهند (اي جنوب شبه الجزيرة العربية او شرقيها وهي غالبا ما عدها البيزنطيون من الهند) فلما بلغ ذلك الملك الحيري المنذر بن ماء السماء استغل فرصته وتبعه بحملة قادها بنفسه حيث تمكن من قتله والاستيلاء على ماله وأهل بيته .

وما ان سمع الامبراطور البيزنطي جستنيان بهذا حتى امر جميع عماله العرب في مناطق حدود امبراطوريته بمطاردة الملك الحيري وجيشه ، وكان ممن ذكر من قبل هذين الكاتبين من عمال الروم الذين اشتركوا في مطاردة المنذر كل من ديونيسوس (Dionysuis) حاكم فينيقيا و (حنا) حاكم المنطقة الفراتية (وسيباستيانوس)و (كيلاركوس) ثم (الحارث بن جبلة الغساني) امير غسان الذي اصبح تابعا للرومان بعد موت الحارث الكندي .

ونستطيع ان نستخلص من خلال ما سبق ان العداء كان كبيرا بين الملك الكندي

والدولة الفارسية وعمالها اللخميين ، كما نستنتج مقدار متانة الصداقة البيزنطية الكندية . واما يتعلق بعلاقة الحارث الكندي بالغساسنة التي كان يحكمهم اميرهم الحارث بن جبلة فهذا امر ليس واضحا تماما ، ولكن الذي لاشك فيه هو انه لم تكن بينهما خصومة ، لان الحارث بن جبلة الغساني كان بين الذين خرجوا ليثأروا لمقتل الامير الكندي الحارث بن عمرو ..

ان تاريخ الحارث بن عمرو الكندي لم يكن كله عداء للفرس وصداقة لبيزنطة وعمالها العرب ، فقد وردت روايات متعددة في المصادر العربية تذكر جميعها ان الملك الفارسي قباذ رأى بعد اعتلائه عرش فارس من قوة الملك الكندي وشجاعته ، وما اظهره من مقدرة فائقة في مهاجمة الحدود البيزنطية في بلاد الشام واجبارها على توقيع معاهدة عدم اعتداء بين الجانبين ، انه من المناسب اتباع سياسة تقربه من مملكة كندة وملكها ، ويبدو ان الحارث الكندي كان يتوق الى اللقاء مع الفرس بعد ان أفهم بيزنطة انه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية ، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة ، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة لظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي تاق للسيطرة على الحيرة ، ورغبة الملك الفارسي قباذ بالتحالف مع مملكة كندة وملكها القوي بعدما اوقف ارتباطه بالبيزنطيين اثر انعقاد الصلح بين بيزنطة وفارس عام ٥٠٦م(١٣) ، وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية التي تبناها قباذ كما سنرى ، اضف الى ذلك ، ان رغبة الحارث الكندي في اقامة مثل هذا التحالف مع الفرس ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال تاركتين مناطقهما القديمة في اليمامة ونجد لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية ، وان هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونهما كان لا يستطيع فرض شيء من رغباته السياسية ، لذا توجب عليه أن يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي والسياسة الفارسية(١٤) . أما ما يتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباذ : فقد رأت هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافا عن ولائه التقليدي للفرس وميلا نحو بيزنطة . وقد ايد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وآسية الصغرى وتمكنه من اسر قائدين عسكريين كبيرين لبيزنطة عام ٥١٩ م ، فقد اراد الامبراطور البيزنطي ان يفك اسر القائدين ويعقد صلحا وحلفا بين المنذر ودولته فأرسل الى المنذر عام ٥٢٤ م رسولا وبصحبته وفد كبير فاوض المنذر في امر اطلاق سراح القائدين البيزنطيين الاسيرين(١٥) .. وقد وصفت تلك المفاوضات بانها كانت تحمل طابع الود لدرجة كبيرة ، وهذا امر بالطبع لم يكن يرضي الملك الفارسي ويوائم سياسة بلاده في بلاد العرب القديمة ، لذا كان على الدولة الفارسية ان تتخذ اجراء سريعا ضد سياسة المنذر العدائية وتنزل به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة .

ويقدم (مناندر Menander) دليلا اخر على اتباع الملك الحيري سياسة تفاهم مع بيزنطة بقوله : « كان المنذر يتسلم من الامبراطورية البيزنطية مساعدات بين الحين والاخر وذلك عندما كان لا ينحاز الى جانب الفرس ، وقد كان متفقا مع الرومان على الا يحرك ساكنا حين تنشب الحرب بينهما »(١٦) . ولعل هذه الاسباب وهذه الشواهد قد دفعت قباذ الى اتخاذ قراره بطرد المنذر بن ماء السماء من الحيرة وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذه حليفا بدلا منه ، ويبدو ان الظروف الدولية قد ساعدت على قيام هذا التقارب بين مملكة كندة وبلاد الفرس في هذه الاونة ، فكان التحالف(١٧) .

وعندي لم يكن اعتناق الملك الفارسي للمزدكية ورغبته في تعميمها داخل بلاده وعلى عماله العرب ، وما لاقاه هذا المذهب من ردود فعل سلبية على هذين الصعيدين ورفض المنذر اتباعه ، وقبول الملك الكندي الحارث الدخول فيه ، الا سببا مباشرا اتخذه الملك الفارسي لعزله واحلال الحارث محله . ويقدر بعض المؤرخين، وفي مقدمتهم جواد علي بعد مناقشات طويلة ان ذلك كان فيما بين ٥١٥–٥٣١م(١٨) . هذا وعلق جواد علي على هذه القضية بقوله : « وليس بمستبعد في نظري ان تكون هذه القصة (قصة دخول الحارث الكندي في المزدكية) ومتابعته دين قباذ من وضع أهل الحيرة المعادين لكندة ، وضعوها والصقوها بالحارث الكندي لتكون سبة له وعارا عليه وعلى كندة لهذا العمل الذي قام به تجاههم ، وهم كما نعلم يكرهون هذا الكندي وينكرون توليه الحيرة ، ولا يدخلون اسمه في قائمة ملوك الحيرة كما صرح بذلك ابن الكلبي »(١٩) .

وقد استقامت طبيعة الود والتحالف بين المملكة الكندية وبلاد الفرس طيلة تولي قباذ عرش الامبراطورية الفارسية ، لكن السياسة الخارجية الفارسية تغيرت بشكل جذري بموت قباذ وانتهاء حكمه واعتلاء ابنه كسرى انو شروان للعرش ، فقد كان منذ حياة ابيه عدوا لدودا للمزدكية ولتعاليمها ، بمجرد وصوله الى العرش اصدر امرا باعادة المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها ، فخرج طريدا باتجاه جنوب شبه الجزيرة العربية خوفا من انتقام المنذر وبطشه.

وبعودة المنذر بن ماء السماء ثانية الى عرش الحيرة بدأت صفحة جديدة من الصراعات العسكرية بين مملكة الحيرة بقيادة المنذر وملوك كندة انتهت بمقتل الملك الحيري على يد الحارث بن جبلة الغساني في يوم مشهور من أيام العرب في الجاهلية اطلق عليه اسم يوم حليمة نسبة الى المكان الذي وقع فيه القتال (مرج حليمة قرب قنسرين) او نسبة الى (حليمة) بنت الحارث الغساني التي كانت تطيب جند ابيها وتلبسهم الدروع وتعدهم للقاء المنذر الحيري ، وقد ارخ المؤرخون هذا اليوم بعام ٥٥٤م(٢٠) .

ويبدو ان المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي

او قتله(٢١) في منطقة الشمال من شبه الجزيرة العربية ، بل تابع الصراع مع ابنائه من بعده الذين بقوا متمسكين بما ملكهم والدهم في حياته على بعض القبائـــل العربيـــة العدنانية وصبروا على قتال المنذر الذي حاول تشتيت امرهم بالخديعة والمكر تـارة وبالقتال تارة اخرى ، وحول هذا الامر يذكر لنا اليعقوبي في تاريخه(٢٢) : « انه لما قتل الحارث الكندي قام ولده بما كان في ايديهم من سلطان وصبروا على قتال المنذر طلبـا بثأر ابيهم . فلما راى المنذر تغلبهم على ارض العرب نفسهم ذلك ، واوقع بينهم الشرور فوجه الى سلمه الغلفاء بهدايا ، ثم دس الى شرحبيل من قال له : ان سلمة اكبر منك وهذه الهدايا تاتيه من المنذر ، فقطع الهدايا فاخذها ، ثم اغرى بينهما حتى تحاربـا فقتل شرحبيل ، فكانت معه تميم وضبه فلما قتل خاف الناس ان يقولوا لاخيه سلمة ان اخاك قد قتل وجعل يسمع قولهم فجزع لقتل اخيه وندم على ان المنذر انما اراد ان يقتل بعضهم بعضا ، وفي ذلك قال سلمة شعرا البيتين التاليين :

ان جنبي عـن الفراشـ لنـابـ كتجافي الاسـر فـوق الظـراب .
من حديث نما الـي فما يـــر فأ دمـعي ولا اسـيغ شرابـي .

واذا كانت كندة قد انهارت بانتهاء امر الحارث بن عمرو وابنائه من بعده بفعـل صراعات ونزاعات القوى المختلفة وفي مقدمتها المنذر بن ماء السماء . فان محاولة الامير الكندي امرىء القيس بن حجر الذي بذل جهدا لا يعرف الونى للثأر لابيه واعادة سلطان كندة تحت قيادته ، قد اصطدمت بسياسة الدولة الفارسية المناوئة لكندة وملوكها ، بالاضافة الى حقد الملك اللخمي المنذر الذي اراد بدوره إطفاء شعلة كندة واجتثاث جذورها بكل الوسائل المتاحة ، ولذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني اسـد اليه طالبة الحماية والنجدة ضد امرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته ، ويعد العدة مع القبائل العربيـة الموالية له ، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي ارسله انوشروان اليه ، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي(٢٣) . وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولـة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني(٢٤)، وابن خلدون في كتابه العبر(٢٥) . « ان امرىء القيس بعد ان انفضت عنه قبيلتي بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير ابن ذي جدن احد ملوك حمير حيث امـده بخمسمائـة فارس وجنود اخرين لمقاتلة بني اسد فلما علمت اسد بهذه الحملة التجأت الى ملـك الحيرة المنذر بن ماء السماء الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياد وبهراء وتنوخ، وامده انوشروان بجيش من الاساورة ، فسرحهم في طلبه فتفرقت حمير ومن كان معه عنه امام تفوق جيش العدو هذا ، فنجا من المنذر في عصبة من بني اكل المرار ومعـه شيء من ماله وادرعه كان قد ورثها عن ابائه » . ويذكر ابن خلدون ان معركة وقعت قبل ذلك جرح فيها امرؤ القيس ، وتحدث ابن قتيبة(٢٦) عن مقتل ثمانية عشر اميرا كنديا في (جفر الاملاك) بعد ان تمكن المنذر من اسرهم في حملته هذه .

واذا كانت معظم علاقات ملوك كندة من بني آكل المرار مع الفرس وعمالهم العرب علاقة نزاع وغزوات وحروب وقتال على نحو ما ذكرنا ، فان الصورة تأخذ شكلا مغايراً تماما بالنسبة لعلاقة ملوك كندة من (بني الجون) مع بلاد الفرس حيث يبدو ان عامل الزمن كان كفيلا بتغيير سياسات الجانب الفارسي ومملكة كندة بعد امرىء القيس بن حجر اخر امراء بني اكل المرار (حوالي منتصف القرن السادس الميلادي) . ففي هذه الفترة كانت فئة ثانية من حكام كندة قد ظهرت على مسرح تاريخها عرفت باســـم (الجونيين) نسبة الى (معاوية الجون)(٢٧) .

لم يظهر حكم (معاوية جون) على بعض قبائل كنـدة فجاة بعد مـوت امرىء القيس ، بل يعود حكم الجونيين في المنطقة الشرقية لملكة كندة الى زمن الملك الكندي عمرو المقصور الذي حكم عرش هذه المملكة بعد حجر آكل المرار . ففي هـذه الفترة تولى اخوه معاوية الجون الحكم فيمنطقة اليمامة وهجر (البحرين)(٢٨). بينما سيطرت بجانبها قبائل عربية قوية بزعامة (كليب وائل) رئيس تغلب على نجد فانشأت قوةمهمة هناك في معارضة مقصودة لا لحمير وحدها بل لعمالها من كندة ايضا(٢٩) .

واذا كانت مملكة كندة قد انهارت بموت الحارث بن عمرو واولاده من بعده في منطقة نجد بعد ملاحقة الفرس والمنذر بن ماء السماء لهم ، وهم من بقي منهم بالعودة الى حضرموت ثانية ، فان ما بقي من الكنديين في اليمامة تحت زعامة معاوية الجون ، كانوا قد تاخروا قليلا باللحاق باخوانهم في حضرموت لبعض الوقت . وفي هذا الوقت تعرض الكنديون الى يومينمن أشهر ايام العرب في الجاهليــة قــوة وبأسا خاضهمـا الكنديون في اليمامة بكل ما استطاعوا من قوة ، هما (يوم جبلة) و (يوم ذينجب)(٣٠)، وكانت نتيجتهما نهاية ما لكندة من أثر سياسي في شمالي ووسط شبه الجزيرةالعربية، الى جانب ولادة موقف سياسي جديد شغلته كندة مع الفرس .

لقد وقع يوم جبلة أصلا بين قبائل تميم وعامر ولكنه شمل عدة قبائل اخـرى اشتركت في القتال حليفة لهذا الجانب او ذاك ، كان من بينها معاوية الجون ومن معه من رجال كندة حيث لقي مصرعه في المعركة ، وغادر ارض اليمامة على اثرها قســم كبير من الكنديين الى حضرموت كما يذكـر الهمداني(٣١) . ومهما يكن من شــيء فان الروايات العربية لا تذهب مذهب الهمداني في ان الكنديين اضطروا الى ترك الميدان في اليمامة والبحرين بعد وقعة يوم حليمة مباشرة ، فقد قاتـل أمير (هجر) مـن بيت الجون بجيشه من المرتزقة وكندة في وقعة (ذي نجب) في العام التالي ليومجبلة ،وربما جاءت الضربة القاضية لكندة في يوم ذي نجب فكانت سببا مباشراً لانحلال قوتهـــا نهائيا فيشمالي شبه الجزيرة العربية(٣٢) . وما ان انتهى ال الجون من خوض ايامهم في منطقة اليمامة والبحرين حتى اشرف القرن السادس الميلادي على نهايته . وبدات اخر فلول الكنديين بالعودة الى مكانهم الاول حضرموت بعد ان تلقوا الضربة القاضية

فكانت عودتهم الى ديارهم السابقة كما يذكر الهمداني(٢٣)، ولابد انها ارتبطت بالتطلعات التوسعية الفارسية في جنوب شبه الجزيرة العربية .

فحول هذه الفترة ، وحول التطلعات السياسية الفارسية في بلاد العرب القديمة وما يمكن أن يكون لمملكة كندة من دور ، يذكر اوليندر . « أن هجرة الكنديين من اليمامة والبحرين الى حضرموت لابد انها حدثت في نهاية القرن الساس الميلادي والتي ترتبط حقا بالغزو الفارسي للعربية الجنوبية ، فلا بد ان كندة في هجر والمشقر قد اعتمدت اعتمادا مطلقا على الفرس الذي نشأ لديهم خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ميل قوي نحو التوسع السياسي في الخليج العربي ، ولما امتد هذا التوسع الى العربية الجنوبية ، فان كندة بعدما اصابها من شدائد في نجد واليمامة ربما هللت لامكان عودتها وهي حليفة للفرس الى منازلها الاولى واستئناف علائقها القديمة مع افراد قبيلتها من سكان تلك المشارف»(٢٤) .

---

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « كندة في الاسلام حتى القرن الثاني للهجرة » باشراف الدكتور سهيل زكار .

المصادر والمراجع :

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الاولى ١٩٧٨م ، ص ٣٩٢ .

(٢) اليعقوبي : احمد بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر بيروت ج١، ص ٢١٦ .

(٣) الحموي ،ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ ج ٦ ، ص ٩٨.

(٤) الضبي ، المفضل بن محمد ، المفضليات ، شرح ابن الانبارى ، تحقيق لايل ، بيروت ١٩٢١ م. ص ٤٢٨ . الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود ، الاخبار الطوال القاهـرة ١٩٦٠ م ص ٥٣ وما بعدهـا .

(٥) ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ، السيرة ، القاهرة ١٩٥٥م القسم الاول ، ص٤٣٠ وما بعدها.

(٦) Chronographia, p. 141.

(٧) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٨) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٩) المصـدر السابق والصفحة نفسها .

(١٠) يوشع العمودي ، الفصـل ٥٧ .

(١١) Chronographia, Lib, XVIII (col 641)

(١٢) Cronographia, p. 179

(١٣) اوليندر جونار ، ملوك كندة من بني اكل المرار ، بغداد ١٩٧٣ م ، ص ١١٤ .

(١٤) See O., Blau Arabien in Sechsten Jahrhundert, Z. D. M. G. 23, Leipzig 1869, p. 579 FF.

(١٥) عاقل نبيه ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ١٩٨٢م ، ص١٧٥.

(١٦) Fragmenta Historicorum Graecorum, call. C, Malleres, V. 4, Paris 1851.

(١٧) ليس معنى ذلك ان المنذر بن ماء السماء الملك اللخمي عامل الفرس على الحيرة لم يقدم خدمات الى الفرس قبل ميله الى الروم وسياستهم ، فقد خدم الفرس قبل ذلك ونفذ سياستهم وخاص في مناسبات عديدة حروبا ضد عرب الروم (الغساسنة) والروم انفسهم لم يكن لهمصلحة بخوضها بقدر ما كانت تحقق من مصالح كبرى لدولة الفرس . ومن أشهر المعارك التي خاضها في سبيـل ذلك ما حدث عام (٥١٨ و ٥١٩م) عندما هاجم المنذر ممتلكات بيزنطة في سورية بعدمـا رفض امبراطور بيزنطة جوستين الاول دفع الاتاوة التي قبلت بيزنطة بدفعها لفارس في الصلح الذي عقد بينهما عام ٥٠٦ م ، ثم خاض المنذر المعركة التي حدثت بين الفرس وبيزنطة عام ٥٢٨م الى جانب الفرس وتوغل في بلاد الشام ، وجدد هجماته على سورية سنة (٥٢٩م) وتوغل فيها حتى انطاكيـة وانسرب فيها الى داخل الامبراطورية البيزنطية في اسيا الصغرى واحرق هناك عددا من القـرى والمدن من بينها مدينة خلقدونية . نظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسـلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٦ ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(١٨) جواد علي : المفصل ج٤ ، ص ، ٦٧–٦٩ .

(١٩) المصدر السابق : ج٤ ، ص ٧١ . بالاضافة الى ذلك فقد ذكر اوليندر في كتابه ملوك كندة من بني اكل المرار ،بغداد، ص١٠٧ مايلي : « ان الحارث استطاع ان يبسط سلطانه على الجزء الاعظم من بلاد اللخميين في اثناء اعوام الاضطراب ما بين (٥٠٣ – ٥٠٦م) عندما اشتد اوار الحرب بين بيزنطة والفرس . اما ان الحارث قد عدّ ملك العراق في نظر قبائله فهذا امر يوضحه شاعر كندة العظيم امرؤ القيس حفيد الحارث في البيت التالي :

ابعد الحارث الملك بن عمرو ... له ملك العراق الى عمان

انظر شرح ديوان امرىء القيس ، حسن السندوبي ، القاهرة ١٩٥٩م ص، ٢١٥–٢١٦ .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ج١، ص ٥٤٢ .

(٢١) هناك روايات عديدة جاء بها الاخباريون العرب في مصادرهم تروي لنا جميعها كيفية موت الحارث الكندي لكن بشكل مختلف . راجع تلك الروايات في كتاب كندة في الاسلام حتى نهاية العصرالاموي، دمشق ١٩٨٥ ، ص (٩٧–١٠٠) .

(٢٢) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ –١٩٧٠م ،ج٩ ص٩٣.

(٢٣) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر . دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٦م ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢٤) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ – ١٩٧٠ م

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ، ص ٢٧٥.

(٢٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ليدن ١٩٠٢ ، ص ٤٤.

(٢٧) الجون : لقب معاوية الكندي وقد لقب بالجون لشدة سواده . انظر الاغاني : ج١١، ص١٣٣.

(٢٨) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٩ ، ص ٧٩ . حيث جاء فيه : « كان عمرو بن حجر وهو المقصور ملكا بعد ابيه وكان اخوه معاوية وهو الجون على اليمامة وامهما شعبة بنت ابي معاهر بن حسان بن عمرو بن تبع » .

(٢٩) اوليندر : المصدر السابق،ص١٨٣.

(٣٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ج٥ ، ص ١٤١ . حيث جاء فيه « قال ابو عبيدة يوم شعب جبله اعظم ايام العرب » .وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني جاء مايلي عن يوم جبلة « فحشدوا (أي بني ذُبيان) واستعدوا وخرجوا وعليهم حصن بن حذيفة بن بدر ومعه الحليفان اسد وذبيان يطلبون بدم حذيفة واقبل معهم شرحبيل بن الاخضر الجون بن اكل المرار والجون هو معاوية الكندي في جمع من كندة واقبلت بنو حنظلة بن مالك والرباب عليهم لقيط بن زرارة يطلبون بدم معبد بن زرارة وينثربي بن عدس واقبل معهم حسان بن عمرو الجون الكندي في جمع عظيم من كندة » . وقد عين تاريخ يوم جبلة بعام ٥٥٢م كما ذكر اليزيدي في نقائض جرير والفرزدق طبعة لايل ، ص ٦٨٦.

(٣١) الهمداني (الحسن بن احمد) : كتاب صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤م، ص ١٦٨–١٦٩.

(٣٢) ابن الاثير : لكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ، ج١ ، ص٥٩٥.

(٣٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤ ، ص ١٧٥.

(٣٤) اوليندر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

جغرافية اليمن

في القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد

محمد سعيد شكري
جامعة عدن

اختلف الباحثون في سبب تسمية اليَمَن يمناً ، فمنهم من ينسبها الى يمن بن قحطان ، او الى يمن بن قيدار ، وقيل تسميت يمنا لانها واقعة على يمين الكعبة ، او لانها على يمين الشمس ، أو لتيامن الناس اليها(١) .

وفي النصوص العربية الجنوبية « المسند » وردت كلمة « يمنت – يمنات » كمنطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى ايام الملك شمريهرعش (٣٠٠م أو بعدها بقليل) بعد كلمة حضرموت في الترتيب (سبأ وذي ريدان وحضرمون ويمنت) . وتعنى يمنت ، في العربية الجنوبية ، الجنوب .

و « يمنت » الواردة في النص السابق في راي جلاسر (Glaser) منطقة تشمل القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب ، من باب المندب حتى حضرموت(٢) .

وفي الكتابات المعينية(*) المهمة، كتابةرقمت برقم Glaser III5 = Halvey 335, Halevey 578) تتحدث عن حرب وقعت بين « ذيمنت » و « ذشامت » ، أي بين الجنوب والشمال . ومن « يمنت » جاءت كلمة اليمن(٢) .

يتضح ان « يمنت » هي أرض الجنوب ، جنوب الجزيرة العربية ، مقابل

(*) اختلف الباحثون حول الفترة الزمنية للنص ما بين قبل الميلاد وبعده ، لكنه سابق عن نص الملك (شمريهرعش) انظر جواد علي : مرجع سابق ٧٩/٢ .

« شامت » أرض الشمال ، شمال الجزيرة العربية (*) . وبهذا فان النص المعيني يشير الى ان التسمية قديمة ولكن نتيجة للتجزئة السائدة آنذاك في الرقعة السياسية اليمنية لم تتمكن الكلمة من النمو ، فظهرت في نحو القرن الرابع الميلادي (٣٠٠م أو بعدها بقليل) لتدلل على منطقة محددة . وبما ان للكلمة عمقها التاريخي والجغرافي فسرعان ما انتشرت لتشمل كل حدود اليمن الطبيعية وأقسامها ، حسب تحديد المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، في العصور الاسلامية المختلفة .

يحتل اليمن الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، ويشكل بحدوده الطبيعية — في بداية الاسلام — شبه جزيرة طبيعية متميزة ، تمثل صلة الوصل ما بين الهند والصين ، وشرق افريقية والمحيط الهندي(٤) .

وتأتي الاهمية الكبرى لموقع اليمن من كونه يقع على « فرضتي الدنيا »(٥) آنذاك : البحر الاحمر والخليج العربي ، مما جعله معبرا للتجارة العالمية الى فارس ، وشرق البحر المتوسط (بلاد الشام) ، ومصر ، وبلاد الاغريق ، وروما من جهة ، ومع الحبشة ، وشرق افريقية وسيلان والهند والصين من جهة اخرى(٦) .

وهذه الاهمية الاستراتيجية والتجارية للموقع اليمني ، جعلته هدفا ومطمعا لغزوات أجنبية مرات عديدة (٧) .

وقد اثر الموقع في عملية الاختلاط السكاني والحضاري بين اليمن ولاقطار التي اتصل بها ويظهر ذلك على السواحل او في المناطق اليمنية الداخلية(٨) .

كما شكل هذا الموقع الفريد ، منطقة كثافة سكانية عالية في الجزيرة العربية على العصور (٩) .

حدود اليمن :

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة اقسام :

تهامة والحجاز ونجد والعروض واليَمَن(١٠) . وقد أفاض المؤرخون والجغرافيون العرب والمسلمون في العصور الاسلامية في تبيان وتفصيل حدود وأقسام اليمن ، التي تحتل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية .

يحد اليمن من الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن

(*) يرى الهمداني ان الجزيرة العربية « عند اهل اليمن يمن وشام فجنوبها اليمن وشمالها الشام ». الصفة : ٦٤ .

الغرب البحر الاحمر (القلزم)(١١)، ويفصل بين اليمن في الجنوب وباقي الجزيرة العربية في الشمال خط يبدأ من حدود عمان ويبرين الى حد ما بين اليمن واليمامة فالى حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جرش وكتنة ، منحدرا في السراة على شعف عنز ، الى تهامة على ام جحدم — وهي أول حدود اليمن — الى البحر حذاء جبل يقال له كدمل بالقرب من حمضة(١٢) .

ويحدد الاصمعي بداية الحدود الشمالية الشرقية لليمن عند بينونة — وهي ليست من اليمن — بين عمان والبحرين(١٣) ومما يلي المشرق غربا رمل بني سعد الذي يقال له يبرين وهو منقاد من اليمامة حتى حضرموت(١٤) .

اما حدود اليمن الشمالية في العصور القديمة ، فلم تشر المصادر الى تحديد رسمي لها ، غير ان هيمنة الدول اليمنية القديمة السياسية والحضارية قد وصلت الى اصقاع بعيدة شمالا ، وناوءت الدول اليمنية القديمة الفرس على حدود العراق والجزيرة ودول الشام ، بل ان السيطرة اليمنية السياسية والاقتصادية كانت لا تضاهى على المنطقة الممتدة من الحجاز الى الشام(١٥) . ويبدو ان علاقات اليمن الاقتصادية فرضت الوجود البشري والسياسي والحضاري في خط الحجاز — الشام(١٦) .

أما الحديث عن سيطرة الدول اليمنية على القبائل العربية في وسط الجزيرة وتعيين ولاة لها على هذه القبائل وعلى أهم مدنها في اليمامة ونجد ، ومكة ويثرب(١٧) ، فذلك ما افاضت بذكره المصادر القديمة .

ولهذا نستطيع ان نقول ان الحدود الشمالية لليمن كانت تتحدد حسب قوة النظام السياسي اليمني وهيمنته على خطوط التجارة ، في الجزيرة العربية ، ومع العراق والشام ، ومدى سيطرته على القبائل في وسط الجزيرة العربية وشمالها .

لكن المصادر الجغرافية والتاريخية الاسلامية اعطت تصورا للحدود اليمنية الشمالية في فترة بداية سيادة الاسلام على اليمن . آخذة في اعتبارها الامتداد السكاني المتصل للقبائل اليمنية ، سواء في تهامة أم سروات الحجاز ونجد ، فالحد الفاصل بين حدود اليمن من جهة تهامة « ام جحدم » ، وهي قرية بين الازد وكنانة (١٨) . ويعتبر ياقوت (الليث) « في اول ارض اليمن » (١٩) ، اما في سروات الحجاز فحد اليمن من يلملم ثم على ظهر الطائف(٢٠) . حيث يشير البكري وياقوت(٢١) الى نزول بجيلة وثقيف ، « حضرة الطائف » ، واشتراكهما فيها منذ الجاهلية حتى قيام الاسلام . وما زالت بجيلة في مواطنها حتى عصرنا الحاضر(٢٢) . ثم يمتد الخط (خط الحدود) شرقا الى بلاد خثعم بين بيشة وتربة وما صاقب تلك البلد التي نزلتها (خثعم) منذ العصر الجاهلي (٢٣) ، وتوجد اليوم في هذه المناطق وخاصة تربة والقرى التابعة لها عشيرة البقوم من قبيلة الازد اليمنية وجبلهم المنيع حضن(٢٤) ، الذي كانت تمتلكه قبيلة قضاعة اليمنية في الجاهلية(٢٥) .

ويلي خط الطائف ـ تربة جنوبا سراة الازد «أزد شنوءة » التي يعتبرها ياقوت(٢٦) « مخلاف باليمن » بل ويجعل امتداد ارض شنوءة على محجة مكة الى عرفة ويفرع اليها سيل الصلة من ثور . ويسمى البكري(٢٧) سراة شنوءة بالحجاز الاسود تفريقا له عن حجاز المدينة .. وللتفريق الجغرافي السابق دلالة مورفولوجية اذ ان كل قسم يعتبر اقليما مورفولوجيا له خصائصه المميزة في الارتفاع والمناخ والحياة النباتية(٢٨) . ويطلق على هذه المنطقة سابقة التحديد اليوم « عسير » ، نسبة الى قبيلة عسير التي تنتسب الى قبيلة الازد اليمنية (٢٩) .

ويلتقي خط الحدود يلملم ــ الطائف ــ تربة ـ بيشة المتجه شرقا بالتحديد السابق للهمداني عند وادي تثليث من ديار قبيلة مذحج اليمنية (٣٠) ، وتحدد بعد ذلك بعض المراجع(٣١) الحديثة وادي الدواسر كحد شمالي لليمن ، ومن ثم حدود اليمامة، فيبرين مرة أخرى .

وهذا التحديد الجغرافي للحدود الشمالية كان نتاج عوامل تضاريسية ومناخية ونباتية ، ناهيك عن الجوانب السكانية ، إذ شكلت اليمن وحدة طبيعية متكاملة ذات خصائص جغرافية متميزة عن باقي وسط الجزيرة العربية وشمالها .

وهذا ما تشير اليه احدث الدراسات الجغرافية الطبيعية حيث تعتبر اليمن من وجهة نظر التقسيم الجغرافي مصرا (Country)مميزا ، يشمل حيزا جغرافيا يمتد من جبال عسير في الحجاز وحتى خليج عدن .. وله خصائصه الجيولوجية والنباتية والمناخية المميزة(٣٢) .

فمرتفعات اليمن الشمالية ، سراة شنوءة (سراة عسير) شكلت اقليما مورفولوجيا خاصا ، اذ تعتبر أكثر ارتفاعا من جبال الحجاز الشمالية ، اذ يتراوح ارتفاعها بين (١٨٠٠ ــ ٣٠٠٠ متر) فوق مستوى سطح البحر(٣٣) .

كما تهطل الامطار الموسمية على اليمن ، ومنها عسير ، بينما تظل المناطق الشمالية من خط الحدود اليمنية بعيدة عن هذه الامطار . ولهذا فان الخصوبة تنتهي شمالا عند مدينة الليث على شاطىء البحر الاحمر . وتؤمن الامطار الموسمية زراعة الارض اليمنية ، زراعة منتظمة ، وتوجد فيها خضرة دائمة في اودية خصبة(٣٤) .

وقد تنبه لهذه الخصوصية الجغرافي اليمني الهمداني(٣٥) ، حيث ذكر صفة بلاده بـ « اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعها » .

أما من حيث الحدود الشمالية الشرقية لليمن ، فقد اكتنفتها مناطق صحراوية واسعة خالية من الابار والسكان والمراعي ، قفرة لا تسلك الا بصعوبة كبيرة (٣٦).

ومن الجدير بالذكر ان الصراع في منطقة الحدود الشمالية لليمن ظل قائما بين القبائل الجنوبية والشمالية منذ الجاهلية حتى بداية العصر العباسي دون ان يحصل اي تغيير يذكر في هذه الحدود(٣٧) ، ودليلنا على ذلك ان الوثائق السياسية لم تشر البتة الى أي وجود سكاني كبير للقبائل الشمالية في هذه المنطقة(٣٨) وقد سجلت المصادر(٩٣) بعد ذلك مدا سكانيا لاحقا للاسلام ،اتجه جنوبا حيث بدأت عشائر وقبائل شمالية تظهر في مناطق الحدود الشمالية لليمن سواء اكانت مدنا أم قرى أو مراعي ، وتشكل فيها اعدادا كبيرة مثل قبيلة عنز في جرش وقريش في قريتي تبالة والمراغة.

واثر هذا المد السكاني تأثيرا كبيرا على المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، فتم تحديد الحدود الشمالية لليمن حسب الفترة التي كتبوا فيها كتاباتهم، مستجيبين بذلك لاحداث طرأت متأخرة على قيام دولة الخلافة الراشدة .

وتأثر بذلك التحديد المتأخر للحدود الشمالية بعض من بحث في تاريخ اليمن(٤٠) في صدر الاسلام ، فجاء تحديدهم لحدود اليمن بعيدا عن المنطلقات الديموغرافية والبيئية والحضارية ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار التغييرات التي طرأت في فترات لاحقة منذ قيام الاسلام ، فاسقطوا حدود القرن الرابع الهجري لليمن على حدودها الشمالية في صدر الاسلام .

ولهذا فانه من خلال البحث والاستقصاء الكاملين للمصادر الادبية والجغرافية والتاريخية يمكن اجراء الرصد الواضح لحدود اليمن الشمالية في الفترة مدار بحثنا هذا ، وهي صدر الاسلام .

وبناء على التحديد السابق للجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين للحدود اليمنية فان ما « صار خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان وما بينهما : اليمن وفيها التهائم والنجود واليمن يجمع ذلك كله »(٤١) وتفصيل المناطق اليمنية كما يلي :

سراة بجيلة ، سراة الازد (عسير) بلاد خثعم ، بلاد مذحج ، بلاد فرسان وحكم وعك والاشعريين ، نجران ، مخلاف صنعاء ، مخلاف الجند ، حضرموت الاسعاء (الشحر) مهرة عمان(٤٢) .

ومما يؤيد ان هذه المواضع تشملها اليمن « كتب العهود من الخلائف لولاة صنعاء اليمن ومخاليفها ، وعك ، وعمان ، وحضرموت »(٤٣) .

كما تضم اليمن العديد من الجزر في البحر الاحمر مثل : دهلك ، فرسان ، كمران

جزر زقر ، جزر فاطمة ، جزيرة ميون (بريم) عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر .، وفي البحر العربي مثل جزيرة سقطرة ، وكوريا موريا ومصيرة (٤٤) . وتقدر المصادر القديمة مساحة اليمن «نحو الثلثين من ديار العرب»(٤٥) وتختلف المراجع(٤٦) الحديثة في تحديد مساحة اليمن الطبيعية في عصرنا الحاضر .

وتنقسم اليمن تضاريسيا الى الاقاليم التالية :

السهول الساحلية : وتقسم بدورها الى الاقسام التالية :

١ ــ السهل الساحلي الغربي لليمن ، واشتهر في الكتابات القديمة بتهامة او الغور . وتمتد تهامة اليمن التي تسمى « بلاد حكم والاشعريين وعك » من الليث شمالا الى باب المندب جنوبا ، ويحدها غربا ساحل البحر الاحمر وشرقا المرتفعات الغربية ، وتقطع هذه المرتفعات اودية عدة تنتهي الى البحر الاحمر ، ويتركز فيها الاستقرار السكاني . ويتراوح عرض سهل تهامة بين ٤٠ و ٧٠ كم (٤٧) . ومن الجدير ذكره هنا ان الهمداني (٤٨) يعتبر عدن جنوبية تهامية ، ويرى القلقشندي (٤٩) ان عدن « اعظم المراسي باليمن » ، وظفار « قاعدة بلاد السحر » تهاميتان ، معتبرا الساحل الجنوبي لليمن من تهائم اليمن .

٢ ــ السهل الساحلي الجنوبي : وهو سهل ضيق يتراوح عرضه بين ٨ و ١٧كم حيث يتصل بعد خط طول ٥٧° شرقا برمال الصحراء اليمنية « الربع الخالي » ، ويشمل ثلاثة اقسام رئيسة :

أ ــ ساحل عدن   ب ــ ساحل حضرموت   جـ ــ ساحل ظفار(٥٠) .

٣ ــ السهول الشرقية وتنقسم الى قسمين .

أ ــ الباطنة : التي تقابل « تهامة » في غرب اليمن وتمتاز بخصوبتها وسعتها وتمتد بين مسقط جنوبا ودبا شمالا ، ويصب فيها عدة اودية من مرتفعات الحجر الغربي أهمها وادي سمايل ووادي الجزي الذي يصب قرب صحار(٥١) .

ب ــ السهل الساحلي : المطل على الخليج العربي ابتداء من مدخل الخليج حتى حدود اليمن الشمالية الشرقية عند بينونة ، ويقع ضمن نطاق السهول الشرقية للجزيرة العربية(٥٢) .

المرتفعات اليمنية :

١ ــ اقليم المرتفعات الغربية لليمن « السروات » ، يشكل وحدة طبيعية قائمة بذاتها تمتد من مشارف الطائف شمالا « سراة بجيلة » ، لتضم جبال عسير « سراة

الازد » عند خط ٢٠° شمالا ، الى جبل العر « شمسان » في عدن جنوباً ، ويتسع امتداد المرتفعات الغربية لليمن نحو الشرق كلما اتجهنا جنوبا ، ويزداد ارتفاعا ، فيصل ارتفاع اعلى قممها ، جبل النبي شعيب (٣٠ ميلا غرب صنعاء) الى ٣٧٦٠مترا. مترا .

ويتراوح ارتفاع الجبال اليمنية بين ٥٠٠٠ر١٠٠٠٠ قدم (٥٣) * ومن اشهرها جبال « هجير في سقطرة » والعر (شمسان) وردفان وحرير وجحاف وثمر والكور والظاهر وصبر والتعكر وريمان وحصن ارياب وضوران وشبام وحضور ومسوَر المنتاب والمصانع وجبل ابها والحضَن وبرَط وهيلان ونقم وعيبان واسبيل ومشوة والعود(٥٤) .

٢ ــ المرتفعات الشرقية لليمن « مرتفعات عمان » .

تقع هذه المرتفعات شرق اليمن ، وتختلف بنيتها عن المرتفعات السابقة وتأخذ شكل هضبة ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم تمتد موازية لساحل خليج عمان من رأس مسندم في الشمال الى ساحل البحر العربي جنوبا .

وتنقسم هذه المرتفعات الى ثلاثة اقسام : في الشمال صخور مسندم ويليها جنوبا الحجر الغربي . وتمتاز منطقة جبال الحجر الغربي بانتشار مجموعة من الاودية الخصبة فيها تصب في سهل الباطنة ويتمثل قسمها الثالث وهوالجنوبي بكتلتي الجبل الاخضر والحجر الشرقي بالتتابع .

واعلى جبال مرتفعات اليمن الشرقية الجبل الاخضر اذ يبلغ ارتفاعه ٣٠١٨ مترا (٥٥) .

ــ الهضاب اليمنية :

١ ــ الهضبة الشرقية لمرتفعات اليمن الغربية او ما يسمى في المصادر القديمة « نجد اليمن » ، وتقع شرق المرتفعات اليمنية الغربية وتنحدر تدريجيا الى الشرق ، وتقطعها عدة اودية الى الشرق مثل بيشه وتثليث والجوف والى الجنوب مثل تبن وأبين اللذان يصبان في ساحل عدن . ويحد هذه الهضبة شرقا صحراء اليمن . ويبتدىء طول هذه الهضبة من الجبال الجنوبية لليمن المطلة على لحج وأبين « حرير وجحاف ، وبقية جبال سروحمير ومذحج » وينتهي في الشمال للاقليم اليمني الى اعراض نجد : تثليث وبيشة وتبالة . ومن اشهر مدن نجد اليمن جرَش ونجران وصعدة وصنعاء والجند وجبا وجيشان ومنكث وذمار ورداع وردمان وقرن وحِصبي(٥٦) . ومتوسط ارتفاع الهضبة « نجد اليمن » ٥٠٠٠ قدم ، ويزداد الارتفاع فيها تدريجيا نحو الجنوب في منطقة يريم . وتشتهر الهضبة بالقيعان (الحقول)

للزراعية المتعددة ، أما في شمال الهضبة فان الارتفاع يتراوح بين ٤٠٠٠ ـ ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . واهم التلال الصخرية شمال الهضبة اليمنية جبال القهر ، وجبال الوجيد وجبال القارة الواقعة شرق وادي تثليث(٥٧) .

٢ ـ هضاب حضرموت ومهرة ، ويحدها من الغرب جبال سرو مذحج وحمير ، والاجزاء الجنوبية من الهضبة السابقة ، وتتدرج في الانحدار صوب الشرق الى أن تصل الى ما يقرب من ١٥٠ مترا عند خط طول ٥٧ شرقا ، ويستمر هذا المستوى نحو ٢٥٠ كيلو متر الى أن تصل الحد الجنوبي لجبال اليمن الشرقية في عمان . ويقطع هذه الهضاب وادي حضرموت من الغرب الى الشرق ويصب بالقرب من سيحوت ،(٥٨) .

ـ اقليم الصحراء اليمنية « الربع الخالي »(٥٩) .

وهو اقليم واسع يقع شرق الهضبة اليمنية « نجد اليمن » وشمال وشمال شرق هضاب حضرموت ومهرة ، وغرب مرتفعات اليمن الشرقية في عمان وغرب السهول الساحلية الشرقية لليمن الواقعة على الخليج العربي ، حيث تنتهي حدودها مع حدود اليمن الشمالية والشمالية الشرقية ، ويقسم اقليم الصحراء اليمني الى :

آ ـ صحراء الصيهد : وتتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة ويبرين والفلج ، وتكون شرق أعراض نجد تبالة وبيشة وتثليث وترج وشرقي نجران والجوف ومأرب وبيحان (٦٠) .

ب ـ الاحقاف وتقع شمال هضبة حضرموت ومهرة ورمالها كثيرة وغزيرة (٦١) .

ج ـ وبار وتشكل الجزء الشمالي الشرقي للصحراء اليمنية وحدودها الشمالية رمل يبرين واليمامة والبحرين (٦٢) .

ويختلف مناخ اليمن باختلاف اقاليمه التضاريسية ، ووفقا للقرب والبعد عن البحر والقرب والبعد من خط الاستواء . وتهب على اليمن الرياح الموسمية سواء الرياح الموسمية الافريقية صيفا التي تسقط امطارها على غرب اليمن ، ام الرياح الموسمية الشتوية الاسيوية لتسقط امطارها على شرق اليمن في اقليم عمان ومهرة وحضرموت .

ويتركز هطول المطر في اليمن في فصل الصيف . ويحدد ابن خرداذبة شهور المطر في العاصمة صنعاء وما والاها بحزيران ، وتموز وآب وبعض ايلول(٦٣) .

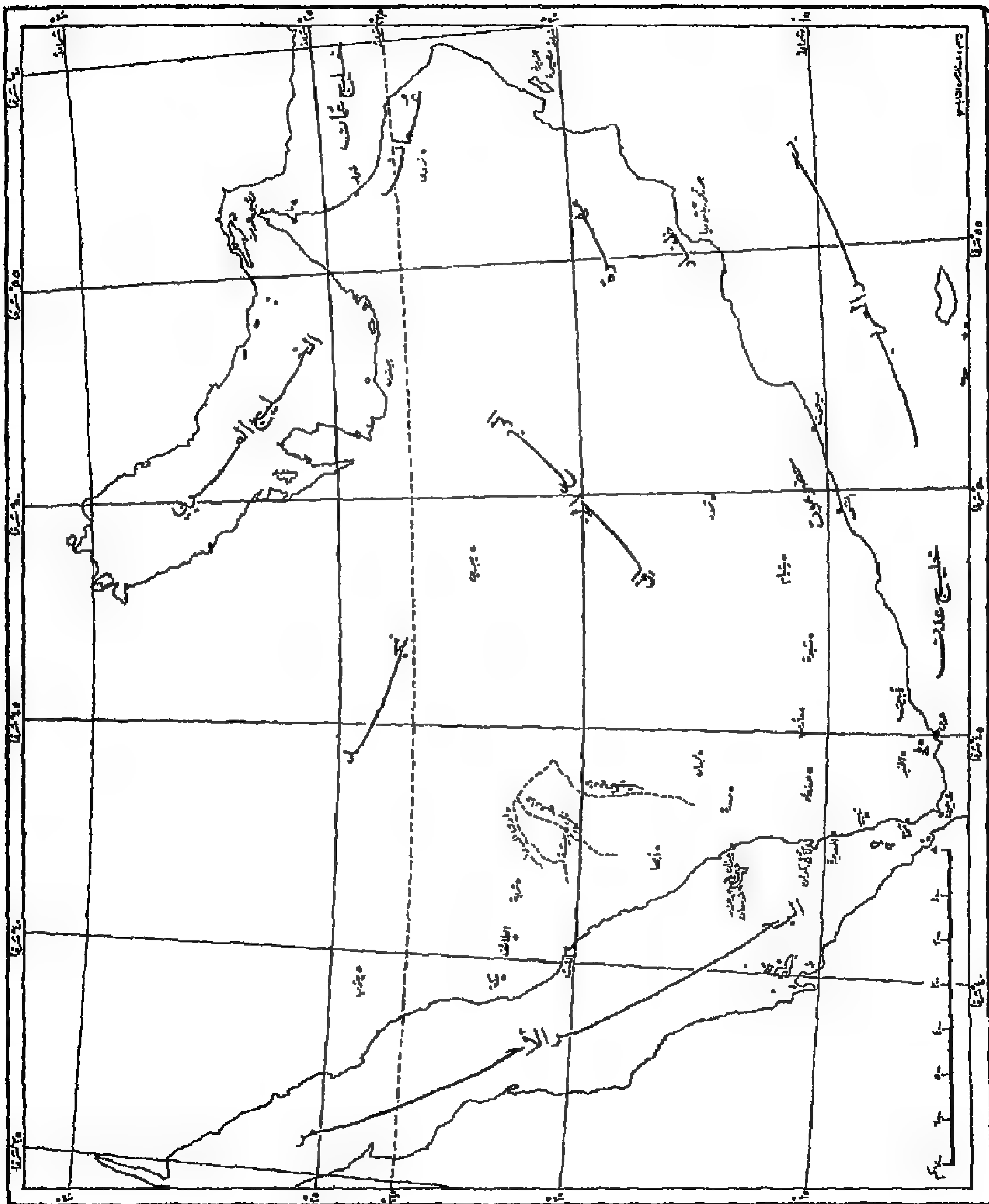
وتشتد درجة الحرارة في التهائم والسهول اليمنية صيفا ، بينما تظل درجة الحرارة في المرتفعات والهضاب اليمنية معتدلة (٦٤) ، كما ان معدلات الامطار في سهول

تهامة تقل عن معدلها في المرتفعات . ومطر المرتفعات اكثر من مطر المناطـق الهضبية الداخليـة(٦٥) .

وتؤثر الامطار في التربة اليمنية فتزداد خصوبتها تبعا لزيادة الامطار . والتربةفي اليمن تربة طميية او غرينية في المناطق غزيرة الامطار ، وحمراء بنية أو بنية ـ صفراء في المناطق الجبلية . وهذه الانواع من الترب تكونت نتيجة التعرية المائية في الوديـان التي تجري مياهها فترة ليست بالقصيرة بعد نزول الامطار في اقاليم اليمن جميعا ، وهي تربة غنية بخصوبتها(٦٦) .

ونتيجة لتنوع المناخ في اليمن وتنوع انواع التربة ، تتنوع النباتات الطبيعيـة والغلات الزراعية ، حيث تقوم الزراعة على دلتا الوديان اليمنية الشهيرة ، وفي القيعان الزراعية ومدرجات الجبال الشاهقة(٦٧) .

ونكتفي هنا بذكر انواع النبات الطبيعي ، ويجمل الهمداني(٨٦) ذلك قائلا : « نبات اليمن بين روض وشجر عرى ، وعضاة مطعمة ، وعضاة شوكة ، وحشائش وزهـور وانوار ، فاما الحشائش ففيها أكثر حشائش العقار » . وتنمو اشجار السلم والاراك والحموض والعـلاك والصبر الجحدمي في شمال اليمن(٦٩) ، والحشائش واشجـار السنط والاثل والسلم والقضاب والغضاة والهجليج في سهول تهامـة(٧٠) وتنبت في الصحارى الخزامي والرخامي والسخبر والكمأة في فصل الربيع(٧١) ويمكن القول ان الجزء الشرقي والشمالي للهضاب اليمنية ، غني بالنباتات الرعوية وينطبق ذلك على هضاب عمان الداخلية وسفوح الجبال فيها (٧٢) .



(١) المسعودي (ابي الحسن علي) ، مروج الذهب ، دار الاندلس ، بيروت ٤٣/٢ . البكري (عبد الله بن عبدالعزيز) ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ، ١٤٠١/٣ . الرازي (احمد بن عبد الله) ، تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين العمري ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، ١٠ . القلقشندي (ابي العباس احمد) ، صبح الاعشى ، المطبعة الاميرية ، القاهرة، ١٩١٣ ، ٦/٥ .

(٢) علي (جواد) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠ ، ٥٣٠/٢ – ٥٣١ . بافقية (محمد) ، تاريخ اليمن القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ،١٤٥ .

(٣) جواد علي ، ٧٩/٢،٨٨، ٥٢١. بافقيه ١٤٥ .

(٤) الاصطخري ؟ ابي اسحاق ، الاقليم ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ٧ . ابن حوقل (ابي القاسم) ، صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت ٢٩ ، ٥ا الهمداني (الحسن بن احمد) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمدبن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٤ ، ٦٥ البكري ، ٩/١ . ياقوت ؟ شهاب الدين) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ١٣٧/٢ ، ٤٤٧/٥ . القلقشندي ١٠،٦/٥ – ١١ ، ٥٥ . الافغاني (سعيد) اسواق العرب ، دار الفكر ،دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠، ٢٠ . لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩، ٩١،٣٣٠ – ٣٣١ . جمال اغا (شاهر) ، جغرافية اليمن الطبيعية، مكتبة الانوار ، دمشق ١٩٨٣ ، ٧. الاكواع ؟محمد) ، اليمن الخضراء ، دار مكتبة الجبل ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ١٤٧ . باوزير (عبد الله) تاريخ اليمن القديم ، مشروع كتاب « تطور المجتمع اليمني » جامعة عدن ١٩٨٥ ، ٢٦ ، « الحركات الشعبية في اليمن » . جعفر ظفاري ، مجلة الثقافة الجديدة اليمنية ، عدد مارس ، ١٩٧٥ ، ٨ .

(٥) المقدسي ؟ شمس الدين ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل (ليدن) ، الطبعة الثانية ، ١٩٠٦ ، ٩٧ .

(٦) ابن حبيب (ابي جعفر)، المحبر، دار الافاق الجديدة ، بيروت ٢٦٥ – ٢٢٦ ، الاصبهاني (ابي فرج) الاغاني ، مطبعة التقدم ، مصر ، ١٣٢٣ هـ ، ١٣٤/٢٠ المقدسي ، ٩٧ . القلقشندي،٥/٥٥، جواد علي ٦٤٨/١ ، ٦٥٢ ، ٢٣/٢ ، ٢٧٨ . جعفر ظفاري ، ٧. باوزير : ٢٦ .

(٧) ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا واخرين ، مطبعة البابي الحلبي مصر ، ١٩٣٦ ، ٧١/١ . الطبري ؟ ابي جعفر محمد) ، تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابوالفضل، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ ، ١٢٧/٢ . الحميري (نشوان) ، منتخبات من اخبار اليمن ، دار الفكر دمشق ، طبعة ثانية ، ١٩٨١ ، ١٤٩ . لاندو (روم) ، الاسلام والعرب ، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٦٢ ، ٢٢ ، جواد علي ، ٢ / ٦٢١ .

(٨) الاصبهاني : ، ٣٠/٦– ٣١ ابن عبد البر (ابي عمر) ، القصد والامم ، مطبعة السعادة ، القاهرة، ١٣٥٠هـ ، ٢٦ . عمارة اليمن (نجم الدين) ، تاريخ اليمن ، تحقيق الاكوع ، مطبعة العلم ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، ١٣٤ . جواد علي ، ٥٣٠/١ – ٥٣١ ، ٤/ ٣٠٣ ، لطفي عبد الوهاب ، ٩١. جمال اغا ، ٩. باوزير ، ٢٨ . الاكواع ، ٢٩٦ وما بعدها .

(٩) جمال آغا ، ١٠ . حتى ؟ فيليب) ، تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف ، بيروت ، الطبعة الرابعة، ١٩٦٥ ، ٥٩/١ .

(١٠) الهمداني ، ٥٨. البكري ٧/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(١١) الاصطخري ، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ٩/١ . ياقوت : ، ١٣٧/٢ ، ٤٤٧/٥ . القلقشندي : ، ٦/٥ . ابن ابن المجاواد (جمال الدين) ، تاريخ المستبصر مطبعةليدن، ٣٩/١ . الزبيدي (محمد) ، تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٣٧١/٩ .

(١٢) الهمداني ، ٦٥ . ياقوت ، ٤٤٧/٥-٤٤٨ .

(١٣) ياقوت ، ٤٤٧/٥ .

(١٤) الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ١٦/١ .

(١٥) الطبري ، ٨٩/٢ - ٩٠ . الاصبهاني ، ١٧٣/٩ .
ابن خلدون (عبد الرحمن) ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت ، ١٠ . النويري (شهاب الدين)، نهاية الارب في فنون الادب ، مطبعة دار الكتاب المصرية ، القاهرة ، ٤٠٦/١٥ . جواد علي ، ١٢١/٢ فيليب حتى ، ٥٢/١ . انظر التوراة سفر اخبار الايام الثاني ٢١ : ١٦ ، ١٧ .
الترسيسي (عدنان) ، اليمن وحضارة العرب ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٠ .

(١٦) نيلسون (ديتلف) ، التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسين علي ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٤٢-٤٤ ، ١٤٧ . جواد علي ، ١٢١/٢ وما بعدها . الاكوع ، ٣٣ .

(١٧) ابن شرية (عبيد) ، اخبار عبيد ، يلي « كتاب التيجان في ملوك حمير » ، حيدر اباد ،الدكن، مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٤٧ هـ ، ٣١٣ . ابن هشام ، ٢٥/١ ، ١١٧-١١٨ . الطبري، ١٠٥/٢ الهمداني ، الاكليل (الجزء الاول) تحقيق الاكوع ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٧ ،٢١٢/١، ٢١٦وما بعدها ، الاكليل (الجزء الثاني) ، تحقيق الاكوع ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٦، ٢٤٨/٢ ، الاكليل (الجزء العاشر) ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، ٤٢/١٠ . الاصبهاني ، ٦١/٨-٦٢،٨٢/١٥ . ابن الاثير (عز الدين)،الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٥٠٤/١ . ابن خلدون (عبد الرحمن) ، العبر المطبعة المصرية ،بولاق ١٢٨٤ هـ ، ٣٠/٢ .

(١٨) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . ياقوت ، ٢٥٠/١ .

(١٩) ياقوت : ٢٤٤/٢ .

(٢٠) الاصفهاني (الحسن) ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ،الرياض، ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى ، ٣٧٥ . الاصطخري :، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الاصبهاني ، ٢١١/١٨، القلقشندي ، ١٥/٥ حول (تحديد موقع يلملم) .

(٢١) معجم ، استعجم ، ٩٠/١ ، معجم البلدان ، ٢٠٥/٣ . وانظر : الهمداني : الصفة ١٢٠ .

(٢٢) ابن بليهد (محمد) ، صحيح الاخبار (عما في بلاد العرب من الاثار) ، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٩٧٢، ١٨٥/٢ .

(٢٣) الواقدي (محمد بن عمر) ، المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ ، ٧٢٢/٢ . ابن سعد (محمد) ، الطبقات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ١٦٢/٢ . الطبري ، ٤١/٣ . الهمداني الصفة ، ٢٥٨ ، البكري ، ٩٠/١ ، المقدسي ، ٨٨. السهيلي (ابي القاسم)، الروض الانف ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ٢٥٢/٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ . حميد الله (محمد) ،الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار الارشاد ،بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢٤) حمزة (فؤاد) ، في بلاد عسير ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ،١٩٦٨، ٢٦ .

(٢٥) الاصبهاني ، ١٢٩/٢١ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ٢٠٥/٣ ، ٣٦٨ – ٣٦٩ . وانظر الهمداني ، الصفة ، ٣٣ . وابن حوقل ، ٣٠، اذ يجعلا مكة اخر حد اليمن .

(٢٧) المصدر نفسه ، ١٢/١ .

(٢٨) ابو العلا (محمود طه) ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الجزآن الاول والثاني ، مكتبة الانجلسو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، والجزآن الثالث والرابع ، مطابع سجل العرب ، القاهرة، الطبعة الاولى ، ٤٠/١ . الغنيم (عبد الله) اقاليم الجزيرة العربية (بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة) جامعــة الكويت ، ١٩٨١ ، ٣٦ .

(٢٩) فؤاد حمزة : ٨٥–٨٦ ، ٩٩ .

(٣٠) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . البكري ، ٩/١. ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(٣١) وهبة (حافظ) ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ ، ٤١ . الويسي (حسين) ،اليمن الكبرى،١ الترسيسي:١١٧.

(٣٢) جمال اغا : ٥١٥ .

(٣٣) عبد الله الغنيم : ٢٧، ٣٦، ٤١ (نقلا عن محمد محمود الصياد في « هذه الجزيرة العربيــة »، مجلة جامعة الملك سعود ، العدد الاول ، السنة الثانية ، الرياض ، ١٩٥٤ ، ص ٥٧ . ابـــو العلا ، ٤٠/١–٤١ .

(٣٤) ابن رسته (ابى العلا احمد) ، الاعلاق النفسية ، المجلد السابع ، مطبعة بريل (ليدن) ١٨٩١، ١٠٩/٧ وما بعدها . الهمداني : الصفة ٦٥ .
المسعودي ، ٣٥/٢ البكري ، ١١٢٩/٣ ، المقدسي ، ٩٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ . القلقشندي، ٤٠/٥ وما بعدها . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ . حتى ، ٢٠/١ . حافظ وهبة ، ٤–٥ ، ٣٣ ، ٣٥–٣٦. ابو العلا، ٢٠/١ ، ٤٩ ، ٥٩ . الاكوع ، ، ٣٢ . بليايف (ي،) ، العرب والاسلام والخلافة العربية ترجمة انيس فريحة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ ، ٥٩–٦٠. الدباغ (مصطفى) ، جزيرة العرب (موطن العرب ومهد الاسلام) ، منشورات الطليعة ، بيروت الطبعة الاولى ، ١٦٩٣، ١١٢/٢ .

(٣٥) الصفة ، ٦٥ . وانظر ياقوت ، ٤٤٧/٥ .

(٣٦) ابن حوقل ، ٤١ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥. البكري ، ١٦/١ .

(٣٧) ابن عبد ربه (احمد بن محمد) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبري ، بت ، ٧٦/٦ – ٧٧ . الهمداني ، الاكليل ، ٤٢٥/١ الاصبهانــي ، ٦٨/٧ ، ١١٣، ٩/٢، ١٦–١٧ ، ٦٦/١٠ ومــا بعدهــا ، ١٢٦/١١ ، ٤٥/١٢ ، ٦٢/١٣ ، ٦٧ – ٦٨ ، ٩٣/١٥ ، ٢١٥/١٨ . ياقوت ، ١٥/٢ ، ١٢٦ ، ٣ /٨٨ . النويري ، ٤١٤/١٥ – ٤١٥ .

(٣٨) محمد حميد الله ، ١٢٨ – ٢٠٨ ، ٢٤٢ – ٢٤٥ .

(٣٩) ابن جعفر (قدامة) ، الخراج وصناعة الكتابة ، يلي المسالك والممالك ، لابن خراواذية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٨٨ . الهمداني ، الصفة ، ٢٥٥، ٢٥٨، ٤٣١ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ ، ٣/٧٤.

(٤٠) انظر ، نزار عبد اللطيف ، اهل اليمن في صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت، ١٩٧٨ ، ٣٧ .

(٤١) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ . البكري ، ٩/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(٤٢) الاصطخري، ٧ ابن حوقل ، ٢٩ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥ ، ١١٩ - ١٢٠ . البكري ، ١/٩٦٧، ١٢ ، ١٦، ٦٣ ، ٩٠ ، ٣٠٥ ياقوت ، ٥٢٩/١، ١١١/٢ ، ١٣٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥/٣ ، ٣٦٨، ٤٤٧/٥ . ابن المجاود ، ٣٩/١-٤٠ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ ، ٣٦٢/٥ ، ٣٧١/٩ . عاقل (نبيه) ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ٢٥ . جواد علي ١٧٠/١. وما بعدها ٥٥١/٢ - ٥٥٢ . الاكواع ، ٣٣ . بن بليهد ، ١٨٥/٢ ،

(٤٣) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ .

(٤٤) الهمداني ، الصفة ، ٦٧-٦٨ . ياقوت ، ١٣٩/٢ ، ٤٩٢ ، ١٤٤/٥ . ابن المجاود ، ٢/ ٢٧١ . الويسي ، ١-٢ الاكواع ، ٩٢ . الدباغ ، ٢٣/٢ ، ٨١ ، ١٢٢ .

(٤٥) الاصطخري ، ٧. ابن حوقل ، ٢٩ . ابن المجاود ، ٤٠/١ .

(٤٦) الويسي ، ٢-٣ . الترسيسي ، ١١٩ . الاكوع ، ٩٢ .

(٤٧) الهمداني : الصفة ، ٥٧ ، ٧٠ ، ١٢٠ . ابن حوقل ، ٤٣ . البكري ، ٧/١ وما بعدها . المقدسي، ٦٩. ابو العلا ، ٢٧/٣ . الاكوع ، ٣٨-٣٩ .

(٤٨) الصفة ، ٧٠ .

(٤٩) صبح الاعشى ١٠/٥ وما بعدها .

(٥٠) ياقوت ، ٦٠/٤ . القلقشندي ، ١٠/٥ وما بعدها . ابو العلا ، ٢٠/٤ الغنيم ، ٤٠ .

(٥١) الدباغ ، ١١٢/٢ ، الغنيم ، ٤٤ .

(٥٢) ابو العلا ، ٢٧٥/١ . الدباغ ١١١/٢ . الغنيم ، ٤٣.

(٥٣) الهمداني ، الصفة ، ٩٩ وما بعدها . ابن حوقل ،٤٥ . ابو العلا،٤٠/١، ٢٧٥الغنيم،٣٦، ٤١.الاكوع ٤٤ . لاتذكرالمصادر القديمة ارقام الارتفاعات الجبلية .

(٥٤) الهمداني ، الصفة ، ١٤١ - ١٤٢ ، ٢٦٥ - ٢٣٦ . ابي مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ٨/١ . الاكوع، ٤٣وما بعدها . يعقوب (هارولد) ، ملوك شبه جزيرة العرب ، ترجمة احمد المضواحي ، دار العودة بيروت ، ١٩٨٣، ٣٨٥ . الدباغ ، ٩/٢ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٨٢ .

(٥٥) ابو العلا ، ٤٢/١ - ٤٣ . الغنيم ، ٤٥ وما بعدها . الاكوع ، ١٣٧ .

(٥٥٦) الاصطخري ، ٧ . الهمداني ، الصفة ، ٧٧ وما بعدها المقدسي ، ٦٩ - ٧٠ . القلقشندي ، ٣٧/٥ وما بعدها. ابو العلا . ٤١/١ ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ - ٣٠/٥ . الاكوع ، ٣٦-٣٧ .

(٥٧) ابو العلا ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ - ٣٠ .

(٥٨) الغنيم ، ٤٠ . ابو العلا ، ٢٣/٤ - ٢٤ ، ٣٠ .

(٥٩) الغنيم ، ٧٧ . نقلا عن احمد بن ماجد ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد ، تحقيق ابراهيم خوري ، وعزة حسن ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٣٠ «حدد ابن ماجد الربع الخالي بانه مشارق مارب والجوف ».

(٦٠) الهمداني ، الصفة ، ١٦٦ - ١٦٧ ، الاكوع ، ٤١ ، يخلط عبد الله غنيم بين صيهد وبلاد ، انظر اقاليمالجزيرة العربية ، ٨٤ .

(٦١) ابن حوقل، ٤٤ . المقدسي ، ٨٧ . نشوان ، ٢ . ياقوت ، ١١٥/١، الاكوع،٤١ .

(٦٢) البكري ، ٢٧٥/٢ – ٣٧٦ ، ١٣٦٦/٤ – ١٣٦٧ ، النويري ، ١٠٩/١٠ . الاكوع ، ٤٤.

(٦٣) ابن خرداذبه (ابي القاسم) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٥٦ . ابن رسته ، ١٠٩/٧ . ابو العلا ، ٤٨/١ – ٤٩ ، ٣١/٣ ، ٣٤ ، ٣٥/٤. جمال آغا ، ٢٩٩ ، الاكوع ، ٦١ وما بعدها.

(٦٤) ابن رسته ، ١٠٩/٧ . ابن حوقل ، ٤٣ . المقدسي ، ٩٥،٣٣ . القلقشندي ، ٣٩/٥،٥٥ . ابو العلا ، ٣٥/٤ . الدباغ ، ١١٢/٢ .

(٦٥) جمال آغا ، ٣١٩ وما بعدها .

(٦٦) ابو العلا ،٥٩/١ . آغا ٣٢٢ .

(٦٧) الهمداني : الصفة ، ٢٤٣ . المجاهد (عبد الله) ، اسس زراعة وانتاج المحاصيل الحقليـــة في الارض اليمنية ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٨٠، المقدمة ص٧ . عمر (سلطان)، نظرة في تطور المجتمع اليمني ،٦٧.

(٦٨) الهمداني ، الصفة ٢٧٦ .

(٦٩) ياقوت ، ٢٥٠/١ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ .

(٧٠) ابو العلا ، ٤١/٣ .

(٧١) الاصبهاني ، ١٥٩/١٠ .

(٧٢) المجاهد ، ٤٠٥ وما بعدها . الدباغ ، ١١٤/٢ الفنيم ، ٤٣ .

لمحات عن يهود الجزائر
منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠

محمد داده

حرص اغلب الكتاب اليهود على المبالغة في تصوير الوان الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني ، متناسين عن عمد ذلك الرخاء الذي شهده يهودهم في مختلف النواحي ، ومتجاهلين عن قصد أن الجزائر كانت من أهم المناطق التي آوت اليهود الفارين من وجه الاضطهاد المسيحي في اوربا ، يشهد على ذلك ازدياد عددهم المطرد ، والذي ما كان ليزداد لولا شعورهم بالامن والطمأنينة والسلام.

وقبل أن نتناول جوانب هذا الموضوع يجدر الاشارة الى أن يهود المنطقة لم يشكلوا وحدة عنصرية عرقية ، بل كانوا جماعات ترتبط بالدين والتقاليد والعادات، فالموجات المتتالية التي جاءت من انحاء حوض البحر المتوسط ومن ورائه قد طمست كل الميزات العرقية الواضحة في المنطقة . فبالاضافة الى العنصر السامي القديم الذي جاء مع الفينقيين منذ تأسيس قرطاج ثم بعد تهديم القدس في عهد « تيتوس » كان هناك عدد لا بأس به من البربر المتحولين الى اليهودية ، وقدمت من شبه جزيرة ايبيريا موجة اخرى ابتداء من العصور الحديثة . وقد لجأ اليهود الى الجزائر هربا من الاضطهاد الديني الذي كانوا يلاقونه في هذه البلاد ، كما قدم الى المنطقة مستوطنون يهود من بعض المدن الاوروبية منذ بداية القرن ١٨ ، ولا سيما من ليفورن، بحثا عن الثروة والاستغلال التجاري .

ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر فرق واضح بين اليهود المحليين (القدامى والوافدين من الاندلس) ، الذين كانوا على صلات طيبة مع المسلمين ، وبين اليهود الليفورنيين، الذين أفادوا ، بصفتهم أجانب ، من نظام الامتيازات ، ومن حماية الحكام الاتراك ، ومن ثم بدأوا يسيطرون على الطائفة اليهودية المحلية وعلى اقتصاد الجزائر وسياستها

وقد سمحت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال هذه الفترة لليهود الليفورنيين ، بتدعيم مراكزهم في البلاد ، اذ أدى تردي الوضع الاقتصادي في الايالة الى نقص عدد المتطوعين في الاوجاق الجزائري ، فعمد حكام الاقاليم العثمانية الى ارسال الاشقياء والمساجين وقطاع الطرق وحثالة المجتمعات(١) ، ومن هؤلاء كان حكام الجزائر ، الذين كانوا غير قادرين على تسيير أعمال الدولة لان اكثرهم توصل الى منصبه بفضل تمرد الانكشارية المطالبة بزيادة الاجور ، بعد ان كان هؤلاء الحكام يباشرون مهنا تعد بسيطة لا علاقة لها بشؤون الحكم ، مثل مهنة الفحامين او الاسكافيين او الكناسين وأصدق مثال على ذلك : الداي مصطفى ، الذي قيل بانه كان كناسا ورفعه اليهود الى مرتبة الداي(٢) وكذلك الداي علي الغسال ، الذي كان يغسل الاموات قبل سنة ١٨٠٨(٣) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن القول منذ البداية ، ان فساد الحكم العثماني في الجزائر ، هو الذي يسر لليهود الليفورنيين السيطرة على سياسة الجزائر واقتصادها .

التنظيم الطائفي والحياة الدينية :

في الواقع ان ثمة حقيقة يصح أن نبدأ بها ، وهي أن النظام العثماني في الجزائر ترك لليهود حرية تنظيم أمورهم وعلاقاتهم الداخلية حسب شعائرهم الخاصة وعباداتهم المرعية .

نظر العثمانيون الى اليهود في الجزائر بوصفهم جماعة متميزة لها ديانتها وعقائدها الخاصة ، فوجب عليهم اذن ، في ظل التسامح ، أن يمنحوهم حرية العبادة والاقامة والسفر والتعليم ، وأن يحافظوا على حياتهم وأملاكهم ، والا يتدخلوا في شؤونهم الداخلية التي عهد بادارتها الى الرؤساء الدينيين ، ومقابل تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها فرضت عليهم ضريبة معينة هي (الجزية) .

وفي هذا الصدد يقول القنصل الامريكي (وليام شالر) في مذكراته ، فهم « يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية ، وهم يخضعون لقوانينهم الدينية في الاحوال الشخصية (......) وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والاقامة حيث يرغبون ، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع انحاء المملكة ، واليهود غير قابلين للاسترقاق »(٤) .

كان يتولى ادارة أمور اليهود رئيس من أبناء الطائفة يعينه الحاكم(٥) يدعى المقدم أو الشيخ(٦) فهو الذي يمثل رعيته في كافة أمورها أمام السلطات العثمانية ، ويطلع الوزراء على جميع مقررات طائفته ، ويقوم بتنفيذ أوامر الداي ونزواته

الشخصية ، فهو المسؤول المباشر عن دفع الضرائب تجاه الادارة العثمانية ، التي كانت تنظر الى اليهود كوحدة دافعة للضرائب(٧) .

وبجانب رئيس الطائفة ، كان هناك مجلس للطائفة اليهودية (TOBE - HAiR) يتألف من أربعة اشخاص ، غالبا ما كان يختارهم المقدم .. وقد اختص هذا المجلس بادارة شؤون الطائفة ، وبالناحية المالية خصوصا ، اضافة الى ذلك كان المجلس يقدم خدماته لكل ما يخص الضرائب والمساهمات .

الى جانب المجلس ، كانت هناك وظائف أخرى اشتملت عليها المؤسسة الطائفية مثل وظيفة الكزبار (Guizbar) والكاباي (GABAi) والشابر (CHABER) . فالكزبار ، هو الموظف الذي اختص بتنظيم المعابد ومراقبتها ، كما اختص كذلك بتوزيع الصدقات . اما الكاباي والشابر ، فقد اختصا بدفن الموتى ، والى ذلك اختص الاخير بمراسيم الزواج (٨) .

وقد كفل النظام الملي المحافظة على حياة اليهود الدينية . ومن الجدير بالتنويه أن المصادر الاوروبية في معظمها تجمع على أنه لم تكن هناك قيود على اقامة دور عبادة في الاحياء اليهودية .. ويقول (روزي) بهذا الصدد ، ان اليهود كانوا احرارا في بناء الكنس والاروقة التي كانت تستخدم كغرف للتعليم الديني(٩) .

ويلاحظ أن اغلب اليهود في الجزائر عاشوا تحت تأثير التقاليد الدينية المستمدة من تعاليم التلمود ، وتعلموا مبادىء الديانة مشافهة عن طريق الحاخامية . والجدير بالذكر أن اليهود الليفورنيين ، أو اليهود الاحرار كما كانوا يسمونهم ، كانوا لايخضعون للمؤسسة الطائفية ، غالبا ما نجدهم يتضايقون من اليهود الاهالي في الكنيس عندما كانوا يشاهدونهم يمارسون طقوسهم الدينية (١٠) .

وكانت الصلوات تقام بالعبرية التي كانت مجرد لغة دينية لاغير ، وكان معظم اليهود يجهلون معانيها (١١) . ومن الخطأ كما يقرر (وليام شالر) انهم كانوا يتكلمون اللغة العبرية ، ولكنهم استخدموا لغة عربية متميزة قليلا من لغة العرب ، وممتزجة بكلمات عربية وتركية وافرنجية(١٢) ..

وكان اليهود في الجزائر على مذهبين : فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سكليين وكبوسيين يمسونهم الاجانب (Fostareros) او العجم ، والاخرون اي الاهالي ويدعون توشايم (Residents) اي المقيمين ، والمذهب كان مذهب السفارديم وبعض القرائين .. اما الاشكنازيم الذين ينحدرون من اصل الماني ، فلم يكن لهم وجود في الجزائر .

ويلاحظ أن كثيرا من اليهود الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لانفسهم الا ما يسمح لهم بسد الرمق في القدس التي يقصدونها ليلفظوا هناك انفاسهم الاخيرة . ولقد شاهد (وليام شالر) في سنة ١٨١٦ عددا منهم وهم يبحرون في آخر حج لهم على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم الى شواطىء سورية(١٣). الا ان هذا السفر الذي كان يقدم عليه اليهود خلال هذه الفترة ، كان يعد مخاطرة كبيرة ، لذلك كانت قلة منهم تصل الى فلسطين(١٤). ومما لا شك فيه ان ارتباط اليهود بتراثهم الديني هو الذي كان يربطهم بفلسطين لما كانت تحمله من ذكريات مقدسة ، وهو الذي دفعهم الى المجيء اليها لاسباب دينية لاغير .

الوضـع التعليمي :

تشهد كتب الاوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة ، ان التعليم اليهودي ، كان منتشرا في أنحاء البلاد ، وأن كل يهودي حسب قول (كوهين) كان يعرف القراءة والكتابة(١٥) .

والدولة العثمانية ، كما هو معروف ، لم تتدخل في شؤون التعليم وعدته من جملة الامور المرتبطة بالطوائف الدينية ، فخولت الجماعات اليهودية المنتشرة في انحاء البلاد حق تأسيس المدارس الخاصة بها وادارتها ، وغالبا ما تكون غرفا ملحقة بالكنيس .

ومهما يكن من امر ، فان الطائفة اليهودية كانت ترمي الى ان يكون تعليم ابنائها تحت اشرافها حتى توجههم الوجهة التي تريدها ، وحتى يشبوا على ولائهم لدينهم وطائفتهم . وفي هذا المجال عنيت بالتعليم الديني وبث المفاهيم الدينية فيهم ، كما اهتمت كذلك بمبادىء الحساب لان التجارة والحرف تقضي معرفة ذلك . ولذلك ظل التعليم اليهودي كالسابق تعليما دينيا بحتا ، يبدأ في المنزل على يد الاباء الذين كانوا يسهرون على تربية اطفالهم . فلا يدخل الطفل الى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة الا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد ترسخت فيه . اما التعليم في المدارس ، فكان يشرف عليه رجال الدين . غير ان طرق التدريس ظلت كالسابق تقليدية لا تعتمد على أية وسيلة تربوية ، وكان يغلب عليه الحفظ والاستذكار .

هذا وقد كان التعليم اليهودي الذي اشرفت عليه الطائفة يشمل حسب (كلانسوال) على ثلاث مراحل :(١٦)

١ ــ المرحلة الاولى : وفيها يدخل التلميذ الذي تتراوح سنه ما بين الرابعة والثامنة الى المدرسة ، ويتعلم القراءة تحت اشراف رجال الدين .

٢ ــ المرحلة الثانية : وفيها يدرس الطلاب تاريخ العهد القديم (التوراة).

٣ ـ المرحلة الثالثة : وفيها يتلقى الطلاب مبادىء الكتابة والحساب .

اما التعليم في هذه المدارس الدينية ، فكان يتم باللغة العبرية ، ويذكر (هايدو) أن التلاميذ كذلك تعلموا اللغة العربية التي كانوا يكتبونها باحرف عبرية(١٧) .

واذا كان الفقراء يكتفون بهذه المراحل من التعليم ، فان الاغنياء يواصلون تعلمهم فغالبا ما كانت الاسر الغنية تبعث أولادها الى اوروبا ، وخصوصا الى ايطاليـــا ، ليتلقوا مبادىء التجارة ويتعلمون اللغات(١٨) .

الاحوال الاجتماعيـة :

يمكن تقسيم اليهود الى ثلاث طبقات رئيسية

١ ـ طبقة غنية وتضم التجار الكبار والصرافين .

٢ ـ طبقة متوسطة وتضم التجار الصغار وبائعي المفرق ..

٣ ـ طبقة فقيرة وتضم الحرفيين والباعة الجوالين .

وقد عاش اليهود في حرية ، وفي كل مكان عوملوا بتسامح من جانب العرب سواء أكانوا يعيشون في أحيائهم ام في بقية أجزاء البلاد . غير أن اليهود تعرضوا مثل بقية العرب لظلم الاتراك العثمانيين . ولا ينكر ان هذا الظـلم تحـول في بعض فترات الى اضطهاد ، ولكن يجب ألا يفهم من ذلك ، أن اضطهاد اليهود هذا كان لمجرد أنهم يدينون باليهودية . وفي الحقيقة ، ان النظام العثماني لم تكن له قوانين مضبوطة ومدونة تحدد ما لقيصر لقيصر وما للرعية للرعية ، لهذا ساد الظلم وارتفع الباطـل ، وقلت ثقـة السكان في الحكام . ولكن ، ومهما كانت تصرفات الاتراك العثمانيين الشديدة تجـاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في أوربا، بل نجدهم يتمتعون في الجزائر زمن العثمانيين بحرية العبادة والاقامة ، والى جانـب ذلك عوملوا باحسان بالنسبة للامم الاخرى..

وعلى هذا الاساس ، فان سوء معاملة المسلمين لليهود لا ترجع الى عقيدتهم وانما ترجع بالدرجة الاولى الى سلوكهم واخلاقهم وتصرفاتهم تجاههم . وليس هنـاك دليل واحد يقيم الحجة على أن المسلمين اساؤوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود . فالمسألة اذن ليست دينية كما فهمها من أراد المس بالدين الاسلامي وبأهله ، ولكنها مسألـة سياسية بالدرجة الاولى .

وعلى أية حال ، فالعلاقات بين اليهود والمسلمين كانت حسنة طوال هذه الفترة

ماعدا فترات محدودة لقي فيها اليهود بعض المضايقات الخفيفة ، وخصوصا في أواخر العهد العثماني ، بسبب الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد . وفيما يخص هذه الفترة بالذات ، فان الجزائر قد تعرضت لمجاعات وأوبئة ، وكان طبيعيا أن يستغل اليهود هذه الظروف ليزيدوا في الاسعار ، الامر الذي أدى الى نقمة المسلمين عليهم.

النشاط الاقتصادي

نتج عن وجود العنصر اليهودي النشيط في البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة من العهد العثماني ، نشاط اقتصادي غير معهود ، برز في مختلف المجالات الاقتصادية من صناعة وتجارة وخدمات أخرى . ولا نبالغ اذا قلنا إن اليهود اثروا تأثيرا بليغا في الحياة الاقتصادية ، وذلك اعتمادا على القاعدة الوثائقية لهذه الفترة التي توضح بشكل جلي تفوقهم الكبير في هذا الميدان .

ومهما يكن من أمر ، فان اليهود ساهموا يقينا في تنشيط اقتصاد البلاد . ونحن نعلم أيضا انهم كانوا ذوي خبرات راقية ومتعددة في ميادين الصناعة والتجارة .

ويلاحظ أن عددا كبيرا من اليهود كان قد استقر بالمدن الكبرى التي اشتهرت بالتجارة وبموقعها الجغرافي ، في الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، قصد الارتزاق . لكن القطاع الذي استهواهم ، بدون منازع ، أكثر من غيره هو قطاع التجارة ، لان التجارة كما هو معروف كانت أكثر الحرف التي تدر على أصحابها الارباح الطائلة . فلا عجب اذا ما طرق اليهود هذا الباب اكثر مما طرقوا غيره ، ولا سيما ان مهارتهم وخبرتهم بالبلاد المسيحية التي تجري معها المبادلات تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم .

أ ــ النشاط الصناعي

يحسن بنا ، قبل كل شيء ، الاشارة الى اننا لا نعرف شيئا عن الزراعة عند اليهود خلال هذه الفترة ، وأكبر الظن انهم لم يعملوا بها(١٩) وقد كان معظمهم يشتغل في الصناعات الحرفية والتجارة واعمال اخرى . فقد عمل اليهود في مختلف الحرف، لاسيما الاعمال التي تتطلب المهارة والنشاط ، وتفوقوا بها على سائر أهل البلاد . فلم تكن هناك صنعة الا وزاولوها ، غير انهم فضلوا ممارسة بعض المهن والصناعات مثل الخياطة والصباغة والغزل والحياكة وصناعة المطرزات(٢٠) كما عملوا في صناعة الزجاج(٢١) ومقابض البنادق(٢٢) ، الى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الحين.

ومن الصناعات المهمة التي ارتبطت بالوجود اليهودي بالجزائر صناعة الذهب والفضة التي برعوا فيها بشكل لا يجاريهم فيه احد ، والتي أصبح لها شارع خاص

بمدينة الجزائر عرف بشارع الصاغة حيث محلات اليهود ، التي اختصت بصناعة الحلي من الذهب والفضة . وفي الوصف الذي خلفه لنا (راهبندر) من القرن الثامن عشر للجماعة اليهودية بمدينة الجزائر ، « نجد ان اليهود كانوا يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة ، لاسيما منها التي تتعلق بالذهب والفضة ، وكانت ورشاتهم لمزاولة هذه الصناعة تقع بالقرب من قصر الداي في زقاق ضيق ووسخ ، بالاضافة الى ان معظمهم كان يعمل في سك العملة . . »(٢٣) . وكانت هذه الصناعات التي تتمثل في الحرف ، تمارس في مختلف مدن الإيالة منظمة في هيآت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الادوات والملابس التي يحتاج اليها السكان في الحياة اليومية . وقد انحصرت مهام امناء هذه الهيآت او النقابات في الاشراف على أصول المهنة والحرص على جودة البضاعة وتحديد كميتها .

ب ـ النشاط التجاري

كانت التجارة في الفترة التي ندرسها من أبرز مصادر الثروة ، وكان اليهود يعتمدون عليها لكسب رزقهم . فنجد اليهود الذين كانوا يقطنون بمدينة الجزائر يمارسون تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائروقسنطينة ، ويعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والنسيج والاقمشة والمصابيح الاوربية وخردوات اوربا(٢٤). واعتمد اهل البلاد على اليهود اعتمادا كليا لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي والاقمشة التي اوصلوها عن طريق الباعة المتجولين الى أقصى المناطق النائية في الداخل(٢٥) . فاليهودي بعمله هذا كان اشبه بالدكان المتنقل ، فهو يعرض خدماته ويقدم القروض بفوائد مرتفعة ، وان اضطرته الظروف ذهب الى تخوم الصحراء ليبادل سكانها بما تحمله بغاله من حبوب مقابل ريش النعام والجلود والتبر(٢٦) .

وفضلا عن ذلك ، نجد اغلب اليهود قد حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة السمسرة والمرابة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة أو تافهة حتى اصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير (روزى) « لا يستطيع ان يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورةمن احد اليهود » (٢٧) .

ومن جهة أخرى ، كسب اليهود ثروة طائلة وفوائد جمة من استغلال العبيد أو افتدائهم ، وقد أصبحوا الوسطاء الحقيقيين لهذه الحرفة بفضل تمتعهم بمستوى رفيع من التكوين والتدريب بالاضافة الى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط ، والى العلاقات التقليدية التي تربطهم في مختلف البلدان . وكانت الجزائر قد دخلت منذ قرون عديدة في حروب مع الدول الاوروبية ، حيث ظلت هذه الحروب تعد موردا مهما للدولة .. واذا كانت البضائع تباع في كثير من الاحيان بأسعار رخيصة ، فان افتداء العبد كان في اغلب الاوقات له فائدة كبيرة .

وكان العبد لا يطلق سراحه الا بعد ان تدفع عنه قيمة الفدية . وحتى وان حصل الاسير على مبلغ كاف من بلده ليعود الى أهله سالما ، فانه كان يواجه صعوبة كبيرة في ايصال الاموال الى اصحابها الحقيقيين ، لان ارسال الفدية الى العبد او الى سيده كان عرضة للخطر وخوفا كذلك من هذا الاخير الذي ربما يحتفظ بالاسير ومبلغ الفدية معا . ولتلافي ذلك أوجد اليهود في العصور الوسطى نظام (الكمبيالة) .

بذلك تمكن اليهود من احتكار التجارة الخارجية التي كانت بيدهم خلال هذه الفترة ، أكثر من أي وقت مضى ، بفضل المكانة الممتازة التي اكتسبوها بسرعة لدى تجار البيوت التجارية في البلدان الاوربية والافريقية ، فكانوا يستغلون مهارتهم التجارية وفرصة انعدام البنوك في تنشيط التجارة وخلق القروض والضمانات بفوائد خيالية الى ان اصبحوا من كبار الاثرياء ، بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للدايات وكبراء الدولة الذين منحوهم حق الاحتكارات التجارية ، وأوكلوا اليهم تنظيم المدفوعات الخارجية وتقويمها فاصبحوا باستماراتهم التجارية بمثابة البنوك يقومون بالتحويلات النقدية والقرضية والحسابية بين الجزائر وأوربا . وقد ساعد التجار اليهود على تنظيم المدفوعات التجارية من قروض وسندات ونقود ما كان لهم من وكلاء وبيوت تجارية في مختلف المدن التجارية المهمة في أوربا وافريقيا واسيا . والمثال على ذلك ، ان عائلتي بكري وبوشناق كان لهما وكلاء في عديد من المدن في حوض البحر المتوسط مثل قرطاجة ومرسيليا وجنوة وليفورن ونابولي وازمير والاسكندرية وتونس، وبفضل هذا التنظيم الاداري التجاري كان على التاجر سواء كان جزائريا أم اوربيا أن يوفي بدينه لهذه الوكالات اليهودية عن طريق المراسلة دون نقل السبائك الذهبية ،في فترة اشتدت فيها الحروب البحرية ، وهانت فيها النفوس ازاء كل معدن نفيس .

ولقد احتلت المبادلات التجارية مع مدينة ليفورن مكانة كبيرة نظرا لوجود عدد كبير من التجار اليهود فيها ، الذين وجدوا كل التسهيلات التجارية حيث ركزوا الوكلاء والمشرفين على التجارة لتأمين بضائعهم التي كانوا يرسلوها الى شمال افريقيا وأوربا والمشرق(٢٨) .. كان اليهود يستعملون مواني الجزائر ، فيصدرون الى ليفورن مقادير من القمح الصلب لا نستطيع تحديد كميتها لعدم وجود الاحصاءات ، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام والجلود والصوف وبعض المنتوجات المحلية الاخرى(٢٩) . وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات وكثيرا من الرخام والاقمشة الحريرية والحلي وغيرها(٣٠) ..

من المؤكد ان العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر وأوربا كانت قائمة خلال هذه الفترة التي ندرسها ، وكانت تتطور تدريجيا ، غير اننا لا نستطيع تقييمها بدقة لعدم وجود الاحصائيات المضبوطة ، لان اليهود كانوا يهملون الكتابة والقيد لتجنب

الضرائب التي كانت تفرض على البضائع المصدرة والمستوردة . ولكن الامر الذي نعرفه هو أن ليفورن ومرسيليا احتلتا مرتبة ممتازة في استيراد المواد الاولية من الايالة منتفعة بالطائفة اليهودية المحتكرة لثلثي التجارة الخارجية للجزائر(٣١) ..

غير ان الشركة التي تزعمت هذا النشاط هي شركة بكري وبوشناق التي كان لها محلات في عديد من المدن الجزائرية . والمعروف ان احتكار هذه الشركات للتجارة لم يكن مصادفة وانما كان نتيجة تكاتف افرادها وعملهم على استمالة الشخصيات الرسمية والاعيان في البلاد ، بالاضافة الى الوسائل المختلفة التي كانوا يستعملونها ابتداء من الهدايا الثمينة والمساعدات المالية الى التجسس في الداخل والخارج لحسابهم ولحساب الحاكمين الذين يرغبون في استعطافهم .

وبهذه الطريقة تضاعفت رؤوس اموال الشركة اليهودية بسرعة فائقة واستطاعت ان تنفذ بقوة الى المحيط الرسمي ، حيث تمكنت من الاستئثار برعاية اثنين من الشخصيات البارزة آنذاك هما الدايان : بابا حسن (١٧٩٢ — ١٧٩٨) ومصطفى (١٧٩٨ — ١٨٠٥) .

وهناك من يميل الى القول بأن هذين الدايين كانت لهما حصة مما كانت تحصل عليه المؤسسة اليهودية من أرباح طائلة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء اليهود انما تمكنوا من الفوز بثقة السلطات ، لان عيونهم كانت منتشرة في كل انحاء البلاد تزودهم بجميع المعلومات بتحركات القبائل .. وكان المسؤولون المركزيون يحتاجون الى مثل تلك المعلومات لتدعيم اوضاعهم وللحفاظ على مناصبهم ، كما انهم لم يكونوا يخشون من اليهود أن يستولوا على الحكم .

وهذه الثقة التي احرزوها في مختلف المستويات ، كانت سلاحا حادا لهم وعليهم في الوقت نفسه ، اذ بقدر ما كانت تفتح لهم منافذ الثروة واسعة ، كانت كذلك تعرضهم من حين الى اخر لسخط الاجناد والاهالي الذين كانوا يستنكرون تقربهم من الحكم .

اما خارج الإيالة ، فان شركة بكري وبوشناق قد فرضت نفسها في كثير من البلدان الاوربية ولاسيما في فرنسا التي كانت مركزا مهما لنشاط اليهود التجاري والدبلوماسي فكان تنظيم الشركة يقوم على اساس توزيع العمل بين الشركاء . فبينما كان اولاد بكري يقومون بادارة الشؤون المالية والتجارية للشركة ، كان بوشناق يقوم بالعمليات السياسية في قصر الداي ، ويشترك في حبك المؤامرات ، ويوزع الرشوة والحظوة كما يشاء . وقد بلغ من النفوذ درجة جعلته يلقب في الاوساط الدبلوماسية بلقب « ملك الجزائر »(٣٢) ..

وهكذا ، كان لهذا الوضع التجاري الذي سيطر عليه اليهود تأثير خطير على الاوضاع الاقتصادية للبلاد ، زيادة على الاثار السلبية على حياة السكان ، وذلك بفعل مزاحمة اليهود في كل الاعمال التجارية . وبالفعل فقد تسبب هذا الوضع في اعاقة نمو الطبقة التجارية المحلية بعدما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات المهمة الى ايدي التجار اليهود بفضل الامتيازات التي كانوا يحظون بها من البايلك(٣٣) .

دور اليهود في السياسة الخارجية الجزائرية

بعدما احرز اليهود ثقة السلطات الحاكمة ، وتولوا ما يشبه الوصاية على عرش الداي وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، أخذوا يوسعون نطاق عملياتهم لتشمل الشؤون الدبلوماسية .

وفي الوقت الذي وجه فيه اليهود نشاطهم نحو أوربا ، كانت المؤسسات الفرنسية في الجزائر تعاني وضعا سيئا بسبب العجز المالي التي كانت تمر به الحكومة الفرنسية آنذاك ، وهذا ما جعلها تستعين بشركة بكري وبوشناق لتموين فرنسا بالحبوب .

وعندما قامت الثورة الفرنسية ، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لازمات حادة سياسية واقتصادية . بالاضافة الى انها كانت في حالة حرب مع معظم دول اوربا وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الداي للحيلولة دون وصول القمح الى فرنسا ، ولكن الداي حسن رفض الطلب البريطاني . وعلى اثر ذلك لجأ قنصلها الى الشركة اليهودية وحاول ان يستعين باليهوديين بكري وبوشناق لمنع وصول شحنات القمح الى فرنسا . غير ان الانتصارات التي احرزتها الجيوش الفرنسية ضد « الحلفاء » لم تلبث ان فتحت اعينهما فسارعا الى المطالبة بمنحهما امتيازا لتموين فرنسا بالقمح ، وحصلا على هذا الامتياز بدون صعوبة .

ولكن علاقات فرنسا والشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور ولفترة قصيرة في اواخر القرن الثامن عشر ، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بان الشركة اليهودية تزود الحامية الانجليزية المرابطة في مضيق جبل طارق ، وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة الفرنسية الى تجميد ديونها . وفي ٢٦ نيسان ١٧٩٧ كتب « دولاكروا » ، وزير خارجية فرنسا الى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ اجراء التجميد ، جاء فيها قوله : « وباحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهما من التحول عن مصالحنا ونضطرهما الى التزام تحفظ اكبر في طرق تعاملهما مع الانجليز ، الذين لا يخدمانهم بهذه الحماسة الا لان وجودهم في شمال افريقيا يثير في نفوسهما الامل في تحقيق ارباح اخرى »(٣٤) .

ومثل هذا الاجراء هو الذي جعل الداي حسن في ١٨ ايار ١٧٩٧ يتدخل ، ويكتب الى حكومة فرنسا رسالة حملها اليهودي سيمون فند فيها جميع الاتهامات وأكد « اخلاص اليهوديين بكري وبوشناق لكل ما يخص مصالح الامة الفرنسية»(٣٥). ولكن عندما خرج « دولاكروا » من وزارة الخارجية وحل محله « تاليران » في تموز ١٧٩٧ ، تنفس اليهوديان بكري وبوشناق الصعداء ، وسارعا الى ربط علاقتهما « بالشيطان الاعرج » الذي تحول الى محامي بليغ الحجة وحليف قوي لليهود ، مما جعل يعقوب بكري يكتب الى أخيه ابراهيم بكري قائلا : « ... اذا لم يكن الشيطان الاعرج في يدي ، فانا لن اعتمدعلى شيء في الدنيا بعد الان » (٣٦) .

فمن الواضح أن تاليران في ذلك الحين ، كان يدرك النفوذ الكبير الذي وصل اليه اليهود ، فكان عليه ان يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية ، التي كان اليهوديان مفتاحا لها . وهكذا كانت المسألة بالنسبة الى « تاليران » ، هي كيف يحافظ على استمرار تموين فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول « عواطف » اليهود ، وبالتالي الداي الى انجلترا .

وبينما كان الصراع على اشد ما يكون بين الجزائر وانجلترا في ١٨٠٠ الذي كان من المحتمل ان يؤدي الى حرب بين البلدين ، تدخل بوشناق في وضع حد لهذا النزاع ، حيث حصل من الداي على قرار يمنح العلم البريطاني مكانة الشرف في الايالة، وأكثر من ذلك ، فان الداي نفسه ادى التحية للسفينة التي تحمل القنصل الانجليزي السيد فالكان FALCAN في ١١ ايلول ١٨٠٠(٣٧) .

وفي السنة التالية ، اي في سنة ١٨٠١ ، كان لبوشناق شرف استقبال قناصل الدانمارك والسويد وهولندا ، وتسلم منهم باسم الداي الهدايا التي تدفعها دولهم الى السلطات العثمانية في الجزائر . وكان له الشرف كذلك ان يفاوض في معاهدة الصلح بين الايالة وفرنسا ، وأن يقدم للداي في ١٧ كانون الاول ١٨٠١ ، القنصل الفرنسي الجديد لهذه الامة ، السيد « ديبواتافيل » (٣٨) .

وفي ٢٨ آب ١٨٠٣ استقبل مبعوث البرتغال ، السيد « لازارو جوزيف » ،الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام ، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال من بدايتها حتى نهايتها ، والتي فشلت بسبب الشروط القاسية التي فرضت على البرتغال . وفي ١١ كانون الثاني ١٨٠٤ استقبل بوشناق مبعوث السلطان في الاستانة ، الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر ، فقد اضطر هذا المبعوث الى التحدث مع بوشناق قبل ان يمثل امام الداي ، مما جعل القنصل الاسباني ، الذي لاحظ حالة مماثلة ، ان يطلق على هذا اليهودي بكل بساطة اسم « نائب ملك انجزائر »(٣٩) .

تلك بعض الامثلــة لتدخل اليهوديين بكــري وبوشنــاق في نواحي حيويــة من سياسة البلد الخارجية .

الثورة على اليهود :

كان السكان خلال سنوات طوال يشاهدون في صبر وتحمل كبير نفوذ اليهـود وهو يزداد توغلا مع مرور الزمن في اعمال الحكومة وفي شؤونها الحسابية واسرارها المالية ، وفي الحياة الاقتصادية والسياسية .

يقول « دو غرامون »(٤٠) ان مختلف عناصـر السكان وقفت ضـد اليهـود ، بالاضافة الى الانكشارية والحضر ، كان هناك افراد طائفة البراني وأصحـاب الحرف البؤساء الذين كانوا يكرهونهم كذلك .. فجميع المظالم والجرائم التي ارتكبها الاتـراك كانت تعزى اليهم ، وحتى الموظفين وقفوا ضدهم وكانوا على استعداد للاطاحة بهم .

وهكذا ، فان جميع الفئات تضررت من معاملتهم ، كالمزارعين الذين كان اليهود يشترون منتجاتهم بأبخس الاثمان ويبيعونها باسعار خيالية ، والتجار الذين اقترضوا من اليهود المال بالربا الفاحش ، والاهالي الذين كانوا يشترون من اليهود البضائـع الفاسدة المغشوشة . وزيادة على ذلك ، فانهم تسببوا في تجويع الشعب باحتكارهـم المواد الغذائية الضرورية لحياة السكان مثل الحبوب ، التي كانوا يرفعون اسعارهـا ويصدرونها الى الخارج في اوقات القحط والمجاعات ، دون مراعاة لشعور السكان وحاجاتهم الاساسية .

ولقد وقع العديد من المحاولات لاغتيال اليهودي بوشناق الذي كان على صلـة وثيقة بالدوائر الحاكمة في البلاد ، واشترك مع الداي في تجارة الحبوب ، ومنحه هذا الاخير حق الاحتكار ، ورأينا كيف استطاع هذا اليهودي ان يستبد بالحركة الاقتصادية العامة بمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية . وعلى الرغم من كل محاولات الاغتيال، فان هذا اليهودي مضى في تحديه وفي جرأته وغطرسته ، وجرت محاولتان لاغتيالـه في الشـارع بضربـة خنجر ، ونجا في كل مـرة دون ان يصـاب بأذى . وفي ٢٨ حزيران ١٨٠٥ ، في الساعة السابعة صباحا ، وبينما كان بوشناق خارجا من قصـر الداي ، سدد اليه انكشاري يسمى « يحيى » مسدسه واطلق عليه النار قائلا :« تحية اليك يا ملك الجزائر » وهرع الجند وسيوفهم مسلولة الى مكان الحادث ، وقال لهم يحيى : « لقد قتلت اليهودي .. فهل انتم من كلاب اليهودي » وعند ذلك تركوه وشأنه وخرج. ولما عاد الى ثكنته حمله رفقائه على اكتافهم ، وأخذ كل واحد منهـم يتلمس طريقة « ليسلم على اليد التي خلصت البلد من المستبد » . واما مصطفى داي الـذي اخذ يرتعد خوفا من الخطر ، فبدلا من ان يامر بالقاء القبض على الجاني الذي ارتكب الحادث في قصره ، بعث اليه بسبحته رمزا للعفو عنه (٤١) .

وما ان ذاع خبر اغتيال اليهودي بوشناق في المدينة حتى انفجرت الفتنة بشكل كبير ، وقامت مظاهرة شعبية اشتركت فيها جميع عناصر السكان من الجند والحضر والاندلسيين والقبائليين والبسكريين والاباضيين ، واتجهت الى الحي اليهودي ، حيث راحوا ينتقمون بالقتل والسلب والنهب والاحراق ، ويشجعهم في ذلك النسوة اللواتي كن يشاهدن هذه الاحداث من فوق السطح(٤٢) .

فيما يخص مصير مصطفى داي ، فانه بعدما شعر بالخوف على حياته ، عرض على الانكشارية ان يسمح لهم بنهب المدينة اذا قبلوا ان يتركوه على قيد الحياة . ولما رفضوا طلب اليهم ان يسمحوا له بالسفر الى المشرق ، غير انهم رفضوا هذا الطلب كذلك ، مما جعله يحاول الهرب مع الخزناجي والتوجه الى ملجأ يحميه من غضبة الجماهير ، ولكنها لحقت به فذبح وسحبت جثته في الشوارع ، ثم رميت عند « باب عزون » ، وهكذا مات مصطفى داي والشعب غاضب عليه .

ولأجل تهدئة الانكشارية وعدهم الداي الجديد بطرد جميع اليهود من المدينة ماعدا اصحاب الحرف الذين لايمكن للسكان الاستغناء عنهم .

ومنذ الايام الاولى من وقوع المصيبة التي حلت باليهود اسرعت مجموعة كبيرة من العائلات للهرب خوفا من القتل والنهب . ففي ١ تموز هاجرت نهائيا من مدينة الجزائر ١٠٠ عائلة يهودية الى تونس و ٢٠٠ عائلة اخرى الى ليفورن في ١٠ تموز ١٨٠٥(٤٣) .

ومما يلاحظ انه على الرغم من جميع هذه الانتفاضات العنيفة ، فان الطائفة اليهودية ظلت بعد هذه الاحداث تعيش في سلام ووئام مع السكان العرب .

كما ان الاغلبية منهم كانت بعيدة عن الصراعات والمؤامرات التي جرت بين الاسر اليهودية الليفورنية للسيطرة على امور الطائفة . وان جميع الاموال التي جمعها هؤلاء اليهود كانت على حساب السكان من يهود وعرب واتراك على السواء .

الخاتمة :

يتأكد لنا من خلال ما تقدم ان اليهود كانوا يؤلفون عنصرا مهما في المجتمع الجزائري زمن العثمانيين . وقد تمتعوا باستقلال ذاتي في الاشراف على امورهم الدينية وادارة مؤسساتهم حسب قوانينهم وعاداتهم ، فازدهرت احوالهم الاجتماعية من جراء نظرة المسلمين المتسامحة .

ولكن ، ومهما كانت تصرفات العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في اغلب بلاد اوروبا ، حيث كانوا يتعرضون هناك لابشع الاحقاد ، وكانوا يعيشون في عزلة ، وظلوا عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد .

وعلى اية حال ، فقد اتيح لليهود في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مكانة مرموقة سمحت لهم بالقيام بدور اقتصادي وسياسي كبيرين ، بسبب الثقة التي كانوا يحظون بها من المسؤولين العثمانيين، الذين يسروا لهم السيطرة على شؤون البلاد. وبذلك راحت اطماع اليهود تزداد باستمرار ، كما ازدادت الامتيازات التي اعطيت لهم رسوخا ، واصبح من المستحيل اخضاعهم ، فكانت النتيجة دمار الجزائر وتسهيل احتلالها .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في الاداب برسالته : « يهود الجزائر في العهد العثماني من مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

الهوامش :

(١) Plantet, E.,**Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France,** t.I, Bou Slama, Tunis . 1981, P. XVI.

وكذلك فارس ، محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي ، مطابع الف باء ـ الاديب ، دمشق ١٩٦٩ ص ٧٠-٧٢و٨١-٨٧ .

(٢) Esquer, G., **La Prise d'Alger 1830,** La Rosse, Paris 1929, P. 20.

(٣) Grammont, H. D . de , **Histoire d' Alger sous la dimination turque (1515-1830)** , E. Leroux, Paris 1887 , pp. 369-370.

(٤) شالر ، وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر (١٨١٦ - ١٨٢٤) ، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨٢، ص (٨٩).

(٥) المصدر نفسه ، ص (٨٩) .

(٦) يقول هايدو ان رئيس الطائفة اليهودية في الجزائر كان يعرف باسم قسيس ، الا ان الاسم كان يدل على رئيس الطائفة المسيحية راجع :

Haedo, F. D. de, «Topographie et histoire generale d'Alger», in **Revue Africaine** , 1870, P. 91.

(٧) Trapani, D . , **Alger tell Qu'elle est ou tableau statistique , morale et Politique de cette regence,** Paris 1830, P.21.

(٨) لمزيد من المعلومات حول التنظيم الطائفي راجع :

Cahen, A., **Les Juifs dans l'Afrique septentrionale,** L. Arnolet, Constantine, 1867, pp. 75-88.

(٩) Rozet, M. P., **Voyage dans la regence d'Alger,** A . Bertrand, Paris 1833, t. III, P.83.

(١٠) Pananti, F., **Relation d'un séjour a Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence,** trad. de. l,anglais par Blanquière, Le Normont, Paris 1820, p. 228.

(١١) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, p. 241.

(١٢) Martin, C., **Les Israelies algeriens de 1830 à 1902,** Herakles , Paris 1936, p. 36.

(١٣) شالر ، وليام : المصدر السابق ص (٩٢) .

(١٤) Mainz, E., « Les Juifs d'Alger sous la dimination turque ». in **Journal Asiatique,** TCCXL, 1952, p. 217.

(١٥) Cohen, M., **Le Parler arabe des juifs d'Alger,** Champion, Paris 1912, p. 14.

(١٦) Clausolles , M. P. , **L'Algérie pittoresque ou Histoire de la régense d'Alger,** Paris 1843, p. 96.

(١٧) Haedo, **Op. Cit.,** p. 91.

(١٨) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, p. 253.

(١٩) Leynadier, et Clausel, **Histoire de l'Afrique Française,** Paris 1846, p. 153.

(٢٠) Haddey, H. J.M.,**Le Livre d'Or des Israelites algériens,** Alger 1871,p.9.

(٢١) Grammont, **Op. Cit.** p. 44.

(٢٢) Emerit, M., « Les Quartiers commerçants d'Alger à l'epoque turpue» in **Algéria,** Février 1952, p. 12.

(٢٣) Cite par . Eisenbeth, M ., « Les Juifs en Algerie et en Tunisie à l'époque turque » (1516-1830) . in **Revue Africaine** , 1952, p. 334.

(٢٤) Raynal, Gt., **Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale,** Paris 1826, t. II, p.92.

(٢٥) Boudia,M., **La Formation sociale algerienne précoloniale,** Paris o.p.u., Alger 1981, p. 180.

(٢٦) Emerit, M., « Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au 17e siécle et au début du 19 e siécle»,in **Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes,** No 19, 1954, p. 37.

(٢٧) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, pp. 226-227 .

(٢٨) Filippini, J. P., « Livourne et l'Afrique du Nord au 18e siécle » , in **Revue d'Histoire Magrébine** , No7-8 (1977) , p. 145.

(٢٩) Haddey, **Op. Cit.,** p. 42.

(٣٠) **Ibid** , p. 44.

(٣١) Julien, CH. A., **Histoire de l'Afrique du Nord** , Payot , Paris 1964 , p. 240 .

(٣٢) لمزيد من المعلومات حول شركة بكري وبوشناق راجع : الزبيري ، محمد العربي ، التجارةالخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩، ص(٢٥٥ـ٢٨٥).

Perrot, A.M.,**Alger, Esquisse topographique et historique du royaume et de la ville,** Paris 1830, p. 26. (٣٣)

Esquet, **Op. Cit.** , p.24. (٣٤)

Plantet, **Op. Cit.,** p. 463, Note I (٣٥)

Bloch, I., **Inscription tumulaire des anciens cimétières israélites d'Alger,** A. d' Urlancher, Paris 1888, p. III. (٣٦)

Idib, p. 96. (٣٦)

Idib, p. 96. (٣٨)

Ibid, p. 97. (٣٩)

Grammont, **Op. Cit.** p.360. (٤٠)

Ibid, p. 361. (٤١)

Ibid, p. 361. (٤٢)

Bloch, **Op. Cit.** p. 102. (٤٣)

قضيَّة المَوْصِل
وَصداهَا في الأوساطِ العِراقيَّة

جعفر الحيالي

مقدمة :

في مجرى الصراع بين الاستعماريين ظهرت قضية الموصل وتحولت في فترة ما الى قضية بالغة الحساسية فبتأثير جملة من العوامل الاقتصادية والسياسية تحولت الموصل الى موضع صراع بين الدول الاستعمارية فيما بينها من جهة ، وموضوع لاستغلال كل من فرنسا وبريطانيا لتثبيت هيمنتها الاستعمارية على المشرق العربي(١).

وترجع بدايات الصراع الاستعماري لاستثمار خيرات الموصل بشكل عام ، والنفطية بشكل خاص ، الى عام ١٨٨٨ ، ففي هذا التاريخ أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمانا حصر بموجبه حق التفتيش عن النفط واعطاء الامتيازات لاستثماره بميزانيته الخاصة . وقد جاء ذلك نتيجة لتنبه الدولة العثمانية لطبيعة الصراع بين الشركات الغربية حول اكتشاف واستغلال المكامن الطبيعية في ارجاء الدولة العثمانية. لكن هذا الامر يستمر طويلا بسبب ضعف الدولة العثمانية وزيادة تأثير الدول الاوربية على سياستها الداخلية ، ففي عام ١٩٠٤ حصلت شركة سكك حديد الاناضول الالمانية على عقد يبيح لها مسح حقول نفط الموصل واستثمارها ، لكن الحكومة العثمانية الغت عقدها مع الشركة الالمانية عام ١٩٠٦ بتأثير الضغط البريطاني ، ودخلت في مفاوضات مع جماعة (دارسي) الاستثمارية البريطانية لاستثمار حقول النفط . وتعثرت المفاوضات البريطانية العثمانية خلال الازمة السياسية الداخلية للدولة العثمانية عام ١٩٠٨ والتي انتهت باضطرار السلطان الى منح الدستور لارضاء الدول الاوربية. واستؤنفت المفاوضات عام ١٩٠٩ بين الشركة البريطانية ووزارة المالية التركية ، الا انها توقفت هي الاخرى بسبب خلع السلطان عبد الحميد في العام نفسه.

وخلال ذلك ، لم تيأس الحكومة الالمانية من امكانية العودة الى ايجاد موطىء قدم لها في الدولة العثمانية ، ونجحت في ذلك ، حيث عقدت عام ١٩١٤ اتفاقا مع الحكومة البريطانية تم بموجبه التوصل الى تسوية أدت الى تأسيس شركة النفط التركية براسمال مختلط بريطاني ــ الماني ــ انكلوسكسوني(٢). وحصلت هذه الشركة على وعد من الصدر الاعظم في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٤ بالسماح لها بالتنقيب عن النفط في ولايتي الموصل وبغداد . لكن نشوب الحرب العالمية الاولى وانحياز تركيا الى جانب المانيا أدى الى فشل المشروع . وتمسكت بريطانية من ناحيتها بالوعد بسبب معرفتها بوجود كميات كبيرة من النفط في الموصل(٣) .

الموصل موضع نزاع دولي :

خلال السنتين الاوليين من الحرب أدت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية الى اقصاء الاخيرة عن المطالبة باعتبار الموصل منطقة نفوذ لها ، لكن روسيا القيصرية كانت تميل الى اعطاء الموصل الى فرنسا . وهكذا خضعت بريطانيا لشكل من التسوية نصت عليه فيما بعد اتفاقية سايكس ــ بيكو المعقودة في عام ١٩١٦ بين الدول الثلاث ، وبموجب هذه التسوية أصبحت الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسي . وكانت الموصل موضع إهتمام الفرنسيين الشديد ، بسبب قربها من سورية الداخلية التي كانت من حصتها وفق اتفاقية سايكس بيكو(٤) .

وتطور الاهتمام البريطاني بالموصل بعد انتهاء المعارك في العراق ، فاضافة الى النفط الذي يعد عاملا رئيسيا في اجتذاب انتباه البريطانيين للمنطقة ، كانت هناك عوامل أخرى ، أهمها ادراك البريطانيين الاهمية الاستراتيجية للموصل كعازل طبيعي بين قواتهم في العراق وبين تركيا من جهة ، ومن جهة اخرى اقتناعهم ان السيطرة على وسط العراق وجنوبه تتطلب السيطرة على المناطق التي تقع في شماله(٥) . والسيطرة على الموصل تتيح للبريطانيين تسليط سيطرتهم على الحركة الوطنية في العراق وسورية، كما ان وضع الموصل تحت نفوذهم المباشر يعني الاحتياط للمستقبل ازاء أي تطور في سورية والعراق لا يلائم المصالح والاطماع البريطانية في المنطقة.(٦) ويعتبر شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٨ التاريخ الحقيقي لظهور ما عرف بقضية الموصل، من النواحي السياسية والحقوقية . ففي هذا التاريخ احتلت القوات البريطانية منطقة الموصل بعد تراجع القوات العثمانية عنها باتجاه اقصى كردستان العراق (لتتخذ منه حصونا منيعة للدفاع عن المنطقة) (٧) .

واثار احتلال بريطانيا للموصل احتجاج تركيا التي كانت ترى ان الموصل هي مفترق طرق مهمة لكافة البلدان والمقاطعات المجاورة . ومن الناحية السياسية تعني السيطرة عليها فرض الإشراف على كردستان العراق ، والمحافظة على وضع

استراتيجي مميز ازاء بقية العراق وسورية . ومن الناحية الاقتصادية كانت لتركيا مطامع بنفط الموصل شبيهة بمطامع فرنسا وبريطانيا(٨) . أما فرنسا فلم يكن امامها الا التسليم بالامر الواقع الذي فرضته عمليات الجيش البريطاني في العراق ، والقبول باعتبار الموصل منطقة نفوذ بريطاني . وهو ما تم رسميا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ ، حيث تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا على تنازل الاولى عن مطامعها في العراق مقابل اطلاق يدها في سورية ، واعطائها نسبة ٢٥٪ من صافي انتاج النفط الخام في حقوق الموصل ، على ان توافق فرنسا على اعطاء جميع التسهيلات لمرور خطين لانابيب النفط في سورية ولبنان من اجل ايصال النفط العراقي والايراني الى موانيء البحر الابيض المتوسط(٩) وتجسد هذا التنازل في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠ ، والذي اتفق فيه على وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وسورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي(١٠) .

لكن الاتراك لم يعترفوا بمقررات مؤتمر سان ريمو ، فيما يتعلق باعتبار الموصل جزءا من الاراضي العراقية . واستمر الجيش التركي بتنظيم العصابات المسلحة للاخلال بالامن على الحدود العراقية ، وهذا ما جعل قضية الموصل من اولى القضايا التي واجهت الدولة العراقية الفتية ، خاصة وان تركيا بعد مجيء (كمال اتاتورك) للحكم نشطت في مطالبتها بالموصل ومزاعمها بانها جزء من الاراضي التركية(١١) . وحولت بريطانيا قضية الموصل الى وسيلة لابتزاز الحكومة العراقية ، من اجل تعديل مدة سريان المعاهدة العراقية ـ البريطانية الاولى من (٤) سنوات الى (٢٥) سنة(١٢) ، وتثبت اسس الانتداب على قاعدة اكثر رسوخا ، خاصة وان بريطانية واجهت مصاعب جدية في فرض سيطرتها العسكرية والسياسية على العراق ، وبرز ذلك بشكل خاص منذ ثورة عام ١٩٢٠ ، الامر الذي جعلها تعمل على الايحاء بانها من المدافعين عن المصالح العراقية من خلال دفاعها عن الموصل . وكانت تأمل ان ذلك من شأنه تحسين سمعتها بين اوساط الشعب العراقي وساسته ، ففي هذا الامر كما في بعض الامور الثانوية كانت بريطانية تتصرف وكأنها تحاول ازالة بعض ما علق في اذهان العرب حول دورها في تجزئة البلدان العربية ، واعطاء فلسطين للصهاينة من جهة ، ومن جهة اخرى كانت تبغي احراج موقف الاستعمار الفرنسي في سورية ، في الاطار العام للصراع بين الاستعماريين على المنطقة العربية ، حيث جزأت فرنسا سورية الى دويلات طائفية مما جعلها في مواجهة مباشرة مع الحركة الوطنية فيها(١٣) .

واستمر الحال كما هو عليه الى عام ١٩٢٣ حيث وقعت دول الحلفاء وتركيا على معاهدة لوزان(١٤) التي نصت فيما يتعلق بقضية الموصل على احالة المسألة الى تركيا وبريطانيا من اجل حلها وديا خلال فترة تسعة اشهر ، وفي حال الفشل يرفع النزاع الى مجلس عصبة الامم ، كما نصت على ضرورة المحافظة على الوضع القائم في منطقة

الموصل كما هو عليه وايقاف كل ما من شانه الاخلال بالامن او تغيير طابع المنطقة(١٥). وبالفعل جرت مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لم تسفر عن نتيجة مما دفع الطرفين حسب ما نصت عليه معاهدة لوزان الى رفع قضية النزاع حول الموصل الى مجلس عصبة الامم .

بحثت عصبة الامم قضية الموصل في ٢٠ ايلول (ستمبر) عام ١٩٢٤ ، واستمر تباعد موقفي بريطانيا وتركيا ، فأصرت بريطانيا على تعيين خط للحدود بين تركيا والعراق تصبح الموصل بموجبه جزءا من الاراضي العراقية ، في حين اصر الاتراك على التمسك بكافة اجزاء ولاية الموصل ، وتوصلت العصبة الى اتخاذ قرار وافقت عليه بريطانيا وتركيا بنص على تأليف لجنة خاصة مهمتها دراسة وضعية الحدود ورفع تقرير للمجلس حول ما ترتئيه(١٦) .

وصلت لجنة التحقيق الدولية الى الموصل في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، وبدأت عملها بالاستماع الى وجهات النظر المختلفة ، وبعد انتهاء شهرين من المشاورات كتبت تقريرها الذي نص على رفض فكرة تقسيم ولاية الموصل . وقد اعتمدت اللجنة على الاحصاءات الاقتصادية والبشرية البريطانية في تقرير ارتباط الموصل اقتصاديا ببغداد وبقية انحاء العراق ، وبان الطابع الديموغرافي لها يؤكد صلتها التاريخية بالعراق ، ومن الوجهة الجغرافية تشكل الموصل حاجزا طبيعيا يقف عائقا امام انتسابها الى تركيا بفضل سلسلة الجبال المعقدة ، التي تفصل الاراضي العراقية عن تركيا وتكون حوض الرافدين .. ومن الناحية السياسية والادارية والروحية فقد كانت الموصل تخضع لادارة الحكومة العراقية من الناحية العملية ، ومشاعر سكانها مع بقائهم جزءا من العراق(١٧) .

والغريب في مقررات اللجنة انها ربطت بين توصياتها حول الموصل ومسألة الانتداب البريطاني على العراق ، فاشترطت ان يوضع العراق تحت الانتداب البريطاني لمدة ٢٥ سنة ، مما يؤكد ان اللجنة كانت بريطانية اكثر مما هي لجنة دولية . وبعد مداولات عديدة داخل عصبة الامم وافقت الاخيرة على قرار يقضي باعتبار ولاية الموصل عراقية، وذلك بتاريخ ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ . لكن الاتراك الذين لم يحضروا جلسة مجلس العصبة لم يعترفوا بهذا القرار . وقد ادى هذا فيما بعد الى توتر في العلاقات التركية البريطانية وصل الى حد التهديد بالحرب ، الا ان الحكومة التركية لم تستطع الاستمرار في تحدي عصبة الامم وبريطانيا الى النهاية ، واضطرت الى اجراء مفاوضات انتهت بعقد معاهدة بين العراق وتركيا وبريطانيا تؤكد عائدية الموصل الى العراق . وقد انتهت هذه المعاهدة في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٦ ، ودخلت حيز التنفيذ يوم ١٨ حزيران (يونيو) من نفس العام(١٩) .

الموقف العراقي الرسمي والشعبي من قضية الموصل

تعد الموصل جزءا متمما للعراق اقتصاديا وسياسيا وبشريا ، ولها أهمية استثنائية في الاقتصاد العراقي ، ففي مصادر المياه تقع روافد نهر دجلة جميعها جنوب مدينة الموصل ، وتروى الاراضي الزراعية من روافد النهر المذكور(٢٠) . واثارت اعمال التنقيب للشركات الاجنبية حول النفط في الموصل ، وصراعها فيما بينها حول الحصول على امتيازات استثماره ، انتباه الساسة العراقيين لاهمية الثروة الجديدة ودورها في الاقتصاد العراقي(٢١) ، والموصل هي واسطة الاتصال الطبيعي والعمراني والثقافي بين وادي الرافدين وبلاد الشام ، وقامت بدور صلة الوصل بين العراق وبلاد الشام. وكانت الصناعات الحرفية والفنون والثقافة والافكار السياسية تتنقل مع حركة التجارة من العراق واليه ، من سورية ، وهذا الواقع لم ينقطع يوما من الايام(٢٢) ، ولو تم سلخها عن الاراضي العراقية ، لاقتصر الاتصال بين العراق وبلاد الشام على طريق البادية الصحراوي ، اضافة الى ان استيلاء الاتراك على ولاية الموصل يجعلهم يزدادون طمعا بالاستيلاء على الاسكندرونة ويمدون أبصارهم الى حلب التي تقع بين الموصل والاسكندرونة ، ويعني ذلك بسط الحكم التركي على القسم الشمالي من اسيا العربية(٢٣) . ورغم حداثة تكوين الدولة العراقية ، عبرت الحكومة العراقية والمجلس التأسيسي بأشكال متعددة عن تمسكهما الشديد بالموصل ، ففي خطاب للملك فيصل القاه في الموصل في ايار (مايو) عام ١٩٢٣ دافع فيه عن عروبة الموصل ، كما دافع ايضا عن عروبة ديار بكر واورفه وماردين ، وسخر من مزاعم الاتراك حول احقيتهم بالموصل المنطلقة من ان هناك جالية تركية صغيرة تقطن فيها ، قائلا ان هذا الزعم يبيح للعرب المطالبة بالمناطق العربية الواقعة تحت السيطرة التركية(٢٤) . وفي خطاب اخر له القاه في مدينة الموصل في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٤ اعلن فيه ان ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من العراق ، وان الحكومة العراقية لاتستطيع ان تعيش يوما واحدا بدونها ، واشار الى ان مشكلة الموصل على علاقة بالسلام في الشرق الادنى والشرق كله وبين ان الاتراك طامعون بنفط الموصل ومعادنها ، ودعا سكان المدينة الى الدفاع عن استقلال العراق التام ومن ضمنه منطقة الموصل(٢٥) .

وفي اجتماع المجلس التاسيسي العراقي في ربيع عام ١٩٢٤ اخبرت الحكومة العراقية المجلس عن اهتمامها بقضية الموصل ، واعلنت انه اذا لم يحتفظ بالموصل فلن تكون هناك حكومة عراقية ، كما اعلن بعض النواب ، وخاصة نواب الموصل ذاتها وكركوك ، بما فيهم النواب الاكراد ، عن تمسكهم بالموصل بالتاكيد ان (الموصل هي العراق والعراق هو الموصل) . واكد نائب كردي بان الاكراد لا يريدون الانفصال عن العراق وانهم ـ اي الاكراد ـ لا يستطيعون العيش خارج اطار الدولة العراقية(٢٦) .

وكان الموقف الشعبي العراقي اشد سخطا على الاتراك ، بسبب مزاعمهم حول

عائدية الموصل ، وانعكس ذلك في مواقف الأحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية والصحافة والجماهير الشعبية . ففي الاول من ايلول (سيتمبر) عام ١٩٢٤ تأسس حزب الاستقلال العراقي في الموصل . وعرف باتجاهاته القومية(٢٧) ، وكان الهدف الاول لتأسيسه الدفاع عن عروبة الموصل . وقد اذاع الحزب بيانا هاجم فيه الاتراك بشدة وذكر بجرائمهم اثناء حكمهم للمنطقة العربية ، وفند مطالبتهم بالموصل ، ووصم مزاعم الاتراك بالظلم والاستهتار ، واكد ان الموصل عربية عراقية . كما لعب الحزب المذكور دورا في تحريض الشعب على التمسك بعروبة الموصل والدفاع عنها ، وطلب في بيان وزع على الطلبة العراقيين ان يجيبوا عن اي سؤال حول الموصل بانها رأس العراق وهي عربية ، ومن يفكر بفصلها عنه فهو خائن لوطنه وامته(٢٨).

اما حزب الامة فقد قدم مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية المكلفة بالنظر بقضية الموصل ، دافع فيها عن عروبة الموصل ، واعلن معارضته لمطالبة حكومة انقرة غير العادلة بضم هذه الولاية اليها ، واكد ان اية قوة في العالم لا تستطيع اقتطاع الموصل عن العراق . وجاء في المذكرة بحث تفصيلي في القضية العربية والثورة العربية ضد الاتراك ، مع تدعيمها بالحجج الجغرافية والسياسية والقومية والاقتصادية والعسكرية(٢٩) .

واتخذت الجمعيات العراقية مواقف مساندة لمواقف الاحزاب العراقية ، ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٤ ارسلت الجمعية الكردية في مدينة السليمانية مذكرة الى مجلس عصبة الامم عارضت فيها المطالب التركية في ولاية الموصل ، واشارت الى عدم وجود اية روابط بين اكراد العراق وتركيا(٣٠) . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ تأسست (جمعية الدفاع الوطني) في الموصل لمساندة حزب الاستقلال في الذود عن عروبة الموصل(٣١) ، وقدمت جمعيتا الاطباء والصيادلة ، بعد دورة اجتماعات في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ ، مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية دافعت فيها عن عروبة الموصل ومنطقة كيليكيا التي يحتلها الاتراك(٣٢) .

ومن ابرز الشخصيات الوطنية التي كان لها دور في الدفاع عن عروبة الموصل عبد المحسن السعدون ، رئيس الوزراء ، الذي ادت جهوده الى خلق التفاف وطني عراقي حول قضية الموصل عام ١٩٢٣ ، وكما جاء في احد التقارير البريطانية ان الاجماع الوطني ضم « الشيخ ورجل المدينة والسني والشيعي واعضاء المجالس البلدية والادارية .. وصحفيو بغداد ضموا اصواتهم الى عبد المحسن السعدون »(٣٣). ويعد ساطع الحصري من الشخصيات العربية التي قامت بدور بارز في الدعوة لتنبيه الرأي العام العراقي حول خطورة قضية الموصل ، حيث قام بزيارة مدينة النجف والاتصال بالعديد من قادة الرأي العام المحلي ورجال الدين ، من أجل دعوتهم للاهتمام بهذه القضية . وفي بغداد ذاتها حيث كان يقيم كانت له لقاءات عديدة مع الشخصيات السياسية لمناقشة الامر ذاته(٣٤) .

وشنت الصحف العراقية حملة متواصلة ضد مطامع الاتراك ، فنشرت صحيفة (الامل) البغدادية لصاحبها الشاعر معروف الرصافي في عددها الصادر يوم ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٣ مقالا تحت عنوان « مطامع الترك في الموصل وحلب » هاجمت فيه دعاوى الاتراك ومطامعهم في المنطقة العربية بشكل عام ، وفي الموصل وحلب بشكل خاص(٣٥) ، ونشرت صحيفة (الموصل) الصادرة في الموصل بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٢٤ مقالة تحت عنوان « صفحة سوداء من تاريخ الترك في الموصل » فضحت جرائم الاتراك ابان حكمهم للمدينة ، وحذرت الجماهير الشعبية من خطر الاطماع التركية في الموصل(٣٦) .

واهتمت الصحافة السورية في الدفاع عن عروبة الموصل . فعندما زار وفد عصبة الامم الموصل من اجل تحديد الحدود بين العراق وسورية ، نقلت صحيفة المقتبس الدمشقية في عددها الصادر يوم ١٣ شباط (فبراير) ١٩٢٥ صورة دقيقة عن معارضة الشعب لمطامع الاتراك في الموصل وتمسكه ، بعربه واكراده، بالحقوق العربية واستعداده للتضحية في سبيلها(٣٧) .

وبلغ سخط الراي العام درجة من النضج والتبلور رافقت وصول لجنة التحقيق الدولية ، التي استقبلت بمذكرة موقعة من قبل (٣٠٠) شخصية موصلية من المقيمين في بغداد ، اعلنوا فيها ان الموصل بالنسبة للعراق بمثابة الراس من الجسد(٣٨) . وعند وصول اللجنة الى الموصل استقبلت من الاهالي بالهتافات تردد ان الموصل عربية عراقية(٣٩) . وابرق رؤساء الطوائف المسيحية في الموصل الى قداسة البابا وكرادلة لندن وبروكسل وفينا وبودابست يحتجون على مطالبة الاتراك بالموصل ويطالبون بالتدخل لدى عصبة الامم لتاييد حق العراق الطبيعي فيها(٤٠) .

خاتمة :

ان ظهور قضية الموصل يؤكد ان الاستعمار الغربي الحديث ، في اندفاعه للسيطرة على المنطقة العربية ، لم يراع سوى مصالحه الاقتصادية والسياسية ، ووضع جانبا الاعتبارات التاريخية والبشرية والاقتصادية والعسكرية وغيرها ، التي تؤكد وحدة المنطقة العربية . ولم يكتف الاستعمار بتجزئة المشرق العربي الى دول ، بل قسم هذه الدول الى دويلات اصغر كما فعل في سورية لخدمة مصالحه . وحين كانت مصالحه تتطلب المحافظة على وحدة دولة عربية ما ، كان ذلك يتم على حساب فكرة توحيد المنطقة العربية ككل ، كما حدث في العراق في قضية الموصل حيث عمل الاستعمار البريطاني على المحافظة على وحدة العراق الجغرافية والسياسية . وكان لتمسك العراقيين بالموصل على انها جزء طبيعي من العراق دوره في اكراه البريطانيين والاتراك

والفرنسيين على الاقرار بهذا الواقع الذي استغل من قبل بريطانيا لتزيز سيطرتها على موطيء قدم افضل ازاء المشرق العربي .. وكان بقاء الموصل على وضعها الطبيعي يعني بالنسبة للبريطانيين وضعها بمكانتها الطبيعية وميزاتها الاستراتيجية تحت سيطرة دولة فتية ضعيفة انذاك هي العراق ، يسهل منها المحافظة على المصالح البريطانية لفترات طويلة اكثر مما هو الحال لو كانت الموصل تحت السيطرة التركية .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « العلاقات بين سورية والعراق من ١٩٢٠ - ١٩٤١ - دراسة في العمل القومي المشترك » باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

(١) الحصري ، ساطع ، يوم ميسلون ، دار الاتحاد ، بيروت ١٩٤٥ ص ٦٢.

(٢) حسين ، فاضل ، مشكلة الموصل ، دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية ـ التركية وفي الراي العام ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٦٧ ص ٣٠٢-٣٠٤ .

(٣) البزاز ، عبد الرحمن ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٧ ص ١٦٧ .

(٤) الحصري ، المصدر السابق ص ٦٢ .

(٥) شريف ، ابراهيم ، الشرق الاوسط ، دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ، دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٥ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦) طبارة ، راشد ، الانتدب وروح السياسة الانكليزية ، مطبعة طبارة ، بيروت ١٩٢٥ ص ١١٣ .

(٧) الحسني ، عبد الرزاق ، تاريخ العراق السياسي الحديث ج٢ ، الطبعة الثانية ، صيدا ١٩٥٧ ص ١٠٢ .

(٨) طبارة ، المصدر السابق ص ١١٣.

(٩) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سورية (١٩٢٠ ـ ١٩٣٩) ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٥ ص ٣٠-٣١ و ٢٠٢.

(١٠) انطونيوس ، جورج ، يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة د.ناصر الدين الاسد احسان عباس ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، بيروت ـ نيويورك ١٩٦٦ ص ٤١٩ .

(١١) الحسني ، المصدر السابق ص ١٠٨.

(١٢) البزاز ، المصدر السابق ص ١٩٥ .

(١٣) الحصري ، المصدر السابق ص ٦٢،

(١٤) اعتبرت معاهدة لوزان في ٢٤ تموز (يوليو) عام ١٩٢٣ الاتفاقية الرسمية للسلام بين تركيا وجميع دول الحلفاء . وفيما يخص علاقات تركيا مع العراق وسورية فقد نصت المعاهدة على ان تقوم كل من بريطانيا وتركيا بالعمل على تسوية الحدود العراقية ـ التركية ، واعتبار منطقة الاسكندرونة جزءا من الاراضي السورية ، كما تم الاتفاق على تنازل تركيا عن كل الحقوق والملكيات للاراضي الواقعة خارج حدودها .

(١٥) الشريف محمد بديع ، والمحاسني ، زكي ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، بلا تاريخ ص ٢٢٠ .

(١٦) فوستر ، هنري ، تكوين العراق الحديث ، ترجمة عبد المسيح جويدة ، بغداد ١٩٤٥ص٢٩٠-٢٩١.

(١٧) حسين ، المصادر السابق ص ٦٠-٦١ .

(١٨) البرقاوي ، احمد رفيق ، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا (١٩٢٢ ـ ١٩٣٢) دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١٩) حسين ـ المصدر السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٦ .

(٢٠)

Arnold J.Toynbee, A and Kennethp.
Kirkwood Turkey - London 1926, P. 279.

(٢١) العلوجي ، عبد الحميد ، واللامي ، خضير عباس ، الاصول التاريخية للنفط العراقي ـ الجزء الثاني ، بغداد ١٩٧٥ ص ٣٢ .

(٢٢) كولان ، جاك ، تاريخ الحركة النقابية اللبنانية (١٩١٩ ـ ١٩٤٦) ، تعريب نبيل هادي ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٨٥ .

(٢٣) الحصري ساطع ، مذكراتي في العراق (١٩٢٧ ـ ١٩٤١) ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٦٨ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

(٢٤) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٢٧) جاء في المواد الاولى لبرنامج هذا الحزب ((ضرورة العمل على استقلال العراق التام وتنشيط حركة الوحدة العربية في الخارج)) . واصدر الحزب جريدة خاصة ناطقة بلسانه اطلق عليها اسم المهد . وصدر العدد الاول منها في ٢٠ يناير / كانون الثاني ١٩٢٥ ، وتولى رئاسة تحريرها عثمان قاسم وهو كاتب سوري هرب الى العراق بسبب ملاحقة السلطات الفرنسية له . بطي ، روفائيل ، الصحافة في العراق ، مطبعة دار الهنا ، مصر ١٩٥٥ ص ١٠٠ـ١٠١ .

(٢٨) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٦ـ٢٢٧ .

(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٣٠ .

(٣١) الحسني ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢١٠ .

(٣٢) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٣٣) فرج ، المصدر السابق ص ٧٩ .

(٣٤) الحصري ، مذكراتي ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٠ـ٤٩١ .

(٣٥) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢١ نقلا عن صحيفة الامل (١١ تشرين الاول ١٩٢٣) .

(٣٦) المصدر نفسه ٢٢٥ نقلا عن صحيفة الموصل (١٢ حزيران ١٩٢٤) .

(٣٧) المقتبس السورية ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ ، وكذلك العدد ٤٢١٧ ، ٣ اذار ١٩٢٥ .

(٣٨) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ نقلا عن صحيفة العالم العربي (٢٨ كانون الثاني ١٩٢٥) .

(٣٩) المقتبس ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ .

(٤٠) حسين ، المصدر السابق ص ٢٣٠ .

Abonnement : 1986, et anciennes collections annuelles (1981, 82, 83, 84, 85) 10 $.A. (y compris les frais aéropostales)

Paiement : Chèque bancaire à l'ordre de la revue.

ou : le Compte 3323/23, Banque Centrale de Syrie, Damas .

Correspondance : Rédacteur en chef

Université de Damas

Damas, Republique Arabe Syrienne

DIRAŠAT TARIKHIYYAH

REVUE HISTORIQUE TRIMESTRIELLE

S'INTERESSE A L'HISTOIRE DES ARABES

Pubiée par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

Comité de lecture :

CHAKER FAHHAM .... Directeur

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

ABDUL- KARIM RAFEQ

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFFEL

NAZEM KALLAS .... Redacteur en chef

7e année, N° 21-22, Mars - Juin , 1986

دراسات تاريخية

مجلّة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

هيئة الإشراف

د. شاكر الفحام — المدير المسؤول

د. محمد خير فارس

د. نبيه عاقل

د. عبد الكريم رافق

د. أحمد بدر

محمد محفّل

ناظم كلّاس — رئيس التحرير

السنة السابعة ، العددان ٢٣ ـ ٢٤ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٦

- **بدل الاشتراك السنوي :**

للافراد : (٣٠) ل.س . ثلاثون ليرة سورية .

للمؤسسات : (٥٠) ل.س . خمسون ليرة سوريا .
(تضاف اليها اجور البريد)

البلاد الاجنبية : (١٠) دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد) .

- **يتم تسديد بدل الاشتراك بشيك مصرفي لامر :**

جامعة دمشق ـ لجنة كتابة تاريخ العرب

او :

- **بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .**

- **يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥، ١٩٨٦)**

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ـ لجنة كتابة تاريخ العرب

دراسات تاريخية
١٩٨٦ / ١-٢
٢٣ ـ ٢٤

ان مجلة **دراسات تاريخية** تنشر البحوث التي تعالج موضوعات في **تاريخ العرب**، مباشرة او بصورة غير مباشرة، على ان يراعى فيها مايلي :

آ ـ ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

جـ ـ ان يكون مطبوعا على الالةالكاتبة، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

ومن الجدير بالذكر ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الفرض الاساسي : كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد باسلوب البحث العلمي، فتحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مسار خاص به، وايضاح ما لفه الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها .

دراسات تاريخية

السنة السابعة العددان ٢٣ – ٢٤ ، ايلول – كانون الاول ١٩٨٦

تنويـــه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجة نظر كاتبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيــة

مراجعــات :

في الاعداد القادمة تنشر مجلة دراسات تاريخية ملفات يدور كل منها حول محور معين ، يشارك في الكتابة فيه باحثون متخصصون ، كل في الجانب الذي يراه ، بحيث تكون بحوثهم دراسة متكاملة للموضوع محور الملف من جميع جوانبه .

وسيكون الملف المنشور موضوع ندوة تعقد في رحاب جامعة دمشق ، يدعى اليها المشاركون فيه لتقييم البحوث المنشورة تمهيدا لاخراجها في كتاب .

الملف :

آ ــ **التحولات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي .**

١ ــ **الملكية الخاصة وتطورها .**

٢ ــ **نظام المشــاع .**

٣ ــ **الاوقاف** ، (ا ــ الاوقاف الخيرية ، ب ــ الاوقاف الذرية) .

٤ ــ **اراضي الاولة** (ا ــ استغلالها ، ب ــ ضرائبها) .

٥ ــ **التحولات الاقتصادية والاجتماعية وعلاقتها بملكية الارض .**

ب ــ **الفعاليات الاقتصادية (في المدينة والريف) .**

١ ــ **الطوائف الحرفية ــ الانتاج والتسويق والخدمات .**

٢ ــ **التعامل التجاري وطرقه** : ا ــ نظام المقايضة ، ب ــ الشراكة والديــون والقروض ، جـ ــ طرق التجارة ، د ــ اسواق الريف ، هـ ــ النقد ، و ــ الاوزان والمكاييل .

عبد الرحمن الكواكبي
دراسة في فكره السياسي

د. سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنيـة

ان الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب بشكل عام ، او الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر بشكل خاص ، لابد وان يقفا وقفة طويلة امام الاتجاه الفكري الديني ـ القومي ، الذي ظهر وانتشر مع نهايات ذلك القرن(١)، وكان بمثابة المحصلة العلمية لاطلاع المفكرين العرب المسلمين على الفكر الغربي ومزجه بالتراث العربي الاسلامي . وقد ساهم هذا التيار في رفد المنطلقات التي سعت الى تحقيقهـا التيارات الفكرية الدينية الاخرى ، وفي مقدمتها فكرة الجامعة الاسلامية(٢) .

ونحن لا نرى أي تناقض في هذا الامر لان المفكرين الذين ينبع تفكيرهم من قاعدة دينية وانطلاقة اسلامية ، مثل الافغاني ومحمد عبده وغيرهما ، او المفكرين السياسيين الذين ينبع تفكيرهم من قاعـدة دينية وانطلاقـة قومية مثل الكواكبي والنديم ورشيد رضا وغيرهم ، نرى عندهم تفاعل الاساس الديني مع المنطلق القومي ، مدركـين أن الدين الاسلامي يعطي مكانة خاصة للعرب بين المسلمين .

ومن ناحية اخرى انه مهما برز الفكر على النطاق القومي لهؤلاء المفكرين المصلحين، يبقى المنبع التشريعي الرئيسي لافكارهـم في الدين الاسلامي وتشريعه ، ويجد جذوره في الحضارة العربية الاسلامية . وفي راي هؤلاء المفكرين انه « يجب على الامة العربية ان تسعى في تقوية نفسها وجمع كلمتها وحفظ وحدتها » حسب رأي الشيـخ رشيد

رضا ، ويجب : « على جميع المسلمين ان يساعدوها على ذلك لانها روح الجامعة الاسلامية التي توجهت اليها افكار عقلائهم بعد ما كاد الضغط يسحقهم سحقا»(٣).

وفي رايي ان عبد الرحمن الكواكبي ، هو خير من يمثل هذا الاتجاه الفكري ، الذي سميته الفكر الديني ـ القومي ، خاصة وان فكر الكواكبي ، الذي قدمه هدية « للناشئة » العربية الاسلامية ، قد اثر في كثير من الاتجاهات الفكرية المعاصرة التي ظهرت بعد وفاته ، كما اثر في التنظيمات القومية التي ظهرت في اوائل القرن العشرين ، وفي مقدمتها الجمعية العربية الفتاة السرية(٤) .

ترجمة موجزة لحياة عبد الرحمن الكواكبي(٥) :

مولده في مدينة حلب الشهباء ١٨٥٢(٦) ومثواه في القاهرة ١٩٠٢ ، فكان خط حياته امتدادا عبر المكان وعصرا عبر الزمان ، وكأنه كان يصل بحياته بين اجزاء الوطن التي قطعت اوصالها مصالح الاستعمار والاستغلال ومؤامراتهما قبل ذلك التاريخ وبعده. كما كان يؤكد بحياته هذه بداية عصر « الفتح الفكري » للامة العربية ويمهد لعصر « التكون » الثوري القومي العربي ، الذي يبدأ مع مطلع القرن العشرين ، وقد استقرت فيه نداءات التمرد والوحدة والتقدم والعدالة .

اما عصر الكواكبي ، فهو القرن التاسع عشر ، وهو عصر تفاعلت فيه ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد السمات الرئيسية لهذا القرن ، وهي :

١ ـ حركة اليقظة العربية الناشئة .

٢ ـ حركة الراسمالية الاوربية الصاعدة .

٣ ـ حركة محاولة اصلاح الدولة العثمانية وتقوية سيطرتها على البلاد العربية .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسة ، بدات تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير في انحاء الوطن العربي ، كما بدات تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، فكثرت المدارس ، وانتشرت المطابع والصحف ، وبالتالي انتشر التعليم وازدهر ، كما نما وتطور بعد عودة طلاب البعثات العلمية التي توجهت الى اوربا(٧) ولقد ساهم كل ذلك في نقل الافكار التحررية والثورية التي سادت اوربا في القرن التاسع عشر الى بلاد الامبراطورية العثمانية ، فولد تيارات سياسية جديدة لمفكرين سياسيين ، ثوار ومصلحين ، ظهروا في ارجاء الامبراطورية وفي الوطن العربي بشكل متجدد ومتطور .

ولا يستقيم لنا تقييم اثر هاتين الحركتين الرئيستين ، حركة اليقظة الاصلية، وحركة اليقظة المتأثرة بالغرب والمواجهة له ، الا اذا وعينا في الوقت ذاته ، ان تفاعل هاتين الحركتين وتصادمهما في الوطن العربي وبين ظهراني الامة العربيـة ، يتميز عن تفاعلهما في أي مكان آخر في العالم تميزا ظاهرا ، مرده أولا : الصراع التاريخي بـين الامة العربية و بين اوربا ، السابق لهذه المراحل والذي بلغ ذروته اثر قرون طويلة من الصراع بانحسار موجات غزو الفرنجة عن الارض العربية . ومـرده ثانيا : المكانـة الخاصة التي يتمتع بها الوطن العربي بموقعه الجغرافي الذي يشد القارتين الكبيرتين، اسيا وافريقيا ، احداهما الى الاخرى ، ويشمل جميع شواطيء المتوسط الشرقيـة والجنوبية ، فيقع بين اوربا الاستعمارية النامية ، وبين مستعمراتهـا الشاسعة في آسيا وافريقيا .

ليس غريبا والحال كذلك اذن ، ان نجد الفكر السياسي في الوطن العربي ، وهو في مرحلة اليقظة مع مطلع هذا القرن ، تجسيما لتفاعل الحركتين التاريخيتين الكبيرتين المشار اليهما ، بما كان يقوم بينهما من تفاعل وتضاد وصراع .

وفي هذه الاوضاع وما ولدته من افكار جديدة ، وما اتاحته من وسائل لانتشار هذه الافكار ، ظهر عدد من المفكرين العرب الرواد الذين كان لافكارهم ودعواتهم اثر كبير في النهضة العربية ، ومنهم من اقتصر اثره على طرح الافكار التي اسهمـت في انضاج الوعي السياسي ، ومنهم من تخطى العموميات الى الخصوصيات ، مطالبا بمقاومة الاستبداد ومصارعة الاستعباد .

واذا كانت قائمة هؤلاء المفكرين الرواد الذين ظهروا في ربوع الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر قائمة طويلة(٨) ، فمما لا شك فيه ان المفكرين الرواد من بلاد الشام يكونون نسبة ملحوظة من اسماء هذه القائمة ، وياتي عبد الرحمن الكواكبي في مركز الصدارة منها .

مصادرنا في استقراء الفكر السياسي لدى الكواكبي :

ان المصادر التي يتجه اليها الباحث عن الفكر السياسي للكواكبي ، شأن غيره من المفكرين او المصلحين أو القادة السياسيين ، تنحصر دوما في نوعين من المصادر :

المصدر الاول سيرته السياسية وما تنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسـالك ذات دلالة على فكره السياسي سواء في اهدافه أو في اسلوبه .

والمصدر الثاني : **اثاره الكتابية** التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصورة مباشرة او ضمنية . سواء أكانت هذه الاثار في صورة مؤلفات او مقالات او رسائل.

وبالنسبة للكواكبي ، نجد من تتبع سيرته انه لم يتسلم مراكز ذات مسؤولية سياسية ، ولم ينتسب الى منظمات يتطلب منا البحث في فكره السياسي ان ندرس دساتيرها او مواثيقها او نظمها ، او نتابع فعالياتها ونشاطاتها . وكل مايمكن ان تلقيه سيرته من ضوء على فكره السياسي يمكن أن يركز بصورة موجزة فيما يلي :

ثورته على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية في عهده ووصفه اياها بالاستبداد ، واختياره الصحافة ميدانا للدعوة الى افكاره(٩) ثم التخلي عن وظيفته الادارية التي عمل بها بعد ذلك وجميع الوظائف سواء كان لها اتصال بالتجارة ، أو القضاء أو التعليم . وهكذا فضل الهجرة الى مصر ، تعبيرا عن موقف سياسي ، وطلبا لموقع يتمكن فيه ان يعبر عن هذا الفكر السياسي الذي يتركز اساسا في دعوة للاصلاح والتقدم ، ولمغالبة الاستبداد كسبيل لتحقيق هذه الدعوة ، الموجهة للعرب بصفة خاصة ، وللمسلمين والشرق بصورة عامة ، حتى انه عندما عمل في المحاماة نقلها من مهنة الدفاع عن الافراد الى الدفاع عن الامة حتى لقب بأبي الضعفاء(١٠) .

ومعنى هذا ان سيرة الكواكبي تضعه في مصاف قادة تيار الفكر السياسي الثوري في عهده ، وهو التيار الذي اسهم في صنعه خلال القرن التاسع عشر كل من الشهاب الآلوسي في العراق ، وخير الدين التونسي ومحمد بيرم ، وابن ابي الضياف في تونس ، واحمد الشدياق واديب اسحق وغيرهم من بلاد الشام ولبنان ، ورفاعة الطهطاوي في مصر ، وعلي مبارك ومحمد عبده في ميدان الاصلاح ، وجمال الدين الافغاني وعبد الله نديم في ميداني الثورة والاصلاح (١١) .

غير ان الكواكبي في رأينا ، كان أول عربي — مسلم يتصدى للاستبداد « بالتحليل والدراسة الجادة »(١٢) نتيجة تفاعل المنطلق القومي عنده مع الاساس الديني الاسلامي لثقافته . لان الدين الاسلامي يعطي العرب مكانة خاصة بين المسلمين من جهة ، ومن جهة اخرى لان الاسلام دين ودنيا ايضا ، ولابد من حفظ كرامة انسانية الانسان من مظالم وفظائع الاستبداد ، و هذا ما وجد الكواكبي جذوره في الدين الاسلامي وتشريعه .

ولم يخف الكواكبي افكاره هذه في مخطوطات خاصة محفوظة ، او في مذكرات امتنع عن نشرها ، بل انه عبر عن أفكاره في الوقت المناسب بكل وضوح ، وفي أوج عصر الاستبداد « الحميدي » مضحيا بمركزه ومسقط راسه ومتوجها نحو القاهرة لنشر

افكاره على الملأ بوضوح . ولما كان لم يتقلد مراكز ذات مسؤوليات سياسية كعضوية مجلس المبعوثان ، او مركز ولاية او وزارة ، او غيرها من المراكز ذات المسؤوليات السياسية او الفكرية (١٣) ولم ينتسب الى منظمة يلتزم بميثاقها وافكارها ، فانه من المفكرين السياسيين الذين تبقى آثارهم المكتوبة هي المصدر الرئيسي للتعرف على افكارهم السياسية والبحث عنهم .

اما الآثار التي خلفها الكواكبي ووصلت الينا فهي كتابان :

١ ــ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد .
٢ ــ ام القرى(١٤) .

اما كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، فهو يقع في ١٣٦ صفحة من الحجم المتوسط(١٥) ويحتوي على : المقدمة للمؤلف ، ثم على مقدمة الكتاب ، وسبعة فصول تدور في جوهرها حول مفهوم « الاستبداد » وتأخذ العناوين التالية : الاستبداد والدين ، الاستبداد والعلم ، الاستبداد والمجد ، الاستبداد والمال ، الاستبداد والاخلاق ، الاستبداد والتربية ، الاستبداد والترقي ، الاستبداد والتخلص منه .

وقد صدرها المؤلف بقوله : هي كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالاوتاد . . .

نشر الكواكبي افكاره هذه في صحيفة المؤيد المصرية لاول مرة على شكل سلسلة مقالات ، تحت العناوين التي اشرت اليها سابقا ، ثم اضاف اليها بعض الزيادات وحولها الى كتاب .

اما كتاب ام القرى ، فهو « ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ »(١٦) وتدور حول ظاهرة الضعف او « الفتور العام » الشامل الذي يعم المسلمين وديارهم . وقد توصل الكواكبي الى اسباب الفتور من الحوار السياسي الذي ورد على لسان ممثلي الاقطار العربية والاسلامية في « جمعية ام القرى » التي تخيلها المؤلف .

يقع الكتاب في ٢١٧ صفحة من الحجم المتوسط عدا الفهرست(١٧) ، ويحتوي على مقدمة المؤلف ، ومقدمة الكتاب ، ثم اجتماعات الجمعية . وفي الاجتماع الثاني عشر « أمر الرئيس بقراءة القانون العام لجمعية تعليم الموحدين » .

لقد نشر الكواكبي كتاب « طبائع الاستبداد » قبل كتاب « أم القرى » ، ولكن يرجح البعض « أن يكون تامل الكواكبي في الطبائع » ، وصياغته له قد جاء بعد تأليف « ام القرى » ، الذي يشير فيه الى الاستبداد « باعتباره علة العلل التي تسبب الانحطاط »(١٨) ».

وفي رأينا ان كتابي الكواكبي يكونان في الواقع تعبيراً متكاملا عن فكر سياسي متماسك المقدمات والنتائج ، فلا يحسن تحليل افكاره في كل منهما بمعزل عن الآخر، ومن الاجدى ان يحلل الفكر السياسي لدى الكواكبي كما يبدو في الكتابين كوحدة واحدة . ويشير رشيد رضا الى العلاقة بين الكتابين بان سجل ام القرى يتطرق الى الاصلاح الديني والاجتماعي ، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق الى الاصلاح السياسي(١٨) . كما اشار انور الجندي الى ان فلسفة الكواكبي تكتمل في كتابيه معا(١٩) . أما الاستاذ احمد امين فقد فطن الى هده الصلة فقال في معرض حديثه عن الكواكبي « نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم احدهما طبائع الاستبداد والآخر ام القرى ، الاول : في نقد الحكومات الاسلامية ، والثاني اغلبه في نقد الشعوب الاسلامية »(٢٠) .

ولكن الاستاذ احمد امين على الرغم من ادراكه للصلة بين الكتابين فانه قصر تقصيرا واضحا في ادراك حقيقة هذه الصلة ، بل في تقييم مضمون الكتابين من حيث اعتبره في اساسه « نقدا للحكومات الاسلامية في الكتاب الاول ، ونقدا للشعوب الاسلامية في الكتاب الثاني » في حين ان مضمون الكتابين اعمق من ذلك واشمل ، والصلة بين مضمونيهما اوسع مما صورها الاستاذ احمد امين .

ان الصلة الحقيقية بين مضمون كل من الكتابين هي في الواقع الصلة بين **النظرية** من جهة ، وبين **التطبيق** من جهة اخرى ، او الصلة بين المنطلقات العقائدية والمبادىء العامة من جهة ، وبين تحديد الاهداف وتشخيص التناقض بين ما هو قائم الى ما يجب ان يقوم ، وتحديد الوسائل لتغير هذا القائم الى ما يجب ان يقوم من جهة اخرى .

أن كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في جوهره بحث نظري : عقائدي ــ اجتماعي ــ سياسي، في حين ان كتاب ام القرى بحث يرتكز الى الافكار العقائدية ــ الاجتماعية ــ السياسية الواردة في طبائع الاستبداد ، يحلل وضع العرب والمسلمين بالنسبة اليها ، فيشخص الداء ويرسم الدواء كهدف وكأسلوب ، كما نبين في دراستنا للكتابين .

ولذلك فانني ارجح كتابة كتاب طبائع الاستبداد ، قبل كتاب ام القرى . وعلى العموم فانه من المفيد ، بل من الضروري في رايي ، ان نحلل نهـج الكواكبي في البحث والتحليل ، وفي طرح المسائل ومناقشتها والتوصل الى بعض النتائج حيالها ، قبل ان نباشر بتحليل مضمون الكتابين ، واستخلاص افكار الكواكبي السياسية التي ينطويان عليها ، فبيان هذا النهج ذو قيمة في تقييم الكواكبي كمفكر سياسي ، وفي تقييم افكاره ذاتها ».

منهاج الكواكبي في البحث والتحليل :

ان نهج الكواكبي في البحث والمناقشة والتحليل ، كما يبدو في كتابيه « طبائـع الاستبداد » و « ام القرى » **نهج تحليلي مقارن** : تتوفر له مقومـات البحث المنطقي الذي يصل الى النتائج من مقدماتها ، كما تتوفر لـه بعض عناصر البحث العلمـي ، الذي ينطلق من تحديد المواقف العقائدية والعامة ليخلص منها بالتطبيق الى المواقف المحـددة والخاصة .

واذا كان اسلوب الكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد هو اسلوب الاستنتاج ، فانه في كتاب أم القرى هو اسلوب الحوار ، او الجدل. واستعمال الكواكبي لاسلوب الحوار في كتابه الثاني ، يجعله جديرا بان يسجل له فضل السبق في استعمال هذا الاسلوب بين المفكرين في هذا القرن (اي القرن التاسع عشر) لانه اسلوب يتيح عرض المسائل ومناقشتها بصورة لا تتحقق بالاسلوب الانشائي ــ الذي يشير اليه الدكتـور سامي الدهان(٢١) مهما كان هذا الاسلوب « الانشائي» محللا او منطقيا .

لذلك فاننا نلمح معالم هذه السمات في نهج الكواكبي عندمـا نقرأ مقدمـة طبائع الاستبداد فنجدها الى حد بعيد تخطيطا لبحثه ، يبتدىء بعلم السياسة ، فموضوع الاستبداد كموضوع من مواضيع علم السياسة ، فتحديد مضمون عبارة الاستبداد ، فبيان ابعاد هذه المسألة كما سيبحثها في كتابه .

كذلك فاننا نجد في كل فصل من الفصول التي تعالج بعدا من ابعاد هذه المسألة، ان البحث يبتدىء بتعريف للمصطلحات ، ومن ثم يسير في نقاش يلتزم بهذا التعريف، فاذا وصلنا نهاية الكتاب وجدنا الكواكبي في وعي المفكر المسؤول يحدد خمسـة عشر بحثا يعتبرها : « رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحيـاة السياسية »(٢٢) فيحددها ، ثم يبين الاسئلة التي ينطوي عليها كل مبحث منها بصورة علمية واضحة ، ويقول :

« هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج الى تدقيق عميق ، وتفصيل طويل ، وتطبيق عن الاحوال والمقتضيات الخصوصية ، وقد ذكرت بهذه المباحث تذكرة لاولي الالباب وتنشيطا للنجباء ، على الخوض فيها بالترتيب اتباعا لحكمة اتيان البيوت من ابوابها »(٢٢) أما هذه المباحث فهي :

١ ـ مبحث ما هي الامة اي الشعب
٢ ـ مبحث ما هي الحكومة
٣ ـ مبحث ما هي الحقوق العمومية .
٤ ـ مبحث التساوي في الحقوق . هكذا
٥ ـ مبحث الحقوق الشخصية
٦ ـ مبحث نوعية الحكومة
٧ ـ مبحث ما هي وظائف الحكومة
٨ ـ مبحث حقوق الحاكمية
٩ ـ مبحث طاعة الامة للحكومة
١٠ ـ مبحث توزيع التكليفات
١١ ـ مبحث اعداد المنعة
١٢ ـ مبحث المراقبة على الحكومة
١٣ ـ مبحث حفظ الامن العام
١٤ ـ مبحث حفظ السلطة في القانون
١٥ ـ مبحث تامين العدالة القضائية
١٦ ـ مبحث حفظ الدين والاداب
١٧ ـ مبحث تعيين الاعمال بقوانين
١٨ ـ مبحث كيف توضع القوانين
١٩ ـ مبحث ما هو القانون وقوته
٢٠ ـ مبحث توزيع الاعمال والوظائف
٢١ ـ مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم
٢٢ ـ مبحث الترقي في العلوم والمعارف
٢٣ ـ مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة

٢٤ـ مبحث السعي في العمران

٢٥ـ مبحث السعي في رفع الاستبداد(٢٤) .

ويكفي ان نقف امامها في ترتيبها وفي الاسئلة التي تكون كل مبحث منها لندرك مدى استيعاب الكواكبي للقضية « السياسة » في اسسها وفروعها ، ومدى العلمية والمنطقية في ترتيبها وتحديد ابعادها .

ونلمح معالم النهج المشار اليه كذلك في كتاب « ام القرى » .. حيث نلاحظ هذه المعالم :

اولا : عندما نجد الكواكبي يصنف محاور النشاط الفكري في عصره في اربعة مقاصد رئيسية هي :

المقصد الاول : بيان الحالة الحاضرة ، ووصف اعراضها بوجه عام وصفا بديعا يغير التاثر ويدعو الى التدبر ، على ان ذلك لا يلبث الا عشية او ضحاها .

والمقصد الثاني : بيان ان سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل ، بيان اجمال وتلميح ، مع ان المقام يقتضي عدم الاحتشام من التفصيل والتشريح .

والمقصد الثالث : انذار الامة بسوء العاقبة المحدقة بها ، انذارا هائلا تطير منه النفوس مع ان الحال الواقع لا تغني فيه النذر .

والمقصد الرابع : توجيه اللوم والتبعة على الامراء والعلماء والكافة لتقاعدهم عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ، مع ان الاتفاق وهم متشاكسون متعذر لا متعسر(٢٥) .

ونلمح هذه المعالم :

ثانيا : عندما نجده ينعي على المفكرين في عصره اسلوب النقاش اللفظي غير المجدي ويحدد الاسلوب المفيد « بتشخيص المرض او (الامراض المشتركة) عن طريق مدقق سياسي » فهذه المقاصد القولية قد استوفت حقها من انواع بدائع الاساليب ، وآن الأوان لاستثمارها ، ثم يحدد الكواكبي سير العمل على الشكل التالي : « بالبحث أولا عن مراكز المرض ، ثم عن جراثيمه ، ليتعين بعد ذلك الدواء الشافي الاسهل وجودا والا ضمن نتيجة ، وبالتنقيب ثانيا عن تدبير ادخاله في جسم الامة بحكمة تصرع العناد والوهم ، وتتغلب على مقاومة اعضاء الذوق والشم»(٢٦) .

مضمون الفكر السياسي لدى الكواكبي :

في ضوء ما تقدم ، يمكننا ان نصنف افكار الكواكبي السياسية على الصورة التاليـة :

اولا : **افكاره السياسية العقائدية** التي تكون نظرته الاساسية للانسان والمجتمع والحياة وحركة التاريخ .. من حيث كون هذه الافكار العقائدية الاساسية تتفاعل مع الاحداث والوقائع ليكون من نتيجة هذا التفاعل افكاره السياسية المباشرة .

ثانيا :**افكاره السياسية المباشرة** التي تعبر عن موقفه من المسائل الرئيسية التي تكون مدار الفكر السياسي بصورة عامة وهي :

ا ــ **علاقة الفرد بالدولة في جميع ابعادها** : بما ينطوي عليه هـذا من راي او موقف في مسائل : **رأس الدولة** ، وصلاحياته ، وحقوقه ، وواجباته ، واسلوب ممارسة هذه الصلاحيات ، ثم **اجهزة الدولة** ، وبصفة خاصـة الحكومة في طريقـة تكوينهـا وصلاحيتها ومسلكها ومراقبتها ومحاسبتها ، ثم **الفرد** في حقوقه وواجباته وطريقة ممارسته لهذه الحقوق وادائه لهذه الواجبات .

ب ــ **علاقات الامم او الشعوب مع بعضها ، ومـع الدولة** عندما تكون الدولة امبراطورية واحدة تضم اكثر من امة او شعب كالامبراطورية العثمانية .

افكار الكواكبي السياسية العقائدية :

يمكننا ان نجمل الموقف لدى الكواكبي بالقول :

ان الكواكبي مفكر عقائدي ، افكاره تجاه الانسان والمجتمع وحركة التاريخ هي: افكار دينية (اسلامية) ــ قومية (عربية) ــ انسانية ، متفاعلة بالعلم والافكار العلمية على صورة لا يقوم معها التصادم بين الايمان والمبادىء والقيم الدينية من جهة ، وبين النظريات والحقائق والمناهج العلمية من جهة اخرى .

وتفصيل هذا الوصف الموجز لموقف الكواكبي ، العقائدي ، يستقى بصورة مباشرة احيانا ، ويستنتج احيانا اخرى من كتابيه موضوع دراستنا .

ففي كل باب من الابواب التي تحدث فيها الكواكبي عن الاستبداد ، في كتابه طبائع

الاستبداد ، وفي المناقشات التي تكون مضمون الاجتماعات الاول والثاني والثالث والرابع من اجتماعات الجمعية التي تخيلها الكواكبي في كتابه ام القرى(٢٧) ، بل في مقدمتي كل من الكتابين ، نجد الكواكبي باسلوب **التقرير** احيانا ، وباسلوب **الحوار** احيانا اخرى ، يؤكد منطلقات عقائدية اساسية ، ذات تأثير حاسم على افكاره السياسية ».

فعلى الصعيد العقائدي :

أولا : الكواكبي مؤمن مسلم(٢٨) :

يؤكد الكواكبي ان المبادىء والقيم التي يبني عليها افكاره السياسية راسخة في الايمان الديني الصافي والواعي ، وراسخة كذلك بصفة خاصة في الاسلام .

على ان هذا الوصف لموقفه ، الديني (الاسلامي) ، لا يحقق ادراكا لمضمونه الثوري وتقييما لنتائجه الشاملة اذا فهم تقليديا جامدا . فقد كان الكواكبي في مستوى من الثورية عال وعميق ، عندما تجرأ فقال على لسان **الصاحب الهندي** : « اني كنت ايضا اظن انه يوجد في البشر افراد ممن لا دين لهم ، وان من كانوا كذلك لاخلاق لهم، ثم ان خبرتي الطويلة قد برهنت لي ان الدين بمعناه العام وهو ادراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف في الكائنات ، والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر ، هو أمر فطري في البشر، وان قولهم فلان دهري أو طبيعي صفة لمن يتوهم أن تلك القوة هي الدهر أو الطبيعة فيدين لما يتوهم » . وبعد هذا العرض يصل الكواكبي الى النتيجة التالية : بناء على ذلك ثبت عندي ما يقرره الاخلاقيون : من انه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقا بل « كل انسان يدين بدين » وامام هذه البديهة ، يبدأ بتوضيح هذا الدين بقوله : اما صحيح أو فاسد عن اصل صحيح ،واما باطل او فاسد عن اصل باطل ، والفاسد ان يكون فساده اما بنقصان أو بزيادة أو بتخليط وهذه أقسام ثمانية(٢٩) .

ثم عندما يشرح ما سماه : « الضلال والهداية » على لسان **العالم النجدي** مبينا: ان النوع الانساني مفطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة ، لا تتكيف ، تتصرف في الكائنات على نواميس منتظمة، فالعامة يعبرون عن هذه القوة بلفظ **الطبيعة** ، والراشدون من الناس مهتدون ان هذه القوة من هو قائم بها ، يعبرون عنه بلفظ **الله** ، ثم يبين ان هذا الشعور ليس واحدا بل يختلف قوة وضعفا ، حسب ضعف النفس وقوتها ، ويختلف الناس في تصور وتوصيف ماهية هذه القوة حسب مراتب الادراك فيهم ، او حسبما يصادفهم من التلقي عن غيرهم وذلك هو : « الضلال والهداية »(٣٠) .

لقد كان الكواكبي بهذا المفهوم الواسع للدين يقيم أساسا لافكاره السياسية الثورية ، يدعمه تدعيما بينا عندما يتحدث عن الدين و الاستبداد ، وعن الدين والعلم بصفة خاصة في طبائع الاستبداد فيؤكد : ان التوحيد كجوهر للدين انما يتركز أساسا في رفض الخضوع الا لله ، ويؤكد كذلك تساوي الناس امام الله ، ويؤكد : ان الدين دعوة للعلم وتكريم للعلماء ، وهمادعوة وتكريم يمجدان العقل والبحث القائم على العقل والمشاهدة (٢١) ».

ومعنى هذا ان المنطلق الديني كمنطلق عقائدي اساسي لدى الكواكبي من حيث كونه مفكرا سياسيا هو منطلق ثوري يرفض كل اتجاه يحاول ان يجعل من الدين، ركيزة أو أساسا للاستبداد او الاستغلال .

فاذا حاولنا بعد ذلك ان نتبين جوهر الاسلام واركان الاسلامية لدى الكواكبي، فاننا نجد موقفا يتميز بثورية جريئة وصريحة . فهو لا يتورع من القول على لسان العالم النجدي مايلي : .. « فهل بقي من شك بعد هذه الابحاث من القول على لسان جمعيتنا ، ولا سيما ما بينه المحقق المدني ، في ان الدين الموجود الان بالنظر الى مانديـن به لا بالنظر الى ما نقرره ، وباعتبار ما نفعله لا باعتبار ما نقوله ، ليس هو الدين الذي تميز به اسلافنا مئين من السنين على العالمين ، كلا بل طرأت على الدين طوارىء غيرت نظامه »(٢٢) .

وهكذا نجد الكواكبي لا يتردد في أن يقول للمسلمين في عصره صراحة لا ضمنا: ليس الاسلام دينكم الموجود الآن ، وانما الاسلام شيء آخر ..

فاذا حاولنا ان نتبين هذا الاسلام الآخر ، هذا الاسلام النقي(٢٣) الذي يكون بجوهره التوحيدي وبقيمه الانسانية وبنظامه السياسي مضمون الدين الاسلامي كما يراه الكواكبي ، تبرز امامنا الدعامات التالية :

الدعامة الاولى ، تاكيد شامل وقاطع للمدلول التحرري الانساني ، الذي تتضمنه عبارة التوحيد لا اله الا الله ، ولماذا كانت أفضل الذكر ، ولماذا بني الاسلام بل وكافة الاديان على : « لا اله الا الله » ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقا سواه ، اي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع ، فيكون معنى لا اله الا الله : « لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله » ويتساءل الكواكبي « فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه ..؟ ويجيب الكواكبي مؤكدا : « كلا ثم كلا » (٢٤) .

الدعامة الثانيـــة ، **رفض حاسم لمبدأ الجبرية** ، وما يترتـب عليـه مـن استسلام للتأخر او الاستبداد اذ يعزوه « للقدر » وهو موقف يحمل بـه الكواكبي **الانسان والمجتمع** مسؤوليات « اوضاعهم » وواجبات « مواجهة » هذه الاوضـاع في رفض صريح لالقاء تبعة ما يعانوه من استبداد او استغلال على الاقدار او على الاغيار . فيقول في مقدمة طبائع الاستبداد ... « انما اردت بذلك تنبيه الغافلين بمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار ، وعسى الذين فيهم رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات »(٣٥) ولعل الكواكبي كان يقرأ مستقبل العرب ، مما يدلنا على بعد نظره وقوة ملاحظته ،ثم يقول على لسان الفاضل الشامي : « اني ارى ان منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية ، مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الامة جبرية باطنا قدرية ظاهرا »(٣٦) .

الدعامة الثالثة ، **مهاجمة مفهوم ((الزهد))** مهاجمة قاسية ، واعطاء عبارة الزهد مفهوما ثوريا تقدميا يعتبر من ابرز ما جاء به الكواكبي ، من حيث جعـل من الزهـد موقفا اشتراكيا ، فيقول على لسان الفاضل الشامي ايضا في وصف اسـباب الفتور والتاخر لدى المسلمين : « ومثل الحث على الزهد في الدنيـا ، والقناعة باليسـير ، والكفاف من الرزق ، واماتة المطالب النفسية : كحب المجد ، والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر ،والاقدام على عظائم الامور ، ويصل الكواكبي الىهذه النتيجة قائلا: « وكفى بهذه الاصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات ، لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع ، ولمثلها نفى عمر بن الخطـاب رضي الله عنه ابـا ذر الغفاري ، وهكـذا : « يعيش المسلم كميت قبل ان يموت »(٣٧) .

اننا نجد الكواكبي بعد هذا التجريح للمفهوم اللاحياتي للزهد ، يقدم على لسان البليغ القدسي المفهوم الاجتماعي ـ الاشتراكي للزهد ، فيقول : اذا تتبعنا كل ماورد في الاسلامية حاثا على الزهد ، نجده موجها الى الترغيب بالاثرة العامة ، اي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه ، حتى ان كل ما ورد فيالحث على الجهاد في سبيل الله مراد به سعي المؤمن بكل الوسائل ، حتى يبذل حياته **لاعزاز كلمة الله واقامة دينه** ، لا في خصوصية محاربة الكفار كما تتوهم العامة ، كما انالمراد من محاربة الكفار هي من جهة اعزاز الجامعة الاسلاميـة ، ومن جهة اخرى خدمـة الجامعة الانسانية من حيث الجاء الكفار الى مشاركة المسلمين في سعادة الداريـن، لان للامم المترقية علما ولاية طبيعية على الامم المنحطة ، فيجب عليها انسانية انتهديها الى الخير ولو كرها باسم الدين او السياسة(٣٨) .

وغني عن البيان ، ان مثل هذا المفهوم للزهد ، الذي يدعو له الاسلام مفهوم دافع للتقدم المادي والمعنوي ، ولكنه التقدم الاجتماعي الذي يصب افراد الامة جميعهم باخلاقية لخير كل منهم لغيره او للمجتمع على نفسه ، وهي دعوة بهدفها واخلاقيتها ثورية ـ اشتراكية ، تتناقض على خط مستقيم مع دعوة الزهد التي يستغلها في أغلب الأحيان المستغلون والمتسلطون غير الزاهدين فعلا لكي يؤكدوا في نفوس المستغلين من قوى الشعب معاني القناعة بالتخلف والبؤس تحت شعار الزهد .

الدعامة الرابعة ، **تفسير الآية القرآنية** ، « واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » **تفسيرا تحرريا ثوريا** ، وكذلك تفسير آية الجهاد « وجاهدوا في سبيل الله » **تفسيرا عقائديا انسانيا** ، حيث يقول على لسان المرشد الفاسي :

« على أن انحصار همة الدخلاء في الجباية والجندية ادى بهم لاهمال الدين كليا ، ولو أن في القرآن آيتين اثنتين لهجروه ظهريا ، احداهما قوله تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، مع الغفلة عن المراد باولي الامر ، وما تقتضيه صيغة الجمع ، وما يقتضيه قيد منكم ، والثانية قوله تعالى : وجاهدوا في سبيل الله ، مع اغفال : هل الجهاد المأمور به ما يستحصل به اعزاز كلمة الله ، أم ما تؤيد به سلطة الامراء العاملين على الاطلاق » (٣٩) .

وتفسير الكواكبي للآيتين الكريمتين على هذا النحو ، يضرب بصورة حادة وعميقة في مفاهيم شاسعة تستند الى الآيتين في حماية نظم حكم المستبدين المستغلين وتأييد سلطانهم .

وواضح في غير عناء ان الكواكبي بتركيزه الخاص على هاتين الآيتين المهمتين من الزاوية السياسية ، سواء بالتساؤل الذي يطرحه او باشارته الى ان اولي الامر منكم أي ليسوا اجانب عنكم او من غيركم انه بذلك انما يوجب دينيا عدم الطاعة الا عندما يتولى الامر **أولو أمر** منكم ، أي عندما يتولاه **مجموعة** لا فردا ، شورى لا انفرادا ، منكم ، لا تسلطا واستعمارا . وانه فوق ذلك يابى على المؤمن الجهاد حيث يكون الجهاد تدعيما لسلطان حاكم ، إلا اذا كان الحاكم وسلطانه وتدعيمهما انما هو في سبيل الله ، أي في سبيل المبادىء والقيم الاساسية التي يأمر بها الله .

الدعامة الخامسة ، **مهاجمة فكرة رجال الدين كطبقة خاصة** ، ومهاجمة «العلماء» و « المتعممين » والمنافقين والانتهازيين في عصره . فقد انكر الكواكبي ، « تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على

الدين فضيعوه وضيعوا أهله » . كما بين ان الولاء في الدين الاسلامي لعامة المسلمين « فلا يختص بحفظ الرابطة والسيطرة على الشؤون العمومية رؤوساء دين سوى الامام ان وجد » فالكواكبي واضح في انكار كل اتجاه يزعم ان الاسلام يقيم طبقة خاصة مـن رجال الدين وسيطة بين الانسان وربه ، ويقول على لسان المولى الرومي: .. « وعندي ان داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة اخرى تحت ولاية الجهلة المتعممين ، وهم المقربون من الامراء على انهم علماء ارتبط القضـاء والامضاء بهم ، فان هؤلاء المتعممين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لانفسهم قانونا سموه طريق العلماء ، وجعلوا فيه من الاصول ما انتج منذ قرنين الى الآن أن يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين »(٤٠) .

وهكذا نرى ان الكواكبي كان قاسيا قسوة مبررة في هجومه على معممين وعلمـاء لم يقصروا عن اداء واجبهم الايجابي كما يحدده الدين بالنسبة لكل من اوتي العلم ، وانما لانهم تحولوا بالنفاق والانتهاز الى أدوات تتبادل مع الفئات الحاكمـة المنافـع والقاب التعظيم وتشترك معهم في فرض اوضاع على الشعب باسم الدين ، والدين في حقيقته منها براء(٤١) .

الدعامة السادسة ، عن **المذاهب المتعددة في الاسلام** ورفض الخضوع للخلافات المتجسمة فيها ، وللصراعات الكلامية والفعلية النابعة عنها .

وقد رفض الكواكبي فكرة اغلاق باب الاجتهاد تاكيدا لقـدرة المسلمين الواعين المخلصين على استنباط السياسـات والمسالك والعلاقـات التي توافـق احوالهـم وعصورهم ، وتنبع من جوهر الدين كما يعبر عنه في الكتاب والسنة بصفة خاصة . فيقول على لسان الرئيس الاستاذ المكي : « ثم يا أيها الاخوان اظنكم كذلك تستصوبون ان نترك جانبا اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليدا ، فلا نعرف مآخذ كثير من احكامها ، وان نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع ، وذلك كي لانتفرق في الآراء وليكون ما نقرره مقبولا عند جميع اهل القبلة ، اذ أن مذهـب السلف هو الاصل الذي لا يرد ولا تستنكف الامة ان ترجع اليه وتجتمع عليه في بعض امهات المسائل ، لان في ذلك التساوي بين المذاهب ، فلا يثقل على احد نبذ تقليد احد الائمة في مسألة تخالف المتبادر من نص الكتاب العزيز او تباين صريح السنة الثابتـة في مدونات الصدر الاول » .

ويدعو الكواكبي ، على لسان الاستاذ المكي ، الى ترك النقول المتخالفة خصوصا منها المتعلق بالبعض القليل من الاصول « ونجتمـع على الرجـوع الى ما نفهمـه من

النصوص ، او ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا انه جرى عليه السلف ، وبذلك تتحد وجهتنا ويتسنى لنا الاتفاق على تقرير ما تقرره ، ويقوى الامل في قبول الامة منا ما ندعوها اليه »(٤٢) .

بذلك المنطق الاساسي الواسع في تعريف الدين ، وبهذه الدعامات الثورية في تحديد مضامين الدين الاسلامي واركانه ، تحديدا ذا اثر كبير على الافكار السياسية المباشرة ، يبدو لنا معنى القول ان الكواكبي في منطلقه العقائدي الاساسي كان يقوم على اساس ديني (اسلامي) . ولعل هذه الصورة للمنطلق الديني الاسلامي لديه ، تستكمل ملامحها بصورة اوضح عندما نعي ان الكواكبي يجد في الدين بهذا المفهوم ضرورة انسانية اجتماعية تاريخية ، شديدة الصلة بطبيعة الانسان من حيث كونها طبيعة تتنازعها نوازع الخير والشر في وقت واحد ، فيكون الدين بصورة عامة ، والدين الاسلامي بصورة خاصة ضرورة تحمي نوازع الخير وترجحها على نوازع الشر في الانسان . .

ويقدم لنا الكواكبي وصفا للناموس الطبيعي في البشر « هو ناموس وحشي لا خير فيه »، لان مبانيه هي تنازع البقاء ، وحفظ النوع ، والتزاحم على الاسهل ، والاعتماد على القوة ، وطلب الغايات وحب الرئاسة ، وحرص الادخار ، ومجاراة الظروف ، وعدم الثبات على حال ، الى غير ذلك ، ويصفها بانها قواعد شر ومجالب ضر ، لا يلطفها غير ناموس شريف واحد ، مودع في فطرة الانسان ، وهو : « اذعانه الفكري للقوة الغالبة اي معرفة الله بالالهام الفطري ، الذي هو الهام النفس رشدها ، والهامها فجورها وتقواها . .

ولا ريب في ان لهذه الفطرة الدينية في الانسان علاقة عظمى بشؤون حياته لانها اقوى وافضل وازع يعدل سائر نواحيه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن انثى وذلك بما يؤمله المؤمن من المجازاة والمكافاة والانتقام منه وله(٤٣) . .

ثانيا ـ الكواكبي **قومي عربي** .

ان موقف الكواكبي النظري والسياسي واضح ، في انه الى جانب منطلقه العقائدي الاول كمؤمن مسلم ، فهو تجاه مسألة المجتمع الانساني في هيئته وحدوده ومقوماته ، قد واجه المسألة القومية وادركها ، وهو كذلك قد ادرك ارتباط القومية بالحقوق السياسية القومية ، اي بالدولة بصورة لا تقيم تناقضا بينا بين المنطلقين الديني الانساني ، والقومي الاجتماعي .

ان استيعاب افكار الكواكبي كما تبدو صراحة أو ضمنا في كتابيه موضوع بحثنا تجاه هذه المسألة يوضح انه استعمل ثلاث عبارات للدلالة على ثلاثة مضامين محددة تكشف عن موقفه من هذه المسائل . وهذه العبارات هي : الامة ، القوم ، الامة – الشعب .

اما الامة فيستعملها الكواكبي عبر كتاباته للدلالة على مجموعة من البشر يدينون بدين واحد ، بقطع النظر عن قوميتهم ، وبقطع النظر حتى عن كونهم يشكلون دولة واحدة او لا يشكلون . لذلك فانه يتحدث باستمرار عن الامة الاسلامية التي يعني بها المسلمين على اختلاف قومياتهم .

ولكن الكواكبي وهو يتحدث عن امة المسلمين ، وشؤون المسلمين ، يحاول ان يشخص ويعالج اسباب الفتور القائمة فيما بينهم ، مدركا بجلاء انهم يتألفون من اقوام، بل انه فوق ذلك معني عناية واضحة متميزة بقومية العرب ، وهي عناية تبدو في تأكيده لخصائصهم القومية المميزة كما يراها ، وتأكيده لدورهم القومي المتميز في حركة النهوض بالاسلام وبالامة الاسلامية ، حتى انه بالنتيجة ينتهي الى نتائج سياسية حاسمة :

النتيجة الاولى : ان تحقيق النهضة الدينية ذاتها لابد وان يعتمد على العرب وقيادتهم(٤٤) . « وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير امر النهضة الدينية ، بناء عليه رات الجمعية من الضروري أن ترتبط آمالها بالجزيرة وما يليها واهلها ومن يجاريهم . وان تبسط لانظار الامة (يقصد الامة الاسلامية) ما هي خصائص الجزيرة واهلها والعرب عموما ، وذلك لاجل رفع التعصب السياسي او الجنسي ، ولاجل ايضاح ميل الجمعية للعرب »(٤٥) .

النتيجة الثانية : ان يكون الخليفة ، خليفة المسلمين ، عربيا قرشيا مستجمعا للشرائط في مكة(٤٦) .

كذلك فان الكواكبي كما سنوضح تفصيلا ، عندمايتحدث عن الخلافة وسلطات الخليفة ، وعن صلاحيات (سلاطين الاقوام) ، يكشف بجلاء عن اتجاه قومي يرى في الخلافة رابطا دينيا اكثر منه رابطا سياسيا كاملا ، ويرى خلدون ساطع الحصري ان الكواكبي يجد حلا لتكوين اتحاد اسلامي بين الدول الاسلامية(٤٧) . ومعنى هذا ان عبارة (القوم) لدى الكواكبي تنصرف الى ما نعنيه اليوم بعبارة الامة ، وتكون القومية حينئذ لها اكثر مضامين عبارة (القومية) كما نستعملها اليوم ، وتكون مرتبطة باصلها

اللغوي المشتقة منه وهي القوم بصورة اوضح . لذلك فاننا نجد ، ان الكواكبي في ندائه الجار الذي يملأ احدى عشرة صفحة من كتابه طبائع الاستبداد (١٠٢– ١١٦) ، وهو النداء الذي يتكون من فقرات ، تبدأ كل منها بعبارة (يا قوم) انما يخاطب (قومه) العـرب .

فهو يقول في مطلع هذا النداء : « وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي ان اصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقـل ان يعاني **ايقاظ قومـه** ، وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير مـا هم عليه من الصبر على الذل والسفالـة . فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم » (٤٨) . ويتبع هذه المقدمة بثماني عشرة فقرة تبدا كل منها بعبارة يا قوم وتنتهي بفقرة واضحة في تحديد مفهومه القومي حيث يقول :

« **يا قـوم** واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين . ادعوكـم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الابـاء والاجداد ، فقد كفى ما فعـل ذلك على ايـدي المثيرين ، واجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهـذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة للاتحـاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري ... ويتساءل .. فما بالنا نحن الا نفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبـر شاننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي : فلتحيى الامة ، فليحيى الوطن ، فلنحيى طلقاء اعزاء »(٤٩) . وغني عن البيان ان هذه الفقرة ، صريحة واضحة في تأكيد مجموعة المعاني الاساسية التي تكون مضمون الدعوة القومية ، معتمدة على وحدة الوطن ، ووحدة اللغة ، والمصير المشترك .

فاذا قيل ولكن في هذا النداء فقرة تقول :« يا قوم واعني منكم المسلمين قال نبيكم الكريم (ص) » فزعم ان هذه الفقرة تنفي ما نذهب اليه : فاننا نجد على العكس من ذلك تماما انها فقرة تؤكد ما نذهب اليه وتدعمه ، ذلك لان كلمة « منكم » انمـا تخاطب المسلمين من القوم اي المسلمين من العرب .

والى جانب هذا ، فاننا نجد ان الكواكبي في الباب الاخير من طبائع الاستبداد، وفي معرض البحث السياسي الذي ينصب على التخلص من الاستبداد في الدولة ، وتحديد المباحث التي لابد من طرحها لتدقيق المطالعين ، نجده يعتبر ان المبحث الاول هو :

١ ــ مبحث ما هي الامة اي الشعب « هل هو ركام مخلوقات نامية او هي جمعية عبيد لمالك متغلب، ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة»(٥٠).

فاذا وعينا ان الكواكبي لدى تحديده هذه المباحث وهي خمسة وعشرون مبحثا قد حددها بصورة سؤال يحدد تجاه القضية المطروحة في كل مبحث منها موقفين (بصيغة **هل** . وبصيغة **أم**) (٥١) وان موقفه في كل قضية منها يتحدد بالجواب الذي يتلو (أم) ظهر لنا ان الكواكبي الى جانب وعيه للامة كجماعة ذات دين واحد ، والى القوم كجماعة تتوافر لها مقومات القومية ، كان ايضا يعي الشعب « جماعة في دولة »، يكونون رعيتها ، وتربطهم روابط الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة .

مما تقدم يتضح لنا اذن ان الكواكبي كان يعي الى حد كبير ثلاث دوائر لانواع الجماعات ، ويعي كذلك النتائج السياسية التي تترتب على وجود كل دائرة منها،وهي:

١ ــ الدائرة الدينية : **الامة** ،

٢ ــ الدائرة القومية : **القوم** ،

٣ ــ الدائرة الرعوية : الشعب .

وسنجد انهذا الوعي والادراك ذو اثر في افكاره السياسية المباشرة لا يقل عن اثر المنطلق العقائدي الاول ، وهو المنطلق الديني ، وهكذا فقد انطلق بافكاره ، السياسية القومية ، من قاعدة اسلامية ، فالعروبة والاسلام متلازمان في افكاره السياسية .

ثالثا : الكواكبي مدرك لحركة التطور والتغير كمنطق للحياة والتاريخ ، يعي ان الحياة تطور وتغير وليست جمودا او ركودا ، وهو فوق هذا مدرك بجلاء لاثر العوامل الروحية والمادية في حركة الحياة والتاريخ .

ان باب الاستبداد والترقي واضح في بيان المفهوم الحركي للحياة والتاريخ عند الكواكبي ، اذ يؤكد : « الحركة سنة عاملة في الخليقة ، دائبة بين شخوص وهبوط، فالترقي هو الحركة الحيوية اي حركة الشخوص ويقابله الهبوط ، وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب . وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة ايضا في الكيفيات ومركباتها » (٥٢) .

ولسنا بحاجة الى تاكيد هذه النظرة الحركية لدى الكواكبي **فدعوته وكتاباته**

صريحة في تأكيد هذا المفهوم ، بصورة ترفض اليأس من امكانات نهوض الامة واستئناف رسالتها ، وتؤكد ان حركة الحياة والتاريخ تعرف مراحل الانحطاط ومراحل التقدم في حياة الامم والشعوب .

على ان ما هو في نظرنا باهمية ادراك هذا المفهوم الحركي للحياة والتاريخ ، ادراك عوامل الدفع لهذه الحركة ووعي اسباب الانحطاط والترقي والجمود والانطلاق ، كما حددها .

وبيان مفهوم الكواكبي المتكامل لتلك العوامل وهذه الاسباب يبدو في بعض الاحيان صريحا محددا ، ولكنه ، بطبيعة الحال يستخلص من كل باب من ابواب طبائع الاستبداد ، لانه في كل باب منها يشير الى سبب من اسباب نشوء الاستبداد ووسيلة من وسائل مقاومته من اجل الانطلاق على طريق التقدم ، كما ان القسم الاكبر من مناقشات اعضاء الجمعية التي دعاها الكواكبي للاجتماع في ام القرى ، انما هو بصورة مباشرة تحليل منصب على اسباب الركود وعوامل الانطلاق ، او على اسباب « الفتور » وهي الكلمة التي اختارها الكواكبي كوصف دقيق لحالة الامة الاسلامية وعوامل مبالغة هذا الفتور . واذا كنا لا نتعرض بصورة تحليلية شاملة لآراء الكواكبي في هذا المجال، فاننا مع ذلك نفيه حقه عندما نقول :

١ ـ ان الكواكبي يعي ويؤكد العوامل الروحية والعقلية والمادية كعوامل محركة لحركة الحياة والتاريخ ، فهو يرفض حكما تفسيرا روحيا صرفا للحياة ويهاجم بقسوة المحاولات لجعل « الدين » بصورة عامة ، « والدين الاسلامي » بصورة خاصة ، اساسا لنظرية في تفسير التاريخ تستخف بالعوامل المادية ، سواء في انسانية الانسان الفرد او في مقومات الامة او الدولة كما تبدو في الاقتصاد(٥٣) .

٢ ـ انه يرفض بصورة حاسمة القاء مسؤولية حركة الحياة والتاريخ تاخرا او تقدما على الاقدار ، ويحمل الانسان مسؤوليات مصيره وتقرير خط حركة حياته ، فيؤكد المضمون الثوري للاية الكريمة ((لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)).

لذلك فان الكواكبي في آرائه السياسية سواء حيث يفسر اسباب الانحطاط او يحدد عوامل التغلب عليه من اجل صنع التقدم يؤكد على النقاط التالية :

الحرية : وهو تاكيد يبدو في انه يعتبر الاستبداد في احد اركانه الجوهرية عدوانا على الحرية . يقول على لسان المولى الرومي(٥٤) في تفسير اسباب الفتور بين المسلمين : « ان البلية فقدنا الحرية » ثم يتساءل وما ادرانا ما الحرية .. ويجيب قائلا : هي ما

حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه وقد عرف الحرية من عرفها : « بأن يكون الانسان مختارا في قوله وفعله ، لا يعترضه مانع ظالم ». ثم يعدد فروع الحرية « تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة » ، ثم انواع الحرية ومنها : حرية التعليم ، وحرية الخطابة والمطبوعات ، وحرية المباحثات العلمية ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم او غاصب او غدار مغتال ، ومنها الامن على الدين والارواح ، والامن على الشرف والاعراض ، والامن على العلم واستثماره(٥٥) . فالحرية هي روح الدين. وينسب الى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله :

وما الديـن الا ان تقـام شرائـع ... وتؤمـن سـبل بيننا وهضـاب

ويدعو ان ننظر كيف حصر هذا الصحابي الدين في اقامة الشرع والامن ، ثم يتوصل الى النتيجة التالية قائلا : هذا ولا شك ان الحرية اعز شيء على الانسان بعد حياته ، وان بفقدانها تفقد الامال ، وتبطل الاعمال ، وتموت النفوس وتتعطل الشرائع، وتختل القوانين(٥٦) .

اهمية « الوعي » عند الكواكبي :

وفي نطاق الحرية وكامر ملاصق لها يكون اهم مضامينها ، يؤكد الكواكبي حرية الكلمة وحريـة البحث العلمي ليبلور ذلك في تاكيد اهمية الوعي النابع من ممارسـة الحرية في صنع التاريخ بمغالبة الفتور والتخلف . حتى انه ليقـول : « قد اجمـع الحكماء على ان اهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الامم الذين منهم ثمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عـن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف »(٥٧) . ويؤكد أهمية البحث العلمي ، وحرية البحث العلمي على لسـان الرياضـي الكردي : « ان السبب العام للداء هو ان علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، واهملو باقي العلوم الرياضية والطبيعية ، التي كانت اذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال ، ففقد اهلها من بين المسلمين ، واندرست كتبها ، وانقطعت علاقاتهـا فصارت منفـورا منها ، على حكم : (المرء عدو ما جهـل) بـل صـار المتطلـع اليها منهم يفسـق ويرمي بالزيـغ والزندقة . ويعقـد مقارنة بين الشرق والغرب فيقـول : « لقـد اخذت هذه العلوم تنمو في الغرب ، وعلى مر القرون ترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون الماديـة والادبية ، حتى صـارت كالشمس ، لا حيـاة لـذي حيـاة الا بنورهـا ، فاصبـح المسلمـون مع شاسـع بعدهـم عنها محتاجين اليها لمجاراة جيرانهم ، احتياجا يعم الجزئيـات والكليات : من تربيـة

الطفل الى سياسة الممالك ، ومن استنبات الارض الى استمطار السماء ، ومن عمل الابرة والقوارير الى عمل المدافع والبوارج ومن استخدام اليد والحمار الى استخدام البرق والبخار »(٥٨) .

الاقتصاد : قد يكون من باب المبالغة ان نقول ان الكواكبي قد صاغ **نظرية اقتصادية** . ولكنه من باب غمطه حقه ان لا نقول بانه قد فطن الى مكان العامل **المادي - الاقتصادي** في حياة الافراد والامم ، او ان لا نقول بانه في تحليله لهذا العامل قد نهج نهجا ينطوي على كثير من المبادىء والقيم الاشتراكية .

ان باب الاستبداد والمال في « طبائع الاستبداد » ، وكذلك ما قاله الكواكبي على على لسان الفقيه الافغاني والسعيد الانكليزي والمولى الرومي ، تضع امامنا بمجموعها، وفي السياق العام لكتابي الكواكبي ، افكارا تبرر ان نقول بان الكواكبي كان اشتراكي النزعة والدعوة . فهو في فصل الاستبداد والمال يقدم **تحليلا تاريخيا لتطور العلاقات الانتاجية** بصورة عامة يبرز فيها أثر حاجات الناس المادية على حياتهم وتطورهم ،ويبين نشوء طبقات الفقراء والاغنياء وما يواكب هذا النشوء من ظلم واستبداد واستعباد بصورة مؤثرة بليغة عندما يقول : « وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان،الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الان . على ان الاستبداد المشؤوم احيا سنة أكل البشر بشكل ادهى وأمر . وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين ، فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من اعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم قصدا بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ، ويقصرون اعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم او بغصب ثمرات اتعابهم . وهكذا لا فرق بين الاولين والاخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل »(٥٩) .

وعلى اساس **الانتاج** فسر الكواكبي سيطرة المراة على الرجل بصورة مثيرة : من حيث تمكن بوعيهن لمقام جنسهن في الطبيعة كحافظ لبقاء النوع ، تمكن ان يقتسمن من الذكور اعمال الحياة « قسمة ضيزى » تتبلور في ان : «البدوية تسلب الرجل نصف ثمرة اعماله، والحضرية اثنين من ثلاث ، والمدنية تسلب خمسة من ستة وهكذا تترقى بنت العواصم » (٦٠) .

وعلى اساس **الانتاج** ايضا يفسر وجود الطبقات بصورة واضحة فيقول : ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضا ، فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة ينفقونه في الرفه والاسراف ، وضرب مثالا على ذلك انهم يزينون

الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها احيانا ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام . ثم يتطرق الى أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وامثال هذه الطبقة ، ويقدرون كذلك « بواحد في المائة » يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع « وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد انسياسي »(٦١) .

ويمضي الكواكبي ليقبل ((**العمل**)) مقياسا لانسانية الانسان حيث يقول : « قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة ، تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتذله ، ولا تزيد عليه فتطغيه »(٦٢) . وهذه العبارة على ايجازها ذات دلالة اشتراكية كبيرة من حيث تجعل العمل اساسا لاكتمال انسانية الانسان ، ومن حيث كونها ، بعد ذلك ، تتحدث عن «الدخل» الناتج عن هذا العمل في صورة تقتضي أن يكون متناسبا مع حاجة الانسان العامل في غير نقص يبقى العوز وفي غير زيادة تولد الطغيان . وهذا الموقف لا يؤكد ان العمل شرف وواجب فحسب وانما هو يحدد سمة هذا العمل بانه « صنعة مفيدة » ، ولا يمكن تفسير هذه العبارة الا بانها تعني صنعة منتجة ، فهي لا يمكن أن تعني ان استغلال العاطلين بالوراثة لاموالهم صنعة مفيدة مادامت تحقق لهم دخولا يعيشون منها . ان كلمة « مفيدة » هنا تعني **مفيدة للمجتمع** . . اي **منتجة** . كذلك فان الحديث عن حدود الدخل في صورة لايقل فيها عن حد ادنى تقتضيه الحاجة ، ولا يتخطى حد اعلى يدخل باب الطغيان ، هو تعبير عن نظرة اشتراكية لعملية التوزيع .

فاذا بحثنا لدى الكواكبي عن ملكية وسائل الانتاج لنجد موقفه منها باعتبارها مسألة اشتراكية أساسية ، وجدنا انه يبرز الملكية العامة للارض ، وهي أهم وسائل الانتاج في تلك المرحلة حيث يقول : « وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية، ملكا لعامة الامة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال »(٦٣) .

ليس هذا فحسب بل ان الكواكبي يفسر **التمول** اي ادخار المال **تفسيرا علميا اجتماعيا اشتراكيا** : يستخلص منه منطلقا اشتراكيا واضحا ، من حيث جعله «تطبعا لا طبعا » ، وربطه بظروف معاشية طبيعية او اجتماعية ولم يربطه بالطبيعة الانسانية ذاتها حيث يقول : « التمول اي ادخار المال طبيعة في بعض انواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا اثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه » وان الانسان تطبع على التمول : « لدواعي الحاجة المحققة

او الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها او الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة او جور الاستبداد . وربما يلتحق بها أيضا الصرف على المضطرين ، وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام »(٦٤) .

فاذا اضفنا الى ذلك تعريفه للمال « المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الناس، وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل ، وعند السياسيين ما تستعاض به القوة، وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة »(٦٥) . واذا قرنّا هذا التعريف الشامل لانواع الاموال على اختلافها ، بتحديده لمصدر المال : « المال يستمد من الفيض الذي اودعه الله في الطبيعة ونواميسها »(٦٦) . ادركنا المعنى الاشتراكي في قول الكواكبي نتيجة للمقدمات المذكورة « المال لا يملك ؟ اي لا يتخصص بانسان) الا بعمل فيه او في مقابله » . فهو اذن يربط بصورة واضحة بين جواز ملكية مال او حصول على مال بعمل يضيفه المالك الى ما يملك ليحقق النفع العام ، او يبذله العامل ليحصل على المال كأجر في مقابله .

وفطن الكواكبي الى الصلة الوثيقة بين الثراء والسلطة والاستعمار ، فبين ان احراز الثراء يمكن اصحابه من السلطة فيحولونها الى وسيلة للمحافظة على ثرائهم ، وبين ان التمول (اي الاستزادة من المال) يؤدي الى تسلط الامة على غيرها من الامم . فاوضح بهذا بصورة اولية التأثير الطبقي في السلطة وفي التسلط داخل الامة الواحدة وبين الشعوب ، فاشترط للتمول الشروط الثلاثة التالية :

الشرط الاول : ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، اي باحرازه من بذل الطبيعة او بالمعارضة او في مقابل عمل او في مقابل ضمان .

الشرط الثاني : الا يكون في التمول تضييق على حاجات الغير كاحتكار الضروريات او مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها ، وتأويهم في حضن اجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولا لحمايتها من ابنائها وخالوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي او ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلاندة . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مآلاً . وكم من البشر في اوربا المتمدنة وخصوصا في لندرة لا يجد احدهم ارضا ينام عليها متمددا بل

ينامون في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية فيتلوون عليها يمنة ويسرة .

والشرط الثالث لجواز التمويل هو ان لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان ، « فانه ليطغى ان راه استغنى»(٦٧).

هذه الافكار تؤكد الاتجاه الاشتراكي لدى الكواكبي ، واذا كان الكواكبي لم يعتبر المادة والانتاج والاستغلال الاساس الاولي والوحيد في حركة الحياة والتاريخ فلم يأخذ بالتفسير المادي لتلك الحركة وانما اكد العوامل الروحية والعقلية الى جانب العامل المادي ، فان هذا لا يسلبه اتجاهه الاشتراكي ، كما هو ثابت من التجارب الاشتراكية في هذا العصر حيث تتأكد حتمية الحل الاشتراكي ويتأكد معها الاساس المادي والروحي كمنابع لتلك الحتمية ومضامين لهذه الاشتراكية .

الافكار والاراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي :

في ضوء هذه المنطلقات العقائدية الاساسية لدى الكواكبي ننتقل الى عرض افكاره وارائه السياسية المباشرة في :

أ ــ علاقة الفرد بالدولة .

ب ــ علاقة الامة او الشعوب مع بعضها ومع الدولة في دولة امبراطورية واحدة .

ان الافكار والاراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي تتجمع بصورة متكاملة في تحديده :

اولا : **للسياسة**

ثانيا : **لمضمون الاستبداد** وتحديده للعلاقات والمؤسسات السياسية التي تحمي الانسان والشعب منه . وتبدو افكاره تجاه هاتين النقطتين بصورة خاصة في طبائع الاستبداد .

ثالثا : **مقترحاته المباشرة** حول القواعد الاساسية التي يرى ان تبنى عليها الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة . كما تبدو على لسان الامير في كتاب ام القرى ، وتبدو كذلك في الاجتماعات الخمسة الاخيرة من (السابع حتى الثاني عشر) من اجتماعات جمعية الموحدين .

رابعا : **آراؤه في اسلوب العمل السياسي لتحقيق افكاره السياسية** ، كما تستنتج من دستور جمعية الموحدين ونظامها ومنهاجها .

يحدد الكواكبي مضمون علم السياسة ويعرفه بانه : « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » . ويضيف انه بذلك « يكون بالطبع اول مباحث السياسة واهمها بحث الاستبداد اي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى »(٦٨) . وواضح من هذا التعريف ان السياسة بصورة عامة تتعلق بادارة شؤون مشتركة ، وواضح ايضا ان هذه الادارة تكون جديرة بان تسمى سياسة عندما تكون ادارة بمقتضى «الحكمة» . فاذا تحولت الى تصرف بمقتضى « الهوى » أصبحت استبدادا . وانه لذو دلالة ان نلاحظ في هذا التفريق بين السياسية والاستبداد عنصرين مميزين :

العنصر الاول ان السياسة ادارة لشؤون مشتركة ، وليست تصرفا فيها . وهذا المعنى الدقيق يحمل بين طياته التفريق بين نظم سياسية يعتبر الحكام فيها ان مهمتهم « ادارة » شؤون مشتركة فهم في ادارتها موكلون وامناء عليها ، وبين نظم يعتبرالحكام فيها ان مهمتهم « التصرف » في الشؤون المشتركة كانها ملكهم .

العنصر الثاني : ان السياسة اداء لتلك الوكالة والامانة في ادارة الشؤونبالحكمة، بينما هي في حالة الاستبداد تصرف فيها بالهوى . ومعنى هذا ان الاستبداد نقيض السياسة وان النظم المستبدة لا تستحق شرف التسمية بانها نظم سياسية .

والسياسة شان نقيضها الاستبداد تنصرف للحكومات حيث تكون الشؤون المشتركة هي شؤون الناس في الدولة كمواطنين فيها او كقوميات متعددة في دولة واحدة ، او كدول تتعامل بعضها مع البعض الاخر .

ومن تعريف الكواكبي للحكومة المستبدة يمكننا ان نستخلص اراءه السياسية في علاقات الافراد بالسلطة كما يجب ان تكون وفي ما يترتب على ذلك من تحديد لهوية الحكام والحكومة ، والمؤسسات والاساليب التي يمارس الحكام والحكومات السلطة بموجبها والتي لابد وان يراقب الشعب بها الحكومة .

لا نجد لدى الكواكبي محاولة لتفسير اسباب وكيفية نشوء السلطة في المجتمعات البشرية ، او لمصير الحكومات والسلطة في المجتمعات البشرية في مستقبل تطورها ، فهو يتحدث عن السلطة والحكومة كواقع في المجتمعات البشرية ، وعنصر من عناصر وجودها . والمحور الرئيسي في افكاره تجاه علاقةالافراد والشعببالحكومة او بالسلطة يتركز في نقطة اساسية تتفرع منها نقاط كثيرة . وهذه النقطة هي ان الشرط الموضوعي

لادارة شؤون الامة بالحكمة . هو ان تكون دوما تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها فهو يقول : « وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام في ما نقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس»(٦٩).

ومعنى هذا ان الكواكبي يلتزم موقفا « ديمقراطيا » صارما يرفض كل نوع من الضمانات التي قد تساق في معرض حماية المجتمع « من الاستبداد » اذا لم يتوفر شرط المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها . وانه لا يعتبر الشكل في الحكومة هو معيار الديموقراطية ، أو لحماية المجتمع من الاستبداد ، وان كان بالطبع يدرك اثر شكل نظام الحكم ، واثر عوامل اخرى ، على كونه استبداديا او غير استبدادي . لذلك فانه حين يحدد للاستبداد منشأين رئيسيين يرد وجوده في الحالين على تعدد الاشكال الى غياب المراقبة والمحاسبة ففي رأيه ان منشأ الاستبداد « اما كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة وهذه حال الحكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة »(٧٠) .

ويتضح من هنا ان الكواكبي ضد الحكومات المطلقة ، وانه كذلك ضد الحكومات المقيدة (غير المطلقة) التي تتمكن بنفوذها من ابطال قوة القيد عليها . فيؤكد ان صفة الاستبداد تشمل « حكومة الحاكم الفرد المطلق ، الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، كما تشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب »(٧١). ويمضي الكواكبي الى اكثر من ذلك ليؤكد ان حكومة « الجمع » حتى لو كانت الجماعة الحاكمة منتخبة لا تتحقق بها الديموقراطية ، (أي انها لا ترفع الاستبداد) الا اذا توفر للامة امكانية المراقبة والمحاسبة على الرغم من وعيه ان الاشتراك في الراي الذي يقوم بحكومة الجمع ، وبالانتخاب ، قد يعدل امكانية الاستبداد نوعا ما فيقللها . ولكنه يرى أن امكانية تحول حكومة الجمع المنتخبة الى حالة من الاستبداد اكثر احكاما واشد ضررا من حكومة الفرد .

وفوق هذا فان الكواكبي يرى انه : « حتى الحكومة الدستورية التي يفرق فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لا تتحقق بها الديموقراطية ، أي دفع الاستبداد ، الا بشرطين : أن يكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وان يكون هؤلاء مسؤولين لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب(٧٢) .

والى جانب هذا الموقف الديمقراطي الثوري ، نجـد أن الكواكبي يعي مسألـة اخرى تلازم هذا المبدأ وهي : ان قيام الحكومة العادلة لا يعني انها تستمر عادلة اذا وجدت سبيلا للاستبداد ، وانه اذن لايمكن للامة ان تضمن استمرار الحكومة العادلة بغير استمرار المراقبة والمحاسبة حتى على حكومة توفر لها بالتكوين وبالشكل ان تكون حكومة عادلـة .

وعندما يضرب الكواكبي مثلا بانحراف حكم عثمان بن عفان رضي الله عنه عـن العدل في صدر الاسلام ، وبحكم الجمهورية الفرنسية المعاصر للكواكبي ، فانه في رأينا يريد ان يؤكد ان وجود الدستور العادل (وهو الشريعة الاسلامية في الحالة الاولى ودستور الجمهورية الموروث عن الثورة الفرنسية في الحالة الثانية) لا يكفي لوحده لضمان الحكم العادل والحيلولة دون الاستبداد فلا بد اذن من توفر مراقبة الامة الدائمـة للحكـم ومحاسبتها له . فتنازل الامة او غفلتها عن تلك المراقبة وهذه المحاسبة يؤدي بالضرورة الى نشوء الاستبداد .

ولا يقف الكواكبى عند هذا الحد تجاه النقطة الاولية بل انه يؤكد ان مجرد المراقبة او المحاسبة « بالقول » لا يكفي لمنع قيام الاستبداد او تصحيحه ، وانما لابد للامـة « من العمل » أو من اقتناع الحكومة بان هذه الامة قادرة على العمل ، جادة فيه ، الا وهو مراقبة الحكومة ومحاسبتها ، ثم يضع منهجا ثوريا كي تسير الرعية عليه حين يقول : « المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر ، فعلى الرعية ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر، مستعدة لان تتبع القول بالعمل ، والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة من الهواء ، على ان مجرد الاستعداد للفعل ، فعل يكفي شر الاستبداد .

ثم يقدم لنا فكرة عن الانسان المستبد ويعرفه بقوله : المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب ، فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست بـل عليها أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد ام هي جاءت به ليخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته »(٧٣) .

فاذا اضفنا الى هذه العناصر التي تكون افكار الكواكبي السياسية تجاه القضية الاولى والكبرى ، الا وهي طبيعة الحكومة وطبيعة صلة الامة بهـا كي تكون عادلة غـير مستبدة ، اذا اضفنا الى ذلك « الاسباب السياسية » التي اوجز فيها الكواكبي على

لسان الفراتي من اعضاء الجمعية (وهو الكواكبي نفسه) التي ادت الى فتور الامة الاسلامية ، وجدنا من بينها الاسباب التالية التي نبرزها من بين الاسباب السياسية التي تشمل ستة عشر سببا تمتد من السبب (٢٤) الى السبب (٣٩)(٧٤) ، باعتبارها ذات دلالة خاصة على المسألة موضوع البحث :

٢٤ ـ السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية .

٢٥ ـ تفرق الامة الى عصبيات واحزاب سياسية .

٢٦ ـ حرمان الامة من حرية القول والعمل وفقدانها الامن والامل

٢٧ ـ فقد العمل والتساوي في الحقوق بين طبقات الامة .

٣٣ ـ ابعاد الامراء للنبلاء والاحرار وتقريبهم المتملقين والاشرار .

٣٤ ـ مراغمة الامراء للسراة والهداة والتنكيل بهم .

٣٥ ـ فقد قوة الراي العام بالحجر والتفريق .

٣٩ ـ حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية فقط(٧٥) .

واذا ما صنفنا الاراء والافكار والسياسة عند الكواكبي بلغة كاللغة المتداولة اليوم نجد المبادىء التالية :

١ ـ مبدأ ان الشعب مصدر السلطة وان الحكومة والسلطة يجب أن تكونا من الشعب وللشعب .

٢ ـ مبدأ فصل السلطات .

٣ ـ مبدأ سيادة القانون .

٤ ـ مبدأ السلطة التشريعية المنتخبة .

٥ ـ مبدأ الحريات الشخصية :

ـ حرية العقيدة والراي حرية مطلقة .

ـ حرية الفعل في حدود القانون .

٦ ـ مسؤولية الحكومة امام السلطة المنتخبة .

٧ ـ مبدأ الملكية العامة لبعض وسائل الانتاج ، ومسؤولية الحكومة عن التطوير والتقدم الذي يشتمل على بذور الاشتراكية .

٨ ـ سيطرة السلطة التشريعية على السياسة المالية . سواء سياسة الضرائب او الانفاق .

افكار الكواكبي السياسية حول العلاقة بين القوميات في دولة امبراطورية واحدة

ان افكار الكواكبي تجاه هذه المسالة من مسائل السياسة تنبع اساسا من مواجهته للتناقضات التي تعيشها الدولة العثمانية ، وهي التناقضات التي بلغت في عهده ذروتها ، لا من حيث التخلف والجمود والاستعباد الذي يعاني منه الافراد والطبقات الكادحة فحسب ، وانما من زاوية بداية محاولات التتريك(٧٦) ومناهج الاساءة للامة العربية من قبل الاتراك اساءات تصيب مقومات وجودها وكرامتها كامة يعتز بها الكواكبي ويؤكد تميزها بين امم الدولة العثمانية تميزا ينبع من خصال وخصائص قومية يتحدث عنها باسهاب وجراة في مخاطبته اعضاء جمعية الموحدين رغم اختلاف جنسياتهم ، وتنبع كذلك من ان العرب هم حملة رسالة الاسلام الناطقين بالضاد لغة القرآن .

لذلك فان افكار الكواكبي في هذا الموضوع تكون في حقيقتها حلا اتحاديا يبقى على الخلافة كجامعة ، ويعطي للشعوب نصيبا غير قليل من الاستقلال الذاتي ، كما يسلب الخليفة كل الصلاحيات تقريبا بصورة واضح فيها ان الكواكبي يستهدف منها منع استبداده بالمركزية في الحقوق السياسية والادارية للشعوب ويستهدف منها كذلك منع استبداد الحاكم بالسلطة المطلقة للرعية(٧٧) .

ولقد كانت آراء الكواكبي في هذا الموضوع تحديا صارخا للدولة العثمانية كما كانت قائمة في عهده ، سواء من حيث مطالبته بالخلافة لقرشي عربي ، او من حيث ما رسمه من توزيع للسلطة والصلاحيات في داخل الدولة بين الشعوب الداخلة في نظامها ، حتى انه ليصح القول انه كان يدعو الى دولة اتحادية تصبح بها الخلافة اقرب الى « الكونفدرال » منها الى « الاتحاد الفيدرالي »(٧٨) .

ونجد دلالات كبيرة في الاسباب السياسية والادارية العثمانية التي اوردها في معرض بيان اسباب الانحطاط والفتور في الامة الاسلامية . ومن ابرز هذه الاسباب كما حددها الكواكبي على لسان السيد الفراتي :

٥٧ ـ توحيد قوانين الادارة والعقوبات مع اختلاف طبائع اطراف المملكة واختلاف الاهالي في الاجناس والعادات .

٥٩ ـ التمسك باصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز ، على احوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها .

٦٥ ـ التمييز الفاحش بين اجناس الرعية في الغنم والغرم(٧٦) .

ويبدو المخطط السياسي المقترح للجامعة الاسلامية والخلافة فيها ، سواء من ناحية مركز العرب فيه او من ناحية اسباب استحقاقهم لهذا المركز ، في القرار رقم (٦) الذي ينتهي بعد المقدمات والاسباب الموجبة الى القول : « فهذه الاسباب التي جعلت جمعية ام القرى ان تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية »(٨٠) .

اما تلك الاسباب فهي ثمانية عشر سببا خاصة بعرب الجزيرة ، وسبعة اسباب تنصرف للعرب عموما .

اما دستور الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وقواعده الاساسية، فان الكواكبي يجمله على لسان الامير على الصورة التالية بحيث يتحقق « بمثل هذا الترتيب تنحل مشلكة الخلافة ، ويتسهل عقد اتحاد اسلامي تضامني تعاوني ، يقتبس ترتيبه من قواعد اتحاد الالمانيين والامريكانيين مع الملاحظات الخاصة»(٨١) .

ويبدو من دستور الجامعة الدينية الذي يقترحه الكواكبي انه قد وصل الى النقطة التي ينادي بها فعلا بإلغاء الدولة الاسلامية (اي الدولة الدينية) كدولة سياسية ليحولها الى **جامعة دينية** الخليفة فيها رمز للرابط الديني ورئيس منتخب لهيئة شورى ، تنحصر مهامها في امهات المسائل الدينية . وهو تصور على مقدار كبير من الثورية في حينه ، ومن العلمية والعملية بصورة دائمة ، يحسم به الكواكبي منذ حوالي اكثر من ثمانين عاما مسألة الخلط بين الوحدة الدينية الاسلامية ، وبين الوحدة القومية العربية. بحيث يجعل من الاولى جامعة دينية ومن الاخرى دولة سياسية ، وهو تفريق من المفيد كل الفائدة ان يعيه الذين يناقشون باستمرار وحدة عربية ، ام وحدة اسلامية .

ان جواب الكواكبي يعي الفرق النوعي بين الدائرتين : الدائرة العربية ، ومنطقها

منطق الوحدة القومية السياسية ، والدائرةالاسلامية :ومنطقها منطق الجامعة الدينية الاسلامية .

تقويم افكار الكواكبي :

عملية التقويم ، تقويم الاشخاص والافكار والحركات مسألة لابد وان يتخطى المتصدي لها حدود العرض والتحليل ، ليبلغ آفاق الدراسة المقارنة من جهة ،وليتتبع التأثير النابع عن الشخص او عن الفكرة او عن الحركة ، وتحديد الاصداء الايجابيـة منها والسلبية ، الفاعلة منها والمنفعلة التي اطلقها الشخص او الفكر أو الحركة ، مـن جهة اخرى ، وفي وسعنا ، في ضوء ما تقدم من عرض للكواكبي في نشأته وعصره وفي افكاره وآرائه ، ان نحاول تقويمه تقويما اوليا يبقى خاضعا لاعادة النظر والتعديل في ضوء المزيد من البحث .

ان جوهر تقويمنا للكواكبي يتركز في انه : مناضل مفكر داعية ، ثوري فيمضمون افكاره ، اصلاحي في اسلوب تحقيق افكاره ، تأثيره في عصره وما بعد عصره ينشأ عن افكاره ودعوته اكثر من نشوئه عن تنظيم اقامة او حركة فعالة صنعها ، ولسنا بحاجة بعد الذي تقدم من عرض لافكاره في اسسها العقائدية وفي مضامينها السياسية لبيان اسباب وصفنا اياها بالثورية .

يكفي ان نذكر مجددا مفاهيمه الثورية للدين ، وان نذكر كذلك مفاهيمه للمجتمع ومقوماته ، وان نذكر أيضا مبادئه في فهم حركة الحياة والتاريخ كما اشرنا اليها فيما سبـــق .

يكفي ذلك ليتضح لنا ان الكواكبي كان في كل ذلك يجسم في عصره ثـورة على الافكار التي كانت تقوم عليها السلطة في ذلك العصر ، والتي كانت تدعمها وتدافع عنها مع تلك السلطة ، طوائف المستغلين والمنتفعين من حكام ومتسلطين ومتعممين .

لقد ضرب الكواكبي بارائه الجريئة في هذه المجالات ، بصورة علمية ومنطقية ، عوامل الجمود والتخلف والتسلط التي كانت تتركز جميعها في الاستبداد .

ولا يخفف من ثورية هذه الافكار الاساسية ، الاسلوب التطوري الذي دعا لـه الكواكبي او ما اشار اليه صراحة من ان العنف ليس سبيل مغالبة الاستعباد ، ذلك ان وراء هذا الموقف ، كما هو واضح لديه ، اعتقاده بان عملية التوعيـة هي الخطوة المطلوبة وهي المهمة المحددة مرحليا .

واذا كان في الامكان ان يناقش تقدير الكواكبي لهذه المسألة او ان يرفض ، فانه يصعب القول بانصاف ان الكواكبي لم يكن ثوريا ثورة عارمة فيما طرحه على المسلمين عامة ، وعلى العرب خاصة ، من افكار جريئة حول واقعهم العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي .

ويكفي بعد ذلك ان يكون الكواكبي في عصره قد اعلن في غير التواء موقفا قوميا عربيا بلغ المطالبة بمركز الخلافة في الدولة الاسلامية للعرب ، وان يكون كذلك قد واجه الامبراطورية العثمانية بارائه في نوع العلاقات التي يرى ان تقوم بين الشعوب التي تتكون منها وان يكون هذا وذاك يقعان في اطار ارائه عن الاستبداد وما ينبع عنها من مطالب تحررية ديموقراطية بل واشتراكية ، ليبدو لنا كذلك مقدار ما كان عليه الكواكبي من الثورية .

اما تقويم الكواكبي تقويما مقارنا مع غيره من الدعاة والمفكرين في عصره ، فانه من ناحية المضمون يكشف عن تميز بتسلسل النهج وعلميته في بحث أسباب الانحطاط والتاخر والفتور وفي وصف علاجها ، كما يبدو كذلك في تحديد اكثر وضوحا، للمضمون السياسي والاجتماعي المطلوب لتحقيق النهضة والتقدم .

واضح ان الكواكبي في تحليله لاسباب الانحطاط والفتور لم يركز تركيزا بينا على الاستعمار الاجنبي النامي كقوة غازية جديدة ، وان كان مفهومه للاستعباد ينطوي طبعا على الاستعمار ويدعو للتخلص منه ،حتى ليكاد يبدو ان دعوته لمقاومة التسلط التركي أوضح من دعوته لمقاومة الاستعمار الغربي . ولا شك في أن جنوحه للاخذ باسلوب مقاومة الاستعباد بغير اللجوء للقوة وانما بالتوعية ونشر الوعي اي « التوجيه الارشادي » يضعه في مستوى يقصر عن مستوى دعاة الثورة والمحرضين عليها ، وهي نقطة تحتاج الى تفسير سيما انه كان يعاصر مرحلة صراعات ونضالات حامية تقوم في اكثر ارجاء الوطن العربي سواء في مواجهة الاستعمار او في مواجهة بداية التتريك ، وفي مرحلة بدات تتكون وتولد فيها المنظمات العربية السرية المدنية والعسكرية التي تجسم العزم على النضال الثوري والاتجاه للاخذ بمبدا القوة في مواجهة الاستعباد ، وكذلك ظهور الحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال (بازل ، ١٨٩٧) .

واذا كنا نجد بهذا الموقف ان الكواكبي لم يكن واثقا من قدرة الشعب ، في اوضاعه تلك ، على اللجوء للقوة والسير على طريق النضال العنيف من اجل دفع الاستعباد وتحقيق الحكم العادل على الصورة التي تصورها ووصفها ، فان عدم الثقة هذه بامكانات الشعب النضالية تكون نقطة ضعف في التفكير السياسي عند الكواكبي من ناحية الاسلوب .

من هنا نجد بعض الباحثين يعتبر ان الكواكبي اذا قورن بالافغاني مثلا كان في مكان الطبيب اذا قورن بالثائر، بكل ما يحمله الفرق بين الطبيب والثائر في معالجة الداء من تباين .

مهما يكن الامر ، فان الكواكبي يبقى احد اعلام الفكر العقائدي والقومي والسياسي الثوري في القرن التاسع عشر(٨٢) الذي يستحق قسطه الوافر من فضل اذكاء الوعي الثوري وتفجير الطاقات الثورية التي لا نلبث ان نشهدها وهي تجتاح الوطن العربي مع مطلع القرن العشرين .

اذا كان الكواكبي قد جعل كتابه طبائع الاستبداد « هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية ، المعقودة امال الامة بيمن نواصيهم » فلا شك ان تلك الناشئة قد استفادت من الهدية فتحقق للكواكبي كثير من اهداف ذلك الاهداء(٨٣) ولا شك ايضا في أن الناشئة العربية اليوم قادرة أن تجد في الكواكبي كثيرا من الافكار والمعاني التي تتعلم منها وتفخر بها فتكون امام مسؤولية اكتشاف الكواكبي واحيائه بصورة اكثر جدية واعترافا بفضله .

المصادر والمراجـع :

احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤١.

احمد عزت عبد الكريم وبديع الشريف ، دراسات تاريخية في النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨

انور الجندي ، اعلام واصحاب اقلام ، دار نهضة مصر ، القاهرة (بت) .

رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٣ .

ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٢ .

سامي الدهان ، عبد الرحمن الكواكبي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ، ط١ .

عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة (ك) ، دار الكاتب العربي ، بيروت١٩٦٩ط١ .

عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ـ دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ط ١ .

فهمي جدعان ، اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ط ١ .

محمد احمد خلف الله ، الكواكبي احياؤه وآراؤه ، مكتبة العـرب ، القاهـرة شارع الفجالـة .

نوربير تابييرو (ترجمة علي سلامة) الكواكبي المفكر الثائر ـ اسهام في دراسة الاسلام الحديث ، منشورات دار الادب ، بيروت ١٩٦٨ .

المجـــلات :

مجلة الرسالة ، اعداد عام ١٩٥١ .

مجلة المنار ، م ٣ ، ج ٦ ، ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .

مجلة المنار ، السنة العاشرة ، العدد العاشر ـ ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .

مجلة الحديث ، العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ م .

ومجلة Revue des Etudes Islamiques (R. E. I.)

العدد الرابع ص ٦٨٩ وما بعدها ، العدد السادس ص ١٧٥ ـ ٢٢٤ دراسة عن السلفية بقـلم هـ . لاووست .

الهوامش :

(١) لقد ظهرت في القرن التاسع عشر تيارات فكرية متعددة كان اشهرها التيارات الفكرية ذات المنطلق الديني ، التي تاثرت بالحركة الوهابية ، ومنها المذهب الشوكاني ، والسنوسية والمهدية وغيرها ، ثم هناك التيار الفكري الديني المتجدد ، الذي دعا الى فتح باب الاجتهاد والاطلاع على الثقافة الغربية ، والتوفيق بين العلم والايمان ثم التيار الديني ـ القومي الذي نحن بصدده .

(٢) يشير محمد كرد علي ، ان ثقافة الكواكبي هي ثقافة عربية ـ تركية ، وانه افاد كثيرامن معلوماتــه التركية ولقائه بعلماء الترك ، وانه عوض عن جهله اللغات الاجنبية بقراءة الترجمات الغربية بالتركية ، كما انه يرى ان ما كتبه الكواكبي يمثل اجتهاده الخاص . المعاصرون : ص ٢٨١ ومابعدها.

(٣) المنار : م٣ ج٦ ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .

(٤) للباحثة دراسة وثائقية تدور حول الجمعية العربية الفتاة السرية ، وهي تحت الطبع ، بدعم من الجامعة الاردنية ، وقد لمست هذا التاثر أثناء اعداد الدراسة المذكورة .

(٥) لا اريد الخوض في ترجمته حيث قدم الدكتور اسعد الكواكبي عن ابيه دراسة مفصلة في مجلةالحديث العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢.

(٦) هناك بعض الكتب تشير الى ان مولد الكواكبي كان في ١٩٤٨ او في ١٩٥٤ ، وبعضها يذكر ١٩٤٩ .

(٧) طرحالمفكرون الدعاة المفاهيموالقيمالاجتماعية والسياسية الجديدة التي تدور حول النظم السياسية للدولة على البعدين : الداخلي ، مثل النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها . والخارجي ، حين تطرقوا الى تعامل هذه النظم السياسية بعضها مع البعض الاخر ، او مع النظم السياسية في الخارج .

(٨) منهم رفاعة رافع الطهطاوي وعبد الله نديم ، وعلي مبارك ومحمد عبده في مصر والشهاب الالوسي في العراق ، وخير الدين التونسي وابن ابي الضياف في تونس ، واحمد فارس الشدياق وجمال الدين القاسمي والشيخ طاهر الجزائري ، اديب اسحق ورزق الله حسون والشيخ رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومحب الدين الخطيب في سورية ، هذا بالاضافة الى المفكر الثوري الاسلامي جمال الدين الافغاني .

(٩) عمل وهو في الثانية والعشرين في صحيفة « فرات » العربية التركية وكان قد انشاها المؤرخ التركي احمد جودت باشا قبل ذلك بعشر سنوات ، ثم انشا في حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهباء » مع صديقه هاشم العطار ، ثم انشا صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهباء لصراحتها ، فصدر منها خمسة عشر عددا ثم عطلت ..

(١٠) انظر نوربير تابييرو : الكواكبي المفكر الثائر ، ص ٥٣ .

(١١) انظر لمزيد من الايضاح : رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث .

(١٢) راجع حول التوسع بهذه الفكرة د.محمود السمرة في كتابه Christian Missions الفصل الرابع ، ص ١٤٨ .

(١٣) راجع حول المراكز التي شغلها : عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة ك،ص٥٨.

(١٤) يذكر البعض ان ولاة الدولة العثمانية قد احرقوا بعض نتاج الكواكبي عند تفتيش منزله ، ومنها « صحائف قريش » و « العظمة لله » وديوان شعره ، ويوميات رحلاته انظر انور الجندي : اعلام واصحاب اقلام ، ص ٢٣٥ .

(١٥) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة الرحمانية في مصر .

(١٦) يخصص المستشرق نوربير تابييرو عدة صفحات (٥٧ ـ ٦١) ليثبت ان هذا المؤتمر لا اصل له .

(١٧) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة المصرية بالازهر .

(١٧) يؤكد تابييرو ان كتاب ام القرى قد ولد في مخيلة المؤلف قبل طبائع الاستبداد . وكذلك انظـــر الدكتور فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكري الاسلام ص ٢٩٠ .

(١٨) انظر المنار السنة العاشرة العدد العاشر ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .

(١٩) انظر انور الجندي : اعلام واصحاب اقلام ص ٢٣٣ .

(٢٠) احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤١ ، ص ٢٥٦.

(٢١) يشير د.سامي الدهان في كتابه عبد الرحمن الكواكبي الى ذلك بقوله : « واول من حبر موضوعها متصل الحلقات بهذا الاسلوب من الانشاء ». طبعة دار المعارف بمصر .

(٢٢) الكواكبي : طبائع الاستبداد ص ١٢٤ .

(٢٣) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٢٤) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥-١٣٠ .

يشير الدكتور سامي الدهان ، ص ٤٣ ، الى ان مجموعة جريدة المؤيد التي نشرت هذه المقالات غير موجودة الان ، وان طبعات الكتب التي بين ايدينا « المتداولة » ، عملت فيها يد التحريف والتصحيف . واني كذلك لم اعثر على مجموعة جريدة المؤيد ، لاتمكن من اخذ الافكار السياسية لـدى الكواكبـي من كتاباتـــه الاولى .

(٢٥) الكواكبي ام القرى ص ١٠ .

(٢٦) الكواكبي ام القرى ص ١١.

ولعل هذا القول ، جعل الاستاذ احمد امين ، يضع الكواكبي في كتابه زعماء الاصلاح في مكانة الطبيب الذي يفتش عن مراكز المرض ثم يصف الدواء الشافي .

(٢٧) لقد قدم الدكتور سامي الدهان في كتابه : « عبد الرحمن الكواكبي » ملخصا لاجتماعات كتاب ام القرى وكذلك ملخصا لكتاب طبائع الاستبداد .

(٢٨) لقد ناقش الدكتور محمد احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته وآراؤه ، وكذلك الدكتور سامي الدهان ، والمستشرق الفرنسي نوربير تابييرو في كتابه « الكواكبي المفكر الثائر » ، وغيرهم كثير ، افكار الكواكبي الدينية من منطلق العودة الى الاصول ، واحاول هنا مناقشة افكار الكواكبي الدينية ـ الثورية .

(٢٩) الكواكبي : ام القرى ، ص ٢٢ .

(٣٠) الكواكبي ام القرى ، ص ٦٥.

(٣١) راجع الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ٣٣.
ويشير الدكتور احمد خلف : الى ان مناقشة الكواكبي للنصوص الدينية ، واستنباط الاحكام منها. والنصوص عنده ليست الا : « الكتاب والسنة » ص ٤٨ مصدر سابق .

(٣٢) الكواكبي ام القرى ص٦٠ .

(٣٣) هناك عدة دعوات سلفية تدعو للعودة الى الدين الاسلامي النقي ، في مقدمتها الحركة الوهابية، والمذهب الشوكاني ، والمهدية السنوسية .

انظر : (R.E.I.) العدد السادس ، دراسة عن السلفية ، ص ١٧٥ ــ ٢٢٤ بقلم هـ . لاووست .

(٣٤) الكواكبي : طبائع الاستبداد ، ص ٣٣ـ٣٤ .

(٣٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد المقدمة ص٢ مقدمة المؤلف .

(٣٦) الكواكبي ام القرى ، ص ٣ ٢.

(٣٧) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٤.

(٣٨) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٥.

(٣٩) الكواكبي ام القرى ص ٣٢ .

(٤٠) الكواكبي ام القرى ص ٢ ٤.

(٤١) لقد اورد الدكتور احمد خلف الله الكثير من الاستشهادات التي تدور حول الصلة بين الدين والحكم المطلق ، والمشاركة بين الدين والسياسة ، والحاكم الظالم ورجل الدين المنافق يمكن الرجوع اليها من ص ٥٠ ــ ص ٦٠ في كتابه الكواكبي حياته واراؤه .

(٤٢) الكواكبي ام القرى ص ١٢ـ١٤ ومن هنا ينتقد الكواكبي بل ويرفض تقليد الناشئة للغرب ، والتخلي عن العادات والقيم المتعارف عليها في بلادنا .

(٤٣) الكواكبي : ام القرى ص ٦٢ .

(٤٤) انظر : Samra, C.M., and W., Ideas in Syrian M. writers, p. 187.

(٤٥) الكواكبي ام القرى ص ١٩٣ .

(٤٦) الكواكبي ام القرى ص ٢٠٧ .

لقد تنبه الكثير ، الى هذه الناحية وهو يتمييز الكواكبي للعنصر العربي راجع مثلا :
انور الجندي، اعلام واصحاب اقلام ، ص ٢٧ ٢، د.محمد احمد خلف الله ، الكواكبي : حياته واراؤه ، ص١٠٧ وما بعدها .

وانظر :

al - Husri, Khaldoun Sati, **Three Reformers,a Study in Modern Arab Political Thought,** p.85.

(٤٧) Al, Husri ,.op. cit., p. 92.

(٤٨) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٠٢ .

(٤٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١٠-١١١ .

(٥٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥.

(٥١) انظر هذه المباحث كاملة في : طبائع الاستبداد ، ص١٢٥-١٣٠ وقد اشرت الى عناوينها في صفحة سابقة من هذا البحث .

(٥٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٩٨. يشير الدكتور فهمي جدعان الى ذلك في كتابه: اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ويفسر مفهوم التقدم الذي يعتمد عليه الكتاب ، بنفس المفهوم الذي اورده الكواكبي . انظر ص ٢٩٦ ط ١.

(٥٣) ويشير الشيخ رشيد رضا في المنار ٢٧٩/٥ : وقد كنا على وفاق معه في اكثر مسائل الاصلاح ، حتى ان صاحب الدولة مختار باشا الغازي ، اتهمنا بتاليف الكتاب عندما اطلع عليه ، وربما نشير الى المسائل التي خالفنا فيها الفقيد في هامش الكتاب عند طبعه ، واهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية .

انظر : د. سامي الدهان ، هامش ص ٥٦.

(٥٤) المولى الرومي هو من اهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطن ومراد ورشاد وخلافة وخلع ومبعوث ومعتوه ومختل ... الى نحو ذلك من الالفاظ التي تمس سياسة الوهم .

(٥٥) تطرق الدكتور فهمي جدعان في ص ٢٩٠ وما بعدها الى الحرية : اسس التقدم .

(٥٦) الكواكبي ، ام القرى ،ص ٢٨-٢٩ .

(٥٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص١٠٢ .

(٥٨) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٤٦-٤٧.

(٥٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٢.

(٦٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٤.

لقد اشار الدكتور احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته واراؤه ، ص ٨٨وما بعدها ، الى الاسرة واهمية تعليم المراة .

(٦١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٥ .

(٦٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٦٥ .

(٦٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨.

(٦٤) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٧.

(٦٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٦.

(٦٦) الكواكبي ، نفس المصدر .

(٦٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨-٦٠ .

(٦٨) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص٥.

(٦٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص٩.

(٧٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٨

(٧١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص٨ .

(٧٢) الكواكبي المصدر السابق ص٨ .

(٧٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١.

(٧٤) راجع هذه الاسباب كاملة في كتاب طبائع الاستبداد من ص ١٣٨–ص١٤٩.

(٧٥) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٧٦) لم تكن محاولة التتريك ظاهرة بشكل واضح في هذه الفترة ، ولكن الجمعيات التركية السرية كانت قائمة ونشطة ، ولكنها ظهرت بشكل علني بعد اعلان اعادة المشروطية (الدستور)١٩٠٨

(٧٧) راجع بحثنا حول : تطور مفهوم اللامركزية ، مجلة دراسات تاريخية، العددان١٢،١٤، ص١٣٨–١٨٥

(٧٨) لقد تاثر حزب العهد السري بكتابات الكواكبي وطالب بقيام دولة اتحادية بين العرب والترك يحمل فيها السلطان العثماني التاج المزدوج كما هو الحال بين النمسا والمجر .

(٧٩) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٤٣.

(٨٠) الكواكبي ، ام القرى ، ص١٤٥.

(٨١) الكواكبي ، ام القرى ٢٠٧–٢٠٩ .

(٨٢) هناك من يربط بين افكار الكواكبي وافكار الكاتب الايطالي « فيتوريو الفييري » ALFIERI في مقالاته عن الاستبداد ، وبين افكاره وافكار جان جاك روسو في العقد الاجتماعي ، وهذا الموضوع بحاجة الى دراسة مقارنة اكثر شمولا من هذه الدراسة .

(٨٣) سنشير في دراسة لاحقة الى تجاوب مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، مع نداءات الكواكبي ، والي محاولتهم الاستفادة من اهداف ذلك الاعداء .

أوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها

١١٨٦-١٢٥٦ هـ / ١٧٧٢-١٨٤٠م

د. يوسف جميل نعيسة
جامعة دمشق

شكلت هذه الفترة ارهاصا لتغيرات هامة في بلاد الشام والممتلكات العثمانية بفعل ما طرا على الساحتين الدولية والداخلية من احداث ، الامر الذي انعكس بشكل سلبي على مدن بلاد الشام وريفها . الا ان الفلاحين ، كانوا اكثر فئات المجتمع الشامي تعرضا للابتزاز والظلم ، في وقت غابت فيه سلطة القوانين وحل محلها سلطان القوة .

عاش مجتمع بلاد الشام حياة زراعية قامت على خدمته فيها بعض الحرف وأنواع من التجارة ، وشكل الفلاحون القاعدة العريضة في الهرم الاجتماعي معتمدين على الزراعة وتربية المواشي . استقر الفلاحون في دمشق وضواحيها وأريافها ، وفي المناطق الجبلية المحيطة بها ، وفي السهول الجنوبية . وقامت تجمعاتهم في غالب الاحوال على اصول قبلية عشائرية او اسروية ، ضمن القرية الواحدة او القرى المجاورة او على اساس طائفي ، وفي القليل النادر على اسس عرقية ، كفلاحي حتيتة التركمان في غوطة دمشق او السريان في جبعدين ومعلولا او الاكراد في ربض ركن الدين وقريتي قلدون والزبداني ، وكان لكل قرية شيخها ، كما كان للبساتنة شيخ يدعى « شيخ البساتنة » . كان شيخ القرية رئيس الاسرة الاكثر قوة ونفوذا فيها ، ونظرته الى الفلاحين نظرة السيد السالب لراحتهم فضلا عن أموالهم ، بطرق واساليب مختلفة(١) ، هذا ان ارضى سادته من الاقطاعيين وهيئة الحكام التابع لهم ، كالمقدمين والاعيان او القضاة والمفتين او الاغوات ، الذين كانوا يضمنون مال الميري من الدولة بالمزاد العلني ،

ويحاولون وبشتى الوسائل جمع اضعاف ما دفعوه للدولة من جيـوب الفلاحـين ، فيفتعلون الخلافات بين مشايخ القرى وغرمائهم ، ويذكون نار الفتنة فيما بينهـم ، ويعزلون شيخ الضيعة بغية ابتزاز الاموال منه ومن غريمه الطامح للمشيخة(٢) .

وجرت العادة على ان يتراس شيوخ القرى شخص يطلق عليه اسـم « شيـخ مشايخ القرى او المقاطعة » واعترفت الدولة العثمانية بسلطته . وكان هذا على الغالب من الاقطاعيين أو من رؤساء القبائل القاطنة في تلك المقاطعة ، أو من زعماء السباهيـة او رجال الدين او الانكشارية ، واحيانا احد مشايخ القرى ، وكان يقوم بجمع الضرائب للدولة من مشايخ القرى التابعة له تسانده في ذلك قوات مسلحة خاصة به(٣) ، كما اتخذ له معاونين ووكلاء اطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزا لهم ، وفرض عليهم تأديـة مبالغ محددة دون ان يسالهم عن اعمالهم ، فاطلقوا لمطامعهـم العنان في مص جهـد الشعب بلا شفقة واستبعدوا الفلاحين واتوا بالمنكرات وجاروا ، والفلاحون في طاعـة عميـاء(٤) .

فئات الفلاحين : كان الفلاحـون اكثر عددا من بقية فئات سكان بـلاد الشـام الا ان نفوذهم السياسي كان شبه معدوم ، ولذلك جاؤوا في المرتبة الدنيا من السلم الاجتماعي ، ويمكن تصنيفهم انذاك الى فئات ، ادناها فئة الفلاحين الخاضعين لغـير الاقطاع مباشرة ، وهم افقر الفئات ، حتى ان زواجهم خضع لموافقة الاغا او البيك او الشيخ ، والفئة الثانية هم العمال الزراعيون الذين كان دابهم التجوال للحصول على لقمة العيش أنى وجدت ، والثالثةهم الفلاحون الفقراء الذين كانوا يملكون قطعة ارض صغيرة لاتكفيهم للحصول على العيش ، فيضطرون لتقديم خدماتهم لاغنياء الفلاحين، او يعملون في المدينة اعمالا مختلفة . اما الفئة الرابعة فهم الفلاحون متوسطو الحال ، الذين ملكوا قطعة من الارض تغل عليهم ما يكفي لتامين حياة متواضعة في القريـة . والفئة الخامسة من الفلاجين هي فئة الفلاحين الاغنيـاء ، وكانوا يقومـون بتشغيل فلاحين اخرين في ارضهم وتحت اشرافهم مباشرة ، وهم غير منتجين ولكنهم لايعرفون التبذير . والفئة السادسة هي فئة فلاحي الدولة الذين عاشوا في قلق دائـم ، الا ان احوالهم المادية كانت احسـن من احوال الفلاحين الذين عملوا لدى الاقطاعيين(٥) .

ملكية الارض : شكلت ملكية الارض ونوعيتها الدعامـة الاساسيـة للوضـع الاجتماعي لفئة الفلاحين ، ومن هنا تبدو اهمية التعرف على انواع الملكية واشكالهـا، وعلى ما كان منها تحت تصرف الفلاحين مباشرة وعلى مساحاتها ، وفي ذلك شيء من الصعوبة نظرا لتعقد نظام الملكية واختلافه من مقاطعة لاخرى في ولاية الشام من جهة ،

وعدم توافر احصاءات دقيقة في هذا الميدان من جهة اخرى ، ومع ذلك يمكن رصد اربعة اصناف رئيسة من الملكية وهي :

١ ــ اراضي الدولة او الاراضي الاميرية او الميرية ، وكانت تعتبر ملكا للسلطان (امير المؤمنين) .

٢ ــ اراضي الاوقاف ، وهي التي حبست على وجوه خيرية عديدة ، كان منها الاسلامي والمسيحي واليهودي ، كما وجدت اوقاف ذرية ، حبست على ذرية الواقف .

٣ ــ اراضي الملكية ، وكانت قليلة اذا ماقيست بسابقاتها من الملكيات ،ولصاحبها حق التصرف بها بيعا وشراء واهداء ، وكانت الدولة تتقاضى عنها ضريبة العشر والخراج ، وتجبى الضريبة منها على اساس الغلة ، وتسمى في مثل هذه الحال (خراجا مقسما) ، اوعلى اساس المساحة وتسمى (خراجا موظفا)(٦) .

٤ ــ والنوع الرابعمن الاراضي هو (ارض الحوز) وهي غير عشرية ولا خراجية وهيالتي توفي اربابها عنها بلا وارث وآلت الى بيت المال ، ويجوز للامام دفعها للزراع باحدى طريقتين اما باقامتهم مقام الملاك في الزراعة وبالتالي يدفعون الخراج عنها ، او بتأجيرها لهم بقدر الخراج ، فيكون المأجور من حق الامام خراجا ، فان كان دراهم فهو خراج موظف ،وان كان بعضه ثمرا فهو خراج مقاسمة(٧) . وينتج عن تأجير مثل هذه الاراضي اقامة المستأجرين بيوتا عليها ، او زرعهم شجرا فيها بقيت اصوله ، واطلق على ذلك تعبير (القمامة والكراب) ولقد استفتي في شأنه عدد من مفتي دمشق في هذه الفترة(٨) .

الا ان اوسع المساحات من الاراضي الزراعية كانت تنضوي تحت نظام الاقطاع. ولعجز الاقطاعيين عن تلبية حاجات الدولة في المجالات العسكرية اصروا على الاعتماد على صنف جديد من الجند خصصت لهم الرواتب . وكان لابد من توفير المال لهؤلاء، لذلك فرض العثمانيون نظام الالتزام للضرائب الميرية بتحصيلها من الاراضي . الا ان هذا النظام فسد بدوره نظرا لما سببه من مظالم للفلاحين ، ونتج عنه تقلص في المساحات المزروعة بسبب هجرة الفلاحين منها ، فتناقص الانتاج الزراعي وتناقصت معه واردات الدولة ، مما اضطرها لاتباع نظام ثالث جديد في هذا المجال وهو نظام « المالكانة » بحيث تعطي للاقطاعي حقا في استثمار الاراضي الميرية مدى الحياة وذلك من اجل رفعالمظالم عن الفلاحين والسعي لاستزراع الاراضي وزيادة الانتاج . ويلاحظ ان المالكانات في دمشق قد خصصت لزعماء الجند والسباهية ورجال الدين وغيرهم ،

فمثلا حسين الموصلي المتوفي سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٢٩ م كان من زعماء السباهية وله عدة اقطاعات في القرى(٩) ، ثم درويش اغة اليرلية في دمشق المولود سنة ١١٢٦هـ / ١٧١٥ م تولى بطريقة المالكانة قرية معلولا النصارى وقرية غزة وقرية قب الياس(١٠)، كما ان غيضة السلطانية بناحية المرج من غوطة دمشق كانت مالكانة لمحمد خليل افندي الصديقي(١١) . وكان لعلي العجلاني (وهو من اشراف دمشق) اقطاعات وقرى بطريقة المالكانة(١٢) ، ثم شاكر العمري الحنفي المذهب الدمشقي المولود ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م والذي كان مدرسا ، حصل على رتبة التمثلي وتولى قضاء جبلة بطريق الاربلق كما تولى القسمة العسكرية ونيابة محكمة الباب في دمشق مرارا رست عليه قرية بسيمة من نواحي دمشق بطريقة المالكانة(١٣) .

وكان اصحاب المالكانات يقيمون في دمشق أو في الاستانة ، ويلزّمون مالكاناتهم لاناس اخرين مقابل مبلغ من المال وعقد يكتب في احدى محاكم دمشق . وعلى سبيل المثال كان لاحمد بيك بن حافظ علي باشا مالكانات كفر بطنة وحرزمة ، وكانت هذه المالكانات بتلزيم حافظ آغا بموجب شرطنامة مؤرخة في ١٢٥١ هـ / ١٨٢٦ م . ولما توفي الملتزم المذكور لزمت لحسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي من طرف الشرع الشريف ، ودفع بدل الالتزام على المنوال السابق لتركة المرحوم حافظ آغا وقدره /٦٥٠٠/ قرش وجمعت اليه جميع ما بتصرف حافظ اغا من ملك المالكانة على جري العادة والقانون (١٤) . وكانت مالكانة عين التينة للحاج سليمان افندي العلمي « كلار اميني » الذي كان يقيم في الاستانة ، وكان وكيله عليها في دمشق عبد الرزاق قباقيبي (١٥) .

وعينت الدولة على القرى موظفين مثل الصوباشي والاستاذ . اما الصوباشي فكان له على كل قرية عدد من غرائر الحنطة والشعير نظير مكيول الشوبصة ، ففي سنة ١٢١٧ هـ مثلا كان على قرية العمارة نظير مكيول الشوبصة ٨ غرائر حنطة و ١٧ غرارة شعير(١٦) . اما منصب الاستاذ فكان موروثا من عهد الاقطاع في زمن المماليك وبقي في العهد العثماني سائدا ، الا اننا لا نعرف مهامه بدقة وجل ما علمناه انه كان يقيم في دمشق بدلا من قرى المالكانات ، وتجري المعاملات المتعلقة بالمالكانة بمعرفته وبحضوره في محاكم دمشق . ومن اساتذة هذه المالكانات التابعة لدمشق استاذ قرية الجميدية(١٧) وعين التينة (١٨) واستاذ جبعدين(١٩) والبلاية (٢٠) واستاذ حوش عرب(٢١) بالقرب من قرية العال بالجولان . ثم استاذ قرية سكا واستاذ زبدين واستاذ الصنمين واستاذ قرية حلبون(٢٢)، ثم استاذ قرية الخناصر وكامد اللوز بالبقاع (٢٣) .

طرق المزارعة : تنوعت طرق المزارعة واختلف استغلال الفلاحين من منطقة

لاخرى ، فكان على الزراع منهم خدمة الارض وحرثها وزرعها وحصد محصولها ودرسها وذريها ، ولهم على ذلك ثلث المحصول(٢٤) . وكانت طريقة المرابعة اكثر اشكال المزارعة انتشارا وفيها يقدم الاقطاعي او المعلم « البقر والبدارات والميري وجميع المصاريف والفلاح يقدم تعبه فقط وياخذ ربع الرزق من جميع الاشياء من حبوب وتوتون وحرير وقطن وذرة وسمسم وغير ذلك ولهذا اسمه مرابع ويعني شريكه في الربع»(٢٥) . ومن اشكال المزارعة أيضا طريقة الشراكة الحموية وهي على أنواع أولها : ان يقدم المالك السكن والارض في حين يقدم الفلاح العمل ، وتقسم النفقات الاخرى من بذار وغيره مثالثة ، وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة. والطريقة الثانية « يضع المعلم النصف والفلاح النصف الاخر من جميع الامور من الميري الى كل مصروف ويقتسم الرزق مناصفة وبعد القسمة ياخذ الفلاح الربع من حصة الشركة نظير اتعابه عليها »(٢٦) . اما الثالثة « المعلم يحط كل شيء من كيسه من غير الميري الى شيخ الضيعة عليها مبلغ معلوم يطلب من الشيخ . والشيخ بدوره يطلبه من الرعية . وقبل تقسيم الرزق فيما بين الفلاح ومعلمه يأخذ الشيخ الحاصل من جميع الذي يطلع من الستة واحد وفي محلات أخرى من الخمسة واحد وهذا يتبع الاراضي الجيدات والخسعات ». والنوع الرابع والاخير في الجبال والمقاطعات المحيطة بدمشق « فاذا اراد احد يضمن ضيعة من المقدم فلا يتكلف الى شيء كليا ولا يحط الفلاح شيء كليا ، فقط عليه ان يدفع الميري المرتب على الضيعة من الفلاحين ويأخذ من الحنطة والشعير وكامل الحبوب الربع ومن الحرير والتوتون النصف ، ومن الزيتون والفواكه كلها وله على الفلاحين اشيا راتبة أربعة مرات في السنة زخاير معلومة كبار من فحم وحطب وخواريف وجاج وبيض ولبن وحليب وهكذا اشيا فهذه ظاهرة لكن دائما متصلة الزخاير الخدمات الى بيت الضامن ، ولكن لا يقدر الضامن يعمل حركات مثلما يصير في الضيع الساحلي ، مثل حكاية العرايس خوفة من المقدم، بل يقتضي يمشي بكل ضبط مع الفلاح »(٢٧) .

وكانت نسبة الميري في قرى الغوطة ٥ر١٢٪ ، في حين كانت في قرى حوران تقدر بحسب الفدان . وهكذا كانت القرية تدفع اثنى عشر كيسا للميري ، فاذا كان هناك ثلاثون زوجا من الثيران فان صاحب كل زوج من الثيران يدفع جزءا من ثلاثين . وكل قرية مسعرة بالنسبة لضريبة الميري في سجل ضريبة الارض الموجودة لدى الباشا او الدفتر دار بمبلغ محدد ، يتناسب مع عدد سكان القرية ، وفي كل ثاني او ثالث ربيع كانت اراضي القرية تقاس بحبال طويلة ، وعندما يترك أي فلاح القرية يوزع شيخ القرية المبلغ المترتب عليه على مجموع سكانها . وكان الفلاحون يتحملون الضريبة المترتبة على الافدنة المزروعة في ذلك العام كاملة . ويمكن ان تزداد او تنقص كمية المال فيما اذا كانت الثيران قوية او ضعيفة .اما اذا قلت كمية البذار المزروعة او الارض

التي زرعت بواسطة اصحابها ، فان كل ذلك لايؤخذ بعين الاعتبار ولهذا كان على الفلاح ان يحوي قطيعا قويا من الماشية وعليه ان يحرث مايستطيع من الارض ، فالبعض كان يزرع ٦ غرارات من القمح او الشعير في الفدان الواحـد ، والبعض الاخر يـزرع ٥ غرارات أو ٧ غرارات . أما حدود الحقول فكانت تحدد بواسطة حجارة ضخمة .وكان الميري يدفع عينا او نقدا ، بحسب رغبة الباشا ، الا أن الفلاحين كانوا يفضلون دفعـه نقدا لانهم الرابحون بذلك .

واما قرى جبل حوران فكانت تدفع مغارم اكثر من فلاحي سهل حوران المحيط بهم ، لانهم كانوا يدفعون بالاضافة الى الميري الخوات للبدو . فمثـلا دفعت قريـة (عمارة) عن الفدان الواحد ١٥٠ قرشا ، وقرية ازرع من حوران دفعت ١٨٠ قرشا. وكانت بعض قرى سهل حوران تدفع ١٢٠ قرشا . وفي عام ١٨١٢ وصل ريع الفدان الواحد الى ٥٠٠ قرش(٢٨) .

ــ ولما كان الانتاج الزراعي في بلاد الشام جماعيا ، كان على الفلاحين ان ينتجوا ما يكفيهم لسد حاجاتهم اليومية من جهة ، ولدفع الضرائب للدولة ، والاتاوات لرجالها وللبدو في المناطق المتاخمة للبادية ، من جهة اخرى .

الري : تفاوتت اهمية ملكية الارض في بلاد الشام بحسب نوعيتها وطرق سقايتها. فقد اعتمد فلاحو دمشق في زراعتهم على مياه بردى وبعض الينابيع الاخرى ، في حين اعتمد الاخرون ، خارج منطقة الغوطة وفي المناطق الجنوبية على وجه الخصوص ، على ما تجود به السماء من الامطار . وفي الاراضي البعلية ، كأراضي حوران مثلا، كان لشح السماء في بعض السنين العجاف ،وانتشار اسراب الجراد والفئران الحقلية والامراض الوبائية ، والصقيع والسيول في بعض الاحيان ، اسوأ الاثر على الفلاح الزارع في تلك الاراضي ، واذا ما حاول الفلاح مجابهة تلك الافات والادواء ،فبأساليب لم تستطع في احسن السنوات ، على الصمود لحالات الطوارىء الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تجابهه .

اما في الاراضي المروية ، وهذا ينطبق على فلاحي غوطة دمشق ، فقـد اختلف حالهم بعض الشيء عن حالة بقية فلاحي صناجق الولايـة ، لكون اراضيهم مرويـة بمياه دائمة من بردى وفروعه المختلفة ومن بعض الينابيع ، الامر الذي مكنهم مـن زراعة المناطق الاخرى خارج الغوطة . ولقد زرع فلاحو الغوطـة ارضهـم مرتين في السنة واستخدموا في ذلك اساليب الزراعة الحثيثة الموروثـة منـذ اجيال ، ولعب التشجير المثمر دورا في رفع سوية دخل الفلاح المادية ، على عكس المناطق البعلية .

ومع ذلك فقد لاقوا كغيرهم من الفلاحين العنت والارهاق حتى اضطروا لبيع اراضيهم بابخس الاثمان* . وقد امتلك الفلاحون في غوطة دمشق مساحات محدودة من الارض، وكان منهم الحراس او الاجراء . واستخدم الفلاحون البغال والجمال والحمير والبقر في جر المحراث الروماني القديم ، وكانوا يسوقونها بعد الانتهاء من الحراثة الى المعالف الخاصة بها حيث يقدم لها التبن والكرسنة او الفول او الجلبان، والماء لسقايتها . وكان لبعض هؤلاء اجر سنوي على ذلك .

وكان من الفلاحين (الشداد) او المستاجر او المزارع للحرث ، ومنهم الخولي . وهذا الاخير عمل لدى شداد الفلاحة او مستاجرها وهو ذو خبرة ومعرفة بسائر امور الفلاحة ، وكان يلاحظ مزروعات سيده الشداد ، ويقوم بالتفتيش على اشجاره خوفا من التكسير ويراقب المرابعين كما يستأجر الفعلة ايام الزبر والعزق والتجبير والتعشيب والتنكيش وينوب عن سيده في اجورهم ، ويستلم قطعة خشبية محفورة يطلق عليها اسم (الروشيم) منقوش عليها اسم سيده او كلمة ياكريم يا حافظ او بركة . فيرشم بها اكوام الحنطة او الحبوب الاخرى(٢٩) . فاذا ما سرق أي شيء من هذه الكومة ينفرط عقدها ويختفي الرشم فيكشف ذلك ويعاقب الفلاح الذي قام بالسرقة .

انظمة الري : اتبع الفلاحون في غوطة دمشق نظاما دقيقا في توزيع مياه بردى ، فكان لكل قرية في الغوطة ايام مخصصة تحصل فيها على حصتها من المياه ، وتعرف بالعدان . ولتحافظ كل قرية على عدانها ، عينت اشخاصا لهذه الغاية ، وكان يسمى احدهم « الشاوي » (٣٠) ولهم اجرة معلومة يتقاضونها سنويا ، وكانت مهمتهم تسريب المياه بنسب معينة ومنع اي اعتداء على هذه النسبة ، وهم الذين يحددون ادوار سوق المياه من قرية لاخرى . وقد كلف شيخ البساتنة والشوباصي بتحديد البساتين وشهدا على بيعها في المحاكم(٣١) . وكان على كل نهر عدد من (الماصات) لصرف المياه الى مجار فرعية بنسب معينة تقدر بالقراريط ، لتروي بدورها البساتين من خلال الطواريق . ويقسم الطاروق الى شماب (مفردها شمب) (٣٢). ولقد استخدم فلاحو الغوطة الذين لا تقع اراضيهم تحت مياه الانهار ، أو الذين لا تصل اليهم مياهها في فترات التحاريق من السنة ، مياه الابار لري اراضيهم ، واستعانوا على رفع مياهها بالنواعير العادية أو الفارسية التي تديرها الحيوانات ، واستخدموا في تسميد اراضيهم

* يقول محمد كرد علي : حدثنا الشيوخ .. ان اهل الغوطة كانوا يلقون من العنت والارهاق الشيء الكثير . فاذا دقت الطبلة وجاءت سرية من الجند لتحصيل المال المطلوب منهم ، وربما اقام الخمسون جنديا مع خيولهم في القرية بضعة ايام حتى يتيسر جمع مال الدولة وبذلك كره الناس امتلاك الارض فنزل ثمن الفدان الى بضع مئات من القروش ، وربما كان الحقل يباع احيانا بلوح من الصابون او اوقية من التنباك .. انظر لوتسكي ، ص ١٢٥ .

القمامة التي يشترونها من كناسي القمامة ومن بعض الخانات في دمشق . واستخدم فلاحو القلمون الاقنية القديمة في مناطقهم ، وهي عبارة عن ابار متتالية تفصل بينهما مسافات محددة بحيث تسمح المسافة لمياه البئر الاولى بالتسرب الى البئر الثانية تحت الارض وهكذا ، الى ان تخرج في النهاية على شكل نبع ماء متدفق يروي الاراضي التي تقع تحت منسوبه بالراحة . وكان يشرف على هذه القنوات والابار في القلمون شخص يطلق عليه (السواط) ويتناول اجرا سنويا على ذلك(٣٣) .

الفلاحون والاوضاع السياسية : ارتبط وضع الفلاحين بالظروف السياسية لولاية دمشق . وعلى ضوء ذلك يمكن رصد مرحلتين متميزتين : تمتد اولاهما من بداية القرن الثامن عشر الى نهاية الستينات منه ، لتبدا المرحلة الثانية ، والتي تمتد الى الاربعينات من القرن التاسع عشر .

ففي المرحلة الاولى كلف ولاة دمشق بامرة الحج (١١٤٠هـ / ١٧٠٩ م) وتجهيز قافلته بما تحتاجه من مواد تموينية ، وكان ذلك يعتمد على ما تغله ارض الولاية . ولضمان زرع الارض كان لابد من توفير الامن للفلا ح وتوفير اسباب الاستقرار له . ولقد تمكن ولاة دمشق الاقوياء ، الذين كانوا بمعظمهم من ال العظم ، والذين طالت مدة بقائهم في مناصبهم ، ان يحققوا ذلك بعض الشيء ، وان يدفعوا غارات البدو واعتداءات الجند عن الفلاحين . ويقول البديري ان احد الولاة من هذه الاسرة ، وهو اسعد باشا العظم « أرهب الكبار والصغار وعظم هيبته في البراري والقفار »(٣٤) .

وتستهل المرحلة الثانية بانتهاء فترة ولاة دمشق الاقوياء الذين اعقبهم ولاة كان للاحداث الخارجية والداخلية دورها في عجزهم عن تحقيق ما حققه السابقون للفلاحين من الامن والاستقرار ، فسادت الفوضى وانعدم الامن وزاد تعدي الاقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين ، وعجز الولاة عن التصدي للحركة الوهابية التي اشتد ساعدها في الجزيرة العربية وسيطرت على الاماكن المقدسة في الحجاز ومنعت الحجاج من الدخول اليها ، فانصب جام غضب الدولة العثمانية على ولاة دمشق الذين عجزوا عن تسيير قافلة الحج وحمايتها فقصرت لذلك مدة بقائهم في مناصبهم ، وعمت الفوضى وزاد التعدي على الفلاحين . ففي عام ١٢١٨هـ/١٨٠٤ م مثلا عندما خرج السكبان والدلاتية من دمشق نهبوا في طريقهم « قرى المزة والمضمية والجديدة وعرطوز . . وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير وخيل واواعي وغيرذلك»(٣٥) . وفي العام التالي قام جند والي دمشق ابراهيم باشا بعد عودته من الحج بنهب القرى(٣٦) . وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين فيطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم ويذبحون الدواجن ويرافق ذلك الاهانات والاذلال . فكان

سيفهم مسلطا فوق رقاب الفلاحين يجبرونهم على السكوت على مظالمهم(٣٧) ، وكثيرا ما اجبروا فلاحي الغوطة المحيطة بدمشق للجوء الى اسوارها خوفا من اعتدائهم . فمثلا عندما جرى الصدام بين والي دمشق ووالي صيدا في عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠ ـ ١٨١١م « انتقلت اهل القرى والميدان الى داخل الصور خوفا من النهب والحرق »(٣٨) .

ولم يكن مصدر المتاعب والمظالم التي تعرض لها الفلاحون من عناصر الهيئة الحاكمة وزبانيتها فحسب ، بل اسهم بعض تجار دمشق بدورهم في هذه المظالم ، فكانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته للمال لشراء البذار والحيوانات او لدفع غائلة الجوع عن اسرته في بعض السنين . ولم يخفف نظام المالكانة التي اقامته الدولة في نهاية القرن السابع عشر الاعباء التي ارهقت الفلاحين ، لان هذا النظام لم يبدل طبيعة العلاقات الزراعية القائمة على الاستغلال ، واجبر الفلاحون من جهة اخرى على دفع اموال الميري على الاشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم حسب الاشهر الشمسية ، الامر الذي دفعهم للاستدانة من تجار دمشق بفائدة تراوح بين ٨و١٠٪ . وكان ابرز تجار دمشق الذين سلفوا الاموال للفلاحين بالفائدة خليل اغا بن عبد الرزاق المسودن ، الذي قام في ١٢٠٣ هـ بتسليف اهالي قرية سكا ٩٦٨٦ قرشا فضة صحيحة معاملة شامية ، وجاء تفصيل ذلك في سجل المحكمة الكبرى بدمشق على الشكل التالي : ٨٣٣٠ قرشا دين شرعي ، ١٦٦٦ قرشا ثمن بن حجازي وتم ذلك في المحكمة المذكورة ، وشهد شاهدان على ذلك(٣٩) . وفي الحقيقة لم يكن الفلاحون بحاجة لمثل هذه الكمية من البن التي يدعي شراءهم لها ، بل كان ذلك حتى لا تذكر الفائدة امام القاضي او تثبت فيسجلات المحكمة لانهامحرمة ، مما دفعالمرابين لاتباع مثل هذه الحيل للحصول على الفائدة . وقد لعبت السنون العجاف دورها في اجبار الفلاحعلى الاستدانةبالفائدة ، فكانت تتلقفه ايادي المرابين وبعض افراد الهيئة الحاكمة الثرية ليسلفوه على مواسمه فلا يبقى له « بعد عذابه في الفلاحة والزراعة والحصاد والدراس وغير ذلك منالمشاق العظيمة ودفع الضرائب للدولةمن غلاله سوى النذر اليسير . وحتى الاوزان لم تسلم من تلاعب التاجر عندما يستلم الحبوب منه فتصبحعشرة الفلاحتسعة،واذا مااشترى الفلاح الغلال من التاجر تصبح احدى عشر، فيرجع الفلاح المسكين صفر اليدين بعد اتعابه طول السنة وتعاد الكرة مرة اخرى وهكذا»(٤٠). ويذكر الرحالة فولنيالذي زار بلاد الشامفيمطلع القرن التاسع عشر ان المرابينكانوا يفرضون على الفلاحيننسبة منالفوائد تتراوحمابين ١٢-١٣٪ . فاصبحت حالة الفلاح « بائسة واصبح مأكله الذرة والشعير مع البصل والعدس .. واذا ما توفر له الزيت والشحم فيعتبر ذلك من المآكل الشهية »(٤١) . اما ضريبة الاعشار فكانت اشد الضرائب وطأة على الفلاح لما اضيف اليها من الزوائد للسماسرةوالملتزمين وارباب النفوذ . وكانت الاعشار تجبى سواء اثمرت ارضه أم لم تثمر ، بالاضافة الى

دفعه ضريبة الخراج التي بقيت على الفلاحين المسلمين الى ان الغيت في ٧ ايار ١٨٥٥ م (٤٢) .

ولقد استطاع ضامنو الاعشار من الدولة ان يجمعوا من الفلاحين نصف حاصلاتهم(٤٣) . أما صيارفة اليهود فقد لعبوا دورا امر وادهى في ظلم الفلاحين ، اذ استطاعوا ان يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءا كبيرا من اراضي الغوطة والربوة والمزة(٤٤) باستخدامهم طرقا ملتوية للحصول على الاموال . فمثلا عندما كانوا يكلفون بتمويل قافلة الحج وجنود حراستها ، كانوا ينصبون حبائلهم لابتزاز اموال الفلاحين فيقومون بتخفيض سعر النقد قبل موعد خروج قافلة الحج وكان امر ذلك بيدهم بطبيعة عملهم ، ثم يسلفون جنود حراسة قافلة الحج على شكل سندات تؤخذ منهم على حساب الضرائب التي ستجمع من الفلاحين من اموال الميري بعد نضج محاصيلهم . ولحاجة الجنود الماسة الى المال يقوم سماسرة اليهود الذين كانوا يترصدونهم خارج السرايا فيشترون منهم هذه السندات مع اخذهم عمولة على ذلك ، على ان يحصل هؤلاء السماسرة على اموال السندات المشتراة فيما بعد من الفلاحين . ويقوم الصيارفة اليهود بالتواطؤ مع ابناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد ، قبل جمع اموال الميري من الفلاحين ، فيضطر الفلاحون عند تسديد ما عليهم من اموال الميري للدولة للدفع بالسعر المرتفع ، ويجني اليهود بذلك الارباح الطائلة من هذه العمليات . ولا غرابة اذا ما اصبح بعض اليهود اغنى سكان دمشق (٤٥) واضحى الفلاحون اشقى فئات الهيئة المحكومة وارتضوا الاستعباد على ان يكونوا احرارا مالكين للارض وذلك تخلصا من الاعباء والضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية(٤٦)، فهجر العديد من الفلاحين قراهم حتى اصبح تدهور الانتاج الزراعي مشكلة خطيرة مما دفع بالسلطات العثمانية في استانبول لاصدار اوامرها الى والي دمشق في سنة ١٢٤٤هـ / للاهتمام بالارض والفلاحين وعدم السماح لهم بالتسكع بالشوارع(٤٧) .

امام الظروف الخارجية المستجدة والضاغطة على الاوضاع في الدولة العثمانية، حاول بعض السلاطين (سليم الثالث ومحمود الثاني) اجراء بعض الاصلاحات بما يكفل للدولة الصمود في وجه المطامع الاوربية ، خاصة بعدما برز للعيان مدى ماسيكون للثورة الصناعية في اوربا من اثار على الاوضاع داخل الدولة العثمانية ، وبخاصة على الحرفيين فيها . فقام السلطان محمود الثاني بالغاء اوجاق الانكشارية في ١٨٢٦م ، والغي مع السباهية ايضا نظام التيمار في ١٨٣١م ، واعقب ذلك ترتيبات اقتصادية وثقافية تكفل قيام نظام جديد في المجال العسكري يقوى على الصمود في وجه المطامع الاوربية وينهي مفاسد الجند التي استشرت وانعكست سلبا على الاوضاع الداخلية. الا ان هذه الاجراءات لم تحسن اوضاع الفلاحين في بلاد الشام ، حيث قام الحرفيون

القادرون ماليا وبعض التجار ورجال الدين وغيرهم بالحصول على المالكانات من الدولة العثمانية في غوطة دمشق وحوران والبقاع(٤٨) والمرج والقلمون وغيرها . وجل ما طرا على حال الفلاحين من تغيير ، نتيجة لذلك ، ان بدلوا اسيادا جددا باسياد قدماء .

الفلاحـون في ظل الحكم المصري :

عندما احتل المصريون بـلاد الشام في ١٨٣١ م ، كانت اوضاع الفلاحـين قـد وصلت الى حالة مزرية ، فاكتظت المدن باعداد كبيرة من هجروا القرى طلبـا للرزق في دمشق وغيرها من المدن الشامية ، الامر الذي ادى بدوره الى حصول خلل كبـير في توزيع السكان واليد العاملة بين الريف والمدينة . واصبحت مدن بلاد الشام تختنق بسكانها ولا تقوى على توفير فرص العمل لهم(٤٩) . واصبح الوافدون الجدد أليهـا يزيدون ازمتهـا ضغثا على ابالة ، وبالمقابـل تراجـع الانتـاج الزراعي في الريـف بشكل مريـع واصبـح شبح المجاعـة يخيم على سكان بـلاد الشام في الريـف والمدينـة . وكان ذلك من اهـم المعضـلات التي جابهـت الحكم المصري ، لذلـك سعى المصريون لاعادة التوازن بين سـكان المـدن والريف(٥٠) لضمان تموين قواتهـم من جهة ولتوفير الدخـل المالي لخزينتهم ، فشجعـوا الفلاحـين على العـودة الـى القرى المهجورة والاستقرار فيها وزراعتها ، واتخـذوا اجراءات عديـدة لتحقيـق ذلك ، فضيقوا على الاقطاعيين وخففوا من هيبتهم وسلطتهم وبسطوا الامن علـى الريف والمدن ، مما وفر الجو المناسب للفلاحين للاستقرار ، فعاد معظمهم الى قراهم التي هجروها في السابق(٥١) ، ووزعت عليهم « الاراضي البـور وقام الحكم المصري باعطاء الفلاحين الدارهم من اجل زراعتها وادى ذلك الى كثرة الخيرات في بلاد سورية مع كل ذلك ما كان يكلف البلاد شيء ابدا وكانت ذخاير دائما متواصلة من مصر ، من بكسمات وشعير وحنطة وعدس وفول وذرة وسمن وارز وغيرو ثم أوعد بتشغيل كامل اراضي البور وعمارة كامل ضيع الخربانة»(٥٢) . وقام المصريون بتجفيف المستنقعات فتوسعت المسـاحات المزروعة ، ولم يكتفوا بذلك بل قدموا للفلاحين التقاوى والبـذار « حتى لا يصير ولا يبقى غدر للفلاحين في امر الزراعة ويفي الفلاح بما عليه من اموال الميري واذا لم يستطع فلاحو قرية ما او اكثر من دفع اموال الميري كان يعرض شانها على المجلس ويدعى للمذاكرة»(٥٣) .

وقام الحكم المصري بنزع سلاح البدو وتشجيعهم على الاستقرار ،وترك حيـاة الترحال وزراعة الارض، فاعفى من اقام منهم في الارض من الضرائب . كماالتفت الحكم المصري الى ناحية هامة في الانتاج الزراعي وهي عدم اثقـال كاهل الفلاحـين الذين استقروا مجددا في الارض بالضرائب فاجل دفعهم للضرائب من سنة الى اخرى ، كما

حصل لفلاحي « قرية تلعران في ولاية حلب فكانت القرى المسجلة بدفتر الشواهي بثلاثة ارباع شاهيةوحيث انها عمار جديد وعمار الجديد يلزم له مساعدة لاجل ترغيب الفلاحين بالعمار فينبغي ان تتقيد القرية المرموقة بنصف شاهية يكون ترتيب المال عليها من ابتداء سنة ١٢٥٢ هـ »(٥٤) واستخدم الحكم المصري قواته ، وحتى الضباط منها في زرع الارض .

واتاح الحكم المصري للفلاحين ان يتقدموا بشكواهم الى الحكمدار فيما اذا وقع اي ظلم عليهم في مجال تقدير الفدن في القرى والضرائب على الاشجار المثمرة(٥٥). وكانت شكوى الفلاحين تلقى اذانا صاغية من قبل ذلك الحكم . وتساهل المصريون في جمع اموال الميري بحسب رغبة الفلاح الذي كان يفضل دفعها نقدا ، مما خفف عنه مسؤولية تموين الجيش (الشونة) قدر الامكان(٥٦) . ووضع المصريون متسلمين على الصناجق يرتبطون مباشرة بالسلطة المصرية في دمشق ويخضع لهم شيوخ القرى المجاورة . وتحت رئاسة كل متسلم ، شكلت السلطة المصريةمجلسااستشاريا او(شورى) من الملاكين والتجار والرؤساء الروحيين ، وعهدت الى هذه المجالس بوظيفة المحاكم الدينية(٥٧) ، وعينت موظفا خاصا لتحصيل اموال الميري من الفلاحين وهو (الناظر) او (اغاسي) ، وحددوا لناظر القرايا المبلغ الواجب اخذه من الفلاحين دون ان يظلمهم وكان ثمة دفاتر لشونة الجيش ، فاذا ما اضطرت السلطة لاخذالشونة ، قامت بتوزيعها بالعدل على قرى الصنجق(٥٨) وعينوا ناظر نظار في الصنجق وقسام اموال الميري الذي كان يقوم بجمعها من الفلاحين . وكان ذلك بمثابة تحول كبير في حياة الفلاحين انذاك ، اذا ما قيس بعهود الظلام التي عاشها الفلاح في الفترة السابقة للحكم المصري . الا انه ، مع ذلك ، بقي الفلاحون يشكون من المظالم ، وكان على راسها ابتزاز اموالهم من قبل الجند وبعض عناصر الهيئة الحاكمة واجبارهم احيانا على تأمين مبيتهم وطعامهم وتامين عليق خيولهم والحراية .

وكان التجنيد عقبة في وجه الانتاج الزراعي ، مما دفع بابناء الفلاحين الشبان للفرار والاختفاء فافتقرت الارض لليد العاملة ، وطلب مشايخ القرى من السلطات المصرية ارسال الجنود من (القشلة) الى القرى لجني المحصول ليتمكن المشايخ من دفع اموال الميري المترتبة على قراهم(٥٩) . ومع ذلك بقيت شعاب الجبال والمناطق النائية بعيدة عن متناول السلطات المصرية . وتغير حال الهجرة فانعكس اتجاهها من المدينة الى الريف ، وربما اسهم في ذلك الفرار من الجندية . وبشكل عام اصبح حال الفلاحين والزراعة افضل منه في الفترة السابقة للحكم المصري ، فزادت المساحات المزروعة وعدد القرى المسكونة(٦٠) .

الا ان الحكم المصري لم يقض على اسلوب الانتاج الاقطاعي وسيطرة الاقطاعيين على الفلاحين ، وان كان قد عمل على تحديد سلطاتهم السياسية ، مما ادخله في صراع معهم ، كما حصل في مناطق حوران واللاذقية ولبنان . ودفع الفلاحون ثمن هذا الصراع . ومن جهة اخرى ، ونتيجة لسياسة الحكم المصري في تصدير المنتجات الزراعية ، زادت المساحات المزروعة من الزيتون والقطن والحرير على حساب الزراعات الاخرى ، فاضطر المزارعون الصغار لزراعة صنف واحد ، واثر ذلك على زراعة ما يكفيهم ويسد حاجتهم من المزروعات الاخرى التي كانت سائدة قبل دخول المصريين ، فعجزوا عن تأمين كفايتهم الذاتية واضطروا لشراء السلع الاوربية والتعامل بالنقد بدلا من المقايضة ، واثر ذلك على مستواهم المعاشي(٦١) . وحاول المصريون تخفيف وطأة المتغيرات الاقتصادية على الفلاحين، فقام متسلمو الصناجق بالتخفيف من وطأة الجند المصريين على الفلاحين ، بان خصصوا (قوناقات) في القرية لنزول الجند فيها عند الحاجة ، وصرفوا لهم العليق والجراية من مرتبات استحقاق الميري على القرية، وكلفوا ناظر الشونةبتسجيل ذلك في سجلات خاصة ، واذا ما حصل اي اعتداء من الجند على الفلاحين كان يوقع بهم « جزاء لايق »(٦٢) . وعلى الرغم من التغييرات التي اجراها الحكم المصري والتي انعكست فيبعض جوانبها ايجابيا على أوضاع الفلاحين ، الا انها من جهة اخرى كان لها تأثيرها السلبي عليهم فانعطف بذلك موقفهم وبشكل حاد ضد السلطة المصرية ، وكان من اهمها تسخير الفلاحين في اعمال التحصينات التي اقتضتها الاجراءات الدفاعية عن بلاد الشام وزيادة الغرامة عليهم للايفاء بتلك الحاجيات ، وتجنيد الفلاحين في صفوف القوات المسلحة المصرية ، الامر الذي لم يعتادوه من قبل، مما دفع الاقطاعيين المحليين لاستغلال ذلك ضد السلطات المصرية فقادوا الفلاحين في انتفاضات مسلحة كان ابرزها ما حصل في فلسطين ١٨٣٤ وفي حوران والجبل الشرقي ١٨٣٧ م . ناهيك عن ربط الاقتصاد الشامي بعجلة الاقتصاد الراسمالي الاوربي ،وما نتج عن ذلك من اضرار بالغة بمصالح الفلاحين ، وادى بدوره الى زيادة ديونهم وبالتالي الى اضطرارهم لبيع اراضيهم بابخس الاثمان ، فانتقلت ملكية اراضي قرى عديدة في الغوطة والمرج من الفلاحين الى اسر دمشقية غنية ،كقرية زبدين وبالا والحديثة والمحمدية والافتريس ، وتحول ملاكها السابقون الى متسكعين في شوارع دمشق . . وقامت تلك الاسر الدمشقية الغنية (المالكة الجديدة لتلك الاراضي) باستخدام وسائل عديدة لمنع الدولة العثمانية من مصادرة تلك الاراضي، فحولتها الى اراض وقفية، وقامت باخراجها من ملكية الوقف الى مالكها الخاص باستخدام اساليب ملتوية (كالتحكير والاحترام والامارتين والمرصد) .

وبخروج المصريين من بلاد الشام واستعادة الدولة العثمانية لسيطرتها قام

السلطان عبد المجيد باصدار فرمانات سلطانية لاعادة الاراضي التي سيطر عليها المصريون الى ملاكها الاصليين ، الا ان ذلك لم يحسن من اوضاع الفلاحين بل زادت سوءا ، وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بما آل اليه حال فلاحي غوطة دمشق : جاء في احداث ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م ، ان اهالي قرية الشفونية قد اثقلوا بالديون، ومماجاء في طلبهم نتيجة لذلك الى قضاة دمشق ، تقسيط ما عليهم من الاموال والديون للدولة لعجزهم عن تسديدها دفعة واحدة(٦٣) .

الاسرة الفلاحية :

ازاء الظلم والقهر اللذين مارستهما السلطة العثمانية من خلال أدواتها المتعددة ضد طبقة الفلاحين ، ازداد تكاتف الاسرة الفلاحية الصغيرة من خلال تنظيمات أكبر، كانت مبنية على أسس اسرية او عشائرية او قبلية . شملت قرية أو قرى عديدة .

لهذا كان من المنطق ان يسود تنظيم الاسرة الواسعة على حساب التنظيمات الاجتماعية الادنى ، « وسعت بعض الاسر لاكثار نسلها ، فلجأت الى استيلاد الزوجات بشكل مبكر ، ومجدت الخصوبة لديهن ، وزوجت افراد الاسرة في سن مبكرة ، وطلقت العاقرات »(٦٤) من الزوجات او اهملتهن ومجدت الذكورة لان الذكر عامل ومقاتل وحافظ للنسل ، ولا يحتمل جلبه للعار كالانثى ، ولا يحتاج للحماية مثلها .

وفي مجال ملكية الارض والعمل عليها قامت الدولة العثمانية بسن القوانين لتنظيم انتقال حق التصرف بالارض وحصره ضمن نطاق الاسرة الواحدة لتضمن بذلك دفع ما يترتب عليها من الاموال والضرائب . فبقيت الارض مشاعة في الاسرة . وسعت الدولة لتخفيف التاثيرات السلبية على الزراعة الناتجة عن هجرة الفلاحين للارض والقرية فوقفت في وجه هجرتهم ، واعطت حق التصرف في الارض الواسعة لاهل القرية، وكان عليهم دفع الضريبة عنها مهما تناقص عددهم . وادت هذه السياسة الى ترسيخ الاسرة الفلاحية الواسعة .

ومن جهة اخرى خففت الروابط العائلية التي تربط افراد الاسرة الفلاحية من تأثير قوة القهر والظلم التي فرضت على الفلاحين من اصحاب الارض ورجال السلطة، فعاش الفرد ضمن مجتمع يقنعه بان النظام السائد هو افضل النظم رغم القيود التي كانت تغله(٦٥) .

وعرفت الاسرة الفلاحية تماسكا صلبا في داخلها مكنها من الصمود لاقسى

الظروف التي تعرضت لهانتيجة لتكاتف افرادها وتوزيعها لقوة الضغط ، مما ساعدها على الاستمرار والامتداد والتفرع ، وشد افرادها من ازر بعضهم بعضا في السراء والضراء ، وزاد في تماسكها توجه افرادها في زواجهم الىداخلها(٦٦)، فكلما بردت حرارة القربى بعث فيهم زواج جديد دفئا جديدا . ولقد قسمت قرى الفلاحين الى حارات سميت الواحدة منها باسم احدى الجهات الاربع او احدى الاشجار المعمرة او احد الينابيع او المزارات ، أو احدى الاسر ، ووجد في القرية احيانا نجار وحداد وصانع فخار وبيطار وبناء ومجبر وكحال ، واحيانا داية ، وكلهم يقدمون خدماتهم لاسر القرية ، كما كان فيها بائمون وحراس ومسجد أو كنيسة أو كلاهما . ورغم سعي السلطات المصرية لتعمير القرى واعادة الفلاحين الى المهجور منها ، وتشجيعهم على الاستقرار فيها وتوطين البدو ، الا ان الاسر الفلاحية المسلمة تعرضت لهزات كبيرة فاقت معظم الهزات التي تعرضت لها في الفترة السابقة ، وبرز ذلك في فرض المصريين لنظام التجنيد الاجباري، وما ترتب عليهمن سحب الشبابمن قراهم الى مصرلاعدادهم وتدريبهم على فنون القتال . ولم يكن الفلاحون ، وابناء بلاد الشام بشكل عام، قد اعتادوا على ذلك من قبل ، وشعرت الاسر بان التجنيد سيفقدهاابناءها . وللتخلص من ذلك لجأت الى تشويه اعضاء ابنائها لتخليصهم من السوق الى الجندية ، فسملت احدى عيني الشاب او قطعت احدى اصابعه او كسرت رجله، فيصبح الشبان بذلك « سقطات غير نافعين للعسكرية وأكثرهم يهربوا يتخبوا بالحروش ودغلات الاشجار» واذا ما القي القبض على الفارين يربطون مع بعضهم ويرسلون الى المدينة « مقيدين بالجنازير الى حين ارسالهم الى مصر » فمات الكثيرون من الشباب وفر الاباء « حتى لا يقروا على ابنائهم » اما في المدن فكانت الاسر تخبيء ابناءها تحت الارض سنين طويلة « من غير اظهارهم على وجه الارض وصار الكبار تخبيء اولادها في بيوت القناصل ومنهم من يسفر اولاده على خارج ايالة الحكم المصري مثل قبرص وكريد واضاليا وبر الترك واسلامبول وازمير وغيرها لاسيما عند العرب للجول ، واستمر ذلك زمان طويل حيث ما هومرة واحدة بلخمس مرات حيث عريت البلاد من الشباب فكلما صار عنده مبلغ من الشباب المملوكين يرسلهم الى مصر ويجيبعسكر مصري بدلهم الىسورية»(٦٧) . ولم تقو الاسر الريفية على اعفاء ابناءها من التجنيد الاجباري كما فعلت بعض الاسر الغنية التي استخدمت الرشوة في تحقيق ذلك ، وانعكس هذا الوضع بشكل سلبي علىالاسرة الريفية وانتاجها .

وعلى الرغم من ان الروابط العشائرية قد وفرت الامن والتعاون بين الفلاحين ، الا انها من جهة اخرى جرت الويلات عليهم في وقت غابت عنهم حماية سلطة القانون. فساد الاقوياء وذر قرن الخلافات العائلية والعشائرية والتي لم تكن بعيدة عن تأجيج نارها ، بين الفينة والاخرى ، عناصر الدولة العثمانية ، وذلك لاضعاف الطرفين

المتخاصمين وضمان احكام قبضتها الواهنة عليهما وابتزاز اموالهما . ويقول صاحب المقترب في حوادث الحضر والعرب : « كان ديدبان الحكام وكبار البلد القاء البغض وعدم الرفق والمحبة بين الفلاحين . ولولا وجود البغض بينهم لما كان احد قــدر شرب ماء من عندهم » (٦٨) .

لقد جرت الصدامات على الفلاحين الويلات والكوارث فازهقت الارواح وهدمت البيوت ونهبت المواشي والارزاق وقطعت الاشجار وحرقت البيادر وردمت ابارالمياه، وهجر العديد منهم قراهم ، ولم تقتصر الصدامات على فئتين تنازعتا في القرية الواحدة بل حدثت احيانا بين قرية واخرى، او بين عدة قرى في المقاطعة الواحدة . هذا ناهيك عن اعتداء البدو على فلاحي قرى منطقة المرج من دمشق او القرى التي كانت تقع على حوافي البادية ، ففرضوا الخوات على سكانها ورعوا كل اخضر ، خاصـــة في السنين العجاف . وزاد الطين بلة ضعف السلطة العثمانية وعجزها عن دفع اذية البدو ممــا دفع بالفلاحين لهجر قراهم . ويقول الرحالة بوركهارت : « قليلا مانرى الفلاحين الذين ولدوا في قرية من حوران ، يموتون فيها لكثرة ترحالهم كالبدو تقريبا فلا يستقرون في قرية حتى يمارس عليهم نوع من الاضطهاد والعسف فيدفعهم ذلك للهجرة الى قرية اخرى وكثيرا ما لعب اضطهاد شيخ القرية دورا في هذه الهجرة ، وادى ذلك بدوره الى بروز ظاهرة عدم تشجير الاراضي الزراعية في حوران ، وغياب الارض المزروعــة بالخضروات حيث يقول الفلاحون : نحن لا نزرع هذه الارض من اجل الغرباء»(٦٩) اي انهم لن يقطفوا ثمار ما زرعوا لاضطرارهم للهجرة بسبب تلك المظالم او الخلافات .

انزل الفلاحون محاصيلهم الى المدينة وبدت علاقاتهم بها علاقة اقتصادية ذات منفعة متبادلة وتجري بالنقد المتداول(٧٠) ، في حين كانت علاقاتهم مع بعضهم البعض تقوم على النقد او على أساس المقايضة . ورغم المنفعة المتبادلة بين ابناء الريف والمدينة، فقد ساد البرود علاقة الفلاحين بالمدينة ، ولم يكن الفلاح ليحظى بالاحترام من ابنائها بل كان محط سخريتهم(٧١) . ومع ذلك فان فلاحي الغوطة شاركوا بعض فئات مدينة دمشق في الصراعات السياسية ، وانتصروا لهم بتأثير روابط العصبيــة الجاهليــة . فمثلا اهل الحقلة انتصروا لاهل العمارة في صراعهم مع اهل الميدان ، كما اعتمد ابناء دمشق على الفلاحين عندما ثاروا على محمد سليم باشا بسـبب ضريبة الصليـان في عام ١٨٣١ م ، حيث « نبهوا على أهل الضيع بان الذي ماعنده بارود يشتري والذي ماعنده سلاح يشتري وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا بواريد والسلاح صار عند جميع الناس »(٧٢) .

تموين الاسرة وغذاؤها :

ومن حيث التموين فقد اكتفت الاسرة ذاتيا وامنت لنفسها معظم احتياجاتها .

نظرا لكثرة عدد افرادها ، فزودت نفسها باللحم والبيض والحليب والالبان ومشتقاتها، واهتمت بتربية المواشي والطيور الداجنة . ويذكر الصايغ ان الفلاحين كانوا يؤمنون لانفسهم « جميع الفحم والحطب والجاج والبيض والزبدة واللبن والحليب والعنب والتين وأكثر الفواكي من عندهم كذلك جميع ألذي يفيض عنهم من حبوب بعد مونتهم يبيعونه الى اهل البلد والمدينة ، من كامل اجناس الحبوب حتى البصل والتوم وجميع الماكولات والعسل والشمع وكثير اشيا » (٧٣) . وزرعت الاسرة المحصولات التي تحتاجها في غذائها اليومي ، كالقمح والشعير لتامين الدقيق ، وصنعت من القمح البرغل الذي نادرا ما خلت منه وجباتها . وزرعت العدس وصنعت منه الحساء او اضافته الى البرغل (مجدرة)(٧٤) . وزرعت الحمص والذرة البيضاء التي كانت اساسية في غذائها .

وسعت الاسرة لتامين حاجة ماشيتها في فصل الشتاء من التبن والعلف، فزرعت بعض انواع من البقول ، وفي الغوطة زرعت الفصة والبرسيم لهذه الغاية ، والفول لتاكله اخضر ويابسا والخروع لاستخراج زيته اللازم للانارة ليلا ، واستخدمت في بعض الاحيان زيت الزيتون او الشحوم وحتى زيت بذر المشمش للانارة . بالاضافة الى ذلك قام الفلاحون بتربية الحيوانات المختلفة للاستفادة منها ، كالجمال والخيول والحمير للركوب والنقل والحراثة ، والحمام والدجاج والاوز والبط للاستفادة من لحومها وريشها وبيضها . وملكوا الثيران للحراثة والجر ، واستخدموها في جر عربات النقل والتحميل ، لانها اصلح الحيوانات في جر العربات على الطرقات والاراضي آنئذ(٧٥) . وقاموا بتربية الابقار التي اختلفت انواعها ما بين الغوطة وحوران والجولان وجبال القلمون ، وعهدوا برعيها الى رعاة من القرية ، أو ربيت في بساتين الغوطة . أما الاغنام والماعز، فعهدوا بتربيتها الى رعاة او الى البدو او بعض الاكراد الذين اتقنوا هذ الحرفة وكان ذلك مقابل اجرة عينية كالحبوب ، او جزء من انتاجها (حليب ــ خراف ــ صوف) .

وقامت النساء بدعم الوجبات الغذائية للاسرة بالسعي في الحقول والبراري لقطف الاعشاب التي كانت تؤكل نيئة او مطبوخة ، لوحدها او مع الخبز والبرغل ، فشكلت جانبا من غذاء الاسرة ، اضافة الى ما انتجته الاسرة من الفواكه والثمار ، كالزيتون والعنب والتين والرمان والمشمش والاجاص والجنرك وغيرها(٧٦) . واختلف ذلك من مقاطعة الى اخرى . وكان فلاحو الغوطة أكثر غنى بالفواكه من فلاحي المقاطعات الاخرى نظرا لخصب تربة الغوطة وري بساتينها المستديم ، واعتدال مناخها . وحصل الفلاحون على ملح الطعام من جيرود (ما بين دمشق والقريتين) ومن الملاحات المحلية

الشامية (جبول وتدمر)، وحصل فلاحو حوران على ملحهم من عكا . واستخدم الفلاحون الملح في صنع الطعام والخبز وفي حفظ الجلود .

وقام فلاحو الغوطة بتأمين حاجتهم من زيت الزيتون مما زرعوه في اراضيهم . اما فلاحو حوران فاستوردوه من عجلون . وزرع الفلاحون البطيخ والمقاثي في حوران والمناطق المحيطة بدمشق(٧٧) ، وحصلوا على البلح من متاجر دمشق ومن القوافل التجارية التي عبرت مناطقهم ومن البدو الرحل الذين اندفعوا في فصول معينة من السنة باتجاه قراهم . ومن البائعين الجوالين في القرى .

اما السكر والقهوة والرز فكانت من الكماليات ، فاستوردت القهوة من اليمن عن طريق القوافل التجارية حتى القرن الثامن عشر ،وبعدذلك بدات الدول الاوربية (فرنسا انكلترا) تصدرها الى بلاد الشام . واستورد الرز من مصر وكان غالي الثمن* بحيث كان ثمن الكيلو غرام الواحد يعادل ثمن ١٠ كيلو غرام من القمح ، وكان يقدم للضيوف وللفلاحين في مضافات الشيوخ خاصة ، ولا تأكله سوى الاسر الغنية لارتفاع اسعاره. ولما كان السكر معتبرا من اعظم المصادر الغذائية في توفير الطاقة للجسم ، فقد ظل تناوله حتى القرن السادس عشر في اوربا مقرونا بالترف ، واستمرت هذه النظرة اليه في بلاد الشام بعد ذلك بثلاثة قرون وظل معتبرا من الاصناف الغذائية الكمالية حتى النصف الاول من القرن العشرين . وعلى الرغم من ان بلاد الشام كانت مصدر زراعته ونقل عنها الى اوربا خلال الحروب الصليبية ، الا ان زراعته في بلاد الشام زالت ولم تعد للظهور الا في اواخر القرن التاسع عشر ، واعتمد اهلها في استهلاكه على ما تصدره بريطانيا وفرنسا وعلى ما استوردوه من مصر . واستخدم سكان ريف دمشق وفقراؤها بديلا عنه الدبس او رب العنب والخرنوب والعسل ، وكانت الاسر تبتاعه من اسواق دمشق او من الباعة المتجولين في الريف .

وكان احتساء القهوة محدودا حتى القرن التاسع عشر بالنسبة للعامة في المدينة والريف ، واقتصر على تقديم المر منها في المضافات ، وبقي احتساؤها في دمشق بشكل سري نظرا لتشدد بعض العلماء والسلطات العثمانية في منعها ، ودام الحال كذلك الى ان اصدرت هذه السلطات بلاغا باباحة شربها علنا(٧٨) ، فاصبح الناس يشربونها في متنزهاتهم ومجالسهم ، واصبح لشربها تقاليد اجتماعية معتبرة(٧٩) .

ولقد اتصف غذاء الاسرة الريفية بالرتابة وقلة التغيير في نوع المآكل . فكان اساس

---

* بيع اردب الارز في ١٨٤٠ في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر : الصايغ ، المصدر السابق ، ص ٨٨ . والاردب ثلاث قفات مصرية .

وجبات الفلاح الحبوب التي صنع من دقيقها الخبز (قمح ـ ذرة بيضاء ـ شعير ـ حمص ـ جلبان) وكانت تطحن في طواحين تدار بقوة الماء . وتولت المرأة عجن الدقيق وخبزه على الصاج او التنور ، ليؤكل مع البرغل او مع بعض الخضار والاعشاب المطبوخة . وطبخ البرغل وحده او مضافا اليه الحمص والعدس او الخضار او بعض الاعشاب البرية . وصنع الفلاحون الفريكة (خاصة في حوران) نظرا لكثرة انتاجهم من القمح، كما صنعوا الحساء من العدس المجروش او الكشك . وزودوا البرغل او الحساء بالزيت والسمن او الزبدة ومقلي البصل احيانا . كما اعتمدت الاسرة الفلاحية في غذائها على الالبان بعد توالد المواشي ، فصنعت من الحليب السمن والزبدة والجبن واضافت الرائب منه الى مطبوخ الذرة او البرغل ، وصنعت منه الكشك ليؤكل في فصل الشتاء خاصة . وتموّنت بالدبس والزيت والتين المجفف ، وبالمقددات والجبن والزيتون والمخللات والمكاديس وغيرها .

اما اللحوم فلا يرد ذكرها في وجبات الاسرة الريفية آنئذ الا في المناسبات ، كالاعياد ، وبعض الافراح وايفاء النذور ، فيتقاسم الاهل لحم الذبيحة ،ولهذا الغرض قامت بعض الاسر الفلاحية (في جبل لبنان والقلمون وغيرهما) بتربية بعض الخواريف وتسمينها لتذبح في تشرين وتحفظ على شكل (قاورما) وكان يفرز اللحم الاحمر ثم الدهن والشحم ويقلى ويوضع بعد ذلك في (مسامن) لتؤكل (مسمنة) بعد اخرى، عوضا عن اللحم الطازج الغالي الثمن والنادر الوجود في القرية آنذاك(٨٠) .

وقامت المرأة بدور رئيس في تموين الاسرة ، فهي التي كانت تشرف على تربية الدواجن وجمع بيضها وتحلب المواشي وتروب الحليب وتستخرج السمن والقريشة وتصنع الكشك وتنسج الصوف والقطن ، وتدبغ الجلود في بعض الاحيان ، وتنسج البسط والخيام .

وقايضت الاسرة بمنتجاتها للحصول على ما تحتاجه من البائعين ، وفي الاسواق الاسبوعية التي كانت تعقد في القرية او الخانات القريبة والبازارات ، ودفعت مايترتب عليها من الضرائب في بعض الاحيان عينا من منتجاتها(٨١) .

ولقد اجمع الرحالة الذين زاروا حوران على ان سكانها كانوا يعيشون حياة شظف وكانوا قانعين في شؤون مآكلهم ومشربهم . وحتى الاغنياء منهم كانوا يعيشون حياة فقرائهم ، ولا يتجلى ثراؤهم الا في اكرام ضيوفهم . ويقول بوركهارت لقداقتصرت الاسر الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم وكان خبزها من دقيق الشعير بدلا من القمح ، كما اقتصرت في تناولها اللحم على مرتين في العام(٨٢) .

اما فيما يتعلق بتأمين مياه الشرب فقد اختلف الوضع من قرية الى اخرى، وبحسب وفرة المياه ومصدرها صيفا وشتاء (كالانهار او الينابيع والابار وبرك مياه الامطار وغيرها) . ولقد اوكلت مهمة جلب المياه من مصادرها الى النسـاء ،واستعملن في جلبه الاواني الفخارية وغيرها ، وكان الزير ابرز الاواني الفخارية التي استخدمت في حفظه ، وهو عبارة عن اناء كبير يوضع في ساحة الدار في مكان مخصص ويملأبالماء ويغرف منه بقصعات عند الحاجة(٨٣) كما في قرى حوران والقلمون . وكانت مهمـة الزير تبريد الماء عن طريق الارشاح والبخر ، ويرسب العوالق به . وكان فلاحو حوران يستوردون اوانيهم الفخارية من راشيا(٨٤) ، الواقعة في سفوح جبل الشيخ الشمالية الغربيـــة .

ازياء ابناء ريف دمشق(٨٥) :

حافظ الريفيون على ازيائهم الموروثة أكثر مما فعل ابناء مدينة دمشق ، ربمـا يعود ذلك لعزلتهم النسبية عن المؤثرات الوافدة ، وقد لعبت عوامل عديدة دورها في رسم تلك الازياء وفي مقدمتها الظروف الطبيعية والمناخية والتاريخية المتعددة ،والنظرة للحياة والحس الجمالي ، والمعتقدات الدينية ، فلا غرابة اذا ما صمدت تلك الازياء في وجه طغيان المؤثرات الغربية فبقيت حتى القرن العشرين ، وما زلنا نراها في بعض قرى الشام . وقد تعددت تلك الازياء وقصرت المصادر عن ذكر تفصيلاتها ، ولهذا سنقتصر على اهمها لدى الجنسين .

زي الرجال في الريف : تألف لباس الجزء للرجال من القميص والصدرية والميتان والقطشية . ولا تختلف هذه الثياب في خطوطها العامة عما كان يلبسه المعاصرون من أبناء مدينة دمشق(٨٦) . وكانت السراويل لباس الوسط الى الكاحلين . وصنعت تلك الثياب من الجوخ او القطن . اما الجوخ فكان بلون غامق او اســود او ازرق او بني او (بيج) أو ابيض(٨٧) .

وهناك الشال او الزنار الذي كان يلبسه اهـل القلمـون . والتسمية فارسية الاصل . وهو من قماش الموصلين أو الصوف ،وكان يبطن ويطوى بشكل مائل ويلف حول الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياته من الامام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائما ، وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف ويلف حول الخصر بصورة أعرض كثيرا أو قليلا عما كان يفعله جنود الانكشارية ، وله قيمته الفنية والجمالية، مما جعله في مقدمة الثياب وجاهة ، فيلبس في المناسبات والافراح ، ويرتديه اغنيـاء الريف ، وبه رسوم نباتية وهندسية وحيوانية . أما لونه فكان احمر او اخضر او بنيا

او أسود (٨٨) . وكانت بعض زنانير اهل الجبال تصنع من الصوف الناعم الرقيق (الكشمير) . وهناك الكمر الذي صنع من القطن وكانت له (أهداب) ، وتحزم به النساء ثيابهن(٨٩) . أما غطاء الرأس فكان يختلف ما بين مقاطعة واخرى . ففي جبل العرب كان رجال الدين يرتدون تربانا حوله شاش ابيض ، في حين كان أفراد العامة يرتدون الكوفية(٩٠) وتستخدم فوق العرقية او الطاقية وتثبت بالعقال . وتمايزت الكوفية احيانا بين قرية واخرى من حيث لونها واهدابها وتطريزها ، ففي جبعدين وحلبون وبعض القرى المجاورة لوادي بردى كعين الفيجة كانت لها اهداب (شراشيب) ، وكانت تطرز بالخيوط الحريرية الذهبية وتسمى حينئذ بالاغباني . وكان فلاحو الغوطة يضعونها مباشرة على الراس لتقيهم من الحر والبرد . اما العقال الذي كان يثبتها على الرأس فكان عبارة عن طارة كبيرة بدائرتين متقاطعتين ، وله من الخلف دلاية تنتهي من الاسفل بطرتين صغيرتين على شكل هلال فتحته الى الاسفل ، ويرتبط وجودهما أما بعقائد سحيقة في القدم اوبتقاليد اجتماعية او طبقية .وكانابناء الجبال يرتدونه فوق الحطة(٩١) . واستعمل ابناء حوران عقالا من وبر الجمال (٩٢) . وحل الطربوش في غوطة دمشق بعد عهد التنظيمات محلها(٩٣) .

وكان من ثياب الفلاحين العباءة ، وجاءت فوق ثيابهم جميعها ومنها أنواع ، كالعباءة الجبلية عند سكان المرتفعات وتسمى الزنارية او الحمراء او الدفية او المشلح او البشت ، وهي تختلف عن العباءة التقليدية الواسعة المعروفة عند اعراب البادية ، كما تختلف ايضا عما كانت لدى ابناء جبل حوران ، وتعود في جذورها الى اصول اشورية وفارسية قديمة . وكان قماشها خشنا وينسج من شعر الماعز المبروم أو من الصوف المحلي على انوال صغيرة يدوية من الخشب ، وقوامها قصير لايكاد يغطي ركبتي الرجل ، واكمامها قصيرة ايضا لاتتعدى المرفقين . وهي ضيقة التفصيلبحيث لا تتلامس أطرافها من الامام الا قليلا ، وخالية من العروات او الازرار ، ولهذا كانت تحزم من الوسط بشريطين صغيرين ، او بزنار رفيع لئلا تعيق صاحبها عن العمل ، وكانت تترك مفتوحة سائبة في الحالات العادية والاعياد والاحتفالات .

والاصل في هذه العباءة ان تكون مخططة بالابيض والاسود او البني باقلامطويلة متوالية ، وهذا النوع قديم جدا خصص للعمل لدى المزارعين والرعاة، وسمي لديهم بالعباية الدفية ، في حين كانت عباءة العيد والاحتفالات حمراءَ او زرقاء مطرزة بالابرة بصورة جميلة جدا بخيوط من القصباوبالالوان المختلفة وباشكال هندسية رائعة ربما رمزت الى معان تفاؤلية قديمة ، وتنحصر الزخارف على الكتفين والصدر ، واجملها على الظهر (٩٤) .

وتختلف عباءة جبل حوران عما ذكرناه ، كما تختلف عن عباءة البدو ، وكانت مصنوعة من الجوخ الاسود طويلةمتهدلة تصل الى القدمين بأكمام ضيقة وهي من النوع المتصالب الذي يردف فيه الطرف الواحد على الاخر من الامام ، ولها اشرطة امامية من نفس القماش تشبه السقايف في فروة البدو وتستخدم لتثبيتها على الكتفين(٩٥) .

وفي الجبال المحيطة بدمشق كان بعض الرعاة من الاكراد يتميزون بزيهم الخاص الذي كان أقرب الى زي البدو(٩٦) .

وكان ابناء الريف في الشتاء يلفون ارجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي، ويلبسون في اقدامهم حذاء عالي العنق يثقل السير الا انه يوفر الدفء . وكان الجنود العثمانيون يستخدمون النوع الاول من القماش او الجلد ويطلق عليه اسم « الطماق » . وتعددت أنواع الاحذية الجلدية التي استخدمها الريفيون فكان منها الملون وغير الملون، واهمها : الخف والنعل والشاروخ والمداس والمركوب والبابوج والقندرة والجزمة واليمنية والسرموجة (الزرموجة) والمست والزربول او الزربون أحيانا . وتعددت بعض اسماء الاحذية للمسمى الواحد، واختلفت باختلاف المناطق والقرى . وصنعت الاحذية في اماكن مختلفة وفي مدينة دمشق كانت لها اسواق خاصة كالزرابلية والجزماتية ، وما صنع منها في ميدان الحصى كان من النوع الرديء ولون جلدهأبرش اقرب الى الصفار ، وكان مفضلا لدى فلاحي حوران نساء ورجالا (٩٧) . ولعل احسن ما صنع من الاحذية هو مايسمىبالفارسية (السرموزة) . وكانت تسمىقديما المركوب ، وكان الرعاة يلبسويه في أعالي الجبال . وكذلك الزربون (الزربول) وهو نوع من الاحذية المكسية الىما فوق مشط القدم ، حادة الرأس شكلها كالجندول مرتفعة مع نعل كثيف يتحمل وعورة الارض وقسوتها(٩٨) . اما الصرماية فهي حمراء اللون بدائر دون كعب ، ومنها صنف سمي (بالحلبي) يلبسه أهل المدن في حين يرتدي الريفيون نوعا اخر يسمى (نصف كشفة) . واستخدم الريفيون أيضا القباقيب على نطاق ضيق وضمن البيوت او أزقة القرى ،وسار بعضهم حفاة كما فيقرى حوران(٩٩) . وكانت ثياب اهل حوران ، مسيحين ومسلمين ، متشابهة وقريبة من ثياب البدو وتتكون من قنباز ورداء مصنوع من قماش القطن الابيض الخشن ، ويعتمرون بالكوفية والعقال « بريم » وفوق ثيابهم العباءة يلفونها فوق الكتفين . اما صدورهم فكانت عارية ويطلقون لحاهم ، ويستخدمون الكحل لتزيين رموش العين رجالا ونساء(١٠٠) . وسجلات محاكم القسمة في دمشق مليئة بتركات عدد كبير من الفلاحين ، واكثر مايستر عي انتباهنا في تركاتهم قلة ما خلفوه من ثياب اذا ماقيس بتركاتهم من الدور والبساتين والاراضي والدراهم ، مما يدل على عدم اكتراث الفلاحين بهندامهم وثيابهم

من جهة ، وكي لا يصبحوا محط انظار الطامعين من رجال السلطة من جهة اخرى. مثال ذلك ما خلفهاحد فلاحي قرية شبعة وهو مصطفى بن عبد القادر المتوفى سنة ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ ـ ١٧٨٤ م وكانت تركته مكونة من « ٢٨٥٠٠ قرش في حين لم تتجاوز تركته من الثياب سوى العنتري ديما وقميص رقيق وشالة(١٠١). ثم احمد بشة بن عمر التلي من اهالي قرية زبدين المتوفى سنة ١١١٩ هـ / ١٧٨٤ـ١٧٨٥ م كانت تركته تقدر بعشرات الالوف من القروش اما ثيابه فكانت مكونة من جروال جوخ عنتري ولباس ازرق وخنجر بفضه وسكين وخاتم فضة »(١٠٢) .

الا ان شيوخ القرى كان وضعهم مختلفا وغالبا ما كانوا من اغنياء الفلاحين وشكلوا صلة الوصل مع السلطات العثمانية المحلية .وكانوا محط القرى، لهذا كان عليهم الظهور بما يليق بمقامهم ، فاقتنوا الثياب المتعددة والثمينة اذا ما قيست بماكان لدى الفلاح. وشاهدنا على ذلك مخلفات شيخ قرية الكسوة المتوفى سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣ـ١٧٨٤ م التي كانت مكونة من الاتي : « بنش فروة ناقة وجبة فروة ناقة وبنش جوج وجروال جوخ وعنتري الاجة وقميص وزنار وفاس وسيف وطبنجة» بالاضافة الى عدد من رؤوس الخيل والبقر والحمير والاحواش والاراضي(١٠٣) .

اما زي نساء الريف : فقد اتفق مع زي الرجال في بعض جوانبه واختلف عنه من حيث شكل لباس الراس والزركشة والحلي ، كما اختلف زي النساء فيما بينهن مابين الغنية والفقيرة والعازبة والمتزوجة وبين منطقة واخرى . الا ان العام في لباسهن كان: **البدلة** التي صنعت من الجوخ او المخمل الاسود لدى نساء جبال القلمون وجبل حوران ، وتتألف من قطعتين منفصلتين : عليا ضيقة تبعث الدفء ، وسفلى وتسمى (التنورة) عريضة وواسعة لتساعد المراة على المسير . وتزين التنورة من الاسفل برسوم دائرية متوازية او بدروب من المطرزات المتموجة والمتكسرة وبخيوط من الوان تتماشى مع لون الثوب ، وعلى الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية او دروب من المطرزات ذات مواضيع مختلفة كالورود والزهور واهمها شجرة الحياة .

وتضع المراة زنارا من الشال الصوفي(١٠٤) كشال الرجل الذي اشرنا اليه سابقا فوق البدلة ويسمى بالمحزم ، ولم تعن بهذا الشال عناية الرجل فيه وكانت تعقده من الامام او الجانب بدلا من الخلف. ولم يكن لهذا الثوب عموما فتحة عند الصدر كما في قرى القلمون ، في حين وجدت هذه الفتحة في وادي بردى مستديرة الشكل واسعة بحيث تبرز ثديي المراة . وتغطي المراة ثوبها الرئيسي من الامام بواقية نصفية لها تسميات مختلفة بحسب المناطق، منها مملوك او مريول او فوقية او حضنية او قدامية او دراية ، كما في جبل حوران وحماه وحمص (١٠٥) .

الدراعة وكانت المرأة ترتديها فوق البدلة عند الخروج بعيدا عن دارها . وهي عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الامام له فتحتان جانبيتان في قسمه السفلي يتراوح طولهما بين ٣٠ـ٧٠ سم وقلما تصلان الى الخصر ، وتطرز الدراعة بزخارف وموضوعات نباتية وهندسية على الكتفين والكمين والظهر بصورة عامة ، وهذا الثوب الاضافي قصير نسبيا ليسمح للبدلة الرئيسية بالظهور من الاسفل وضيق لا يتلامس طرفاه الاماميان الا بواسطة اشرطة او زنار او ازرار . اما قماشها فمن الجوخ كما في حوران او من الخام البلدي المصبوغ بالازرق المطرز بزخارف هندسية ملونة كما في قرية التواني (من القلمون) ، او من المخمل المطرز بالقصب كما في القلمون التحتاني (القطيفة والرحيبة والمعضمية) وسميت الدراعة في القلمون وارباض دمشق « بالمدربية »(١٠٦) .

القطشية وكانت من ثياب المرأة في ريف دمشق عامة بسهوله وجباله ترتديها فوق ثوبها الرئيسي الطويل . وهي من لباس الجزع الا انها نصفية من الامام عريضة وواسعة وذات اكمام طويلة في غاية الروعة ، ولم يكن لها ازرار فتبقى مفتوحة على الدوام ، وتزين بزخارف كثيرة ومطرزات ، ويرتديها الجنسان باعتزاز لا سيما (العرسان والشباب) .ولبسها المعذب في مضافة ابيه بكل تيه فوق سراويله وصدريته وميتانة وشالته وهو يقدم القهوة المرة والنراجيل للحاضرين كاجمل لباس لاجمل مناسبة . وكانت العروس في هذه المناطق تتزين بها فوق ثيابها لاسيما يوم زفافها .

وهناك قطشية العمل وهي بسيطة دون زخارف او تقتصر زخارفها على دروب من الخلف باشكال هندسية . وهي متوسطة الطول وذات لون اسود عموما .

القبعة او القباء او الكب او الشرش ، وكان من ثياب المرأة في حوران والجولان والمرج شرقي غوطة دمشق وفي البادية . وهي قديمة في المنطقة وتتألف من قطعة قماش مستطيلة الشكل تثنى عند تفصيلها نصفين متساويين بحيث يغطي كل جزء النصف الاخر تماما . ثم تخاط الاطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتان لتخاط فيهما الأكمام . ويفتح ضلع المستطيل من الاعلى على شكل دائرة ضيقة او على شكل العدد ٧ من الامام ، وذلك حسب مناخ وتقاليد كل منطقة ، ليدخل منها الرأس والعنق . وتطرز فتحة الصدر هذه بشريط من الزخارف الهندسية او من الورود والزهور الملونة ، وكذلك الظهر والكتفان والكمان وحواشي الثوب السفلى . ويطرز الظهر غالبا بمثلث قاعدته الى الاعلى وراسه الى الاسفل او بالعكس . وقد يكون ضلعا هذا المثلث مسنسنين على شكل هرم مدرج . وكان هذا النوع منتشرا في بلاد الشام ولونه اسود ، ومن نسيج القطن او الخام البلدي المصبوغ محليا ، أو من الحرير مع المبالغة في المطرزات الهندسية الملونة

كلما اتجهنا نحو الشمال السوري . أما الالوان المستخدمة في خيوط التطريز في القبعة ، فهي الاصفر والبرتقالي والاخضر والبنفسجي وغيرها . وكان القباء في حوران والجولان من الحرير والاطلس اللامع او الجوخ او المخمل بلون اسود ، وقد يكون ازرق اللون قاتما مع اساور بيضاء من نفس القماش في أعلى الكمين على الطريقة الفرعونية القديمة . وتقتصر المطرزات الهندسية هنا على الياقة والحوافي السفلى للثوب وعلى طرفي الاكمام كما في بصرى الشام ، ويسمى هناك بالشرش او الثوب . وفي القلمون التحتاني كان هذا الثوب من الخام الابيض المقصور او الازرق مع اردان طويلة مثلثة الشكل ومطرزات على غاية من الدقة والاتقان وباشكال هندسية والوان غامقة تشغل مقدمة الثوب والاردان معا ، وكانت تطلق اثناء تفتيلة العروس وترسل على الكتفين وتعقد على الظهر ، وتطرز العروس هذا الثوب قبل الزفاف بابرتها ويستغرق ذلك مدة طويلة ، تعاونها فيه صديقاتها وقريباتها ممن اشتهرن بالدقة والمهارة . وتنسجم مواضيع المطرزات مع موضوع الزواج عامة اذ تتضمن معاني تفاؤلية او وفائية خدمة للعريسين في حياتهما الجديدة(١٠٧) .

وكانت المرأة ترتدي فوقها اما قطشية عادية او مزركشة في الجبال او الدراعة كما في حوران وتسمى البيرمية (لفظة تركية تعني العيدية)(١٠٨) لكونهـا تلبس في المناسبات المفرحة كالاعياد والاعراس .

وهناك ثياب داخلية كانت ترتديها نساء ريف دمشق (في السهول والجبال) وهي كثرة وثقيلة منها ثوب عريض أو ثوبان متشابهان باتيان مباشرة بعد الاثواب الخارجية يليهما قميص نصفي عريض وطويل يدخل ضمن سروال طويل ضيق او عريض يصل الى اسفل القدمين ويعقد بتكة ويمسى (الشنتيان أو الجنتيان) ، وهو كسوة الجسد من الوسط الى الكاحلين ويسمى سروالا او شنتيانا او شلوارا أو جنتيانا او شخشيرا أو لباسا(١٠٩) ، تثبته المرأة بدكة تربط من الخلف على وسطها ليوفر الدفء لها ويغطي ساقيها ، ويكون مطرزا في الاسفل في بعض الاحيان بموضوعات هندسية تتناسب مع لونه عامة كما في قرى القلمون .

الزنار النسائي : لتوفير الدفء والزينة ، ولحزم الثوب الرئيس من الداخل او الدراعة من الخارج . وهو على أنواع وله تسميات مختلفة : الشالة العجمية التي استخدمتها نساء القلمون كما في قريتي صيدنايا وركوس ، كما استخدمت بعض النساء في منتصف القرن التاسع عشر الشالة الانكليزية كما في قرى الغوطة(١١٠) . والشالة الملونة وكانت من الحرير المقلم بالوان كثيرة طويلة استعملتها العروس والشابات آنئذ والكمر من الصوف بطول ٤ـ٥ امتار وبعرض ١٠ـ١٢سم ، ويلون بأقلام افقية حمراء

وســوداء وخضــراء وتنتهي اطرأفــه بهــداب بالالــوان نفسهــا ، كما في سهــول دمشق (حران العواميد) . والحزام الفضي او الذهبي واختصت به العروس والمرأة الفنية عموما ، وهو سلك فضي رقيق يتراوح عرضه بين ٥-٧ سم وله قفــل جميــل من الامام بزخارف متنوعة مصاغة بأسلاك رقيعة من الفضة الملتفة والمرصعة بالاحجار الكريمة المختلفة كالفيروز والياقوت(١١١) . ويعقد الزنار القماشي من احد الجانبين او من الامام لتهتز هدابه أثناء السير(١١٢) .

اما زي راس المرأة الريفية آنئذ فكان متنوعا وبأشكال مختلفة نتيجة لتنوع الموروث التاريخي ، فكان منه مايعود في أصوله الى الكنعانيين والاشوريين والحثيين ، والمصريين وبلاد مابين النهرين ، والفرس واليونان والرومان ، وقد اختلف من منطقة الى اخرى من حيث تزينيه واستخدام المجوهرات والمصاغ في ذلك ، ومن حيث شكل العمائــم من اسطوانية ومخروطية . والنوع الاخير كان محببا للنساء لانه يزيد من طول المرأة ورشاقتها فتلبسها بنوع من الزهو وتلف فوقها طرحة شفافة، كما في قرى القلمون وحوران .

الطاقية : وهي مستديرة الشكل بيضاء او حمراء وتسمى (عرقية) توضــع مباشرة على الراس ويلف في طرفها السفلي عند الجبهة صف من الفوازي العثمانيــة الذهبية(١١٣) وتسمى (شك او صفية) . وكانت الغاية من الطاقية تثبيــت العمامة وامتصاص العرق . والتربان او الطرطور الذي استخدمته نساء جبل العرب وجبل لبنان ، وبعض القرى المحيطة بدمشق .

العصبة : وهي قطعة مربعة الشكل من القطن او الحرير ، ذات لون اسود او بني او خمري ، مطعمة بالخيوط الذهبية او الفضية في خطوط مستقيمة او بزخارف نباتية ولها هداب على جميع أطرافها ، تطوى باتجاه احد القطرين بصورة مسننة ، وقــد تطبق بانتظام حول الراس دورين او اكثر بحيث تظهر صفية الفوازي متدليــة على الجبين وخيوط القصب واضحة من الامام . ثم تعقد اطرافها من الخلف كأكثر مناطــق دمشق أو من الامام كما لدى نساء قرية زاكية ، أو على احد الجانبين كنساء قريــة يبرود ويخعة(١١٤) . ولقد سعت اكثر النساء لجعل العصبة عريضة من الامام لتستوعب مجموعات المصاغ الفضي والذهبي ، الذي يعكس في بريقه الاضــواء والانــوار على وجوههن ، فيزيدهن سحرا وجاذبية . وكانت العصبة تبطن من الداخل بحيث يبلــغ وزنها الكيلو غرامين وقد توضع ضمن ثنياتها بعض الحشيات من الخروق ليبدو شكل الرأس أكثر كبرا وفخامة ، مما يزيدها جمالا ومهابة . وفي جبل العرب تحولت العصبة الى طربوش أحمر طري تثبت على أطرافه السفلى والعليا صفيات الفوازي ، وينتهي في

اعلاه بقرص ذهبي او فضي مصاغ بمواضيع زخرفية باسلاك فضية ملتفة حول نفسها بدوائر متناظرة ، وهذا مايسمى عند الصياغ بطريقة (كسر جفت) .

ويصف احد الرحالة الاجانب وهو (لين Lane، الذي زار مصر سنة ١٨٣٦ م فيقول : « ان النساء المصريات يلبسن على رؤوسهن طربوشا يلف حوله قماش او شال من الكشمير ، ويثبت عليه احيانا قرص من الفضة أو الذهب ، ربما يدل على ان بنات جبل العرب قد توارثنه من عهد الفاطميين » . وقد تطورت هذه العصبة الضخمة فيما بعد في قرى وادي بردى ووادي تل منين وبعض قرى القلمون ،كالنبك، الى شاشية رقيقة شفافة يعصب بها الجبين من الامام وعليها رسوم نباتية مختلفة(١١٥) .

الطرحة : وهي غطاء رقيق مؤلف من قطعة مستطيلةالشكل تسبل فوق العصبة فتغطيها كليا أو جزئيا ، ويردف قسم منها الى الخلف ليلف به العنق وجزء من الوجه والكتفين . وقد تطول الطرحة عدة أمتار فتلف العنق وتردف الى الخلف حتى تصل الى الارض ثم ترفع الى الاعلى وتعلق بواسطة زنار المراة كما في بعض قرى القلمون مثل يبرود وبخعة . وهي بيضاء في جبل العرب ووادي بردى وبعض قرى القلمون كالنبك والقطيفة ، وقد يكون لونها خليطا بين الاسود والبني ، كما في معلولا وعين التينة ورنكوس وغيرها من ريف دمشق . وفي بعض الاحيان كانت المراة تكتفي بوضع لفاح اسود على الراس مباشرة يلف العنق وله طرر او هداب على اطرافه ، كما في جيرود وصيدنايا . وقد يكون من الصوف البلدي المشغول بسنارة واحدة ، ويسمى صوفية، كما في النبك ، وتكون سوداء او بلون الصوف . وقد تكون الطرحة من الحرير الطبيعي وتحاك بسنارة وتزين أطرافها وتسمى هذه بالقزية وتكون سكرية اللون(١١٦) .

الشنبر وهو منديل حرير اسود اللون مستطيل طوله متران أو أكثر وعرضه بين ٥٠-٦٠ سم يطرح على الرأس مباشرة فيلف شعر الراس والعنق والصدر ، ثم يردف الى الخلف فيغطي النقرة وتتنزل اطرافه ذوات اللون الاحمر تحت ثوب المراة الرئيسي المسمى (بالشرش) كما في حوران وغيرها .

العصبة كانت الغاية من لبسها على الراس حماية الراس من حر الشمس والعينين من الغبار الشديد ، لهذا تكون كثيفة وعريضة من الامام لتسمح بوضع قطع الحلي بصورة ظاهرة ، وتوضع العصبة فوق الشنبر مباشرة . وكانت في هضبة الجولان والجيدور بلون خمري مبرومة كالعقال ومقصبة بخيوط من الفضة ، وتسمى في حوران « بالعصابة » وتكون طويلة من القطن وذات لون اسود تعقد عند مؤخرة الراس بحيث يتدلى طرفها المثلث الشكل الى الاسفل(١١٧) .

الحلي : كان اهتمام نساء الريف بالحلي متفاوتا تبعا لوضعهم الاقتصادي والاجتماعي . صيغ الحلي من الذهب او الفضة وطعم احيانا بالحجارة الكريمة ، كما دخلت فيه قطع النقد المتداول آنذاك ، ذهبية وفضية . وقد تنوعت اشكاله واغراضه، فكان منه حلي الرأس والاذنين والانف والعنق والصدر والمعصم والاصابع والوسط والكاحل . وأهم الحلي التي ورد ذكرها في سجلات القسمة المختلفة هي :

العرجة وكانت زينة لراس المراة . وهي عبارة عن طاقية من الفضة ذات سلسلتين عريضتين متقابلتين بعرض يتراوح بين ٤ـ٥ سم ، تتدلى منها ثريات فضية تتارجح على جبينها بشكل اللوزة(١١٨) وترمز الى الماء والنماء والخصب والخير ، عسى ان تلاقيه في حياتها . وفي مؤخرة الطاقية شريط من القماش المزركش والمطرز بالالوان المختلفة مشغول بالابرة تعلق فيه قطع النقد الفضية ، وتغطى هذه العصبة عادة نقرة العروس او المراة ، وتخرج من اسفلها دلاية من القماش المزخرف ايضا، شبيهة بالقطعة السابقة بعرض ١٠ سم تقريبا تتدلى على الظهر حيث تعلق فيها مجموعة من الريالات، العثمانية (المجيدي) ، وتكون عادة بعدد فردي ، ويحمل اخر ريال منها من الاسفل خمس قطع من النقود الفضية الصغيرة. يلي ذلك طرر حريرية ملونة ملتفة مرسلة، وكانت تستعملها نساء منطقة المرج شرقي الغوطة وحوران(١١٩) .

القلادة وهي طوق من الفضة تضعه المراة في جيدها ويتدلى على صدرها ، ويتألف من سلسلة واحدة او سلسلتين تعلق فيهما قطع مختلفة من النقود الفضية القديمة وتخرج من كل منها عدة دلايات تحمل كل واحدة بدورها قطعة نقدية صغيرة. وتحوى القلادة عدة سلاسل تحمل بدورها نقودا فضية بشكل القلب او اللوزة او الهلال او القرون او الاجراس ، وهي من حلي نساء القلمون بشكل عام .

الشكل وكانت من اجمل حلي الفضة آنئذ وتعتبر آية في فن الصياغة السورية ، وتعود في أصولها الى الاشوريين ، وكانت ترى في معظم مناطق ريف دمشق والمقاطعات التابعة لها .

الخلخال : زينت المراة به ساقها وعضدها احيانا ، وكان من الذهب أو الفضة وسمي (بالحجول) واضيف اليه أجراس للاطفال المدللين .

اما القرص المستدير فكان من حلي نساء جبل العرب يضعنه فوق طربوش احمر ، وكان من الفضة او الذهب وبه زخارف من اسلاك الفضة ملتفة على نفسها بدوائر تؤلف في مجموعها موضوعا فنيا رائعا يعود في جذوره الى الفاطميين في مصر(١٢٠) .

وهناك بالاضافة الى ذلك ، الحجاب(١٢١) على الوجه من الفضة ، او الجدادة او الزيبقلية .

اما ما يتعلق بلباس القدمين فلم يختلف لدى المراة عنه عند الرجل بصوره عامة ، فنعله مزدوج ليقاوم وعورة الارض ووجهه من الجلد الاحمر او الاسود او المائل الى الصفرة قليلا . وكانت النساء ينسجن القلشين ليلبسنه في الشتاء .

ومن احذية الفلاحين الصرماية وكان جلد وجها احمر اللون بدائر ولا كعب لها. ومنها نوع لطيف الشكل يسمى (بنصف كشفة) ، وكذلك نوع أصفر لبسه بعض أهل العلم . وبقيت هذه الصنعة رائجة جدافي الشام (الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر) (١٢٢) . ثم البابوج وله وجه اصفر بلا دائر لبسه اهل العلم وفقراء الطلبة غالباء وبعض النساء العجائز ، وكان على انواع ، فمنه نوع لنساء الفلاحين وهو انواع ايضا حسب عاداتهم بملبوسهم اذ كان لكل قرية طراز يخالف الاخرى(١٢٣) . ومن الاحذية التي لبسها الريفيون المست الاصفر والاسود(١٢٤) ، والجزمة ، وهي ما يلبسه الرجال وتستر الساق . وهي بدون كعب ، والعالي منها كان مفضلا لدى امراء العرب ووجوههم ، جلدها احمر قان وبها طيات امام الساق ، وعلى رأس ساقها المطوي طرة حريرية طويلة لونها ازرق تلتف عليها خيوط من السيم ، وبأسفل قدمها حذوة من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها وهي مثمنة ، والوسط دونها في القيمة والحسن ، والدون لها سوق مخصوص بميدان الحصا يقال له سوق الجزماتية يشتغلون بها الجزمات الدون لون جلدها ابرش والى الصفار اقرب ، يلبسها فلاحو حوران نساء ورجالا واهل تلك الجهات من البدو(١٢٥) .

ولابد من الاشارة الى ان قسما كبيرا من الفلاحين ، نساء ورجالا ، لم تمكنه ظروفه المادية من انتعال الحذاء .

التجميل وادواته : لم يسمح المجتمع آنئذ للفتاة ان تضع على وجهها المساحيق والالوان (الغندرة) حتى ليلة زفافها ، واذا ما فعلت احداهن مثل ذلك كانت تعتبر خارجة على مألوف عاداته وتقاليده ، ويستدعي ذلك ذمها وتأنيبها والشك برصانتها، مما جعل النساء لايعرفن اصول الغندرة حتى اذا ماجاءت مناسبة غندرة الفتاة ، وهي ليلة زفافها ، استخدمت في ذلك كميات كبيرة خرجت عن المعقول وشذت عن القواعد الجمالية . الا ان المجتمع أقر للمراة استخدام اساليب وادوات أعتبرت من الاسس الجمالية والصحية في وقت واحد ، كالوشم تزين به وجهها مبالغة في ذلك لما له عندها من مكانة هامة ، والمواضع المختلفة من جسمها ، فالنقطة الزرقاء في راس الانف مثلا

تسمى (دق) والمثلث المسنن من الخارج بين الحاجبين يدعى (حيجاب) والخط المستقيم بتصف الشفة السفلى هو (رتمة) كما ان الرسوم على طرفي الفم والعينين والذقن وراس الخدين والرسغين وعلى الزند والبطن والساق والظهر لكل منها اسمها ووظيفتها التجميلية او الوقائية او العلاجية .

الحناء ، وكانت المراة تخضب بها يديها وقدميها في مواسم معينة وفي مناسبات خاصة ، كحنة رجب والعيدين وعند الزواج . وكان للحناء اشكال معروفة تسمى كل نقشة باسمها . وشارك الرجل والاطفال النساء في ذلك احيانا ، وجلب هذا الصباغ المسحوق من الهند وهو نوعان الاحمر لليدين والاسود للعجائز يتخذنه صباغا للشعر الشايب . ومن ادوات الزينة الكحل الذي استخدمه الجنسان على حد سواء وهو الاثمد من نوع الالتموان او شحار زيت الزيتون الذي كان يسحق وينخل بشاشة ناعمة جدا ويمزج ببعض الاصبغة العضوية ويوضع بمكحلة فيها ميل رفيع تخطط به العينان والحاجبان ، وكانوا يعتبرونه ذا قيمة تزيينية وطبية اذ يضاعف جمال العينين فيزيدهما اتساعا وصفاء او سوادا فوق البشرة البيضاء ، كما وان الحرارة والغبار الشديد يجعلان منه ضرورة لازمة لانهم كانوا يعتقدون انه يطفيء حرارة الاجفان ويزيد الرجال وقارا ومهابة .

واستخدموا للزينة البراق الناعم (درور) بتثبيته على وجه العروس الريفية ، وكانت تقوم بذلك الماشطة ، وسمي بعرف العرائس، وكان يعطي لوجه العروس تموجات جميلة واستعمل في (بخعة وجبعدين) ، وهما قريتان سريانيتان ، وفي قرية حينة في جبل الشيخ ، وربما كان من اصول آرامية(١٢٦)

وكانت البنات والنساء يطلن شعورهن التي اعتبرت رمزا للجمال، ويجعلنها ضفائر محبوكة بجدائل من الصوف الازرق يرسلنها على ظهورهن . وكانت الثريات منهن يزين جدائلهن بقطع من النقد والفضة المتداولة آنئذ ودام ذلك حتى اواخر القرن التاسع عشر(١٢٧) . وكانت المراة الريفية تحمل في ثنيات ثيابها حاجات خاصة بها ، كالحجب وفيها آيات قرآنية او بعض الادعية والتعاويذ ، في غلاف معدني (فضة أو ذهب) ، وتحمل في بعض الاحيان أطواقا من الخرز الازرق وقطع الشب ، تتوسطها احجار العقيق وناب الذئب وموسى صغيرة وجوزة وترس سلحفاة صغير ، ويحمل كل منها تاريخا لعقائد شعبية قديمة تعود لاقدم العصور ، اضافة الى انواع الخرز ، أو تحمل الاجراس الرمزية وحذوة الحصان ، ومنها ما يمت لمذهب Animisme بصلة الاعتقاد وبرمز الافعى (لباس جلود الحيوانات المفترسة القوية وكلها تعود الى عصر الصيد) وكانت المراة تحمل في تلافيف زنارها دراهمها ومرآتها وابرة الخياطة والكشتبان ، ومفتاح

صندوقها ومفتاح الدار الخشبي . واحيانا انواعا من القضامة والزبيب والتين وغيرها(١٢٨) .

وهكذا بقي المجتمع في بلاد الشام ، والريفي منه بشكل خاص، لم تتبدل اوضاعه في ظل الدولة العثمانية التي حافظت على انماط حياته السابقة دون أي مسعى لتغييرها ، فاناخت عليه بكلكها وابقته رهين عادات عصور الانحطاط ، وفرضت عليه نظاما اقطاعيا جائرا ، ورسخت فيه امراض العصبيات العائلية والعشائرية والاقليمية وغذتها لتحصد عرقه وجهده وماله : مستخدمة في ذلك موظفيها الذين كانوا في معظم الاحيان غرباء عنه ، فعرقوا منه اللحم عن العظم ، ولم تبق له من المقومات ما يتيح له التطور الحضاري مما جعله لايقوى على مقاومة الاستعمار الغربي الذي سيظهر في الفترة اللاحقة ، ويطغى على ممتلكات الدولة العثمانية في المغرب العربي ومشرقه .

الحواشي :

(١) انظر مشاقة ، ميخائيل ، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ص.٣ ، مصر ١٩٠٨م .

(٢) يذكر صاحب « المقترب في حوادث الحضر والعرب » بان الاغا الملتزم يرسل « وراء كبار الضيعة ويقول له انا أعملك شيخ على الضيعة واعزل فلانا ماذا تعطيني ؟ فيرغب التعيس بهـذا الكلام ويدفع الف قرش ام الفين الذي يرتضوا عليه فيعزل الشيخ الحاضر وينصب الجديد . ومـن المعلوم ان الشيخ الذي انعزل من منصبه وترزل لا يسكت ولا يقبل عليه الذل والعار قدام أهـل الضيعة فينزل على البلد ويترامى على الاغا الضمان ويدفع اكثر مما دفع الشيخ الجديد فحينئذ الضمان يعمل ذنب الى الشيخ الجديد ويرجع القديم الى المشيخة ويكون كسب بهذه الحركة مقدار نصف الضمان ، ويوجد من الضمانة الطماعين الذين يعملون هذه الحركة مرتين في السنة». انظر : الصايغ ، فتح الله بن انطون ، ص ٦٧ آ وص ٦٧ب ، (مخطوط) .

(٣) السيوفي ، حبيب ، سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ، ج٢ ، ص ٦٠ ، صيدا ١٩٤٨م

(٤) مشاقة . المصدر السابق ص ٣٠ .

(٥) انظر : حنا ، عبد الله ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان ، القسم الاول، ص ١٢٨، ١٢٨ ، ١٢٩ ، بيروت ١٩٧٥ م.

(٦) انظر : لوتسكي ، فلاديمير ، تاريخ الاقطار العربية الحديث (ترجمة عفيفة البستاني) موسكو ١٩٧١ ، ص ٩ .

(٧) ابن عابدين ، محمد امين ، رد المحتار على الدر المختار ، ج٣ ، ص ٥٣ ،٤٣القاهرة ١٢٩٩هـ.

(٨) يذكر محمد عابدين الذي كان انئذ احد امناء الفتوى في دمشق، ان المفتي محمد خليل المرادي قد استفتي اكثر من مرة بشان مثل هذه الاراضي ، واصدر فتواه في ذلك . انظر رد المحتارعلى الدر المختار ج٥، ص ٢١ . ووجد في غوطة دمشـق نوع من المزارعة في مثـل هـذه الاراضـي اسمها (شد السكة) وكانت الارض تبقي بيد المزارع مدى حياته ويسجل ذلك في سجلات المحاكم دمشق وكان تركها والفراغ عنهالفلاح اخر يتم مقابل مبلغ من المال وعن طريق المحكمة وهذا حق يورث للابناء انظر : السجل رقم ٣٣٦ ، محاكم دمشق ١٢٥٠-١٢٥١هـ ، ص١٤٠ .

(٩) المرادي ، محمد خليل ،سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشـر ، مصر ، بولاق ١٣٠١هـ ، ج٢ ص ٤٣ .

(١٠) المرادي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(١١) انظر : سجل رقم ٢٢١ محاكم دمشق ص ٣٨٢ .

(١٢) انظر : المرادي ، ج٢ ، ص ٢٠٦ .

(١٣) انظر : المرادي ج٢ ص ١٨٢.

(١٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ ١٢٥٠ - ١٢٥٢هـ ، ص ٥٢ القضية بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٥٢ هـ .

(١٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ١٢٥٩/٣٧٨ هـ ص١ .

(١٦) انظر : السجل رقم ٢٥٠/ص١٤ ، ١٣٧/ .وفي سنة ١٢١٧ هـ كان (صوباشيا) على قرية برزة السيد ناجي جوربجي .

(١٧) انظر : السجل رقم ١٢٠١/٢٢١-١٢٠٢ هـ ، ص ٧ ، ٢٨٨ ، ٧٢،٢٨٩ .

(١٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ ، ص ٣٩ ثم سجلها رقم ٣٤١ ، ص ٣٨ .

(١٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ - ١٢١٧هـ ، ص ٢١٧ .

(٢٠) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢١٢/٢٤١ - ١٢١٣هـ ، ص ٤٢.

(٢١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠-١٢١٧هـ ، ص ٧٩ .

(٢٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ - ١٢٠٢هـ ، ص٧٢،٢١٢،٢٤٣،٢٦٩،٣٧٠.

(٢٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠-١٢٢٣هـ ، ص١٤٩ .

(٢٤) القاسمي ، محمد سعيد ، وجمال الدين وخليل العظم ، قاموس الصناعات الشامية ، تحقيق ظافر القاسمي ، جزآن ، باريس ١٩٦٠، ج١ ص٩٦.

(٢٥) المصدر السابق ج١ ص ١٢٨ ، ١٥٥ .

(٢٦) حنا ، المرجع السابق ص ١٢٠ ، ثم القاسمي ، قاموس ، ج١ ص ١٥٦ ، ١٥٣ ، ١٦٨ .

(٢٧) انظر الصايغ ، المقترب ، ٧٠ب ، ٧١ آ .

(٢٨) Burckhardt, J.I., Travel in Syria and Holyland. London 1822, pp. 299-301 .

(٢٩) انظر : خنشت ، يوسف موسى ، طرائف الامس غرائب اليوم ، او صورة من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر ص ٤٨ .

(٣٠) انظر سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨/ص ٣٢ . وكان هناك نوعان من العدان عدان كبير وعدان صغير فمثلا قرية الخيارة كانت ترتوي من نهر الزلف لها عدانان كبير وصغير ، الكبير كل ١٤ يوم نهار الخميس وليلة الجمعة كامل النهر اما عدانها الصغير فكان يوم الجمعة الثانية وليلة السبت نصف النهر ، وكما نرى فقد حدد العدان باحد ايام الاسبوع وساعات من اليوم ، مثال ذلك بستان الزافة من اراضي القنية والحمرية شربه من نهر المعلقات من ماء الخراق ومن الخلخال يوم الاثنين من الفجر الى غروب الشمس في كل اسبوع ومن المعلقات والكلاب نهار الجمعة من الفجر الى غروب الشمس وليلة الاربعاء في خمسة عشر يوما من غروب الشمس الى فجر نهار الخميس انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ ، ص ١٢٩ .

وكذلك اراضي التطابع بالجورة بها اراضي فواكه وزيتون تروى من نهر الانباط عدانان في كل سبعة عشر يوما على نوب اهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله اربعة ايام وثلثا يوم مع لياليها وفي اوائل تشرين السبت من نهر الانباط والاحد من نهر بانياس . انظر : السجل رقم ٣٣٦ محاكم دمشق ، ص ٧٢ كما كان مستاجرو بساتين الوقف في دمشق

والتي كانت تروى من فروع بردى يدفعون للدولة مبلغا من المال مقابل ما يدخل الى بساتينهم من الماء من ماصيـة النهر .

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ١٢٠١-١٢٠٩ هـ ، ص ٤٩ .

(٣١) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٤/ص١٨٩ القضية ٨ محرم ١٢١١هـ ثم ص ٥ من السجل نفسـه .

(٣٢) وهي فروع من بردى مثل : يزيد ، قنوات ، بانياس ، الداراني ، تورا ، العقرباني ،الداعياني، المليحي ، الزبديني ، الزابون ، البيلاني ، الملك ، الشعراني ، الابيض وغيرها . وكان كل واحد من هذه الفروع يروي جهة معينة من غوطة دمشق اما تقسيمها فكان يعود الى عهود قديمة وكان لكل قرية ايام مخصوصة تعرف بالعدان ، انظر : القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية،ج٢، ص ٤٢٩ .

(٣٣) القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ج٢ ، ص ٢٤٣،٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٣٤) انظر : البديري الحلاق ،حوادث دمشق اليومية ، تحقيق احمد عزت عبد الكريم ، القاهـرة ١٩٥٩ ، ص ٧١ .

(٣٥) العبد ، حسن اغا ، تاريخ حسن اغا العبد ، ص ١١٢ ،تحقيق يوسف نعيسة ، دمشق ١٩٧٩ .

(٣٦) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣٧) المصدر السابق . ص ١٢١ .

(٣٨) انظر : العبد ، المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٣٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ ، ص ٢٨٨ .

(٤٠) القاسمي ، المصدر السابق ، ج١ ص ٥٥-ص٥٦.

(٤١) Volney, C.F. **Voyage en Egypt et en Syrie,** 3 vol., Paris 1823, p. 378.

(٤٢) الرافعي ، مصطفى ، الاسلام نظام انساني ، ص ١٢٥ ثم : حنا ، القضية الزراعية ، قسم١، ص ١١٠ .

(٤٣) القاسمي ، المصدر السابق ج٢ ، ص ٣١٠.

(٤٤) حنا ، المرجع السابق ، ص ١٠١ — ١٠٢ ..

(٤٥) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ٩ ، ١٩٢٩م ، ص ٦٤٥-٦٤٦ .

(٤٦) انظر : كرد علي ، محمد ، جباية الشام في الاسلام ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد١ ، ١٩٢١م ، ص ٢٦٥ .

(٤٧) انظر : الوثائق التاريخية في دمشق ، المجلد الثاني ، ص ٣٦-٣٧ ، الوثيقة رقم ٣٠/سنة ١٢٢٥هـ دار الوثائق التاريخية ـ المتحف الوطني بدمشق .

(٤٨) خوري ، فيليب ، مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني ج١ ص٤٥٤ ، ١٩٧٨م .

(٤٩) نفس المرجع ج١ ص ٤٤٩ .

(٥٠) Polk, W.R., The opining of South Libanon, 1788-1840, Harvard univ. Press, 1963, p. 180.

(٥١) انظر: رستم ، اسد ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، بيروت ١٩٣٠-١٩٣٤ المصدر السابق ٣و٤ ص ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٨ .

(٥٢) انظر : الصايغ . فتح الله ابن انطون المقترب في حوادث الحضر العرب . ص ٧٦بص ١٧٧-١٨١ ثم انظر : Polk, op. cit., p226

(٥٣) انظر : رستم ، المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٥٤) رستم ، اسد المصدر السابق ، المجلد ٣-٤ . ص١٥٠-١٥١ . ولقد سكنت /٧٤/ قرية في منطقة حلب وزادت مساحة الاراضي التي غرست بالاشجار او زرعت اراضيها وزاد عدد القرى من ٢٢٨ الى ٦٨٢ ما بين عامي ١٨٢٦-١٨٣٨م ، انظر : Polk. op. cit. p. 168

(٥٥) انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-٤ ص ٢٢٦ . ثم انظر : Polk, op. cit, p. 223

(٥٦) رستم ، المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٥٧) حنا ، القضية الزراعية القسم الاول ، ص ١٠٠ .

(٥٨) رستم ، المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٥٩) انظر سجل محكمة حماه رقم ٥٠/١٢٥٠ - ١٢٦٢ هـ ص ١١١ .

(٦٠) Polk, op. cit , p. 169

(٦١) Ibid., p 223.

(٦٢) انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-٤/ص ١٨٥ .

(٦٣) انظر : حنا ، القضية الزراعية ، ص ١٠٠ . وجاء في مراسلة اهالي قرية الشفونية الى القاضي العام مايلي : « اعلاما به لكل واقف عليه وناظر فيه ومستمع اليه من اسباب الديون المرتبة بذمة اهالي قرية الشفونية بوجه العموم يحيطون علما ويدركون اذعانا وفهما انه ثبت لدينا وتحقق عندنا كثرة ديون اهالي القرية ووفرة مطلوباتهم واضمحلال احوالهم وتلف مزروعاتهم وموت بقرهم وآل حالهم الى الدثور والاضمحلال ولخراب قريتهم وتعطيل الاموال الميرية المترتبة عليهم وان عليهم ديون كثيرة ومطالب وفيرة لاقدرة لهم على ادائها الا على حكم التقسيط بان يدفعوا اولا الاموال الميرية الذي عليهم وثمن مزروعاتهم وبقرهم ومصارف تمشية احوالهم وبعد ذلك يدفعوا عليهم من الديون لاربابها في عشرة اقساط متساوية كل سنة عشر الديون الذي بذمتهم لاربابها لكل صاحب مايه قرش عشرة قروش من فاضل كسبهم بعد اداء مصاريفهم اللازمة وبعد اداء الستة الاف الذي بذمتهم لايتام الشيخ محمود وبعد ما ابرزوا ما في يدهم عرضحال مشروح عليه لنا من قبل حضرة كتخدا افندينا ولي النعم والي الشام حالا » .. عرض ذلك القاضي العام وقام بدوره برفعها الى الوالي .. تحريرا في تاسع عشر من شوال / سنة ١٢٥٩هـ.

الداعي السيد محمد نظيف القاضي بدمشق

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم /١٢٥٩/٣٧٩هـ ، ص ٣٧ وما بعدها .
كما ترى مثيلا لهذه العريضة في ١٦ شهر شوال ١٢٥٩ هـ وختام ذو الحجة ١٢٥٩هـ وثلاثة عشر ربيع الاول سنة ١٢٦٠ هـ .

(٦٤) الصباغ ، ليلى ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٣ ، ص ١٠٥.

(٦٥) Gibb, H.A.R. and Bowen, Harold , **Islamic society and the west,** 2vol. in 4 Parts, London 1954, vol. 1, pp. 212-246.

(٦٦) حطب زهير ، تطور بنى الاسرة العربية ، لبنان ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ .

(٦٧) الصايغ ، المقترب ، ص ٢٧٨ ، ٧٨ب ، ٧٩ب ، ٢٨٠ ، ٨٠ب .

(٦٨) الصايغ ، المقترب ، ص٦٠ ب ، ٦١ .

(٦٩) Burckhardt, op. cit. p. 299

(٧٠) جيب وباوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، (الترجمة) ج٢ ،ص ٨ ، ٢٣.

(٧١) المرادي ، سلك الدرر ، ج٣،ص ٢٧٦ .

(٧٢) مجهول ، مذكرات تاريخية ، ص٣٥ .

(٧٣) المقترب في حوادث الحضر والعرب ص ٤٥ب ، ٤٦ .

(٧٤) الصباغ ، المرجع السابق ، ص ٥٨،٥٩ .

(٧٥) البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ص ١٤٤ .

(٧٦) باسكوال ، جان بول، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . مقالة بعنوان (البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر) ج١ ، ص ٤١٧–٤١٨.

(٧٧) باسكوان ، المرجع السابق ، ص٤١١، ٤١٧، ٤١٨ .

بيع اردب الارز في سنة ١٨٤٠م في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر الصايغ ، المصـدر السابق ص ٨٨ . والاردب عبارة عن ثلاث قفات مصرية .

(٧٨) الغزي ، كامل بن حسين بالي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج٢ ، ص١٣ ، ١٢٦، المطبعةالمارونية ١٩٢٢ – ١٩٢٦م .

(٧٩) تقي الدين ، محمد اديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٥٦٩ ، ٥٨٦ ، بيروت ١٩٧٩ م

(٨٠) خاطر ، لحد ، العادات والتقاليد اللبنانية ج٢ ، ص ١٠٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٨١) المقترب ،ص٢٧٤ .

(٨٢) انظر : باسكوال ، المرجع السابق ج١ ص ٤٢٣ .

(٨٣) المرجع نفسه ص٤٢١ ، ٤٢٢،٤٢٣ .

(٨٤) Burckhardt, op. cit. pp. 292-94

(٨٥) نقصد بريف دمشق سكان الريف نساء ورجالا الذين استقروا في المناطق التابعة لدمشق، في الغوطة وادي بردى وجبال القلمون وحوران وجبل حوران في هذه الفترة .

(٨٦) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ ص ١٧٥، ثم سجلها رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .

(٨٧) حمامي ، حسن ، الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص١٣٨-١٤٣ ، دمشق ١٩٧٢ حيث يقول ايضا : ان الجروال تسمية فارسية الاصل وقد انتشر هذا النوع في بلاد فارس والعراق وسورية وعلى طول سواحل المتوسط حتى اسبانيا حيث كان يسمى فيها (Guraguella) وكان قيد الاستعمال في العهود الاسلامية الاولى .

(٨٨) المرجع السابق ، ص١٥١-١٥٢ .

(٨٩) المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(٩٠) Burckhardt, op. cit. pp. 294, 303, 306.

(٩١) حمامي ، المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٩٢) Burckardt, op. cit., P. 294. and see : Russell,A., The Natural history of Aleppo, London 1794 , vol. l, P. 111.

(٩٣) انظر سجل القسمة العسكريه بدمشق رقم ١٢٥٦/٣٦٤ - ١٢٥٧ هـ ص ٢٥ : تركة شاكر محمد رجب من اهالي دوما المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ .

(٩٤) ص١٣٢ - ١٣٤ ، ١٣٧ .

(٩٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص١٣٨.

(٩٦) Porter, J, I., Five Years in Damascus , London 1855, vol. l,p. 337.

(٩٧) القاسمي ، المصدر السابق ، ج١ ص٨٢ .

(٩٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ ثم القاسمي، المصدر السابق ، ج٢ ص٢٧.

(٩٩) Burckhardt, op. cit., p. 306.

(١٠٠) IBID ? p. 294 .

(١٠١) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .

(١٠٢) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٧ - ١٢٠٠ هـ ، ص ١٨٠ ، القضية في محرم سنة ١١٩٩ هـ .

(١٠٣) المصدر نفسه ص ١٠٦ ، القضية في ختام شوال سنة ١١٩٨ هـ .

(١٠٤) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ ص ٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمدمن اهالي قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩ هـ .

(١٠٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / سنة ١٢٣٧ هـ /٢١٥ :تركة المرحومة رابعة بنت السيد احمد الجابي من اهالي قرية حرستا .

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٠ .

(١٠٧) انظر : يوسف نعيسة ، مجتمع مدينة دمشق ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ثم جامعة دمشق ، ١٩٨٣-١٩٨٤ ، ص ٤١٨ .

(١٠٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص١٩٠،١٩٩ .

(١٠٩) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمد من قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩هـ. ثم رقم ٣٦٥ ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١٢٤٣هـ.

(١١٠) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥ ، ١٢٥٣ هـ ، ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .

(١١١) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ ص ١٨٨ : تركة الحاجة رحمة بنت الحاج محمد من اهالي قرية دوما ، القضية في ١٩ / ربيع الثاني سنة ١١٩٩هـ ، ثم رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبدالله المتوفاة ١١٩٧هـ كان لديها زنار من الفضة وزنار من الذهب .

(١١٢) حمامي ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩٩ .

(١١٣) استخدمت المراة انواعا عديدة من النقود الذهبية عثمانية وغير عثمانية في هذه الصفة وغيرها من ادوات الزينة ، وكان من هذه النقود : غازي قديم ، وفندقلي ، وعادلي ، ومجري وجهادي تاريخي اسلامبولي وافرنجي ابوشوشة ، وافرنجي ابو عامود وغيره . انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ ص ٣٠ .

(١١٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٢٩/ ص ٢١٨ : تركة اسما بنت علي بن الشيخ عمر من كفرسوسية .

(١١٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(١١٦) كانت تسمى « شيكان قزي » انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ ص ٤ : مخلفات اسما بنت محمد شريف العطار المتوفاة سنة ١٢٥٦ هـ .

(١١٧) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦، ٢٠٨ .

(١١٨) سميت في مدينة دمشق (بالسنوبرة) وهي من الذهب . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبد الله المتوفاة سنة ١١٩٧ هـ في دمشق .

(١١٩) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢١١،٢١٥ .

(١٢١) انظر :سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ ص ١٢٢ : تركة الحرمة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .

(١٢٢) القاسمي ، قاموس ، ج ٢ص ٢٧٠ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٥.

(١٢٤) المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٤٣ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ج١، ص ٨١ .

(١٢٦) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(١٢٧)خنشت ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(١٢٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٣٦.

التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي

د. يوسف درويش غوانمه

جامعة اليرموك

كان لبلاد الشام دور متميز في التجارة الدولية منذ اقدم العصور ، ونالت منطقة شرق الاردن حظا وافرا من تلك التجارة ، منذ ان اصبحت الطرق التجارية تتجه نحو البحر الاحمر والجزيرة العربية عبر الاردن الحالي ، فازدهرت لذلك كل من ايلة (العقبة) ، والبتراء ، وعمان وجرش(١) . ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الاوربي بالفتوحات الاسلامية ، فالعرب لم يتكفئوا على انفسهم بل اعطوا التجارة والعلاقات الدولية عناية خاصة ، وفتحوا اسواق الشام وتجارته امام الغرب الاوربي بشكل واسع(٢) . وظلت اهمية منطقة الاردن قائمة طيلة العصر الاسلامي ، وظلت دروبها تخدم حركة المواصلات والاتصالات البريدية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر .

ففي العصر الاموي يبرز ثراء مدينة دمشق التجاري والاقتصادي في وسط بلاد الشام ، وتبقى منطقة الاردن همزة الوصل بين العاصمة والجزيرة العربية(٣) . وفي العصر العباسي تنشط مدينة عمان ، ويتجلى دورها بخروج شبكة من الاتصالات والمواصلات منها ، لتربطها بالعراق والحجاز وبقية المدن الشامية(٤) . واتسع دور بلاد الشام في التجارة الدولية في فترة الوجود الفرنجي في المنطقة ، فالدويلات الايطالية قدمت المساعدات العسكرية لملكة بيت المقدس مقابل امتيازات تجارية في الموانيء الشامية(٥) . وبقي هذا الدور قائما في العصر المملوكي ، فاستقر بالمدن الشامية وموانئها

عدد كبير من تجار البندقية ، وجنوا ، وامالفي ، وفلورنسا ، وقطلونيا ، وبرشلونة ، وفرنسا(٦) ، وبعض مواطني شمال اوروبا المرافقين للجنويين والبنادقة ، كما استقر فيها وكلاء الشركات الاجنبية الاوربية التي لها فروع في الشرق ، نذكر منها شركة باردي (Bardi) الفلورنسية ، التي كان لها فرع في مدينة بيت المقدس(٧) .

وسبب اقبال الاجانب على بلاد الشام بهذا الشكل يرجع الى اتصالاتها الوثيقة والمباشرة مع اسواق الشرق ، كما ان مدنها وموانئها كانت مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس(٨) . وكانت مواسم الحج الاسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب ومن هنا فان اسواقها فاقت اسواق مصر في تنوع السلع التي ترد اليها(٩) . وفي هذا المجال لابد ان نذكر قبرص التي كانت تستورد التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سورية وموانئها ، وقد اكتظت اسواقها بالسلع الشرقية ، حتى ان احد الرحالة الالمان قال : « ان التوابل في قبرص اكثر من الخبز في المانيا »(١٠) . وكانت دمشق وبيت المقدس وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وصور وصيدا من المدن التي ازدهرت تجاريا في العصر المملوكي ، واستقر فيها عدد من التجار الاجانب(١١) . ومما تجدر ملاحظته ان الدول الاوربية بنت علاقات تجارية متطورة مع مصر وبلاد الشام ، واعتمدت هذه التجارة على السلع المتبادلة بين الشرق والغرب ، فالسلع الشرقية تركزت بشكل رئيسي على التوابل ، والحرير والعاج ، وبالمقابل تركزت صادرات الغرب الى الدولة المملوكية على الحديد ، والاخشاب وادوات الملاحة ، والرقيق (١٢) .

وقد لعب طريق البحر الاحمر دورا متميزا في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية ، واعتبر البحر الاحمر احد شرايين التجارة الدولية منذ اقدم العصور (١٣) . ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له اهميته ، وارتبطت بعلاقات تجارية قبل الاسلام مع الهند والصين واليمن والخليج العربي ، والعراق والشام والساحل الافريقي ، واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الاولى ، فقدرت بعض المراجع صادراتها السنوية من السلع الشرقية بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ دولار(١٤) ، ولكن التطور الكبير لتجارة البحر الاحمر يظهر في العصرين الايوبي والمملوكي ، حتى اصبح بحق اهم شريان دولي للتجارة الشرقية ، وذلك بعدما تعطل الطريقان الاخران : طريق الخليج العربي ، وطريق اواسط آسيا ، بسبب الظروف غير المستقرة سياسيا وعسكريا التي المت بالأقطار المحيطة بهما(١٥) . وقد استغل المماليك بذكاء هذا الطريق التجاري ، فسنوا الانظمة والقوانين التي من شأنها جلب التجار الاجانب الى بلادهم . نذكر من ذلك المرسوم الذي اصدره السلطان قلاوون ٦٧٨هـ ــ ٦٨٩هـ/ (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م) ، للتجار الاجانب في الشرق والغرب يدعوهم لزيارة بلاده وموانئه ، وجلب سلعهم ، حيث

سيلاقون المعاملة الحسنة ، والتسهيلات الخاصة ، بعيدا عن الجور والظلم ، فالعدل في بلاده سيحميهم . ومما ورد في مرسومه قوله :

« فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الاهبة في الارتحال اليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال اكبر ، ويرى احسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالاكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي سلامة من النفس والمال .. ومن احضر معه بضائع من بهار واصناف تحضرها تجار الكارم* فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف امرا يشق ، ابقى لهم العدل ما شاق ورفع ما شق .. الخ»(١٦) . ويرى لابيدوس (Lapidus) أن حسن الضيافة والتفهم الجيد والمعاملة الحسنة من المماليك ، شجعت التجار الاوربيين للاتجار معهم(١٧) . ثم ان التجار العرب المسلمين كونوا في العصر المملوكي مستوطنات ومراكز تجارية في وسط وشرق افريقيا وفي المدن الهندية والصينية الساحلية وجزر جنوب شرق آسيا(١٨) .

وحماية للتجارة اقام المماليك الدرك لحراسة الطرق التي تنتقل من خلالها المتاجر والسلع المختلفة ، وبنوا الخانات والفنادق خدمة للمسافرين ، واشاعوا الامن والاطمئنان فيها ، مما مكن القوافل التجارية من التنقل بحرية وامان في الدروب والمسالك الشامية المختلفة(١٩) .

وكان لميناء ايلة (العقبة) على الطرف الشمالي للبحر الاحمر دوره في حركة التجارة الدولية ، فأيلة اتصلت منذ القدم بالبتراء وبصرى بطريق اطلق عليه فيما بعد (الطريق السلطاني)(٢٠) . ولكن دور هذا الميناء يبرز واضحا في العصر المملوكي ، فقد كانت السفن التجارية ترسو فيه ، فابن اياس يذكر عن وجود « قصر في (ايلة) يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين وغير ذلك من البلاد »(٢١) . ومن هذا الميناء تنتقل السلع برا عبر الهضبة الاردنية الى دمشق وبيت المقدس وحلب (٢٢) . وساعد في خدمة حركة التنقل هذه خانات :

* الكارم والكارمية : اسم اطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على بلاد الهند والصين ، والساحل الشرقي لافريقيا ، وبدا نشاط هؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي ، ولكنهم بلغوا اوج قوتهم ونفوذهم في العصر الايوبي والمملوكي ، وشكلوا اكبر قوة مالية انذاك . وقد عمل المماليك على الاطاحة بهذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي ، ومنعوهم من التمتع بالنفوذ السياسي ، فلم يرغبوا بوجود قوة اخرى تناهض قوتهم (جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، ترجمة عطية القوصي ، الكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٧٩ (وانظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ج٤ ، ص ٣٢) .

العقبة ، والحسا ، وعنيزة ،و القطرانة ، وعمان ، فاقيمت البرك قرب هذه الخانات لسقيا المسافرين ، كما اوجد المماليك مركزا لقباض المكوس في جسر الحسا على امتار قليلة من الخان ، كان المتحصل منه عشرة الاف مثقال من الذهب سنويا(٢٣) ، بالاضافة الى مركز اخر اقاموه في (بويب العقبة) جنوب العقبة الحالية ، لتمكيس السلع التجارية القادمة برا من جدة في طريقها الى الشام ومصر عبر ايلة (العقبة) وسيناء(٢٤) .

وخدمة لحركة التجارة البعيدة المارة عبر منطقة شرق الاردن اقيمت الاسواق الموسمية وبالاخص في فترة مرور قوافل الحج الشامي والمصري في طريقها الى الحجاز . فقوافل الحجيج هذه خدمت حركة التجارة العابرة (الترانزيت) ، فكان موسم الحج فرصة للتجار للبيع والشراء وجلب السلع الشرقية من الحجاز ، ونقل السلع الشامية بالمقابل(٢٥) . ذكر ابو المحاسن ان مدينة جدة في اواخر العصر المملوكي كانت الميناء الرئيسي للسلع الشرقية(٢٦) ، لذا بنوا حولها سورا وزودوه بالابراج الحصينة والمدافع(٢٧) . وكان يصل الى مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن ما لايقل عن ٠٠٠ر٨٠ جمل ، وفي العادة يوقت وصولها في معظم السنوات في موسم الحج ، وتستمر هذه القوافل في طريقها الى دمشق ، ومن ثم تعود بسلع الشام والغرب الاوربي الى عدن ومنها الى الهند(٢٨) .

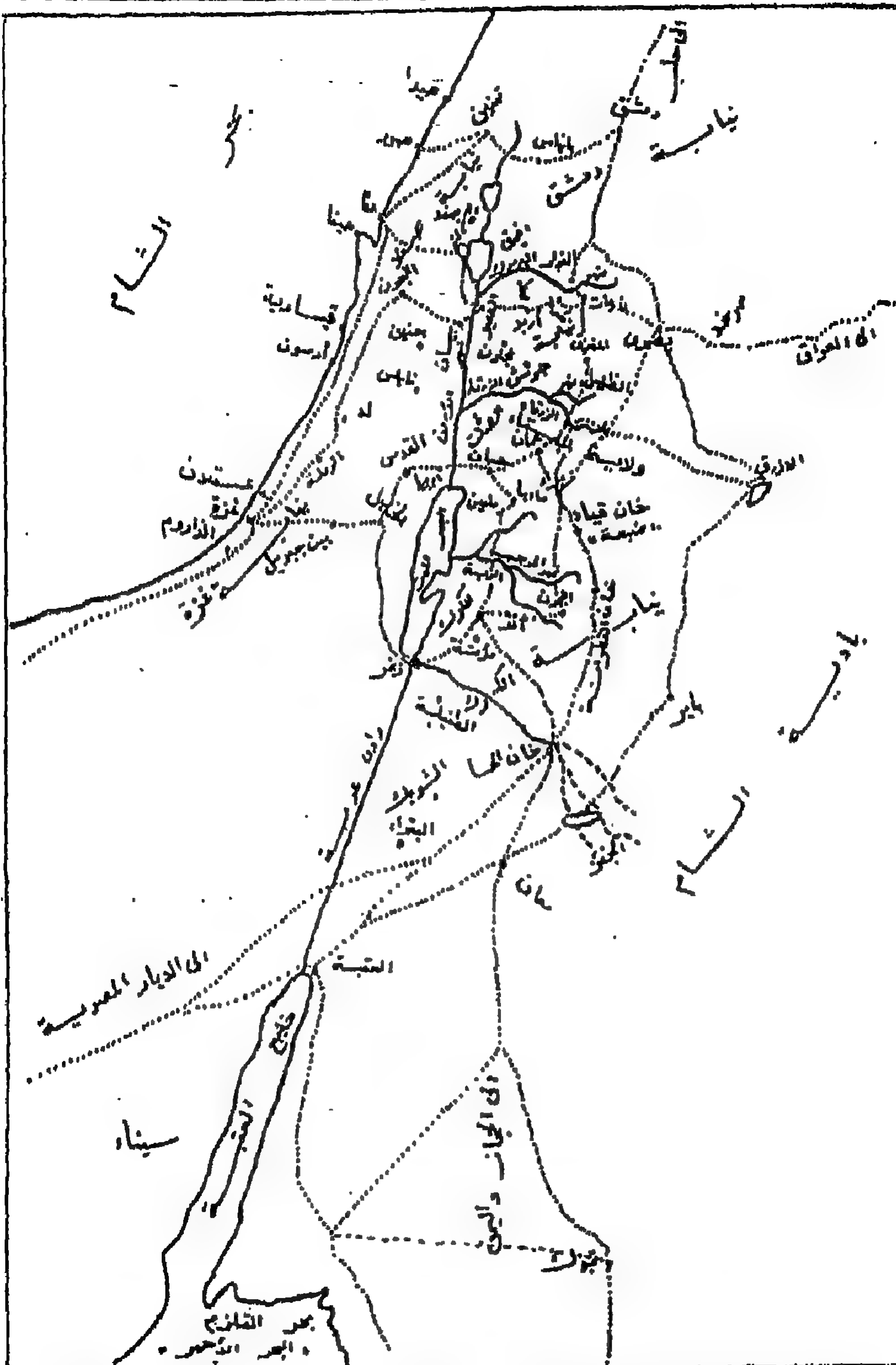
وكانت قوافل الحج الشامي تسير من دمشق وتتجمع في مزيريب قرب درعا . ومنها الى الرمثا فتقيم فيها عدة ايام . وقد دلت الكشوف الاثرية التي اجرتها جامعة اليرموك في موقعها الدائم القريب من الرمثا وجود الاف القطع الفخارية المملوكية على مساحة كبيرة وفي اماكن متعددة ، مما يدلل على ان هذه القوافل كانت تقيم في هذا المكان للراحة وللبيع والشراء ، وكانت فرصة لتجار المناطق المجاورة ، ورجال القبائل العربية لبيع ما لديهم وشراء ما يحتاجونه . وتواصل هذه القوافل سيرها الى الظليل الواقعة بين المفرق والزرقاء ، ومنها الى الزرقاء وهي بلدة وافرة المياه ، فتقيم فيها عدة ايام لتواصل سيرها الى زيزاء قرب عمان ، ومنها الى اللجون ، ثم الى الثنية خارج الكرك ، فتقيم اياما ثم تواصل سيرها الى معان ومنها الى عقبة الصوان وذات حج في طريقها الى الحجاز(٢٩) . وقد تغير درب الحج الشامي اكثر من مرة منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) (٣٠) ، ففي بعض الاحيان تسير القوافل من دمشق الى الكسوة ، الصنمين ، زرعه (درعا) ، بصرى ، ومن بصرى كانت تتجه في فترة الاحتلال الفرنجي لمنطقة جنوب الاردن الى الازرق ، باير ، الجفر ، الى ان تصل الى معان (٣١) ، او تتجه من بصرى الى زيزاء راسا ـ وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ (الرابع عشر الميلادي) ـ ومن زيزاء الى اللجون ، ثنية الكرك ،

معان ، ومن معان الى عقبة الصوان ، ذات حج ، وادي بلدح ، تبوك ثم العلا فالمدينة المنورة(٣٢). واحيانا كان ركب الحجيج الشامي يتجه من معان الى ايلة ثم الى تبوك في طريقه الى الحجاز(٣٣) ويذكر ابن فضل الله العمري ان اسواقا كبيرة كانت تعقد في هذه المحطات وصفها بقوله : « وهي قرى عامرة ذوات ماء واسواق ومعايش وجلابة »(٣٤) .. وتذكر المصادر ان سوقا تجاريا متشعبا كان يعقد في مدينة ايلة (العقبة) في العصر المملوكي وصفه ابن فضل الله العمري قائلا : « وهو مكان مقصود تاتي اليه اجلاب الشام ، وتقام به الاسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في امهات الاقاليم وكبار المدن . ولعل انه لا يعدم فيها موجود من : الخيل ، والابل ، والغنم ، والدقيق ، والشعير ، والعلف وانواع المآكل والمشارب والمحامل والاكوار والرحال ، والسلاح والقماش والفرش والامتعة ، وغير ذلك ، وايام اقامة الحاج هذا أيام مواسم »(٣٥) .

ولا بد من الاشارة الى ان دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الاردن في اربد مرورا بالاغوار وفلسطين . فالقلقشندي يذكر ان المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها (بالصفقة القبلية) ، هي طريق الابواب السلطانية الشريفة في القاهرة ، وممر التجار قاصدين الديار المصرية (٣٦) .. وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما الى ذلك ، فالاغوار جميعها كانت داخلة فيها(٣٧) . وقد ربط المماليك بلاد الشام بالقاهرة بخطوط المواصلات البريدية : الطائرة والبرية والمنارات ، وكانت مدينة اربد احد هذه المراكز ، كما نقلوا الثلج على الجمال من دمشق الى القاهرة عبر هذا الطريق(٣٨) .. وقد استخدم هذا الطريق لحركة الجيوش العسكرية المملوكية مرورا بالأغوار واربد(٣٩) . ولهذا السبب فقد بني في مدينة اربد الخانات والفنادق خدمة للمسافرين والتجار ، كما اقيمت لهم بركة لسقيا دوابهم(٤٠) . وتذكر المصادر ان القوافل القادمة من بخارى وسمرقند وشيراز وآمد وبلاد الارمن والعراق كان لابد لها من المرور عبر هذا الطريق مرورا بمدينة اربد في طريقها الى القاهرة ، وكانت هذه القوافل تحمل معها صنوف السلع المشرقية والشامية المختلفة(٤١) . وقد اقام المماليك الجسور فوق نهر الاردن خدمة لحركة المواصلات والاتصالات بين الشام وفلسطين والديار المصرية (٤٢) .

مدينة عجلون وعلاقاتها التجارية :

تذكر بعض المصادر وجود المنشآت والمرافق التجارية في المدن الشامية والمصرية خدمة لحركة التجارة الدولية ، نذكر منها : القيساريات ، ودور الوكالة . وخصصت هذه المنشآت للتجار القادمين الى تلك المدن ، فبعضها اختصت بالتجار الاوربيين(٤٣) ، واخرى بالتجار الوافدين من الاقطار العربية والاسلامية .. وقد عكف الامراء المماليك



شبكة المواصلات وطرق التجارة في منطقة شرقي الاردن في العصر المملوكي
من اعـداد الباحث

على بناء هذه القيساريات للكسب واستثمار الاموال . والقيسارية (Caesarea) او (Cesarie) كلمة لاتينية ظهرت في بلاد الشام قبل مصر ، وهي بناء مستطيل او مربع، مسقوف تعلوه الرباع ، وهي في العادة غرف تؤجر للتجار والصناع للاقامة فيهـا ؛ وتحتوي كل قيسارية على عدد من المحال التجارية التي تؤجـر للتجار والصانـع الصغيرة ، بالاضافة الى انها تعرض السلع للبيع بالجملة(٤٤)، ولكل قيسارية حارس يحرسها ، وباب ضخم يغلق ليلا(٤٥) .

ومن المرافق الاخرى التي خدمت حركة التجارة الدولية دور الوكالـة . ويـرى المقريزي ان لا فرق بين الوكالات والخانات والفنادق والقيساريات ، فهي جميعهـا ابنية ومؤسسات تقوم، الى جانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة اقامة التجار الوافدين من الخارج ، وحفظ اموالهم وخزنها ، بالاضافة الى انها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة(٤٦) . ولكل دار من دور الوكالة هذه وكيل يسمى (وكيل دار الوكالـة) ؛ يقوم بخزن سلع زبائنه ومن ثم بيعها ، وتأمين ثمنها لاصحابها . فيقوم مقام(الصيرفي)، والتجار الاجانب كانوا يودعون اموالهم عنده وهو بالمقابل يدفع لهم ما يقابلها من عملة بلادهم (٤٧) .

وقد اقام المماليك في منطقة شرق الاردن الخانات خدمة للتجار والمسافرين ، كان بعضها يقدم الغذاء وحذاء الخيل مجانا للمارين والقيمين فيها(٤٨) . ووجد بجانب كل خان بركة ماء وحانوت ليتزود منه المارون بما يشاؤون(٤٩) ، اطلق عليها (فنادق مبيت القوافـل) Caravanserail حيث يستريح التجار ودوابهم فيها(٥٠) . نذكر منها : خان العقبة ، وخان عنيزة ، وخان معان ، وخان الحسا ، وخان القطرانة ، وخان ضبعة ، وخان عمان ، وخان الكرك(٥١) . ومازال ماثلا للعيان من هذه الخانات : العقبة، والحسا ، والقطرانة ، وضبعة(٥٢) ، وهي أبنية مربعة الشكل من طابقين بداخلهـا ساحة سماوية يتوسطها بئر ماء ، ويحف بهذه الساحة بوائك كبيرة لمبيـت الدواب وخزن البضائع ، اما الطابق العلوي ففيه غرف صغيرة اعدت لمبيت التجار والمسافرين . ووجد في كل خان مسجد صغير ، وفي زوياه الاربع ابراج للدفاع ومزاغل للمراقبة ، ولكل خان مدخل واسع ببوابة ضخمة تغلق ليلا ، فهي والحالة هذه خانات حصينة ، « يأوي اليها من الجاه المساء ، وينام امنا من طوارق الاعداء »(٥٣) .

وجدت هذه المرافق والمنشآت التجارية في بعض المدن الشامية والمصرية كدمشق، وحلب وبيروت ، وعكا ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، والقاهرة والاسكندرية . فما هو دور المدن الاردنية من هذه المرافـق ..؟. من خلال رصدنـا للنصوص التاريخيـة ومشاهداتنا الاثرية ، وجدنا الخانات في بعض المدن، كعمان، والكرك، ومعان، والعقبة.

اما القيساريات والوكالات فلدينا نص يؤكد وجودها في مدينة عجلون ، فلماذا وجدت في هذه المدينة الداخلية ، وهل يعني وجودها ارتباط مدينة عجلون بعلاقات تجارية خارجية ..؟.

تقع عجلون في وسط جبال عجلون عند اقدام جبل عوف الذي يطل عليها من الغرب(٥٤) ، وتبعد عن عمان مسافة ٧٣ كم وعن اربد مسافة ٣٢ كم ، وعلى قمة جبل عوف اقام صلاح الدين الايوبي قلعة عجلون سنة ٥٨٠هـ / (١١٨٤م) في موقع استراتيجي جيد(٥٥)، فهل كانت عجلون مدينة بالمعنى المتعارف عليه في العصور الوسطى .؟، أم انها مجرد بلدة (Town) ، تقدم خدمات محلية بسيطة الى سكانها والمناطق المجاورة ، او انها لعبت دورا اكبر في بيع السلع والصناعات الى اسواق اخرى متعددة ، وكان لها اتصالها التجاري مع الاسواق المجاورة ..؟ فان كانت كذلك فهي والحالة هذه مدينة (City) (٥٦) . وباعتقادي ان عجلون كانت مدينة بالمفهوم الوسيط، فهي مركز حكم ، وفيها مركز للقضاء ، وجباة للضرائب ، وقوات عسكرية تقيم في قلعتها ، بالاضافة الى دورها الاقتصادي والتجاري والثقافي المتميز في منطقة شمال الاردن ..

وعجلون مدينة جميلة في قلب منطقة خصبة ، تحف بها الاودية ذات الينابيع الغزيرة ، وغابات السنديان ، واشجار الزيتون والفاكهة المختلفة . وقد نالت حظا وافرا في العصر المملوكي ، فجعلوا منها نيابة تابعة لمدينة دمشق ، وفي احيان جعلوها نيابة مستقلة يكون التعيين فيها من قبل السلطان بالقاهرة . ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، النص الموجود في النقش الكائن على ضريح الصحابي ابو عبيدة بن الجراح في غور الاردن ، وكان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨-٦٧٦ هـ / (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) قد كلف نائب عجلون ببناء هذا الضريح ومما جاء في النقش :

... وذلك بنظر الامير الاجل الاعمال الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدي نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة (٥٧) .

وهنا نلاحظ ان الظاهر بيبرس ولى على عجلون اميرا برتبة جاشنكير، وهي احدى وظائف ارباب السيوف ، ويتولاها امير مقدم ، وهي من المراتب الكبرى في الدولة المملوكية(٥٨) . وقد فعل الظاهر بيبرس ذلك لان الدولة المملوكية كانت في طور التاسيس، ولاهمية منطقة عجلون وقربها من دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية ، التي كانت تمثل المركز الثاني بعد القاهرة ، ونوابها كانوا دوما طامعين بالسلطنة ، وفيها يثورون

على الدولة. وعجلون في هذه الحالة تستطيع الوقوف في وجه اي توسع لنائب دمشق، بالاضافة الى ان الخطر الفرنجي ما زال قائما في فلسطين والساحل الشامي». اضف الى ذلك عناصر المعارضة الايوبية في بلاد الشام الذين كانوا ينتهزون أي فرصة للانقضاض على المماليك . وقد قام السلطان المنصور قلاوون ، بنفس التصرف فيما بعد عندما جعل من الصلت نيابة مستقلة على راسها امير برتبة كبيرة ولديه قواته كي يقف في مواجهة السعيد والمسعود ابناء الظاهر بيبرس في الكرك الذين حاولوا التوسع شمالا حتى ان قواتهم وصلت الى صرخد في حوران(٥٩) . وهذا يدلل على الاهمية التي كان يوليها السلطان الظاهر بيبرس لمدينة عجلون ومنطقة شمال الاردن الحالي. بسبب مزاياها الاستراتيجية و الاقتصادية . وبعد وفاته اعيدت عجلون نيابة صغيرة تابعة لدمشق ، لتصبح في اواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها من السلطان بالقاهرة(٦٠) .

ويسبب هذا الاهتمام بمدينة عجلون في العصر المملوكي نلاحظ انها بلغت اقصى درجة من التقدم العمراني والثقافي والاقتصادي ، فابن بطوطة مر بها في القرن الثامن الهجري / (الرابع عشر الميلادي) ووصفها قائلا : « وهي مدينة حسنة ، لها اسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، و يشقها نهر ماؤه عذب »(٦١) . ومن هنا فقد اقام الامراء فيها القيساريات ، ونذكر منها قيسارية الامير سيف الدين بكتمر ، وقيسارية الامير تنكز ابن عبد الله نائب دمشق وقفها على البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد ، والقيسارية القديمة (٦٢) .

وللتدليل على اهمية عجلون الاقتصادية والتجارية ، هناك ثلاث وثائق الاولى ذكرها مفضل بن ابي الفضائل في كتابه « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » في الجزء الذي نشر في فرايبورغ بالمانيا سنة ١٩٧٣م ، ويتضمن الاحداث من سنة ٧١٧ ــ ٧٤١ هـ . ففي صفحة ٤١ ذكر ان سيلا عظيما دهم مدينة عجلون في سنة ٧٢٨هـ / (١٣٢٨م) ، واثبت صورة المحضر الذي ارسله نائب عجلون الى دمشق واصفا فيه ما فعله السيل في المدينة(٦٣) . والوثيقة الثانية ذكرها النويري في كتابه «نهاية الارب في فنون الادب » الجزء ٣١ (مخطوط) ، وهي نسخة المحضر المرسلة من مدينة عجلون الى دمشق يورد فيها ما احدثه السيل بالمدينة من خراب (لوحة ٩١) . أما الوثيقة الثالثة فهي نسخة الكتاب الوارد من عجلون والتي ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه ونقلها عنه الشيخ علم الدين بن البرزالي ، واثبتها النويري في سفره لوحة ٩١ ، ٩٢ (مخطوط)(٦٤) .

ومن خلال استعراضنا للنصوص الثلاثة نجد تباينا كبيرا فيها من حيث الديباجة

وتفاصيل السيل ، فاكثرها ايجازا ما اورده مفضل بن ابي الفضائل ، ويأتي في المرتبة الثانية النص الذي ذكره النويري واسماه نسخة المحضر المرسل من عجلون ، اما النص الثالث الذي نقله النويري عن الجزري والبرازلي فهو اكثرها دقة ، و به معلومات تفصيلية عن اسواق مدينة عجلون ، ونستطيع ان نجمل ما جاء في هذه الوثائق بمايلي :

اولا : القيساريات

١ ــ قيسارية الامير سيف الدين بكتمر ، ٢ ــ قيسارية الامير تنكز بن عبد الله ، ٣ ــ القيسارية القديمة .

ثانيا : الوكالات

١ ــ دار الطعم .

ثالثا : الاسواق

١ ــ سوق الادميين ، ٢ ــ سوق القطانين ، ٣ ــ سوق الاقباعين ، ٤ ــ سوق الخلعيين ، ٥ ــ سوق الفرايين ، ٦ ــ سوق الفاميين ، ٧ ــ سوق الملافين ، ٨ ــ سوق الحصريين ، ٩ ــ سوق اللحامين ، ١٠ ــ سوق السقطيين ، ١١ ــ سوق الصاغة ، ١٢ ــ سوق البز العتيق ، ١٣ ــ سوق ام معبد ، ١٤ ــ سوق الامير سيف الدين ، ١٥ ــ سوق الامير ركن الدين ، ١٦ ــ حوانيت الخبازين ، ١٧ ــ حوانيت الطباخين ، ١٨ ــ حوانيت البضاعة ، ١٩ ــ القاضي فخر الدين ، ٢٠ ــ حوانيت الدق(٦٥) .

رابعا : المرافق الاخرى

١ ــ المصبغة (الدباغة) ، ٢ ــ العرصة (وتسمى احيانا عرصة الغلال ، ساحة واسعة لبيع الغلال) ، ٣ ــ المسجد الجامع واوقافه ، ٤ ــ الحمام السلطاني ، ٥ ــ الحمام الصالحي ، ٦ ــ مسلخ المعز والضان ، ٧ ــ مسلخ ام معبد ، ٨ ــ المدرسة اليقينية ، ٩ ــ الجسور والقناطر والاقباء المبنية فوق الاودية ، ١٠ ــ الطواحين .

فمن خلال الارقام السابقة نلاحظ عدد المنشآت والمرافق التجارية وغيرها التي هدمها السيل ، وهي جزء من منشآت ومرافق المدينة ، مما يدلل على تشعب اسواق هذه المدينة وكثرتها ، ويؤكد ما جاء في وصف ابن بطوطة لها ، والذي يهمنا هنا هو القيساريات ودار الطعم ، فالوثائق الثلاث اكدت وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون ، فما وظيفتها ..؟. ذكر القلقشندي وجود (دار الطعم) في مدينة دمشق وقال انها

« بمثابة الوكالة بالديار المصرية »(٦٦) . ووجدت في دمشق وظيفة (شاد دار الطعم)، وهو الموظف المسؤول عن جمع المكوس من السلع المبيعة في هذه الدار(٦٧) . فدار الطعم اذن هي دار وكالة بالمفهوم الذي كان شائعا في مصر ، اضف الى ذلك ان دارا للوكالة وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي ، ونعتتها بعض الوثائق (بالوكالة المرعية)(٦٨) . وقد وجد مايسمى (بوكيل التجار) الذي كان يقوم بمهمة الخازن للسلع أو المودع لها. وهو المسؤول عن التجار الاجانب الذين لا يستطيعون الاشراف على اعمالهم شخصيا. ويتقاضى وكيل التجار عمولة مقابل خدماته التي يقدمها لزبائنه ، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الاوربيين المقيمين في بعض المدن الشامية والمصرية (٦٩) . وعلى ذلك فهل كانت مدينة عجلون مكان جذب للتجار الاجانب ، بحيث اقيمت لهم فيها دار الطعم هذه (دار الوكالة) . . ؟.

ان النصوص التي بين ايدينا لا تسعفنا بشيء عن وجود مثل هؤلاء التجار الاوربيين صراحة في عجلون ، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار تلك الوكالات التي انشئت في القاهرة للتجار الشاميين والعراقيين والشرقيين من المسلمين(٧٠) ، نذكر منها ، وكالة قوصون التي خصصت للتجار الشاميين لخزن الزيت والسمسم والصابون ، واللوز والجوز والحلويات وكل انواع السلع الشامية الاخرى(٧١) ، وفندق عمارة ، وفندق دار التفاح ، وفندق الملك السعيد بدار الرمان(٧٢) وفندق مسرور(٧٣) . وقياسا على ذلك فاننا نستطيع القول بان (دار الطعم) في مدينة عجلون كانت مخصصة للتجار الاجانب ، سواء كانوا من الاوروبيين ــ لاسيما وقد سمح لهم بالوصول الى بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب وبغداد ــ ام من التجار العرب ، أم التجار المسلمين القادمين الى عجلون من خارج بلاد الشام . وتذكر الوثائق ان شادا لدار الطعم كان موجودا في مدينة عجلون كي يجبي المكوس عن السلع والبضائع الواردة والمبيعة في هذه الدار(٧٤). ويعني ذلك ان تجارة عجلون في العصر المملوكي كانت تجارة كثيفة واسعة ، مما يؤكد اهمية هذه المدينة الاقتصادية والتجارية في العصر المملوكي ، فقد قدر المؤرخ الجزري قيمة الخسائر التي نجمت عن سيل عجلون عام ٧٢٨هـ (١٣٢٨م) بما قيمته ٥٠٠,٠٠٠ درهم ، عدا الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر المدينة(٧٥) . وهذا مبلغ كبير بالنسبة لمدينة داخلية كمدينة عجلون .

خلاصة :

وهكذا فاننا نستطيع التأكيد على ارتباط منطقة شرق الاردن بالتجارة الدولية ، سواء أكان ذلك عن طريق التجارة البعيدة والتجار القادمين الى دار الطعم في مدينة عجلون ، شرقيين أو غربيين ، أو عن طريق القوافل التجارية المارة من خلاله في طريقها

الى الحجاز ، او القادمة من الجنوب العربي عبر الحجاز وايلة (العقبة) في طريقها الى دمشق وحلب وبيت المقدس ، او تلك المارة من خلال العقبة برا في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي ، أو القادمة من تلك المناطق في طريقها الى مصر والشمال الافريقي، او تلك القادمة من مصر الى بلاد الشام وبالعكس عبر مدينة اربد . ولنا ان نذكر احصائية على سبيل المثال لاحدى القوافل التجارية المارة عبر منطقة شرق الاردن في طريقها من مصر الى دمشق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، فكانت كما يلي :

اولا : عدد الدواب فيها : ۹۰۰۰ جمل ، ٤٥٠٠ راس من الخيل ، ٤٥٠٠ راس من البغال .

ثانيا : الاموال : ۰۰۰ر۰۰۰ر٦ من الذهب العين

ثالثا : البضائع والسلع ما قيمته ۰۰۰ر۰۰۰ر٦ دينار (٧٦)

ولا شك ان لهذه القوافل العملاقة التي كانت تجوس دروب الاردن اثرها الاقتصادي الظاهر على البلاد ، بالاضافة الى قوافل الحج الشامي والمصري السنوية التي كانت فرصة للاهالي وتجار البلاد للاتجار معها ، وكانوا يرافقونها حتى الديار الحجازية ، اما التجار النصارى فكان يسمح لهم بمرافقتهم حتى العلا فقط ، فابن بطوطة يقول : « واليها تنتهي تجار نصارى الشام ، لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه » (٧٧)

الحواشي :

(1) Grant, The Syrian desert. London, 1937, P. 58, 59 .

ايلة (العقبة) : مدينة على ساحل بحر القلزم ، وهي اخر الحجاز ، كان بها زرع يسير، وهي على طريق حجاج مصر ، ذات تجارة هامة (ياقوت ، المشترك وضعا ، ص ٣١).

البتراء: وعرفت في المصادر العربية بالرقيم ، مدينة بالقرب من البلقاء ، بيوتها منحوتة كلها من صخر كأنها حجر واحد (الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص٦٤).

عمان : بلد في طريق الشام ، وبالقرب منها الكهف والرقيم ، تشتهر بالزراعة والتجارة وبهاجامع مقسس (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٧١٩) .

جرش : مدينة في بلاد حوران ، كانت مركزا عمرانيا هاما ، وقد اضحت خاوية على عروشها (العمري ، مسالك الإبصار ، ج١ ، ص ٢٣١).

(2) Lopez, (Robert), The Commercial Revolution of the middle ages, London, P. 60.

(3) — Grant, OP . Cit. P. 65.

(4) المقدسي ، احسن التقاسيم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦م ، ص ٢٥٠ .

(5) Fulcher of Chartres, A History of expedition to Jerusalem, tran. by Rita Rayan, New Yark, 1973, P. 151-152.

(6) — Grant,op.Cit . P. 71.

— Sapori (Amande), The Italian merchant in the middle ages, New York, 1970, P. 51,.

— Newton (Arthur) Travel and Travellers of the middle ages, London, 1926, P. 122, 124.

(7) — Sapori, op. Cit, P. 51.

(8) — Lapidus, Muslims Cities in the later middle ages, Harvard University, U.S.A. 1967, P. 24.

— Grant, op. cit. P. 70,.

(9) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئةالمصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص١٤٧ .

(10) — Sapori, OP. Cit. P. 83.

(11) — Lapidus, OP. Cit. P. 24.

(12) — Lopez, OP. Cit. P. 63.

(١٣) — Thompson, An Economic and Social History of the middle ages, London, 1928, P. 186.

(١٤) **Ibid** , P. 186.

(١٥) — Lapidus , OP. Cit. P. 52.

— Grant, OP. Cit. P. 70.

— Newton, OP. Cit. P.125, 126.

— Lopez, OP. Cit. P. 108.

(١٦) القلقشندي ،صبح الاعشى ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميركية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة ، ج١، ص ٣٤٠، ٣٤١ .

(١٧) — Lapidus, OP. Cit. P. 23.

(١٨) — Newton, OP. Cit. P. 90, 100.

(١٩) النويري ، نهاية الارب ج ٢٨ ، لوحة ٢٣ (مخطوط دار الكتب المصرية القاهرة) .
القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٨٤م ،ص٣٠٤
وانظر :
— Lapidus, OP. Cit. P. 18.

(٢٠) Grant, OP. Cit. P. 40.

(٢١) ابن اياس ، نشق الازهار في عجيب الاقطار ، لوحة ٨٧ (مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة).

(٢٢) — Grant, OP. Cit. P. 40.

(٢٣) ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشر بولس راويس ،١٨٩٤م، ص١٠٨ ، ١٣٢ .

(٢٤) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
وانظر : المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،١٩٣٤م، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ص ٢٥٦ .

(٢٦) ابو المحاسن ، حوادث الدهور في مدى الايام والشهور ، تحقيق وليم بوير ، كلفورنيا ،١٩٣١م، ج١ ، ص ٣٢٧ .

(٢٧) بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط الشعب ، القاهرة ،١٩٦٠،ص١٠٤٤ .

(٢٨) ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص ٣٢٧ .نعيم زكي فهمي ،طرق التجارة الدولية،ص ١٣٩.

(٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط٢ ،١٩٧٩، ج١ ، ص ١٢٩ .

(٣٠) — Grant, OP. Cit . P. 223.

(٣١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩ ، ج١١ ، ص٥٢٩،٥٣٠ .

(٣٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

القليل : وادي يقع شمال الزرقاء على الطرق القادمة من دمشق الى مصر والحجاز قديما ، وما زال يشاهد الى اليوم بين المفرق والزرقاء ويشتهر الان بمزارعه وبساتينه العديدة (الباحث).

زيزاء : بلدة كبيرة بالبلقاء جنوب عمان بها بركة ماء ، كانت محطة لقوافل الحجاج وبها تقـام لهم سوق للتجارة (ابو الفداء تقويم البلدان ص ٢٤٧ ، ياقوت ، ج٢ ، ص ٩٦٦).

اللجون : منزلة في طريق المدينة قرب البلقاء وهي غير اللجون المعروفة في فلسطين (القرماني، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٤٧٥) .

العلا : اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت،١٩٧٩م ، ج٤، ص ١٤٤) .

(٣٣) — Grant, OP. Cit. P. 224.

(٣٤) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار في ممالك الابصار ، ج١ ، ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط دار الكتب المصرية).

(٣٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج١ ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط) .

(٣٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١٢ ،ص ٣١٤ .
وانظر : — Lapidus , OP.Cit . P. 12.

(٣٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٠٣ .

(٣٨) والمستقر في كل مركز ست هجن ، خمسة للاحمال وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة احمال، وهذه الهجن من الشام الى العريش على نيابة دمشق ما عدا جنين فهي على نيابة صفد . ومن الواردة الى القاهرة من المناخات السلطانية والكلفة على مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز الا اوان حمل الثلج وهي من حزيران الى تشرين ثاني وعدة نقلاته ٧١ نقلة .
(القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤ ، ص٣٩٧).
اربـد : بالفتح،ثم السكون ، مدينة بالاردن قرب طبرية ، تقع على يمين طريق مصر (البغدادي ، مراصد الاطلاع ج١ ،ص٤١) .
القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤ ،ص ٣٧٩،٣٨٠، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

(٣٩) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج٩ ، لوحة ١٥٠ (مخطوط مكتبة جامعـة القاهرة) . النويري ، نهاية الارب ج٣٠ ، لوحة ٥٥ (مخطوط) .

(٤٠) ظلت هذه البركة موجودة في اربد حتى الستينات ، وقد شاهدتها اذ كانت تمتلىء بالمياه في فصل الشتاء ، وسمي الحي المحيط بها (حي البركة) ، ولكن البلدية طمرتها وانشات فوقهـا موقفا لسيارات الاغوار .

(٤١) المقريزي ، السلوك ، ج٢، ص ٥٩٢ .
ابن طولون الصالحي ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسـة المصرية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج١، ص ١١٨،١١٠، ١١٩ .

(٤٢) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ج٧،ص ١٤٠، ١٤١ .

(٤٣) Lopez, OP. Cit. P. 100.

(٤٤) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٩٥، ٢٩٦ .

(٤٥) ابن جبير ، الرحلة ،دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٢٣٦.

(٤٦) المقريزي ، الخطط، طبعة بولاق ، ١٩٠٧م ، ج٣ ، ص ١٤٤ . وانظر
— Dozy, Supplement aux Dictionries Arbes, Vol. 11, P. 432.
نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٤٧) جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ٢٧٢.

(٤٨) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة العاشرة ، دار الجيل ، بيروت ج٢،ص ١٧٠.

(٤٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤، ص٣٧٨،٣٧٩.

(٥٠)
— Lapidus, OP. Cit. P. 18 .
— Grant, OP. Cit.P. 154.

(٥١) عن خان الكرك انظر :
ابن حجر العسقلاني ، المصدر السابق ، ج٢، ص ١٧٠ . وعن خان عمان انظر :
Conder, The Survey of eastern Palestine, London, 1889, P. 59.
وعن خان معان انظر: سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان في تاريخ الاعيان ، نسخة مصورة بشيكاغو، امريكا ، ج٨، ص ٤٢٩.

(٥٢) هناك دراسة عن هذه الخانات المملوكية في : يوسف غوانمة ، التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي دار الفكر عمان ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٢٣٢-٢٤٩ .

(٥٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤، ص ٣٧٨.

(٥٤) سمي بجبل عوف لانه كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة ، فعرف بهم (القلقشندي ، صبح الاعشى، ج٤ ، ص٨٦).

(٥٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق القسم الخاص بتاريخ لبنان والاردن وفلسطين،ص٨٦.
القلقشندي، صبح الاعشى ، ج٤، ص١٠٥ .

(٥٦) — Hourani (A.H.) , The Islamic City in the light of recent research, from the Islamic city , University of Pensylvania, U.S.A. P. 9.

(٥٧) انظر نص النقش في بحث : المساجد والاضرحة الاسلامية في شمال الاردن(مركز الدراسات الاردنية - جامعة اليرموك - للباحث) .

(٥٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٢١ .

(٥٩) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة ، ج٩ لوحة ١٤٨ (مخطوط) .المقريزي ، السلوك ،ج١ ،ص٦٦٥، ٦٦٩ .
صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ينسب اليها الخمر . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٠١).

(٦٠) الخالدي ، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء ، لوحة ١٤٨ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة).
ونلاحظ هنا ان منطقة شرقي الاردن اشتملت اداريا في العصر المملوكي على نيابة مستقلة هي نيابة الكرك ، ونيابتين صغيرتين تابعتين لنيابة دمشق هما : نيابة عجلون ، ونيابة البلقاء . ولكن منذ عام ٨١٤هـ (١٤١١م) اصبح في منطقة شرقي الاردن نيابتان مستقلتان هما: نيابة الكرك ، ونيابة عجلون ، فمنطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) كان فيها خمس نيابات هي: نيابة غزة ، نيابة القدس ، نيابة صفد ، نيابة عجلون ، نيابة الكرك .

(٦١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص٨٠ .

(٦٢) النويري ، نهاية الارب ، ج٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط) .

(٦٣) مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، حوادث الفترة بين سنتي ٧١٧ و ٧٤١ هجرية ، فرايبورغ ، المانيا ، ١٩٧٣م ، ص ٤١ ،٤٢.

(٦٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط) .

(٦٥) سوق الادميين (الجلود) ، سوق الاقباعين (معد لبيع الاقباع ،وهي عمامة من حرير او جوخ)، سوق الخلعيين (السوق الذي يتعاطى بيع الثياب القديمة الملبوسة)، سوق القامية (سوق الحبوب من حنطة وحمص وعدس وغير ذلك)، سوق السقطيين (السوق الذي يباع فيه احشاء الذبائح)، حوانيت الدق (والدق هو البقايا المتفحمة من بزور الزيتون والمشمش المحروقة في الافران وتستخدم للتدفئة والطبخ) .

(٦٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤، ص ١٨٧ .

(٦٧) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٧.

(٦٨) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢هـ من وثائق المتحف الاسلامي بالقدس .

(٦٩) — Goiten,
A Mediterranean Society, Economic Foundations, U.S.A. 1967, P. 187, 192 .

(٧٠) — Lapidus, Op. Cit. P. 18.

(٧١) المقريزي ، الخطط ، ج٣، ص١٥١ .

(٧٢) نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٧٣) وهذا الفندق منسوب الى مسرور الخادم من خدام القصر في الدولة الفاطمية ، وبقي هذا الخان حتى العصر المملوكي (ابو المحاسن النجوم الزاهرة ،ج٤، ص ٤٣) .

(٧٤) مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ، الجزء الخاص باحداث سنتي ٧١٧-٧٤١ هـ ،فرايبورغ، المانيا ، ١٩٧٣ ، ص ٤٢.
النويري ،نهاية الارب ، ج٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط) .

(٧٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١لوحة ٩٢(مخطوط).

(٧٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ، ١٩٠٣م ،ص١٧٠، ١٧١ .
سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ،ج٨ ، ص ٢٦٦-٢٦٨.

(٧٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ١٣١.

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية
في منطقة ما بين النهرين السورية
(في القرنين الخامس والسادس)

د . نعيم فرح
جامعة دمشــق

١ ــ في المصادر التاريخيــة :

لم تلق المصادر السورية (السريانية) حتى يومنا هذا الاهتمام الجدير بها لدى المؤرخين وعلماء الاثار . ويرتبط هذا الامر الى حد كبير بصعوبة الوصول الى هــذه المصادر باشكالها الاصلية وبندرة ترجماتها . ومع ذلك فالمؤلفات التاريخية السوريــة (السريانية) تعتبر من مصادر الدرجة الاولى حتى عصــر ازدهار الآداب العربية في العصر العباســي . ان الاسفار السورية (السريانيــة) بالنسبة للقرنــين الخامس والسادس تحتوي على مواد ومعلومات فريدة من نوعها ، وهذه المواد تعطي امكانيــة الكشف عن العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في المقاطعــات السوريــة التي كانت خاضعة لبيزنطة وايران . ففي العصر الفارسي الساساني لعب السوريون دورا هاما وبارزا في العلاقات المتبادلة بين الدولتين العظميين ، حيث كانت لغتهم السريانية اللغة الدبلوماسية للشرق الادنى . ورغم ان المصادر السوريــة (السريانيــة) ركزت على الاحداث السياسية الخارجية بالدرجة الاولى ، فهي تقدم جملة من المعطيات التي لها اهمية كبيرة بالنسبة لتحديد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تكونت في سورية في تلك المرحلة .

في مجموعة من المصادر التاريخية التي تعتبر مادة للبحث الذي بين ايدينا ، فان اولى المراتب تعود لاسفار يشوع العمودي السريانية ، التي تمثــل مصــدرا ممتازا

بالنسبة لتاريخ العلاقات بين بيزنطة وايران (في عصر فيروز ٤٥٩ ـ ٤٨٤ وابنه قباذ ٤٨٨ ـ ٥٣١) ، كما تقدم طبيعتها المحلية مادة هامة عن حياة المقاطعات السورية التي رزحت تحت السلطة البيزنطية وكانت مقتطعة اصطناعيا من المقاطعات التي تقطنها قبائل موحدة عرقيا وحضاريا (عربية آرامية) وبقيت تحت سلطة الفرس الساسانيين. ان الصورة الكئيبة لاضطهاد الجماهير الكادحة السورية واستغلالها ، التي تكشف هذه الاسفار السريانية النقاب عنها ، تؤكد الوصف الذي وصفه انجلس للامبراورية الرومانية ـ البيزنطية اذ قال : « تحولت الدولة الرومانية الى آلة معقدة عملاقة ، وذلك لامتصاص خيرات رعاياها . فالضرائب الحكومية والجزية المتعددة الانماط قد اغرقت جماهير السكان في بحر من الفقر المتزايد ، وهذا الظلم ازداد واصبح لا يطاق بفعل ابتزاز الحكام وجامعي الضرائب والجنود » (انجلس ، اصل العائلة ونشوء الملكية الخاصة والدولة) . يتفق هذا الوصف الذي قدمه انجلس مع ما تذكره الاسفار السورية (السريانية)التي اعطت مثل هذه الصورة الواضحة لمارسات الابتزاز واعمال النهب ، وللفقر والجوع الذي عاني منه الكادحون السوريون .

ويكاد المؤرخون الرسميون لا يتطرقون الى هذه الجوانب من حياة الجماهير الشعبية الكادحة . ان حياة القسطنطينية الصاخبة عند جماعة من المؤرخين البيزنطيين البارزين قد ابتلعت كل قدراتهم الروائية . فخلف بهارج وزخارف ألبسة البلاط وضوضاء الدسائس الدموية الصاخبة ذهبت قضايا الجماهير الفقيرة الكادحة في زوايا النسيان . ومع ذلك تعود صفحات « التاريخ السري » (الذي كتبه بروكوبيوس القيساري في القسطنطينية) المطلية بالضجر والبؤس الى مجموعة الوثائق النادرة . فهو يكشف شرور العصر (القرن السادس) بشكل تبدو فيه القدرة الظاهرية والابهة لحكم جستنيانوس الاول باهته ذابلة لا تمثل شيئا امام العري والعوز والفقر الذي يتحدث عنه هذا التاريخ « السري » . لكن أسفار المقاطعات السورية ومؤرخيها يقدمون مادة اكثر غنى من التاريخ السري في هذا المجال . فمصالحهم تحمل طبيعة محلية ، كما انهم يتحدثون عن قضايا معيشية واقتصادية تتيح فرص تلمس حلقات جديدة في تطور اشكال الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية . وتقدم الاسفار التاريخية السورية (السريانية) مادة من هذا النوع. فهي تعطي صورةواضحة عن حيادة العاملين في الارض ، ومنهم العبيد (والكولون) والفلاحون الاتباع الذين يتحملون كل اعباء العمل في الحقول والبساتين والكروم ، ويئنون من وطأة الضرائب والفرائض وقرصنة الجنود المرتزقة والنهب الذي يمارسه موظفو الدولة . وقد أشار انجلس الى استغلال السلطات الرومانية ـ البيزنطية لسكان المقاطعات الخاضعة لها بالكلمات التالية : « كان نظام الدولة الرومانية ـ البيزنطية أسوأ من الفوضى اللدودة . أما (البرابرة)،

الذين بدأت الدولة تحمي المواطنين منهم ، فقد انتظرهم المواطنون كمنقذين »(انجلس، المرجع نفسه) . ونتأكد من صحة هذا الوصف في قصص البؤس التي تقدمها الاسفار السورية ، وفي النقد اللاذع في جملة من سطور كتاب بروكوبيوس «الحرب الفارسية».

تتضمن مخطوطة يشوع العمودي (التي تحمل العنوان : « اخبار السنوات العابرة ») موضوعين اساسيين هما : تاريخ حملة « الطاغية البشري » الملك الفارسي قباذ ، وقصص المحن والمصائب التي حلت بمنطقة مابين النهرين السورية . الموضوع الاول يقدم مادة للتاريخ السياسي لمنطقة مابين النهرين السورية. والموضوع الثاني يقدم مادة لوصف نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وتعتبر اسفار يشوع العمودي (باللغة السريانية) من المصادر التي يجبان تقوم بصورة متميزة ، لان مؤلفها يتحدث عن الاحداث التي اشترك فيها وعايشها ، أو كان معاصرا لها . ووصلت هذه الاسفار الى ايامنا هذه في قائمة وحيدة كجزء متمم لما يسمى : ب «أسفار ديونيسيوس التلمحري » التي يعود تاريخها الى القرن التاسع الميلادي (توفي سنة ٨٤٥ م) . لقد ضمت اسفار يشوعالعمودي كلها الى اسفار ديونيسيوس التلمحري، فاصبحت كلا موحدا(١) . ان مخطوطة ديونيسيوس التلمحري التي تدخل فيها اسفار يشوع العمودي هي احدى الكنوز التي وجدت في مكتبة دير السريان بمصر، الذي يقع في برية اسقيط غرب القاهرة . والمعلومات حول هذه المخطوطة مزدوجة . ففي سجل المخطوطات الشرقية للفاتيكان يؤكد السمعاني بانها تعود الى المخطوطات التي جلبت من تكريت في سنة ٩٣٢ على يد رئيس الدير موسى النصيبيني (من مدينة نصيبين السورية) الذي جمع هذه المكتبة(٢) . وفي رواية اخرى للسمعاني ذاته يقول ان هذه المخطوطة قد نسخت مرة ثانيةفي دير السريان بمصر في القرن التاسع او العاشر(٣) ، وهذا الاحتمال اكبر . هذه الاسفار لم تكن معروفة لدى الكتاب السوريين في العصور الوسطى . فلا ميخائيل السوري (توفي سنة ١١٩٩م) ولا ابن العبري (توفي سنة ١٢٨٦) يعرفانها ، بل اعتمدا في كتاباتهما على الاسفار المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) . ولم يعرفها ايضا المؤرخ اغابيوس المنبجي (الذي كتببالعربية)، بل اقتبس أخبار القرن السادس عن زكريا الملطي(٤) . واول من اشار الى مخطوطة يشوع العمودي وغيرها من كنوز الادب السوري (السرياني) هو السمعاني ، العالم الماروني الذي نظم في مطلع القرن الثامن عشر « المكتبة الشرقية » الغنية بمثل هذه الكنوز . فالفصل السادس والعشرون من المجلد الاول (من المكتبة الشرقية) يحتوي على مقتطفات من اسفار يشوع العمودي باللغة اللاتينية(٥) .ان اشارة السمعاني الى مخطوطة يشوع العمودي ، اضافة الى ترجمة بعض المقتطفاتمنها والتعليقات اصبحت معطيات تساعد على استخدام اسفار العمودي كمصدر هام لدراسة تاريخحروب ايران مع بيزنطة في اواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس .

لكن عدم كمال النص لدى السمعاني وغياب النص السوري (السرياني) ، اضافة الى الثغرات الكثيرة ، قد دفع بولين مارتين الى نشر الاصل السرياني لمخطوطة يشوع العمودي مع الترجمة الفرنسية الكاملة له واجراء بعض التصويبات(٦) . ولما كان هذا النص المنشور والمترجم الى الفرنسية تنقصه الدقة التامة ، فقد اخذ العالم البريطاني رايت على عاتقه نشره مرة ثانية . لقد صحح رايت جملة من الاخطاء والنواقص التي ارتكبها سلفه مارتين ونشر النص السرياني مع ترجمته الانكليزية(٧) . وتحدث رايت عن صعوبة الترجمة قائلا انه حاول نقل صورة النص الاصلي وروحه ، فترجمه بالاسلوب الانجيلي الذي يناسب هذا النوع من الاسفار التاريخية . وكانت الملاحظات القليلة التي وضعها رايت تحت السطور موضحا التسميات الجغرافية ذات اهمية كبيرة . لكن اسفار يشوع العمودي في طبعة رايت بقيت بصورة اجمالية دون تفسير . وفي سنة ١٩٤٠ قدمت الباحثة السوفيتية نينا فيكتوروفنا بيغوليفسكايا ترجمة روسية لمخطوطة يشوع العمودي من السريانية مع بعض اللاحظات والتصويبات(٨) .

تتضمن اسفار يشوع العمودي موضوعين اساسيين هما : الحرب البيزنطية ـ الفارسية ، والنكبات التي اصابت منطقة مابين النهرين السورية . لكن الموضوع الثاني اكثر صعوبة بالنسبة للتحليل ، لانه متداخل في موضوع الحرب ويغدو من وقت لاخر الموضوع الاساسي على حساب الموضوع الاول . بالنسبة للمعلومات عن العلاقات البيزنطية ـ الفارسية في الحقبة السابقة لعصره ، فقد استطاع المؤلف استخدام « الكتب القديمة » التي يتحدث عنها معتبرا اياها احدى مصادره التاريخية . وبالنسبة للمعلومات عن الاحداث المعاصرة فقد اشار المؤلف الى الاخبار الشفهية ، فهو يعرف الكثيرين من اولئك الذين يعملون مترجمين في السفارات البيزنطية والفارسية ، ومعظمهم من السوريين . اما في مسائل الحياة الداخلية لمنطقة ما بين النهرين السورية ، فالمؤلف يتحدث بالدرجة الاولى عن الامور التي كان شاهدا عيانا فيها . وفي حالات اخرى يعتمد على الرأي العام الاجتماعي ويستشهد به ، انطلاقا من ان الحقائق المعطاة معروفة من قبل الجميع . فبعد ان يروي الحقائق المؤلمة والمكربة يؤكد المؤلف على صحتها من خلال اثباتها من قبل كافة السكان في مدينة الرها .

كتبت اسفار يشوع العمودي على شكل رسائل ، فهي جواب على عرض احد الاشخاص (يسميه المؤلف : الراهب الارشمندريت سرجيس) الذي توجه الى المؤلف طالبا منه وصف الاحداث التي حصلت خلال السنوات الاخيرة . ويقول المؤلف انه بدا الكتابة دون رغبة ، لانه غير واثق من قدرته على تلبية الطلب ، كما انه لا يملك موهبة حل هذه المسألة المهمة ، التي لم يوفق في حلها اولئك الذين هم « اكبر منه » . من

هو المقصود بهذا التلميح ؟ . الم يقصد المؤلف اثنين من معاصريه اللذين نالا شهرة المجد بفضل انتاجهما الادبي ، وهما يعقوب السروجي (ت : ٥٢١م) وفيلكسينس المنبجي (ت : ٥٢٣) اللذان يذكرهما في اسفاره . بالاضافة الى دوافع التواضع فالمؤلف يشير الى عدم قدرته على « خلط » النصائح بالروايات والقصص المحزنة التي يتحدث عنها. وهذه الصفة الاخيرة من صفاته تستوجب الشكر الجزيل من جانب المؤرخ . وبصرف النظر عن جميع التحذيرات ، فالمؤلف وفق الى حد ما في اداء مهمته . لقد حذا حذو المؤرخين البيزنطيين ورتب السنوات وبعض التواريخ ، « وذلك كيلا يسيء الى الرواية ويشوهها » . لقد بدا له ان الكتابة عن الاسعار وغلاء المعيشة في زمن المجاعة غير مفيدة . لكن الطلب الخاص الذي تقدم به مراسله سرجيس (رئيس الدير) دفعه للتنازل عن موقفه والاعلام عن هذا الموضوع « غير المقبول بالنسبة للادب الرفيع » (حسب راي المؤلف) . وفي حديثه عن القضايا البيزنطية والفارسية ، نجده يستخدم مفردات هذه اللغة وتلك . هناك امور كثيرة تشير الى انه كان يعرف اللغة اليونانية. اما اللغة الفارسية ، فان لم يكن يعرفها ، فهو على اية حال كان مطلعا على مصطلحاتها وعلى التقاليد ووجهات النظر والتيارات الاجتماعيــة المعاصرة في ايــران (كالحركة المزدكية على سبيل المثال) ، حيث اطلق كلمة « هرطقة » على التعاليم التي بشر بها مزدك .

من هو هذا المؤلف الذي رسم الصورة الواضحة للحياة التي عاصرها ؟. لم يتحدث عنه ولم يذكره بشيء احد من معاصريه . فالاسفار سميت باسم يشــوع العمودي حسب اللاحظة الموجودة في وسط النص الذي كتبه الناسخ اليشع (الذي كان راهبا في دير زوقنين ونسخ هذا الكتاب عن الاصل). وينسب الراهب اليشع هذا الكتاب الى يشوع العمودي الذي كتب « اخبار السنوات العابرة » عن النكبات التي حلت بمنطقة ما بين النهرين ، وعن الضرر الذي الحقه بها « الطاغيــة البشري » ــ القيصر الفارسي(٩) . لم يكسب النقد كثيرا اذا ما اعتبر هذه الاسفار بمثابة حاشية منسوبة الى مجمل التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري ، كما قال الباحــث الفرنسي نو(١٠) ، أو اذا نسبها الى شخص مجهول . ليكن المؤلف شخصا غير يشــوع العمودي ، لكن هذه الاسفار قد نسبت اليه .

تشير نصوص الاسفار الى ان المؤلف كان كاهنا او راهبــا . ان طريقة توجــه الارشمندريت (رئيس الدير) سرجيس نحوه ، واحترام المؤلف واصغائه له اثنــاء الاجابات ، والنزعة الكنسية التي تبدو في النصوص بكل جلاء ووضوح ، كل ذلك يدل على ان المؤلف كان من رجال الدين الصغار . فالمؤلف يؤكد دوما اسس ومنطلقــات النظام الكنسي . وهو من حيث المذهب مونوفيزيتي يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح،

علما بانه لم يذكر في أي مكان مايدل على مذهبه . واطلق الباحث جيلزر على يشوع العمودي لقب « المونوفيزيتي السري »(١١) . وبالرغم من أن يشوع لم يخف عواطفه نحو المونوفيزيتيين ، فهو ينتمي الى المعتدلين ويقف موقفا محبا للسلم . فالمشاعر الطيبة التي أبداها المؤلف نحو الامبراطور البيزنطي انستاسيوس عبر صفحات الكتاب قد تبدلت في السطور الختامية ، لان هذا الامبراطور بدل سياسته الدينية في اواخر حكمه واتخذ موقفا عدائيا من المونوفيزيتيين .

ليست هناك معلومات عن ثقافة المؤلف ، لكن قاموسه واسلوبه يدلان على ان ثقافته كانت مدرسية . في سنة ٤٨٩م اغلق الامبراطور البيزنطي زينون «مدرسة الفرس » (مدرسة السوريين النساطرة) في مدينة الرها ، بسبب انتشار النسطورية فيها على نطاق واسع ، فهرب الاساتذة النساطرة الى المناطق التي يحكمها الفرس وواصلوا نشاطهم التعليمي في مدينة نصيبين السورية (قرب القامشلي) التي ازدهرت مدرستها طوال قرون عديدة(١٢). وكان على المونوفيزيتيين والملكيين الخلكيدونيين الباقين في مدينة الرها السورية بعد اغلاق مدرسة النساطرة أن يواصلوا تقاليد هذا المركز التعليمي . ويدل على ذلك ان الرها كانت عبر العصور مركزا ثقافيا تخرج منه المثقفون السوريون من ذوي الاتجاهات الدينية المختلفة . لقد نسخ في الرها عدد كبير من المخطوطات ، وهذا ما يؤكد مرة اخرى وجود المدارس التي كانت تعد كوادر الناسخين والكتبة . ومن المحتمل ان يشوع العمودي كان في عداد معلمي المدرسة ، الامر الذي يجعل مخاطبة الارشمندريت له مفهومة . ويتحدث المؤلف أيضا عن بعض الاشخاص فيسميهم « الاخوة من مدرستنا »(١٣) .

يمكن ان يطرح تاريخان بخصوص زمن تأليف هذه الاسفار : سنة ٥٠٧ ، او سنة ٥١٨ . كتبت الاسفار تحت تأثير انطباع مباشر « للنكبات والكوارث » التي ولت منذ فترة وجيزة ، واخر تاريخ لها كان ٢٨ تشرين الثاني سنة ٥٠٦ . اتى النص على ذكر جوستينوس الذي خلف انستاسيوس على العرش البيزنطي ، فمنحه لقب الدوق (الدوكس) دون اية اشارة الى وضعه المستقبلي كامبراطور . لكن الكلمات المتعلقة بسياسة الامبراطور انستاسيوس غير المرغوبة في نهاية حكمه (بسبب معاداته للمونوفيزيتيين) تعود الى سنة ٥١٨ التي توفي فيها ذلك الامبراطور . ويرى الباحث رايت أن هذا الجزء من الفقرة الاخيرة للاسفار عبارة عن حاشية اخيرة اضيفت مؤخرا للاسفار ، في حين ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، ويعتقد الباحث جيلزر ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، لكنه يعترف بان الحاشية مكتوبة من قبل المؤلف نفسه بعد موت الامبراطور انستاسيوس ـ أي عندما صمم على نشر مؤلفه . ووافق نولدكه على وجهة النظر هذه ، لكنه بدل رأيه فيمابعد وقال ان الاسفار كتبت في فترة متأخرة

عن سنة ٥٠٧ بعض الزمن(١٤) . وطالما ان المؤلف يتحدث عن رفاهية مدينة الرها وعن الهدوء والسلامة التي سادتها بعد النكبات والمصائب التي حلت بهـا ، نجد ان مـن الضرورة الافتراض بان ردحا كبيرا من الزمن مضى حتى تمكنت المدينة ومنطقتها مـن العودة الى صحوتها والنهوض على قدميها . وعلى اية حال ليس لدينـا اية مبررات نستند اليها في نسب كتابة الاسفار ونشرها الى فترة مابعد سنة ٥١٨م . ويمكن للمرء ان يأسف فقط لنقطة واحدة ، وهي ان مؤلف الاسفار يشوع العموي لم يحقق رغبته الحارة في الكتابة عن « ازمنة النعم والرخاء » في منطقة مابين النهرين السورية كما وعد مراسله سرجيس ، او لربما ان مثل هذه الكتابة فقدت بالنسبة لنا كغيرها مـن كنوز الادب السوري .

ان الراهب او الكاهن ، او ربما معلم المدرسة ،يشوع العمودي لا يعتبر ممثلا للطبقة العليا في الكنيسة . فالاساقفة والبطاركة ورؤساء الاديرة كانوا ينتمـون الى المراتب العليا ، كما كانوا من كبار ملاكي الاراضي ويتصرفون دون اية رقابة بأموال الكنائس والاديرة . وعلى هذا فان مصالح هذه الجماعة ــ القمة ــ كانت ذات المصالح لدى الاغنياء والوجهاء الاخرين . ففي الاسفار لا نجد اية اشارة تدل على ان المؤلف يتبنى مصالح الطبقة العليا في المجتمع ، بل على العكس ، فعبر الكتاب كله نجـده يولي اهتمامه « للفقراء والبسطاء والتعساء » . لقد طالته هو نفسـه الاسعار العاليـة التي فرضت على المواد الغذائية ، فهو يقول : اننا « نحن » عانينا من غلاء المعيشة . وهـو يغضب كانسان عاني من الرشوة ، ومن التوزيع الظالم لاقامة الجنود البيزنطيين في مدينته . انه اذ يتحدث عن الدعاوى والمخاصمات والمضايقات ، يقف الى جانـب الناس « الصغار » المعتدى عليهم والمهانين . ينتمي يشوع العمودي الى رجال الديـن الصغار . وكانت حياة الحرفيين والفلاحين اقرب اليه من حياة النبلاء الاغنياء ، لذا كان من السهل عليه فهم مصالح هذه الطبقات الكادحة من الشعب . لكنه يخشـى الاحتجاج والتذمر والتمرد . فهو يوبخ « المقدامين » و « الوقحين » الذين يفعلـون « ما لا يليق » بممثلي « الشعب البسيط » ، والذين صموا على كتابة احتجاجهم في « مواثيق » وتعليقها في الاماكن العامة داخل المدينة . ان العمل ضد « سلطة كبـار الملاكين » يبدو له غير مقبول . ففي كلماته نجده يحاول تسوية الصراع بين القائـد كيليروس وسكان الرها ، لكنه يفعل ذلك دون ثقة او معرفة . فهو لا يجرؤ على التعبير عن ذلك ، وخائف من ان اولئك الذين « يحبون اللوم والعتاب » سينشرون الشائعـات بانه يتكلم « ضد القادة » . انه مسلح بوجهة نظر انسانية تجاه الاحداث . فبصرف النظر عن انه من انصار بيزنطة ، كانت ممارسات جنودها في ايران تثـير استنكاره . فإبادة جميع الذكور من السكان ، وحرق القرى واتلاف كروم العنب تبدو له اعمـالا شنيعة وشائنة . انه يتحدث برعب صارخ عن حقائق « اكل لحوم البشر » .

والمؤلف نفسه يعتبر اخباره صادقة وحقيقية . انـه اذ يخشى مـن ان بعض الحقائق التي اوردها : كالمجاعة المرعبة بعد قدوم الجراد ، والطاعون الرهيب ، قـد تثير الشكوك لدى اولئك الذين سوف يعيشون « بعده » لذا يؤكد حقيقـة كلماتـه وصدقها بقوله : « ان الاخبار التي اقدمها في هذا الكتاب يشهد على صحتها جميـع الناس في منطقتنا » . وبعد التحليل الدقيق لا تظهر لدينا اية شكوك بمصداقية هذه الاسفار .

ولا جدال في ان اسفار يشوع العمودي افضل مصدر بالنسبة لتاريخ الحـرب البيزنطية ـ الفارسية في عهد انستاسيوس وقباذ . لقـد حافظ هذا المصـدر على النضارة الحية لبعض الحوادث التي لم تفقد العلاقة العامة وتسلسل الاحداث ، ولذا جلب اهتمام بعض الباحثين(١٥) . لكن هناك الكثير من الامور التي تحتاج الى عمـل اضافي في هذه المعطيات ، كما تحتاج الى استخدام مصادر اخرى معاصرة لايضاح صورة البحث الذي بين ايدينا .

٢ ـ في الجغرافية التاريخية لمنطقة مابين النهرين السورية :

بعد ان احتل الفرس الاخمينيون بابل وعزلوا الاسرة الكلدانية عن عرشها (سنة ٥٣٩ ق.م) تشكلت في المنطقة العربية الممتدة من الخليج العربي الى منابـع دجلـة والفرات ولاية (ساترابيا) ادارية واحدة يحكمها وال فارسي وتدعى « ولاية بابل » . وعندما اسقط الاسكندر المكيدوني العرش الفارسي الاخميني قسمت تلك المنطقـة العربيـة (في سنـة ٣٣١ ق.م) الى ولايتين : الاولى هي ولايـة مابـين النهرين (ميسوبوتاميا) ، او ولاية اسيريا (اشور) في الشمال ، والثانية هي ولاية بابل في الجنوب . وفي البدء اطلق المكيدونيون اليونانيون على ولاية مابين النهرين اسم « سيريا ميسوبوتاميا » Syria - Mesopotamia اي سوريـة الواقعـة في مابين النهريـن (دجلة والفـرات) . وفيما بعد اختصر اليونانيـون التسمية المزدوجـة « سيريـا ميسوبوتاميا » ، فحذفوا اسم سورية وابقوا على اسم « ميسوبوتاميـا » التي تعني ما بين النهرين ، وذلك تسهيلا لاستعمال اللفظ(١٦) .

وبعد موت الاسكندر المكيدوني (في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ق.م) احدث خلفاؤه (في سنة ٣٢١ ق.م) بعض التعديلات الادارية ، فضموا منطقة اديابينا (الواقعـة الى الشرق من دجلة والممتدة حتى مدينة اربيل) الى ولاية « سيريا ـ ميسوبوتاميا » اي الى سورية في مابين النهرين . وفي عهد الملوك السلوقيـين (خلفاء الاسكندر في سورية) انشئت في المنطقة الشمالية الممتدة الى الشرق من نهر دجلة ولاية ادارية

سلوقية منفصلة عن ولاية مابين النهرين ، واطلق عليها اسم « بارابوتاميا » (أي ما وراء النهر) Parapotamia (ذكرها وعين موقعها المؤرخ بوليبيوس (٥،٤٨ ، ١٦ — ٦٩ ، ٥) (١٧) .

وكان اسم « اوسروينا » قد اطلق على ولاية ما بين النهرين الجنوبية (مركزها الرها) في سنة ١٣٢ قبل الميلاد . ومنشأ التسمية يعود الى ان الملك السلوقي في سورية قد عين في الرها حاكما اداريا على ولاية ميسوبوتاميا الجنوبية شخصا ايراني الاصل اسمه اوسرويا . ورغم ان اوسرويا هذا لم يحكم تلك الولاية سوى خمس سنوات (١٣٢ — ١٢٧ ق.م) فقد التصق اسمه بها في المصادر التاريخية قرونا عديدة . وكان من الاصح ان تسمى باسم « الولاية العربية » ، حيث كان معظم سكانها من القبائل العربية ، كما حكمها ملوك عرب منذ ذلك التاريخ (وقبله) حتى العهد البيزنطي . ففي سنة ١٢٧ قبل الميلاد استلم الحكم في الرها (تحت السيادة السلوقية) ابو بار مازور زعيم احدى الاسر العربية التي استأثرت بعرش ولاية اوسروينا بضعة قرون . وعندما كلف بومبي القائد الروماني كراسوس بخوض الحرب مع الفرس الباريثيين (سنة ٥٤ ق.م) وقف الى جانبه كل من الابجر الثاني ملك اوسروينا العربي الاصل ، والخودوني زعيم احدى الاسر العربية المسيطرة على القبائل العربية التي كانت تعيش حياة شبه بدوية الى القرب من نهر الفرات(١٨) .

في عصر الاحتلال الروماني كانت الاراضي السورية الخاضعة للرومان في المنطقة الممتدة الى الشرق من الفرات مقسمة اداريا الى منطقتين : الاولى ، هي منطقة ما بين النهرين الشمالية ومركزها مدينة آمد ، والثانية هي منطقة مابين النهرين الجنوبية (اوسروينا) ومركزها مدينة الرها (اديسا) . وفي القرن الرابع الميلادي (بداية العصر البيزنطي) كانت تلك المناطق السورية كلها معا تعرف باسم « ولاية مابين النهرين واوسروينا » Mesopotamia et Osroena Provinciae (١٩) . ويسميها بهذا الاسم ايضا بروكوبيوس المؤرخ البيزنطي في القرن السادس الميلادي(٢٠) . في زمن الاحتلال الروماني — البيزنطي حافظت مدينة الرها على اسمها السوري «أورهاي» ذي المنشأ الاقدم والمرتبط بالعرب . وفي عصر الخلفاء المسلمين حرف اسم «أورهاي» الى « الرها » ثم الى « اورفة » بعد ان احتلها الاتراك . واشار المؤرخ بلينيوس الاكبر (في كتابه : التاريخ الطبيعي) الى ان نهر دجلة كان يمثل الحدود الشرقية للقبائل العربية التي يسميها « عرب الرها » Arabes Oraei (٢١) .

بصرف النظر عن ان يشوع العمودي قد نسب اسفاره التاريخية الى منطقة مابين النهرين السورية كلها ، فانه من الناحية الفعلية تحدث بالدرجة الاولى عن مدينة

الرها التي تقع في مركز اهتماماته . كانت الرها (اديسا حسب التسمية اليونانية) العقدة التي تلتقي فيها مجموعة كاملة من الطرقات ، بعضها يتجه من الغرب الى الشرق ، والبعض الاخر يربط بين الاجزاء الشمالية والجنوبية لمنطقة مابين النهرين السورية . وكان البيزنطيون والفرس معا ينظرون الى الرها بمثابة مفتاح للدخول الى عدد من مناطق ما بين النهرين . فالى الغرب من الرها تقع مدينة بيرجيك (افاميا). وفي الطرف المقابل ، على الضفة اليمنى لنهر الفرات تقع مدينة زيجما . من هناك كانت تمر احدى الطرق القادمة من سورية الوسطى والغربية باتجاه ما بين النهرين .الى الجنوب وعلى الفرات تقع بلدة معروفة في العصر الروماني وما بعده كقلعة وهي اوروبوس او دورا المشهورة اليوم باعتبارها مكانا لاثار القرنين الثاني والثالث الميلاديين (٢٢) . وعلى الفرات ايضا تقع مدينة سميساط . وعند مصب نهر ديصان (الذي تقع عليه مدينة الرها)في نهر غولاب (جلاب) تقع مدينة حران ، التي يتحدث منها يشوع العمودي ، فيقول انهاتعرضت في زمن الحرب البيزنطية ــ الفارسية الى هجوم العرب (ربما يقصد عرب المناذرة) . الى الجنوب من حران ، وبالقرب من الفرات تقع مدينة كالينيكوس (الرقة) ، التي أحيطت بسور في سنة ٤٤٩م ، فأطلق عليها فيما بعد اسم اخر هو ليونتو بوليس (على اسم الامبراطور البيزنطي ليون الاول ٤٥٧ ــ ٤٧٤) . الى الشرق من الرها تقع مدينة نصيبين (بجوار القامشلي)، التي بقيت فترة من الزمن تحت السيطرة الرومانية ــ البيزنطية ، ثم انتقلت الى أيدي الفرس ، ومن ثم ظلت تمثل تفاحة الخصام بين ايران وبيزنطة . الى الشمال من نصيبين ، وعند الحدود الفارسية البيزنطية مباشرة كانت تقع مدينة دارا التي حصنها الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) وجعل منها مركزا عسكريا لحماية الحدود . وفي منتصف الطريق بين دارا والرها كانت تقع مدينة ألتلة المحاطة بالاسوار والتي تمثل مركزا عسكريا هاما للبيزنطيين(٢٣) . وكانت مدينة آمد التي تقع على نهر دجلة (الى الشمال من تلة) مسورة باسوار صعبة المنال ، كما كانت مركزا تجاريا عظيم الشأن(٢٤) .

في مطلع القرن الخامس كانت الرها مدينة كبرى من حيث عدد السكان والتحصين الجيد . كان فيها المسرح والسرك والحمامات العامة وانابيب المياه والورشات الصناعية ومعامل السلاح الحكومية . وكانت توجد بوابات على نهر ديصان الذي يجري في وسط الرها . وبعد هجوم ملك المناذرة النعمان على الرها صنعت لهذه البوابات (في تشرين الثاني سنة ٥٠٢ ــ ٥٠٣) مزالج (ترابيس) ، والاصح انها صفحت بالحديد لجعلها عصية على من تراوده نفسه اقتحام المدينة عن طريق النهر ، ولم يتوفر الحديد اللازم لتنفيذ هذا العمل ، ففرض على كل بيت بصورة الزامية في مدينة الرها ان يقدم(١٠) ليتر (وزن يوناني) من الحديد(٢٥) . كان نهر ديصان يتحول الى سيل عارم عكر في

الربيع والخريف ، فيفيض من الضفتين ويغرق القطاع المنخفض من المدينة . وكانت الفيضانات المتكررة تسبب ضحايا بشرية . وفي عهد الامبراطور جستنيانوس (٥٢٧ـ ٥٦٥) كانت مياه « الفرس الاصيلة او السريعة » (نهر ديصان حسب التسمية اليونانية) توجه باتجاه الشمال في مجرى خاص محفور في الصخر خلف سور المدينة(٢٦) . ويتحدث يشوع العمودي عن وجود انبوبين للمياه كانا ممدودين الى المدينة من قريتي تل زيما وموداد الواقعتين الى الشمال من الرها ، وقد تم تجديد هذه المجاري المائية المارة على قناطر مرتفعة في عهد الوالي البيزنطي افلوغيوس سنة ٥٠٥ ميلادية(٢٧) . وكانت المياه خارج حدود الرها تصب في اقنية للري لتسقي البساتين وكروم العنب .

طبقا للوصف الذي يقدمه المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، كانت الاسوار المحيطة بمدينة الرها مؤلفة من صفين ، الاول يمثل جدارا عاليا ترتفع عليه الابراج . وامام الجدار ذي الابراج كان يمتد منخفض يفصله عن الجدار الثاني(٢٨) . وتعتبر القلعة واحدة من اروع الابنية الحصينة في مدينة الرها . تقع هذه القلعة في ساحة جبلية ترتفع عن مستوى المدينة بحدود مئة متر ، كما انها محاطة بخنادق عميقة ومحمية بابراج مزودة بقاذفات وتروس(٢٩) .

كان الشارع الرئيسي في الرها يمتد من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وعلى امتداد كورنيش نهر ديصان . وكانت الاروقة على امتداد الشارع ، وفيها تواجد الحرفيون وورشاتهم . هناك كانوا يبنون حوانيتهم ومصانعهم التي تغطي كورنيش النهر كله . البناء الذي يسمى « انتيفورس » ويذكره يشوع العمودييتوجب افتراض وجوده مقابل الساحة العامة (٣٠) . أما بروكوبيوس فيقول بان هذا البناء الذيهدمه الفيضان قد رمم في عهد الامبراطور جستنيانوس(٣١) . وكان في المدينة حمامات صيفية وحمامات شتوية (٣٢) . اما الحمامات الشعبية الجديدة فقد شرعوا ببنائها في عهد الحاكم الكسندر سنة ٤٩٧م في المكان الذي كان قد اقترح ان تبنى فوقه قبل مدة طويلة من الزمن ، وهو الى جانب مستودع الحبوب الحكومي(٣٣) أما المستودعات والعنابر الحكومية (التي بنيت الحمامات بجوارها) فيذكرها يشوع العمودي فيروايات عديدة . وكانت تخزن في تلك المستودعات وغيرها المواد الغذائية التي ترد بمثابة ضرائب عينية(٣٤) . وكانت اقامة الوالي البيزنطي في البناء الذي يسمى «بريتوريون» ـ أي قصر الوالي . وخلف سور المدينةعند مدخل بيت شمش كان يوجد بناء عبارة عن مستشفى وبيت العجزة Hospicium (٣٥) .

ومن المنشآت العامة في الرها ميدان سباق الخيل الذي كان موجودا في الحي الشمالي من المدينة منذ عصر استقلالها . ففي هذا الميدان كانت تجري مباريات سباق

الخيـل والمصارعات بين الحيوانات المتوحشة . لكن تلك الالعاب منعت في عهـد الامبراطور انستاسيوس الاول ٤٩١ ـ ٥١٨(٣٦) . أما المسرح الذي يقع في الجزء الشرقي من المدينة، فكان مكانا لمشاهد مفرحة خاضت الكنيسة المسيحية ضدها حملة قاسية، لكنها لم تتمكن من منعها . وكانت من روائع ذلك المسرح المسرحيات والتمثيليات التي ترتبط بالاحتفال بالعيد الوثني في مطلع شهر ايار ، الذي بقي قيد الممارسة الفعلية في الامبراطورية البيزنطية حتى القرن السادس الميلادي . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا العيد الوثني باشمزاز وغضب واستنكار ، لكنه يعطيه وصفا حيا . ذلك العيد كان محببا من قبل الاسلاف « الاباء » ، الذين يطلق عليهم يشـوع العمودي اسم « الجهلاء». في سنة ٤٩٧ ـ ٤٩٨ كان الاحتفال بهذا العيد يجري على الشكل التالي: « ها هو وقت العيد يقترب من جديد ، العيد الذي تنشد فيه الاساطير الوثنية ، وكان سكان المدينة يبذلون جهودا اكثر مما مضى . خلال سبعة ايام كانوا يهرعـون جماعات جماعات الى المسرح في اوقات المساء ، يرتدون الالبسة الكتانية والعمائـم ويسيرون بارداف مباحة . كانت الشمعدانات (المصابيح) تضيء أمامهم ، ودخان البخور يتصاعد ، وهم في حركة دائمة طوال الليل ، يتجولـون في المدينـة مباركين الراقصين حتى الصباح بالاغاني والاناشيد وهتافات الفطرسة والشموخ(٣٧) . ويتحدث المؤرخ يشوع العمودي عن الاحتفال بذلك العيد الوثني في سنة ٤٩٥ ـ ٤٩٦ فيقول : « ارتدت المدينة حلة من الزينات بمناسبة العيد ،كما اشعلت اعداد كبيرة من المصابيح. ولم يكن مثل هذا التقليد يمارس في المدينة من قبل . من بوابة المسرح حتى بوابـة المغارات وضعت على الارض بمحاذاة النهر المصابيح المشتعلة ، كما علقـوا بعضها في الاروقة والشوارع العليا واماكن اخرى كثيرة »(٣٨) .

في المنطقة المرتفعة من مدينة الرهابنيت قصور الاغنياء التي كانت مليئة بالمفروشات والسجاد والالبسة والاواني الثمينة . عن غنى وثراء الطبقة المستغلة في المدن السورية الواقعة على طرق القوافل التجارية في منطقة مابين النهرين يمكننا ان نحكم من خلال ما ترويه الاخبار التاريخية المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) حول الكنوز التي نهبت من مدينة آمد على يد الملك الفارسي قباذ . ويذكر الكاتب من تلك الكنوز : التماثيل، الساعات الشمسية ، المرمر ، البرونز ،الذهب والفضة ، الالبسة الثمينة(٣٩) . الى جانب صورة الترف والبذخ في قصور الاغنياء ، كانت هناك صورة تمثل الفقر المرعب للطبقات الشعبية الكادحة التي تقطن في الاكواخ والخيام المثيرة للشفقة . فالالبسة الفاخرة الثمينة التي كان يرتديها الحكام والاغنياء كانت تتميز على خلفية الثياب الرثة التي كان الفقر يغطي بها عورته . وهكذا كان التباين بين الطبقات الغنية والفقيرة صارخا وملفتا للانظار .

كان سكان الرها يتألفون من شعوب مختلفة . لكن السكان الاساسيين للمدينة ومنطقة اوسروينا كانوا من السوريين (العرب القدماء) ، كما كانت لغتهم السريانية هي اللغة السائدة في سورية العظمى كلها . وحتى منتصف القرن السابع الميلادي كان السوريون يسيطرون على خيوط العلاقات التجارية في الشرق والغرب ، كما كانوا في قطاع كبير من الميادين الصناعية دون منافس او مزاحم . وكان الرومان واليونانيون والفرس يشكلون بعض المجموعات في الرها وغيرها من المدن السورية في منطقة مابين النهرين . اضافة الى تلك الاقليات كان ياتي مع القوافل التجارية ويخرج عبر الاف السنين الجورجيون واللازيون والكوديشيتيون والتيموريون والمصريون والاحباش والهنود . وطبقا لذلك كان اللباس متنوعا ، والعادات والتقاليد مختلفة ومتباينة . وكانت خليطة ايضا اللغات واللهجات التي تتحدث بها جماهير المنطقة في ذلك العصر . وكذا كانت متباينة المعتقدات الدينية : الوثنية بكافة المظاهر والاشكال ، الزرادشتية، اليهودية ، المسيحية بكافة مذاهبها واتجاهاتها ـ كل هذه الديانات كانت موجودة جنبا الى جنب في منطقة مابين النهرين السورية .

تعتبر الرها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مدينة نموذجية من مدن الشرق الادنى . فهي مدينة صاخبة خليطة يتكلم سكانها بلغات عديدة . المظهر الخارجي للمدينة (بأبنيتها المحصنة واسوارها والمباني العامة وانابيب المياه) كان رومانيا ـ بيزنطيا . لكن الحياة الصاخبة كانت تشبه حياة كل المدن الشرقية بأسواقها ودكاكينها ومسارحها ومواكبها الطويلة . أعيادها واحتفالاتها التي تقام في الشوارع والساحات تذكر بالامواج المضطربة بعنفها وشدتها . الصناعة والتجارة والترف والثراء والذهب والحجارة الثمينة ـ كل هذا كان يجذب الناس الى الرها ، كما كان مادة لاطماع جيرانها العسكريين الفرس ، ولكن لم يقدر لهم اغتصاب هذه اللؤلؤة السورية من ايدي جيرانهم البيزنطيين .

٣ ـ العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في المدن السورية :

آ ـ التركيب الطبقي في المدن السورية :

١ ـ الحرفيون والعمال :

كانت الغالبية العظمى من سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين تتالف من الصناع والحرفيين المنظمين في جمعيات حرفية تشرف عليها الحكومة ، اضافة الى عدد كبير من العمال المياومين والعبيد والمحررين من العبودية . وتطلق اسفار

يشوع العمودي السورية على الصناع والحرفيين اسم « يوماني » ، وهذه التسمية السريانية تقابل التسمية اليونانية « تخنيتس » technites والتسمية اللاتينية « فابريكاتر » Fabricator (٤٠) . ويطلق هذا الاسم عادة على الصناع المهرة او الحرفيين المجربين . لكن مضمون المصطلح « يوماني » لا يقتصر على هذا المعنى ، حيث تطلق اسفار يشوع العمودي اسم « يوماني » أيضا على العاملين غير الفنيين وغير المؤهلين . وهذه المصادر السريانية لا تفرق في المصطلحات أحيانا . فعن الحمامات التي كانت تشيد تقول هذه الاسفار التاريخية ان عددا كبيرا من « الناس » كانوا يعملون فيها(٤١) . والقانون السوري يطلق على الحجارة الذين يبنون الابنية الحجرية اسم « يوماني » ويقصد بذلك الصناع او الحرفيين(٤٢) . وعندما اقتضت الحاجة للقيام بحفريات قرب مدينة آمد السورية استدعي الحرفيون لهذا العمل من مدن اخرى ، كما ساعدهم في ذلك العمل « القرويون »(٤٣) . لم يكن « اليوماني » (الصناع او الحرفيون) في القرن الخامس الميلادي يمثلون فئة واحدة ، بل كانوا مجموعة غير متجانسة من الناس الذين لا يمارسون العمل الزراعي . كان يطلق « يوماني » على العامل المياوم غير المؤهل الذي يتحمل اعباء ثقيلة مثل العبد ، كما يطلق أيضا على صاحب الحرفة الماهر الذي يملك مشغله وحانوته الذي يبيع فيه انتاجه الصناعي . ونعرف عن العمال المياومين انهم كانوا « يقفون في سوق العمال » منتظرين دعوتهم الى العمل . وكانت ظروف عملهم اشبه ما تكون بظروف عمل العبيد ، كما كانت أجورهم تؤخر ، وأحيانا لا تدفع ، او تدفع منقوصة(٤٤) . كان اصحاب الاعمال يسيئون الى العمال بشتى الوسائل ، مستغلين قدراتهم الاقتصادية وامتيازاتهم القانونية .

وتعطي الإسفار التاريخية معلومات عن دفع الاجور . فالتنافس الدائم بين عمل هؤلاء العمال الاحرار وعمل العبيد ، والظروف الحياتية البائسة ، والغش والخداع أثناء حساب الاجور ــ كل هذا كان يعاني منه هؤلاء الكادحون . ويمكن الاشارة الى معلومات عن الاجور في القرنين السادس والسابع . كان الحجار في مصر والمياوم يحصل على « كيراتيون » (عملة فضية صغيرة) واحد في اليوم(٤٥) . وتقدم الاسفار التاريخية السورية المنسوبة الى زكريا الميتيليني (المطلي) معلومات عن اجور عمال البناء في المدن السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لكن هذه المعلومات تحتاج الى تحليل . لقد اختار الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ ــ ٥١٨ م) مدينة دارا الصغيرة لتكون مركزا ستراتيجيا جديدا على الحدود مع الفرس . وعلى جناح السرعة اخذ الصناع والعمال يبنون الاسوار ويمدون الانابيب لجر المياه من الجبال الى صهاريج مصنوعة خصيصا لحفظ الماء . بني كذلك مستودع للحبوب وحمامات وغيرها من الابنية ذات الخدمات الاجتماعية . وكان الهدف من هذا كله تامين المعيشة في المدينة في حال وقوعها تحت حصار الاعداء الفرس . ألح الامبراطور انستاسيوس بالاسراع

في عملية البناء وكلف توما اسقف آمد بالاشراف على ذلك العمل . اخذ الاسقف توما يتردد كثيرا على مكان العمل ويرسل وكلاءه احيانا . هذه التفاصيل التي أوردها زكريا الملطي لم يعرفها المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، الذي اشار في كتابه De aedificiis بملاحظات موجزة عن دارا ، شأنه في ذلك شأن تيوفانس في حولياته التاريخية(٤٦) . أما المصدر السوري (زكريا الملطي) فيذكر المرسوم الخاص الذي أصدره الامبراطور انستاسيوس ، ويفيد بان النقد كان يسك بكميات كافية، كما وعد الامبراطور الاسقف توما بتغطية كافة النفقات المتعلقة بالبناء . تطلب جمع المواد ونقل الحجارة ايدي عاملة كثيرة ، ولذا استدعى الحرفيون « يوماني » والعبيد « عبدي » والفلاحون « بلاحي » الى مدينة دارا ، كما أرسل اليها عدد كبير من الحجارين والنحاتين . وأمر الامبراطور « بالا يساء لاحد في اجرة عمله الذي انجزه »(٤٧) .

وبفضل « الكرم » بدفع الاجور انجز بناء القلعة خلال وقت قصير نسبيا . كان مراقبو العمل يحصلون على أموال طائلة ملأت جيوبهم (٤٨) . ومما ساعد في جذب الناس الى العمل في بناء قلعة دارا ان دفع الاجور كان يتم دون تأخير ، في حين كان العاملون في اماكن اخرى يعانون عادة من التأخر والغش في دفع الاجور . كان البناؤون والنحاتون قد ارسلوا خصيصا من المدن الكبرى . اما الباقون فكانوا من المياومين الذين من بينهم الحرفيون والفلاحون والعبيد المرسلون من قبل أسيادهم ليعملوا ، فيأخذ الاسياد أجرة عملهم . « امتلأت الجيوب » ، « أثرى الكثيرون » ، هكذا يقول المؤرخ السوري زكريا الملطي ، وكان محقا بالنسبة لمراقبي العمال وحدهم .

يجب فهم المعلومات التي يقدمها زكريا الملطي عن اجور العمل اليومي بحذر . « كان العامل (بيالا) يحصل في اليوم الواحد على اربعة كيراتيون ، واذا كان معه حماره، فيحصل على ثمانية كيراتيون»(٤٩) . يثير هذا الاجر المرتفع بعض الشك ، لان الاجر اليومي للعامل لم يتجاوز عادة كيراتيونا واحدا . وتفسر اسباب هذه الزيادة في الاجور بضرورة الاستعجال في تنفيذ البناء ، وبضرورة اجتذاب العمال لانجاز هذا العمل الذي له اهمية ستراتيجية كبيرة . الى جانب ذلك يجب الانتباه الى ان سعر القمح (الذي ذكره يشوع العمودي في سنة ٥٠٤ـ٥٠٥م) بلغ اربعة كيراتيون للمد الواحد (المد = ٢٠ كغ) . بدء البناء في قلعة دارا بعد عقد الصلح بين الفرس والبيزنطيين . في ذلك الحين كان القمح ينقل من الرها الى آمد ودارا ، ولذا كانت اسعار القمح في آمد ودارا بقدر ماهي عليه في الرها تقريبا او اكثر بقليل. وربما هبطت اسعار القمح بعد سنة ٥٠٥ ميلادية ، لكن من المحتمل ان اجور العمال المرتفعة التي افاد بها زكريا الملطي كانت نتيجة ارتفاع سعر القمح في ذلك الحين .

بنى الحرفيون في شوارع الرها وساحاتها مصانعهم وحوانيتهم(٥٠) ، وهم لم يسكنوا فيها ، بل كانوا يأتون اليها مع صناعهم للعمل فيها خلال النهار . في تشرين الثاني من سنة ٥١٣ حسب التقويم اليوناني (أي في سنة ٢٠١ ميلادية) حدث في مدينة الرها السورية فيضان كبير أغرق القسم المنخفض من المدينة(٥١) . لقد خرج نهر ديصان (الذي تقع عليه الرها) عن شطآنه ، فسبب كارثة كبيرة . وعلى هذا أمر ملك الرها العربي (الابجر الثالث عشر) « بأن يبعد حرفيو المدينة حوانيتهم عن النهر ، والا يبني أحد منهم حانوتا له قرب النهر »(٥٢) . والحانون (بالسريانية حانوتا، وباليونانية ارغستيريا) كان بمثابة مشغل لصنع المواد والادوات ومكان يجرى فيه البيع في الوقت نفسه . كان كورنيش نهر ديصان الشارع الرئيسي المفضل للصناع في الرها . ففي القرن الثالث كان هذا الشارع كثير الحركة والنشاط ، وبقى هكذا في القرن الخامس ، حيث كان يتجمهر فيه الشعب في ايام الاعياد ، كما كان ينار بشكل غير عادي(٥٣) . وتجنبا للضحايا البشرية عند تكرار الفيضانات امر الملك الابجر أيضا بأن « على كل من يجلس في الاروقة ويعمل قرب النهر الا ينام في حانوته من تشرين الاول حتى نيسان »(٥٤) . هذا الامر أخذ بعين الاعتبار أولئك الحرفيين الذين مارسوا عملهم وتجارتهم في هذه المشاغل ، واحيانا كانوا يقضون ليلتهم فيها . أما المنزل ، مكان العيش الدائم ، فكان في مكان اخر من المدينة ، وربما في مكان ما من الضواحي. واستخدمت الاروقة كمكان مسقوف يستطيع الصناع عرض انتاجهم وبيعه فيه .وقد اقيمت الاكشاك في تلك الاروقة المسقوفة لتجنب وطأة الشمس المحرقة والامطار . وغصّ الشارع الرئيسي بتلك الاكشاك ، مما اضطر حاكم المدينة البيزنطي الكسندر (في سنة ٤٩٦ـ٤٩٧) ان يأمر بخلعها وإزالتها بغية تنظيم المدينة(٥٥) . وكانت الاوساخ ونفايات الانتاج تلقى في ذلك الشارع ، فأمر الحاكم الكسندر باتخاذ مايلزم من اجراءات لتنظيف المدينة من تلك الاوساخ ، خاصة وان مرض الطاعون وغيره من الامراض السارية الجماعية ظلت تهدد مدينة الرها السورية باستمرار(٥٦) .

وعلى غرار الجمعيات الحرفية لعمال المخابز (التي توجد معلومات تفصيلية عنها في المصادر التاريخية) شكل الحرفيون الاخرون في المدن السورية جمعيات حرفية (نقابات) منظمة . وكانت تلك الجمعيات الحرفية تعمل بعلم وسماح من حاكم المدينة الذي يشرف على تنظيمها(٥٧) . وكانت لدى حاكم المدينة قوائم بأسماء الحرفيين من أجل تلبية احتياجات الخزانة بالضرائب .

٢ ـ الملاكون الكبار :

كان أباطرة روما ومن ثم بيزنطة يملكون في الولايات السورية اراضي خاصة بهم . وقد اشار الى تلك الاملاك القانون البيزنطي الصادر في سنة ٣٨٦ بالعبارة التالية :

« الاملاك الامبراطورية في ولايتي ما بين النهرين واوسروينا » **Fundi Patrimoniales per Mesopotamiam et Osroenam Provincam** (٥٨)

ان المصطلح اللاتيني « فوندي باتريمونياليس » **Fundi Patrimoniales** قد اطلق عادة على املاك الاباطرة الزراعية التي كانت ، كما اشير ،وراء الفرات. ومن المحتمل ان الاملاك الزراعية التي كانت تخص ملوك الرها العرب قد انتقلت ملكيتها الىالاباطرة الرومان بعد الاحتلال الروماني للمنطقة . وفي مطلع القرن السادس الميلادي امتلك الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بعض الاراضي الزراعية قرب حصن دارا وجعلها تابعة للدولة .

اضافة الى الاملاك الزراعية التي تخص الاباطرة والدولة البيزنطية المستعمرة ، كانت هناك املاك كبيرة تخص « الاغنياء ورفيعي الشأن والمقام» من السكان السوريين. وتطلق المصادر السورية (السريانية) على هؤلاء الاغنياء والوجهاء والاعيان المحليين اسم « روبان » المشتق من الاصل العربي القديم « ربّ » . انهم وجهاء المدينة الذين يتألفون من كبار الموظفين وكبار رجال الدين وكبار ملاكي الاراضي والاثرياء . وكان هؤلاء الملاكون الكبار يشكلون الطبقة المستغلة في القرية والطبقة المسيطرة في المدينة ، كما كانوا يمارسون جملة من الوظائف في ميدان الادارة والحكم ، وهم مسؤولون امام الدولة عن جمع الضرائب من المناطق التابعة للمدينة . عندما أصاب الاعياء الملك الفارسي قباذ وجنوده خلال حصارهم مدينة آمد السورية عرض على المدينة فك الحصار مقابل تقديم مبلغ محدد من الفضة . لكن وجهاءالمدينة (ومنهم ليونتيوس بن بابي عضو مجلس المدينة ، والوالي كيروس ، وامين الخزانة « رب بيتا » بولس بن زينب) ارسلوا الى قباذ يطلبون منه ان يدفع هو نفسه الاموال ثمن خضروات البساتين التي أكلها جنوده ، وثمن الخمر والقمح الذي جمعوه ونهبوه من القرى المجاورة(٥٩) . لم يكن هؤلاء « الوجهاء » الذين طلبوا من الملك الفارسي تعويضات عن المحاصيل المسروقة يدافعون عن مصالح الفلاحين ، بل عن مصالحهم الشخصية واملاكهم الخاصة . وكان هؤلاء الاغنياء « الوجهاء » يحتكرون الحبوب ويتاجرون بها دون الاهتمام بمصلحة المواطنين . وفي اثناء الحصار الفارسي لمدينة آمد السورية لحقت الاضرار بمصالحهم الخاصة ، كونهم من كبار الملاكين الزراعيين وأعضاء في المجلس البلدي للمدينة . وعندما طلب قباذ الفدية ايضا من مدينة الرها السورية ، رفض اعيان تلك المدينة دفع المبلغ الكبير المطلوب(٦٠) . هؤلاء الاعيان والنبلاء كانوا يعيشون عادن في المدن ، حيث كانت لديهم قصور فخمة مشهورة بهندستها المعمارية . عندما احتل قباذ مدينة آمد اقام في قصر النبيل بولس بن زينب ، فوجد عنده كمية كبيرة من الذهب فاغتصبها . وتطلق الاسفار التاريخية السورية

(السريانية) على فئة من نبلاء المدينة الذين مارسوا الوظائف الادارية أسم «ريشان» ويعني الرؤساء او القادة .ويمكن لهذا الاسم ان يكون بديلا عن لقب « كوريسال » اليوناني .

خلال الحرب التي نشبت بين بيزنطة وايران اغرقت مدينة الرها السورية بعدد كبير من الجنود البيزنطيين الذين ارسلوا الى منطقة ما بين النهرين للوقوف في وجه الفرس . كان توزع الجنود البيزنطيين وتأمين اماكن السكن لهم بايدي الزعماء السوريين المحليين ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « ريشان بناي أترا »(٦١). وكان هؤلاء الزعماء المحليون يسيطرون على الادارة المحلية التي كانت لاتزال قائمة في المدن السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لقد فرض هؤلاء الزعماء المحليون تأمين سكن الجنود البيزنطيين على الحرفيين في مدينة الرها وعلى الفلاحين في القرى المجاورة ، في حين اعفوا كبار الملاكين من ذلك العبء الثقيل . ويشكو يشوع العمودي في اسفاره التاريخية من هؤلاء الزعماء المحليين ورشواتهم التي لم تعرف لها حدود، اذ نهبوا الجميع واوصلوهم الى حالة لا تطاق . فهم يعدون الحرفيين والفلاحين باعفائهم من اقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم مقابل الرشوات ، ومن ثم يفرضون عليهم اسكان هؤلاء الجنود في منازلهم ، بصرف النظر عن الرشوات التي قبضوها منهم . وجاء في قوانين الامبراطور انستاسيوس المتعلقة باستيراد الحبوب ، ان هؤلاء الزعماء المحليين كانوا يشاركون في اختيار مستوردي الحبوب لتأمين تموين المدن(٦٢)، كما كانوا يلعبون دورا حاسما في المفاوضات مع السلطة البيزنطية المركزية ، ومع العدو الذي يحاصر مدنهم . انهم ملاكون كبار تركزت مصالحهم حول الارض الزراعية ، في حين عاشوا في المدن وتركز نشاطهم فيها في اغلب الاحيان .

٣ ـ الملاكون المتوسطون « السادة القرويون » :

تطلق اسفار يشوع العمودي السريانية على الملاكين المتوسطين اسم « ماري قوريي » (السادة القرويون)(٦٣) . أما قوانين جستنيانوس البيزنطية اليونانية ، فتطلق على هؤلاء « السادة القرويين » أصطلاح « ديسبوتاي تون جيورجون » Despotai ton georgon (٦٤). كان يجب على هؤلاء « السادة القرويين » السوريين ، الذين يملكون الاراضي الزراعية في منطقة ما بين النهرين ، ان يقدموا للخزانة البيزنطية الضرائب المفروضة على املاكهم ، فهم اشبه بمضخة تضخ مباشرة الريع من الفلاحين المنتجين الذين يعملون بأراضيهم . وشارك هؤلاء الملاكون المتوسطون في حياة المدن . لقد عاش بعضهم في مدينة الرها السورية ، حيث كانت املاكهم الزراعية بجوارها . وكانت توجد في مدينة الرها منشآت اقتصادية (كالمستودعات والعنابر) تخص ملاكي

الاراضي المتوسطين . وعندما اسكن الجيش البيزنطي (الذي جاء لمحاربة الفرس) في منازل سكان الرها منح هؤلاء « السادة القرويون » أفضليات أثارت الاحتجاج والتذمر في اوساط « بسطاء المدينة » ، الذين أثقلت كاهلهم تلك الفريضة المزعجة . وفي بعض الحالات كانت السلطات البيزنطية تقدم تنالازلات « للسادة القرويين » باعفائهم من دفع الضرائب في سني القحط والجوع . لكن مثل هذه التسهيلات لم يستفد منها الفلاحون العاملون بالارض ، لان الانتاج الفائض الذي اعتصره ملاكو الاراضي من الفلاحين المنتجين كانوا يحصلون عليه ، بصرف النظر عن تسديدهم الضرائب لخزانة الدولة الحاكمة او عدم تسديدهم لها . لكن اوضاع الملاكين المتوسطين ينبغي الا نصورها وكانها سلمت من الظلم . فعندما كان يطلب من ممثل السلطة المركزية البيزنطية جمع الضرائب ، كان يلجأ احيانا الى تدابير صارمة بحق هؤلاء الملاكين المتوسطين . ويشبه المؤرخ البريطاني رايت (في حاشية موجزة) هؤلاء «السادة القرويين » السوريين بالملاكين المتوسطين الايرانيين (الدهاقين) في العهد الساساني(٦٥) .

٤ ـ رجال الدين الكبار :

تتحدث الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا الملطي عن القرى التي كان يملكها الاساقفة السوريون(٦٦) . كذلك تتحدث الانقاض الباقية عن الاديرة التي كانت بمثابة حصون محاطة بالبساتين والاشجار المثمرة . وتذكر اسفار يشوع العمودي مجموعة من الكنائس والاديرة التي انشئت بالقرب من مدينة الرها السورية بين كروم العنب والبساتين المشجرة . فمنذ القرن الرابع الميلادي اخذ كثير من المؤمنين المسيحيين ، الذين لا وريث لهم ، يوصون باملاكهم للكنائس والاديرة . ومن جهة ثانية سعى كبار رجال الدين الى زيادة املاكهم وثرواتهم الخاصة بشتى السبل والوسائل . ومما ساعدهم في تحقيق ذلك الوضع السيء الذي عاشتهطبقة الفلاحين ، التي كانت تفتش عن حماية لها من طلبات الخزانة الثقيلة وظلم جباة الضرائب ، فوقعت تحت حماية الدير او الاسقف . وكان الاسقف من كبار الملاكين ويعمل في صالح هذه الطبقة المستغلة . وكانت مسائل ادارة المدينة تحل بمشاركة الاسقف . لقد ارتبطت به الوساطات لدى السلطة البيزنطية المركزية لتخفيض الضرائب عن املاك كبار الملاكين، كما كان يتم بمشاركته اختيار مستوردي الحبوب لتموين المدينة(٦٧) . ويذكر زكريا الملطي ان توما اسقف مدينة آمد السورية ، بموجب اتفاقية خاصة مع الامبراطور البيزنطي ، كان يدير مع شمامسته (مشمشانا) كل شؤون البناء في قلعة دارا المجاورة(٦٨) ، كما كان يملك عدة قرى بفلاحيها المستعبدين (توتيبي) .

كان الاسقف في المدينة يقوم بدور « المدافع » defensor Civitatis عن مصالح « الفقراء غير المالكين »(٦٩) . يتحدث يشوع العمودي قائلا : « في هذا العام (٥٠٤ـ ٥٠٥م) توجه الاسقف مار بطرس الى الامبراطور يطلب منه اعفاء المنطقة من الضرائب في ذلك العام ، فاجابه الامبراطور غاضبا موبخا اياه ، لانه ترك العناية بالفقراء المساكين في وقت كهذا وتوجه اليه(٧٠) . لكن الامبراطور الساخط ارسل امر الاعفاء من الضرائب مع شخص اخر متجاوزا الاسقف . ويبدو ان تدخل الاسقف في القضايا المالية لم يكن مرغوبا فيه بالنسبة للسلطة الامبراطورية المركزية ، رغم ان الاساقفة معروفون بقيامهم بدور المتوسطين لدى الاباطرة البيزنطيين في اكثر من سفر تاريخي من أسفار يشوع العمودي . فلقد سافر سابا الاسقف الاوروشليمي الى القسطنطينية بطلبات مماثلة كالتي حملها بطرس اسقف الرها(٧١) . ومما يلفت النظر ان الاسقف كان من الواجب عليه تقديم المساعدة للفقراء ، في حين كان دوره الفعلي مقتصرا على حماية مصالح كبار الملاكين الاغنياء ، لان مصلحته الشخصية جزء منها .

٥ ـ التجار :

مارس التجار السوريون نشاطا كبيرا في التجارة العالمية في زمن الاحتلال البيزنطي ـ الفارسي لسورية . فخلال عدة قرون كان عدد التجار السوريين الذين اقاموا علاقات تجارية مع روما وبيزنطة ومصر كبيرا جدا . وتاجر هؤلاء السوريون بالاقمشة والحرير والحجارة الكريمة والمصنوعات الذهبية والتوابل والعطور والادوية وغيرها . ففي قوانين جامعة نصيبين توجد فقرات ناظمة للرحلات التجارية التي يقوم بها اساتذة تلك الجامعة وطلابها ألى بلاد الروم(٧٢) وكان التجار السوريون الذين عاشوا في نصيبين تحت السلطة الفارسية ينقلون البضائع الى الحدود البيزنطية . ان ارتباط المدن السورية بالتجار الوافدين اليها والمنافع الناجمة عن الارباح التي جلبتها التجارة الخارجية قد انعكس في اخبار الاسفار التاريخية المعاصرة . فحينما انتشر مرض الطاعون في مدينة الرها وشمل المناطق السورية من نصيبين حتى انطاكية ، اقام سكان الرها (في اذار سنة ٥٠١) صلوات وابتهالات خاصة كيلا يصاب التجار الوافدون بهذا المرض(٧٣) . مثل هذا الحرص على التجار الغرباء يدل على اهمية دورهم في حياة المدينة الاقتصادية . فاذا اصيب التجار الوافدون بمرض الطاعون تتضرر التجارة الخارجية ، كما سليحق الضرر بتجارة السنوات القادمة .

ب ـ الضرائب والفرائض المترتبة على سكان المدن السورية :

فرضت الدولة البيزنطية المستعمرة على سكان المدن السورية في منطقة مابين النهرين مجموعة من الضرائب والالتزامات ، بعضها حمل طابع الفريضة ، كتزويد حامية

المدينة بالماء وصنع الخبز للجيش ، ونقل الحبوب وغيرها من الحمولات . وكان أثقل تلك الفرائض الضريبة النقدية التي تسمى باليونانية « خريسار غيروس » وتعني الذهب والفضة . تلك الضريبة فرضهـا لاول مـرة على سكان المدن الامبراطور البيزنطي الاول قسطنطين الكبير ، الذي امر (في سنة ٣١٤م) ان تدفع مرة كل خمس سنوات . وفرضت تلك الضريبة من اجل تامين احتياجاتالدولة النقدية ، وبخاصة تغطية نفقات الجيش . كانت ضريبة « الخريسارغيروس » تجبى عنـد تنصيب كـل امبراطور جديد ، ومن ثم تكرر عملية الجباية قبل مضي خمس سنواتعلى التنصيب. هذه المطالب غير المتوقعة وغير المتكافئة مع الدخل كانت شديدة الوطأة على دافعي الضرائب(٧٤) . ودفع تلك الضريبة الصناع والتجار ، في حين اعفي منها الملاكونالكبار، لانهم يدفعون ضريبة عن الاراضي الزراعية (الخراج) . وفرضت تلك الضريبة على كل حرفة وصنعة ، وعلى كل مشغل وحانوت ، وعلى كل تاجر وبائع ، كما فرضت على دواب النقل كالخيول والبغال والحمير ، فالزم صاحب الحمار بدفع نصف كيراتيون عن حماره(٧٥) . كذلك فرضت هذه الضريبة على المتسولين والداعرات اللواتي كانت اجسادهن مادة تجارتهن . ويتحدث المؤرخ زوسيموس بالتفصيل عن ثقل تلك الضريبة النقدية ، فيذكر ان بعض الناس اضطروا الى بيع ابنائهم عبيدا ، او جعل بناتهم داعرات من اجل تسديد ما فرض عليهم من نقود(٧٦) . ومن اجـل ضبط حسابـات الخزانة نظمت قوائم خاصة negotiaiorum matricula ادرج فيها اسم كل من يدفع هذه الضريبة . وتذكر ضريبة « الخريسارغيروس » هذه في قوانـين تيودوسيوس في أكثر من مكان(٧٧) . واعفي من دفع ضريبة « الخريسارغيروس » الفلاحون الاحـرار والفلاحون الكولون الذين كانوا يتاجرون بمحاصيلهم الزراعية والحيوانية في المـدن، لانهم يدفعون ضريبة الراس وضريبة الارض (الجزية والخراج) . ولم يدفع هـذه الضريبة الاطباء ولا المعلمون « الاطباء ومعلمو كل العلوم الموجودون في المدن معفون مـن اية ضريبة ، فهم لا يدفعون ضريبة النفوس (الجزية) ولا ضريبة الخريسار غيروس ، ولا يمكن ان يجبروا على ان يكونوا اوصياء على الايتام ، ذلك لان الاطباء يعالجـون الاجسام ، والمعلمون يعالجون النفوس »(٧٨) .

الغى الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) ضريبة «الخريسارغيروس» المكروهة . ومن بين المؤرخين البيزنطيين يذكر هذا الموضوع بايجاز يوحنا مالالاس . اما ايفاغريوس الذي اولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا ، فيذكر ان في عهد هذا الرجل (انستاسيوس) احرقت القوائم التي كانت محفوظة لدى موظفي الخزانة من اجـل تحصيل الضريبة(٧٩) . وبفضل المصادر السورية (السريانية) يمكن تحديد تاريـخ دقيق لالغاء هذه الضريبة . لقد جاء في اسفار الرها مايلي : « في شهر ايار من سنة

٨٠٩ يونانية (٤٩٨ ميلادية) ألغيت ضريبة الخريسارغيروس »(٨٠) . وحـول العبء الثقيل الذي مثلته تلك الضريبة تتحدث افضل من غيرها اسفار يشوع العمودي التي جاء فيها مايلي: « في تلك السنة (٨٠٩ يونانية = ٤٩٨ ميلادية) صـدر امر مـن الامبراطور انستاسيوس بالغاء ضريبة الذهب التي كان يدفعها الحرفيون مرة كل ٤ سنوات . ولم يشمل هذا الاعفاء مدينة الرها فحسب ، بـل شمل ايضا كل المـدن الواقعة تحت السلطة البيزنطية . وكان ابناء الرها يقدمون ١٤٠ ليتر من الذهب مرة كل اربع سنوات »(٨١) . فاذا كان ليتر الذهب يساو ٢٧٣ غراما ، فان الـ ١٤٠ ليترا التي كانت تدفعها مدينة الرها مرة كل اربع سنوات تشكل ٢و٣٨ كيلو غرامـا من الذهب ، وهذا المبلغ ليس قليلا .

ويذكر يشوع العمودي ايضا كيف كان الحرفيون يحيون ذكرى الغاء ضريبـة الخريسارغيرس فيقول : « فرحت كل المدينة . خرج الجميع ـ الصغار والكبار ـ باللباس الابيض . خرجوا ينشدون الاغاني والتراتيم الدينيـة ، حاملـين الشموع المضيئة . وبعد ان وصلوا الى كنيسة ماسرسركيس ومار سمعان الواقعة خلف المدينة، عادوا الى المدينة واقاموا طيلة الاسبوع عيد الفرح والسرور ، كما قرروا انهم سوف يحتفلون بهذا العيد كل عام . استراح جميع الحرفيين (اليوماني) وفرحوا واستحموا واقاموا الولائم في ساحة المعبد وفي كافة اروقة المدينة »(٨٢) .

وفيما عدا دفع الضرائب الزم سكان المدن والقرى السورية بمجموعةمن الفرائض الاخرى التي تحتاج الى الأيـدي العاملـة ودواب النقـل . ومـن هـذه الفرائض تقديم الخدمات للجنود البيزنطيين . لقد الزم سكان الرها بنقل الماء للجنود البيزنطيين . ويذكر يشوع العمودي ان الامبراطور انستاسيوس اعفى سكان الرها من نقل المـاء للجنود البيزنطيين في سنة ٥٠٠ ميلادية ، بناء على الرجاء الذي قدمه له بطرس اسقف الرها(٨٣) . وفي زمن الحملة على الفرس اصبـح صنع الخبـز المخصص للجنـود البيزنطيين فرضا على جميع سكان الرها . لقد حشدت بيزنطة على حدودها الشرقية اعدادا كبيرة من الجنود من اجل الحرب مع ايران . وكان الانضباط مفقودا لدى هؤلاء الجنود ، الذين كان معظمهم من البرابرة . فهم ينهبون ويسرقون ويبتزون سكان المدن والارياف . ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس ذلك بقوله عن الجنود البيزنطيين مايلي: « لديهم قانون منذ امد بعيد وهو : الخوف من الفرس وسلب الفلاحين المواطنين »(٨٤) . كان يجب اطعام الجيش البيزنطي الذي جاء الى سورية لمحاربة الفرس ، ففرض صنـع الخبز على السكان السوريين . وكان هؤلاء السكان يصنعون خبز الجنود من الحنطة التي تعطى لهم من مخازن الدولة . ويذكر يشوع العمودي مايلي : « في ايـار من سـنة ٥٠٣ وصل الايبارخوس آبيون الى مدينة الرها كي يشرف على تموين القوات التي

كانت معه . ولما لم يتوفر له القدر الكافي من الخبز الذي يصنعه الخبازون المختصون ، فقد امر بتقديم القمح لكل بيت موجود في الرها والزم السكان بصنع خبز الجيش على حسابهم الخاص »(٨٥) وفي اخبار السنة التالية يذكر هذا المؤرخ السوري ما يلي : « في ايار من سنة ٥٠٤ اصبح كاليوبا الحلبي إيبارخوسا وجاء الى الرها ، فأعطى القمح لسكان المدينة كي يخبزوا خبز الجنود . في هذه المرة خبزوا ٨٥٠ الف مد من القمح . اما الايبارخوس السابق آبيون فقد ذهب الى الاسكندرية واخذ يصنع هناك ايضا خبز الجنود ويرسله الى الرها »(٨٦) . وفي مكان آخر يقول يشوع العمودي : « لقد صنع الخبز من ٦٣٠ الف مد من الحنطة في مدينة الرهــا بأمر من كاليوبا ، اضافة الى ما كان يخبزه القرويون في كافة انحاء المنطقة والجبازون الوافدون والمحليون»(٨٧) .

وهكذا كان صنع الخبز للجنود البيزنطيين بمثابة فريضة ثقيلة على كل بيت سوري في منطقة مابين النهرين ، أكان ذلك البيت في المدن ام في الارياف . وكان ذلك العمل عبارة عن واجب قسري يتطلب اضاعة الوقت والعمل الشاق ، لان الحبوب كانت تطحن في المطاحن اليدوية ، كما كان صنع الخبز يتطلب جهودا كبيرة . ان استغلال جهود السكان السوريين بهذا الشكل المضني قد جاء نتيجة غياب الجهـاز الحكومي المتخصص بهذا العمل لدى الجيش البيزنطي المحتل .

وكانت اقامة الجنود البيزنطيين وتامين السـكن لهم من اثقل الفرائض على السكان السوريين . حينما حاصر الملك الفارسي قباذ (في تشرين الاول سنة ٥٠٢) مدينة آمد السورية ، ارسل الامبراطور البيزنطي جنوده الى منطقة ما بين النهرين لحمايتها من الفرس . ولقد ألقيت مسؤولية اقامة الجنود البيزنطيين بكل ثقلها على كاهل الحرفيين السوريين في المدن وعلى الفلاحـين في الارياف . اما طغمـة الاغنياء والمتنفذين في المدن فقد أعفت نفسها من هذه الفريضة المزعجة والقت بها على كاهـل الطبقات الشعبية الكادحة والفقيرة . وكان الجنود البيزنطيون يتألفون في غالبيتهـم العظمى من البرابرة المرتزقة ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « القوطـ »(٨٨) . وكان هؤلاء الجنود غير ملتزمين بالنظام العسكري ، خشنين قساة ، حققوا كل مايبغونه بقوة السلاح . ويروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري الكلمات التاليـة عن لسان احد القرويين السوريين الذي جلب الى مدينة آمد لحم الصيد والخبز والثمار ليبيعها : « جلبت لك ايها السيد كل خير من القرية ، فصادفت جنود بيزنطة الذين كان ينهبون الفلاحين البؤساء اثناء تسكعهم على شكل عصابات صغيرة في هذه القرى . لقد ضربني قطاع الطرق هؤلاء دون رحمة او شفقة وسلبوني كل شيء كان معي . كان عندهم غرف قديمة خافوا من الفرس وانهبوا الفلاحين »(٨٩) . هكذا يخبر المؤرخ بروكوبيوس عن تصرفات الجنود البيزنطين مع الفلاحين السوريين في منطقة مابين النهرين :

اما يشوع العمودي فيتحدث في اسفاره التاريخية السورية (السريانية) عن اعمال النهب والاغتصاب التي مارسها الجنود البيزنطيون اثناء اقامتهم الطويلة في المدن السورية « للدفاع عنها ضد الفرس » . وتطلق الاسفار السورية على الزعماء المحليين المسؤولين عن توزيع اقامة الجنود البيزنطيين اسم « ريشاني » . انهم الطغمة المتنفذة التي تضم كبار الموظفين والتجار وملاكي الاراضي . « وكان هؤلاء الرؤساء (الريشاني) المسؤولون عن توزيع اقامة الجنود البيزنطيين يمدون أيديهم طلباللرشوة. وبما انهم كان يحصلون على الرشوة من الجميع ، لم ينج أحد منهم ، حتى انهم كانوا يرسلون جنودا اخرين الى اولئك الذين سبق وارسلوا اليهم جنودا ليقيموا عندهم »(٩٠) . كذلك ارسلوا بعض الجنود ليسكنوا في بيوت رجال الدين ، الذين كانوا قد حصلوا على براءة تعفيهم من هذه الفريضة . وبما ان الطغمة المتنفذة فيالمدينة هي التي تقود عملية اسكان الجنود البيزنطيين ، فقد وجدت أن من الضروري الرأفة ببيوت الاغنياء والوجهاء والنبلاء . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « جاء هؤلاء (الجنود البيزنطيون) كمنقذين لنا وبهدف مساعدتنا ، لكنهم حيثما دخلوا وأينما خرجوا سلبونا وسرقونا ، فلا فرق بينهم وبين الاعداء » (٩١) . هذا العتاب المر الموجه من السوريين الى المستعمرين البيزنطيين على لسان يشوع العمودي تتضح اسبابه في الوصف التالي الذي قدمه ذلك المؤرخ عن سلوك وتصرف افواج الجيش البيزنطي: « كان هؤلاء الجنود القوط يطردون الفقراء من فراشهم كي يناموا في مكانهم . أما أصحاب البيوت فكانوا ينامون على الارض حتى في الايام الباردة . وكان الجنوديطردون السكان ويرغمونهم على مغادرة منازلهم ، ثم يدخلونها ويسكنون فيها وحدهم . وكانوا ايضا يسوقون مواشي الناس بالقوة كغنائم او كصيد ، كما يخلعون الملابس عن اجساد الناس ويرتدونها . اما البعض الاخر ، فيضربونه ضربا مبرحا لاتفه الاسباب . وكان هؤلاء الجنود يتشاجرون مع أناس اخرين في الشوارع ويكيلون الشتائم لهم دون مبرر . لقد سرقوا كل شيء علانية ودون خجل او حياء ، بما في ذلك الرزق القليل المخصص للاكل والموجود لدى بعض الناس في القرية او في المدينة . هاجموا الكثيرين عند مفارق الطرق . اقاموا مع الحرفيين في حوانيتهم ، لان المنازل والفنادق فيالمدينة لم تكن كافية لاسكانهم . كانوا على مرأى من الجميع يغتصبون النساء في الشوارع والبيوت . وكانوا يسلبون النساء العجائز والارامل والفقيرات الزبدة والحطب والملح وغيره من المواد ، كما يبعدونهن عن أعمالهن كي يبقين في خدمتهم . وبصورة عامة كانوا يضايقون الجميع ـ الصغار والكبار ـ (الفقراء والاغنياء) ،فلم ينج احد من شرهم »(٩٢) . لا يحتاج هذا النص الى تعليق خاص ، حيث من السهل ادراك سخط السكان السوريين على الجنود البيزنطيين البرابرة من خلاله .

بهذا الشكل التعسفي كانت الدولة البيزنطية المستعمرة تبتــز الضرائــب من السكان السوريين ، وبهذه الصورة الوحشية كانت قواتها العسكرية البربرية تحصل على سكنها وطعامها . لكن الحكومة البيزنطية ، عندما يتهددها الخطر الخارجي كانت تسعى الى تهدئة غضب السكان السوريين بتعويضهم عن بعض الخسارة . ففـي سنة ٥٠٣ عندما كان الملك الفارسي قباذ يهدد مدينة الرها السورية بالاحتلال ، اعطى القائد البيزنطي أريوبيند الى سكانها منحة مالية بمقدار ٣٠٠ دينار(٩٣) . لكن مثل هذه المنح المالية لم تهدىء من غضب السكان السوريين ، بل اضحى استياء الناس وتحفزهم للتمرد يثير القلق لدى السلطات البيزنطية الاستعماريـة . وفي سنة ٥٠٦ وصلت الجماهير السورية الكادحة الى حالة شديـدة من البؤسـ . ويذكر يشوع العمودي أن في تلك السنة عسكر القائد البيزنطي رومانوس مع قواته في مدينـة الرها السورية . ورغبة منه في مداهنة السكان والتزلف اليهم ، قام بتوزيع الصدقات على الفقراء . واخذ الامبراطور انستاسيوس بعين الاعتبار الوضع المأساوي للمنطقـة (بسبب استمرار الحروب على اراضيها) ، فأمر بالغاء الضريبة النقديـة (الجزية) centeleia ، مما بعث الفرح والسرور لدى جميع « السادة القرويين » ، فباركوا الامبراطور ومجدوه(٩٤) .

هذا الاعفاء من الضريبة افاد طبقة واحدة فقط هي طبقة الملاكـين المتوسطين « السادة القرويين » ، ولذا ابتهجوا وحدهم بهذا الاجراء . وبنتيجة ذلـك حصـل استياء كبير لدى « بسطاء الشعب » (الفقراء) . لقد تذمر الشعب البسيط الفقير وصرخ قائلا : « ليس من العدل ان تسكن عندنا أفواج بيزنطة ، وليس عند السـادة القرويين » (الملاكون المتوسطون الذين نالوا مساعدة باعفائهم من دفع الضريبة) . لقد كان غضب الجماهير الفقيرة عارما ، مما اضطر الحاكم البيزنطي (الايبارخوس) ان يامر بتلبية طلبهم . وعند بدء التنفيذ (اسكان الجنود البيزنطين في منازل السـادة القرويين ـ الملاكين المتوسطين) اجتمع جميع الاغنياء والوجهاء (رورباني) في المدينة وتوجهوا الى الدوكس رومانوس وطلبوا منه : « ان يامر معاليه بما يجب ان يحصل عليه في الشهر كل جندي بيزنطي ، كيلا يسلب الاغنياء عند دخول الجنود الى منازلهم بالشكل الذي كان يسلب فيه البسطاء . وقد لبى الدوكس طلب الاغنياء ، فأمر ان يصرف لكل جندي مقدار معين من السمن في الشهر ، ٢٠٠ ليتر من الحطب ، سرير مع فراش يتسع لاثنين »(٩٥) .

ويتابع يشوع العمودي قائلا : « عم السخط بسطاء الشعب » . وبما ان الضريبة ألغيت عن السادة القرويين (الملاكين المتوسطين) الذين ابتهجوا من ذلك الاجـراء ، فينبغي الافتراض ان السخط والاحتجاج قد اعلن من قبل الفلاحين الفقراء ، الذيـن

بقوا يتحملون عبء الضريبة العينية واقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم . كما أعلن الاحتجاج ايضا الحرفيون وغيرهم من سكان المدن الفقراء ، حيث اسكن الجنود البيزنطيون في منازلهم وحوانيتهم(٩٦) .

كان الوضع يهدد بخطر تمرد الجماهير الكادحة ، فاضطرت السلطات البيزنطية ان تستجيب لمطلبهم . لقد امر الحاكم البيزنطي كاليوبا باسكان الجنود في منازل الاغنياء ايضا . لم يتقبل الاغنياء وكبار الملاكين هذا القرار بارتياح . وبما ان الظروف لم تسمح لهم بالعمل على الغاء قرار الايبارخوس كاليوبا ، فقد توجهوا الى القائد (الدوكس) رومانوس ورجوه ان يحد من طلبات جنوده ، فوافق على طلبهم(٩٧) . وهكذا حينما يمس الضرر مصالح الاغنياء وكبار الملاكين كانوا يسعون بشتى الوسائل للتخلص من ذلك ، في حين لم يهتموا لاعتداء الجنود البيزنطيين على منازل الفقراء وارزاقهم . لكن السلطات البيزنطية ، على ما يبدو ، كانت عاجزة عن وضع حد لتصرفات الجنود السيئة . فالجنود البيزنطيون الذين اعتادوا على السرقة والنهب عاقبوا قائدهم رومانوس وثأروا منه ، لانه حاول وضع حد لسرقاتهم . لقد داهموا منزله وارادوا قتله ، لكنه افلت من ايديهم وهرب من السطح الى منزل اخر . ومنذ ذلك الحين (يقول يشوع العمودي) لم يجرؤ احد من القادة على توجيه اية كلمة للجنود البيزنطيين ، بل عاشوا حيثما رغبوا وكيفما ارادوا(٩٨) .

وازدادت اوضاع المواطنين السوريين سوءا ، لان القائد البيزنطي الاعلى Magister militum جمع كافة الجيوش في مدينة الرها (في نيسان سنة ٥٠٦) استعدادا للهجوم على الفرس . لم يقطن الجنود البيزنطيون في المدينة فحسب ، بل اسكنوا في جميع القرى المجاورة والاديرة الواقعة في الضواحي . كان هؤلاء الجنود يعيثون فسادا في المدينة ، يسكرون ، يتشاجرون ، يقتلون بعضهم بعضا ، يواصلون تعذيب السكان واهانتهم وتشويه سمعتهم والاعتداء عليهم(٩٩) .

لم يعد سكان الرها يتحملون تصرفات الجنود البيزنطيين السيئة . ويخبرنا يشوع العمودي (بحسن نية) ان سكان المدينة ارتكبوا « شيئا غير لا ئق » . ذلك ان بعض « الوقحين » الذين كانوا بين ظهراني سكان الرها قد تجرؤوا واقدموا على اشياء غير لائقة ومخالفة للاعراف . كما ان « التعبير عن التذمر من القائد البيزنطي قد كتب في اعلانات علقت سرا في الاماكن العامة داخل المدينة(١٠٠) . كان في مدينة الرها مجموعة من الاشخاص الذين يدينهم المؤرخ يشوع العمودي ، لانهم قرروا الاعراب عن السخط وعدم الرضى عن اعمال القائد العسكري بصورة مكتوبة . لقد كتبوا المناشير ولفافات الرق وعلقوها في اماكن « معروفة » اي في الاماكن التي يتجمهر فيها الناس بصورة دائمة . كان ذلك عبارة عن منشورات احتجاج من نوع خاص . لم يعرف مضمون تلك

المنشورات ، لكن معطيات كثيرة تشير الى انها كانت تعبر عن استياء الجماهير الكادحة وغضبهم . لم يظهر القائد البيزنطي كيليروس غضبه ولـم يبحث عمن فعـل ذلك ، كما انه لم يفكر بسوء نية تجاه المدينة ، بل سعى الى مغادرة الرها بأسـرع وقـت ممكن(١٠١) . ويفهم من كلام يشوع العمودي ان القائد كيليروس لم يعاقب سكان الرها نظرا لطبيعته اللينة . اما واقع الحال فيدل على انه اصيب بالهلع والخوف ، بسـبب المشاعر المتوترة التي كانت سائدة في المدينة واوشكت على اعلان التمرد والثورة .

يمكن النظر الى كتابة مناشير الاحتجاج والتذمر وتعليقها في الاماكن العامة كعمل قام به « بسطاء المدينة »، الذين بضغط منهم جعلوا الحاكم البيزنطي (الايبارخوس كاليوبا) يفرض اسكان الجنود في بيوت الاغنياء . لا شك في ان الاحتجاج انطلق مـن الحرفيين ، فلاقوا مساندة من الفلاحين الذين عانوا ايضا من اسكان الجنود البيزنطيين في منازلهم . على اية حال كانت النتيجة ان امر كيليروس بابعاد الجنود واخراجهم من مدينة الرها ، خوفا من تمرد سكانها ضده . وفيما بعد تذكر هذا الدرس جيدا، حيث انه لم يجرؤ على الدخول بجيشه الى مدينة الرها اثناء مروره ثانية بجوارهـا (في اواخر سنة ٥٠٦) . ويبدو ان كيليروس وكاليوبا قد ابلغا المسؤولين في العاصمة البيزنطية عن تذمر الشعب السوري واستيائه في منطقة ما بين النهرين ، بسـبب الاضرار التي لحقت به من جراء الحرب البيزنطية ـ الفارسيـة . وعلى هـذا بعث الامبراطور انستاسيوس برسالة الى القائدين البيزنطيين « مفعمة بالعناية والعطف تجاه منطقة ما بين النهرين باسرها » . تلك الرسالة اذنت للقائدين بتخفيض الضريبة عن منطقة مابين النهرين السورية حسبما تقتضـي الضرورة . وقـرر الدوكس والايبارخوس البيزنطيين الغاء كامل الضريبة على سكان مدينة آمد ، والغـاء نصـف الضريبة عن سكان مدينة الرها ، كما اعلما الامبراطور خطيا بهذا القرار(١٠٢) . وكان الهدف من هذا الاجراء تهدئة غضب السكان السوريين وتخفيف استيائهم من ابتزاز الضرائب وثقل الفرائض . و « العناية والعطف » من جانب الامبراطور البيزنطي تجاه المواطنين السوريين في منطقة مابين النهرين كانت الغاية منهـا ايضا انعاشـ القوة الاقتصادية لسكان المنطقة ، الذين انهكتهم الحروب والامراض وسنو القحط ، كـي يتمكنوا من دفع الضرائب فيما بعد الى خزانة الدولة البيزنطية المستعمرة .

ج ـ ادارة المدن السوريـة :

كانت ادارة المدينة والقرى التابعة لها في منطقة ما بين النهرين السورية برئاسة حاكم بيزنطي يحمل لقب « ايغيمون » باليونانية Igimon و « ديان » بالسريانية . وتركزت في يد هذا الحاكم رئاسة الوظائف الماليـة والادارية والامنيـة والقضائيـة والخدمات العامة . وكان الحاكم لا يجمع الضرائب مباشرة من الفلاحين العامـلين في

الارض (وهم الكولون الحر والكولون غير الحر والمستأجرون) ، وانما يجمعها بواسطة « السادة القرويين » الملاكين المتوسطين . وتتحدث الاسفار التاريخية السورية (السريانية) عن جمع الضرائب على يد الحاكم او نائبه . ففي سنة ٤٩٩ ــ ٥٠٠ يخبرنا يشوع العمودي ان الحاكم البيزنطي ابتز الضريبة من « السادة القرويين » ، بعد ان عذبهم اشد انواع العذاب(١٠٣) . والحديث هنا يدور حول الضريبة النقدية المفروضة على الفلاحين الذين يعملون في اراضي هؤلاء الملاكين المتوسطين (التي تسمى باليونانية « سينتيليا ») ، لان الحاكم ارسل ذلك المال المجموع « الذهب » الى العاصمة البيزنطية . كذلك كان سكان المدن يدفعون الضرائب النقدية التي تجمع بواسطة جهاز الموظفين الموجود تحت تصرف الحاكم . وكان الحاكم مسؤولا عن اداء المبلغ المفروض على منطقته الى خزانة الدولة المركزية في الوقت المحدد . وكانت السلطة المركزية في العاصمة البيزنطية صاحبة الصلاحية في تخفيض هذا المبلغ ، او اعفاء المنطقة من دفعه وفي الحالات التي لا تسمح فيها الظروف المحلية الصعبة بدفع الضريبة كاملة ، كان اصحاب الاملاك الزراعية الكبار والمتوسطون يرسلون وفدا يمثلهم الى القسطنطينية ليتوسط لدى الامبراطور بتخفيض مقدار الضريبة او اعفائهم من دفعها . وكان يسافر مع ذلك الوفد عادة الاسقف « حامي المدينة » وشفيعها عند الامبراطور(١٠٤) . لكن هذا التدخل من جانب الاساقفة في شؤون المال والخزانة لم يكن مقبولا لدى السلطة المركزية في اغلب الاحيان . وكان الامبراطور البيزنطي يوافق في بعض الحالات الاستثنائية على تخفيض الضرائب او الاعفاء من دفعها لمدة محددة . لكن القحط والجوع الرهيب الذي الم بمنطقة ما بين النهرين السورية في سنة ٥٠٠ ميلادية لم يكن مبررا كافيا بالنسبة للامبراطوركي يعيد المال (الضريبة المدفوعة) الى تلك المنطقة المقفرة . وبطمعه وجشعه تمكن الامبراطور انستاسيوس من جمع مبالغ كبيرة من المال (حوالي ٣٢٠ كينتينارا من الذهب)، فكان بشهادة معاصريه « اغنى امبراطور على الاطلاق ».

وكانت جميع الوظائف القضائية تتبع لهذا الحاكم (الايغيمون ــ الديان) ويحدثنا يشوع العمودي عن عمل الحاكم الكسندروس (٤٩٥ــ ٤٩٧) في مجال القضاء. لقد كان هذا الحاكم يمثل استثناء نادرا في دوائر الادارة البيزنطية . ففي يوم الجمعة من كل اسبوع كان الحاكم الكسندروس يجلس في المعبد الكبير « ويقضي بين الناس مجانا »(١٠٥) . فهو يرفض النفاق الذي كان من سمات الموظفين البيزنطيين ، ولا يعطي الافضلية للاغنياء والاعيان . ولهذا السبب ، يقول يشوع العمودي : « انتعش المظلومون ، تعززت قوتهم ، فأصبحوا بمساعدته قادرين على مجابهة الظالمين والنهابين (١٠٦) .

ويخبرنا زكريا الميتيليني (الملطي) ايضا عن حاكم اخر في مدينة آمد السورية فيقول : « في هذا الوقت كان فيليسيسيموس دوقا . وهو رجل قوي حكيم ، لا يطمع

بالمال ولا يهتم به ، بل كان صديقا حقيقيا للفلاحين والفقراء »(١٠٧) . وتشير هـذه الاستثناءات والحالات الفريدة الى ان الحاكم البيزنطية كانت تقف في اغلب الاحيان الى جانب الاغنياء والاقوياء ضد الفقراء والضعفاء . ويبـدو ان « صديـق الفلاحين والفقراء » كان يرفض الرشاوي التي اعتاد على ابتزازها جميع الحكام والقضاة . وكان الحاكم الكسندروس يقضي ايضا « بدون مقابل » ، مما جعل قراراته « عادلة » ، لانها تتخذ من قبله « بصرف النظر عن مكانة الاشخاص » . ولم يكن الروتين في قضايا المحاكم اقل شرا من تعاطي الرشوة . فالمؤرخ يشوع العمودي يقول : «كان الحاكم الكسندروس يحل القضايا التي اودعت في المحكمة منذ خمسين عاما ، ففقد المدعون الامل في حلها منذ زمن طويل » .

وكانت المحكمة في مدينة الرها السورية تعقد جلساتها في احد المعابد الواسعـة ، الذي يمكن ان يستوعب اعدادا كبيرة من افراد الشعب . وكان هذا المعبد ـ مكان المحكمة ـ مريحا ومناسبا لمثل هذا العمل الاجتماعي . ولم ينظر الحاكم وحـده في القضايا ، بل يجب ان يكون الى جانبه مساعدون وموظفون من مكتبه . لقد جـاء في اسفار يشوع العمودي : « ان الشكاوى كانت تقدم ، وكانوا يقضون بها » . حديث المؤلف عن هيئه المحكمة بصيغة الجمع يدل على وجود المساعدين الذين كان الحاكم بالتعاون معهم ينظر في القضايا .

واتخذ الحاكم الكسندروس اجراء اخر (في سنة ٤٩٧) يدل على سيطرة الخوف على المواطنين السوريين من الحكام البيزنطيين . لقد وضع هذا الحاكم امام مقر قيادته صندوقا بفتحة كتب عليه : ان الحاكم يقترح على اي شخص يرغب في الاعلام عن امر ما ويخشى ذلك حضوريا ، ان يكتب ما يريد قوله ويلقيه في هـذا الصندوق دون خوف(١٠٨) . وكان ذلك الحاكم البيزنطي يحاول عن طريق الحصـول على الاخبـار السرية ، ومن خلال المحاكمات العلنية الخالية من المحاباة ، التخفيف الى حد ما مـن استياء فئات الشعب الدنيا وسخطها . وبهذا التدبير علم الحاكم بقضايا كثيرة ، لان الكثيرين من الناس كانوا يكتبون ويلقون في صندوقه مختلف انواع الشكايات والاخبار السرية . لكن هذه المحاولات من جانب هـذا الحاكم ، الهادفـة لفرض « التجـرد والانصاف» ، قد خمدت بسرعة ، لان الكسندروس نحي من منصبة في العام التالي (اي في سنة ٤٩٨)(١٠٩) .

وكان ذلك الحاكم البيزنطي يترأس السلطات الامنية في مدينة الرها والمناطـق المجاورة لها ، كما كان يراقب جميع اعمال الحرفيين في مشاغلهم . فلقد امر بهـدم وازالة الحوانيت والدكاكين التي اقاموها في اماكن غير مناسبة ، كما طلب من الحرفيين

ان يعلقوا على مشاغلهم وحوانيتهم في ايام الاحاد (منذ طلوع الفجر) الصليب المضاء بخمسة فوانيس (باليونانية فانوي) Phanoi . كانت الرقابة على الانتاج الصناعي وبيعه امرا ضروريا من أجل جباية الضرائب ومعرفة قدرة الحرفيين (الصناع) على دفعها . وكان الموظفون الماليون الخاضعون للحاكم يسيئون استخدام وظيفتهم ويجبون الضرائب بجشع وقسوة وتعسف .

كان الاهتمام بمرافق المدينة ونظافتها ملقى على عاتق الحاكم أيضا . لكن العناية بنظافة المدينة لم تكن كما يجب ، بدليل حدوث الاوبئة المتكررة . واهتم الحاكم (الايفيمون) ايضا بتموين المدينة ، وخاصة بالخبز . ولكن الادارة البيزنطية لم تستطع معالجة هذه المهمة جيدا ، اكان ذلك في العاصمة أم في الولايات(١١٠) . وتؤكد الاسفار التاريخية السورية على ان السكان السوريين في منطقة مابين النهرين ، الذين نهبتهم الحكومة وكبار الملاكين ، قد تعرضوا بصورة دورية الى مجاعات مرعبة ، كما أبدت الحكومة البيزنطية عجزا كاملا في مكافحة هذه المجاعات(١١١) .

للبحث صلة



المصادر المراجع

(١) Nau. Etude sur les parties inédites de la chronique ecclésiastique attribuée à Denys de Tellmahre. Revue d'Orient Chrétien, 1897, t. II, P. 41.

(٢) Catalogum Codicum Orientalium Bibl. Apost. Vaticanae,t.III, N° CLXII, P. 329.

(٣) Joseph Simonius Assemanus. Bibliotheca Orientalis Clementino Vaticana, Romae, 1719, t. II, pp. 97-98.

(٤) Agapius de Membidg. Texte arabe et traduction française de Vasiliev. Paris, 1912, P. 424.

(٥) Bibliotheca Orientalis, t. I, cap. 26, pp. 26 , 283.

(٦) Chronique de Joshue le Stilite écrite vers l'an 515.Texte et tradution par l'abbé Paulin Martin, Leipzig, 1876. Abhandlungenfür die Kunde des Morgenlands, B. VI, N° 1.

(٧) The chronicle of Joshua the Stilite, composed in Syrisc A. D. 507. Witha translation into english and notes by W. Wright, Cambridge, 1882 .

(٨) Pigulevskaia, N. V., Mesopotamia in V-VI centuries, 1940

(٩) Wright, The Chronicle of Joshua ..., P.9.

(١٠) Nau. **ibidem** .

(١١) Gelzer . Josua Stilites und die damaligen Kirchlichen parteien des Ostens. Bysatinische Zeitschrift, B.I, 1892, P.47.

(١٢) Barhadbesabba Arbaya, Cause de la fondation des écoles, Patrologia Orientalis, t. IV, P. 319.

(١٣) Wright, The cronicle of Joshua ..., P.28.

(١٤) Nöldeke. Zeitschrift d. Deutschen Morgenländinchen Gesellschaft, B . 30 , 1876 , P . 352 .

(١٥) Merten . De bello persico ab Anastasio gesto . Dissertatio historica Jena , 1905 . —— Rose , Anastasiusl , Halle , 1882 .

(١٦) نينا بيغوليفسكايا ، الشرق الادنى وبيزنطة والسلاف ، ليتينغراد ١٩٧٦ ، ص ٧٠ .

(١٧) المصدر السابق ، ص٧٠ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٨٠ – ٨٥ .

(١٩) Codex Justinianus, XI. 62, 8, Ed. Kruger, P. 448.

(٢٠) Procopius, De aedificiis. I - II, cap. 7, Ed. Dindorfii, t. III, P. 230.

(٢١) Plinius, Historia naturalis, 1. VI, cop.9.§ 1.

(٢٢) Excavations at Dura - Europus, New Haven, 1929-1936.

(٢٣) Dussaud René, Topographie historique de Syrie antique et medievale, Pl. XIV, 1929. - Poidebard, La trace de Rome dans le desert de Syrie. Atlas, Le limes romain, Pl. CXL, AB - ef, Paris, 1934.

(٢٤) Sachau, Reise nach Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883, P.189.

(٢٥) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٥٢ ، ص٩٠ .

(٢٦) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t. III, PP. 228-229.

(٢٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨٥ ، ص٨١ .

(٢٨) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t.III, P.230.

(٢٩) Texier, L'architecture byzantine, London, 1864, PP. 199-209.

(٣٠) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٧ .

(٣١) Procopius, De aedificiis, I-II, caq. 7, t.III, P. 229.

(٣٢) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٣ .

(٣٣) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ .

(٣٤) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ٦٦ ، ٨١ .

(٣٥) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٢،٤٣ .

(٣٦) Procopius, De bello Persico, I-II, Cap. 12, Ed. Haury, 1905, t.I.P.206.

(٣٧) العمودي ، فقرة ٣٠ ، ص ٢٤ .

(٣٨) العمودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢ .

(٣٩) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori (Mytilenensis) volgo adscripta, I, VII, caq . 4 , Corpus Scriptorum christianorum orientalium ,

Scriptores Syri, Series tertia, t. VI, f.2, Ed. W. Brooks, t. II, P. 29. Parisiis, 1921.

(٤٠) Payne - Smith. Thesaurus Syriacus, Cod. L, § 73, P. 19.

(٤١) العمودي ، فقرة ٣٠ ، ص ٢٥.

(٤٢) Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, Cod. I,§ 98,P.25.

(٤٣) العمودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢ .

(٤٤) Zacharias Mytilenensis, I. 7. cap. 6, t. II, pp. 36-37.

(٤٥) ا.ب. روداكوف ، دراسات في الحضارة البيزنطية من خلال كتب السيرة اليونانية ، موسكو١٩١٧، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

Ostrogorsky, Lohne und Preise , Byzantinische Zeitschrift , 1932, B. 32, H. II, PP. 297 - 300.

(٤٦) Theophanes, Chronographia, Ed. de Boor, Lipsiae, 1883, 9. 150.

(٤٧) Zacharias Mytilenensis, I. 7, caq. 6, t. II, P. 37.

(٤٨) Ibidem.

(٤٩) Ibidem.

(٥٠) العمودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٣ .

(٥١) Chronicon Edessenum. Corpus Scriptorum christianorum orientalium. Scriptores Syri, Ser, Ser. III, t. 4, text, P.2, vers. , P.1.

(٥٢) Ibidem.

(٥٣) يشوع العمودي، فقرة ٢٧، ص ٢٢، الترجمة الانكليزية ،ص١٨.

(٥٤) Chronicon Edessenum, text, P.2, vers., P.1.

(٥٥) العمودي ، فقرة ٢٩، ص٢٣ .

(٥٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٣.

(٥٧) المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥ .

(٥٨) Codex Justinianus, XI, 62, 8.

(٥٩) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 4, t.II, P. 25.

(٦٠) العمودي ، فقرة ٦١.

(٦١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦.

(٦٢) Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408.

(٦٣) العمودي ، فقرة ٣٩،ص ٣٥.

(٦٤) Novellae, 80, cap. 2, P. 391.

(٦٥) Wright. Chronicle of Joshua the Stylite, translation, P. 29.

(٦٦) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36 .

(٦٧) Codex Justinianus, X, 27, 3, P.408.

(٦٨) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 6,P. 36.

(٦٩) Cambridge Medieval History, 1911, t. I, P. 565.

(٧٠) العمودي ، فقرة ٧٨، ص ٦٣-٧٤.

(٧١) بوميالوفسكي ، حياة القديس سابا ، بطرس بورغ ، ١٨٩٠ ، ص ٤١٦ .

(٧٢) Gli statuti della Scuola di Nisibi, I, 4, Ed. Guidi, P. 183.

(٧٣) العمودي ، فقرة ٤٤، ص ٣٩ .

(٧٤) Pauly Wissowa. Collatio lustralis, IV, PP. 370-376 .

(٧٥) Joannes Malalas, **Chronagraphia,** Ed. Dindorfius, 1831, P. 394.

(٧٦) Zosimi Historia nova, Ed. Mendelssohn, Lipsiae, 1887, I. II, cap. 38, P. 96.

(٧٧) Codex Theodosianus . Ed. Haenel, Bonnae, 1837, cc. 1313, 1315 , 1316, 1317.

(٧٨) Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, L.I, § 116 , P. 32.

(٧٩) Joannes Malalas, Chronographia, I. 16, P. 398. Evagrius . Historia ecclesiastica, I. III, cap. 39, Ed. Bidez et Parmetier, London, 1898.

(٨٠) Chronicon Edessenum, P.8.

(٨١) العمودي، فقرة ٣١ ، ص ٢٦.

(٨٢) المصدر نفسه ، فقرة ٣١، ص ٢٦.

(٨٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩، ص٣٥.

(٨٤) Procopius . De bello Persico, I. I, cap. 9, P. 41.

(٨٥) العمودي ، فقرة ٥٤، ص ٥٢ .

(٨٦) المصدر نفسه ، فقرة ٧٠ ، ص ٦٧ .

(٨٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٣.

(٨٨) المصدر نفسه ، فقرة ٩٣ .

(٨٩) Procopius. De bello persico, I. I, cap. 9, P. 41.

(٩٠) العمودي ، فقرة ٧٦ ، ص ٨١.

(٩١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .

(٩٢) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .

(٩٤) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٤ .

(٩٥) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢، ص ٨٥.

(٩٦) المصدر نفسه ، فقرة ٩٥، ص ٨٦.

(٩٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧، ص ٧٣ .

(٩٨) المصدر السابق ، فقرة ٩٤ ، ص ٨٦.

(٩٩) المصدر السابق ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٧.

(١٠٠) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .

(١٠١) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨–٨٩.

(١٠٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩، ص ٣٥.

(١٠٤) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩،ص ٣٥.

١٠٥ المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٧) Zacharias Mytilenensis, t. II, P. 36.

١٠٨) العمودي ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٩) المصدر نفسه ، فقرة ، ٣٢، ص ٢٧ .

(١١٠) Theophanes. Chronographia, P. 230, 20-Chronicon Paschalc, P.608,3.

(١١١) انظر اسفار يشوع العمودي .

التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم

د . عيد مرعي
جامعة دمشق

كانت التجارة فرعا هاما من فروع الاقتصاد البابلي القديم . وكانت الصفقات التجارية تعقد في بلاد بابل من قبل التجار وممثليهم . ويدعى التاجر في اللغة الاكادية تامكاروم (tamkāru (m))(١) . هذه الكلمة مشتقة من الفعل مكارو makāru (٢) والذي يعني ممارسة التجارة والاتجار . وهذا الفعل معروف في اللغات السامية ، ويعني في اللغتين الاوجاريتية والعبرية ((يبيع)) ، وفي اللغة الارامية ((يشتري)) ، وفي اللغة العربية ((يحتكر))(٣) وكل هذه المعاني كما هو واضح لها صلة وثيقةبالتجارة.

اثرت اللغة الاكادية كلغة للكتابة والتجارة(٤) على اللغات الاخرى في الشرق الادنى القديم ، والتي استعارت منها الكلمة الدالة على التاجر : في اللغة السومرية ((دام ـ جار dam - gar)) ، في اللغة الارامية ((تاجارا taggārā))(٥) ، في اللغة العربية ((تاجر)) (٦) ، وفي الحورية ((تامكاري tamkari))(٧ـ٨) . وما تزال العلاقة ما بين الكلمة الاوجاريتية ماكارو makkaru ، والتي تعني تاجر ، والكلمة الاشورية القديمة ماكاروم makkārum غير معروفة حتى الان(٩) .

قام التاجر « تامكاروم » بدور بارز في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . والمصادر الاساسية لدراسة النشاطات المتعددة للتاجر في هذه الفترة هي قبل كل شيء قانون حمورابي والنصوص البابلية القديمة من مدينتي لارسا Larsa وسيبار Sippar البابليتين(١٠) . من خلال ذلك يظهر الـ « تامكاروم » :
١ ـ كتاجر متجول يبيع البضائع بنفسه من خلال جولات تجارية ورحلات الى

الاسواق المختلفة ، ٢ ــ كمتعهد تجاري يبيع بضائعه عن طريق ممثلين تجاريين يعملون في خدمته وتربطهم به علاقات منظمة ، ٣ ــ كمقدم للقروض (دائــن) يزود الناس بقروض نقدية وعينية(١١) .

١ ــ ال « تامكاروم » تاجر متجول : في ثلاث فقرات من قانون حمورابي يظهر ال « تامكاروم » كالتاجر المتجول ينتقل من مكان الى اخر ليعقد الصفقات التجارية .

الفقرة ٣٢ : اذا افتدى تاجر « ريدوم » (عســكري) او « بائيروم » (١١ب) (صنف من العساكر) وقع في الاسر خلال حملة عسكرية للملك وجعله يصل مدينته ، فيجب عليه (ال « ريدوم » أو ال « بائيروم ») ، اذا كان لديه في بيته فضة لدفــع الفدية ،ان يفتدي نفسه. اما اذا لم يكن لديه في بيته فضة لفديته ، فيجب ان يفتدى من قبل معبد إله مدينته . اما اذا لم يكن لدى معبد إله مدينته فضة لفديته ، فعلى القصر ان يفتديه. (اما) حقله وحديقته وبيته فلا يسمح بان تدفع فدية عنه(*) .

من هذه الفقرة يتضح بان ال « تامكاروم » كان تاجرا متجولا ، يزور الاسواق الاجنبية حيث يباع ، مما يباع ، اسرى الحروب كالعبيد(١٢) . الفقرتان ٢٨٠ و ٢٨١ تعالجان موضوع شراء العبيد البابليين في الخارج ، الفقرة ٢٨٠ : « اذا اشترى رجل (اويلوم awilum (في بلاد الاعداء عبد او امة رجل اخر ، وبعد عودته الى بــلاده تعرف صاحب العبد او الامة على عبده او امته ، فيجب ، اذا كان العبد او الامة من ابناء البلد (بابل) ، ان يطلق سراحهما دون دفع أي تعويض مادي » ،.الفقرة ٢٨١ : « اما اذا كان الامر يتعلق بابناء بلد اخر ،فيجب على الشاري ان يذكر امــام الالــه (مقدار) الفضة التي دفعها ، وعلى صاحب العبد او الامة ان يعوض التاجر الفضة التي دفعها هذا ويستعيد عبده او امته » .

الرجل (اويلوم) الذي يذكر في الفقرة ٢٨٠ ويشتري عبدا او امة في الخارج هو نفسه الذي يرد ذكره في الفقرة ٢٨١ ، وبالتالي فهو تاجر يسافر الى البلاد الاجنبيــة ويزور ، ضمن ما يزور ، اسواق العبيد(١٣) .

من هذه الفقرات الثلاث من قانون حمورابي نستطيــع ان نستنتــج ان الــ « تامكاروم » كان تاجرا يسافر الى البلدان الاخرى ليعقد صفقات تجارية ، ومن ضمن ما يتاجر به العبيد(١٤) .

٢ ــ ال (تامكاروم) متعهد تجاري : مع تقدم المجتمع وتطور العلاقات الاقتصادية لم يعد ال « تامكاروم » يحتاج لان يسافر ويقوم برحلات تجارية بنفسه بل صار يرسل

ممثلين تجاريين يقومون بعقد الصفقات التجارية وانجاز عمليات البيع والشراء المطلوبة(١٥) . وقانون حمورابي يتضمن عدة فقرات (٩٩ ـ ١٠٧) تنظم العلاقة بين الـ « تامكاروم » والممثل التجاري « شامالوم »(١٦) . الـ (تامكاروم) يعطي الـ « شامالوم » فضة او بضائع لرحلة تجارية . يجب على الـ « شامالوم » ان يعيد للـ « تامكاروم » ، بعد انجاز رحلته وبعد حسم المصاريف ، راس المال والفوائد والارباح (الفقرات ٩٩ـ١٠٠) .

يتضح من هذا بان راس المال اعطي للـ « شامالوم » قرضا بفائدة(١٧) . (الفقرة ١٠١) : « اذا لم يحقق الـ « شامالوم » أي ربح فيجب عليه ان يعيد الفضة التي تسلمها الى الـ « تامكاروم » مضاعفة ». الفقرة ١٠٢ تعالج حالة اقراض الـ « تامكاروم » الـ « شامالوم » فضة « كسلفة للتجارة بدون فائدة »(١٨) ، وتعرض الـ « شامالوم » لخسارة ، ففي هذه الحال يجب عليه ان يعيد للـ « تامكاروم » رأس المال فقط .

الفقرة ١٠٣ تحدد القواعد والاسس التي يجب اتباعها في حال تعرض الـ « شامالوم » لهجمات معادية خلال قيامه برحلاته التجارية .. « اذا سبب له (الـ « شامالوم ») عدو في الطريق فقدان كل ما يحمل ، فعلى الـ « شامالوم » أن يقسم يمينا امام الاله ومن ثم يذهب حرا » . في هذه الحال يتحمل الـ « تامكاروم » الخسارة لانها نشأت بسبب عمل عدائي وليس بسبب قلة مهارة او اهمال الـ « شامالوم » هذه الفقرة تذكر اخطار الاعمال العدائية وحسب . الا ان اخطارا اخرى كانت تهدد الرحلات التجارية ، مثل اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق . ولما كانت هذه الاخطار غير مذكورة فيمكن الاستنتاج بان الـ « شامالوم » كان يتحمل المسؤولية في مثل تلك الاحوال .

الفقرتان ١٠٤ و ١٠٥ تشيران الى ضرورة تسجيل الحسابات على لوح مختوم لتفادي الخلافات التي قد تنشأ فيما بعد بين الـ « شامالوم » والـ « تامكاروم ».

الفقرة ١٠٤ : « اذا سلم « تامكاروم » (أي التاجر) « شامالوم » (أي الممثل) حبوبا ، (او) صوفا ، (او) زيتا او اية بضاعة اخرى لبيعها ، فيجب على الـ « شامالوم » أن يسجل الفضة وان يعيدها الى الـ « تامكاروم » . ويجب على الـ « شامالوم » ان يحصل على لوح مختوم بالفضة التي يعطيها للـ « تامكاروم » .

الفقرة ١٠٥ : « اذا اهمل الـ « شامالوم » ولم يأخذ لوحا مختوما بالفضة التي اعطاها للـ « تامكاروم » فان الفضة غير المسجلة على لوح مختوم لا تدخل في الحساب».

الفقرتان ١٠٦ و ١٠٧ تعالجان الحالة الناجمة عن انكار احد الطرفين ، ال « تامكاروم » او الـ « شامالوم » تسلم او قبض الفضة (اي المال) من الاخر وتحددان العقوبة المترتبة على ذلك.

الفقرة ١٠٦ : « اذا تسلم « شامالوم » فضة من « تامكاروم » وانكرها على « تامكاريه » (تاجره) ، فعلى هذا الـ « تامكاروم » أن يثبت امام الاله وامام شهود أن الـ « شامالوم » قد تسلم (منه) فضة ، عندئذ يجب على الـ « شامالوم » أن يعطي الـ « تامكاروم » كل الفضة التي اخذها (منه) ثلاثة أضعاف » .

الفقرة ١٠٧ : «اذا ائتمن « تامكاروم » « شامالوم » على مبلغ من الفضة ، واعاد الـ « شامالوم » الى الـ « تامكاروم » كل ما سلمه اياه . (ولكن) الـ « تامكاروم » انكر كل ما سلمه اياه الـ « شامالوم » . على هذا الـ« شامالوم» أن يدين الـ«تامكاروم» امام الاله وامام شهود ، وعلى الـ « تامكاروم » ، لانه انكر « شماليه » (ممثلة) ، ان يعيد الى الـ « شامالوم » كل ما اخذ (منه) ستة اضعاف » .

من خلال هذه الفقرات من قانون حمورابي تبدو وضعية الـ « شامالوم » وعلاقته بالتاجر غير واضحة تماما ، فالاجر الذي كان يتلقاه غير محدد . ولا يعرف ما اذا كان مسموحا له بعقد صفقات لحسابه الخاص . ولكن يمكننا القول بأن الـ « شامالوم » كان تاجرا صغيرا يعمل بتكليف من التاجر (الـ « تامكاروم ») ويحصل على جزء من الربح . كما بان الـ « شامالوم » كان يعمل ايضا لحسابه الخاص ولديه المال الكافي الذي يمكنه من تعويض التاجر راس المال في حال تعرضه للخسارة(١٩) .

ويمكن لنا ان نستشهد بعدد الوثائق والنصوص التي تتحدث عن الـ «شامالوم» ونشاطاته وصلته بتاجره ولكن الوثائق المعروفة عن هذه النقطة ماتزال قليلة . فهناك رسالة من العهد البابلي القديم (A b B II 176)تشير الى تعيين « شامالوم » في الخدمة لدى احد التجار(٢٠) ، وتذكر رسالة اخرى احد هؤلاء الـ « شامالوم » (A b B II 87) ونص يعود الى زمن حكم الملك البابلي عمي صدوقا Ammisaduqa (١٦٤٦ — ١٦٢٦ ق.م) يعالج تعيين « شامالوم » مع أمه في الـ « شامالوتوم »(٢١) لمدة سنة لدى أحدالتجاروبأجر قدره ستة مثاقيل(٢١ب) فضة(٢٢) . وبالنتيجة فانه ليصعب القول ما اذا كانت هذه هي القاعدة السائدة في بلاد بابل وما اذا كان ذلك موجودا في الفترات السابقة .

يمكن القول اذن بان الـ « شامالوم » كان يعمل كالتاجر الصغير في خدمة الـ « تامكاروم » ولزمن محدد ، ويعقد له الصفقات التجارية ، وبامكانه في الوقت نفسه عقد الصفقات لحسابه الخاص .

وكان التاجر يستخدم ايضا اشخاصا اخرين لتسيير اعماله التجارية بالاضافة الى الـ « شامالوم »(٢٣) . وكان هؤلاء مندوبين يرسلون من قبل التاجر الى البلاد الاخرى للقيام بعمليات البيع والشراء . يظهر هؤلاء المندوبون في عدة رسائل ، حيث يتلقون تعليمات ويكلفون باعمال من قبل سيدهم التاجر . وهناك بعض رسائل بابلية من تاجر الى ممثله فيها تعليمات لشراء بضائع معينة وبسعر محدد : في الرسالة (A b B VI 36) يكلف التاجر بيلانوم ممثله اخوني بشراء مصراعي باب من خشب الارز واس واشياء اخرى — على مايبدو من سورية — . بعد انجاز هذه المهمة على أخوني أن يعود الى بابل ويقابل سيده التاجر .

في رسالة اخرى (A b B VI 52) يطلب بيلانوم من اخوني ان يشتري انواعا مختلفة من الخشب وان يرسلها الى بابل . ويطالبه ايضا بان يشتري له خمرا جيدا. وفي رسالة ثالثة يطالب بيلانوم اخوني بشراء خمر واشياء اخرى وان يأتي الى بابل(٢٤) .

من هذه الرسائل يتضح بان اخوني كان يعمل مستخدما لدى التاجر بيلانوم(٢٥). بالاضافة الى هذه الرسائل توجد رسائل اخرى من تجار اخرين الى مستخدميهم فيها التعليمات اللازمة لتنفيذ الاعمال التجارية(٢٦) .

ومن المقارنة يبدو ان هناك فرقا واضحا ما بين هذه الرسائل وفقرات قانون حمورابي التي تتحدث عن الـ « شامالوم » (٩٩–١٠٧) . من خلال الفقرات انفة الذكر يمكن القول بأن الـ « شامالوم » كان يستطيع نسبيا العمل بشكل مستقل عن التاجر ، بينما نجد في هذه الرسائل ان الممثل التجاري كان مقيدا ، وعليه تنفيذ تعليمات التاجر ورغباته . فهناك بضائع معينة للبيع او للشراء حددت اسعارها من قبل سيده التاجر . وفي هذه الحال فان الممثل التجاري لا تأثير له على الربح ، لذلك فانه كان يعمل باجر محدد(٢٧) . كذلك يمكن القول بان التاجر كان يتحمل وحده خطر الخسارة لانه يخطط ويدير الصفقات التجارية بنفسه .

اضافة الى ما تقدم استخدم الـ « تامكاروم » في تجارته اشخاصا يدعون « صوخارو » Suharu (٢٨) والذين كانوا يستخدمون في الحمل والنقل وبصفة السعاة(٢٩) .

٣ — الـ «تامكاروم» مقرض : الدرجة العليا في تطور ممارسة الاعمال التجارية كانت تقديم القروض ، وقد وصل الـ « تامكاروم » الى هذه الدرجة بعد وقت طويل

من التطور في مجتمع كان يتطور ايضا ، وعمله كتاجر متجـول ، كما تظهر الوثائـق السومرية القديمة ، كان الخطوة الاولى في تطور نشاطاته ،التي يظهر فيها كتاجر فقط، لكن عندما بدأت الانشطة الخاصة بالازدهار بعد بداية سلالـة اور الثالثـة ، كان الـ « تامكاروم » ناشطا في تقديم القروض(٣٠) . ويـرد ذلك في عدة فقرات من قانون حمورابي .

في الفقرة ١٥١ يرد ذكر الدائن : « بيل خوبوليم »(٣١) . ولكن في الفقرة ١٥٢ تستخدم كلمة « تامكاروم » بنفس المعنى . والواضح من ذلك ان المقصود بـ«تامكاروم» ليس الا «بيل خوبوليم » الذي كان يقدم قروضا(٣٢) .

والفقرتان ١١٥ و ١١٦ تبينان بان الدائن « تامكاروم » ، الذي كان يقرض فضة او حبوبا(٣٣) .

في الفقرة ٨٨ حددت الفائدة المسموح بها لـ « تامكاروم » كمقدم للقروض بـ ٢٠٪ لقروض الفضة و ٣٣⅓٪ لقروض الشعير . ولكن هذه النسبة لم يعمل بها دائما على ما يبدو(٣٤) ، وتفيدنا الفقـرات ٨٩ـ٩١ ، بالرغم من الثغرات والفجـوات ، ببعض المعلومـات حول كيفية تنظيم العلاقة ما بين المديـن والـ « تامكاروم » الـذي يظهـر كمقرض للفضة والشعير .. ويمكن القول بأن هذه الفقرات كانت سارية المفعـول ايضا للاقراض بفوائد ، ليس من قبل الـ « تامكاروم » فحسب بل من قبل اشخاص آخرين ايضا (٣٥) . ولكن الـ « تامكاروم » كان قادرا على تقديم القروض اكثر من غيره .

في الفقرات ٩ ٤ـ ٥١ ، ٦٦ يظهر الـ « تامكاروم » كمقرض للفضة ايضا(٣٦) ومن الفقرات ١١٧ ـ ١١٩ يمكن الاستنتاج بأن الـ « تامكاروم » كان الرجل الذي يقـدم عادة قروضا . ولكن هذا لا يستثني اخرين من تقديم القروض(٣٧) .

بالاضافة الى قانون حمورابي تبين عدة رسائل بابلية قديمة بان الـ «تامكاروم» كان يقرض الفضة والشعير . في احدى الرسائل (A b B I 24 : 4-8) نقرا مايلي(٣٨): « الشعير ، حصة اخي ، يجب ان يجهزها لي . والمرء يجب ان يجلبها لي . اريـد ان ادفع للـ « تامكاروم » الذي أعطاني الفضة » .

من هذه الرسالة يتضح بان الـ « تامكاروم » قد اقرض فضة والمدين يريد ان يسدد شعيرا .

رسالة اخرى (AbB I 103 1-4) تذكر : « بشأن ما كتب لي والدي كتبت

الي الـ ، ناديتوم Naditum »(٣٩) : « لقد اخذت الفضة من الـ « تامكاروم » للدفع للاشياء الاخرى » . هنا يظهر الـ « تامكاروم » كمقرض للنقـود . أما في الرسالـة AbB II 24 فيظهر كمقرض للشعير .

وفي الرسالة AbB II 94 : 5-9 من عهد الملك البابلي سمسو إلونا Samsuiluna ؟ ١٧٤٩ ــ ١٧١٢) نقرأ مايلي : « كما تعرف فقد اعطيت من اجل أمة وثيقة دين ،وقد جاء الوقت لدفع الفضة،والـ «تامكاروم» طالبني بالدفع » . هنا باع الـ « تامكاروم » الامة بالدين(٤٠) .

هذه الرسائل برهان اخر على عمل الـ « تامكاروم » كمقرض للحبوب او للفضـة في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . ولكن على المرء ان يلاحظ بان اصطلاح «تامكاروم» استخدم على ما يبدو ليس فقط للدلالة على التجار المحترفين كمقرضين للفضة او للشعير ولكن للدلالة ايضا على كل من يعطي قروضا . بيد ان التاجر كان في موقع يمكنه ،كما يظهر ، من اعطاء القروض(٤١) اكثر من غيره .

ان المرء يمكن ان يتساءل عما اذا كان الـ « تامكاروم » مشغولا بواحد فقط من الانشطة المذكورة سابقا ، او انه كان يمارس اكثر من نشاط في وقت واحد ..؟ فقد وجد حتما تجار يتاجرون بالبضائع ، واخرون يعملون كدائنين فقط ، ولكن من المحتمل ان بعض التجار كانوا يمارسون العملين معا (٤٢) او كل الاعمال مجتمعة . أما التعاون بين تاجرين او عدة تجار فلم يبرهن عليه حتى الان من خلال الوثائق . ولكن بامكان التاجر ان يقيم علاقات مع عدة تجار صغار او ممثلين تجاريين في وقت واحد . كذلك فان التاجر كان يقدم يوميا قروضا الى عدة اشخاص(٤٣) .

هل كان التاجر يعمل بتكليف ..؟

على العكس من التجار الاشوريين الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص ويتحملون عبء الاخطار ، كان التجار البابليون يتاجرون غالبا بتكليف من الدولة(٤٤) . ولكن هذا لا يعني ان التجار البابليين لم يمارسوا التجارة لحسابهم الخاص ايضا .

في سومر كان التاجر موظفا حكوميا مشغولا بالتجارة الداخلية . وفي عهد سلالة اور الثالثـة عمل التاجر كممثل تجاري في خدمـة القصر او المعبد ، و لكنـه أخذ في الوقت نفسه بممارسة التجارة لحسابه الخاص وبتقديم قروض . ويبدو ان التجارة الخاصة (الحرة) كانت قد وصلت الى درجة عليا من التطور بعد سقوط سلالة اور الثالثة(٤٥) . وفي زمن حمورابي تركزت في يد الدولة بسبب نظام الحكم المركزي انذاك لذلك لم يظهر تجار اغنياء ومشهورون(٤٦) .

ولكن هذا لايعني ان التاجر لم يلعب دورا مهما في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل . ونشاطه المهم ينعكس من خلال قانون حمورابي حيث يذكر مرات عديدة .

كان التاجر يعمل بتكليف من القصر ، وبشكل رئيسي كتاجر خارجي ، ويشغل نفسه ايضا بالتجارة الخاصة ، وذلك كما يبدو من عدة فقرات من قانون حمورابي (الفقرات ٣٢ ، ٨٨ ــ ٩٦ ، ٩٩ــ١٠٧)(٤٧) التي تشير الى مكانة التاجر كرجل اعمال مستقل وليس كموظف حكومي.

في النصوص البابلية القديمةالمذكورة اعلاه يظهرالتاجر ايضا مستقلا لا مستخدما لدى الدولة.

وفي مجال التجارة الخارجية لم يكن القصر الملكي المكلف الوحيد بالتجارة او المستهلك الوحيد لموادها ، ولكن وضع القصر الاقتصادي وحاجاته نمت بشكل ادى الى ان يصبح التجار تجارا ملكيين . وكان ذلك افضل بالنسبة للتجار الذي كانوا يتعاملون مع الخارج ، اذ كانوا يتمتعون ، بصفتهم هذه ، بحماية افضل(٤٨) . كما ان التجارة الخارجية كانت ، بشكل رئيسي ، تسد حاجات طبقة محددة ، وعلى الاخص العائلة المالكة . لذلك كان التاجر الذي يتعامل مع الخارج مرتبطا بشكل كبير بالقصر الملكي(٤٩) .

ويبدو ان التجارة الخاصة في لارسا وصلت ذروتها قبل عهد حمورابي، في عهد وارادسين Waradsin ، وفي النصف الاول من عهد ريم‌سين Rimsin (٥٠)،الا ان حمورابي استطاع بنظام حكمه المركزي القوي وبتوسيع سلطات الدولة ان يمسك التجارة بيديه(٥١) ، فنشطت التجارة الحكومية ، بشكل خاص ، خلال حكمه وحكم خليفته سامسو ‌الونا . وكان التجار يمارسون هذه التجارة ويدفعون ضرائب معينة للقصر(٥٢) . وهذا يظهر من خلال الرسالة (AbB II 72) من ابي ــ ايشوخ(٥٣) الملك البابلي ، يطالب فيها بان يدفع احد التجار الضرائب المترتبة عليه ، وفي رسالة اخرى (AbB II 68) يطالب ابي ــ ايشوخ تجارا من لارسا بالضرائب المترتبة عليهم .

وكان التجار يستثمرون ارباحهم من التجارة في شراء الاراضي والبيوت ، ويظهرون في عدة نصوص بابلية قديمة كشارين او باعة بيوت وحدائق وملكيات خاصة (٥٤) .

الى جانب التجار تظهر في النصوص البابلية القديمة من مدينة سيبار كاهنات الاله شماس (الـ « ناديتو ») (٥٥) اللواتي كن يمارسن انواعا مختلفة من الصفقات

ويلعبن دورا مهما في حياة المدينة الاقتصادية ، فيقرضن الفضة والحبوب مثلا . وكالتجار استثمرت الـ « ناديتو » أموالهن في شراء البيوت والاراضي(٥٦) .

بعد هذا العرض لنشاط التاجر ومكانته هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو ما اذا كان لكل حرفة حي خاص بها في المدن البابلية القديمة .

توجد اشارات على أن حال المدن الاشورية كان كذلك ، كما توجد اشارات على ان التجار في بلاد بابل كانوا يعيشون في احياء معينة ، ربما كانت ملاصقة لـ « كاروم » ـ السوق ـ (٥٧) . وسؤال اخر ، وهو ما اذا كان التجار في بلاد بابل مندمجين في روابط . لم يعثر على اشارات في المصادر البابلية القديمةتدل على ذلك ، ومن المحتمل بان الاشخاص الذين كانوا يمارسون حرفة معينة كانوا يشكلونمجموعات متماسكة في المجتمع (٥٨) .

الخلاصة : ان الـ « تامكاروم » يظهر من خلال الوثائق البابلية القديمة كرجل اعمال ومقدم للقروض ، يعمل لحسابه الخاص ، كما يعمل في خدمة القصر الملكي. وبوصفه تاجرا يتعامل مع الخارج بخاصة ، كان مرتبطا بالدولة ، ليس فقط من خلال القانون (كقانون حمورابي مثلا) ، ولكن ايضا من خلال بعض القواعد والانظمة الحكومية ، وقبل كل شيء من خلال نظام السماح بنقل البضائع من مكان لاخر ، ودفع ضرائب محددة ، كانت تجمع من قبل وكيل التجار (وكيل تامكاري)(٥٩) .

وكيل التجار (وكيل تامكاري Wakil tamkari) : الى جانب التاجر وجدت في بلاد بابل شخصية اخرى مهمة لعبت دورا بارزا في الحياة الاقتصادية ، يرد ذكرها كثيرا في النصوص البابلية القديمة ، هي وكيل التجار (وكيل تامكاري)(٦٠) ، وكان موظفا ملكيا مسؤول عن احدى المدن ، ووظيفته ادارة الصفقات التجارية للقصرالملكي. وكان مسؤولا عن جمع الضرائب ، وعليه ان يقدم للقصر الملكي في مقابل ذلك كمية محددة من الفضة . وعمليا كان وكيل التجار الرئيس المالي للمدينة(٦١) .

من خلال رسالتين بابليتين قديمتين يتبين بأن وكيل التجار قد تسلم من الملك « حقلا لسد نفقات معيشته » . في الرسالة الاولى(AbB IV 2) يكتب حمورابي الى شماش ـ خازر حاكمه في لارسا ، يأمره بان يعطي وكلاء التجار الثلاثة من مدينة اور UR« حقولا اضافية لتأمين متطلبات معيشتهم »(٦٢). في الرسالة الثانية(A b B IV 3) يأمر حمورابي شماش ـ خازر بان يعطي « حقولا لسد نفقات المعيشة » الى وكلاء التجار من لارسا ومن اور . ومثل هذه « الحقول لسد نفقات المعيشة » كانتتعطى لاناس يعملون في خدمةالملك. هذايبين بان وكيل التجار كان يعمل في خدمةالقصر(٦٣) .

وذكر ثلاثة وكلاء تجار من مدينة اور في الرسالة الاولى يشير ربما الى ان كل واحد منهم كان مسؤولا عن حي من احياء المدينة او ضاحية منها ، فالمدن البابلية القديمة كانت مقسمة الى احياء كانت عادة تدار ذاتيا(٦٤) .

يتبين من الرسالة AbB II 33 بانوكيل التجار كان يعملفي جبايةالضرائب لصالح التاج ، وكان ملزما بان يسلمها شخصيا الى حمورابي في بابل(٦٥) . والرسالة AbB II 30 تبين بأن وكيل التجار جمع الضرائبلصالح الملك وكان مسؤولا عنها. ولكن هذا لا يعني بان وكيل التجار لم تكن لديه اموال خاصة يستثمرها في مكان اخر(٦٦).

رسالة ثالثة (AbB II 53) تظهر ايضا مسؤولية وكيل التجار عن الضرائب امام الملك الذي طالبه هنا بان يرسل الضرائب عن شعر الماعز الى بابل(٦٧) . وبشكل مشابه تطلب رسالة اخرى من وكيل التجار توريد الضرائب المأخوذة من تاجر خمر الى القصر(٦٨) .

وكان يعمل في خدمة وكيلالتجار عده اشخاصيدعون وكيلنام٥ wakil NAM 5 هذه التسمية معروفة من مدن لارسا واور وكوتالا Kutalla (٦٩) . (مدينة في مقاطعة لارسا ، معروفة خلال حكم حمورابي وسامسوالونا) . هذه التسمية ماتزال غير معروفة من مدن بابلية اخرى(٧٠) .

كان وكيل التجار في المقام الاول مدير المصالح التجارية للملك. وينتمي الىدائرة التجار او الموظفين ، وخاصة القضاة . وكان الملك يختار من بين هؤلاء من يتمتع بمقدرات بارزة في حرفته ، او بنفوذ اجتماعي كبير(٧١) .

الى جانب عمله في التجارة وجمع الضرائب لصالح القصركان وكيل التجارمشغولا ايضا بممارسة الاعمال القضائية ، الى جانب القضاة في الـ « كاروم » ، ومن المحتمل بانه كان يشغل مركزا ممتازا في هذه الهيئة القضائية ، لانه يذكر باستمرار في مقدمة المشتركين فيها(٧٢) .

الخلاصة ان وكيل التجار يظهر في المصادر البابلية القديمة كموظف يعملفي خدمة القصر ، ومسؤولا عن تجارة الدولة وجمع الضرائب امام الملك ، واخيرا كعضو مشارك في القضاء .

اما في ماري التي لعبت دورا مهما في المواصلات التجارية بين بلاد ما بين النهرين وسورية ، فقد تركزت التجارة بيد القصر الملكي، الذي جنى ارباحاكبيرة من المواصلات التجارية وتجارة المرور . ووكيل التجار في هذه المدينة شخصية معروفة لدينا . وكان

مسؤولا عن التجارة وجباية الجمارك(٧٣) ، وفي خدمته اشخاص يسمون « بيل تيرتيم »(٧٤) ، لا تعرف حتى الان مدى علاقتهم به ولكن يبدو انهم كانوا يكلفون بصفقات تجارية (٧٥) او بجمع الجمارك(٧٦) في محطات المراقبة التي اقيمت على الحدود لمراقبة حركة التجارة والمواصلات التجارية مع البلدان المجاورة .

وتعطي وثائق من ارشيف مدينة ماري بعض المعلومات عن تجارها ونشاطاتهم المختلفة .

١ ـ داريئا Dariya : يظهر في الوثيقة ARM VIII 80:6 شاهدا اول في اقراض فضة الى صدقو ـ لاناسي Zidqu-Lanasi ، ممثل زمري ليم Zimrilim ملك ماري في كركميش، في النص ARM IX 17:1-4 يجلب ٢٩٣ اناء خمر من كركميش، وفي ARM—XIV 32:7 يصل الى تيلازيبوم Tillazibum (مكان في منطقة ساجاراتوم Sagarâtum) مع اخشاب من الارز .

وحسب رسالة من صدقو ـ لانسي ممثل زمري ليم في كركميش يبدو ان داريئا كان منشغلا بتجارة الخشب(٧٧) .

هذا التاجر كان متخصصا في استيراد منتجات مختلفة من كركميش كالخمر والخشب . وكانت له هناك بدون شك علاقات تجارية ومركز لادارة اعماله .

٢ ـ اريبا Eriba بن إصي ـ قاتار Isi-qatar : يظهر في احد النصوص كبائع للرصاص : « ٣ مثاقيل فضة لشراء (١) تالنت (وزنة رصاص(٧٨) ، اي ٢٠ مينة لـ (١ مثقال) ، تم شراؤها من إريبا التاجر ابن إصي ـ قاتار »(٧٩) .

٣ ـ إلوشو ـ ابوشو : يذكر هذا التاجر في نص كبائع للارز الابيض (خشب) . « ٢½ مثاقيل فضة لشراء ٨ ارزات بيضاء(٨٠) ، شريت من إلوشو ـ أبوشو التاجر ، والمخصصة لعربتي(٨١) احصنة ، اللتين صنعهما خبدو ـ ملك »(٨٢) .

٤ ـ في رسالة من ياسيم ـ سومو Yasim - sumu(٨٣) الى سيده زمري ليم اشارة الى احد التجار « العجل الذي ارسل الى الملك من احد الاشخاص اصبح مريضا . ياسيم ـ سومو يسأل الملك ما اذا كان يجب عليه ان يبيع العجل الى احد التجار ويشتري بدلا منه(٨٤) .

٥ ـ نانا ـ مانسي Nanna-manse : يظهر هذا التاجر بائعا للقصدير : « ٢٠ مينة قصدير مقابل ٢ مينة فضة ، بسعر ١٠ الى ١ ، اشتريت من نانا ـ مانسي التاجر »(٨٥) .

٦ ــ **اخوشينا** يرد ذكر آخوشينا في احد النصوص بائعا للقصدير : « [؟] مثقال فضة لشراء قصدير من آخوشينا التاجر »(٨٦) .

٧ ــ ماهنوب ــ ال Mahnub - EL: كان ايضا يشتغل ببيع القصدير(٨٧) .

٨ ــ **نص من عهد سومو ــ يامام** Sumu-yamam احد ملوك ماري يبين بان احد التجار كان يشتغل ببيع خشب الابنوس(٨٨) . من محتوى النص يتبين بان سعر خشب الابنوس كان ٢ مثقال فضة لكل مينة من الخشب(٨٩) .

٩ ــ **وفي** النص ARM XII 263:11 يرد ذكر لاحد التجار .

وتذكر نصوص ماري ايضا تجارا من مدن سورية :

ا ــ من ايمــار Emar : احد النصوص يبين بان احد التجار (او عدة تجار) من ايمار كان يعمل ببيع الزيت والخمر : « ½ مثقال فضة حسب وزن السوق ، لشراء اناء كبير من الزيت ، ½ مثقال فضة لشراء اناء من الخمر لزيت الاس ، تم شراؤها من تاجر من ايمار »(٩٠) . وفي نص ثــان يظهر تاجــر اخــر من ايمــار بائعا للخشــب (ARMI XXIII 523) : « ٣ تالنت خشب تيارو ? Tiyaru ، ٢ ثالنت آس ٢ تالنت سرو ، التي شريت من خانا ــ ادو Hanna-Addu التاجر من إيمار » .

ب ــ من كركميش Karkemis : وتاجر من كركميش يذكر في احد النصوص كبائع للارز الابيض : « ٣ مثاقيل فضة حســب وزن الســوق لشراء اربــع ارزات بيضاء(٩١) ، شريت من تاجر من كركميش »(٩٢) .

تجار من سوخوم Suhum (٩٣)يظهرون ايضا في عدة نصوص من ماري منشغلين بتجارة القصدير(٩٤) .

وكمركز تجاري مهم كانت ماري تجتذب تجارا من المدن السورية المختلفة مثــل إيمار وكركميش ، وربما حلب وقطنة ، الذين كانوا يجلبون اليها منتجات بلادهم مثل الخمر والخشب وزيت الزيتون . السؤال المهم هنا هو ما اذا كان هؤلاء التجار يلتقون في ماري مع تجــار من المــدن البابلية ويعقــدون معهم الصفقات التجاريــة ؟ . وتجار من ماري كانــوا يسافرون ايضــا الى المدن السورية لعقد صفقات تجاريــة . لقد رأينا فيما سبق داريًا ، ومن رسالة من ابلاخاندا Aplahande حاكم كركميش،

(ARM V 9) الى يسماخ ادد yasmahadad حاكم ماري تبين بان عدة تجار من مملكة ماري احتجزوا في كركميش ، كاجراء مضاد لاحتجاز ٣٠ خروفا و ٥٠ جرة من الخمر وزوجة احد الملاحين من كركميش في توتول Tuttul التابعة لمملكة ماري(٩٥) . ومن ذلك يمكن الاستنتاج بان تجارا من ماري كانوا يسافرون باستمرار الى كركميش لاستيراد منتجات مختلفة .

كذلك كانت مدينة حاصور الواقعة في شمال فلسطين هدفا مقصودا لتجار من ماري . فاحدى الرسائل من زمري ليم ملك ماري الى ياريم ليم ملك يمحاض تفيدنا بأن تجارا من ماري سافروا الى حاصور واحتجزوا هناك من قبل ذلك تلك المدينة لاسباب مازلنا نجهلها(٩٦) .



على العكس من بلاد بابل نوجد معلومات قليلة عن التجار وعن الفعاليات التجارية في سورية .

في بعض نصوص الطبقة السابعة من الالاخ يرد ذكر اوكيل التجار(٩٧) . في النصوص AL .T 56, 57 يظهر وكيل التجار إربااداا Irpa-ada شاريا لعدة قرى واراض . وكان الثمن يتضمن ، الى جانب الفضة ، منتجات طبيعية كالشعير والزيت والخمر والملابس . وكان الملك نفسه واخوه الحاكم في حلب شهودا في عملية البيع هذه . وهذا يدل على أهمية منصب وكيل التجار في الالاخ في هذه الفترة ، ومن المحتمل بانه كان يعمل ، كوكيل التجار في بلاد بابل ، في خدمة القصر بتسيير امور التجارة وجباية الضرائب(٩٨) . ويمكن القول ان المهمات الموكولة الى وكيل التجار في الالاخ ، في هذه الفترة ، كانت مشابهة للمهمات الموكولة الى وكيل التجار في بلاد بابل .

ويرد ذكر ممثلي التجار « شامالوم » في نصين (٩٩) ، وقد اتوا من مورار Murar وايمار وامورو Amurru . ومن المعتقد بأنهم كانوا يسافرون باستمرار بين الالاخ وهذه المدن لعقد الصفقات التجارية .

الهوامشــ :

(*) انظر هذا الموضوع بتوسع في : عيد مرعي ، « التجارة بين سورية وبلاد بابل في القرن الثامـن عشر قبل الميلاد » (بالالمانية). اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ..

Der Handel zwisch Syrien und Babylonien im achtzehnten Jahrhnudert vor Christus , Würzburg 1985.

(١) AHw 1314 b; H. Zimmern, AFr, S.16; vgl. B. Landsberger, Akkadisch -Hebräische Wortgleichungen, in: Festschrift zum 80. Geburtstag von W. Baumgartner, Leiden 1967, S. 177.

(٢) A. Salonen , Nautica Babyloniaca ,Helsinki 1924, S. 23 Anm. 1; AHw 588 b; CAD 10 (1977) , S. 126 .

(٣) AHw588b; L.Koehler-w. Baumgartner, Lexicon in Veteris Testamenti Libros, Leiden 1953, S. 522; R. Tomback, Acomparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages, Montana 1978,P.177.

(٤) G. Steiner, Kaufmanns- und Handelssprache im alten Ortent, in : Iraq 39 (1977) , S. 12.

(٥) S. Kaufmann, The Akkadian Inflnences on Aramaic, Chicago - Londen 1974, P. 107 .

(٦) تسمية التاجر انتقلت من اللغة الاكادية الى العربية عبر الارامية .

انظر :

S. Fraenkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Nachdruck der Ausgabe Leiden 1886. Hidbesheim 1961, S. 181.

(٧) E. Laroche, RHA 35 (1977) , P. 254.

(٨) Zimmern, AFr, S. 16; AHw 1314 b; Steiner , Iraq 39 (1977), S. 13; F. Hrozny, Die älteste Geschichte Vorderasins, Prag 1940, S . 86.

(٩) Makkārum : تاجـر , AHw 589 b.

كلمة mak - rū - 'u في اللغة المصرية القديمة ، والتي تعني تاجر ايضا ، استعيرت من اللغات السامية . انظر :

A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica I, Oxford 1947, P.95 Nr. 212 ; W. Helck, Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im3. und 2. Jahrtausend v. Chr., 2. verbesserte Auflage, Wiesbaden 1971, S. 515.

(١٠) W. F. Leemans, The Old Babylonian Merchant, His Bus: ness and His Social Position, Leiden 1950, P. 125.

(١١) ibid. P. 36.

(١١ب) bä'irum : صياد . كان على هذا الصياد المشاركة في حملات الملك العسكرية . وسلاحه كان شبكته . انظر AHw 96 a.

(*) هذه الفقرة والفقرات الاخرى من قانون حمورابي الواردة هنا ترجمتها عن النص الاصلي المكتوب باللغة الاكادية

(١٢) W. F. Leemans, Tfe Old Babylonian Merchant, P. 7.

(١٣) ibid. P. 9.

(١٤) ibid. P. 10.

(١٥) ibid. P. 22.

(١٦) شامالوم Samallum : حامل كيس ، معاون ، مندوب ، مساعد تجاري .

انظر : AHw 1153 b ; Zimmern, AFr .S.16.

شامالوم هي كلمة سومرية الاصل وانتقلت الى الاكادية : اشتقاقها ، حسب معلومات الاستاذ الدكتور يوسف بور المتخصص في الدراسات السومرية ،: حامل وعاء ; LU. SAMAN. LA حامل : LA; وعاء معين : SAMAN رجل : LU:

(١٧) H. Klengel, Handel und Händler im alten Orient , Wien-Köln -Graz 1979, S. 90.

(١٨) « سلفة للتجارة بدون فائدة » تسمى في اللغة الاكادية تدميقتوم tadmiqtum انظر : AHw 1300 b; Leemans, Merchant, P. 25 ff.; F.R. Kraus, Ein Edikt des Königs Ammi - Saduqa von Babylon, Leiden 1958, S. 63 Anm. 1; vgl. Edzard, Altbabylonische Rechts - und Wirtschaftsurkunden aus Tell ed - Der im Iraq Museum, Baghdad, München 1970, S. 147.

(١٩) H. Klengen, Handel und Händler im alten Orient, S. 90.

(٢٠) ibid. S. 91.

(٢١) شامالوتوم samallutum تعني : «اعانة في التجارة ، الخدمة كمندوب » .

انظر : AHw 1154 a.

(٢١ب) مثقال من الجذر ثقل في العربية هي ما يقابل كلمة شيقيل Siqil الاكادية . في الاكادية شيقلوم Siqlum في حالة غير المضاف وشيقيل في حالة المضاف . الكلمة مشتقة من الفعل شقالوم Saqalum : وزن . الشيقيل يزن ⅓٨ غ تقريبا .

كلمة شيقيل انتقلت الى لغات اخرى :
الاوجاريتية : ثقل tql ، العبرية : شيقيل Seqel ، والارامية ثيقلا tiqla . انظـر : AHw1248a

(٢٢) J. J. Finkelstein, Late Old Babylonian Documents and Letters, New Heven - London 1972, Nr. 207 .

(٢٣) Leemans, Merchant, P. 33.

(٢٤) A.L. Oppenheim, Letters from Mesopotamia, Chicago - Londen 1967, P. 83 Nr. 13.

(٢٥) Leemans, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden 1960. P. 108 .

(٢٦) Leemans, Merchant, P. 34; AbB II 87; VI 4.

(٢٧) ibid. P. 34.

(٢٨) صوخاروم (في حالة المفرد): شاب ، خادم ، مستخدم . انظر :
AHw 1109 a; CAD 16 S (1962) , P. 231 b.
يقابل هذه الكلمة في العربية كلمة « صغير » .

(٢٩) انظر الهامشــ رقم ٢٧.

(٣٠) Leemans, Merchant, P. 11.

(٣١) بيل خوبوليم bel hubullim: دائن . انظر :
AHw 351 b; CAD 6 H (1956), P. 218 b.

(٣٢) Leemans, Merchant. P. 12 .

(٣٣) ibid. 13.

(٣٤) Klengel, Handel und Händler im alten Orient, S. 89.

(٣٥) Leemans, Merchant, P. 14.

(٣٦) انظر ايضا : ibid. P. 19.

(٣٧) ibid. P. 17.

(٣٨) الرسالة رقم ١٢٤ في A b B VII هي نسخة عن هذه الرسالة .

(٣٩) ناديتو maditum : هي كاهنة اله الشمس شماش وكان يجب عليها الا تنجب اولادا . انظـر حول ذلك :
J. Renger, ZA 58 (1967), S. 149 ff.

(٤٠) قارن : Leemans, Merchant, P. 20.

(٤١) ibid. P. 36; Klengel, Handel und Händler, S. 74.

(٤٢) Leemans, Merchant, P. 37.

(٤٣) ibid. P. 38.

(٤٤) Edzard, Fischer Weltgeschichte 2, S. 181.

(٤٥) Leemans, Merchant, P. 113.

(٤٦) ibid. P. 94, 122.

(٤٧) ibid. P. 123; B. Meissner, BuA I, Heidelberg 1920, S. 336.

(٤٨) Klengel, Handel und Handler, S. 85; vgl. Schmökel, Kulturgeshichte des Alten Orient, Stuttgart 1961, S. 78.

(٤٩) Klengel, Handel und Händler, S. 74; vgl. K. Polany in: Sabloff - Lamberg - Karlovsky , Ancient Civilization and Trade, P. 138-140.

(٥٠) Leemans, Merchant, P. 121.

(٥١) ibid. P. 122.

(٥٢) ibid. P. 99 ff.

(٥٣) ابي ايشوخ Abi - esuh هو الملك الثامن من السلالة البابلية الاولى . حكم مابين ١٧١١ – ١٦٨٤ ق.م . وهو ابن سمسو الونا خليفة حمورابي .

انظر : F. H. Weissbach, RLA 1 (1932), S. 9.

(٥٤) Leemans, Merchant, P. 53 ff.

(٥٥) انظر الهامش رقم ٣٩ .

(٥٦) Leemans, Merchant, P. 98, 118 ff.

(٥٧) ibid. P. 63, 67.

كاروم كلمة سومرية الاصل لها عدة معان : رصيف ميناء ، سد ، مرسى للسفن ، سوق دائرة للتجارة . انظر اطروحتي للدكتوراة ص ٥٥.

(٥٨) Leemans, Merchant, P. 67 ff.

(٥٩) ibid. P. 125.

(٦٠) (و) اكلو (م) (w) aklu (m) : مكلف ، مشرف ، مراقب . انظر :

AHw 1456 a; A. Salonen, Nautica Babyloniaca, S. 5.

نقول في العربية « وكيل » .

(٦١) Klengel, Handel und Händler, S. 84; Leemans, RIA 4 (1972 - 75), S. 81, 85.

(٦٢) حقل لسد نفقات المعيشة يدعى في الاكادية ايقيل كوروماتيم eqel Kurummatim انظر : AHw 231 b; CAD 8 K (1971), P. 573 ff.

(٦٣) Leemans, Merchant, P. 82.

(٦٤) ibid.

(٦٥) ibid. P. 83.

(٦٦) ibid. P. 86.

(٦٧) ibid. P. 105.

(٦٨) E. Ebeling, Altbabylonische Briefe der Louvre- Sammlung aus Larsa, Leipzig 1942, Nr. 33.

(٦٩) انظر : RGTC 3 (1980), S. 147.

(٧٠) Leemans, Merchant, P. 90 ff.

(٧١) ibid. P. 95, 105 ff.

(٧٢) ibid. P. 71; A. Walther, Das altbabylonische Gerichtswesen, Leipzig 1917, S. 70 ff.

(٧٣) انظر اطروحتي ص ١٣٥ و ١٣٨ .

(٧٤) ARMT XIII 35: 25. bel terti (m) : مفوض ، مكلف باوامر

انظر : AHw 120 b Nr. 23.

(٧٥) انظر ص ١٢٨ ومايليها من اطروحتي . ARMT XIII 35 : 22-26 .

(٧٦) انظر ص ١٢٥ من اطروحتي ARM IX 8, 13.

(٧٧) B. 130 bei Ch.-F. Jean, Pharmacopée etParfumerie dans quelques Lettres de Mari, in: ArOr XVII/1 (1949), P. 329 . ARMT IX § 41 ; A. Finet, AfO 35 (1974-77) , P. 124,: انظر حول داريا :
واطروحتي ص ٧٩ .

(٧٨) الرصاص يدعى في الاكادية اباروم abāru (m) . انظر AHw 4 a ; CAD 1 A 1 (1964), P. 36 ff.

(٧٩) ARM XXI 221 : 1-7 .

(٨٠) ti (?) āl/ru (m), tijāl/ru (m):

انظر :
AHw 1353 a ; vgl. A. Salonen, Die Türen des Alten Mesopotamien, Helsinki 1961, S. 99.

(٨١) Magarru (m(: عربة ، دولاب , AHw 575 a; CAD 10 M (1977), P. 32 ff.; vgl. A. Salonen, Die Landfahrzeuge in Babylinien, S. 38.

(٨٢) ARM XXI 215 : 1-10 .

(٨٣) احد الموظفين الكبار لدى زمري ليم . انظر :
J.-R. Kupper, RLA 5 (1976-80), S. 269.

(٨٤) ARMT XIII 25: 18.

(٨٥) ARMT XXII 205, Col. I Z. 6-10.

(٨٦) ARMT XXII 260 : 6-9.

(٨٧) ARMT XXII 262, Col. VI Z. 8-18.

(٨٨) خشب الابنوس يدعى في الاكادية اوسوم usu (m) . قارن : AHw 1442 b :

(٨٩) G. Dossin, RA 64 (1970) , P. 28 Nr. 13.

(٩٠) ARM XXI 210: 1-10.

(٩١) انظر الهامش رقم ٨٠ .

(٩٢) ARM XXI 214: 1-8.

(٩٣) سوخوم Suhum منطقة على الفرات الى الجنوب من ماري . انظر :
RGTC 3 (1980) , S. 210; 5 (1982), S. 235 ff.

(٩٤) ARMT XXII 205, I Z. 12-18; 264 : 5-10' 14' 16-21.

(٩٥) انظر اطروحتي ص ٧٨ ، ١٥٧.

(٩٦) انظر اطروحتي ص ١٥٧ وما يليها .

(٩٧) D. J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Nr. 7: c; 57: 3; 77. 16.

(٩٨) Klengel, Handel und Händler, S. 142.

(٩٩) Wiseman, JCS 13 (1959), P. 28, AL. T. 269: 28 , 52, 53, 74, 75 ; The Alalakh Tablets, Nr. 321: 2.

مختصرات اسماء المصادر والمراجـع الواردة في الهوامش

AbB = Altbabtlonische Briefe.

AfO = Archiv für Orientforschung .

AFr = Akkadische Fremdwörter als Beweis für babylonischen Kultureinfluß, Leipzig 1917.

AHw= W.v. Soden, Akkadisches Handwörterbuch.

AL.T.= D.J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Londen 1953.

ARM(T)= Archives Royales de Mari (transcripts, traduits et commentés).

ArOr = Archiv Orientálni.

BuA = Meissner, B., Babylonien und Assyrien.

CAD =)The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago.

JCS = Journal of the Cuneiform Studies.

RA = Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale.

RGTC = Répertoire Géographque des Textes Cunéiformes.

RHA = Revue Hittite et Asianique.

RLA = Reallexikon der Assyriologie .

ZA = Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete.

* * *

بعض الملاحظات حول اللغة الإبلائية وقواعدها

الحديث عن ابلا EBLA ولغتها ما يزال محتدما في اوساط الاشوريات واللغات السامية في العالم . كما ان عملية نشر النصوص المكتشفة في ابلا ستستمر لسنوات طويلة . لذلك فان الوصول الى رؤية شاملة وواضحة كل الوضوح لغتها وقواعدها يحتاج الى سنوات عديدة .

ومع ذلك فان عدة جوانب من لغة ابلا اصبحت معروفة ، نتيجة عمليات القراءة المتواصلة للنصوص المكتشفة ، ودراستها ونشرها . وان تقديم فكرة موجزة عن تلك اللغة ، كما فعلت الدكتورة يسرى الكجك ،* بداية طيبة ، وحافز لنا نحن العرب ان نهتم اكثر بحضارتنا وتاريخنا القديم . واود هنا ان اشير الى بعض ما ورد في البحث عن خصائص اللغة الابلائية .

في الصفحة ١٦٩ تورد الباحثة بعض الافعال الموجودة في اللغة الابلائية: جنفاردامو Jinhar - Damu= داموا مصاب ، جيبخور ملك Jiphur - malik= ملك قدحصد ، جيشمع أل Jisma-il = هو يسمع ، جيديـن كاميش Jiddin-Kamis= كميش قد أعطى ، جيبسورني Jipturni = هو قد حررني او حررنا ، ثم تعلق فتقول :« من الملاحظ ان الافعال السابقة قد بدأت بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر الغائب ، وهو (جي) Ji ،وانها جميعا على وزن جيكتل Jiqtul » ، ثم تضيف : يجمع بيتيناتو وجلب على اعتبار Jiqtul كزمن الفعل الماضي، كما هو الحال في كتب Ktub= كتب .

من الامور المعروفة انه لا يوجد في لغة ابلا ولا في غيرها من اللغات السامية المعروفة حتى الان مقطع يسبق الفعل ويدعى (جي) Ji (١) . فالمقطع الذي يسبق الفعل الماضي للمفرد المذكر الغائب في لغة ابلا هو المقطع (اي) ، كما هو الحال في اللغة الاكادية ،ويقابل ذلك المقطع ya (يـا) في اللغة الامورية واللغات السامية الغربية، وبناء على ذلك يصبح الوزن المنسوبة اليه الافعال المذكورة سابقا اقتل = iqtul وليس جيكتل كما ورد في المقال(٢) .

---

* انظر : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، يسرى الكجك ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١ و ٢٢ ، اذار-حزيران ١٩٨٦ .

كذلك لابد من التنويه بأن حرف الـ q يقابله في العربية واللغات السامية المعروفة الحرف (ق) ، والفعل قتل qatal ، والمستخدم هنا كوزن تقاس عليه الافعال الاخرى ، معروف في العديد من اللغات السامية ، ويكتب قتل عند نقله عن اللغات الاوربية ، وليس كتل (ص ١٧٠) . والمثال كاتيش qatis يجب ان يكتب قاتيش .

المضارع والمستقبل في لغة ابلا يكون على وزن اقاتيل أو اقاتول = iqqat/i/ul وليس على وزن جيكتيول . ونورد فيما يلي ترجمة الافعال كما وردت عند بيتيناتو وجلب : (الاله) ناامسو اصاب بآفة = انخار دامو = En-ar-Da-mu (inhar-Damu) الفعل نخر معروف في اللغة العربية .

(الالـه) ملك ، جمع ، وحد ، حصد = إيخور ملك = Iq-hur - Ma - lik (iphur - Malik) الفعل باخارو (م) Pahāru (m) معروف ايضا في اللغة الاكادية ويعني : يجمع ، يتجمع ، يوحد(٤) .

(الاله) إل سمع = إشمع إل = Is - mā-Il (isma'- Il)

(الاله) كاميش أعطى = إدين كاميش = I-tid Ga - mi-is (iddin - kamis)

الزمن الماضي للفعل : يعطي ، للمفرد المذكر الغائب الوارد هنا ، هو نفس الزمن الماضي الموجود في اللغة الاكادية ، علما بان المصدر في الاكادية هو ندانو (م) = nadānu (m)(٥) . عو حررني او حررنا = إيطورني = Ip - tur-ni (ipturni) والفعل يطرو (م) Pataru (m) معروف ايضا في اللغة الاكادية وفي اللغات السامية الاخرى ويعني : يحل ، يفك ، يشق يحرر (٦). نقول في العربية فطر .

في الصفحة ١٧٠ ، المصدر مخزيدا mahazida = ضرب والصحيح هو ma-ha-zi (mahazi)i-da = بضرب باليد(٧) . الفعل مخاصو (م) mahasu (m) معروف في الاكادية ويعني يضرب ، ينسج(٨) ، ومعروف كذلك في اللغات السامية الاخرى . في العربية نقول مخض . اما i-da فتعني يد .

التانيث في لغةابلا يتم باضافة اللاحقة at-um- او : t-um- كما في maliktum = ملكة ، الى جانب malikum = ملك، و irisatum = رغبة ، ونپشتوم nupustum = حياة وليس مبشتوم mupustum (٩) .

الفاعل (ص ١٧٠) نضاف اليه اللاحقة (أو) u وليست يو . فالكاتبة قرأت اللاحقة (او) u كالحرف (يو) u في اللغة الانكليزية . اما النهايات a و Q فهي موجودة بكثرة في كل انواع الاسماء وليس فقط في اسماء الملوك . ويرد في الصفحة

نفسها« وكتبت اسماءالإلهة على الشكل التالي :داكان كننانيم Dagan Kana naim = دجان الكنعاني ، وكننانيم هنا هو اسم ارض كنعان ، تقاربها في العربية كنانة ».

اسم الاله يكتب كما يلي : دجان كنناوم Dagan Kananaum = دجان الكنعاني، لان كنناوم هنا صفة تتبع الموصوف .أما دجان كننائيم Dagan Kananaim فتعنيدجان كنعان (مضاف ومضاف اليه)(١٠) . اما بالنسبة للتقارب ما بين كلمتي كنعانوكنانة في العربية فلست ادري ما هي البراهين الدالة على ذلك ، ولعل التقارب اللفظي وحده هو الاساس الذي استندت اليه الباحثة .

الضمائر الشخصية المنفصلة : انتم في لغة ابلا هي an - tá-nu وليس amanu (١١).

الضمائر الشخصية المتصلة (ص ١٧١) على نوعين :

أ ــ مع الاسماء : مع ضمير المتكلم المفرد كما في المثال : طوبي دالو = Tubi-Dalu (الاله) دالوخيرى ، طيبي .

ni و na مع ضمير المتكلم في الجمع كما في المثال : ريئينا ادا = راعينا ادد (هدد) = Ri-i-na é-da (Re 'ina - Hadda) ، خادمنا = ابدوني = Ebduni
Su : لاحقة المفرد المذكر الغائب وتكتب SUD-su
ب ــ مع الافعال : ni: للمفرد والجمع مثل : ابيني ــليم =I-bi-ni-li-im الاله ليم دعاني ، او دعانا ، إيطورني Ip-tur - ni اعتقني او اعتقنا(١٢) .

ومن الضمائر الشخصية المتصلة المعروفة في لغة ابلا (كا) Ka - ـ ، كما في : ama-gal-Ka = امك . اسم الامم كتب هنا بالسومريةواضيف اليه الضميرالمتصل (كا) للمخاطب المفرد المذكر(١٣) .

اداة الاشارة المعروفة حتى الان في لغة ابلا هي اميوم ammium = ذاك . هذه الاداة تشبه الاداة انيوم annium =هذا ، التي ترد في اللهجة الاشورية القديمة منذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد(١٤). اما في البابلية القديمة فهي انوم annum= هذا ، وللمؤنث انيتو (م) anni tu (m) (١٥) .

اداة الاستفهام : في لغة ابلا هي في mi =من ، مثل : مي ــ كا ــ ال mi-ka-Il = من مثل (الاله) إل ، وليس « من يحب إل » ، كما جاء في المقال .

مي mi= من موجودة ايضا في العبرية والاوجاريتية والفينيقية ولغة ماري ما قبل الصارجونية ، وتتحول هذه الاداة الى man= مَن ، في الاكادية القديمة والامورية والعربية(١٦) . وهناك اداة استفهام ثانية هي مينو mi-nu (١٧) ، ربما كانت مماثلة لـ مينو (م) minu (m) = ماذا ، الاكادية(١٨) . بالاضافة الى ذلك هناك ادوات اخرى هي مينوما mi-nu-ma وميناناما (أو مينامامــا me-na-na-ma = (mi-na-ma-ma) اي شيء ، وتستخدم للنكرة والشيء غير المحدد (١٩) .

في الصفحة ١٧٢ يرد : « ميكا ال Mika-'il= من مثله » والصحيح ان مي ـ كا ـ إل= من مثل إل . والامر نفسه يتكرر في بداية الصفحة ١٧٤ .

اداة الجر : اش ـ دا ās -da (ās - tu) = من ، مع ، لها صلة مع istê = مع ، مِن ، الاكادية الصارجونية ، ومع إشنو (م) istu(m) = مِن ، منذ ، عندما ، بعد ، الاكادية (٢٠) .

في الصفحة ١٧٤ يرد مايلي : « فكلمة عبد في الابلائية والاكادية تاخذ حرفين (الالف والعين) اي تكتب ابدو àbdu وعبدو ébdu » .

هذا يصح فقط على الابلائية ، أما الاكادية فتعرف تسمية اخرى للعبد هي (و) اردو (م) (٢١) (w) ardu (m)

وما ذكر في نهاية المقال : « نستطيع القول بأن الابلائية .. تفرعت عنها لغة ماري في احد الايام ...» يدخل ضمن الافتراضات التي لا تستند الى دلائل وبراهين كافيــة .

د . عيد مرعي

تنويــه :

وردنا من السيد درويش احمد (وزارة التربية ـ الوسائل التعليمية) ملاحظات لا تخرج عما جاء في هذا البحث ، نعتذر عن نشرها تحاشيا للتكرار ، فشكرا له .

الهوامش :

(١) وقع اللبس في الامثلة المذكورة من قراءة حرف ڵ جي ، في حين ان لفظ الحرف هنا هو يي (كحرف مستقل يوت) كما في اللغة الالمانية . ولقد استخدم هذا الحرف في محاولة لتوضيح اللفظ للقارىء . أما في الكتابة المقطعية للافعال المذكورة وغيرها والتي نقلها جلب عن بيتيناتو فيرد الحرف أ في بداية الافعال .

(٢) G, Pettinato, **The Archives of Ebla , An Empire Inscribed in Clay ,** Garden City' New York 1981 , P. 64.

(٣) I. J. Gelb, Thoughts About Ibla : Apreliminary Evaluation, March 1977, in: **syro- Mesopotamian Studies** . 1/1 (May 1977), P. 22.

(٤) W. V. Soden, **Akkadisches Handwörterbuch** , S.810
سنذكر اسم هذا القاموس مختصرا : (AHw)

(٥) AHw, 701 a .

(٦) AHw . 849 a.

(٧) Gelb , P. 22.

(٨) AHw, 580.

(٩) Geld' P. 18. ff; Pettinato, P. 62.

(١٠) Gelb, P. 19.

(١١) ibid .; Pettinato, P. 62.

(١٢) Gelb, P. 20 ; Pettinato ,P. 63.

(١٣) Pettinato, P. 63.

(١٤) Gelb. P. 20.

(١٥) AHw. 53 b; W.V. Saden. **Grundriss der Akkadischen Grammatik,** Roma 1969, 45 a.

(١٦) Gelb, P. 21.

(١٧) Pettinato , P. 63.

(١٨) AHw, 655b.

(١٩) Gelb, P. 21, Pettinato, P. 63.

(٢٠) Geld . P. 23, AHw, 401 b ff; Pettinato. P. 63.

(٢١) AHw. 1464b.

الدراسات العليا

الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات
ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك
(في مطلع القرن التاسع عشر)

الغالي الغربي

مقدمة :

استهل القرن التاسع عشر باندلاع أكبر واخطر ثورة شعبية على الاتراك منذ مجيئهم الى نيابة الجزائر ، الا وهي ثورة الطريقة الدرقاوية ، احدى فروع الطريقة الشاذلية ، وقد تزامن انتشار لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات ، لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا ، مما جعل رد فعل الاتراك عليها عنيفا وقاسيا ، خاصة اذ عرفنا ان اتباع هذه الطريقة لم يدخروا وسعا بمهاجمتهم لاول مرة في عقر دارهم وعلى مختلف الجبهات ، ولم يستطيعوا القضاء عليها ، رغم الامكانات المادية التي جندوها الا بعد مرور عشر سنوات على اندلاعها ، وذلك بسبب اتساع المساحة التي غطتها ، ولا تختلف هذه الثورة عن الثورات السابقة التي قامت على الوجود التركي ، والتي تميزت بالجهوية والمحدودية ، بسبب قوة روح العصبية، باعتبار ان زعماءها كانوا رجال قبائل ، مما افقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين ، الذين أفلحوا في استغلال روح العصبية وزرع روح التنافر والخلاف بين القبائل ، واستطاعوا بذلك ان يحافظوا على امنهم ووجودهم . لكن الشيء الجديد في هذه الثورة هو ان زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء الاتراك وانصارهم ،

لهذا اتخذت هذه الثورة صفتها الشعبية الواسعة بمؤازرة هذه الشريحة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة من التاريخ.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي : ما الاسباب التي دفعت برجال الطرق الصوفية الى الانتقال من صف المدافعين عن الاتراك الى صف الرعية والدفاع عن مصالحها في وجه الحكام الاتراك ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال تجدر الاشارة الى ان الاتراك استغلوا النفوذ السياسي والديني الذي كان يتمتع به رجال الطرق الصوفية في المجتمع ، فتقربوا منهم واعتمدوا عليهم في بسط سيطرتهم على الجزائر ، وكسر شوكة القوى السياسية التي حاولت الوقوف في وجههم . وبذلك اصبح رجال الطرق الصوفية القوة الثانية بعد الاتراك ، مما جعل هؤلاء يمنحونهم الكثير من الامتيازات الاقتصادية وعلى راسها جباية الضرائب في كثير من مناطق النيابة ، بالاضافة الى تخصيص جزء من الارباح التي كانت تدرها القرصنة البحرية ، كما كانوا يستفيدون من الهدايا الاعتيادية في المناسبات الدينية والاعياد . ومن هذا المنطلق اسند لهم دور الوساطة بين الاهالي والحكومة التركية(١) .

ولكن هذه العلاقة الحميمة بين الطرفين لم تدم طويلا ، فظهرت بوادر التأزم بينهما منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بسبب التحول الاقتصادي الذي شهدته الجزائر والمرتبط بنضوب موارد القرصنة التي كان يعتمد عليها الاتراك في تدعيم نفوذهم وسيطرتهم فيها ، وبسبب خلو النيابة من موارد اقتصادية كافية لتلبية احتياجات الحكومة التركية المالية للمحافظة على استقرارها والحيلولة دون ثورة الجند ، ولم يجد الاتراك وسيلة لتوفير المال الا بمضاعفة الضرائب على الاهالي وتجريد الحملات العسكرية المتتالية لارغامهم على الدفع(٢) . وقد اثارت هذه الحملات حفيظة المرابطين الذين لم يستطيعوا أن يقفوا مكتوفي الايدي امام الشكاوى المقدمة اليهم من ضحايا جشع البايات من الاهالي ، بالاضافة الى أن مصالح رجال الطرق الصوفية تضررت من جراء هذا التحول الاقتصادي فتقلصت امتيازاتهم السابقة ، وتغيرت نظرة الاتراك اليهم بعد التطور الذي شهدته الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في الناحية الغربية من النيابة ، والذي ترتب عليه تمتين العلاقات مع المغرب الاقصى .

فساد النظام التركي:

كانت نتيجة افتقار الاتراك لقاعدة شعبية تساندهم وتؤازرهم ، أن انطبعت نظرتهم للاهالي بالحيطة والحذر، والخوف من انفلات السلطة من بين ايديهم ، واصبحت كل المناصب العالية والرتب القيمة مقصورة عليهم ، اما بقية طبقات المجتمع فكانت ذليلة . وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها ، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية(٣).

ورغم ان الاتراك كان بامكانهم استغلالهم الحظوة التي يتمتعون بها لدى الاوساط الشعبيةفي بداية مجيئهم لكسبها الى جانبهم ، الا ان شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، بل اقاموا بينهم وبين الشعب حاجزا من الوسطاء واعتبروا انفسهم دائما الاسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لاستبداد امراء الجمهوريات الايطالية(٤) .

وحاول الاتراك الاعتماد على فكرة التضامن الاسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الاوساط الشعبية ، بالتقرب الى المرابطين وشيوخ الزوايا ، ومصاهرتهم ومنحهم الامتيازات ، الا انهم اخفقوا في خلق اطار طبيعي للاتصال بالرعية بهذه الوسائل ، وسرعان ما شكلوا ارستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على اصول عنصرية ، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والاقتصادية(٥) .

وقد تفسر هذه السطحية بعجز الدولة بانظمتها وأدواتها عن بسط حكمها ، لان هذه الادوات والانظمة في واقع الامر كانت أدوات حرب اكثر منها ادوات حكم(٦) . ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة من الفساد والضغط الذين كانا مسلطين على السكان من جراء فساد نظام الاتراك ، كقول احدهم :

عاتوا عتوا على الخلق وجاروا ... فكانوا اكثر العباد وبـاروا
فرفـع الكل الاكـف ودعـوا ... بما به اجاب الله ورجوا (٧)

اما الزياني ، وهو من المؤرخين المقربين للسلطة التركية ، فيقول عنهم « .. واعلم ان الاتراك ، لما تمهد لهم الملك بالجزائر ، كثر ظلمهم وفسادهم ، بحيث لا يليق ان يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على الالسنة بغاية التواتر ، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم ، وسالت الناس ان يزيل عنهم ما حل من ظلمهم .. »(٨) .

من خلال هذه النظرة الموجزة نلاحظ ان النظام التركي كان منذ بدايته يسير بسرعة الى الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لانه اعتمدفي اساسه على القوة العسكرية وحكام لا تربطهم اية روابط طبيعية بالبلد والسكان ، وهذا مادفعهم لان يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية « ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والاعيان »(٩) .

وقد وصل فساد النظام التركي الى اقصاه في عهد الدايات (١٦٧١ ـ ١٨٣٠) وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر ، وتجسدت اول ظاهرة من ظواهر الفساد في هذا النظام بانحطاط سوية الدايات الاجتماعية . ونستدل على ذلك من قول احدهم وهو يخاطب احد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله « .. انا رئيس عصابة من السراق ، ومهنتي هي ان

اخذ وليس ان اعطي . . »(١٠) . فهدف هؤلاء الدايات كان الاستبداد بالسلطة وجمع الاموال ، وليس الرقي والازدهار الحضاري ، لان غالبيتهم من بيئات منحطة في الاناضول ، توصلوا لرتبة الداي بعد ان مارسوا عدة اعمال ووظائف بسيطة في مدينة الجزائر ، فمنهم من كان اسكافيا او حمالا او حارسا او كناسا(١١) . ووصلوا الى السلطة في ظروف غير طبيعية ، منها على سبيل المثال دعم اغنياء اليهود (بوشناخ) . اما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الاسراف والتبذير والرشوة ، وهذه الصفة الذميمة جعلت الكثير من الدايات لا يتورعون من بيع ذممهم لليهود والاجانب من الاوربيين مقابل الكماليات البسيطة(١٢) . وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد امور الدولة وشؤونها الى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والاجانب ينهبون خيرات البلاد وثرواتها(١٣) ، فتحولت مهمة حكومتهم الى ملء الخزينة العامة بالاموال لتنتقل فيما بعد الى حاشيتهم لتدعيم النظام والمحافظة عليه ، حتى ان النيابة على تعبير بن شنهو « اصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخوله منصبه . . »(١٤) .

ولم يبذل الدايات جهدا في علاقتهم مع سكان النيابة نحو الاحسن والامثل ، فلم تكن تربطهم بالبلد اية اواصر او روابط من شأنها ان تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي ، وكان هذا احد اسباب الثورة .

السياسة العربية :

اخذت حكومة الاتراك ، في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها ، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالارض ، اي بالموارد الداخلية . لكن هذا الاهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الاتراك في الجزائر ، لان هذا التحول السريع من سياسة الى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا تمتص الردود الشعبية عليها ، باعتباره يمس اوسع طبقة اجتماعية هي طبقة الفلاحين التي كانت تشكل الاغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة . هذا بالاضافة الى ان دور الاتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا ، فلم يسهموا اسهاما محسوسا وجديا في انفاق رؤوس الاموال التي جمعوها من القرصنة في تحسين احوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي ، يكون كفيلا بتخفيف الاثار السلبية التي تركها هذا التحول ، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية اذا ما قورنت بتونس او طرابلس او بعض البلاد المشرقية(١٥) .

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية ، فان الحياة الاقتصادية في بداية القرن التاسع عشر كانت متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها

وازدهارها . وياتي على رأس هذه العوائق طبيعة النظام التركي ذي الاصول الاقطاعية ، فضلا عن الاساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري ، واحتكار الحكومة لهذه الانشطة(١٦) ، والحيلولة دون نشوء بورجوازية وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية والاستعاضة عنها بالتجار الاجانب ، بخاصة من اليهود والفرنسيين ، الذين اصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة(١٧) . وعامل اخر كان وراء تدهور الحياة الاقتصادية وهو موجات الاوبئة والامراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة .

امام هذه الاوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يطالبون البايات بموادر اقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجيء الذي سببه ضعف القرصنة ، فما كان من هؤلاء الا مضاعفة استغلالهم لمناطقهم بدقة وبمضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لارغامها على دفع الضرائب لادارة حكومة الدايات(١٨) . ويجمع المؤرخون ، ان التوسع الذي شهدته النيابة ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، في تنويع الضرائب دون الاعتماد على مصادر اقتصادية اخرى ، ادى الى جعل الحكومة التركية اداة استهلاك تعيش على مايدره عليها الجهاز الضريبي ، دون السعي الى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها . وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والارهاب في اغلب الاحيان ، مما دفع الحكام الاتراك الى تجهيز الحملات العسكرية(١٩) لتأديب الثوار وارغامهم على الدفع لدى اية بادرة مقاومة أو تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم ، مما زاد في الهوة بين الطرفين .

واحست الفئات الاجتماعية المحرومة ، وعلى راسها الفلاحون ، أن كل مجهودتها موجهة الى خدمة الغير ، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع باية حقوق مقابل ذلك ، فرفضت هذه الاجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليهاتستوجب محاربته .

لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة ، كبقية الثورات ، رد فعل من جانب السكانعلى التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها البايات والدايات . وكان لازدياد الضغط المالي على الارياف اثار وخيمة ، اذ ارهق كاهل الفلاحين بكثرة الضرائب ، وقد عبرت لنا شهادات المؤرخين المعاصرين والاشعار الشعبيةعنمدى ماكان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب ، وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الاملاك ومصادرة قطعان الماشية(٢٠) .

وفي المنطقة الغربية ، وهي مركز رئيس للطرق الصوفية وبخاصة ذات الاصول المغربية ، كما كانت منطلقا لاخطر الثورات ضد الاتراك في الربع الاول من القرن التاسع

عشر (الدرقاوية والتيجانية) ، كان الوجود التركي قويا ممثلا بالحامية التركية والقولوغلي وقبائل المخزن ، وبالرغم من اساليب الاتراك التعسفية كان السكان يتحملون ذلك على مضض بسبب وجود الاسبان في وهران . ولكن تحرير وهران ١٧٩٢ ازال المبرر الرئيسي لهذا الوجود التركي الثقيل ولتحمل السكان لاذاه .

الدور المغربي :

لما عجز الاتراك عن قمع الثورة بعد ان لجؤوا الى جمع الوسائل لاخمادها ، خاطبوا ملك المغرب « مولاي سليمان » ، ورجوه ارسال شيخ الطريقة « مولاي العربي الدرقاوي » لتهدئة الثوار(٢١) . واعتمادا على الرسائل التي تبودلت بين شيخ الطريقة والسلطان المغربي ، نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضطلع به هذا الامير في اثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر . ويظهر من هذه الرسائل ان السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في المنطقة الغربية من النيابة ، وذلك لتحقيق الاهداف التقليدية لسلاطين المغرب .

وحسب الرسائل نفسها ، يبدو ان الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كان الظروف الطبيعية وانه كان راضيا عن الخطوات التي قام بها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ، وعلى راسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي(٢٢) .

ورغم ما اوردناه عن تورط السلطان مولاي سليمان في هذه الثورة ، ينفي المؤرخون المغاربة تورط مولاي سليمان في احداث الثورة ومجرياتها ، ويجمعون على راي واحد وهو ان السلطان ، لما قدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة ، اقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والاتراك ، وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو ارفق بالجميع ، الاتراك والاهالي .

ولكن الاحداث التاريخية تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهو تورطه في هذه الثورة وذلك ردا على تدخل الاتراك في احداث ثورتي « محمد بن عبد السلام » و « زينان في الريف »(٢٥) . الا ان هذا الموقف التاييدي للثورة لم يستمر طويلا ، اذ ادرك السلطان ان ميزان القوى بدأ يتحول لصالح الاتراك بعد ان استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه ابن الشريف على مدينة وهران . فامام المنعطف الجديد الذي وصلت اليه الثورة ، والذي لم يكن واردا في حسابات السلطان ، وبسبب ضعف المغرب الذي انهكته الحروب الاهلية في القرن الثامن عشر ، لم يجد السلطان مخرجا الا انكار رسوله الذي ارسله الى الثوار ، بل وسارع في ارسال رسول جديد الى مدينة تلمسان ، لاعادة الاوضاع الى ما كانت عليه سابقا ، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه « ابن الشريف »(٢٦) .

كان سلاطين المغرب الاقصى حجر عثرة امام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابية ، وظل هذا دابهم حتى زوال حكم الاتراك في الجزائر . وعلى الرغم من ذلك حاول الاتراك عدة مرات خرق هذا السد المنيع ، الا انهم أخفقوا . وقد رفض المغاربة ، عند دخول الاتراك الى منطقة الشمال الافريقي ، ادعاءهم السيادة على العالم العربي والاسلامي . وقد بدا للمغرب في عهد بعض سلاطينه العظام ، طموح في ضم الجزائر وتونس وتحقيق امبراطورية الموحدين ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المغربي في كتابه (النفحة المسكية) بقوله : « والعثمانيون انما عملوا الامارة وقادوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها ، وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب . »(٢٧) .

ولتحقيق هذا الطموح السياسي ، اعتمدت سياسة المغرب داخل الاراضي على الطرق الصوفية . وكانت مراكزها تشكل خيطا يمتد من فاس الى تلمسان وتونس، مرورا بالواحات ، وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها ، تنقل الاخبار الى داخل النيابة ، واراء الشيوخ من فاس والرباط . وقد استغل المغاربة الهجمات الاوربية على النيابة ، والصراعات السياسية داخل النظام التركي ، لبسط سيادتهم على اجزاء منها ، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق .

لهذا اعتمد سلاطين المغرب سياسة الاقلال من هيبة النيابة والبحث عن حلفاء لابادتها ، ولما كان المغرب قد لعب دورا اساسيا وفعالا في ثورة الطريقة الدرقاية ، بتشجيع الثائر ابن الشريف وكل المناهضين للاتراك من الجزائريين ، واعانتهم بالمال والسلاح ، فسنحاول ان نلخص هذا الدور بايجاز .

التعريف بابن الشريف : تزعم هذه الثورة في الناحية الغربية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي ، ويعود اصله الى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد في ضواحي سهل « غريس » القريب من مدينة معسكر . تعلم مبادىء اللغة العربية في مسقط راسه في قرية اولاد بالليل ، ثم التحق بزاوية القيطنة التابعة للطريقة القادرية ، التي كانت تحت امرة الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الجزائري ، حيث لبث فيها مدة من الزمن ، وبعدها سافر الى زاوية بوبريح في المغرب الاقصى،وهناك اتصل بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي ، الذي لقنهمبادىء الطريقة الدرقاوية واجازه فعاد الى قريته وفيها اسس زاوية لتلقين الناس اوراد الطريقة . ويظهر ان هذه المهمة قد اسندت اليه من طرف شيخه ، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النيابة(٢٧) .

لقي ابن الشريف التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت ،كما يقول احدهم « .. كلها شيعته تهدي اليه الهدايا وتعطي العطايا »(٢٨) . واثناء لقاءاته

مع مختلف القبائل كانت تشكو اليه ما يصيبها من ارهاق بسبب ما يفرضه عليها الاتراك من مغارم وضرائب ، فكان ابن الشريف « يمنيهم بالفرج القريب ». ويقال ، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا اليها ، ان ابن الشريف كان قد طرح فكرة اعلان الثورة على الاتراك في اول لقاء له مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي الذي استحسنها. ويظهر أن الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالات الحكومة التركية على تحركات افراد الطريقة الدرقاوية ، وعلى راسهم مقدمها ابن الشريف ، الذي فر الى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم . ومن هناك انتقل الى فاس حيث لقي شيخه في قرية بني زروال ، فاشتكى له مالحق به وبمريديهمن جور الاتراك. وقد نقل الينا الزياني الحوار الذي دار بين الطرفين « ياسيدي ان بوطننا قوما يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الاسلام ، ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والاولياء، نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدك لتستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد ، فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم ، وان الله ينصرك عليهم بكمالهم ..»(٢٩) .

مراحل الثورة :

استغرقت عمليةالاستعداد وجمع اكبر عدد ممكن من الانصار مدة خمس سنوات (١٨٠٠ — ١٨٠٥) ، واستغل ابن الشريف فرصة هزيمة احدى الحملات التركية امام قبائل الانجاد ليعلن الثورة . وهذه الحادثة التاريخيةالتي يجمع المؤرخونعلى اعتبارها فتيل الثورة كانت اول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن ، حلفاء الاتراك منذ زمن بعيد(٣٠) .

كانت اولى مراحل للثورة الاذن الذي اعطاه ابن الشريف لاتباعه بنهب اموال وممتلكات هذه القبائل وملاحقتهم اينما كانوا . وقد وصلت أنباء انتصاراته الى وهران عاصمة البايليك ، فقام الباي مصطفى العجمي(١٨٠٥ / ١٨٠٩) ، بتجهيز جيش كبير واتجه به الى ابن الشريف ، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة(٣١) ، والتقى الطرفان بقرية فرطاسة ، وكان ذلك ربيع الاول ١٢١٩/١٨٠٥ ، حيث دارت اشرس معركة بين الجيش الانكشاري ، تعاضده قبائل المخزن ، والثوار. ودارت الدائرة على الجيش التركي وفر الباي بعد أن تفرق جيشه حتى قال احد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها : « فأمسى الباي ومخزنه في نكد وأصبح الدرقاوي واتباعه في رغد ..»(٣٢) .

وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى اسوار مدينة معسكر ، ولم ينتظر ابن الشريف وصول النجدات من مدينة وهران الى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة ، فقرر دخولها بالقوة ، ولم تصمد المدينة كثيرا فاستسلمت له.

جعل ابن الشريف مدينة معسكر مقرا لاقامته هو واسرته وقاعدةحربية لجيشه، ومنها راح يوجه نداءاته الى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الاتراك وادواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور . كذلك دعا القبائل الى مبايعته قائلا لهم في احدى هذه النداءات : « انا نزعت عنكم ما كنتم فيه من اداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الاتراك واتباعهم ، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا . . » (٣٣) . وقد وجدت نداءاته هذه تجاوبا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ، ولم يقتصر انضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الاتراك ، بل تعدى ذلك الى القبائل المخزنية حليفة الاتراك مثل قبيلة الحشم ، والزمالة والدواير (٣٤) .

وبسرعة فائقة امتد لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة مابين مدينة مليانة (الوسط الجزائري) ووجدة على الحدود المغربية . وامام هذا المد السريع بدات الحاميات التركية تندحر وانسحب اغلبها الى المدن السلحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي ، وانقطعت كل الاتصالات مع مدينة الجزائر ، ولم يبق الا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه تموين مدينة وهران ، التي سارع ابن الشريف الى ضرب الحصار عليها(٣٥) .

يقول صاحب التحفة : « . . ان باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره علي اغا لنجدة المدينة المحاصرة ، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريقه والحقت به خسائر فادحة ومنعوه من المرور في بلادهم وكاد جيشه ان يهلك عن اخره بعد ان قطعت عليه القبائل ورود الماء لولا استنجاده باحد المرابطين في مدينة العطاف(٣٦) . كذلك سارت الامور في غير صالح الاتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة الكراغلة في قلعة المدينة ، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة .

اسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية اشهر مع ان الظروف مواتية ، وخاصة بعد ان تم القضاء على اغلب الحاميات التركية وتشتت جيش الباي في معركة فرطاسة . من هذه العوامل قوة اسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها من ايجاد منفذ للتسلل الى داخلها ، لقلة الوسائل وضعف العتاد ، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة ابن الشريف القيام ضد الاتراك رغم ان القوة التركية المدافعه عن المدينة كانت قليلة العدد(٣٧) . وهذا الاحجام الذي بدر من سكان المدينة وعدم تجاوبهم مع الثوار يرجع الى الاعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار والتي كان يرتبها جيش « ابن الشريف » تجاه

قبائل المخزن واملاكهم ، وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية المقيمة في المدن وضواحيها .

وقد استغل الاتراك ، هذا الشرخ بين سكان الارياف وسكان المدن أحسن استغلال بتأليب هؤلاء على اولئك . ولهذه الاعتبارات اخذ الاتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة الا في المدن الساحلية(٣٨) .

حدث هذا التحول لصالح الاتراك بعد ان عين داي الجزائر الباي محمد المقلش الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة ، اذ رافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت بـ ١١٠٠ رجل (٣٩)، وبما ان الطريق البري كان مقطوعا فان هذه القوة من الجنود اتخذت البحر لدخول المدينة المعاصرة ، وكان اول اجراء قام به الباي الجديد هو فتح ابواب المدينة واعادة الحياة الطبيعية الى مجراها ، ثم التصدي للثوار .

ويظهر ان الملل والسام قد تمكنا من معنويات الثوار فاثروا الانسحاب الى الداخل ، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وادخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته الا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين . فبعد ان تحقق الاتراك بانه ليس هناك ادنى شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة ، عمد هذا الباي الى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة المغربية ، والى اشد أنواع القمع والارهاب ضد الثوار(٤٠) ، فعمل على التقرب الى القبائل ذات الصلة بالثورة والتي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة الحشم ، وكانت من الد اعداء الاتراك ، والدافع الذي دفعها الى الارتماء في احضان الاتراك والاتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية ، التي بدأت تلقى تجاوبا شعبيا واسعا ،وخاصة اذ عرفنا ان هذه القبيلة تتزعمها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة اخرى لها على القبائل . ويشير صاحب « التحفة » خلال تطرقه الى ابن الشريف الى الاختلاف الذي حدث بين ابن الشريف والشيخ محي الدين(٤١) .

لكن المصادر المحلية لا تشير الى ظهور صراع بين الطريقتين لاكتساب الانصار والمؤيدين ، الا انه يظهر ان شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة واراد الانتقام من ابن الشريف ، فاوعز الى قبيلته بالوقوف الى جانب الاتراك . والمعروف كذلك ان الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالاتراك منذ دخول هؤلاء الى الجزائر ، والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب . وبهذا تكون الدسيسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين .

وكانت النتيجة ان الثوار بدأ يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والاصطدامات ، ومن اهم هذه المعارك معركة اولاد زائر التي خسر فيها الثوار ، حسب المصادر المحلية ، « ستمائة راس ، بعثها الباي كلها الى داي الجزائر »(٤٢) . وفي اثناء هذه الاحداث انتقل ابن الشريف الى قبيلة الاحرار في الجنوب ،الا انه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل ، فانتقل الى مدينة الاغواط حيث دخل فيمفاوضاتمع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الاتراك ، لكنه فشل في مسعاه . وما زالت الاسباب التي منعت رجال هذه الطريقة، من تلبية طلب ابن الشريف توحيد الجهود بينهما لاعلان الثورة غير واضحة ، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على افراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك، وعلى راسها المغارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها .

فكان ان انتقل ابن الشريف الى قبيلة بني يزناسن على الحدود المغربية ، ومن هناك توارى عن مسرح الاحداث السياسية .

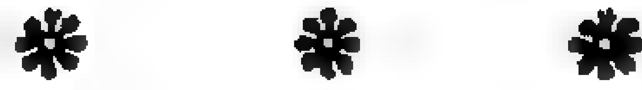
وقد اختلفت المصادر المحلية والاجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف ويتفق صاحب « انيس الغريب والمسافر » وصاحب كتاب «دليل الحيران »، على ان المقام استقر به عند قبائل بني يزناسن ،وهناك«تركالفضول لعدم طاقته»(٤٣) أما المؤرخ الفرنسي Degrammont فيؤكد من جانبه ان ابن الشريف لقي مصرعه اثناء محاولته استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة ١٨٠٦(٤٤) . اما السيدان Estharzy, Deneuve فيذكران ان ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في مدينة مسيردة ، لكن دون ذكر تاريخ الوفاة(٤٥) . وهذه الاختلافات في وجهات النظر بين هؤلاء المؤرخين مرجعها الغموض الذي احاط بالثورة الدرقاوية في تلكالفترة. والوحيد من المؤرخين الذي عارض فكرة موت ابن الشريف سنة ١٨٠٩ ، هو Noel ، الذي ذكر انه ظهر مرة ثانية سنة ١٨١٦ ، واثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائلالاحرار واتجه بهم لمقاتلة الاتراك ، لكنه هزم وانسحب نهائيا الى واحة فقيق(٤٦) . وهذا ما ذهبت اليه احدى الوثائق التركية التي تبين ان الثورة استمرت حتى سنة١٨١٦ ، فهي تشير الى الخسائر التي تكبدتها العساكر التركية وتلح على الاستانة للاسراع بارسال النجدات العسكرية لمواجهة هذا الثائر(٤٧) .

في النهاية ، لابد لنا من التساؤل ؟ هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النيابة مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الاقصى ، العدو التقليدي لاتراك الجزائر ، بواسطة اعوانهم ، لاختبار مدى قوة النظام التركي المجاور لهم بعد ان فشلوا في مواجهته عسكريا ، فحاولوا ان يفجروه من الداخل باثارةالفتن والاضطرابات عن طريق اغراء ابن الشريف بواسطة شيخه مولاي العربي الدرقاوي

للقيام بالثورة ، وبالتالي ارغام الاتراك على الاعتراف بالحقوق التاريخية للمغرب في الجهة الغربية من النيابة..؟

لا ننفي ان الثورة استفادت من التأييد المعنوي والروحي من جهة المغرب ، لكن المد السريع للثورة الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان ، مقر الحكومة المركزية ، لايمكن ان يفسر فقط بهذا السبب ، بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقته تناقضات النظام التركي في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي تسومهم انواع الاضطهادات والقهر والاستغلال ، بفرض الضرائب وتجريد الحملات العسكرية على الريف الجزائري . لهذا وجد السكان في شخصية ابن الشريف ، وامثاله من الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر ، متنفسا لهم ، يشكون اليهم مالحقهم من تعسف واستبداد هذه الطبقة وادواتها الاخرى التي اغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت بالركض وراء السلطة وجمع الاموال وتسببت في ضياع موارد واملاك السكان ، وهذا ما دفعهم الى الثورة ضد الاتراك .

ورغم ان هذه الثورات ، رفعت في اغلب الاحيان شعارات دينية وتسترت وراء مطالب قبلية ، الا انها في حقيقة امرها كانت تعبيرا صادقا عن سخط الرعية وعدم رضاها على الاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عهد الحكام الاتراك.



حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته ((الثورات الشعبية في الجزائر من اواخر القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي))، باشراف الدكتور محمد خير فارس .

مصادر ومراجع البحث :

(1) Ernest,M.,**L'Afriqne Septentrionale berbérie depuis les temps les plus recules jusqu'a la conquête Française,** t.I, Leroux, Paris 1891, P. 230.

(٢) Boyer, P., **Contribution à l'étude de la politique réligieuse des Turcs dans la régence d'Alger,** XIV - XVI, p. 28

(٣) ويليام شالر : مذكرات ويليام شالر ـ قنصل امريكا ١٨١٦ ـ ١٨٤١ ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٨٢ ، ص(٤٦-٤٧).

(٤) Laugier de Tassy, **Histoire d'Alger etdu bonbardement de cette ville** en 1816, Pittan, Paris 1839 .

(٥) مفنية الازرق ، نشوء الطبقات في الجزائر ، ترجمة سمير كرم ، بيروت .١٩٨٠،ص ٣٦

(٦) عزت عبد الكريم ، مقدمة من كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦ ص٢٧.

(٧) الزياني محمد بن يوسف ، دليل الحران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، وتحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٩ ، ص ٧٣.

(٨) من رسالة أرسلها محمد بن رايس العين الاندلسي الى الاستانة اوردها الشيخ البوعبدلي في مقدمة للكتاب السابق ، ص ٥٩ .

(٩) التميمي عبد الجليل ، العرب والاتراك في اطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ١٧-١٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .

(١٠) Degrammont, H-D.,**Histoire d'Alger sous la domination Turque,** Lerou, 1887, P. 309.

(١١) Benachanhou, A., **L'Etat Algérien en 1830,** S.N.E.D., Alger, (S-). p. 29.

(١٢) Commerce de barbarie, A.A.Marseille (S;I) , Article n, 1880, Objets commerce de barbarie presents au puissans du royaume d'Alger. (S.O), P. 29.

(١٣) Vatin, J. C. , « l'Algerie en 1830 » , **Revue Algérienne des sciences Juridiques , economiques et politiques,** vol. VII, n.14, 1970, p. 1943.

(١٤) Benachanhou, op. cit ., p. 29.

(١٥) Lespes, R.,**Alger (Etude de géographie et d'histoire Urbaines),** Paris, Alcan, Alger , p, 146.

(١٦) سلفاتور بونسو ، العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركي ، ترجمة ابو القاسم بن القومي ، مجلة الاصالة ، العدد ٤٨ ، ١٩٧٨ ،ص١١٨.

(١٧) Emérit, M ., la situation economique de la régence d'Alger 1830, in **Information historique,** 1952, t. II, p. 169.

(١٨) Roy, J.E., **Histoire de L'Algerie depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos joure,** A.Maine Tour, 1864, P. 142.

(١٩) حول هذه الحملات انظر :

Federman et Aucapitaine , « Notice sur l'histoire de l'Administration du beylick de Titterie » in **Revue Africaine,** 1867, t. IX, pp. 291-293.

(٢٠) Emerit, M., « Les Aventures de thednat , » in**R.A.** 1948, p. 40.

(٢١) ابو القاسم الزياني ، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب ، نشر جزء منه هنري‌هوادس ، المغرب – باريس ١٨٨٦ ، ص ١٠١ .

(٢٢) قال في هذه الرسالة ، وقررت ان لا اباشر فيها الا بعد فصل الشتاء لان الطرق في هذا الموسم تكون صعبة والاودية مرتفعة المستوى .. وفي الربيع القادم سوف اتي انا بنفسي باذن الله‌موفقا بعساكري الظافرة لمتابعة مشاريعي باذن الله ، وعليك باخبار سيدى عبد القادر .. بالالتحاق بي حينما يسمع بوصلي الى وجدة .

Drague, G., **Esquise d'histoire religieuse de Maroc,** Cahier de l'Afrique et de l'Asie, Peyonnet, Paris, p. 235.

(٢٣) يقول السلاوي عن هذه البيعة « ان سكان مدينة تلمسان فتحوا باب المدينة الى ابن الشريف وطائفته واخذ البيعة بها للسلطان ... وخطب به على منابرها ، ووجه وفده وهديته الى السلطان مع شيخه ابي عبد الله المذكور . الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

(٢٤) رد عليه السلطان « .. وصلتني رسالتك واسال الله ان يجازيك على اعمالك الحسنة تجـــاه المسلمين الذين لا نرجوا لهم الا السلام والطمانينة .. وعندما تاتي لزيارتي ، ساطلب رأيـك‌فيما يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي انت فيها ..» انظر الناصري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢٥) الناصري ، ص ١٠٩ – ١١٠.

Brosselard, Ch.,**Les khouans de la constitution des ordres religieuses,** Alger 1895, P. 227.

Drague, op. cit., P.254.

(٢٦) الناصري – الاستقصا .

(٢٧) الناصري ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٢٨) الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢٩) الزياني ابو القاسم ، المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣٠) حسين خوجة ، درء الاعيان في اخبار مدينة وهران ، ترجمه ونشره السيد روسو في جريـــدة لومونتور الجيريان ١٨٥٥ ، رقم ١٣٩٥ – ١٣٩٨ .

(٣١) وادي مينا : واد ينبع من اقليم التجود وطوله ١٩٥ كم ، يمر بمدينة غليزان ويصب‌بشمالها في نهر الشلف . وله فرع هووادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقي‌بوادي مينا عند قرية فرطاسة.

(٣٢) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .

(٣٣) حسين خوجة ، المصدر السابق . ص ١٣٩٥ . الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ص٢٠٩ مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ص٧٤.

(٣٤) Delpeche , A., « Résumé historique sur le soulévement des derkaoua la province d'Oran, » in R . A . 1837 , p . 44 . Caporal' X., **Oran Capitale de beylick de l,ouest** 1792-1831, Mémoires, pp, 50-51.

(٣٥) محمد بن الامير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، ط.٣ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ١٩٦٤، ص ١١٥.

(٣٦) محمد بن عبد القادر ، نفس المصدر ، ص ١١٥.

(٣٧) استمر حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية اشهر ، انظر :

(٣٨) جوليان ، شارل اندري ، « التدخل المغربي غداة احتلال العاصمة الجزائرية سنة ١٨٣٠ »، ديسمبر ١٩٦٤ ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٦١.

De Jardin, V., « La Commune de dublineau les hachems sous le gouvernement Turcs , » in **Bulletin, S.G.O.**, 1950, p. 45.

(٣٩) Rotalier, Ch., **Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Méditerranée**, t. II, Paris 1841, p. 591.

(٤٠) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ص٢٩١.

(٤١) اشار الى هذا الخلاف صاحب التحفة اذ قال : « وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه شرعا ، فادبه سيدى الجد بالسياط ..» ص ٢١٥ ، محمد بن الامير عبد القادر ،المصدرالسابق.

(٤٢) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٩١.

(٤٣) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ٩٨ .
الزياني محمد بن يوسف ، ص٢٢٨.

(٤٤) De grammont, op. cit. P. 364.

(٤٥) Noel, A.H., « Documents, pour servir à l'histoire de hamgan et de la région qu'ils occupent actuellement, » B.S.G.O., 1925, p. 166.

(٤٦) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق من التاريخ المغربي ١٨١٦-١٨٧١ ، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٢ ، الوثيقة الرابعة ، جوان ١٨١٦ ، ص ٢٤٠ .

السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبايل
١٨٧١-١٩١٤

عبد القادر حلوش

مرشح للماجستير

يتوخى هذا البحث دراسة الدور الاستعماري للمدرسة الفرنسية في منطقة القبايل(١) ، التي كانت حجر الزاوية في السياسة التعليمية الفرنسية . لان اهتمام الجمهوريين (الجمهورية الفرنسية الثالثة) بمنطقة القبايل ، بل وبمناطق جد محددة من هذه الاخيرة ، لم يكن وليد المصادفة بقدر ما هو محاولة لعزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الجزائرية ، قصد تثبيت فكرة الاقليمية وتشتيت شمل المجتمع الجزائري . ويبدأ الاهتمام الفرنسي بهذه المنطقة مع بداية الاحتلال في ١٨٣٠ لينتهي بظهور ما اسماه الفرنسيون بالاسطورة القبايلية .

١ ـ الاسطورة القبايلية :

بداالاهتمام الاوروبي بهذه المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر في ١٨٣٠ ، وخاصة بعد تنظيم الحملة العسكرية اليها في ١٨٥٤ . وتأخر احتكاك الفرنسيين بالمنطقة ودخولهم اليها نظرا لانشغال الاستعمار الفرنسي في اخضاع مناطق اخرى من البلاد وخاصة صراعه مع الامير عبد القادر(٢) . وكان الاهتمام الفرنسي منصبا على دراسة هذه المنطقة من جميع جوانبها : جنسها ، عاداتها ، تقاليدها وتكوينها الاجتماعي(٣) .. وكان لهذه الفكرة الاستعمارية انصار في الجزائر منذ الاحتلال . غير ان هذه الحركة التي تأسست ما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٧ تم تدعيمها وبروزها كسياسة قبايلية ، بل كايديولوجية استعمارية للاحتلال الفرنسي ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ لتأخذ شكلا خطيرا منذ ١٨٧١ ، عندما تبناها الجمهوريون . وقد شهدت فترات ١٨٦٠و ١٨٧٠ ميلاد ما اسماه الاوروبيون « بالاسطورةالقبايلية» Mirage ou Mythe kabyle فقد وسع الاوروبيون من سياستهم القبايلية في هذه الفترة بالذات ، وهي الفترة التي

شهدت اهتمام الامبراطورية الثانية ، بسكان المستعمرة من الجزائريين ، وظهور ما أسماه الاوروبيون بسياسة المملكة العربية . هذه السياسة التي عارضها الاوروبيون بشدة كونها تحاول تحسين ظروف الجزائريين ، كاعطائهم حق التعليم او توسيع مجال هذا التعليم ونحوها . . وكان أشد المعارضين لهذه السياسة المهتمة «بالاهالي» indigénophile الدكتور فارنييه(٤) Warnier(٤) ، الذي حاول ان يثير القبايل ضد هذه السياسة الامبراطورية التي ليست في صالحهم وانما تخدم العرب فقط على حد زعمه(٥) . وبذلك حاول هؤلاء خلق التفرقة والنفور بين العرب والقبايل للقضاء على مشروع المملكة العربية (٦). وفي هذا المضمار بدأ الاستعماريون في الكتابة عن هذه المنطقة دون غيرها من مناطق القطر الجزائري لابراز الخاصية القبايلية Particularité kabyle محاولين بذلك الوصول الى غايتهم في ان هذه العناصر القبايلية تنحدر من اصل اوروبي وليس عربيا(٧) .

وحاول بعض الاوروبيين من جانب اخر استغلال بعض نقاط الاختلاف والتباين الموجودة بين الاسر العربية والاسر القبايلية من العادات والتقاليد والانظمة الداخلية للتركيز عليها والانطلاق منها لبناء نظرياتهم العنصرية والاستعمارية(٨) . وتبنى اخرون في الاربعينات من القرن الماضي سياسة خطيرة تهدف استغلال الاختلاف (بين العرب والقبايل) وتضخيمه لفصل الاثنين عن بعضهم البعض ، ودمج القبايل بالقضاء على العنصر العربي بعد اضعافه وتشتيته(٩) .

ولم تقف السياسة التعليمية الفرنسية عند هذا الحد ، بل اصبحت سياسة رسمية للجمهوريين . واذا كان مفهوم الادماج والسياسة العامة (الفرنسية) الموجهة للمستعمرة قد اختلف في تطبيقهما في الجزائر كل طرف على حدة، اي اختلاف جمهوري باريسي وأوربيي المستعمرة من الكولون ، فان السياسة التعليمية في منطقة القبايل لاقت تقريبا نفس الاهتمام والتقارب عند كلا الطرفين ، وذلك عندما اصبح الامر يتعلق بالقضاء على العنصر العربي والانفراد بالعنصر القبايلي في سياستهم التعليمية. وعندما تولى المدنيون الحكم في الجزائر بعد سقوط الامبراطورية في ١٨٧٠ ، اشتد الاهتمام بتطبيق هذه السياسة ، بل ان اول مشروع للجمهوريين في اطار سياستهم التعليمية كان موجها لمنطقة القبايل دون غيرها . وقد حاول هؤلاء من خلال تركيزهم على هذه المنطقة ، ابراز الهوية القبايلية واعتبارها الاساس في الجزائر مع انكار للهوية العربية باعتبارها الدخيلة والغازية . « ان القبايليين هم السكان الحقيقيون للجزائر ، انهم اقرب الينا ، انهم الاكثرية وهم مستقبل هذا البلد »(١٠) . ومن هنا فليس من الغريب او المستبعد ان توجه السياسة التعليمية الفرنسية الى منطقة القبايل وحدها، بل والى مناطق جد محددة من هذه المنطقة نفسها(١١) .

٢ ـ الخطوط العامة للسياسة التعليمية في منطقة القبايل :

ظهرت فكرة تركيز الجهود التعليمية في المناطق المكتظة بالسكان وحول المدن الكبرى ، اي في المناطق الاكثر ملاءمة لنجاح عملية الغزو الثقافي والهيمنة الاستعمارية. و قد بدأ الاباء البيض نشاطهم كمربين للجزائريين منذ ١٨٧٢(١٢) ، وفي منطقة القبايل على الخصوص ، معتقدين بامكانية ارجاع هؤلاء السكان الى حظيرة الدين المسيحي . واشتدت هذه الحركة لتاخذ الطابع الرسمي منذ ١٨٧٣/١/١٢ عندما اقترح حاكم منطقة فورناسيونال Fort-National على الحاكم العام المدني دوغيدون de Gueydon برنامجا يقضي بفرنسة القبايل « شعب عربناه اكثر مما نفرنسه »(١٣) ، والغاء المدارس العربية الفرنسية نهائيا و« ابطال مفعول الزوايا بجميع الوسائل وجعلها تحت السلطة الفرنسية » ، مقابل خلق مدارس بلدية حكومية فرنسية من منطقة القبايل لاستبعاد تعلم اللغة العربية لهؤلاء السكان . وفي الوقت نفسه سمع الحاكم العام دوغيدون للاسقف لافيجيري(١٤) بفتح المدارس الخاصة، بهذه المنطقة مع اعطائه جميع التسهيلات اللازمة ، بالرغم من علمانية الجمهوريين ومدرستهم الاستعمارية . ومنذ سنة ١٨٧٣ الى ١٨٧٥ ، استطاع هذا الاخير (لافيجيري) تاسيس خمسة مراكز لتعليم اطفال القبايل تعليما نصرانيا ، هذه الفترة التي عرفت اشتداد حركة الارساليات التبشيرية لتنفيذ هذه السياسة في الواقع . ومن جهة اخرى قامت الاخوات البيض بغزو المنطقة بنفس الاسلوب بدءا بتربية المرأة القبايلية التربية المسيحية(١٥) .

وفي سنة ١٨٨١ كلف احد المتحمسين للسياسة التعليمية في منطقة القبايل ، السيد ماسكارى Masqueray (١٦) بمهمة في منطقة القبايل للاطلاع على السكان ومعرفة موقفهم من التعليم الفرنسي . وعندما اجرى الحوار مع السكان استخلص الموقف على الشكل التالي : ٥١ صوتا مع التعليم الفرنسي و ١٦ صوتا ضده . ولكن لم يقبل هؤلاء بالتعليم الفرنسي الا شريطة تدريس احد الجزائريين اللغة العربية لهم ، لان هاجس الخوف لدى هؤلاء السكان كغيرهم من سكان الجزائر ، كان يدور حول مستقبل اللغة العربية ومصيرها في التعليم الفرنسي .

ولنسمع ماذا كان رد فعلهم امام اسئلة ماسكارى : « علموا ابناءنا اللغة العربية، فكان جواب السائل : نعلمها لهم كلغة اجنبية . » (١٧) . ومن هذا التصريح تظهر استعمارية السياسة التعليمية الفرنسية من جهة وتمسك الجزائريين بلغتهم العربية من جهة ثانية .

وبعد هذه الزيارة العملية والاطلاعية (لجس النبض) التي قام بها ماسكاري في سنة ١٨٨١ الى منطقة القبايل ، رأى جول فيرى(١٨) ، وعلى ضوء هذه المعطيات

والنتائج المستخلصة من تقرير صاحب الزيارة ، ان « منطقة القبايل هي اكثر مناطق الجزائر تقبلا لفكرة الادماج ، نظرا لعادات وتقاليد سكانها المختلفة عن العرب »(١٩) .

ولا يمكن فهم فكرة الادماج ، التي كانت يطالب بها البعض للقبايل فقط ، بينما طالب بها البعض الاخر للجزائريين كلهم ، الا في اطار الرؤية الاستعمارية . فجول فيري اراد خلق ١٥ مدرسة مرتبطة مباشرة بالوزارة ، وتساهم هذه الاخيرة بثلاثةاربعاع التكلفة اذا ما قام المجلس العام للحكومة العامة في الجزائر باخذ الباقي على عاتقه(٢٠) . وامام رفض المجلس لهذا المشروع قرر الوزير ان تتكفل الحكومة وحدها بجميع المصاريف . وللقيام بالتدريس في هذهالمدارس كان لزاما اختيار اطار مدرسيذي خبرة وقدرة عالية في الدفاع عن القضية الفرنسية واكتساب التلاميذ الجزائريين اليها . وهذه الخبرة تكمن اساسا في تعليمهم خلال مدة ستة اشهر اللهجة البربرية(القبايلية) لتسمح لهم بالتوغل داخل المجتمع القبايلي .

اما عن الوسائل التي اتبعتها الادارة الفرنسية لتحقيق سياستها الاستعمارية الجديدة ، فكانت في فتح المجال للوفود الدينية لنشر رسالتها بتاسيسها للمدارس في هذه المنطقة . ومنذ تاريخ ١٨٧٣ بدأت تحل بالمنطقة وفود الاخوان المسيحيين والاباء البيض فاتحة مدارسها الخاصة لنشر المسيحية .واستمر الوضع على هذه الحالة حتى مجيء حكومة شانزي Chanzi التي لم تعارض هذه المدارس ، بل اولتها الدعم والعناية . ولتعليم القبايل كان يشترط القضاء على الوسيط العربي ، او بمعنى اخر تعليم هؤلاء اللهجة القبايلية او اللغة الفرنسية . ويوضح المقدم ،اداريدائرةتيزياوزو في رسالة وجهها الى الحاكم العام في ١٨٧٣ ، ذلك ،بقوله : « .. لتعليم هذا الشعب القبايلي : يجب الغاء الوسيط العربي .. لانه كان حتى الان ضارا اكثر منه مفيدا، وبكلمة واحدة يجب ان نكلمه بلغته ، او نعلمه لغتنا .. واقصد اللغة الفرنسية لانني اعتبرها سهلة التطبيق . اما فيما يخص الزوايا فيجب اسقاطهانهائيا وبجميع الوسائل من منطقة القبايل لاستبدالها بمدارس بلدية فرنسية » (٢١) .

ووفقا لهذه الرؤية الاستعمارية تم وضع برنامج عمل يهدف الى انشاء ثماني مدارس ابتدائية عمومية تكون تحت اشراف الحكومة (لم تؤسس الا اربع مدارس اشتهرت بالمدارس الوزارية ecoles ministérielles وذلك لتفادي معارضة البلديات لها . ويقوم بالاشراف على هذه المدارس مدرسون اوروبيون يساعدهم مدرسون جزائريون لتعليم القرآن وذلك لضمان استمراريتها وكسب ثقة التلاميذ واوليائهم اليها .

واقترح اوربان Urbain (٢٢) ـ بعد ان فشلت وسائل الترهيب ـ اللجوء الى وسائل الترغيب كتقديم الملابس والهدايا والمساعدات المالية احيانا لجلب التلاميذ وذويهم الى المدرسة الفرنسية . واقترح كذلك اقامة المدارس المهنية لاستقبال

المتخرجين حتى يطمئنوا على مستقبلهم وطالب اخرون بان يكون لكل مدرسة فرنسية مدرس جزائري يقوم بتعليم القرآن . ومن وسائل تطبيق هذه السياسة كذلك كان مراعاة طبيعة هذه المدرسة ، فجاءت برامجها الدراسية فرنسية الشكل والمضمون . فهي لا تختلف عن البرامج التعليمية المستعملة في المدارس الابتدائية الفرنسية بفرنسا . ويشترط في المدرس ان يكون اوروبيا وليس جزائريا(٢٣) . بحجة ان المدرس الوطني ما يفتأ ان يتحول الى تدريس اللغة العربية عند انعدام المراقبة . ويرفض لوبورجوا H. le Bourgeois توظيف المدرسين الجزائريين في المدارس العربية ــ الفرنسية بمنطقة القبايل لقتل اللغة العربية وتدميرها ، ونشر اللغة الفرنسية بدلها . وفيبرامج المدرسة الابتدائية العليا(٢٤) ، التي انشئت في ١٨٨٥ بمنطقة القبايل تحتل اللغةالعربية نفس المكانة التي تحتلها اللغة الانجليزية كلغة اجنبية(٢٥) .

غير ان المؤيدين للسياسة التعليمية في منطقة القبايل كانوا يرون ان القبايل وحدهم دون العرب كافون لان يكونوا في خدمة المستعمرة . وتقسم مبروكي(٢٦) Mabrouki انصار هذا الرأي الى :

١ ــ العسكريون الراغبون في السيطرة والذين يحلمون بدمج الاجناس .
٢ ــ الذين يريدون الوصول الى الادماج عن طريق التعليم .
٣ ــ الذين يريدون خلق الملكية الخاصة لفرض النظام والاستقرار لشعب يصعب فهمه .
٤ ــ الذين يرغبون في اقامة قرى مختلطة اوروبية ــ قبايلية .

ويعتقد بعض الاوروبيين الاستعماريين امثال دولت دومسلين D. D'Aumesline على انه يجب محاربة الافكار وغزوها، بل لقد كان ضد اية فكرة او سياسة تنشد في برامجها احترام المجتمع الجزائري . ويقترح لهذا الغرض تمسيح الجزائرين وخاصة سكان القبايل باعتبارهم احسن عنصر والوحيد القابل للتمسيح والفرنسة في احسن الظروف وباسرع وقت ممكن (٢٧) .

غير ان هذه السياسة التعليمية لم تكن لتسلم من المعارضة الاوروبية ، كونها تهدف الى تعليم الجزائريين ورفع مستواهم الثقافي والمادي والاجتماعي . فعند زيارة لوبورجوا المدرسة بمدينة تيزي اوزو Tizi-Ouzou شاهد ان كل تلامذتها كانوا من ابناء الكولون (المعمرين) والموظفين الفرنسيين والجزائريين الموالين لفرنسا ، بل ان هذا الرفض جاء من شخصية حكومية ، هو رئيس بلدية تيزي اوزو الذي كان يحارب وبشدة فكرة تعليم الجزائريين سواء في منطقة القبايل او في غيرها من المناطق بدعوى « انهم جنس منحط ومدعو للزوال » (٢٨) . واعتبرت المعارضة الاوروبية ان

المدارس الوزارية تشكل « قصورا مدرسية » palais scolaires كونها لاتستطيع تغيير حياة الجزائريين وعاداتهم وبالتالي فرنستهم(٢٩) . فالكولون الاوربيون لايمكن ان يقبلوا بهذا الوضع لانهم في الاساس من انصار الابادة للشعوب ، وهم الذين طالبوا باستعمار استيطاني والقضاء على العنصر الجزائري . لكن مثل هذه النظرية لايمكن ان تتحقق نظرا لاختلاف ميزان القوى ، فعدد السكان الاوروبيين قليل جدا اذا ماقورن بعدد الجزائريين . ومن هذا المنطلق كان التفكير والبحث عن اقلية اقل احراجا وازعاجا للاستعمار واكثر فائدة له ، هي الاقلية القبايلية(٣٠) .

والشكل الاكثر تعقيدا في هذه السياسة هي انها لم تستطع توفير الوظائف لهؤلاء (خريجيها) رغم قلة عددهم . ومن هنا بات واضحا ان تقع المواجهة بين هؤلاء المثقفين المنافسين للاوربيين على المناصب في المدن وفي اسواق العمل وبين الاوروبيين انفسهم . وامام موقف الاوروبيين المتصلب والرافض لكل مس وانتقاض لسيادتهم ، كان لابد من ايجاد حل مناسب لهذه الازمة ، واصبحت الهجرة بديلا عن المدرسة(٣١). فاشتدت بذلك الهجرة نحو فرنسا خاصة من منطقة القبايل (المنطقة جبلية في اغلبها) الاقل حظوظا لايجاد فرص العمل . وقد تكون لهذه السياسة حدود ابعد ، فهي بهذه الطريقة تستطيع غزو منطقة القبايل بايد قبايلية . وان عودة المهاجرين الى الجزائر له اكثر من معنى ، فهم ان لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، فهذا لا يعني انهم حصلوا على جميع حقوق المواطنة الفرنسية وواجباتها(٣٢) .

امام هذا العرض للسياسة التعليمية في منطقة القبايل ، ماذا كانت اهدافها ؟. كان هدف الجمهوريين وسياستهم التعليمية في منطقة القبايل يعني ادماج القبايل وباية سرعة ممكنة في المجتمع الفرنسي وفصلهم عن باقي الجزائريين . فقد كتب احدهم في ١٨٨١ يقول : « ان الهدف الاسمى الذي يجب ان تبذل من اجله كل الجهود في هذا البلد (منطقة القبايل) هو بدون شك جعله بلدا فرنسيا»(٣٣) .

وقد راينا كيف كان دعاة الاسطورة القبايلية ينظرون الى هذه المنطقة ، والى سكانها . ومن هذه الرؤية كان التعليم الموجه لمنطقة القبايل يركز خاصة على التشكيك بعروبة الجزائريين واسلامهم ، وترسيخ الشعور والافكار الفرنسية لتسهيل عملية ادماجهم .

وليس من المصادفة ان تكون المدارس الاولى كلها مركزة في وسط جرجرة ومنطقة القبايل ، انما لان ثورة ١٨٧١ (٣٤) قد انطلقت من هذه المنطقة بالذات . وترى ف . كولونة ان اختيار هذه المنطقة بالذات يخضع لعاملين اساسيين هما :

١ ــ نوع من التعدي .

٢ ـ أهمية المنطقة اقتصاديا(٣٥) .

واذا كانت فكرة الادماج قد استعملت كوسيلة للغزو من جهة ووسيلة للاستيلاء على الارض وفرنستها اولا ثم فرنسة السكان ثانيا في جميع حركاتهم وعاداتهم وأفكارهم(٣٦) خاصة من جهة ثانية ، فان السياسة التعليمية الفرنسية من منطقة القبايل كان لها نفس الاسلوب والطريقة في تفكيك المجتمع الجزائري ثم هدمه عملا بالشعار الاستعماري « فرق تسد » (٣٧) .

وكل هذه الاتجاهات رغم اختلاف اساليبها وطرق عملها ، الا انها تتفق في غاية واحدة، هي الادماج السريع والكلي للقبايل اولا ثم للعرب ، واحيانا ادماج العنصر الثاني بالاول . ولتحقيق هذه الاهداف الاستعمارية تصبح الاسطورة القبايلية هي الادماج نفسه كمرحلة اولى لدمج جميع السكان ، او بمعنى اخر الفرنسة الكاملة للجميع .

٣ ـ نتائج السياسة التعليمية في منطقة القبايل :

ان كل الاهداف المسطرة في السياسة الاستعمارية كالفرنسة بالملكية الخاصة والتعليم والتمسيح والقضاء الفرنسي(٣٨) لم تبق حبرا على ورق ، ولكن رافقتها اجراءات ملموسة تهدف الى خلق فكرة الاقليمية وتدعيمها Particularisme التحضير للمهمة الاستعمارية المنشودة وهي الادماج الكامل . وبهذه الطريقة حاول الفرنسيون غزو المنطقة المذكورة فكريا ، واشتد نشاطهم حول هذه المنطقة دون غيرها حتى ان ٨٩٪ من المدرسين الجزائريين من اصل منطقة القبايل و ٤٧١ من مجموع ٥٢٦ من اصل ولايتين اثنتين بمنطقة القبايل هما : تيزي أوزو (٤٠٥) وبجاية (٦٦).

وما بين سنة ١٨٨٣ الى ١٩٠٦ ارسلت مدرسة تاوريت ميمون وحدها الى ... المعلمين ببوزريعة ٥٦ تلميذا ـ مدرسا ، و ٤ طلاب الى المدرسة الاسلامية بالجزائر العاصمة . وفي تقرير لمديرية التربية في ١٩٠٩/١٢/٣١ ، ذكر ان مجموع التلاميذ في منطقة القبايل الذين استفادوا من التعليم الفرنسي ، كان حوالي ١٣ر٥٠١ من مجموع ٤٤٠ الف نسمة ، واصل منهم ٢٥٢ تعليمه ما بعد الشهادة الابتدائية و ٨٤٠٢ بقوا بمناطقهم (يشتغلون مع ابائهم) و ١٧٢٧ منهم اصبح حرفيا ، و١٦٧٠ توجه الى الاعمال التجارية . أي ان نسبة ٤٪ فقط هي التي التحقت بالوظائف الادارية او مارست اعمالا حرة مقابل نسبة ٩٠٪ بقوا على حالتهم الاجتماعية السابقة (وهذا ما يفند اسطورة التنصل déclassement التي ابدعها معارضو التعليم الجزائري) ، و ٦٪ منهم هاجر الى المدن للعمل عند الاوروبيين او كأجراء يوميين(٣٩) .

غير أن هذه السياسة لاقت نفس مصير السياسات السابقة ، اي انها لم تستطع الاستمرار في تأسيس مدارسها نظرا للمعارضة الاوروبية القوية من جهة ، ومعارضة الجزائريين انفسهم لها . الا ان مبررات كل طرف تختلف عن الاخر ، فالطرف الاول اي الاوروبي ينظر اليها انطلاقا من مصالحه الخاصة التي تتعارض مع الجزائريين وترقيتهم سواء في منطقة القبايل او في غيرها ، لان في ذلك منافسة له في نفوذه وقوته. اما الطرف الثاني ، اي الوطني (الجزائري) فانطلاقا من تفهمه وادراكه لاستعمارية هذه السياسة التي تحاول تفرقته وتشتيت شمله ، بل هي جزء من رفضه للاحتلال ككل .

واذا كانت قبيلة بني يني (بمنطقة القبايل) مثلا قد تجاوبت مع المدارس التي اسستها الادارة الفرنسية(٤٠) ، فذلك راجع الى ان التعليم العربي الاسلامي بهذه المدارس قد اسند الى مدرسين جزائريين لتعليم العلوم الدينية . الى جانب ذلك ساعدت بعض العوامل على تحقيق القبول ، منها تركز السكان بمنطقة واحدة ، اضافة الى العامل الاقتصادي الذي يتمثل في ان سكان هذه المنطقة لم يتعرضوا لاستعمار الارض ومصادرتها بالشكل الذي عرفته المناطق الاخرى من الجزائر . واذا نظرنا الى تركيبة المجتمع بمنطقة القبايل تمكنا من تفسير نجاح المدارس بها نوعا ما. فالسكان الاوروبيون (وهو العنصر الرافض لاي تعليم يستفيد منه الجزائري) يمثلون نسبة ١٫٨٪ من كامل دائرة تيزي اوزو حتى سنة ١٩٢٦ ، في حين نجد ان هذه النسبة اعلى بكثير من مدينة وهران ، أي حوالي ٥٥٪(٤١) . ومن هنا يظهر ان نجاح المدرسة الفرنسية يخضع الى عامل السكان والمنطقة ، اضافة الى العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها . واذا كانت بعض المدارس الفرنسية قد لاقت نجاحا في بعض المناطق . فذلك مرجعه الى انعدام المدارس القرآنية بها . وتقول تقارير صاباتييه Sabatier (٤٢) في ١٨٨٢ ان النجاح الذي حصلت عليه مدرسة كل من تمازيرت(وهي الاقدم) ومدرسة صهاريج ،يرجع الى ان هذه البلدية لا تملك مدرسةعربيةاسلامية.

وأخيرا يمكن اجمال فشل هذه السياسة في النقاط التالية :

١ – رفض الجزائريين لها ايمانا بسوء نيتها ، بل اكثر من ذلك فهي جزء من رفض الاحتلال أجمالا .

٢ – رفض الاوروبيين للتعليم الجزائري عموما ، لانه عامل من عوامل اشراكهم في النفوذ والسيطرة .

٣ – لانها كانت موجهة من باريس، وبالتالي فاصحابها يجهلون واقع المجتمع الجزائري سواء في منطقة القبايل او في غيرها ، ومدى قبوله او رفضه لها .

(١) استعملت كلمة قبايل للتعبير عن البربر ، وتقابلها في الفرنسية Kabyle خلافا لقبائـــل (جمع قبيلة).

(٢) كانت قد سبقتها حملات عسكرية فاشلة في عامي ١٨٢٦ و ١٨٢٧ .

(٣) في ١٨٤٥ رأى بيليسي R. de Pellissier امكانية تحقيق الادماج بين الاوروبيين وبين القبايل.

(٤) تولى منصب امين عام الحكومة العامة في الجزائر ، وكان من الدعاة المتحمسين للادماج.

(٥) وكان هؤلاء يريدون تكوين « مملكة قبايلية » مقابل « المملكة العربية ».

(٦) Ageron,Ch. r.,«La France a-t-elle eu une politique kabyle»..? in Revue **Historique**, Avril- Juin 1960 , P. 315 .

(٧) كتب الجنرال دوماس في هذا الشأن يقول : « يوجد جنسان مختلفان ، الجنس العربي والجنس القبايلي » . اما دوتوكفيل فقد كتب يقول في السياق نفسه في سنة ١٨٣٧ : « اذا كانـت بلاد القبايل مسدودة امامنا ، فان روح القبايليين مفتوحة امامنا ».
Ageron, **Les Algériens Musulmans et la France**, t.I, p. 269.

(٨) كتب الجنرال دوفيقي في سنة ١٨٤١ ، مبرزا الاعتماد على العنصر القبايلي دون غيره ، يقـول: « ان استقرار القبايل وحبهم للعمل يجب ان يكونا قوام سياستنا في افريقيا ».
Ageron; La France a-t-elle .. ibid, P. 314.

(٩) كتب النقيب كاريت ليؤكد على ان : « منطقة القبايل بقيت لحد الان خارجة عن الاتصال المباشر معنا . واذا كانت سابقا في حروب مع جميع « المحاولات الاستعمارية السابقة ، الا انه يجب ان تصبح في السنين القادمة المساعد القوي لمؤسساتنا والمشارك المفيد لمشاريعنا ».
Ageron, op. cit., p.314

(١٠) Ageron, Les Algeriens .. ibid p.270 .

(١١) لم يطبق التعليم الالزامي في الجزائر الا على ثمانية (٨) بلديات موجودة كلها في منطقة القبايـل Kabyle . ثم اصبحت اربع مدارس باقتراح من مدير التربية في ١٨٨٢ هي : مدرسـة تيزي راشد ، تاوريت ميمون ، ميرة ، جماعة صهاريج .

(١١) Mesnard, I., L'Oeuvre Française s'adapte aux messes musulmanes en Algérie, in **Etudes**, Juin 1948, P.359.

(١٣) Ageron, op. cit., p. 332.

(١٤) اصبح اسقفا للجزائر في ١٨٦٧ وانتشرت المسيحية بخطى واسعة في عهده . فهو الذي كون طبقة جديدة من المبشرين (من الجزائريين الكاثوليك) عرفت بالاباءالبيض وانتشرت فيمنطقةالقبايل.

(١٥) Mesnard, op. cit., p.360.

(١٦) فهو الذي قال في سنة ١٨٧٦ : « اذا اردنا في ظرف جيلين ، ستتحول منطقة القبايل الى فرنسية، ويكفي لذلك اقامة مدرس لكل قبيلة » .
Ageron, Ch. R., **Histoire de L'Algérie Contemporaine** , t. I,p. 156.

(١٧) Rambaud, A., **L'Enseignement primaire des indigénes musulmans d'Algerie,** p.43.

(١٨) كان وقتها وزيرا للتربية والتعليم ثم اصبح رئيسا للحكومة الفرنسية . وكان من انصار الجزائر الفرنسية ، أي الجزائر الملحقة والمدمجة في فرنسا (الميتروبول) .

(١٩) L'Amicale des anciens instituteurs et institutrices et le cercle Algerianiste .. 1830-1962 .Des enseignants d'Algerie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire, p.46 ed. Privat, 1981.

والراي نفسه ابداه الحاكم العام تيرمان Tirman (١٨٨١-١٨٨٥) عندما امر حاكم منطقة فورنا سيونال بتطبيق الزامية التعليم على منطقته .

(٢٠) كانت البلديات الجزائرية اشد المعارضين لتعليم الجزائريين، وقدمت لذلك تبريرات مختلفة كالمالية والعنصرية والسياسية والتقليدية . وهذا ما يؤكد تعارض جمهوري باريس واوروبي المستعمرة واختلاف وجهات نظرهما حول طبيعة التعليم المراد تقديمه للجزائريين . فالجمهوريون ارادوا تطبيق التعليم الفرنسي النظري على الجزائريين لتحقيق الادماج، في حين طالب الاوروبيون في المستعمرة بتطبيق التعليم التطبيقي ، الاولى والبسيط ، لتحقيق الانفصال عن الميتروبول .

(٢١) A. O. M. (Archives d'outre - mer d'Ex-en- Provence) 225 (3) , Ecole Arabe - Française (1860 - 1876) .

(٢٢) كان من انصار تعليم الجزائريين والاهتمام ، ويقال انه كان من المساهمين في فكرة المملكة العربية التي جاء بها نابليون الثالث ، وكان مستشارا له في الشؤون «الاهلية».

(٢٣) Bourgeois, H.Le., **Rapport d'ensemble sur l'état de l'instruction primaire en Algerie** , p. 77, Paris 1880 .

(٢٤) اعيد تنظيمها في اواغزن Ouaghzen بين ١٨٩٧ و ١٩٢٨ ثم حولت الى بني يني Beni Yenni وهذه القبيلة التي استفادت اكثر من غيرها من المدارس التي اسستها الادارة الفرنسية .

(٢٥) Mesnard , op. cit. p. 360.

(٢٦) **La construction du mythe kabyle,** p. 81, Alger 1977.

(٢٧) **ibid** , P. 78

(٢٨) Bourgeois, op. cit. p. 71

(٢٩) استمرت ثلاث مدارس فقط فيتقديم التعليم هي: مدرسةتاوريتميمون ، مدرسة تيزي راشد ومدرسة صهاريج .

(٣٠) Mabrouki, R., op. cit. p. 78.

(٣١) Colonna, F., Les institnteurs algeriens 1883 - 1939, p; 115, O.P.U., Alger , 1975.

(٣٢) خير تعبير على هذه الفكرة ما قاله عباس فرحات من كتابه ليل الاستعمار. « فعندما يقول الجزائري

انه عربي يجيبه القضاة الفرنسيون لا انك فرنسي ، ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة لا انك عربي » . ص ١١٠ ، ترجمة وليم خوري ١٩٦٢ .

(٣٣) Desvages, H., L'enseignement des Musulmans en Algeric sous le rectorat Jeanmaire,in **Mouvement Sociale, Janvier- Mars 1970, p.119.**

وكان وزير التربية برتولو Berthelot ، بعد زيارة للجزائر في ١٨٨٧ ، قد اعلن امام مجلس الوزراء « بضرورة رفع عدد التلاميذ في مدارس منطقة القبايل ، لانها تمثل الوسائل الناجحة لدمج مستعمرتنا الافريقية الكبيرة في الوطن الام » . المرجع نفسه ص١٢٢.

(٣٤) وهي الثورة التي قادها الباشاغا المقراني ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة القبايل .
Colonna, op. cit. P. 108.

(٣٥) توجد صناعة الاسلحة وصياغة الذهب لدى قبيلة بني يني في منطقة القبايل . والقبيلة من اغنى مناطق منطقة القبايل اقتصاديا .

(٣٦) Mabrouki, op. cit. p. 70.

(٣٧) ويرى احد دعاة الخاصية القبايلية انه لا يجب فهم القبايلي على ما هو عليه بقدر ما يكمن في كيفية استغلاله واستخدامه بالشكل الجيد ووفقا للظروف . لان استعماله يعني هدم المجتمع العربي وتفكيكه . المرجع نفسه ،ص ٩٠.

(٣٨) استغنت الحكومة الفرنسية عن القضاة الجزائريين وانزلتهم الى مراتب سفلى ، واغلقت المدارس القرآنية وفرضت التعليم الاجباري الفرنسي في منطقة القبايل .

(٣٩) Ageron, La France .., ibid, p; 348.

(٤٠) كانت قد هجرتها عندما تعرضت المنطقة بكاملها (منطقة القبايل) للقمع الفرنسي الذي رافق القضاء على ثورة ١٨٧١ .

(٤١) **colonna, op. cit. p. 112.**

(٤٢) استطاع صاباتيه ان ينجح في منطقته ، بحيث ان ست(٦) مدارس استمرت في نشر رسالتها « الحضارية » مع ٦٠٠ تلميذ . واعتبر هو نفسه ان سنة ١٨٨٤ ، هي السنة التي يمكن ان يستولي فيها على منطقة القبايل بالتعليم الفرنسي.

---

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، ١٨٧١ - ١٩١٤ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

عصبة العمل القومي
وإسهامها في الحركة القومية في سورية
١٩٣٣ - ١٩٣٩

مصطفى بلاوي
مرشح للماجستير

تميزت فترة الثلاثينات من هذا القرن بمحاولة ابقاء فكرة الوحدة العربية حية في قلوب الجماهير ، رغم اختلاف الانظمة والحدود القائمة ، وقام زعماء الحركة القومية بمحاولة لتجميع الصفوف بعد ان اثار قلقهم الانصراف نحو النزعة الاقليمية، وانتهزوا فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي في القدس اواخر عام ١٩٣١ ، فاتفقوا على ميثاق عربي قومي ، أكدوا فيه على وحدة البلاد العربية وتوجيه الجهود في كل قطر نحو الاستقلال التام ، ورفض السياسات الاقليمية ، وبذل الجهود من أجل الاستقلال والوحدة العربية(١) .

قيام عصبة العمل القومي ـ مبادؤها النظرية :

وساهم عدد من الشباب المثقف في سورية ولبنان وفلسطين والعراق بتأليف أحزاب سياسية تتجاوز الشواغل القطرية وتتعدى حدود الكيانات ، وتسمو على القضايا المحلية التي شغل بها الاستعمار الشعوب العربية ، كان ابرزها عصبة العمل القومي ، وظهرت بعد عقد مؤتمر سري في قرنايل ـ بلبنان ـ سنة ١٩٣٣ ، كان أهم من حضره (أكرم زعيتر ، فريد زين الدين ، عبد الرزاق الدندشي ، شفيق سليمان، الدكتور سيف الدين الطباخ ، علي ناصر الدين ، وآصف كمال ، ثابت العزاوي ، سامي شوكت) واصدروا بنهاية اجتماعاته بيانا « الى العرب من عصبة العمل القومي »(٢) .

درس المؤتمر الاستعمار وموقفه من القومية العربية وطبيعته وأساليبه ، ثم عين الاهداف العليا والوسائل التي يجب على العرب اتباعها . وكذلك درس الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي العربي ، ثم حدد موقف العصبة من الفئات الاخرى، وعين طرق عملها . وخلص البيان الى دراسة السياسة السورية التي سلكت طريق « التفاهم » فوضع خطوطا عامة بشأنها(٣) .

وفي ضوء تحليل المؤتمر لواقع العرب ، تبين له انهم سائرون في طريق التدهور في مختلف مجالات حياتهم ، وأصبحت المطالبة بالوحدة العربية ضربا من الخيال . وعدد البيان نقاط الضعف في العرب بدءا من كثرة النفعيين ، وقوة الفردية، وتغلب روح الاثرة ، وحب التزعم ، والتشبث بالراي الشخصي ، وعدم الخضوع لسنن العمل المشترك ، وخوف العربي من الضغط الاجتماعي ، وتقليده الغربي تقليدا أعمى ، وضعف الثقة بالنفس ، وتفشي الجهل وفساد طرائق التربية والتعليم . كما بين البيان نقاط القوة في العرب ، ممثلة بعظمة التاريخ ، وروابط اللغة ، واستعداد العرب القومي للتفوق ، وتعصب العربي لمقائده ، واتيانه بالعجائب في سبيل ذلك(٤).

وتطرق البيان الى دراسة طبيعة الاستعمار الحديث ، فظهر له طبع الاستعمار ومنشأه الاقتصادي ، ووصل في تاريخه الى الثورة الصناعية وتجمع رؤوس الاموال الضخمة ، وتزاحم التجارة الاممية ، وظهور حاجتها الى مواد اولية واسواق ومستهلكين(٥) .

وعين المؤتمر اهداف الاستعمار بالنسبة للعرب بوجهين :

الاول يتعلق بالبلاد نفسها (استعمار فكري ومادي) .

والثاني يتعلق باتخاذها قاعدة لاستعمار الشرق في آسيا وافريقيا ودوام السيطرة عليه .

كما حدد المؤتمر في بيانه وسائل المستعمرين واساليبهم في البلاد العربية، وكيف انهم استعانوا على العرب بالتجزئة المادية والمعنوية وعمدوا الى افساد خلق الشعب وروحه وعقله(٦) .

وفي ضوء هذا التحليل حددت العصبة أهدافها العليا ، فرسمت لنفسها هدفين « هما من حيث الطبع متمم أحدهما الاخر ، وتحقيق كل واحد شرط لتحقيق الاخر

ا ـ سيادة العرب واستقلالهم المطلقين .

ب ـ الوحدة العربية الشاملة » (٧).

وبينت العصبة ان نوال السيادة والاحتفاظ بها موقوف على وحدة البلاد العربية كما ان ازدهارها الاقتصادي ونهضتها الاجتماعية يتوقفان عليهاويستحيلان بغيرها . لذلك اعتبرت « الوحدة العربية » القائمة على « وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي » جزءاً غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال (٨) .

وعلى ضوء دراسة الاستعمار ، ادركت العصبة خبث مقاصده ، وبحثت في وسائل المقاومة القومية ، ورأتبحكم منطق الدفاع«توحيد جهود العربفي كل صقع ، وتوحيد حركة المقاومة القومية في الاقطار العربية ، وتأليف جهودهم والقضاء على النعرات الاقليمية بمعناها القاصر ، ووصل ما انقطع من الروابط بين الصفوف المجاهدة في كل قطر » ، على ان لا يفهم من هذه الخطة ترك الجهاد المحلي ، بل ان تعدد الطرق الاستعمارية والمستعمرين في الاقطار العربية « جعل لكل قطر ظرف خاص تجب معالجته بوسائل خاصة ، وتتطلب وضع برامج محلية تراعي فيها الظروف القطرية ضمن نطاق ضوابط محددة تمنع شذوذ العمل السياسي عن الاهداف العليا »(٩) .

على هذا الاساس فان العمل القومي في نظر عصبة العمل القومي ، يستهدف تشكيل جبهات جهاد مختلفة « موحدة الجهد متساعدة تابعة لقيادة واحدة ، تؤلف فيما بينها وتجعل القضايا القطرية أو الاقليمية أجزاء للقضية العربية الكبرى »(١٠)

وسجلت العصبة تطورا في السياسة الاقتصادية ، فقد اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية ، فدعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية، وضم رؤوس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة .كمااعتبرت العصبةالبلاد العربية وحدة اقتصادية ،وسوقا اقتصادية وطنية خالصة ، لا تروج فيها غير المنتوجات والمصنوعات العربية(١١) .

وحيث ان ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة وهي خاضعة للظروف السياسية . فقد وجب في الاقتصاد ما وجب في السياسة ، وتحتم وضع برامج اقتصادية لكل قطر مستمدة من ظروفه وقابلياته ، على ان لاتخرج على المبادىء العامة التي قررتها العصبة بهذا الشأن .

والكيان الاقتصادي الذي تنشده ــ العصبة ــ يقوم على اساس قومي فيالانتاج والتوزيع . لخلق نهضة سريعة في الصناعة والزراعة ، وتهدف العصبة من وراء ذلك الى قيام الدولة بالمشاريع الرئيسية الكبرى ، وتشجيع الشركات التعاونية ، ومد يد المساعدة الى الجماعات والافراد في مجال الصناعة والزراعة (١٢). كما أقرت العصبة مبدأ محاربة الاقطاعية ، وتحديد مقدار التملك العقاري بنسبة تساعد على النمو الزراعي وحسن الاستثمار(١٣) .

اما في المجال الاجتماعي والثقافي ، فقد بينت العصبة « انه ليس من الجائز اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية يكون من شأنه اضعاف الحس القومي أو الخروج على التقاليد العربية الصالحة ، ومن الواجب مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية ، والقضاء على العصبيات العائلية او المذهبية او المحلية »(١٤) التي يجب ان تذوب وتفنى في سبيل المصلحة القومية ،وان لا تتخذ اساسا للحركات الوطنية .

كما اقرت العصبة وجوب رفع مستوى المراة الاجتماعي ، وتحضير البدو والاهتمام بالقرية ، ورفع مستواها الاجتماعي والثقافي والصحي باعتبارها الاساس الذي يبنى عليه هيكل البلاد العمراني والاجتماعي . وطالبت ان يعمم العلم على سائر طبقات المجتمع ، وان تسهل سبله ، ولا يكون الفقر حائلا دونه . كما قررت قصر استعمال اللغات الاجنبية على البحث العلمي والامتناع عن التخاطب بها بين العرب ، ومقاومة التبشير الاجنبي بأشكاله ومظاهره المختلفة(١٥) .

والهدف من انشاء العصبة كما حددته في منهاجها « **انشاء كيان قومي عربي موحد مستقل** » ـ دون ان تحدد العصبة نظام هذا الكيان ـ وعرفت القضية العربية انها « **انشاء الدولة العربية لتحقيق الارادة العربية العامة** » اما الحركة العربية فهي « **بعث وتحرير وانشاء الحركات القطرية فروع لها** »(١٦) .

العصبة على الصعيد العملي :

في سبيل بلوغ العصبة لاهدافها ، اعتمدت على التنظيم الشعبي الشامل بمختلف طبقاته . واستندت فيه بالدرجة الاولى الى الشباب . وقد اتخذت العصبة من دمشق مركزا لها ، وكان يمثلها أمين السر العام ، وهو الناطق الرسمي باسمها ، وقد شغل هذا المنصب صبري العسلي ثم عبد الرزاق الدندشي ، وبعد وفاته تولى منصب امين السر العام فهمي المحائري . وترتبط فروع العصبة بأمين السر العام مباشرة والى جانبه مجلسان :

أ ـ مجلس المفوضين : يتألف من عدد من الاعضاء يطلق على كل منهم اسم مفوض ، فهناك مفوض المالية واخر للداخلية وثالث للدعاية . الخ . ومهمة هذا المجلس التعيين في المناصب الحزبية واعطاء الصلاحيات ومساعدة الامين العام في مهامه .

ب ـ مجلس المديرين : ومهمته تنفيذ المقررات والتوصيات التي يقرها مجلس المفوضين ويقبل الانتسابات الجديدة للعصبة .

وتأتي الفروع في أسفل الهرم التنظيمي ، ويراس الفرع أمين الفرع ويساعده في تأدية مهامه مجلس مصغر على هيئة مجلس المديرية ، ويرتبط الفرع مباشرة بأمين السر العام . ويتكون الفرع من عدة نقاط ارتكاز تتوزع في الاحياء السكنية والقرى وتشرف على كل نقطة ارتكاز هيئة مصغرة على شكل هيئة الفرع(١٧) . وكان للعصبة تنظيم شبه عسكري أطلق عليه « حرس العروبة » ، واعتبرت العصبة أن كل عضو فيها هو في نفس الوقت عضو في تنظيمها شبه العسكري (١٨) .

اعتمدت العصبة بالدرجة الاولى على الطبقة المثقفة من محامين واطباء وطلاب المدارس الثانوية والجامعات . وعلى الرغم من دعوة عصبة العمل القومي الى محاربة الاقطاعية ، الا ان عددا غير قليل من الاقطاعيين قد انضم الى صفوفها « عدنان الاتاسي ــ حمص ، محسن البرازي ــ حماه » كما أن امينها العام عبد الرزاق الدنوشي كان من الاقطاعيين ، الا ان الصفة الغالبة في عناصر العصبة كانت تتألف من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة(١٩) .

وأولت العصبة بشكل خاص اهتمامها للقضية السورية ، فدرس مؤتمرها التأسيسي الوضع السياسي في سورية واعمال الفرنسيين فيها ، وعلى ضوء تلك الدراسة حددت العصبة موقفها من الاستعمار في خطوط عامة دعت فيها الى رفض سياسة التفاهم مع المستعمرين والعمل على حل المجلس النيابي السوري عام ١٩٣٢ لعدم شرعيته ، باعتباره الة بيد المستعمرين ، واعتبار كل ما يصدر عنه لا يقيد الامة بشيء . ودعت العصبة الى مقاطعة الحكومة المحلية واعتبرتها اشد خطرا من الاستعمار الذي تنفذ اغراضه ، واعلنت ــ العصبة ــ عقب الاجتماع الكبير الذي عقد في مركز الحزب بدمشق ان المعاهدة لا تحقق رغائب الشعب . ووقفت موقف المعارض منها . وقد كان لهذا الموقف من العصبة أثر كبير على حمل وزيري الكتلة الوطنية « جميل مردم ومظهر رسلان » على تقديم استقالتيهما (٢٠).

وحظرت العصبة على عناصرها الاشتراك في الوظائف الحكومية ووجوب مقاطعة البضائع الاجنبية ، والعمل على ابقاء الشعور الوطني حيا يقظا ، ليتمكن من معرفة الامور والحكم عليها(٢١) .

وانسجاما مع مبدأ العصبة الذي اقرته ، فقد فصلت قيادة العصبة احد الاطباء من عضويتها في تشرين الاول ١٩٣٤ لقبوله وظيفة في دائرة صحة دمشق(٢٢) .

وخلال حوادث الاضراب الكبير في سورية اواخر عام ١٩٣٥ واوائل عام ١٩٣٦ شاركت العصبة في المظاهرات والحوادث التي رافقت هذا الاضراب ، كما وقفت موقف المعارض من المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ لمخالفتها لمبادىء العصبة

التي أقرتها ولانها لا تحقق الوحدة السورية الشاملة والاستقلال الحقيقي(٢٣) . وقد أدى موقف العصبة الرافض للمعاهدة الى انسحاب امينها العام ـ صبري العسلي ـ من العصبة وانضم الى الكتلة الوطنية وفاز في قوائمها الانتخابية للمجلس النيابي السوري عام ١٩٣٦(٢٤) .

وقد وقفت العصبة وقفة المعارض من الاتفاقات السرية التي وقعها رئيس الوزراء السوري ـ جميل مردم ـ كملاحق للمعاهدة السورية الفرنسية ،وتعاونت العصبة مع المعارضة السياسية التي تزعمها الدكتورعبد الرحمن الشهبندر ضدسياسة الكتلة الوطنية . وكانت الاجتماعات والمهرجانات التي تنظمها العصبة تنتهي دائما بعراك في الشارع بينها وبين انصار الكتلة الوطنية(٢٥) .

وخلال النصف الاول من الثلاثينات ، انتشرت فروع العصبة في مختلف المدن السورية ، وكان ابرز فروعها نشاطا في دمشق والاسكندرية وحمص ، وقد سجل فرع الاسكندرونة نشاطا ملحوظا وبخاصة في اواخر عام ١٩٣٦ ، حين اثار الاتراك قضية لواء الاسكندرونة وطالبوا بضمه الى تركيا ، فاعلن فرع عصبة العمل القومي في الاسكندرونة ، ان العصبة ستظل مثابرة على الدفاع المستبسل عن كيان البلاد ومصالح الشعب الحيوية ، ودعت كافة العناصر الى مشاركتها في العمل واظهار تاييدها للوفد السوري الذي حمل من باريس معاهدة صداقة وتحالف بين سورية وفرنسة بحرية الوطن واستقلاله . وحثت الشعب في اللواء على الاشتراك في الانتخابات النيابية لاختيار ممثليه الامناء على مصالح الشعب ، ودعتهم أن لا يتركوا مجالا للدساسين الذين يسخرون مصلحة الشعب لاشباع أطماعهم الشخصية (٢٦) .

ولما اثيرت قضية اللواء امام عصبة الامم ، احتج فرع العصبة في اللواء على ارسال الوفد السوري المؤلف من « عبد الرحمن الكيالي ـ من قادة الكتلة الوطنية وحسن جبارة ـ مدير مالية اللواء » الى جنيف للدفاع عن اللواء ، وطالب استبدال شكري القوتلي وزكي الارسوزي بهما . كما وقف ـ فرع العصبة ـ في وجه مؤامرات الاتراك والفرنسيين ، وتهاون الكتلة الوطنية ـ التي كانت قد تسلمت مقاليد الحكم في سورية ـ ونظم مظاهرات كبيرة في اللواء مشى بها عشرون ألفا من العرب امام لجنة الخبراء الدولية التي وصلت الى اللواء لدراسة وضعه(٢٧) .

وألفت العصبة الوفود لمقابلة لجنة الخبراء في اللواء ، وقدمت لها الوثائق والمستندات التي تبرهن على عروبة اللواء ، وبعد عقد اتفاق جنيف في ٢٣كانون الثاني ١٩٣٧ ـ الذي منح تركيا بعض الامتيازات في اللواء ـ قادت العصبة المظاهرات في مختلف المدن السورية ، واذاعت اللجنة المركزية للعصبة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧ بيانا طالبت فيه بعقد دورة استثنائية للمجلس النيابي السوري لمعالجة الموقف ، كما طالبت

الحكومة السورية بالرجوع عن المعاهـدة اذا كان ثمنها ابتـلاع ارض جديـدة من الوطـن (٢٨) .

وحملت عصبة العمل القومي مسؤولية مصير اللواء للحكومة السورية ،واعتبرت تصديق الاتفاقية الخاصة باللواء من الحكومة السوية خيانة وطنية تتحمل تبعته ، واصدرت بيانا يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ ــ موعد بدء تنفيذ اتفاق جنيفـ استنكرت فيه موقف الوجوم الذي يقفه العرب ازاء اللواء . واعتبرت هذا اليوم منايام بؤس العرب التي ما زالت تتوالى عليهم منذ الاحتلال الفرنسي ، ودعت الامة الى الاتحـاد والتضامن في سبيل استعادة الحقوق المسلوبة من ارض الوطن(٢٩) .

وكان للعصبة مواقف مشهودة في الدفاع عن قضية فلسطين ، فشـارك بعض اركانها في مؤتمر بلودان ١٩٣٧ منا جل فلسطين وساهموا في صنع قرارات المؤتمر(٣٠) كما ساهمت العصبة في تأمين السلاح للثورة الفلسطينية عن طريق المحامي شفيـق سليمان ــ احد أركان العصبة ــ الذي كان يتولى الاشراف على نقل السلاح من العراق الى فلسطين ، وتعرض للاعتقال من قبل السلطات الفرنسية بتهمة تهريب السـلاح والذخائر الى مجاهدي فلسطين(٣١) .

وفي أوائل عام ١٩٣٩ ، رفعت العصبة الى المندوب السامي في فلسطين احتجاجا على اعمات السلطة البريطانية في فلسطين واطلاق الجند البريطاني الرصاص على قبة الصخرة من الكنيس اليهودي في القدس . وطلبت وضع حـد لمثل هـذه الاهانات المتكررة . كما ارسل فرع العصبة في بيروت في أوائل عام ١٩٣٩ برقية احتجاج الـى رئيس الوزارة البريطانية والى الصحف اللندنية ، على عدم تمثيل سورية ولبنان في مؤتمر لندن من اجل فلسطين الذي عقد في اوائل عام ١٩٣٩(٣٢) .

وخلال عام ١٩٣٩ ، أعلنت العصبة انها تعتبر اللبنانيين كأخوة وشعب واحد ، ليس فيه أقلية أو أكثرية ، وسواء أكانوا مسلمين او مسيحيين . وكان ذلك لخلـق روح الولاء للبنان ، كما اعتبرت العصبة لبنان دولة عربية لها سياستها الخاصـة ، وليس قسما من اي دولة اجنبية (٣٣).

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قل نشاط العصبة ، شانها في ذلك شان معظم الاحزاب الاخرى . والحقيقة ان العصبة لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى الصحيح للحزبية ، فكانت تمثل في برنامجها رأي الفئة المثقفة انذاك ،كما انها تعتبر اول بـذرة لنشوء الاحزاب القومية بعد الحرب العالمية الثانية .

نال المرشح شهادة الماجستير برسالته « الاحزاب السياسية في سورية بين ١٩٢٠-١٩٣٩» باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

الهوامش :

(١) محمد عزة دروزة القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها الجزء الاول دمشق ١٩٨٤ص٣٠.

(٢) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل ـ لبنان ـ ١٩٣٣ .

(٣) المصدر السابق صفحة ـ ٣ـ ساهمت عصبة العمل القومي قبيل اعلان بيانها في دراسة الوضع السياسي في سورية الناجم عن مشروع المعاهدة السورية الفرنسية ـ التي اعدها المفوض السامي « بونسو Ponsot» سنة ١٩٣٣ ـ وسياسة « التفاهم النزيه » الذي سارت عليها الكتلة الوطنية.

(٤) المصدر السابق صفحة ٣

(٥) المصدر السابق صفحة ٤

(٦) المصدر السابق صفحة ٥و٦

(٧) المصدر السابق صفحة ٨ .

(٨) المصدر السابق صفحة ٨و٩ .

(٩) المصدر السابق صفحة ١٠و١١ .

(١٠) المصدر السابق صفحة ١١

(١١) المصدر السابق صفحة ١٥ .

(١٢) منهاج عصبة العمل القومي المادة (١٠) من وثائق المحامي سعيد ابو الحسن امين فرع عصبة العمل القومي في مدينة السويداء .

(١٣) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ١٦.

(١٤) المصدر السابق صفحة ١٧ .

(١٥) المصدر السابق صفحة ٢٠ .

(١٦) منهاج عصبة العمل القومي المواد (٣ـ٨ـ٩ـ١١) .

(١٧) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بالسويداء بتاريخ ١ـ٩ـ١٩٨٤ . ولديه المعلومات المتعلقة بالهرم التنظيمي لعصبة العمل القومي .

(١٨) كانت التشكيلات شبه العسكرية قد انتشرت في منطقة الشرق الاوسط خلال الثلاثينات من القرن العشرين ، وكانت تعتبر اسلوبا من الاساليب التي لجأ اليها العرب لمقاومة سلطات الانتداب. ففي سورية تشكلت فرق القمصان الحديدية وحزب الفتوة وفي لبنان تشكل حزب الكتائب اما في العراق فقد ظهرت منظمة الفتوة ، كما تاسس في مصر حزب مصر الفتاة .

(١٩) مذكرات مخطوطة غير منشورة للمجاهد فوزي زكي الحموي احد مجاهدي الثورة السورية وايضا: Khoury, Philips ,. **Syria and the French Mandate** (unpublished Dessertation For the Degree of Doctor of Philosophy) Harvard university, Cambridge Massachusetts, May 1980, vol, 3, P,1145.

(٢٠) مجلة العرب الصادرة في القدس العدد ٣٤ تاريخ ٢٩ نيسان١٩٣٣.

(٢١) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ٢٦و٢٧ .

(٢٢) صحيفة القبس الدمشقية بتاريخ ١٢تشرين الاول ١٩٣٤ .

(٢٣) مذكرات المجلس النيابي السوري جلسة ٢٨ كانون الاول ١٩٣٦ صفحة ١٣٢.

(٢٤) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بتاريخ ١٩٨٤/٩/١ . وقد اكد بان العصبة قدطردت كلا من صبري العسلي واحمد الشرباتي من صفوفها لقبولهما بالمعاهدة .

(٢٥) منير الريس الكتاب الذهبي لتاريخ الثورات الوطنية في المشرق العربي ـ ثورة فلسطين ١٩٣٦ صفحة ٢٩٢ .

(٢٦) لواء الاسكندرونة الشهيد اصدار عصبة العمل القومي دون مكان دون تاريخ صفحة ٤٥و ٤٦. ويبدو ان موقف العصبة في اللواء المؤيد للمعاهدة مخالف لموقف العصبة بوجه عام .

(٢٧) المصدر السابق صفحة ٥٤ . كانت عصبة الامم بعد ان اثارت تركيا قضية اللواء ـ قد عينت في اواخر عام ١٩٣٦ لجنة دوليةاوفدتها الى لواء الاسكندرونة لدراسة وضعه ، وقد تالفت هـذه اللجنة من : المسيوكارون (Caron)، هولندي والمسيوهانز هولشتاد(Hans Holstad) نرويجي . والمسيو شارل فون فاتنفيل (Von wattenwyl) سويسري . وقد وصلت هـذه اللجة الى اللواء في ١٩٣٦/١٢/٣١ وباشرت اعمالها . انظر مجيد خدوري قضيةالاسكندرونة دمشق ١٩٥٣ صفحة ٤٣ .

(٢٨) لـــواء اسكندرونة الشهيد صفحة ٦٧ .

(٢٩) النص الكامل لبيان العصبة في المصدر السابق صفحة ٩٧.

(٣٠) شارك في المؤتمر من عصبة العمل القومي كل من (عبد الكريم العائدي، زكي الجابي ، احمـد الشهابي ، ابو الهدى اليافي ، زكي الارسوزي ، ثابت العزاوي ، عبد الدائم الاتاسي ، عرفان الجلاد ، عبد الكريم الفياض الدندشي، شفيق سليمان ، علي ناصر الدين ، اكرم زعيتر، واصف كمال) انظر فؤاد مفرج المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧ دمشق صفحة ٢١-٣٤.

(٣١) اكرم زعيتر يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ بيروت ١٩ صفحة ٣٨٤-٥٧٢.

(٣٢) المصدر السابـق صفحـة ٥٥٨ ـ ٥٦٤ .

(٣٣) Ziadeh, N., Syria and Lebanon, N. V 1956, P. 199.

بعض مظاهر التنظيم الإداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا ، ١٨٣١ - ١٨٤٠

فندي أبو فخر

مرشح للماجستير

كانت التقسيمات الادارية في بلاد الشام ابان الحكم العثماني لها ، وقبيل خضوعها لحكم محمد علي باشا ، خلال عامي ١٨٣١ ـ ١٨٣٢ م تشتمل على أربع ولايات هي :

أ ـ ولاية الشام(١) : ومركزها مدينة دمشق وكانت تمتد من معرة النعمان حتى العريش . بيد أن ثورة واليها العثماني جان بردي الغزالي في تشرين الاول من عام ١٥٢٠ م ، جعلت السلطان العثماني يعيد النظر في حدودها هذه ، بعد أن قضى على هذا الثائر في مطلع عام ١٥٢١م ،(٢) بشكل يمكنه من السيطرة عليها ومنع قيام ثورات اخرى ، فاقتصرت حدودها على المنطقة الممتدة ما بين دمشق والعريش ، وضمت منذ ذلك الحين ، بالاضافة الى لواء دمشق ، الالوية التالية : القدس ، غزة ، نابلس ، صفد ، عجلون ، اللجون ، صيدا ، بيروت ، الكرك والشوبك ، تدمر .

ب ـ ولاية حلب(٣) : ومركزها مدينة حلب . وكانت تضم بالاضافة الى لواء حلب الالوية التالية : اضنة ، كلس ، بير جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان وتركمان ، واعزاز .

ج ـ ولاية طرابلس(٤) : ومركزها مدينة طرابلس ، وتتألف من الوية طرابلس ، حمص ، حماه ، السلمية ، الحصن ، جبلة ، اللاذقية .

د ــ ولاية صيدا(٥) : ظهرت هذه الولايــة في عام ١٦٦٠م(٦) ، بعد أن سلخت صفد وصيدا مع بيروت وصور وعكا عن ولاية الشام ، لتتشكل منها ولاية صيدا ، وذلك بقصد اخضاع سكان لبنان ، وقطع الطريق عليهم لمنعهم من القيام بأيــة ثورة او اية محاولة استقلالية عن السلطنة ، وجعل مقرها مدينة صيدا نفسها .

وكان جبل لبنان يتمتع بوضــع اداري خاص في ظل الامراء المعنيــين ، بعد أن اعترف بهم السلطان سليم الاول ، طالما وقفوا الى جانب العثمانيين ، والتزموا بتقديم الطاعة والضرائب لسلطنتهم ، ثم خلفهــم في الحكم الامــراء الشهابيون منذ عــام ١٦٩٧م في(٧) ، بعد وفاة الامير احمد المعني الذي توفي عقيما ، فاختار اعيان الجبل ابن اخته الامير بشير بن حسن الشهابي أمير راشيا خلفا له . وتوالى من بعده على الحكم الامراء الشهابيون حتى عام ١٨٤٠ م .

وبعد ان سقطت مدينة عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ م استطاعت قوات محمد علي باشا في النصف الثاني من العام نفسه أن تجتاح بلاد الشام ، وتصل في مطلع ١٨٣٣ م الى كوتاهيــة . ومنذ ذلك الحين أصبح ابراهيم باشا ، ابن محمد علي باشــا ، قائــدا وحاكما(٨) عاما لبلاد الشام ، كما اصبحت القاهرة المرجع الاعلى لسلطاتها الادرايــة والقضائية والسياسية والعسكرية ، مما يشير الى خضوع هذه البلاد لحكم مركزي في مصر ، بعد أن كانت خاضعة للسلطان العثماني في الاستانة ، ثم بدأ ابراهيم باشــا بتطبيق انظمته الادارية الجديدة بعد أن ألغى التقسيمات الادارية التي كانت سائــدة ابان الحكم العثماني ، وجعل مقر اقامته في مدينة انطاكية(٩) على مقربة من الحــدود السورية ــ التركية ، وذلك لاسباب عسكرية بحتة ، كي يتمكن من مراقبة تحركات الجيش العثماني ، لمنعه من القيام بأي اجتياح عسكري لبلاد الشام من شأنه ان يهدد سلامة حكمه فيها .

وكان ابراهيم باشا قد وجه متسلمين للمدن الساحلية(١٠) كصيدا ، وصــور ، وطرابلس ، وبيروت ، بعد ان سيطرت قواته عليها في كانون الاول من عام ١٨٣١م كما عين منيب أفندي(١١) متسلما لمدينة عكا بعد أن سقطت بيده في ٢٧ أيار عام ١٨٣٢ ، وطلب من أبيه تعيين حاكم عام لبلاد الشام ، ليتمكن من حمايتها من الاخطار المحدقة بها ، طالما أنه كان يرى أن بقاءه قرب الحدود الشمالية ضرورة ملحة من جهة وليتمكن أيضا من الاشراف على شؤون الحكم ، ومراقبة أعمــال كبار الموظفين والحكام وفــق التقسيمات الادارية الجديدة من جهة اخرى .

وكان محمد علي بدوره قد استجاب لرغبة ابنه هذه ، فعين محمد شريــف(١٢) باشا احد انسبائه حاكما عاما على بلاد الشام في خريف عام ١٨٣٢ م ، وجعله مرتبطا مباشرة بابنه ابراهيم ، كما جعل مقر اقامته مدينة دمشق ، مما يشير الى ان محمد علي جعل هذه المدينة مركزا لادارته في بلاد الشام .

بيد ان محمد شريف باشا هذا لم يكن يتمتع بصلاحيات الحاكم العام في البلاد كما يظهر ، حيث كانت شخصية ابراهيم باشا تعتبر المرجع الاعلى في الشؤون الادارية والسياسية العامة ، وهي المخولة بتعيين كبار الموظفين من متسلمين وغيرهم . ففي تشرين الاول من عام ١٨٣٢(١٣) ، وبعد تنصيب محمد شريف باشا في منصبه هذا، فوض ابراهيم باشا الامير بشير الشهابي ، الذي اعلن ولاءه للحكم الجديد ، بتسمية متسلمين للمدن الساحلية كصيدا وصور وبيروت .

وفي أعقاب صلح كوتاهية في أواسط شهر ايار من عام ١٨٣٣ بين السلطان العثماني ومحمد علي ، قام ابراهيم باشا برفع سلطة الامير بشير عن المدن الساحلية المذكورة ووجه عليها متسلمين جدد حدد اسماءهم بنفسه ، دون ان يكون لحاكم الشام دورا ملحوظا في ذلك . غير ان ذلك لا ينفي ان محمد شريف باشا كان يقوم بتسمية متسلمين لبعض المدن الفلسطينية كالقدس(١٤) ويافا وغيرها على سبيل المثال ، لكن هذا الامر لا يثبت انه كان يتمتع بصلاحيات الحاكم العام لبلاد الشام .

وكان ابراهيم باشا قد قسم بلاد الشام الى ثلاث مديريات بدلا من الولايات، هي دمشق الشام ، وطرابلس ، وصيدا ، وعلى رأس كل منها مدير مهمته ادارة شؤون الحكم العامة فيها ، وجعل هذه المدن مركزا لهذه المديريات ، ونصب الشيخ حسين(١٥) عبد الهادي في أعقاب القضاء على انتفاضة فلسطين في النصف الثاني من عام ١٨٣٤م مديرا على مديرية صيدا ، وذلك بسبب اخلاصه للحكم الجديد ، بعد ان كان متسلما على مدينة عكا منذ كانون الثاني من عام ١٨٣٤ بعد متسلمها السابق منيب أفندي . وظل الشيخ حسين عبد الهادي يشغل هذا المنصب الى ان وافته المنية في النصف الثاني من عام ١٨٣٧ م ، فخاطب ابراهيم باشا الشيخ سليمان عبد الهادي احد ابناء الشيخ حسين قائلا :(١٦) « قدوة الاماجد الشيخ سليمان صار معلومنا اعراضكم بخصوص وفاة الوالد والحال من المعلوم ان ذلك بأمر الله تعالى مقدرا محتوم وكل منا داخل بعموم هذه القضا المرسوم فلا يقتضي تفكيركم من هذا البحث ». ثم عين الجنرال سيف (١٧٨٨ — ١٨٦٠) على مديرية صيدا(١٧) لثقة الحكم الكبيرة به، ولخبرته العميقة بشؤون الاجانب الذين كانوا يقيمون في المدن الساحلية التابعة لهذه المديرية .

ثم اضطر ابراهيم باشا نتيجة للصعوبات الداخلية التي كانت تواجه حكمه الى فصل حلب عن مديرية الشام (دمشق) ، وجعلها مديرية رابعة ، وعين اسماعيل عاصم(١٨) بك مديرا عليها في عام ١٨٣٨م .

وهكذا اضطر ابراهيم باشا ، خلال الفترة من عام ١٨٣٢ — الى عام ١٨٣٨م ، ان يعيد التشكيلات الادارية التي كانت سائدة زمن العثمانيين بتسميات جديدة ،

فاصبحت بلاد الشام مقسمة الى أربع مديريات بدلا من أربع ولايات ، بالاضافة الى استمرار وضع امارة(١٩) جبل لبنان كما كان عليه سابقا ، لكون الامير بشير الشهابي كان من أشد المخلصين للحكم الجديد . وقد ضمت هذه المديريات الاربع اثنين(٢٠) وعشرين قضاء ، وثماني وعشرين ناحية ، وأكثر من ألف ومائة مدينة وبلدة وقرية ومزرعة ، وكانت مديرية دمشق (الشام) اهم هذه المديريات كما كان لواء دمشق ايضا أهم الويتها ، وقد ارتبطت به اقضية بعلبك والبقاع ودوما والنبك ، ووادي العجم ، وحاصبيا وراشيا ، بالاضافة الى مدينة دمشق نفسها . وكان لواء حوران التابع لمديرية دمشق يضم اقضية عجلون ، والقنيطرة وبصر الحرير ، ودرعا ، وجبل حوران الذي هو اصغر هذه الاقضية واقلها مساحة .

لقد استطاع ابراهيم باشا الغاء التقسيمات الادارية التي كانت سائدة ابان الحكم العثماني ، وجعل من المديريات الاربع وحدة ادارية وسياسية تابعة لمركز الحكم في عاصمة عربية في مصر بدلا من تبعيتها الى عاصمة اجنبية خارج حدود البلاد العربية ، غير انه عجز في حقيقة الامر عن ابقاء هذه الوحدة متماسكة ومستقرة لاسباب رئيسية اهمها :

١ ــ عجزه عن تحمل اعباء الحكم والادارة وقيادة الجيش ، وفرض الامن . والتهيؤ الدائم للدفاع عن البلاد بسبب ضخامة هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقه كقائد وحاكم عام لبلاد استولى عليها بالقوة .

٢ ــ بعد مقر اقامته في انطاكية عن المدن الهامة والرئيسية في البلاد ، الذي حال دون تمكنه من مراقبة مايجري فيها عن كثب ، وضبط الجهاز الاداري ومراقبة اعماله .

٣ ــ استمرار الانتفاضات ضد حكمه في فلسطين وجبال العلويين ، وجبل حوران ، التي هدرت قسما كبيرا من قدراته العسكرية والمالية ، واتاحت للدول الاوربية التدخل في شؤون حكمه الداخلية ، عبر دبلوماسييها وقناصلها وتجارها في بلاد الشام ، بشكل متزايد ، فاتسمت سنوات حكمه بالاضطراب والقلق والتبديل المستمر للرؤساء الاداريين في المدن الشامية المختلفة ، لاسيما الساحلية والفلسطينية منها .

الهيكل الاداري للحكم :

كان ابراهيم باشا نائب والده في حكم بلاد الشام وراس الادارة فيها ، وهو الذي كان يتلقى أوامر والده ويقوم بتنفيذها بحذافيرها ، يساعده في ذلك مرؤوسوه من كبار الموظفين والحكام أو المديرين بالاضافة الى الشخصيات الاخرى مثل الطبيب الفرنسي كلوت بك (١٧٩٣ ــ ١٨٦٨ م)(٢١) ، وحنا البحري ، والامير بشير

الشهابي (١٧٦٧ - ١٨٥٠م) . وكان الهيكل الاداري للحكم في البلاد موزعا على الشكل التالي :

الحاكم العام لبلاد الشام : شغل هذا المنصب محمد شريف باشا ، غير ان وثائق الحكم لتلك الفترة لم تؤكد على تمتعه بصلاحيات هذا المنصب بشكل كامل كما مر معنا سابقا .

المدير(٢٢) : وكان يراس كل مديرية من المديريات الاربع موظف كبير من الحكام، يدعى مديراً ، بدلا من الوالي ، ويأتي من حيث الاهمية بعد ابراهيم باشا . وكان يقوم بممارسة الحكم وادارة شؤونه الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية ، ويسهر على حفظ الامن ورعاية مصالح الدولة في مديريته .

المتسلم(٢٣) : يلي المدير من حيث الاهمية الادارية موظف يدعى المتسلم ، فقد سمي لكل مدينة متسلم بمثابة الرئيس الاداري فيها « ونصب لكل بلدة متسلما من اهل الاسلام ومرجع الكل هو مركز الحكم في الشام » . وكان المتسلم يتلقى أوامر المدير وكبار الحكام ويقوم بتنفيذها ، ويسهر على رعاية مصالح الدولة المختلفة في مدينته .

وكيل المتسلم(٢٤) : ويأتي بعد المتسلم من حيث الاهمية موظف اداري يدعى وكيل المتسلم ، كان يقوم مقامه في حال غيابه ، ويشاركه اعباء الحكم اليومية ،وكان يقوم ، على سبيل المثال لا الحصر ، بمخاطبة الجهات الادارية الادنى والاعلى لتسيير شؤون الحكم المختلفة مثل المجالس المحلية ، والقاضي الشرعي والمحتسب وغيرهم ، كما كان يتلقى رسائل وكتب صادرة عن هذه الجهات ، خاصة في غياب المتسلم ، أو في حال عدم قدرته على مزاولة عمله .

المباشر(٢٥) : وهو بمثابة امين سر المتسلم ومدير ماليته ، ويقوم بالاشراف على تنظيم حسابات المالية واموال الميري ، وتنظيم الضرائب ، ويتبع هذا الموظف من الناحية المالية لمدير المالية في بلاد الشام حنا البحري ، الذي كان بمستوى كبار الحكام، لما كان يتمتع به من صلاحيات كبيرة ومختلفة .

المجالس المحلية(٢٦) : شكل ابراهيم باشا في بلاد الشام ، على غرار ما جرى في مصر ، وفي كل مدينة يبلغ عدد سكانها من عشرين ألف نسمة وما فوق ، مجلسا محليا يضم ممثلين عن الطوائف الدينية ، وكبار التجار والاعيان فيها .

محافظ بيروت(٢٧) : تميزت مدينة بيروت عن بقية المدن الشامية الاخرى

بانفرادها بهذه الوظيفة الادارية التي أضيفت الى الجهاز الاداري فيها ، نظرا لاهميتها كميناء تجاري هام يطل على العالم الخارجي ، ولتواجد التجار الاجانب بشكل كثيف ودائم فيها . وهذا ما جعلها ذات أهمية اقتصادية واجتماعية وسياسية بارزة ، دفعت الادارة الجديدة الى خلق هذه الوظيفة الادارية المميزة بفرض السيطرة على مقاليد الحكم فيها واستيعاب نشاطها الاقتصادي المتزايد. وقد انيطت بمحافظ بيروت بالاضافة الى اشرافه على مصالح الحكومة في المدينة ، مهمة الاشراف على شؤون الاجانب التجارية ، وما ينجم عنها من مشاكل متعلقة بالدولة ، كما كان يحيل دعاوي السكان الى الجهات المختصة لبحثها والبت فيها ، مثله في ذلك مثل المتسلم ووكيله .

شيخ القرية(٢٨) : وكان في كل قرية شيخ يدعى شيخ البلد (شيخ القرية) يتولى رعاية مصالح الحكومة في قريته ، ويقوم بمساعدة صغار المأمورين والموظفين الذين كانوا يمارسون أعمال الادارة فيها ، كجباة الضرائب الذين يقومون بتحصيل الاموال العامة . ولشيوخ كل منطقة شيخ يشرف على شؤونهم ويكون ويكون صلة بينهم وبين الادارة يسمى شيخ المشايخ ، ويقوم بتنفيذ سياسة الحكم وتوجيهاته .

الناظر(٢٩) : وكان لكل مصلحة من مصالح الحكومة موظف يشرف على شؤونها، ويكون صلة الوصل بين السلطة الادارية وبين العاملين فيها ويدعى بالناظر ، كناظر مدبغة الميري ومملحة الجبول ؛ والبريد ، وشؤون الابنية ، والافران وغير ذلك .

ناظر النظار(٣٠) : ويشرف على نظار كل مصلحة من المصالح ويدير أعمالهم ، كناظر نظار المخابز ، وناظر نظار القرايا .

وكيل الجمارك(٣١) : وهو موظف يدير شؤون الجمارك ويرعى مسالة تحصيل الرسوم الجمركية المطلوبة ويعمل على تنظيمها ، ويطالب بتحصيل الاموال المتأخرة على بعض التجار ، ويرسل قائمة باسماء من تأخر منهم عن تسديد الرسوم المترتبة عليه الى الجهات الاعلى من اجل القيام بالاجراءات اللازمة ولدفعها لموظفي المالية كالمباشر مثلا في المدن الشامية .

وقد شهدت مدينة بيروت بوصفها ميناء البلاد الرئيسي ، نشاطا لوكيل الجمارك فيها ، وكان التجار الاجانب يدفعون رسوما على بضائعهم تتراوح ما بين نصف الى ثلاثة بالمئة ، بينما كان يدفع التجار الوطنيون رسوما تتراوح(٣٢) مابين٦و١٢ بالمئة ، ما جعل قسم من التجار الوطنيين يعمل باسم التجار الاجانب للتخلص من الرسوم الباهظة مقابل اعطاء التاجر الاجنبي ما نسبته ثلاثة بالمئة من قيمة بضائعهم .

المحتسب(٣٣) : وهو موظف مكلف بالاشراف على اسعار السلع والبضائع في الاسواق العامة والمحلات التجارية ومراقبتها ، والقيام بالاجراءات المناسبة لمنع الغش والتلاعب ، واعلام الجهات الادارية بالمخالفات العامة .

ومن الجدير بالذكر أن بلاد الشام لم تعرف ذلك التوسع في الجهاز الاداري الذي عرفته مصر ، كانشاء الدواوين المختلفة مثل ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وديوان الخديوية (وزارة الداخلية) وديوان المدارس ، وديوان البحر ، وديوان التجارة والصناعة والمالية . غير ان الحكم كلف حنا البحري بالاشراف على تنظيم الشؤون المالية في بلاد الشام ومنحه لقب مدير ماليه ، واخضعه لديوان الايرادات (المالية) في مصر ، كما كلف كلوت بك بالاشراف على شؤون التعليم بشكل شخصي ، دون احداث هيئة ادارية تشرف على ذلك ، مثلما كلف كبار الحكام بالاشراف على الشؤون التجارية والزراعية والحربية والامنيه ، دون الارتقاء الى مستوى تنظيمي مماثل لما جرى في مصر . وبذلك اقتصرت اجراءات الحكم الادارية على اعادة تنظيم الجهاز الاداري وادخال بعض المظاهر الجديدة فيه دون الوصول الى المستوى الذي وصلت اليه في مصر .

تنظيم السلطات القضائية :

كان القضاء في بلاد الشام ، ابان حكم السلطان العثماني ، واضح المعالم لاغموض فيه والمراجع القضائية واضحة ومعروفة، وقد كانت السلطات العثمانية تكفل حرية المحاكم القضائية . وكان العدل في الاحكام القضائية يتوقف على نزاهة القاضي الشرعي الذي كان يبت في القضايا المدنية(٣٠٤) ، وعلى نزاهة الباشا او كاخيته (نائبه) الذي كان يبت في القضايا الجزائية .

غير ان ذلك لا يعني ان القضاء ايام العثمانيين كان سليما من الامراض والسلبيات، فقد كان السلطان العثماني يقوم بتعيين المفتي الذي يقوم بدوره بتعيين القضاة بطرق لم تكن مستقيمة بشكل دائم ، مما يؤدي الى الابتزاز واللجوء الى سبل غير سليمة في اجراءات المحاكمة .

اما حكومة محمد علي باشا ، فقد حاولت تنظيم القضاء على اسس حديثة مستمدة من نمط القضاء الفرنسي ، فجعلت من القاهرة مرجعا اعلى للسلطات القضائية في بلاد الشام ، فكانت الدعاوى ترسل الى مصر ، عند ضرورة تمييزها، لاعادة النظر فيها والبت فيها بشكل نهائي . وهذا ما يشير ايضا الى اضفاء طابع الحكم المركزي على كل مؤسسات ادارة محمد علي في بلاد الشام ، واخضاعها لمركز الحكم في مصر .

ومن الجدير بالذكر ان ابراهيم باشا لم يقدم على اتخاذ اي اجراء من شانه المساس بالقضاء الشرعي، الذي بقي تابعا(٣٥) للعثمانيين من جهة ، ولان القضاء الشرعي يعد مظهرا من مظاهر الحياة الدينية لمعظم المواطنين في بلاد الشام ، مما يوجب

على الادارة الجديدة مراعاة مشاعر هؤلاء المواطنين لتجنب اثارة الراي العام الديني من جهة اخرى ، في وقت لاتتعارض فيه عقلية محمد علي مع الاطار الفكري الديني السائد آنذاك . ولقد حاولت ادارة محمد علي ان تجعل السكان ، على اختلاف طوائفهم ، سواسية أمام القضاء المدني ، لا فرق بينهم ولا تفضيل لطائفة دينية على الاخرى ، فألغى الفروق بين المسلمين وغيرهم من الناحية الشكلية دون المساس بجوهر الفوارق الاجتماعية القائمة .

ولوضع حد للرشوة والفساد في السلك القضائي ، عمد ابراهيم باشا الى معاقبة المرتشي بعقوبات رادعة ، ومنح العاملين في القضاء رواتب(٢٦) معلومة كبقية الموظفين ، بعد أن كانت رسوم الدعاوى مصدر رزقهم .

وبعد احداث المحاكم الجديدة وزع ابراهيم باشا الاختصاصات القضائية بين سلطات متعددة اهمها :

ـ قاض في كل مدينة مهمته(٢٧) البت في المنازعات التي تنشب بين الاهلين ، والنظر في القضايا الجزائية .

ـ محكمة مؤلفة من قاض(٢٨) وعضوين وكاتب لتسجيل محاضر جلساتها ، ومركزها مدينة دمشق ، سميت بالمحكمة العليا .

ـ قاض للقضاة كان بمثابة محكمة الاستئناف وله حق النظر في الدعاوى المستأنف عليها . وكان لابراهيم باشا حق الحكم بالاعدام بعد المحاكمة ، وتصديق حكم الاعدام الصادر عن كبار الحكام كشريف باشا والجنرال سيف ، واسماعيل بك وغيرهم من الذين منحوا حق اصدار الحكم بالموت .

كما كان لمجالس المدن حق النظر في قضايا الادارة البلدية المتعلقة بشكاوى المواطنين المقدمة اليها .

ومن الجدير بالذكر ان القضاء الشرعي استمر في تأدية مهامه كما كان في سابق عهده ، وخير ما يشير الى ذلك سجلات المحاكم الشرعية(٢٩) في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، فكان لكل محكمة كاتب ومحرر ومقيد ، بالاضافة الى القاضي الذي كان يصدر الاحكام القضائية .

وكان المتخاصمون على مال الاوقاف ، والاجار والاستئجار ، والبيع والشراء ، والدين يتقدمون بدعاويهم الى المحاكم الشرعية للبت فيها .

يتضح مما سبق ان صلاحيات القضاء ايام حكم محمد علي باشا كانت موزعة بين جهات عديدة لم تحدد صلاحياتها بشكل واضح ، فاختلطت مهامها مع بعضها ، وبالتالي كان من الصعب على المواطن العادي معرفة الجهات المسؤولة والمختصة لتقديم شكواه اليها.

المجالس المحلية وطبيعتها :

عني ابراهيم باشا بتنظيم مختلف مفاصل الجهاز الاداري في بلاد الشام ، بشكل يحقق رغبته في جعلها وحدة ادارية متماسكة ، تشكل بعدا استراتيجيا وسياسيا لمصر ، فانشأ مجالس محلية سميت بمجالس المشورة ، تمثلت فيها الطوائف الدينية المختلفة ، لتكون مع غيرها من التشكيلات الادارية الاخرى اداة الحكم الفاعلة ، كما جرى في مصر .

وقد كان لاحتكاك الفرنسيين بالمصريين اثناء حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١ م اثر واضح في مختلف اوجه وأنماط الحياة الادارية والسياسية لحكم الرجل الذي جاء ليشارك في طرد هذه الحملة من مصر . فالديوان الاستشاري(٤٠) الذي شكله نابليون بونابرت في مصر ، والذي ضم عددا من ممثلي الطوائف الدينية وبعض كبار المشاريخ والاعيان والتجار المصريين ، بقي ماثلا للعيان ، ومؤديا الى فكرة مفادها ان هذا التمثيل الشعبي مستحدث وجديد في تاريخ المنطقة ، حتى بولغ في وصف هذه الظاهرة لدرجة تجاهلت فيها وظيفة الدواوين في الدولة العثمانية كالديوان الكبير والديوان الصغير ، اللذين كانا يضمان ممثلين عن كبار التجار والاعيان ونقيب الاشراف ، وينظران في المسائل الهامة . ولما كان محمد علي داعية للاصلاح والتقدم والتحديث ، فلا بد له من ان يتخذ من ذلك المظهر الاوربي التمثيلي الذي جاء به بونابرت صورة مثلى ، لما سيقوم به من اصلاحات ادارية ، كبناء مؤسسات جديدة على النمط الاوربي.

وعلى نحو ماجرى في مصر ، سار ابراهيم باشا في بلاد الشام ، وانشأت ادارته مجالس مشورة في المدن الكبرى ، مثلت فيها كل الطوائف الدينية ، فضم مجلس مدينة دمشق واحدا وعشرين عضوا وضم مجلس مدينة بيروت اثني عشر(٤١) عضوا مناصفة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان ناظره مسلما .

كما كان لكل مجلس من هذه المجالس كاتب يحضر يوميا الى مقر(٤٢) المجلس قبل حضور الاعضاء ، ويقوم بتسجيل اسماء اعضاء المجلس ، حسب حضورهم بالتتالي ، ويرتب الاعمال اليومية التي ستعرض على المجلس في دوامه اليومي والتي تعد عملا يوميا يجب انجازه في ذات اليوم . واما في حال عدم تمكن المجلس من انجاز عمله اليومي هذا ، فعلى اعضائه الحضور الى مقر عملهم في اليوم التالي قبل ساعة الدوام

الصباحية ، لانهاء ما تبقى من عمل الامس قبل بداية الدوام الرسمي، ثم تسجل الاعمال المنجزة هذه في اليوم الذي انجزت فيه .

وكانت صلاحيات كاتب المجلس كبيرة ، لدرجة لا تظهر فيها اهمية ناظر المجلس الا عند التصديق على محضر الاجتماع ، فقد كان هذا الكاتب يطلب من الاعضاء الادلاء بأرائهم كل حسب خبرته ، ويضبط سير الاجتماع ، وينبه من ينشغل باحاديث جانبية مع الاخر ، معتبرا ذلك خروجا على المصلحة العامة ، ثم يقوم بتدوين اسم كل من ينشغل بمثل هذه الاحاديث وبتدوين اقوال الاعضاء دون زيادة اونقصان في مسودة المحضر .

وفي اليوم الثاني يعود الكاتب لتلاوة محضر الاجتماع بصوت عال ، ليتيح للاعضاء الفرصة اللازمة لتعديل ارائهم او توضيحها ، او اضافة شيء جديد عليها ، اذا لم تكن مكتوبة بالشكل الذي كان يقصده هذا العضو او ذاك ، ثم يقوم الكاتب بتبييض المحضر وتقديمه لناظر المجلس لتوقيعه ومهره بخاتم المجلس ، واحالته الى الحاكم أو المتسلم من اجل تنفيذ مضمونه . وكانت خلاصة المذاكرة هذه تدون تحت اسم قرارات .

وكانت هذه المجالس بحاجة الى مراقبة دائمة للقيام بواجباتها على وجه امثل، فقد لاحظ ابراهيم باشا تراكما في اعمال مجلس مدينة دمشق أهم مجالس المدن الشامية لسنة ونصف السنة ، فعالج هذا التقصير معالجة سريعة وأمر(٤٣) « بحبس أعضائه في قاعة المجلس الى ان يتموا رؤية الشؤون الموقوفة » ثم قام باعلام القاهرة بهذه الحالة السيئة التي آلت اليها مجالس المدن ، وطالب بتعيين مفتش يقوم بمراقبة أعمالها ، ويكون عملها تحت اشرافه .

واذا كانت هذه هي حال مجلس مدينة دمشق ، فكيف ستكون حال المجالس الاخرى في المدن الشامية المختلفة .

واذا كانت هذه المجالس المحلية تعبر عن بعض طموح الحكم في خلق مؤسسات جديدة ، وفق اسلوب عمل يوحي بانه يمثل نمطا تمثيليا جديدا مستوحى من الغرب، فان هذه المجالس كانت صورة عن مثيلتها في مصر ، كاحدى ادوات السلطة لفرض هيمنتها على المجتمع الشامي ، ولتسد اعيان وكبار تجار المدن ضمن اطار تمثيلي طائفي ووضعهم داخل دائرة نفوذها ، وجعلهم احدى ادواتها لظلم الاهلين من خلال حل بعض مشاكلهم المتعلقة بالحكم ، وفق القاعدة السائدة انذاك(٤٤) « وبما ان الميري يلزم له المراعاة » والمتضمنة اخضاع مصالح السكان لمصالح الدولة ، وذلك بحكم ارتباط مصالح كبار الاعيان والتجار بمصالح الحكومة بشكل يتناقض مع مصالح القاعدة

الاجتماعية العريضة التي تقوم عليها الدولة ومؤسساتها . فالسكان الذين يعملون ويقدمون للدولة ماتشاء ،كانوا يظلمون مرتين ، الاولى من قبل أعيانهم وكبارتجارهم، والثانية من قبل الجهاز الاداري الذي يمثل ارادة الحكم ، فقد ذكر محمد علي كردعلي، على لسان شيخ معمر أدرك جيش ابراهيم باشا في الشام ، مسألة تعسف كبار الاعيان بحقوق الفلاحين فقال(٤٥) « ان سبب خروج الاملاك من ملك الفلاحين الى الافندية، ان كل ما كان يقع من دين ومظلمة وغيرها كان يلقى على (حجر الضيعة) أي على حساب الضيعة كلها ، فتجمعت هذه الديون على القرية حتى اضطر أهلها الى بيعها بأرخص الاثمان صفقة واحدة ، ومن الفلاحين من تشردوا في القرى او من ارتضوا بان يكونوا فلاحين عند ارباب الاملاك الجدد ، واوشكت دوما أكبر قرى الغوطة في القرن الماضي ان تغرقها الديون ، واراد أهلها ان ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الاخر » .

ومن غير الممكن أن يقف الجهاز الاداري الى جانب هؤلاء الفلاحين، مادامت الدولة وموظفيها وكبار الاعيان يقفون في جهة متناقضة مع الفلاحين ومصالحهم .

في هذه الظروف يصبح أعضاء المجالس ، على ما يبدو ، مجرد أداة لتنظيم الظلم وتوسيع دائرته ، طالما انهم قد اصبحوا مجرد موظفين اداريين يحضرون الاجتماعات اليومية في الدوام الرسمي ، ويدلون بآرائهم وفق رغبات كاتب المجلس، ويخرجون بقرارات قد تستانف أحيانا من قبل مدير المالية حنا البحري ، الذي اعترض على قرار مجلس حلب القاضي بشراء مادة الصابون لسنة كاملة لحساب الجيش بحجة ان سعر الصابون سينخفض عما كان عليه آنذاك ، عندما يحل موسم استخراج الزيت وصنع الصابون من جهة ، وبسبب تعرض الصابون للجفاف طيلة عام كامل من جهة ثانية مما يلحق بالخزينة اضرارا كبيرة : « فكيف(٤٦) يصوغ الحكم وطبخ الصابون ومن كل بد ان اسعار الصابون تتنازل عن هذه الاسعار فاذا انشرى المقدار بتمامه الان يحصل مغدروية على جانب الميري بالاسعار وفي نشوفة الصابون أيضا » .

وفي وثائق الحكم الكثير من هذه الامثلة التي توضح طبيعة المجالس فقد جاء في مخطوطة نوفل في هذا الاتجاه مايلي(٤٧) « وكانت المذكرات التي تحصل بين الاعضاء تكتب في جريدة بالضبط تحت اسم المتكلم وفي راس كل شهر ترسل تلك الجريدة الى الشام ليراجعها يوحنا بك البحري وينقحها واذا وجد فيها رايا متقدما من احد الاعضاء مخلا بفائدة الميري اعترض عليه وضمن الخسارة لصاحب ذلك الراي لكن لم يقع من ذلك الا ماندر للغاية اذ ان هذه القاعدة اوجبت الاعضاء بان يستوفوا للميري فوق حقوقها ولو اضر ذلك بالاهالي واجحف بحقوقهم » .

فالقول بان هذه المجالس كانت احدى ادوات الحكم المركزي الادارية، التي تختلف في شكلها عن ادوات الحكم العثماني السابق ، يبدو اقرب للواقع من وصفها بانها شكل من اشكال التمثيل الشعبي الذي جاء به محمد علي باشا ، فالظلم الاجتماعي الذي كان يطال السكان من كل الطوائف الدينية ، لم تخف حدته او تضيق دائرته بفعل ذلك التمثيل الذي ظهر في تلك المجالس ، كما ان التمثيل لم يبدل من طبيعة الحكم المركزية لعدة اسباب أهمها :

ـ وقوف هذه المجالس بشكل آلي الى جانب الدولة ، في القرارات المتخذة بصدد الدعاوى المقدمة اليها .

ـ وجود ممثلين عن الطوائف الدينية لا يعني تمثيل الطوائف نفسها ، لكون اعيان وكبار هذه الطوائف المتواجدين في المجالس لا يقلون ظلما للعامة ، من طائفتهم والطوائف الاخرى ، عن الدولة نفسها ، وذلك بسبب ارتباط مصالحهم مع الحكم العثماني من قبل ، ومع الادارة الجديدة من بعد .

وقد يشير الى ذلك وجود موظفين ماليين كبار في مؤسسات الحكم العثماني، فقد ذكر ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ ـ ١٨٨٨م) هذا الامر قائلا «(٤٨) فقد كان ابناء السكروج الروم الارثوذكس ذوي النفوذ الكبير عند الجزار ووظيفتهم ادارة الخزينة والحسابات » كما ذكر أسماء اخرى لعبت دورا هاما في ادارة الجهاز المالي(٤٩) : «وكان كتاب الخزينة المعلم جرجس مسدية وابراهيم الصابونجي وكتاب التحريرات العربية المعلم حنا العورا وهو من المصابين بوحشية الجزار فكان مقطوع الانف وبمعيته أولاده ميخائيل وابراهيم وجميعهم من الماهرين بالخط والانشاء » . وكانت ادارة الخزينة في دمشق تشغل من قبل(٥٠) « بيت فارحي اليهود حينا ، وآل السكروج الارثوذكس ، ويوحنا البحري الكاثوليكي ، الرجل القوى في زمن الحكم المصري في في سوريا » . كما اصبح لبطرس ابراهيم كرامي(٥١) (١٧٧٤ ـ ١٨٥١) الحمصي الاصل منزلة كبيرة في بلاط الامير بشير الشهابي أمير جبل لبنان ، وكذلك الامر بالنسبة لميخائيل مشاقة وميخائيل العورا في عكا ولقد عبر الشاعر الشامي المعروف أمين الجندي الحمصي الاصل(٥٢) (١٧٥٦ ـ ١٨٤٠ م) عن فرحة الناس بما الم بآل فارحي على يد أحمد باشا الجزار والي صيدا ، في قصيدة شعرية نقتطف منها :

نشكو لعلياه ما قاست رعيته	من البلايا وعقد الصبر محلول
كم مرة مكروا بالابرياء وكم	خانوا وزيرا له بالعدل تجميل
وكم الى السجن قادوا غافلا فمضى	منكس الراس بالاصفاد مغلول
حيث الدفاتر عبرانية رقمت	خلاف السننا والسر مجهول
كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على	اهل البلاد وكم قالوا لهم زولوا

وهذا ما يشير الى العلاقة التي كانت تربط هؤلاء بالحكم العثماني ثم بحكم محمد علي باشا في حين ظل المواطن العادي ، فلاحا أم حرفيا ، خارج دائرة اهتمام الحكم ، أيا كان انتماؤه الديني . ولقد افصح الفلاحون لمندوبي الحكومة المكلفين بجباية الضرائب عن كل ما كانوا يدفعونه ايام الحكم العثماني من ضرائب ومصادرات وهدايا(٥٣) « واوهم الفلاحين ان قصد الحكومة من ذلك ابطال ما كان من تلك الاشياء ظلما فترفعه عنهم » لاعتقادهم بحسن نوايا الادارة الجديدة فعلا ورغبتها في تخليصهم من هذه الضرائب وندم الفلاحون غاية الندم على تقاريرهم اذ ما كان قد اخذه الملتزم مرة في العمر مثلا ترتب عليهم مالا سنويا .

علاقة المجالس بالمواطنين :

لابد لهذه المجالس ان تخضع لمصالح الحكم كما كان يتصورها كبار موظفيه . وتظهر علاقتها بالسكان من خلال الشكاوى المقدمة اليها ، ومن خلال طريقة معالجتها، بغض النظر عن سلبية النتيجة او ايجابيتها . اذ ان خروج هذه المجالس بقرارات تؤكد مصلحة الدولة وترجح مصلحة الخزينة على مصالح السكان يعد امرا طبيعيا يستجيب للخط السياسي ـ الاجتماعي الذي يمثله كبار التجار والاعيان في الحياة الاجتماعية للبلاد ، طالما كانت هذه المجالس تقتصر على كبار التجار والاعيان. بيد ان تقديم الشكوى بحد ذاته يحمل عدة دلالات هامة .

١ ـ قيام حكومة محمد علي بوضع يدها على كل ما كانت تراه مناسبا لخدمة مصالحها ، وكل ما كانت تحتاج اليه مما يمتلكه السكان من ملكية خاصة ، او عامة تعود للمجتمع(٥٤) « السيد محمد الحلبي قدم معروض يتضمن أن له دارين بمحلة جب أسد الله بحلب ماخوذين الى ركوبجية الاى٢٢جي » ، وهناك شكوى تشير الى أن الحكومة وضعت يدها على دار احد المواطنين لاستخدامها لمجلس حلب . كما ذكر نوفل نوفل في مخطوطته مايلي(٥٥) « اخذوا جملة جوامع ومدارس نزلوا بهم عساكر مثل الجامع الذي في الخياطين والمدرسة التي بلصق بيت عبد الله باشا والمدرسة التي قاطع حبس باب البريد والجامع الذي بالدرويشية وجامع المعلق » وفي حلب والمدن الاخرى كما في دمشق كانت تضع يدها على المنشآت الدينية والمدارس لتستخدمها كمخازن للتموين ومراكز للاقامة(٥٦) « وكثيرا ما تتعطل المساجد والمدارس لتجمل انابر لوضع الذخائر والمهمات » .

٢ ـ امكان تقديم الشكوى من قبل السكان يشير الى حالة متقدمة من الناحية الفكرية للمواطنين ، تعبر عن ادراكهم للظلم ، وقدرتهم على الاحتجاج عليه باشكال معينة .

٣ ـ مناقشة الشكوى بحد ذاتها ، تشير الى وصول صوت الشاكي الى بعض مؤسسات الدولة والى امكان النظر فيها . فهنالك الكثير من الشكاوى المقدمة الى المجالس المحلية تشير الى شعورهم بالظلم ، كشكوى اصحاب الحرف في ادلب التي تضمنت عدم قدرتهم على دفع ضريبة على اعمالهم الحرفية ، وضريبة اخرى هي ضريبة(٥٧) الشونة التي كانت تفرض على الغلات الزراعية ، لعدم وجود أراضي زراعية لديهم يقومون بزراعتها . كما اشتكى الحرفيون في حلب من ارتفاع(٥٨) سعر الصوف الذي كانت تحتكره الدولة وتبيعه لهم ، وطالبوا بتخفيض سعره بشكل يسمح لهم بالمحافظة على استمرارهم في عملهم، فرفضت الادارة قبول هذه الشكوى لان قبولها يضر بمصلحة الخزينة . وعندما قلل الحرفيون من شرائهم للصوف من الدولة ، أصدر مجلس مدينة حلب قرارا الزمهم فيه شراء كل الصوف الموجود في مستودعات الحكومة .

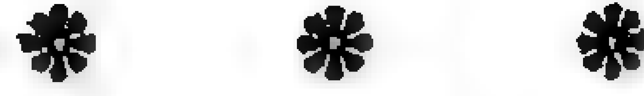
طبيعة التنظيم الاداري :

اتبعت ادارة محمد علي باشا في بلاد الشام في سياستها الادارية مبدا الاعتماد على الاقارب والمقربين لاشغال المناصب والوظائف الكبرى في الجهاز الاداري والعسكري . وعلى الرغم من بعض التغيير الذي طرأ على شكل التنظيم الاداري فقد بقي الجهاز الاداري في قاعدة الهرم الاداري دون تغييرات عميقة تذكر ، كما يشير قنصل النمسا في عكا في رسالة بعث بها الى قنصل دولته في الاسكندرية بتاريخ ٢٦ شباط ١٨٣٣ قائلا(٥٩) « فقد ابقت (الحكومة) تقريبا كل الموظفين القدماء في مناصبهم بدون تمييز بين الصالح وغيره . واتجاسر فاقول انها لم تحسن عملا في ذلك لان الجميع يتشكون من استبداد هؤلاء الموظفين وخاصة المدعو ميخائيل العورا الذي يشغل الان لدى الديوان افندي المنصب الذي كان له في عهد عبد الله باشا . لقد تعود ميخائيل المذكور ان يظلم البريء والفقير ليجلب المياه الى طاحونه ، ولم يعد يخاف ان يقص جنحاه كما كان يفعل عبد الله باشا من وقت الى آخر ليمنعه من ان يطير اعلى مما هو لازم . ان اخاه جبرائيل هو الكاتب الاول في صيدا وان له اخا آخر كاتبا أول في مقاطعة تبنين وملحقاتها . وان عديله حبيب نور كاتب يافا ، وان قريبا له يدعي قسطه سيرافيم يشغل وظيفة كاتب اول في اورشليم القدس فيمكنك ان تتصور سيدي مقدرة هذا الرجل على الشر بمعاونة أقاربه الكثيرين الموظفين في دوائر الحكومة . فلا يستطيع ان يقترب من الديوان انسان قبل ان يقدم رشوة ما للمذكور ، ولكل طلب فئة معلومة . وخلاصة القول ان مظالمه يومية ولا يجسر احد ان يشكوه لئلا يحل به عقاب صارم» .

وفي هذا الاطار نجد ان هناك تجانسا كبيرا يجمع بين قاعدة الهرم الاداري وقمته من حيث اتفاق القاعدة والقمة حول مبدا ظلم السكان ، الذي عبر عنه احد السكان

اللبنانيين بشكل طريف عندما قال(٦٠) « سوف لن نستطيع عما قليل ان نتكلم دون أن نجد واحدا يطلب منا دفع ضريبة على الكلمات التي تلفظنا بها » . لان القاعدة الادارية التي تتكون من موظفين يستحقون العقاب لاتختلف في طبيعتها كثيرا عن موظفي قمة الهرم الاداري التي تنظم ظلم الرعية ، جاعلة من جمع المال فضيلة كبرى .

وهكذا فقد ظلت سياسة ابراهيم باشا في هذا المضمار تسير وفق رغبات والده وتوجيهاته العامة سواء من حيث علاقة الادارة بالسكان ، أم من حيث طبيعة هذه الادارة ، وذلك بغية تمكين حكمها في مصر وبلاد الشام من البقاء والاستمرار .



حصل الباحث على شهادة الماجستير برسالته « بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ، ١٨٣٢ ــ ١٨٤٠ » باشراف الدكتور ذوقان قرقوط .

(١) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ، مطابع الف باء ـ الاديب ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٩٥.

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ثانية ، تحقيق مصطفى محمد القاهرة ، ١٩٦٠ـ ١٩٦٣ الجزء الخامس ، ص ١٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، وأيضا : عبد الكريم رافق ، ص ٥٩ .

(٣) Lammens, Le P. Henri, **La Syrie,précis histiriques**, 2 tomes, Beyrout, Imp. Catholiqne, 1921, t. 2, p.60 .

(٤) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر ، ترجمة انيس فريحة ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ١٩٥٩ ، جـ١ ، ص ٤٤٠ـ٤٤١.

(٥) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص ٦٢ـ٦٣ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٦.

(٧) محمد جميل بيهم ، الحلقة المفقودة ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، اولى ١٩٥٠ ، ص ٥٠ وايضا : عبد العزيز عوض، ص ٣ ٩.

(٨) ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ، تحقيق غسان سبانو ، دمشق ، دار قتيبــــة ، ١٩٨١ ، ص ٨١ .

(٩) سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، المطبعة العلمية ليوسف صادر ، بيـروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٣٢ ـ١٣٣

(١٠) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول ، المطبعة السورية ، مصر الجديدة ، تحقيق الخوري بولس قرالي ، ١٩٢٧، جـ٢ ، ص١٤ .

(١١) Perrier, **La Strie sous le gouvernement de Mehemet-Ali**, Paris, 1840, p. 52 - 53 .

(١٢) اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ،٥ اجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ ، ج٢ ،ص ٥٠ .

(١٣) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا .. المرجع السابق ، ج٢ ص ٢٣.

(١٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٢ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(١٥) أسد رستم ، المرجع نفسه، جـ ٣ ، ص ٧٢ .

(١٦) أسد رستم ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١٧) سليمان ابو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، ويعتبر الجنرال سيف (سليمان باشا) مؤسس جيش محمد علي وفق النظم الاوربية ، وقد رافق ابراهيم باشا ، انظر : محمــد فؤاد شكري واخرون ، بناء دولة مصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٤٦ وايضا اسد رستم ،الاصولالعربية، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(١٨) Perrier, op. cit., p. 53.

وايضا محمد كرد علي ، خطط الشام ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٥، جـ ٣ ص٧٥.

(١٩) أسد رستم ، بشير بين العزيز والسلطان ، جزءان ، الجامعة اللبنانية بيروت ، ١٩٥٦ ـ١٩٥٧، جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢٠) عبد الكريم غرايبة ، سورية في القرن التاسع عشر ، جامعة الدول العربية ، دار الجيل للطباعة ، القاهرة ، ٩٦١ — ٩٦٢ ص ٧١-٧٢ . ومن الجدير بالذكر ان كل المصادر تعود بفصل حلب عن مديرية الشام الى عام ٨٣٨ ١، بينما يشير الدكتور عبد العزيز عوض الى ذلك في الصفحة ٦٤من كتابة « الادارة العثمانية في ولاية سورية » مستندا الى المحفوظات الملكية للدكتور اسد رستم، الجزء الثاني ، ص ٤٣٤ ،بيد ان ماجاء في هذه الصفحة لا يؤكد مثل هذا الامر حيث وردت العبارة التالية في الصفحة نفسها « الجناب العالي الى اسماعيل بك بوجوب حضوره الى الاسكندرية ليقوم منها الى حلب امتثالا لامر السرعسكر » حيث لاتؤكد هذه العبارة فصل حلب عن الشام وتعيين اسماعيل عاصم بك مديرا عليها .

(٢١) وهو الطبيب الفرنسي الذي ساهم في تاسيس الاصلاحات الطبية في مصر واشرف على تنظيم المدارس في بلاد الشام ، وقد ظل في خدمة ادارة محمد علي فيها حتى عام ١٨٤٠م . انظر محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٢٢) انظر اسد رستم ، الاصول العربية ج ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٢٣) سليمان ابو عز الدين ، المرجع السابق ،ص ١٣٤ .

(٢٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ١ ص ٥٥ ، ج ٣ ، ص ٤٨، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٥) اسدر ستم ، المرجع السابق ،ج٣،ص١٢١ وممن اشتهروا بهذه الوظيفة المعلم حنا مباشر خزينة حلب والخواجة شكري مباشر خزينة عينتاب .

(٢٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، وايضا سليمان ابو عز الدين مذكور سابقا ، ص ١٣٥ .

(٢٧) وقد شغل هذا المنصب خلال احداثه ابان حكم محمد علي في بلاد الشام الامير محمود نامي احد اقارب محمد علي انظر اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٣ ،ص٤٧ ، ٢٥٤ ، ج٤ ،ص٤٥، ١٦١.

(٢٨) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ وايضا سليمان ابو عز الدين ، ص١٤١ .

(٢٩) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

(٣٠) المرجع السابق،ج٣ ، ص ١٤٦،١٥٢-١٥٣

(٣١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤١-٤٣ .

(٣٢) Perrier , OP. Cit ., P. 78.

(٣٤) نادر العطار ، تاريخ سورية في العصور الحديثة ، مطبعة الانشاء دمشق ، ١٩٦٢ ، ج ١ ،ص١٦٨.

(٣٥) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير ٤ اجزاء ، بيروت ١٩٤٠ — ١٩٤٣، ج ٤،ص١٠١ .

(٣٥) د . اسد رستم ، المرجع السابق .

(٣٦) Perrier , OP. Cit., P. 64.

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣٩) سجلات المحاكم الشرعية ، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، دفتر رقم ٣٢٥،ص ٥ ، ٩ ، ٩٨، ١٩٩ ، ١١٥ .

(٤٠) سليمان غنام ، قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية ١٨١١ – ١٨٤٠ ، مطبعة دار تهامة جدة ، ط اولى ، ١٩٨٠ ، ص ١٣–١٤ ، وايضا ذوقان قرقوط،تطور الفكرة العربية في مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٩٠ .

(٤١) وهم ، من المسلمين : عبد الفتاح حمادة ناظر المجلس ، عمر بيهم ، احمد العريس، حسن البريد امين رمضان ، احمدجلول، ومن المسيحيين : جبرائيل الحمصي ، بشارة نصر الله ، اليساس منسا ، ناصيف مطر ، يوسف عيروت ، موسى يطرس. انظر : مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا في سورية والاناضول ، ص ٣٧ .

(٤٢) سليمان ابو عز الدين ، ص ٣٦ ١.

(٤٣) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، جـ٣ ، ص ٤١٧ – ٤١٨ .

(٤٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، جـ٣ ،ص١٠٩ ، محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، مطبعة الترقي، دمشق ، ١٩٥٢ ،ص١٦ وايضا .

(٤٥) صفوح خير ، غوطة دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ،١٩٦٦ ص٢٢٨،

(٤٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، جـ٣ ، ص٢٠٢.

(٤٧) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٤٣ .

(٤٨) ميخائيل مشاقة ، منتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب ، تحقيق اسد رستم وصبحي ابو شقرا ، بيروت ، مطبوعات مديرية الاثار اللبنانية ، ١٩٥٥ ، ص١٤ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٢٢، ٢٣، ٢٩ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص٧٠.

(٥١) طنوس الديان ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٩٣ .

(٥٢) عبد الكريم غرايبة ، ص ٤٧ .

(٥٣) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٥٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، جـ٣ ، ص ١٠٩ ، ١٨٦.

(٥٥) انقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٦٢ .

(٥٦) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

(٥٧) اسد رستم ، الاصول العربية ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩.

(٥٨) المرجع نفسه ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

(٥٩) الخوري بولس قرالي ،فتوحات ابراهيم باشاالمصري فيفلسطين ولبنان وسورية مطبعة القديس بولس ، لبنان ، حريصا ، ١٩٣٧ ، ص ٣٦–٣٧ .

(٦٠) هنري غيز ،بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ، ترجمة مارون عبود ، منشورات وزارة التربية اللبنانية ، جزءان ، ط الاولى ، بيروت ، ١٩٥٠ ،جـ٢ ، ١٦٢–١٦٣.

DIRAŠAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

Commité de lecture :

CHAKER FAHHAM ... ... Directeur

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFFEL

NAZEM KALLAS ... ... Redacteur en chef

7e annèe, N° 23 - 24, sept. - dec., 1986


Bibliotheca Alexandrina
05336051
